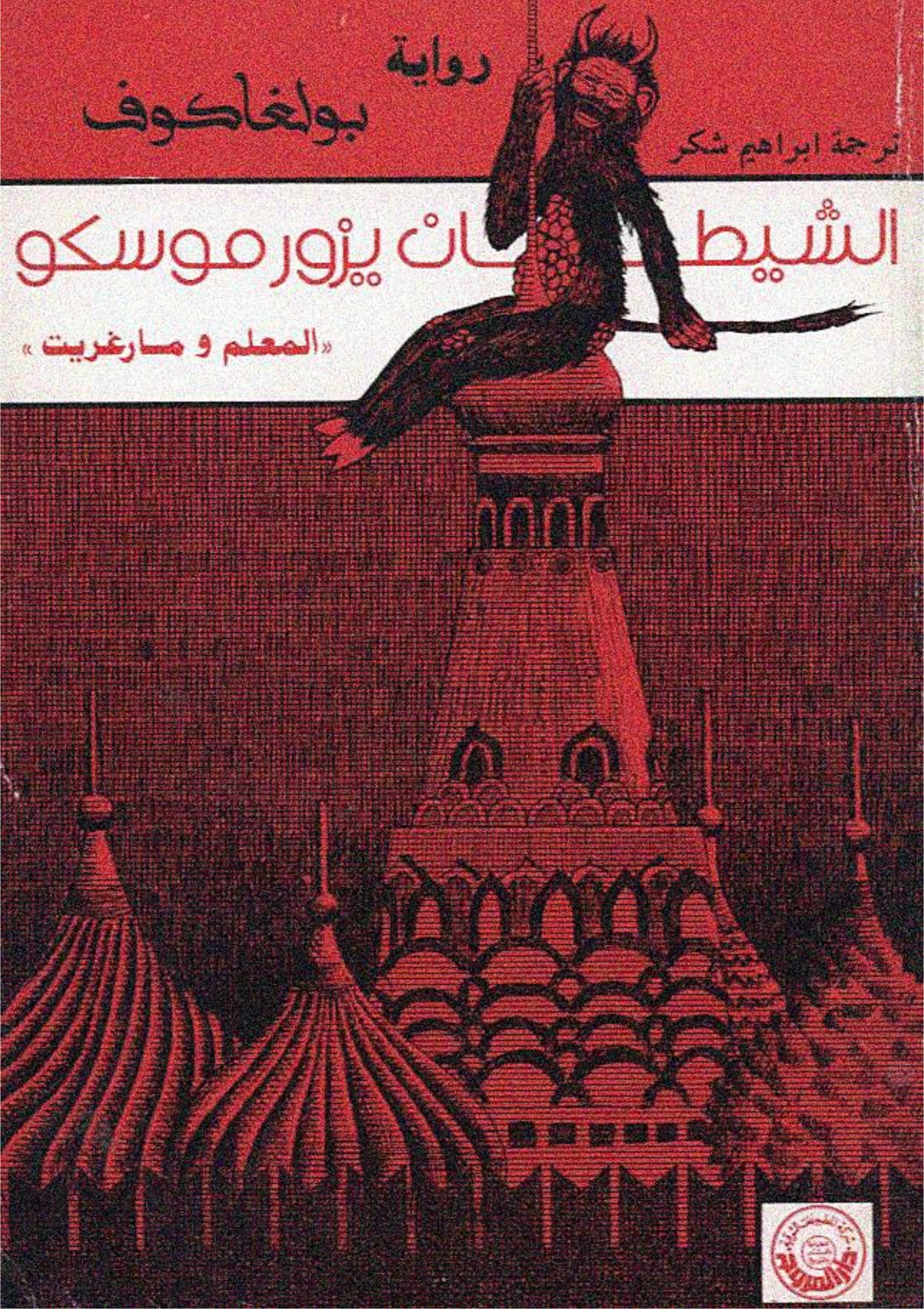
رواية

بولغاكوف

ترجمة ابراهيم شكر

الشيطان يزور موسكو

«المعلم و مارغريت»



«المعلم و مــارغريت »

بولغاكوف

رواية

الشيطان يزور موسكو

«المعلم و مارغريت»

ترجمة ابراهيم شكر

شركة المطبوعات الشرقية
دار المروج
١٩٨٦

دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ١٩٨٦

ـ والآن قل من أنت ؟!

ـ أنا جزء من تلك القوة،

القوة التي تريد الشر أبداً وتعمل الخير أبداً.

غوته

من فاوست

« من المؤسف أن ينسى الصديق صديقه، فالأصدقاء قليل، وقلّ من له صديق. وأخاف أن أصبح غداً كالكبار من الناس الذين لا يهتمون لغير الأرقام ».

من كتاب الأمير الصغير

أهدي ترجمة هذه الرائعة إلى صديقي النبيل: Unna Bogdanova

ابراهيم شكر

رائعة بولغاكوف
« المعلّم ومارغريت »

قبيل وفاته بقليل عام ١٩٤٠، أنهى الأديب السوفياتي ميخائيل بولغاكوف روايته الرائعة: المعلّم ومارغريت، بعد اثني عشر عاماً من العمل.

وكان حلمه أن تُطبع وتُنشر في حياته.. لكن الحلم لم يتحقق. وظلّت الرواية سجينة حتى اعترفت بها المحافل الموسكوبيّة الأدبيّة في عام ١٩٦٧، إذ أنّها نشرت على صفحات مجلّة « موسكو »، ثم عادت وصدرت في كتاب وطُبعت عشرات بل مئات المرّات.

وحينما صدرت في طبعتها الأولى، أتت السيّدة إيلينا بولغاكوفا إلى مقبرة « نوفي دڤيتشي » لتزفّ البشرى إلى الأديب الراقد رقاد الأبد في رمسه، ولتخبره بأن حلمه قد تحقّق. وعند القبر رأت مواطناً يضع باقة من الأزهار تكريماً لذكرى صاحب الرواية المذهلة. وسألته السيّدة ممتنّة عن اسمه وعنوانه. وأرسلت له بعد أيام مكافأة مالية، كان زوجها الأديب أوصى بها لواضع باقة الأزهار الأولى على ضريحه!...

كان الأديب موقناً بأن روايته ستطبع وسيردّ لها الاعتبار وستطبّق شهرتها الآفاق وتأخذ مكانها اللائق في عالم الأدب.

واليوم... اجتازت الرواية الحدود وها هي تطوف في أرجاء الأرض بلغاتها المتعدّدة، وتمثّل على خشبات المسارح وتُعرض في دور السينما، ويقرأها الاسباني والفرنسي والانكليزي والإيطالي، بعد أن قرأها الروسي وأبناء الجمهوريات السوفياتية، وأخيراً سيقرأها القاريء العربي..

فيا أيها الأديب الكبير!

نم قرير العين، في مثواك الأخير، لقد أدّيت قسطك للعلى، وروايتك الرائعة حطّمت القيود، واجتازت الحدود، وأذابت بوهجها جبال الجليد، وانتشرت، وطُبعت مرّات ومرّات.

اطمئن!

« فالكتب لا تحترق » هكذا قال أحد أبطالك. والكلمة من نار ونور، لا تنكسر ولا تزول، إذ أنّها في البدء كانت، ومجدها باقٍ حتى منتهى الدهور!.

ـ ابراهيم شكر ـ

الفصل الاول

لا تحدِّثوا الغرباء أبداً

ذات ربيع، في ساعة أصيل قائظ، ظهر رجلان بجوار البرك البطريركية؛ الأوّل قصير القامة بديناً أصلع، يرتدي بزّة صيفيّة رمادية ويمسك بيده قبّعته الفاخرة، وكأنّها الفطيرة، وعلى وجهه المحلوق بعناية تستقر نظّارة سوداء صنعت من عظم القرون. أمّا الثاني فكان شابّاً في مقتبل العمر، عريض المنكبين، تدلّت خصل من شعره الأشقر من تحت «كبكة» مقطّعة بترابيع، أمامها حتى قذاله. يرتدي قميصاً من نوع «كوبويكا» وبنطالاً أبيض مكسّراً وينتعل حذاءً أسود.

إنّهما ميخائيل ألكسندرفتش برليوز، رئيس إحدى الرابطات الموسكوبية الأدبية الكبرى، المعروفة، اختصاراً، باسم «ماسوليت»، والمحرِّر في مجلّة أدبيّة سميكة، والشاعر الشاب إيفان نيقولايفتش بونيريف، الذي ينشر تحت اسم: «بزدومني» المستعار.

وعندما أصبح الرجلان في ظلال أشجار زيزفون، في بدء اخضرارها، رأيا أن من أولى واجباتهما قصد كشك أرقش مزخرف بالنقوش، وبكلمتي «جعة ومياه».

ما يجدر ذكره هو أن تلك الأمسية من أماسي شهر أيّار كانت غريبة ومخيفة. فقد كان المكان المحيط بالكشك خالياً من الناس، مقفراً، وكذلك الممر الموازي لشارع «مالايا برونّايا»: في تلك الساعة إذ تضيق على الإنسان نفسه، وإذ تحرق الشمس موسكو وهي تسبح في الضباب وراء مستديرة «السادوفايا»، لم يأتِ أحد ليتفيّأ ظلال الزيزفون، أو يستريح على المقعد.

وطلب برليوز:

ـ هاتي نرزانا(★).

فأجابت المرأة البائعة في لهجة غاضبة دون معرفة السبب:

ـ لا يوجد نرزانا.

واستوضح بزدومني بصوت أبحّ:

ـ وجعة... أيوجد عندك جعة؟

(★) نرزانا: نوع من المياه المعدنية.

ـ يأتوننا بالجعة مساءً .

ـ وماذا يوجد عندك ؟

ـ أبريكوسوڤيا ، ولكنّها ساخنة .

ـ إذن هاتي ، هاتي ، هاتي . .

وفارت الأبريكوسوڤيا برغوة صفراء غزيرة ، وانتشرت في الهواء رائحة كتلك التي تنبعث من صالونات الحلاقة . وبعد أن ارتوى الأديبان صارا « يحزّقان » ، ونقدا البائعة الثمن ، ثم جلسا على مقعدٍ مولّيين وجهيهما ناحية البرك ، فأصبح شارع « برونّايا » وراءهما . وهنا حدث لبرليوز أمر خارق ، فجأة لم يعد « يُحزّق » ! وخفق قلبه ، قلبه الذي انخطف لحظة ثم عاد وكأنّ إبرة حادّة استقرَّت فيه . وافترسه خوف شديد ، ورعب لم يعرف له سبباً جعله يفكّر بالفرار من دون التفات إلى الوراء . وتأمّل برليوز المكان مَكروباً ، وهو لا يدري لخوفه سبباً ؛ مسح جبهته بمنديل وطفق يفكّر وقد شحب لون وجهه : « تُرى ماذا يحدث لي ؟ لم أعرف مثل هذا من قبل . القلب يخفق وأنا مضنى متعب . آن لي أن أترك كل شيء وأمضي إلى كيسلفودسك ! . » .

عندئذٍ ، تكثّف الهواء الحار أمامهما ، وبان عنه انسان سويّ ، شفّاف ، غريب الهيئة ، على رأسه الصغير قبّعة كتلك التي يعتمرها « الجوكيّون » ، يرتدي سترة ضيّقة شفّافة ذات ترابيع ، طويل القامة ، لكنّه لم يكن عريض المنكبين ، بل كان نحيفاً ، ونحافته زائدة ، وإذا توخّينا الدقّة قلنا : إن هيئته تُوحي بالسخرية .

لم يعتد برليوز الحوادث الغريبة الخارقة ، فزاد لون وجهه شحوباً وشَرَع يفكّر ذاهلاً وهو يمسح عينيه : « هذا غير ممكن أبداً ! » . لكن ويح قلبي ! إنّه ممكن بل وأكثر من ممكن . . . والبرهان هو هذا المديد القامة الذي كان يتمايل أمام برليوز يُمنةً ويُسرى دون أن يلمس الأرض ! ! .

وتملّك الرعب برليوز فأغلق عينيه ، ولـمّا فتحهما كان كل شيء قد انتهى وتبدّد السراب واضمحلّ ، واختفت الترابيع وصاحبها ، وانتزعت من القلب تلك الإبرة التي كانت تخزه منذ لحظات ، وما لبث المحرِّر أن هتف :

ـ ليُخزَ الشيطان ، كاد الحرّ يسبّب لي نوبة قلبية . لقد أُصبت بما يشبه الهلوسة ! . وتضاحك ، غير أن الجزع كان يلوح في عينيه ، ويداه كانتا ترتجفان ، لكنه سرعان ما هدأ وسكن روعه ، فمسح وجهه بمنديل ، وهتف بنبرة كلّها قوة وحيويّة : « أجل . . . » وواصل حديثاً قطعه شرب « الأبريكوسوڤايا » .

كان الحديث ، (حسبما عرف فيما بعد) ، يدور عن يسوع المسيح ، وعن مطوّلة شعرية إلحادية ، سبق للمحرِّر أن طلب من الشاعر كتابتها لنشرها في الكتاب الدوري الذي

تصدره المجلّة. لقد نظم الشاعر إيڤان نيقولايڤتش قصيدته في وقت قصير جداً. لكنَّها، للأسف، لم ترضِ المحرِّر. لقد رسم بزدوmني شخصية يسوع، وهي الشخصية الرئيسية في القصيدة، بألوان سوداء قاتمة، ومع ذلك كان عليه إعادة ما كتب من جديد. وها هو المحرِّر يلقي على مسامع الشاعر ما يشبه المحاضرة عن يسوع، ليظهر له غلطته الأساسية.

لا أحد يدري: أكانت قصيدة بزدومني هذه، هي ثمرة الموهبة الخلاَّقة، أم ثمرة الجهل الكامل بالموضوع؟. المهم أنّ ريشته أخرجت يسوعاً إنساناً سويًّا، وإن لم يكن ذا شخصية جذّابة. وبرليوز أراد أن يبرهن للشاعر أن المسألة ليست في كون المسيح صالحاً أم شريراً، إنما هي في أن لا وجود للمسيح أساساً، وأن القصص التي تُروى عنه إنَّما هي أوهام من نسج الخيال، وأقرب إلى عالم الأساطير منها إلى عالم الحقيقة.

الجدير بالذكر هنا هو أن المحرِّر كان إنساناً مثقَّفاً واسع الاطلاع، ويملك قدرة فن إسناد أحاديثه ودعمها بشهادات قدامى المؤرِّخين، أمثال: فيلون الاسكندراني الشهير، ويوسف فلافيا، العالم الكبير الواسع الثقافة، اللذين لم يأتيا على ذكر المسيح ولو بكلمة واحدة. وفي لحظة تجلّي البراهين الدامغة لميخائيل ألكسندروڤتش أعلن، عرضاً، للشاعر، أنه حتى الإصحاح ٤٤ من إصحاحات تاتسوتيف الشهيرة، الذي يروي موت المسيح، ما هو إلاَّ حكاية ملفَّقة.

الشاعر الذي كان يصغي بانتباه إلى حديث المحرِّر، اكتفى بأن ثبَّت على المحرِّر عينين خضراوين، تفيضان حياة، وكان «يحزِّق» من وقت لآخر، شاتماً في سرِّه ماء الأبريكوسوڤيا.

واستطرد برليوز:

ـ لم تخلُ ديانة شرقية من قصَّة عذراء تلد إلهاً مخلِّصاً. ولم يأتِ المسيحيون بجديد حينما أوجدوا مسيحاً لم يكن في يوم من الأيام حقيقة واقعيّة.

ودوى صوت برليوز عالياً في الممرّ المقفر. ومع توغّله في حديثه العميق، الحديث الذي لا يجرؤ على التوغّل في مجاهله، دون أن يعثر أو تلوى عنقه، إلاَّ من أُوتي حظًّا كبيراً في سعة الاطّلاع، قلنا مع توغّل المحرِّر في ذلك الحديث، كانت تتَّسع حلقة معارف الشاعر فيزداد علماً بالإله المصري أوزيريس، المبارك ابن السماء والأرض، وبالإله الفينيقي تموز، وبماردوك، وبالإله الرهيب فيتسليبوتسلي، الذي ألَّهه الأزيتيكيون في المكسيك ردحاً من الزمن.

وفي اللحظة التي كان ميخائيل ألكسندروڤتش يقصّ فيها على مسامع الشاعر كيف صنع الأزيتيكيون تمثالاً من العجين لإلههم فيتسليبوتسلي، في هذه اللحظة عاد وبان في الممر الشخص الذي ظهر أوَّل مرَّة، منذ بعض الوقت.

فيما بعد، ـ بصراحة ـ، وبعد فوات الأوان، قدَّمت « مؤسسات مختلفة » تقاريرها عن هذا الشخص، وهذه التقارير كانت متناقضة بشكل مُثير للدهشة. ففيما كُتِبَ في أحداها أن هذا الانسان كان قصير القامة، أسنانه من ذهب، يعرج من رجله اليمنى، جاء في تقرير ثان أنّه عملاق، ولبّس أسنانه بالپلاتين!، وعرجه كان من عيب في رجله اليسرى. وفي تقرير ثالث مقتضب ذُكِر أنّه كان دون علامات فارقة.

والحقّ، أنّه لا بدّ من الاعتراف، بأنَّ كلّ تلك التقارير، كانت عديمة الفائدة، وغير مجدية. فالرجل لم يكن يَعْرُج على أي رجل، ولم يكن قميئاً قصيراً، ولا عملاقاً جبّاراً، وإنّما كان طويلاً. أمّا أسنانه فقد لُبِّست من الناحية اليسرى بالپلاتين، ومن الناحية اليمنى بالذهب. يرتدي بزّة رمادية غالية الثمن، وينتعل حذاءً مستورداً بلون البزّة. وكان يميل قبّعته على أذنه في نزق. ويتأبّط عصا سوداء القبضة، لها شكل رأس كلب (پودال)، ويدلّ مظهره على أنّه جاوز الأربعين، فمه ملتوٍ ـ أو هكذا يبدو ـ حليق، أسود الشعر، أسود العين اليُمنى وأخضر العين اليُسرى، أسود الحاجبين، غير أن أحد حاجبيه كان أعلى من الآخر. خلاصة القول: كان شخصاً غريباً.

أثناء مروره أمام المقعد الذي جلس عليه المحرِّر والشاعر، حدجهما بنظرة، ومن ثم توقّف وجلس على مقعد مجاور، بعيداً عنهما مسافة خطوتين.

فكّر برليوز: « إنّه ألماني ».

وفكّر بزدومني: « إنكليزي. ويحه ألا يشعر بحرارة الطقس وهو يلبس قفّازات ».

رشق الأجنبي البيوت العالية بنظرة، تلك البيوت التي كانت تحيط بالبرك من كل جانب، وبدا أنه يرى المكان لأوّل مرَّة، واستقرَّت عيناه على الطوابق العليا وقد تكسّر على زجاجها شعاع من شمس المغيب، وهي تدرج ساطعة مبتعدة عن ميخائيل ألكسندروڤتش. بعدها جال نظره على زجاج النوافذ التي بدأت تتسربل بالظلام، ثم افترَّ فمه عن ضحكةٍ رقيقةٍ ليِّنة، لخاطر ما، زرَّ عينيه، وضع يديه على قبضة العصا وأسند ذقنه إليها.

وأكمل برليوز:

ـ « أصبت يا إيڤان وأجدت بوصفك، أو بالأحرى بهجائك، لميلاد المسيح ابن الله، إلاّ أنَّ جوهر القضية هو أنَّ طائفة كاملة من أبناء الله وُلِدت قبل يسوع، مثل أتيس الفريكسكي، والحقّ إنَّه لم يولد أحد من هؤلاء، وكذلك يسوع، وكان الأجدر بك بدلاً من وصف الميلاد وقدوم الرعيان، تناول تلك المزاعم الخرقاء في طريقة لا تحمل الاعتقاد بأنَّ المسيح وُلِدَ حقًّا ».

وهنا حاول بزدومني أن يوقف « حزّوقة » طالما عذّبته فحبس أنفاسه، مما جعله « يحزّق » بصوت أعلى ويتألَّم أكثر. في هذه اللحظة توقَّف برليوز عن الكلام، لأنَّ الغريب نهض

فجأة من مكانه ومشى نحو الكاتبين، اللذين صارا يتأمَّلانه بتعجّب، وتكلّم بلهجة أجنبية دون أن تشوّه لكنته كلماته:

ـ أرجو المعذرة لأنّني لا أعرفكما، ومع هذا سمحت لنفسي... إن موضوع حديثكما العلمي على جانب كبير من الأهميّة، بحيث أنني...

وهنا خلع (البريه) بتهذيب، بحيث لم يبق أمام الصديقين إلاَّ القيام ومبادلته التحية.

رفكّر برليوز: «إنّه فرنسي على الأرجح».

وتساءل بزدومني: «بولوني؟».

ومما يجدر ذكره، أن الغريب ترك أثراً مُنفّراً على الشاعر منذ تفوّهه بالكلمات الأولى، فيما استحوذ على إعجاب برليوز، أو بالأحرى أثار اهتمامه.

وسأل الغريب بتهذيب كاد يكون عفويًّا:

ـ أتأذنان لي بالجلوس؟

ووسّع الصديقان له فجلس بينهما بأدب، ثم اشترك في الحديث فوراً:

ـ إذا لم أكن مخطئاً فكأنّني سمعتكما تقولان إنَّ المسيح لم يوجد قط؟

سأل الأجنبي وهو ينظر إلى برليوز بعينه اليسرى الخضراء. فأجاب برلبوز بتهذيب:

ـ كلاّ، لم تخطىء، هذا ما قلت.

فهتف الأجنبي:

ـ آه، يا له من موضوع طريف!

حينما سمع بزدومني هذه الكلمات، قطّب ما بين حاجبيه وفكّر: «وما شأنه بهذا؟».

وتلفّت الأجنبي إلى اليمين، ووجّه السؤال إلى بزدومني:

ـ وأنت موافق على كلام محدّثك؟

ـ مئة بالمئة!. أكّد الشاعر الذي كان يحب استخدام المجاز والتفنّن في التعبير.

ـ عجيب غريب!.

هتف الطفيلي، وتلفّت حوله كلصّ، ولغايةٍ ما خفّض صوته، الخافت أصلاً، وقال:

ـ أرجو منكما المعذرة على تطفّلي. ما فهمته، أنّكما عدا عن ذلك لا تؤمنان بالله؟.

وأردف، وقد بدت في عينيه علامات الهلع: «أقسم لكما بأنّي لن أبوح بهذا السرّ لأحد».

أجاب برليوز وقد ارتسمت على وجهه مخايل ابتسامة ساخرة من حذر السائح وخوفه:

ـ أجل. نحن لا نؤمن بالله... ويمكننا التحدّث في هذا بحرية مطلقة.

واستوى الغريب في جلسته، وأسند ظهره إلى الوراء، وهتف بصوتٍ أقرب ما يكون إلى الزعيق:

ـ أنتما إذن دهريّان؟

فأجاب برليوز مبتسماً:

ـ أجل نحن دهريّان ملحدان.

أما بزدومني ففكّر في غضب: من أين أتانا فرخ الإوز الغريب.

ـ يا للروعة!...

بهذا هتف الأجنبي العجيب، وهو ينقل نظره بين الأديبين، يتأمّل كلّ منهما على حدة.

وما لبث برليوز أن قال بلباقة الديبلوماسي ولطفه:

ـ الإلحاد في بلادنا لا يُدهش أحداً، وغالبية شعبنا، عن وعي كامل، لم تعد تؤمن بالخرافات والأساطير الدينيّة عن الربّ.

وهنا أتى الأجنبي عملاً غريباً: نهض وشدّ على يد المحرّر المذهول وقال:

ـ اسمحا لي أن أشكركما من أعماق قلبي!.

واستوضح بزدومني، وقد طرفت عينه:

ـ على أي شيء تشكره؟.

فأجاب الأجنبي، الغريب الأطوار وهو يرفع إصبعه دالاً على أهمية ما يسمع:

ـ أشكره على معلومات قيّمة، تهمّني معرفتها كثيراً كرحّالة.

بدا وكأنّ لهذه الشهادة الهامّة تأثيراً كبيراً على المسافر، إذ أنّه شرع يتأمّل البيوت هلعاً، فكأنه كان يخشى أن تقع عيناه في كل زاوية على كافر.

وفكّر برليوز: «لا إنّه ليس انكليزياً».

أما بزدومني ففكّر: «أين تعلّم التحدّث باللغة الروسيّة هكذا؟ هذا أطرف ما في الأمر!». ثم عاد وعَبَس.

وبعد تفكير مقلق، قال الضيف الغريب:

ـ اسمحا لي أن أسألكما ما رأيكما في تلك البراهين على وجود القدرة الإلهيّة. البراهين الخمسة المعروفة؟.

أجاب برليوز آسفاً:

ـ ويح قلبي! لا قيمة لأي برهان منها، لقد تخطّتها الإنسانيّة ووضعتها في أرشيف النسيان؛ ولا بدّ أنّكم توافقون على أنّ لا ظلّ لدليل على وجود الله تحت شمس العقل.

وهتف الغريب:

ـ عظيم! عظيم! إنّكم تعيدون ما فكّر به وأعلنه العجوز القلق عمانويل كانط. ولكن أليس غريباً أنّه بعدما دحض البراهين الخمسة دحضاً قاطعاً، عاد فاجتهد، وكأنّه يسخر من نفسه، وجاء ببرهان سادس.

ـ «برهان غير مُقنع أيضاً» ـ أجاب المحرّر المثقّف مُعترِضاً، وارتسمت على وجهه

ابتسامة رقيقة وأكمل: وليس من قبيل المصادفة أن أعلن شيلر: « إنَّ أقاويل كانط في هذا الموضوع، لا تقنع سوى العبيد فقط». أمَّا شتراوس فسخر بكل بساطة من تلك البراهين.

قال برليوز هذا، وفكَّر في الوقت نفسه: «ومع ذلك من عَسَاه يكون هذا الرجل، وكيف يجيد التحدُّث بالروسيّة؟!.».

وفجأة، قال إيڤان نيقولايڤتش:

ـ يستحق ذلك الكانط على براهينه تلك، ثلاث سنوات سجن في سالوفكي.

وهمس برليوز مرتبكاً:

ـ إيڤان!...

فكرة إرسال كانط إلى سالوفكي لم تُدهش الغريب وحسب، بل صعقته. فهتف وقد لمعت عينه الخضراء اليسرى المثبَّتة على برليوز:

ـ أجل! أجل! لا شكَّ في أنَّ له هناك مكاناً لائقاً به، كيف لا وقد حدَّثته بنفسي حينئذٍ على مائدة الإفطار. قلت له: عفوك يا حضرة البروفسور، لقد أتيت بفكرة غير لائقة، قد تكون ذكية، إلاَّ أنَّها غامضة كثيراً، وسيسخرون منك كثيراً.

وجحظت عينا برليوز: على مائدة الإفطار، خاطب كانط!؟. بماذا يهرف ويدجِّل؟.

وأكمل غريب الديار حديثه مخاطباً الشاعر، دون أن يعر استغراب برليوز أدنى اهتمام:

ـ «غير أن إرساله إلى سالوفكي، يبدو مستحيلاً، لأنَّه يقطن منذ أكثر من مئة عام في مكانٍ أبعد بكثير من تلك المدينة، وجرّه من هناك مسألة صعبة، بل ومستحيلة، حقاً...».

ـ مسكين يستحق الشفقة.

ـ وأنا أشفق عليه. ـ أكَّد الغريب وقد لمعت عينه، وما لبث أن أكمل: مسألة واحدة تهمّني، بل وتقلقني، هي أنَّه لو سلَّمنا بمسألة عدم وجود الله، فمن يدبِّر، إذن، الحياة البشرية ويضبط ناموس الأرض؟.

وسارع بزدومني، فأجاب، غاضباً، عن سؤال والحقّ أنَّه غير واضح تماماً:

ـ الإنسان هو المدبِّر وحده.

ـ عفواً، ـ ردَّ المجهول بلين ـ لكي يتولَّى الانسان أمر التدبير، يجب عليه أن يملك تصميماً دقيقاً لفترة زمنية معيَّنة، اسمحا لي أن أسألكما: كيف يكون في وسع الانسان أن يدبِّر، إذا كان عاجزاً عن وضع تصميم لفترة زمنية قصيرة، تثير، لقصرها، الضحك، فترة ألف سنة مثلاً!، بل إنَّه لا يعرف حتى ماذا يكسب غداً؟.. وفعلاً: ـ وهنا التفت الغريب إلى برليوز ـ وأكمل: تصوّروا أنَّكم أنتم مثلاً بدأتم بالتدبير والتصرّف بمصائر الآخرين وبمصيركم، واستسغتم طعم عملكم هذا، وفجأة إخ... إخ... يظهر ورم خفيف؛ ـ وأطلق

الأجنبي ضحكة خبيثة، كأنّ ذكر الورم الخبيث شرح له صدره فراح يكرّر هذه الكلمة الرنّانة وقد أغمض عينيه كالهرّ: ورم... أجل ورم... وتنتهي حينذاك فترة إدارتك. ولن يعود يهمّك مصير أحد غير مصيرك. وسيبدأ الأقارب بالكذب، وبعد أن تدرك ما وصلت إليه حالتك، من سوء ستهرع لائذاً بالنطاسيين من الأطباء، وتستنجد بالمشعوذين، والعرّافين، ولن ينفعك هؤلاء جميعاً، لا الأوّلين منهم ولا التالين، ولا بدّ أنّك تعرف هذا. أمّا النهاية فمأساوية حتماً، فذاك الذي افترض من قليل أنّه يدبّر العالم بإرادته، تراه جثّة هامدة، سُجّيت في تابوت خشبي، والذين من حوله يعمدون إلى حرقه بعدما يدركون أن لا فائدة تُرجى منه. وقد تحدث أمور أسوأ، مثلاً: انسان يتهيّأ للسفر إلى كيسلفودسك، - وغمز الأجنبي بعينه، مشيراً إلى برليوز - حتى هذه الرحلة التي تبدو سهلة ويسيرة، لا يقدر أن يقوم بها، لأنّه دون أن يعلم السبب، يتزحلق فجأة ويقع تحت عجلات الترام. هل بإمكانكم القول، بعد هذا، أنّ الانسان مدبّر نفسه؟ أليس من الأصح التفكير أنّ الذي يدبّر هو قُوّة ما غير الانسان؟!.

قال الأجنبي هذا وانفجر بضحك غريب.

وأصغى برليوز بقلبه وأذنيه إلى الحكاية المُكْرِبة عن الورم والترام، وبدأت الأفكار المقلقة تعذّبه، وفكّر: «الرجل ليس أجنبيًّا! إنّما هو انسان غريب الأطوار. فمن عساه يكون؟».

التفت المجهول بغتة نحو بزدومني وسأله:

- كما أرى تريد أن تدخّن... أي نوع من السكائر تُفضّل؟

فسأل الشاعر بوجوم وقد فرغت علبة سكائره:

- وهل عندك سكائر منوّعة؟

وأعاد الغريب:

- أي نوع تفضّل؟

فأجاب بزدومني حانقاً:

- «ماركتنا».

وسحب الغريب من جيبه، دون إبطاء، علبة سكائر، وعزم بزدومني على «ماركتنا».

لم يُثر استغراب الشاعر والمحرّر أمر العثور على ذلك النوع من السكائر في العلبة، بقدر ما أثارت استغرابهما العلبة نفسها. كانت ذات حجم كبير، صيغت من الذهب الخالص، ورُسِم على سطحها مثلّث ماسيّ يتوهّج، حين فتحها، بنارٍ بيضاء وزرقاء.

واختلف الأديبان بتفكيرهما:

فكّر برليوز: «إنّ الرجل لا بدّ غريب».

أمّا بزدومني فقال في قرارة نفسه: « ليخطف الشيطان روحه! من أين أتى؟ ».

ودخّن الشاعر وصاحب العلبة. أمّا برليوز فلم يكن من المدخّنين.

وشدّ برليوز من عزيمته وأعلن ما جال في رأسه:

ـ الإنسان كائن فانٍ. لا ريب في ذلك، إنّما...

لكنّه ما كاد يتلفّظ بكلماته، حتى بادره الأجنبي بالقول:

ـ « مسألة موت الإنسان وفنائه نصف مصيبة. أمّا المصيبة فهي أنّ الموت يدرك الإنسان، أحياناً، فجأة. وليس بمقدوره حتى آن يقول ماذا سيفعل آخر يومه ».

وفكّر برليوز: « يا للمسألة التافهة ». ثم ما لبث أن أجاب:

ـ هذه مغالاة! فأنا أعلم ماذا سأفعل هذا المساء، وإن كنت أخمّن ذلك تخميناً، هذا إذا لم تسقط على رأسي آجرة في شارع (برونّايا)...

لكنّ الرجل المجهول قاطعه، برصانة، قائلاً:

ـ « لن تسقط على رأسك آجرة... أؤكّد لك بأنّ الآجر لا يهدّد حياتك! إنّما تنتظرك منيّة أخرى!. ».

ـ ربّما تعرفون سبب تلك المنيّة، فتعلنوه لي. ـ قال برليوز كلماته بلهجة تهكميّة واضحة، وقد استُدرج إلى الحديث السخيف من حيث لا يعلم.

فردّ الغريب:

ـ « بكل طيبة خاطر »، وتفحّص برليوز بنظرة، كأنّه همّ بأن يفصّل له بذلة، وصرّ أسنانه وتمتم: « واحد، اثنان... عطارد في البيت الثاني... غاب القمر... ستة تعاسة... مساء ـ سبعة »، ثم أعلن بصوت مرتفع يتجلّى الفرح بنبراته:

ـ سيبترون رأسك!...

وحملق بزدومني بالغريب حانقاً ساخطاً. أمّا برليوز فتكلّف ابتسامة خبيثة وسأله:

ـ ومن الذي سيقطع رأسي: الأعداء؟ أم المرتزقة؟...

فأجاب الأجنبي:

ـ لا!. إنّما سيُقطع على يد امرأة روسيّة من « الكمسمول ».

ـ إحم!... غمغم برليوز وقد كدّرته دعابة الرجل الغريب.

ـ لكن، أرجو المعذرة منك، فتلك منيّة بعيدة الاحتمال.

ـ أرجو أن تعذراني أيضاً... المعذرة مرّة أخرى... هذا ما سيحدث، والآن أريد أن أسألك: ماذا أنت صانع مساءً، إذا كان ما ستفعله ليس سرًّا؟.

ـ ليس ثمّة أسرار... الآن سأعرّج على بيتي في شارع (السادوڤايا)، وبعد ذلك، في العاشرة مساءً، سأكون في (الماسوليت)، حيث سأرأس اجتماعاً.

فردَّ الغريب جازماً :

- لا ، هذا لن يحدث.

- ولماذا ؟

- لأنَّ أنوشكا اشترت زيتاً وسكبته ... وهذا يعني أن اجتماعكم لن يُعقد.

قال الأجنبي هذا وزرَّ عينيه متأمِّلاً السماء ، وقد أحسَّ ببرد المساء.

وهنا يُفهم، لماذا ران الصمت تحت أشجار الزيزفون. وبعد فترة من الصمت والتفكير بخطل الأجنبي السخيف، قال برليوز :

- أرجوك ! هل قُلت لي ما علاقة زيت عبّاد الشمس بموتي، ومن هي أنوشكا تلك ؟

وفجأة تكلّم بزدوموني وكأنّه أراد أن يُعلنها حرباً شعواء على هذا المتحدِّث المتطفِّل :

- أنا أقول لكم ما علاقة زيت عبَّاد الشمس بكل هذا ، أيها المواطن ألم تَزُر مصحّات الأمراض العقلية ؟.

وصاح ميخائيل ألكسندروڤتش بصوت خافت :

- إيڤان ! ...

لكنَّ الأجنبي لم ينزعج أبداً ، وضحك ملء فمه مسروراً ، وهتف دون أن يُحوِّل عينيه الضاحكتين عن الشاعر :

- زرتُ تلك المصحّات مراراً ... وأي مكانٍ في العالم لم أزره ؟ ! .. إنَّما أنا آسف لأنَّني لم أجد الوقت الكافي لأسأل البروفسور عن (الشيزوفرانيا) ، والتي ستعرف عنها منه بنفسك يا إيڤان نيقولايڤتش ! .

- وكيف عرفت إسمي ؟ ومن أين ؟ .

- خذني بحلمك يا إيڤان نيقولايڤتش ... إنَّك أشهر من أن تُعرّف ! .

وهنا أخرج الأجنبي من جيب بنطاله العدد المسائي من جريدة (ليتراتورنايا غازيتا) ، ورأى إيڤان نيقولايڤتش على الصفحة الأولى صورته ، وتحت الصورة أشعاره.

المجد الذي أفرح قلب الشاعر البارحة ، لم يسرّه عصر هذا اليوم ، فقال وقد اسودَّ لون وجهه :

- أعتذر منكم ، هل بامكانكم الانتظار دقيقة ؟ ريثما أسرّ لرفيقي بكلمتين ؟ .

فأجاب الغريب :

- أنتظر ، بكل سرور أنتظر ! فالجلسة تحت أشجار الزيزفون ماتعة ، ثم إنَّني لست على عجلة من أمري.

وهمس الشاعر في أذن برليوز ، بعدما انتحى به جانباً :

- ما أريد قوله يا ميشا ، هو أنَّ هذا الرجل ليس بسائح ، وإنَّما هو جاسوس ، إنَّه روسي

أبيض مغترب تسلّل إلينا . أطلب منه وثائقه ، قبل أن يهرب ! .

ـ أتظن ؟ هَمَسَ برليوز جَزِعاً ، وفكّر : لا شكّ في أنّه على حقّ ! .

ـ صدّقني ـ أجاب الشاعر موشوشاً رفيقه بصوت أجشّ وأردف : إنه يتحامق ليسأل عمّا يريد ، ألا تسمعه كيف يتكلّم الروسيّة ! . لنعمل من أجل إلقاء القبض عليه ، قبل أن يفلت من بين أيدينا ! .

قال الشاعر هذا ، ونظر شزراً خوفاً من أن يركن الغريب إلى الفرار . ثم أخذ بيد برليوز إلى المقعد .

كان الغريب يقف قرب المقعد ، وهو يُمسك كتيّباً ذا غلاف رمادي غامق ، ومغلّفاً سميكاً من أجود أنواع الورق ، وبطاقة . وبادرهما بلهجة حازمة ، وهو يرشقهما بنظرات ثاقبة :

ـ أعتذر منكما ، وقد أنساني وطيس الجدل الحامي أن أعرّفكما عن نفسي ، إليكما بطاقتي وجواز سفري ، والدعوة التي تلقّيتها للمجيء إلى موسكو بصفة مستشار .

وأسْقط في أيدي الأديبين .

وفكّر برليوز : « ليُخز الشيطان ، لقد سمع كل شيء » . ثم أتى حركة لطيفة : أن لا داع لابراز الوثائق .

وبينما كان الغريب منهمكاً في عرض وثائقه على المحرّر ، كان الشاعر قد رأى كلمة « بروفسور » مكتوبة على البطاقة بأحرف أجنبية ، والحرف الأوّل من اسم العائلة « ڤ » مكرّراً .

وتمتم المحرّر مرتبكاً :

ـ سُررنا بمعرفتك .

وأخفى الغريب الوثائق في جيبه ، وعادت العلاقات طبيعية ، وجلس الثلاثة من جديد على المقعد .

وسأل برليوز :

ـ إذن أنت مدعوٌّ إلينا يا حضرة البروفسور بصفة مستشار .

ـ أجل ، بصفة مستشار .

واستوضح بزدومني :

ـ أنتم من التابعية الألمانية ؟ .

ـ أنا ؟ تساءل البروفسور ، وبعد فترة تفكير قصيرة أجاب :

ـ ألماني ، نعم . . .

ـ وتتكلّمون الروسية بطلاقة .

ـ آه على وجه العموم، إنني عالم لغات، وأعرف الكثير منها.
وسأل برليوز:
ـ ما اختصاصكم؟
ـ اختصاصي بالسحر الأسود.
«أية بليّة هذه»، رنّت في رأس ميخائيل ألكسندروفتش. وسأل مُلمّحاً:
ـ ودعوكم إلينا حسب اختصاصكم؟
ـ نعم دعوني حسب اختصاصي. لقد عثروا في المكتبة الحكومية على مخطوطات أصليّة لكتاب (غربرت أفريلاكسكي) الأسود من القرن العاشر. وقد طُلب منّي النظر في المخطوطات، فأنا الاختصاصي الوحيد في العالم.
وسأل برليوز بكثير من الاحترام والارتياح:
ـ آه!. أنت مؤرّخ إذن!؟.
ـ أجل أنا مؤرّخ. ـ أكّد العالم، وأردف بكلمات لا تناسب المقال، أتت في غير زمانها ومكانها: ستحدث مساءً واقعة غريبة عند بُرك (البطريركيّة).
ومن جديد عقدت الدهشة لساني المحرّر والشاعر.
وأومأ البروفسور إلى الاثنين، مشيراً بأن يدنوا منه، فلمّا فعلا همس:
ـ يجب أن تدخلا في حسابكما، أنّ وجود المسيح حقيقة لا ريب فيها.
فأجاب برليوز متكلّفاً ابتسامة:
ـ نحن نحترم معرفتك الواسعة الشاملة، أيها البروفسور، غير أنّ لنا رأياً آخر في هذا الموضوع ونتمسّك به.
فأجاب البروفسور الغريب الأطوار:
ـ لا داعِ للآراء الأخرى. وجود يسوع حقيقة حقّة.
وسأل برليوز:
ـ لكن لا بدّ من برهان ما؟.
ـ لا ضرورة لأي برهان ـ أجاب البروفسور بصوت خفيض، ـ واختفت، لسبب ما، لهجته الأجنبية، وأضاف:
ـ ببساطة: في الرداء الأبيض...

الفصل الثاني

بيلاطس البنطي

غداة الرابع عشر من نيسان، رمز الربيع، وفي الرواق المسقوف الذي يصل بين جناحي هيرودس العظيم، في هذا الرواق شوهد بيلاطس البنطي ـ والي اليهودية ـ وهو يخرج مختالاً في ردائه الأبيض، ذي البطانة الحمراء بلون الدم، ويتبختر بمشية طالما عُرف بها: مشية الفرسان.

وأشدّ ما كان يكرهه الوالي: رائحة ماء الزهر. والآن كل العلامات تنذر بيوم أسود مشؤوم. إذ أن هذه الرائحة ما برحت تلاحقه منذ الفجر.

وبدا له أنّ أشجار السرو والنخيل كانت مصدر هذه الرائحة، وأن روائح الورود اللعينة امتزجت برائحة الجلد وبتلك التي فاحت من القوافل.

لقد ملأ الدخان جنبات القصر. دخان غمر الجناحين. وانتشر خلف القصر، حيث رابطت الكتيبة الأولى من الفيلق الثاني عشر، ـ الكتيبة التي رافقت الوالي إلى أورشليم. وكذلك غمر الدخان الأروقة والحديقة العليا. وهذا يعني بأن الطهاة بدأوا يحضِّرون طعام الغداء.

وامتزج الدخان بأنفاس الزهر الثقيلة.

« إيه!... أيّتها الآلهة.. واهاً لك وترحاً، على أيّ شيء تنزلين بي هذا العقاب؟ ».

« إنّها هي بلا ريب. العلّة التي لا شفاء ولا خلاص منها، قد عاودتني. آه! الصداع المؤلم يكاد يشقّ رأسي. سأحاول أن لا أحرّكه!.. ».

وعلى الأرض المزخرفة بالفسيفساء، قرب النافورة، أُعدَّ مقعد للجلوس. جلس عليه الوالي، ودون أن يلتفت، مدَّ يده جانباً. وبكلّ احترام وضع أمين السرّ في اليد الممدودة صفحة رقّ.

وألقى الوالي نظرة عجلى على الصفحة أمامه، ودون أن يتمالك نفسه من ألم الصداع، أعاد الورقة إلى أمين السرّ، وبصعوبة فائقة قال:

ـ الموقوف الجليلي؟ حوّلتم قضيته إلى اللجنة؟.

فأجابه أمين سرّه:

ـ نعم! حضرة الوالي.

ـ وماذا قرَّرتَ؟

وأوضح أمين السرّ:

ـ رفضت إصدار أي حكم، أما حكم الإعدام الذي أقرّه المجمع، فقد حُوِّل إليك لتُصادق عليه.

واختلج خدّ الوالي. لكنّه ما لبث أن قال بهدوء:

ـ أحضروا المتهَّم.

وفي الحال، اقتاد جنديّان شخصاً في السابعة والعشرين من عمره. ساقاه من تحت الرواق إلى الشرفة حيث المقعد. وكان يرتدي (خيتوناً) قديماً بالياً، أزرق اللون، وعصابة بيضاء، لفّت رأسه وغطّت جبهته. ويداه كانتا مقيَّدتين وراء ظهره. وقد أصيب بكدمة تحت عينه اليسرى. وعند الفم خدش تخثّر دمه.

وألقى الموقوف على الوالي نظرة مستطلعة قلقة. لكن هذا الأخير كان يلوذ بصمت عميق.

وسأل الوالي في هدوء، وباللغة الآراميَّة:

ـ أنت الذي حرَّضت الشعب على هدم هيكل أورشليم؟.

ألقى الوالي سؤاله، وهو جامد في مكانه كالصخرة لا يبدي حراكاً. شفتاه فقط اختلجتا، حين تفوّه بكلماته. لقد كان خائفاً من أن يحرّك رأسه المستعر بألم جهنَّمي.

واقترب الانسان المكبَّل قليلاً إلى الأمام وقال:

ـ صدّقني أيّها الانسان الصالح...

لكنّ الوالي، الذي ما برح جامداً في مكانه، قاطعه بصوت خفيض:

ـ تدعوني إنساناً صالحاً؟ إنَّك تخطىء بهذا، ففي كل أنحاء أورشليم يتهامسون عليَّ بأنّي وحش ضار، وهذه هي الحقيقة. وأضاف بصوت جرى على وتيرة واحدة:

ـ ليأتِ القائد كريسبوي إليَّ.

وخُيِّل للجميع أن العتمة أسدلت ستارها على الشرفة، حينما مثل مارك الملقَّب بـ (كريسابوي) أمام الوالي.

كان كريسابوي أطول جندي في الفيلق، وبمنكبيه العريضين حجب الشمس كليًّا عن الوالي.

وخاطب الوالي قائد جيشه باللاتينيّة:

ـ المجرم يسمِّيني إنساناً صالحاً. خذه دقيقة واحدة. أفهمه كيفيّة التحدّث معي. ولكن لا تمثِّل به.

ورافق الحاضرون جميعاً بأنظارهم مارك كريسابوي، الذي أومأ بيده إلى الموقوف، مشيراً عليه بأن يتبعه، وبقي الوالي وحده جامداً كالصخرة.

وحيثما كان كريسابوي يشاهد، كان الناظرون، ولا سيما الذين يرونه للمرّة الأولى، يشيّعونه بأنظارهم لقامته المديدة، ولوجهه المشوّه، ولأنفه الذي حطَمته ضربة هراوة.

وسُمِعَ وقع حذاء مارك الثقيل على الفسيفساء، وتبعه المتّهم، صامتاً مُكبَّل اليدين، وساد في الرواق صمت، أين منه صمت المقابر.

كان هديل الحمام في الشرفة المطلّة على الحديقة، يؤلّف مع خرير مياه النافورة أغنية شجيّة غنيّة بالمعاني.

أراد الوالي أن ينهض ويضع صِدغه تحت شلاّل الماء ويتسمَّر في مكانه، لكنّه أدرك أنّ هذا العمل لن يعود عليه بطائل.

وبينما كان كريسابوي يجوز الرواق، سائقاً الموقوف إلى الحديقة، جذب من بين يدي جندي كان واقفاً عند قاعدة التمثال البرونزي، سوطاً، وبرفقٍ لوَّح به في الهواء، وألهب به كتفي المتّهم.

ومع أنّ الضربة كانت خفيفة وطائشة، فإنّ الموقوف سقط على الأرض في الحال، كأنّما بُتِرت ساقاه، فاختنق بالهواء، وشحب لون وجهه، وزاغت نظراته. فما كان من مارك، إلاّ أن مدّ يده اليسرى للمتعثّر، ورفعه إليه، أوقفه على رجليه، وخاطبه بكلمات آرامية مكسّرة، والخنّة تخنق نبرات صوته:

ـ والي الرومان يسمَّى (إيغامون)، ولا داعٍ لكلمات غير هذه الكلمة. أفهمت أم أعود إلى ضربك؟.

وترنَّح الموقوف، غير أنّه تمالك نفسه، وعاد إليه لونه، والتقط أنفاسه، وأجاب بصوتٍ أجشّ:

ـ فهمت فلا تضربني.

وبعد دقيقة عاد ومثل من جديد أمام الوالي.

ودوّى صوت كئيب ذاوٍ:

ـ الاسم؟

ـ اسمي؟ سارع الموقوف إلى الردّ، معبّراً بكل كيانه عن استعداده للإجابة بوضوح، ودون إغضاب أحد.

وقال الوالي بصوتٍ خافت:

ـ نعم، اسمك، اسمي أعرفه. لا تبدو أكثر حماقة مما أنت؟!.

وسارع الموقوف وأجاب:

ـ يسوع.
ـ أتحمل لقباً ما؟
ـ الناصري.
ـ من أين أنت؟
ـ من (غمالا) ـ أجاب المتهم، وأومأ برأسه أنّها هناك، في مكان بعيد في الشمال.
ـ أصلك؟
ـ لا أعرف بالضبط ـ أجاب الموقوف بحيوية ـ لا أذكر أهلي، قيل لي إنَّ أبي كان سوريًّا...
ـ أين مكان إقامتك الدائم؟
أجاب الموقوف خجلاً:
ـ لا مكان إقامة دائم لي. إنَّني أتنقَّل من مدينة إلى مدينة.
ـ يمكننا القول إنَّك متشرِّد، تهيم على وجهك في طول البلاد، ألك أقارب؟.
ـ لا أقارب لي. فأنا وحيد في هذا العالم.
ـ متعلِّم؟.
ـ نعم.
ـ أتعرف لغة غير اللغة الآرامية؟
ـ نعم. أعرف اللغة اليونانية.
وارتفع جفن الوالي المتورِّم قليلاً، حملقت العين الملفّعة بضباب العذاب بالمتَّهم. أمَّا العين الثانية فبقيت مغمضة.
وسأل بيلاطس باليونانية:
ـ لماذا أردت هدم الهيكل، ودعوت الشعب إلى فعل ذلك؟.
وهنا انتعش الموقوف من جديد، وفارق الهلع نظرات عينيه، وأجاب باليونانيّة أيضاً:
ـ أنا أيّها الصالـ... ـ ولمع الرعب في عيني الموقوف. لأنَّه كاد يغلط فاستدرك وقال: أنا يا إيغمون، ما أردت أبداً في حياتي هدم الهيكل، وما حرَّضت أحداً على هذا العمل التافه السخيف.
وبدا الاستغراب على وجه أمين السرّ، المنكبّ على منضدة منخفضة يدوّن الأدلّة. رفع رأسه ثم عاد إلى انكبابه على ورقة الرقّ.
وقال الوالي بصوت رتيب:
ـ جموع بشرية شتَّى تتوافد إلى المدينة بحلول العيد. وبين هذه الحشوْد سحرة وفلكيّون وعرّافون وقتلة. وبينهم أيضاً كَذَبة. أنت مثلاً: إنسان كاذب. فهنا خُطَّ بوضوح: حرّض

على هدم الهيكل. وبهذا يشهد الناس.

ـ « إنهم أناس صالحون » ـ وشعر الموقوف بأنَّه أخطأ فأردف مسرعاً قائلاً: « يا إيغمون » هؤلاء الناس، لم يتعلَّموا شيئاً، فتبلبلت أفكارهم، ولم يفهموا كلامي على الوجه الصحيح. وبتُّ أخشى من أن تستمرّ هذه البلبلة زمناً طويلاً، بسبب كلام نُقِل خطأ عنّي.

وساد الصمت من جديد، فعادت العينان المريضتان تتأمّلان الموقوف بقسوة وتنظران إليه شزراً.

« أنبّهك التنبيه الأخير. لا تتظاهر بالجنون فإنَّك لصّ ».

لفظ بيلاطس كلماته برفق ورتابة، وأردف: « قليلة هي الكلمات التي كُتِبت ضِدّك لكنّها كافية للحكم عليك بالموت شنقاً ».

ـ لا! لا! يا إيغمون ـ هتف الموقوف واضطرم رغبة ليقنع محدّثه: يمشي، يمشي وحيداً، حاملاً قطعة رقّ من جلد الماعز، ويكتب باستمرار. وفي إحدى المرّات ألقيت نظرة على ورقة الرقّ هذه، فيا لهول ما قرأت. لم أتفوّه بكلمة واحدة ممّا كتبه عنّي. لقد رجوته، بحقّ الله أن يحرق أوراقه. فكان جوابه أن انتشلها من بين يدي وهرب.

وسأل بيلاطس بتقزّز، وقد وضع كفّه على صدغه:

ـ من الذي فعل معك هذا؟

وأجاب الموقوف منشرحاً:

ـ ليفي ماتفي. كان يعمل جابياً للضرائب. ولقيته أوّل مرَّة وأنا في الطريق إلى (فيفاغي). هناك، عند زاوية بستان التين، تحدَّثت إليه: في البدء تكلّم معي بجفاء، أهانني أو بالأحرى ظنّ أنه أهانني إذ سمَّاني كلباً ـ وضحك المتّهم ساخراً، وأردف: أمَّا أنا شخصيًّا فلا أرى شرًّا في هذا الحيوان، يجعلني أغضب من دعوتي باسمه».

ـ وانقطع أمين السرّ عن الكتابة، وخلسة، نظر إلى الوالي متعجِّباً. وأكمل يسوع:

« بعد ذلك وفيما كان يُصغي إليّ، رقّ ولاَنَ، ثمّ رمَى المال في الطريق، وأعلن بأنَّه سيترك كلّ شيء ويشاركني أسفاري ».

ضحك بيلاطس ساخراً، واختلج أحد خدّيه، وكشَّر عن أسنان صفراء، ومال بجذعه نحو أمين سرّه وقال:

ـ « أورشليم! يا أورشليم!! أي شيء لا يُسمع تحت سمائك!. أسمعت عن جابي ضرائب، رمى المال في الطريق! ».

وقبل أن يفكّر أمين السرّ بماذا يجيب، رأى أنّ عليه أن يبتسم كما فعل بيلاطس.

وطفق يسرع يروي أخبار متّى الغريبة:

ـ « وقال إنَّه منذ ذلك الحين أصبح يَكُنّ للمال كراهية شديدة، وصار رفيقي

وصديقي ».

وتأمَّل الوالي المتّهم، وكان ما زال مكشِّراً، ثم نظر إلى الشمس الصاعدة فوق تماثيل أحصنة الميدان المنبسط إلى اليمين. وفجأة فكَّر، والألم المثير للغثيان يفترسه افتراساً، فكَّر بأنّ المسألة أبسط ممّا يتصوَّر المرء: الآن يأمر بطرد هذا اللص الغريب الأطوار من أمامه، ويلفظ كلمتين فقط: ليمت شنقاً. ويأمر بطرد الخفير أيضاً، ويغادر الرواق إلى القصر، ويعتِّم غرفته، ويستلقي على الأريكة، ويرسل وراء الماء البارد، وبصوت حزين ينادي إليه كلبه الأمين (بانغا)، ويشكو إليه آلام رأسه.

وحدَّثت مريض الرأس نفسه، داعية لشرب السمّ.

يا للنفس الأمَّارة بالسوء!.

ونظر إلى المتَّهم بعينين زائغتي النظرات، ثم عاد فصمت قليلاً، وتذكَّر... ولم تنفعه الذكرى هذه المرّة... بل آلمته أي إيلام... تساءل: لماذا يمْثل أمامه هذا المتَّهم، وفي هذا الصباح الباكر، وشمس أورشليم لافحة القيظ، أشعّتها تحرق بلا رحمة. نعم لماذا يَمثُل أمامه هذا الذي شوّهت وجهه الخدوش... وأيّة أسئلة سخيفة يجب أن يطرحها عليه؟.

وعاد وأغلق عينيه، وسأل بصوت أجشّ:

- ليڤي ماتڤي!

- نعم! ليڤي ماتڤي. - ترامى إلى مسامع الوالي صوت واخز مؤلم.

- ومع ذلك أريد أن أعرف ماذا قلت عن الهيكل أمام الجمع، في (البازار).

وسُمع صوت يجيب بكلمات وخزت صدغ بيلاطس، وسبَّبت له صداعاً وألماً شديداً:

- أنا يا إيغمون، تحدَّثت عن أنّ هيكل الديانة القديمة سيزول وسيرتفع هيكل جديد مكانه، هو هيكل الحقّ. قلت هذا ليفهمني الجميع.

- ولماذا أيها المشرَّد أحدثت بلبلة بين الناس بحديثك عن الحق، الذي لا تملك عنه أيّ تصوّر ولا أيّة فكرة؟ قل لي ما هو الحقّ؟

- وفكَّر الوالي وخاطب نفسه: أيتها الآلهة! ماذا حَدَثَ لي؟ أسأله في المحكمة عن أمورٍ جانبية!.. أتراني فقدت عقلي...؛ ومن جديد تراءت له الكأس ذات السائل الغامق.

ناولوني السُمّ!... السُمّ!...

وسَمِع المتَّهم يجيب:

- بادىء ذي بدء رأسك يؤلمك، حقّ؟ وآلامه فظيعة لدرجة أنَّها تجعلك تفكِّر بالموت بصغارة. وليس بمقدورك أن تتكلَّم معي ولا حتَّى أن تنظر إليَّ، أنا الآن جلاَّدك شئت أم أبيت. وهذا ما يؤلمني ويحزنني. وإنَّك عاجز عن التفكير بأبسط المسائل. تحلم فقط بأن يعود كلبك إليك، المخلوق الوحيد الذي تُخلص له الودّ. لكن اطمئن! ستتلاشى أوجاع رأسك

وستشفى.

حملق أمين السرّ بالمتّهم، ولم يعد يكتب كلمة واحدة ممّا يتفوّه به. أما بيلاطس فنظر إلى المتّهم بعينين مبرّحتين فرأى الشمس قد درجت في السماء، فوق الميدان، وأشعّتها تسرّبت إلى الرواق، ووصلت إلى خفّي يسوع البالين الذي غيّر مكانه ليتّقي لهيبها.

وهنا نهض الوالي من على المقعد، واحتضن رأسه بكلتا يديه، وبدت على وجهه النحيل الأصفر علامات الخوف، لكنّه سرعان ما بدّده بقوّة إرادته وجلس من جديد.

أثناء ذلك، أكمل المتّهم حديثه، دون أن يدوّن أمين السرّ كلمة منه، مكتفياً بمدّ عنقٍ كعنق الإوزة، جاهداً أن يسمعه بأكمله.

ـ أنا انتهيت ـ قال المتّهم وراح يتأمّل الوالي بعين الرضى، لكنه ما لبث أن أكمل: إنّني مسرور. أنصحك يا إيغمـون أن تترك قصرك ولو لبعض الوقت، وتتنزّه مشياً على الأقدام في الضاحية أو في جنائن جبل (أليون)، ستهبّ عاصفة عند المساء. والتفت المتّهم ينظر إلى الشمس وقد زرّ عينه. وأردف:

ـ مستعدّ لمرافقتك في النزهة المفيدة. لديّ بعض الأفكار الجديدة، قد تنفعك. بكل محبّة وسرور أدعَك تشاركني أفكاري، ولا سيما أنّك ـ كما يبدو لي ـ أوتيت نصيباً وافراً من الذكاء...

وبدا شحوب الموت على وجه أمين السرّ، لدى سماعه هذه الكلمات، فأوقع أوراق الرقّ على الأرض.

وأكمل المقيّد اليدين، دون أن يقاطعه أحد:

ـ مصيبتك في انطوائك على نفسك، وفقدانك نهائياً الثقة بالناس. ولا يجوز أن تمنح ثقتك وحبّك كلبك وحده. إنّ حياتك يا إيغمـون شحيحة وفقيرة. ولا أظنّك غير موافق على كلامي؟!.

وهنا سمح المتكلّم لنفسه بابتسامة، في غمرة دهشة أمين السرّ وذهوله. أيصدّق ما تسمعه أذناه أم لا يصدّق؟ تخيّل كيف سينصبّ غضب الوالي الساطع الصاعق على المتّهم الذي تجرّأ حتى الوقاحة.

ورغم معرفة أمين السرّ الجيّدة بالوالي، لم يكن باستطاعته تصوّر سورة غضبه في موقف مثل هذا.

ودوى صوت الوالي أجشّاً متقطّع النبرات، قائلاً باللاتينية:

ـ حُلّوا وثاق يديه.

وضرب أحد الحرّاس الأرض برمحه، سلّمه لحارس آخر، واقترب من الموقوف، وحرّره من القيود. أمّا أمين السرّ فقد وضع لفّافة الورق جانباً، وقرّر أن لا يكتب ولا

يستغرب شيئاً بعد الآن. وسأل بيلاطس بهدوء وباليونانية:

ـ أتكون طبيباً عظيماً. إعترف.

ـ أنا لست طبيباً أيها الوالي. ـ أجاب الموقوف، وهو يفرك راحة يده المتورّمة الموسّخة القرمزية اللون ـ وكان يفعل ذلك متلذّذاً.

وهنا عَبَسَ بيلاطس، ورشق يسوع بنظرات من عينين تطاير منهما شرر لا يجهله أحد. وقال:

ـ لم أسألك إذا ما كنت تحسن اللغة اللاتينية؟

ـ نعم أعرفها.

واصطبغت وجنتا بيلاطس الصفراوتان بالحمرة، وسأل باللاتينية:

ـ كيف عرفت بأنّني أردت مناداة الكلب؟

ـ بكل بساطة، حرّكت يدك في الهواء ـ وهنا كرّر السجين ما فعله بيلاطس، وأردف: كأنّما أردت أن تُمسّد... وشفتاك...

ـ نعم...

وران الصمت من جديد. ثم عاد بيلاطس وطرح سؤالاً باليونانية:

ـ إذن أنت طبيب؟!.

أجاب الموقوف وقد انتعش:

ـ صدّقني، أنا لست طبيباً.

ـ ليكن ما تريد.. ولا بأس عليك إذا ما أردت أن تحتفظ بهذا السرّ لنفسك، فإنّه لن يغيّر شيئاً من مجريات الأمور!. أتجزم بأنّك لم تحرّض على الهدم أو الحريق أو تدمير الهيكل؟.

ـ لم أدعُ إلى مثل هذه الأعمال يا إيغمون. وهل تراني مجنوناً، حتى أقدم على مثل ذلك؟

وأجاب الوالي بهدوء وبدت على مخايله ابتسامة مخيفة:

ـ لست مجنوناً. أقسم بأنّك لم تحرّض أحداً. ولم تَدعُ إلى أعمالٍ تخريبية.

أجاب الموقوف، وقد انتعش:

ـ بأي شيء تريد أن أقسم لك؟

ـ بحياتك، ولا سيّما أنّ الظرف مناسب لتقسم بها، أجل أقسم بحياتك المعلّقة بشعرة، وإنّكَ تعرف هذا؟

ـ أوتظن يا إيغمون إنّك أنت الذي علّقت حياتي بتلك الشعرة؟ مخطىء إذا كنت تظنّ ذلك؟.

وارتعش بيلاطس وغمغم:

ـ أنا قادر على قطع هذه الشعرة.

ـ مخطىء وأيم الحق مخطىء ـ أجاب الموقوف وقد أشرق وجهه بنور ابتسامة، واتَّقى أشعَّة الشمس بيده وأردف:

ـ إنَّ الذي علَّق الشعرة، وحده قادر على قطعها يا إيغمون؟

ـ لا أتعجَّب، إذا كان هذا هو منطقك، من أن يتبعك المشرَّدون والبطَّالون في أورشليم. لا أعلم من الذي علَّق لسانك.. لكنَّني متأكِّد من أنَّه عُلِّق جيِّداً؛ وطالما أنَّ الشيء بالشيء يُذكر، أجبني: أصحيح أنَّك دخلت إلى أورشليم من البوَّابة الضيِّقة ممتطياً حماراً، ووراءك رعاع هتفوا لك كنبيّ من الأنبياء؟

ـ لا أملك حماراً يا إيغمون. نعم دخلت أورشليم، هذا صحيح، لكن مشياً على الأقدام، وبصحبة (ليفي ماتفي) وحده، ولم يهتف أحد لي، لأنَّه في ذلك الحين لم يكن يعرفني أحد في أورشليم.

وأكمل بيلاطس وهو ينظر إلي المتهم:

ـ أتعرف: ديسماس وغستاس، وذاك الثالث: باراباس؟

ـ لا أعرف هؤلاء الناس الصالحين.

ـ حقًّا؟

ـ حقًّا.

ـ والآن، قل لي: لماذا تكثر من استعمال كلمات: أناس صالحين؟ أتطلق هذه التسمية على الناس جميعاً؟

ـ على الناس جميعاً، نعم. لا أشرار في هذا العالم.

وضحك بيلاطس ساخراً وقال:

ـ لم أسمع بمثل هذا الكلام من قبل، قد يكون مردّ ذلك إلى خبرتي الغير كافية بالحياة؟!. ـ وهنا خاطب بيلاطس أمين سرّه آمراً: يمكنك الآن أن تدوّن.

ثم عاد وقال ليسوع:

ـ ألعلَّك قرأت هذا في أحد الكتب اليونانية؟!.

ـ اهتديت إلى هذا بعقلي؟.

ـ وتُبَشِّر بِمَ اهتديت إليه؟

ـ نعم.

ومارك الملقَّب بـ(كريسابوي)، هل هو أيضاً إنسان صالح؟

ـ نعم وإن كان بائساً، منذ أن شوَّهه وضربه بعض الناس الصالحين أصبح فظًّا قاسياً أنَّى لي أن أعرف أولئك الذين اعتدوا عليه بالضرب وشوَّهوه.

وأجاب بيلاطس:

بمقدوري أن أخبرك بما حدث له، لأنَّني شهِدتُ تلك الواقعة. لقد انقضَّ عليه بعض الناس الصالحين، كما تنقضّ الكلاب على الدبّ. انقضُّوا عليه، وأمسكوا بيديه ورجليه، وتشبَّثوا برقبته، فسقط المسكين على الأرض، فطوَّقوه، ولو لم تقتحم جمعهم كوكبة من الخيَّالة بإمرتي، لما كان باستطاعتك أيها الفيلسوف التحدّث مع (كريسابوي). لقد وقعت تلك المعركة في وادي الدموع قرب (إديستافيزو).

وفجأة تكلَّم الموقوف حالماً: لو نوقش فأنا واثق أنَّه كان سيتبدَّل كليًّا.

وأجاب بيلاطس:

أظنّ أنَّك لن تُدخِل فرحة كبيرة إلى قلب قائد الفيلق بحديثك مع أيٍّ من ضبَّاطه أو جنوده. ومختصر القول: لن يتاح لك التحدّث مع أحد، لحسن حظ الجميع. وأنا أوَّل معارضيك.

في تلك الأثناء جنحت إلى الرواق سنونوة. رفرفت بشكل دائري تحت السقف الموشَّى بالذهب، وجنحت حتى كادت تلامس بجناحها المشحوذ، وجه التمثال النحاسي في القمرة. ثم عادت وتوارت تحت افريز الرواق. ربَّما واتتها فكرة أن تضفر لها عشًّا هناك.

في الوقت الذي كانت فيه السنونوة ترفرف، اعتملت في رأس الوالي السليم فكرة، تجلَّت كالآتي:

بعد النظر في قضية الفيلسوف الشريد يسوع الملقَّب بالناصري، يرى الإيغمون أنَّ عناصر الجريمة غير متوافرة. وخاصة أنَّه لم يجد أيَّة علاقة، ولو من بعيد، بين أعمال يسوع وبين الحوادث المُخلّة بالأمن، والتي وقعت منذ فترة في أورشليم. هذا وقد تبيَّن أنَّ الفيلسوف الشريد مريض نفسيًّا. على ضوء هذه الأدلّة لن يصادق الوالي على الحكم بموت الناصري، الحكم الذي أقرّه المجمع الصغير. لكن بما أنَّه يوجد ثمة شكّ، في أن أحاديث الناصري الطوباوية المتهوّرة، ربَّما كانت وراء الاضطرابات في أورشليم، فالوالي يأمر بإبعاد يسوع عن المدينة ومعاقبته بالسجن في قيصريّة (ستراتونوفيا) على البحر الأبيض، حيث يملك استراحة هناك.

ولم يَبْقَ إلاَّ أن يملي الوالي فكرته على أمين السرّ.

وصفَّقت السنونوة بجناحيها، فوق رأس الإيغمون. ثمَّ جنحت نحو حوض النافورة، وطارت محلِّقة في السماء.

ونظر الوالي إلى المتَّهم، فرأى، عموداً من الغبار منتصباً قربه. وسأل أمين سرّه:

ـ أهذا كلّ ما عندك عنه؟

وأجاب أمين السرّ في الحال:

ـ للأسف، لا . ـ قال هذا ، وناول بيلاطس قطعة أخرى من الرقّ.

وتساءل بيلاطس وقد قطّب حاجبيه :

ـ ماذا بعد ؟ . . .

ثم قرأ ، وامتقع لون وجهه . أتَدَفَّقَ الدم الأسود إلى عنقه ووجهه ؟ أم أنّه حدث أمر آخر ، حتى فارقت بشرة الوجه صفرتها وامتقعت بالسواد ؟ والعينان غارتا وكأنّهما زالتا من وقبيهما تماماً .

حقّا ! أيكون الدم المتدفّق إلى الصدغين سبّب كل هذا ؟ لا ! . . لقد عميَ بصر الوالي ، وخُيّل إليه أنَّ رأس الموقوف توارى وزال ، وبدلاً منه ظهر رأس آخر أصلع ، مكلّل بالذهب الخالص ، وقرحة مستديرة شوّهت الجبين ، الجلد مغضّن ، دُهِن بالمرهم . وكان الفم أدرد ومطبقاً . والشفة السفلى مترهّلة ونزوانية . وخيّل لبيلاطس أنَّ أعمدة الشرفة الورديّة اللون زالت ، وسطوح أورشليم اختفت عن الأعين وانتقلت إلى ما وراء الحديقة ، وغاضت الأجمات الخضراء .

العين ترى رؤى غريبة ، والأذن تسمع أصواتاً عجيبة ! . ومن بعيد تناهى إلى المسامع نفير أبواق تصدح بأصوات خافتة منذرة مهدّدة .

وسَمِعَ صوتاً ، يرشح كبرياءً ، هاتفاً :

« قانون عن إهانة الجلالة . . . » كلمات مُطّت . . . وأفكار غريبة . . . مشتّتة . وومَضاتِ أفكارٍ وكلماتٍ : « قُتِلَ ! قُتِلوا » . وفكرة راودت الوالي الهائم في عالم التصوّرات ، فكرة عقيمة عن خلود آتٍ لا محالة .

ولم يعرف لماذا فكرة الخلود أيقظت في أعماقه كآبة موجعة وغمًّا دفيناً .

وبعد لأي ، أفاق بيلاطس ، وطرد الرؤية . وعاد ببصره إلى الشرفة ، عاد لينظر من جديد في عيني السجين .

وقال الوالي وهو يتأمّل يسوع بنظراتٍ طافحةٍ بالدهشة ، وعبارات وجهه أنذرت مهدِّدة ، لكنَّ عينيه كانتا قلقتين جزعتين :

ـ إسمع يا ناصري ! هل تعرَّضت بكلامك للقيصر العظيم ؟ أجب ، هل تفوَّهت بكلامٍ ما ضدّه أم لم تتفوَّه ؟ ! . . ومدَّد بيلاطس حرف « لم » أكثر مما هو مسموح به .

وأتبع الوالي كلامه بأن حدج يسوع بنظرة ذات معنى ، وكأنَّه أراد إخافته بها . غير أنَّ يسوع اكتفى بأن علّق قائلا :

ـ قول الحقيقة سهل ومفرح .

وأجابه بيلاطس بصوت مختنق النبرات ، ينفث شرًّا :

ـ لا يهمّني أن أعرف إذا ما كان قول الحقيقة مؤلم أو مفرح لك ، ولا سيّما أنَّك مكره

على البوح به. رز كل كلمة تتفوَّه بها وبهذا تتجنَّب منيّة شنيعة... أمَّا الموت فلا بدَّ أنَّك ذائقه.

لا أحد يعلم ماذا حدث للوالي بعد ذلك، سمح لنفسه بأن يرفع يده، وكأنَّها أراد أن يتّقي أشعَّة الشمس، ومن وراء هذه اليد، وكأنَّها درع تدرَّع بها نظر إلى السجين نظرة ذات معنى وقال:

- أتعرف إنساناً من بيت لحم اسمه يهوذا؟ بماذا حدَّثته عن القيصر؟.

وشرع السجين يعترف وبسرور:

- حَدَث أنّه مساء أمس الأوَّل، تعرَّفت قرب الهيكل إلى إنسان في مقتبل العمر، يسمِّي نفسه يهوذا، من بيت لحم، ودعاني إلى بيته، الذي يقع في الحي التحتاني في المدينة، واستضافني.

وسأل بيلاطس وقد لمعت في عينيه نار إبليسيّة:

- وهل هو إنسان صالح؟

فأكَّد الموقوف:

- نعم، إنّه إنسان صالح، ومُحبّ للمعرفة، وقد أبدى اهتماماً كبيراً بأفكاري، واستقبلني بحفاوة بالغة.

وقاطعه بيلاطس، وعيناه تلمعان:

- وأضاء القناديل..

- نعم - أجاب يسوع - مستغرباً كيف عرف الوالي بكلّ تلك التفاصيل، وأضاف: أراد أن يعرف رأيي في السلطة والسلطان، لأنَّ هذه المسألة شَغَلَت باله كثيراً.

وسأل بيلاطس بصوت رشحت نبراته باليأس:

- وبِمَ أجبته؟ أم أنَّك ستقول بأنَّك نسيت جوابك له؟

أجاب السجين:

- ممَّا قلته إنَّ كلّ سلطان هو اغتصاب لحقوق الناس، وإنَّه سيأتي زمن يزول فيه الملوك وكل أنواع السلطة، ويدخل الإنسان مملكة الحق والعدل، حيث لا حاجة إلى أيَّة سلطة.

- وبعد ذلك، ماذا حدث؟

- لم يحدث شيئاً. ركض الناس وقيَّدوا يديَّ واقتادوني إلى السجن.

أمين السرّ الذي كان يصغي بكل جوارحه ويجهد في أن لا يفوّت شيئاً سارع إلى رسم كلمة واحدة على الرقّ أمامه.

وعلا صوت بيلاطس المريض قائلاً بنبرات متقطِّعة:

- ما عرف العالم، ولن يعرف أبداً سلطة أفضل من سلطة الأمبراطور تيڤاريا.

قال الوالي هذا، ورمى أمين سرّه وحارسه بنظرة كراهية لم يُعرف لها سبباً.

وما لبث أن هتف بالسجين: «ومتى كان انتقاد السلطة ومناقشتها من شأنك أيّها المجرم المجنون». ثم صرخ آمراً: ليغادر الحارس الرواق. والتفت بعد ذلك إلى أمين السرّ مخاطباً:

ـ دعوني أختلي بالمجرم، فالقضية تتعلّق بالسلطة.

تناول الحارس رمحه وخرج إلى الحديقة ضارباً الأرض بحذائه بإيقاعيّة. وتبعه أمين السرّ.

أغنية مياه النافورة، وحدها، عكّرت الصمت الذي خيّم على الشرفة لبعض الوقت.

ونظر بيلاطس إلى منظر المياه وهي تفيض من الحوض وتنساب في المجاري.

وبادر السجين إلى الكلام فقال:

ـ على ما أعتقد، فإنّ مصيبة وقعت لأنّني تحدّثت مع ذلك الشاب البيت لحميّ، قلبي يحدّثني بأن نكبة ستحلّ به يا إيغمون، وكلّي شفقة عليه.

وأجاب الوالي بضحكة ساخرة وقال:

ـ على ما أعتقد ثمّة من هو أحقّ بالشفقة من يهوذا البيتلحميّ، وثمّة من هو أبأس مصيراً منه!

وأكمل:

الجلاّد مارك كريسابوي، الفظّ الغليظ، الناس الذين ضربوك وأهانوك من أجل تعاليمك ـ وهنا أشار بيلاطس إلى الخدوش في وجه يسوع ـ وأردف: اللصّان ديسماس وغستاس اللذان قتلا وأعوانهما أربعة جنود، والخائن القذر يهوذا: هل كل هؤلاء أناس صالحون بنظرك؟.

وأجاب يسوع:

ـ نعم.

ـ وسيأتي ملكوت الحق.

ـ سيأتي يا إيغمون، أجاب السجين بيقين.

وفجأة صاح بيلاطس بصوتٍ مخيف:

ـ لن يأتي أبداً.

وترنّح يسوع على أثر تلك الصيحة.

لقد سُمعت صرخة لبيلاطس مماثلة وذلك منذ سنوات وفي وادي العذارى. حينذاك نَهَرَ فرسانه قائلاً: «عليكم بهم، عليكم بهم، وقع العملاق كريسابوي بين أيديهم!».

وصرَخَ بصوتٍ عالٍ سُمِع في أرجاء الحديقة:

ـ مجرم! مجرم! مجرم.

وبعدئذ أخفض من صوته وسأل:

ـ أتؤمن بآلهة ما يا يسوع الناصري؟.

ـ نعم. أنا أؤمن بالإله الواحد.

ـ صلّ له إذن. صلِّ له بخشوع. لكنّي أقول لك إنّه لن ينفعك.

وهدأ بيلاطس، وبكآبة خرساء، سأل:

ـ هل أنت متزوّج؟

ـ لا، أنا أعزب ووحيد.

وفجأة هزّ الوالي كتفيه، وكأنّما سرت قشعريرة من البرد في مفاصله، فمسح كفّيه وكأنّه غسلهما وتمتم:

تبًّا لك أيّتها المدينة البغيضة... وأردف مخاطباً يسوع: كان القتل أفضل لك من لقائك ليهوذا البيتلحميّ!.

وفجأة التمس السجين من الوالي، وقد تهدّج صوته:

ـ أطلقني يا إيغمون... أظن أنّهم يريدون قتلي.

وتشنّج وجه بيلاطس وحَدَج يسوع بعينين ملتهبتين، احمرّت أعصاب بياضهما وأجاب:

ـ أتظنّ أيها البائس أنّ الوالي الروماني يُطلق إنساناً تفوّه بما تفوّهت به؟! أيّتها الآلهة! أيتها الآلهة!.. اسمعي. أم تعتقد أنّني مستعدّ أن أجلس في مكانك؟ أنا لا أشاركك أفكارك!.. إسمع، منذ هذه الدقيقة أنبّهك إذا عدت وتلفّظت بكلمة واحدة أو تكلّمت مع أي انسان فاحترز منّي!... أكرّر: احترز منّي. هل تسمعني؟.

ـ يا إيغمون!..

ـ إسكت... ـ صرخ بيلاطس، وبنظرات مجنونة واكب السنونوة، التي راحت ترفرف من جديد فوق الشرفة. وما لبث أن صرخ: إليّ.

وحينما عاد أمين السرّ والحارس، أعلن بيلاطس أنّه يُصادق على حكم الإعدام، الذي اتخذه المجمع الصغير، بحق المجرم يسوع الناصري.

ودوّن أمين السرّ ما أملاه عليه سيّده. وبعد دقيقة حضر (مارك كريسابوي). فأمره بيلاطس بأن يسلّم المجرم لآمر الحرس. ويبلّغه توصياته: بسجن يسوع الناصري منفرداً، بعيداً عن السجناء. وأن يُمنع رجال الحرس من تبادل الأحاديث معه أو الاجابة على أسئلته، أيًّا كان نوعها. وذلك تحت طائلة المسؤولية والعقاب الشديد.

وباشارة من (مارك)، جاء الحارس واقتاد يسوع. ثم مَثَل أمام الوالي، بعد ذلك، شاب وسيم الطلعة، طويل القامة، أشقر شعر اللحية، على صدره كانت تتلألأ خطوم أسود، وفي عُرف خوذته غَرَزَ أرياش نُسور، وكان يُعلّق سيفاً حمّالته موشّاة بالذهب، وينتعل صندلاً

بثلاثة أنعل، ويلفّ ساقيه بشريطة حتى الركبتين، ويطرح على كتفه الأيسر رداءً أرجواني اللون.

هذا الماثل أمام بيلاطس الآن هو قائد الفيلق. سأله الوالي عن كتيبة (سيبار)، فأجابه أنّ أفرادها يضربون طوقاً حول الساحة، أمام المدرج، حيث يُنتظر اعلان الأحكام على المجرمين، أمام الشعب.

وطلب الوالي من قائد الفيلق أن يفرز من «كتيبة روما» فصيلتين، تقوم احداهما، تحت امرة (كريسبوي) بمرافقة المجرمين والمركبات التي ستنقل معدّات الإعدام والجلاّدين إلى جبل جلعاد، وتشارك بالحصار، وللغاية نفسها تتوجّه الفصيلة الثانية، شمالاً. ولم يكتفِ الوالي بذلك، طلب من القائد أيضاً أن يرسل إلى نفس المكان، بفوج الفرسان السوري المساعد.

وبعد أن انصرف القائد، طلب الوالي من أمين سرّه أن يدعو إلى القصر: رئيس المجمع، واثنين من الأعضاء، ورئيس حرس هيكل أورشليم. وأمَرَ بأن ترتّب الدعوة بحيث يتسنّى للوالي الاختلاء برئيس المجمع قبل لقائه مع المدعوين الآخرين.

ونُفِّذت أوامر الوالي بسرعة وبدقة. وما كادت شمس الأيام الربيعية، الساطعة الضياء، الحارقة بأشعتها لسطوح أورشليم، ما كادت هذه الشمس تستقرُّ في أعلى موقع في السماء حتى كان الوالي ورئيس كهنة اليهودية يوسف قيافا (القائم بأعمال رئيس المجمع) قد التقيا، في مدرج الحديقة قرب الأسدين الرخاميين الأبيضين، حارسي الدرج.

وما أن خرج بيلاطس من الرواق إلى الحديقة المعمورة بنور الشمس، ذات أشجار النخيل الدهرية الجبّارة، التي انبسطت أمامها أورشليم، أورشليم البغيضة إلى قلبه، بجسورها المعلّقة وحصونها وكتل رخامها، التي يعجز عنها الوصف، وهيكلها المسقوف بحراشف تنين ذهبية، ما أن خرج إلى هذه الحديقة حتى تناهت إلى أذنيه المرهفتين غمغمات خافتة آتية من مكان بعيد، من خلف السور الحجري الذي يفصل مدارج القصر عن ساحة المدينة.

وانجلت هذه الغمغمات عن صراخ خافت وعويل. وأدرك بيلاطس أنَّ جموعاً غفيرة من سكّان المدينة، وقد أزعجتهم الأحداث الأخيرة المخلّة بالأمن، فتوافدوا إلى الساحة من كل ناحية ليشهدوا الأحكام.

وكذلك سُمعت في الساحة أصوات باعة المياه المتعبين وصراخهم.

ودعا الوالي رئيس الكهنة إلى الجلوس معه على الشرفة، غير أنَّ قيافا اعتذر بلطف، وآثر أن يبقى حيث هو. فما كان من بيلاطس إلاَّ أن وضع قلنسوة على رأسه الذي بدأ يدركه الصلع، وراحا يتحدّثان باللغة اليونانية:

قال بيلاطس: «إنّه نظر في قضية يسوع الناصري، وصادق على حكم الاعدام، الذي

لن ينجو منه ثلاثة لصوص أيضا وهم: ديسماس وغستاس وباراباس. وسيتم التنفيذ اليوم».

ديسماس وغستاس حاولا إثارة الشعب ودعوته إلى العصيان والتمرّد. وقد ألقت السلطة القبض عليهما بعد معركة حامية. هذان اللصان محسوبان على الوالي. ولم يدر أي حديث عنهما. المجرمان الآخران باراباس والناصري: ألقي القبض عليهما وحاكمهما المجمع، طبقاً للقانون ووفقاً للتقاليد يجب إطلاق سراح أحدهما بحلول عيد الفصح المجيد، أي في هذا اليوم

وهكذا يرغب الوالي معرفة نية المجمع: أيّ المجرمين يُراد إطلاقه: باراباس أم الناصري؟

وأومأ قيافا برأسه أنّ المسألة واضحة وكذلك الجواب: فالمجمع يطلب اطلاق باراباس.

كان الوالي يعرف مسبقاً بماذا سيجيب قيافا، ويعلم دخيلته. فكّر كيف سيُبدي امتعاضه ودهشته من جواب رئيس الكهنة.

وأبدى بيلاطس دهشته بفنٍّ وتكلّف كبيرين: ارتفع الحاجبان في الوجه المتكبِّر المتغطرس وراح يتأمّل قيافا مذهولاً، وقال له بلين ورفق:

ـ جوابك أثار دهشتي. أخاف أن يكون ثمة تسرّعاً أو خطأ. السلطة الرومانية الزمنية لن تتعدّى حدود السلطة الروحية المحليّة، وهذا ما يعرفه رئيس الكهنة. لكن هنا ثمة خطأ فادح فاضح في هذه القضية. والسلطة مهتمّة بتصحيح هذا الخطأ. جريمة باراباس مختلفة عن جريمة الناصري من حيث الوزر والتبعات والمسؤولية. ولا يمكن المقارنة بينهما في حالٍ من الأحوال. فإذا كان الناصري، وهو المجنون حقًّا، مُتَّهماً بأقوال تافهة بلبلت أفكار الشعب في أورشليم وفي بعض الأماكن الأخرى، فباراباس أعظم وأدهى جريرة. لقد سمح لنفسه بالدعوة علانية للعصيان، وقَتَلَ الحارس بعد خطفه؛ إنّه أشدُّ خطراً وأبلغ ضرراً من يسوع الناصري.

استناداً إلى هذه الدلائل، يلتمس الوالي من رئيس الكهنة إعادة النظر في الحكم، وأن يطلق سراح الناصري: السجين الأقلّ ضرراً.

وتأمّل قيافا في عيني بيلاطس بنظرات مفعمة بالصراحة، وأجابه بصوتٍ هادىء النبرات، مؤكّداً أنّ المجمع درس القضية باهتمام بالغ، ويرغب باطلاق سراح باراباس.

ـ وكيف حتى بعد التماس العفو عنه، وبعد شفاعة من باسمه تتكلّم سلطة روما؟

وكرّر رئيس الكهنة بهدوء:

ـ ثالثةً، نُعلن أنّنا سنطلق سراح باراباس.

وانتهى الحديث. ولم يعد ثمّة حاجة لمزيد من الكلام.

سيغيب الناصري ولن يؤوب!... ولا خلاص للوالي من آلامه الجهنميّة المستعرة، ولن

تنجح في علاجها وسيلة!.. اللهمَّ سوى الموت... وليست فكرة الموت هي التي شغلت بال بيلاطس وجعلته واجماً... إنَّما كآبة خرساء طعنته في قلبه وافترسته... الكآبة ذاتها التي زارته في الشرفة.. وجهد إلى فهمها فإذا هي مرعبة!!..

خُيِّل إليه أنّه أثناء التحقيق لم ينه حديثه مع الناصري، ومن يَعْلَم ربما لم يستمع إلى كل ما نطق به؟!..

وطَرَدَ بيلاطس فكرة مزعجة آلمته. طردها بعيداً فولَّت مسرعة في لحظة كما أتت.. توارت الفكرة، أمَّا الكآبة الخرساء العميقة فظلَّت جاثمة.. وما استطاعت الفكرة القصيرة الثانية، التي ومضت كالبرق وتلاشت، أن تعلِّل سر الكآبة الدفينة!...

الفكرة كانت عن الخلود. وهل حقًا حلّ زمان الخلود والأبديّة؟ أي خلود وأيّة أبديّة؟.. ولم يستطع الوالي أن يجيب؟!.. التفكير بالخلود سبَّب له قشعريرة من برد سرت في مفاصله، بالرغم من أشعَّة الشمس المحرقة..

قال بيلاطس مجيباً قيافا:

ـ حسناً ليكن ما تريد!.

أجاب بيلاطس بهذا والتفت راشقاً عالم المرئيات أمامه بنظرة، وتعجَّب من التغيير الذي طرَأ على هذا العالم. زالت الأزهار وتوارت أشجار السرو المحيطة بالشرفة. وتلاشت كذلك شجرة الرمَّان واختفى التمثال الأبيض والخضرة المحيطة به.

طافت أجمة أرجوانية أمام عيني الوالي، أجمة تمايلت أعشابها وتحرَّكت ميمِّمة جهة ما... وتحرّك معها بيلاطس مسافراً هو الآخر!.. غضب مرعب. غضب العجز الحارق الخانق اختطف بيلاطس... فجمجم: واخيبتاه!.. وا حرَّ قلباه أنا في ضيقة وعسر!... وبيد رطبة انتزع بيلاطس زرًّا من ياقة الرداء، لكنَّه سرعان ما سقط منه على الأرض.

وهتف قيافا:

ـ يوم خانق الحرّ، لا بدَّ سيعقبه هبوب غواصف، نيسان هذا العام فظيع! ـ نطق قيافا بكلماته هذه ولم يحوِّل نظراته عن وجه الوالي الأحمر، الذي كان كأنَّه يخشى، ويعلم بآلام الغد الآتية.

وأجاب بيلاطس:

ـ لست متضايقاً من الحرّ، إنَّني منزعج ممَّا حدث يا قيافا. وأردف وهو يزر عينيه ويبتسم: احترس يا رئيس الهكنة.

ولمعت عينا رئيس الكهنة القاتمتان، وبدت على وجهه دهشة ما كانت بأقل من تلك التي غشت وجه الوالي منذ قليل، وأجاب بثقة وكبرياء:

ـ ماذا أسمع أيها الوالي؟ أتهدِّد، بعد إقرار حكم أنت صادقت عليه بنفسك؟ أيعقل

هذا؟ عوّدنا والي روما أن يروز كلماته ويختارها قبل أن يتفوّه بها!. هل يسمعنا أحد يا إيغمون؟!.

وتأمّل بيلاطس رئيس الكهنة بعينين انطفأ نور سوادهما، وابتسم بل قُلْ كشّر وقال:

ـ ماذا تقول يا رئيس الكهنة؟ ومن الذي يسمعنا الآن ونحن هنا؟ وهل تراني أشبه ذلك الشاب العبيط المشرّد الذي سيُعدم اليوم؟ أتراني صبيًّا يا قيافا؟ إنّني أعي وأدرك تماماً ما أقوله. الحديقة مطوّقة، وكذلك القصر، وحتى الفأرة تعجز عن اختراق هذا الطوق، بل حتى ذاك البيتلحمي، على سبيل التذكير، أتعرف ذلك الفتى.. يا رئيس الكهنة؟

أجـــل حتى لو اخترق هو الطوق وأتى إلينا لتحسّر على نفسه ولبكى بكاءً مرًّا ولقتلته الحسرة. إنّها، وأيم الحق، كلمات صادقة! واعلم يا رئيس الكهنة أنَّ الطمأنينة لن تزورك بعد اليوم ولن يعرفها شعبك. وأشار بيلاطس بيده إلى اليمين، حيث تلألأ هيكل، على قمّة عالية في البعيد. وأكمل: هذا ما يخاطبك به بيلاطس البنطي، الفارس ذو الرمح الذهبي.

ـ أعرف هذا، أعرف هذا، أجاب قيافا ذو اللحية السوداء، بلا وجل، أجاب، وقد لمعت عيناه ورفع يديه إلى السماء، وأضاف: شعب اليهوديّة، يعرف حقَّ المعرفة بمدى الكراهية الفظيعة التي تُكنّها له، ويعلم كم تسبّب له من الآلام العظام، لكنَّك لن تقدر يا بيلاطس أن تقضي على هذا الشعب! فالرب يحميه ويزود عنه، والقيصر القادر يسمعنا ويحمينا من شرّك أيها الفاسد المُفْسِد.

وأجاب بيلاطس:

ـ لا... لا تتكلّف، لا أحد يريد ذلك، لا ضرورة لاختيار الكلمات. ورافق بريق سعادة شعَّ من عينيه، الكلمات التي كان يتفوّه بها وأكمل:

لقد شكوتني يا قيافا كثيراً للقيصر وتظلّمتني، والآن أتى دوري في الكلام الآن! الآن! سأطيّر خبراً لا إلى عامل (أنتيوخويا) ولا إلى (روما) إنّما مباشرة إلى (كاپريو)، إلى الأمبراطور نفسه. سأخبره كيف تحمون العصاة في أورشليم وتتركونهم أحراراً دون عقاب، ولن أروي أورشليم بماءٍ من بُرك سليمان، كما أردت أنت وحرصت أن تنتفع. أجل لن أروي أورشليم بالمياه!... وتذكّر يا قيافا كيف أُجبرت، من أجل إرضائك أن أُنظّف أسوار المدينة من رسوم التروس المهورة بوسم الأمبراطور، وأن أنقل العسكر وأجيء بنفسي لأرى بأمّ العين ما يحدث عندكم. تذكّر كلماتي يا رئيس الكهنة: لن ترى عيناك كتيبة واحدة في أورشليم، سيزحف فيلق من الحرس الأمبراطوري حتى أسوارها، وستزحف خيول العرب أيضاً.. وحينذاك ستسمع أذناك البكاء المرّ والعويل، وستتذكّر باراباس الذي (خلّصته)، وستندم لأنّك سلّمت للموت الفيلسوف المبَشّر بتعاليم المحبة، الداعي إلى السلام.

وامتقع وجه رئيس الكهنة والتهبت عيناه كآبة وحنقاً، ومثل الوالي ابتسم مكشّراً وقال له:

ـ أتؤمن أيها الوالي بِمَ تقول؟ أمصدّق نفسك؟! لا! لم يأتنا بالسلام ذلك الذي غرّر بالشعب في أورشليم، وهذا أمر تعرفه حقّ المعرفة، أيّها الفارس. تريد أن تحرّره ليبلبل الأفكار وليتهكَّم على العقيدة، ويدعو الناس للتمرّد تحت سيوف الرومان! من جهتي كرئيس كهنة اليهودية أعلن: طالما أنَّني على قيد الحياة، فلن أسمح لأحد بالتهكُّم على العقيدة، وسأدافع عن الشعب. أتسمع يا بيلاطس...، ورفع قيافا يده مهدِّداً وأكمل: اصغ ... وصمت المتحدِّثان وقد تناهى إلى مسامعهما صخب وضجيج.. وهدير أمواج البحر المتكسِّرة على أسوار حديقة هيرودوس الكبيرة.

هدير وضجيج تناهى إلى حيث قدمي.. ووجه الوالي ومن وراء ظهره، من وراء القصر، سَمِعَ نفير أبواقٍ تُنذر بالخطر وجلبة سبّبها وقع مئات الأقدام، وصلصلة حديد. وعرف سبب الضجيج: فوج المشاة يزحف، حسب أوامر الوالي، للقيام بعرض عسكري، كي يخيف اللصوص والعصاة، قبل تنفيذ حكم الاعدام.

وردَّد رئيس الكهنة بصوت خافت:

ـ أتسمع أيّها الوالي، قال هذا ورفع يديه الاثنتين: فسقطت القلنسوة السوداء عن رأسه، وأكمل: أيمكنك القول إن مُسبِّب كل هذا هو اللص المسكين باراباس.

ومَسَحَ الوالي براحة يده جبهته المبلَّلة الباردة، وأطرق. ثم عاد ونظر إلى السماء وهو يزرّ عينيه، فرأى أنَّ الكرة الملتهبة استقرَّت فوق رأسه، وقد تقلَّص ظل قيافا عند ذنب تمثال الأسد. وما لبث أن قال بصوتٍ خافتٍ رشحت منه اللامبالاة: ـ

ـ أدركتنا الظهيرة، وقد تلهَّينا بالحديث، فيجب أن ننتهي.

ثم أبدى اعتذاره بلطف من رئيس الكهنة، وطلب منه أن يجلس في ظلٍّ شجرة الماغنوليا، وأن ينتظر ريثما يتسنَّى له دعوة الباقين إليه والتشاور معهم، بشأن الاعدام.

وانحنى قيافا بتهذيب، وهو يضع يده على قلبه، وبقي في الحديقة. أمَّا بيلاطس فقد عاد إلى الشرفة، وأمر أمين سرّه، الذي كان ينتظره، أمره أن يدعو إلى الحديقة قائد الفيلق، والناطق باسم الكتيبة، واثنين من أعضاء المجمع، ورئيس حرس الهيكل، والكلّ كان ينتظر الدعوة، وكانوا يقفون على مدرج الحديقة السفلي، عند التعريشة المستديرة بالقرب من النافورة.

وأبلغ بيلاطس أمين سرّه أنَّه سيخرج لملاقاتهم. ثم قَفِلَ راجعاً إلى داخل القصر.

وفيما انهمك أمين السرّ بترتيب الاجتماع، كان الوالي على موعد مع انسان مجهول في الغرفة المظلمة، المحجوبة بالستائر السوداء. ورغم أنَّ شعاع الشمس المتسرِّب إلى تلك الغرفة

كان ضعيفاً، ولا خوف على الغريب أن يُعرف أو يُرى، فقد غطّى وجهه بقلنسوة حتى الأنف.

كان اللقاء قصيراً جداً. خاطب الوالي الغريب أثناءه ببضع كلمات وبصوتٍ خافت. بعدها غادر الرجل، وخرج بيلاطس، عبر الرواق، الى الحديقة. وهناك أمام الحاضرين الذين رغب برؤيتهم، أكّد بيلاطس باجلال ووقار، مصادقته على الحكم بإعدام الناصري، ثم استوضح رسميًّا من أعضاء المجمع، عن اسم المجرم الذي يرغبون بإبقائه حيًّا. فكان الجواب: باراباس.

حينئذٍ قال الوالي:

حسناً جداً. وأمر أمين سرّه بتدوين ما حصل في المحضر، وهو يضغط بيده على الزرّ الذي التقطه أمين السرّ من فوق الرمال وأعاده إليه. وبعدها تلفَّظ بوقار: هيَّا بنا.

وتحرّك الجمع على السلّم الرخامي العريض، ونزلوا بين جدران من الورود الفوّاحة بالأريج، إلى الطابق السفلي، حيث سور القصر والبوابة المؤدّية إلى ساحة مبلّطة وممهّدة، تُشاهد في آخرها أعمدة وتماثيل ميدان أورشليم.

فرقة واحدة فقط، وهي في طريقها من الحديقة، مشت فوق المنصَّة الحجريّة الفسيحة المشرفة على الساحة. والتفت بيلاطس حوله عبر جفنين مضيّقين وأدرك واقع الحال.

الفسحة الممتدّة من سور القصر حتى المنصّة، والتي اجتازها بيلاطس لتوّه، كانت خالية من الناس. وبعد مضي بعض الوقت، لم يعد بيلاطس يَرَ أمامه شيئاً، طمره سيل بشري. ولولا صفوف الجند الثلاثة عن يساره، وجنود الكتيبة المساعدة عن يمينه، لطغى السيل البشري على المنصّة وعلى الفسحة الخالية.

وأوقف جُند الميمنة والميسرة سيل البشر العرمرمي، وصعد بيلاطس إلى المنصّة، وضغط آلياً بقبضة يده على الزرّ العديم الفائدة، وزَرَّ عينيه.

لم يُزرّ عينيه بسبب أشعَّة الشمس الحارقة. بل لأنَّه لم يرغب، لسبب ما، رؤية السجناء، وقد عرف بالتأكيد أنَّهم سيساقون وراءه إلى المنصّة.

وما أن خفق الرداء الأبيض ذو البطانة الحمراء بلون الدم، فوق الصخرة الحجريّة عند حافَّة بحر البشر المتماوج، حتى تناهى إلى مسامع بيلاطس، وقد أغشي على بصره، هدير موجة صوتية ها... ها... ها. هدير موجة صوتية بدأت ضعيفة آتية من مكان بعيد، من قرب الميدان، ثم ارتفع دويها كقصف الرعد، لتستمر بضع ثوانٍ وتعود فتتلاشى.

وفكَّر الوالي في نفسه: «لقد رأوني».

قبل أن تتلاشى الموجة تماماً، عادت فجأة لتدوّي وتتهادى أعتى وأقوى من ذي قبل.

وكما يرغي الزبد فوق الموج، كذلك تعالى صراخ وعويل نساءٍ أتى من مكان بعيد، ولم

تطغ عليه الأصوات المدوية كقصف الرعد.

«يُساقون إلى المنصّة، فكَّر بيلاطس في نفسه، ولا بدّ أن ثمّة نسوة ديست بالأقدام أثناء طغيان الموج البشري».

وانتظر بعض الوقت، وقد أدرك أنّه ما من قوّة قادرة على إسكات الحشد، حتى ينفث مكنونات صدره، فيسكت تلقائيًا. وما أن حانت اللحظة المؤاتية، ودوت جلبة الحشد الأخيرة، حتى رفع بيلاطس يده اليمنى نحو السماء، وملأ صدره هواءً ساخناً، ودوى صوته المنقطع النبرات عالياً فوق آلاف الرؤوس:

ـ باسم القيصر الأمبراطور:

ودوت في أذنيه صلصلة حديد... وتعالى صراخ. رفع الجنود رماحهم وراياتهم في الهواء وهتفوا بأصوات تثير الهلع:

ـ فليحيا القيصر!

ورفع بيلاطس رأسه وعَرّضَه مباشرةً لأشعّة الشمس، واتّقدت تحت جفنيه نار خضراء، أحرق لهيبها دماغه، وطارت فوق رؤوس الحشد كلمات آرامية بحّاء:

سُجن أربعة مجرمين في أورشليم، عقاباً على جرائم اقترفوها: جرائم قتل وتحريض وإهانة للقوانين، وتهكّم على العقيدة. وقد حوكموا بالموت الشنيع، بأن يعلّقوا على أعواد المشانق. وهذا الحكم سينفّذ بهم فوق الجبل الأجرد!.. وهاكم أسماءهم: ديسماس وغستاس وباراباس والناصري. وها هم أمامكم جميعاً!..

وأومأ بيلاطس بيده اليمنى، دون أن يرى أيًّا من المجرمين، لكنّه كان متأكّداً من أنّهم في مكانهم المخصّص لهم.

وأجاب الحشد بهدير طويل وغمغمة... لا أحد يعلم إذا ما كانت غمغمة استغراب أو ارتياح.

وحينما سكنت الضجّة، أكمل بيلاطس:

إنّما سيُنفّذ حكم الاعدام بثلاثة منهم فقط، أمّا الرابع فسيوهب الحياة، سيمنحه قيصرنا الكريم حياته التعسة، إكراماً لعيد الفصح المجد ووفقاً لما تقتضيه الشريعة والتقاليد.

وقد تمّ اختيار الشخص الرابع من قبل المجمع الصغير، وبعد موافقة السلطة الرومانية.

بعد أن أنهى بيلاطس خطابه، هيمن صمت شامل مطبق، وسكن الضجيج، ولم يَعُد يعكّر بحر الصمت نأمة.

ومرّت لحظة خُيِّل لبيلاطس فيها أنّ كلّ شيء توارى من حوله واندثر، وزالت أورشليم المدينة البغيضة إلى قلبه، وبقي وحده مسمَّراً في مكانه، تحرقه أشعّة الشمس العمودية، يشخص ببصره إلى السماء.

وبعد صمت قصير عاد وهَتَف:

- اسم ذاك الذي سيطلق سراحه...

سكت لحظة ولم ينطق بالاسم. سكت ليتأكَّد هل قال كل شيء. فالمدينة الميتة ستبعث حيَّة، بعد أن يعلن اسم المحظوظ السعيد، وبعد ذلك لن يعود ممكناً أن تُسمع أيَّة كلمة من كلماته.

همس بيلاطس سائلاً نفسه: «أقلت كلّ شيء؟.. نعم.. قلت كل شيء وبقي الاسم!.».

وهَتَف ناشراً حرف الـ «ر» فوق المدينة الصامتة:

- اسمه بارّاباس!...

وهنا خيِّل له أنَّ الشمس انفجرت فوق رأسه وتكسَّرت، وسمعت أصوات انفجارها، وغمرت أذنيه بالنار... وامتزج الصراخ والزعيق والزئير والولولة...

وتقهقر بيلاطس إلى حيث السلالم. ولكي لا يتعثَّر، لم يعد ينظر إلاَّ إلى حجارة أرض المنصّة ذات الألوان المختلفة.

كان يعلم، أنَّه من وراء ظهره، ستنهمر قطع النقود البرونزية على المنصّة كوابل المطر، وأنَّ أفراد الحشد الغفير الصاخب سيدوسون بعضهم بعضاً، وسيتزاحمون بالمناكب ليروا بأعينهم الانسان المعجزة، الذي كان بين يدي الموت ونجا!... سيتسابقون ليروا الحرَّاس، كيف سيحلّون وثاقه، مسبِّبين له دون قصد، آلاماً مبرّحة، في يديه اللتين تفسَّختا، وليروا كيف سيتأوَّه من الألم وسيقطِّب حاجبيه، ورغم ذلك سترتسم على مخايله ابتسامة فارغة بلهاء.

وعلم بيلاطس أنَّ خفيراً يقتاد، في هذا الوقت، المعتقلين الثلاثة مكبَّلين إلى درجات المنصّة الجانبية، بغية إخراجهم إلى جبل جلعاد في ضاحية المدينة الغربية.

ولمَّا وصل بيلاطس إلى خلف المنصّة، إذ ذاك فتَّح عينيه، وقد شعر أنَّه أصبح الآن آمناً، بعيداً عن أنظار المعتقلين.

وامتزجت هتافات المنادين بالصخب الذي بدأ يخفت. هتافات سُمعت بقوّة، كان بعضها يكرِّر باللغة الآرامية، والبعض الآخر باليونانية ما سبق وتفوّه به الوالي من فوق المنصّة.

وتناهى إلى مسامعه وقع حوافر خيل تقترب خبباً، ونفير بوق فرح النغم. ومن فوق سطوح البيوت المطلّة على الشارع، الممتدّ من الساحة إلى السوق، حاكى صبية صغار أنغام البوق بصفير حادّ وهتافات: احترس! احترس!.

وفي الساحة الخالية وقف جندي وحيد، يحمل بيده راية راح يلوِّح بها وقد استبدّ به

القلق. في هذه الساحة أيضاً توقَّف الوالي وقائد الفيلق وأمين السرّ.

واندفعت نحو الساحة كتيبة من الخيَّالة على صهوات جياد تسابق الرياح، واجتازتها من جانبها، متجنِّبة الحشد، وسلكت زقاقاً بموازاة جدار حجري، عرَّشت عليه دالية. وبسلوكها ذلك الزقاق أمَّنت وصولها إلى الجبل الأجرد بأقصر الطرق.

حينما أصبح قائد الكتيبة، السوري، النحيف الضئيل، الزنجي البشرة، الطائر فوق سرجه، بمحاذاة بيلاطس تفوَّه بكلمات لطيفة، وانتضى سيفه من الغمد، فجفلت فرسه السوداء الشموس، المبلَّلة بالعرق وشبَّت. وساط القائد الفرس على عنقها، وأودع سيفه في الغمد، وقطع الزقاق خبباً.

وطارت وراءه جموع الخيَّالة صفًّا صفًّا. كان كل صفّ يتألَّف من ثلاثة فرسان قرنوا أسنَّة رماحهم الخيزرانية، واندفعوا في غمرة الغبار من أمام الوالي، وقد بانت وجوههم السمراء، زادتها سمرة عمائمهم البيض، وأسنانهم المتلألئة فرحاً.

واقتحمت الكتيبة الزقاق، وحجبت السماء بالغبار. وكان آخر من مرَّ من أمام بيلاطس، جندي حمل على ظهره بوقاً تكسَّرت عليه أشعّة ذكاء.

وأكمل الوالي طريقه عابساً ساخطاً، مغطياً وجهه بيديه اتِّقاءً للغبار. واتجه نحو باب حديقة القصر، ومشى وراءه قائد الفيلق وأمين السرّ والحارس. وكان ذلك في حوالي الساعة العاشرة صباحاً...

الفصل الثالث

البرهان السابع

وأنهى البروفسور حديثه بقوله:

« نعم سيّدي الكريم إيڤان نيقولايڤتش، حدث ذلك في الساعة العاشرة صباحاً ».

ومسح الشاعر وجهه بيده، كإنسان استيقظ لتوّه من النوم، فرأى أنَّ ساعة المغيب وافت: مياه البُرك اسودَّت، وعلى سطحها تهادى قارب خفيف، وسُمعت جلبة المجداف، وضحك امرأة كانت في القارب، وحشدٌ من الناس ظهر. جلسوا على المقاعد التي كانت في الممرّات. المقاعد التي أحاطت المكان من جهاته الثلاث، أمَّا الجهة الرابعة فقد شغلها محدّثونا.

وبانت سماء موسكو وكأنَّ شحوب السقم عرّاها، وفي كبدها بان القمر بدراً أبيض ولمّا يوشّى بلونه الذهبي. وأضحى التنفُّس أمتع، ووقع الأصوات تحت أشجار الزيزفون أرخم. فالمساء أسبغ من روحه على المكان نعومة ورقَّة.

وفكّر بزدومني متعجّباً:

- كيف استطاع أن يلفِّق قصّة كاملة ولم أنتبه له؟ حلَّ المساء!، ومَنْ يدري علّه ليس هو الذي قصَّ على مسامعي هذه القصَّة، قد تكون مجرَّد حلم رأيته في غفوتي؟!...

إنّما يجب الاعتقاد، لا بل التصديق، بأنَّ البروفسور هو الذي قصَّ على مسامعهم القصّة، وإلاَّ يُظنَّ أنَّ برليوز أيضاً رأى الحلم ذاته، إذ أنَّه سرعان ما خاطب الغريب وهو يتأمّل وجهه:

- إنَّ قصّتك أيّها البروفسور شيّقة وطريفة، لكنَّها تختلف عمَّا جاء في الإنجيل.

وأجاب البروفسور وقد ارتسمت على وجهه مخايل ابتسامة ساخرة:

- العفو! العفو! عليكم أن تعلموا أنَّ ما حدث في الحقيقة لا يتطابق أبداً مع ما جاء في الانجيل، وإذا اتّخذنا نصوص الانجيل مصدراً تاريخيًّا نستشهد به...

ولم يكمل البروفسور، ضحك من جديد ساخراً، وجرض برليوز بريقه لأنَّ محدِّثهم الغريب أعاد الكلمات ذاتها التي خاطب بها الشاعر صديقه المحرِّر، حينما مشيا في شارع (برونايا) وهما في طريقهما نحو برك (البطريركيّة).

وسأل برليوز :

ـ حسناً وما يثبت لنا، أنّ ما حدّثتنا به وقع فعلاً ؟

فأجاب البروفسور :

ـ ثمّة من هو قادر على إثبات ذلك.

وشرع الغريب يتكلّم بلغة مكسّرة، والثقة تملأ نفسه؛ وفجأة رنا إلى الصديقين وأشار عليهما بأن يدنوا منه. ليعلن لهما بلغة سليمة لا تشوبها تلك اللكنة الغريبة، التي لا يعلم أحد حتى الشيطان لماذا كانت تارة تختفي، وتارة تعود إلى الظهور، ليعلن لهما، جزعاً، هامساً :

ـ المسألة في أنّني كنت حاضراً، مع بيلاطس البنطي على الشرفة وفي الحديقة، أثناء حديثه مع قيافا.. وعلى المنصّة أيضاً، إنّما كان حضوري سريّا، وفي الخفاء. لذلك أرجوكما أن لا تبوحا لأحد بكلمة واحدة ممّا قلته لكما. وليكن ما أعلنته لكما سرًّا من الأسرار...

وهنا رانَ صمتٌ مطبَق. عكّره برليوز سائلاً بصوته المرتجف النبرات، وقد شحب لون وجهه :

ـ في أي يوم وصلتم إلى موسكو ؟

فأجاب البروفسور، وقد بَدَت إمارات الحيرة على وجهه :

ـ في هذه الدقيقة.

وهنا فقط ارتأى الصديقان أن يتأمّلا عيني الغريب، ويتمعنا في وجهه.

رأيا العين اليسرى، خضراء اللون، مصابة بالخبل، واليمنى سوداء فارغة، مُطفأة.

وفكّر برليوز في نفسه قلقاً :

عرفنا السرّ.. فجليسنا ألماني، أتانا من دون عقل، وربّما فَقَدَهُ في هذا المكان.. نعم! لقد أُعلِنت الخفايا، وانكشفت الأسرار، بما فيها سرّ ذلك الفطور العجيب الغريب عند المرحوم كانط... وسِرُّ تلك الأحاديث الخرقاء... والنبوءة بقطع الرأس، وغير ذلك وغير ذلك... يا للبروفسور المجنون!...

وفَطِنَ برليوز في الحال لما يجب عليه عَمَله. استقام في جلسته على المقعد، ومن وراء ظهر البروفسور غَمَزَ صديقه الشاعر وأشار عليه بأن يكفّ عن الجدل. لكنّ الشاعر المشوّش التفكير، لم يفهم معنى تلك الإشارة.

ـ نعم!.. نعم!.. نعم!.. قال برليوز مهتاجاً ـ صفوة القول: الأمر جائز، بل وأكثر من جائز... بيلاطس البنطي، الشرفة... وغير ذلك، جئت وحيداً أم مع زوجتك ؟

فأجاب البروفسور بمرارة:

ـ وحيداً وحيداً، أنا دائماً وحيد.

ـ وأين وضعت أمتعتك ؟ سأل برليوز بايجاز، وأردف: في المتروبول ؟ أين حللت ؟

ـ أنا؟!.. لا مكان لي أستقر فيه، أجاب الألماني ـ نصف العاقل، نصف المجنون ـ بكآبة وخجل. وهو يطوّف عينه الخضراء فوق البرك.

ـ كيف؟ وأين ستقيم إذن؟.

ـ سأقيم في شِقَّتك!. أجاب المجنون فجأة بصراحة وبوقاحة، وغمز بعينه.

وجمجم برليوز مجيباً:

ـ إقامتك عندي لا شكّ ستُشرح خاطري، لكـنَّ بيتي غير مـريـح، حقًّـا، وغـرف المتروبول بديعة: إنَّه من فنادق الدرجة الأولى!!.

وفجأة، سأل الغريب المريض محدّثه إيڤان مستفسراً:

ـ وعن إبليس ماذا تقول؟

تبسَّم برليوز، لكن ابتسامته جاءت أقرب إلى التكشيرة منها إلى الابتسامة، وفي الوقت ذاته، حذَّر صديقه من وراء ظهر البروفسور ناهياً عن الجدل، وهمس:

ـ لا وجود لإبليس ولا للأبالسة!..

ثم هتف إيڤان نيقولايڤتش غاضباً، وقد أفقدته الأسئلة التافهة عقله، فخرج عن طوره، وأردف بكلمات نابية لا يحمد عقباها:

ـ أترانا نقاصص بمجيئك إلينا! أقلع عن هذه الصرعات الجنونيّة..

وما أن سمع المجنون هذه الكلمات حتى أطلق ضحكة رنَّانة هستيرية، أخافت غراباً كان يجثم على غصن شجرة الزيزفون، فطار وأخذ يرفرف فوق رؤوس الجالسين.

وقال البروفسور وهو يهتز من الضحك:

ـ أمر غريب حقًّا، ماذا تراني فاعلاً معكما، ما إن أسألكما عن أمرٍ حتى تسارعان إلى النفي!...

وبغتةً قطع قهقهته، مثل جميع المصابين بالأمراض النفسية، فبعد موجة الضحك، انتابته موجة هستيرية معاكسة، فغضب وصرخ حانقاً:

ـ يعني أنَّكم لا تعترفون بوجود أحد؟!.

ـ إهدأ! إهدأ إهدأ أيها البروفسور، غمغم برليوز متجنِّباً إثارة المريض ـ ابقَ دقيقة واحدة مع الرفيق بزدومني وأنا سأركض حتى الزاوية، أريد أن أتلفن، وبعد ذلك نصحبك إلى حيث تريد! فأنت لا تعرف المدينة..

يجب الإقرار بأنَّ تفكير برليوز كان سليماً وصحيحاً، فقد كان لا بدَّ من الإسراع إلى أقرب هاتف آلي، وتبليغ المكتب الخاص بالأجانب، أنَّ مستشاراً يزعم أنَّه آتٍ من بلد أجنبي، يجلس عند برك «البطريركية»، يثير الشكوك، ومن الضروري اتخاذ الاجراءات اللازمة، وإلاَّ ستحدث فضيحة كبرى.

ـ تتلفن؟! حسناً! ـ وافق المريض مكمّداً. وفجأة طَلَبَ بل توسّل وبلهفة:

ـ أناشدكما قبل ساعة الوداع، أن تؤمنا بوجود إبليس! على الأقل!. لا أطلب منكما أكثر. ضَعا نصب أعينكما وفي رأسيكما البرهان السابع.. فهو البرهان الأوثق والحجة الأقوى! وسيعلن لكما الآن!.

ـ حسناً! حسناً!. ـ أجاب برليوز ممالقاً مراوغاً، وقد غمز صديقه الشاعر المتكدِّر الذي لم تسغه فكرة مراقبة الألماني المجنون، فعل برليوز هذا وراح يسعى ميمِّماً شطر البوّابة الواقعة عند تقاطع شارع (بروناّيا) وزقاق (ميرما لايفسكي).

وفجأة تغيّرت حالة البروفسور، فكأنّه أبلَّ تماماً وصحا، فنهض ولحق ببرليوز صائحاً:

ـ ميخائيل ألكسندروڤتش!..

ارتعش المنادَى والتفت.. لكنّه سرعان ما هدأ وقد لمعت في رأسه فكرة: «من يعلم لعلَّ معرفة البروفسور باسمي واسم أبي مصدرها إحدى الصحف أيضاً؟!.

وأردف البروفسور وقد شبك يديه كالبوق:

ـ إذا شئت، فإنّني أبرق الآن إلى عمِّك... في مدينة كييف!؟

وهنا أُسقط في يد برليوز. كيف عرف هذا المجنون بوجود ذلك العمّ في مدينة كييف؟! فهذا لم يُعلن في أيّة جريدة. وَيْحَ قلبي، أيكون بزدومني على حقّ؟ وتكون الوثائق التي أظهرها البروفسور مزوَّرة؟ يا للمخلوق العجيب الغريب!.. يجب التبليغ. يجب الاتصال هاتفياً، ويُماط اللثام بسرعة عن السرّ.

واصل برليوز ركضه، غير آبهٍ بما سيحدث، وفي نهاية الشارع نهض مواطن من على مقعده لملاقاته. لاقاه ذلك المواطن الذي تجسَّد في هاجرة القيظ. ما كان هذه المرَّة كائناً شفّافاً بل ماديًّا سويًّا. واستطاع برليوز أن يرى في دغشة المساء شاربي هذا الانسان الشبيهين بريشتي دجاجة، وعينيه الصغيرتين نصف الثملتين، وبنطاله المقطَّع بترابيع، وقد شدَّه إلى أعلى، فأظهر الجوارب البيضاء المتَّسخة.

كاد ميخائيل ألكسندروڤتش يرتدّ إلى الوراء، لكنّه اقتنع بأنّها مجرَّد مصادفة سخيفة، ولا وقت الآن للتفكير بمثل هذه الأمور.

وبادر الغريب (صاحب البنطال ذي الترابيع) إلى الاستفسار بصوتٍ رفيعٍ يجلجل:

ـ تُفتِّش عن البوّابة أيّها المواطن؟ تفضَّل إلى الأمام... وستخرج إلى حيث تريد! يا حبّذا لو قدَّمت لنا ربع ليتر من الڤودكا لأنّنا هديناك، ربع ليتر وينتعش رئيس المرتّلين السابق!...

نطق الغريب بهذا بكثير من التكلّف وانتزع بعصبيّة طاقيته عن رأسه. تلك الطاقية التي تشبه طاقيات الجوكيين.

لم يُصغِ برليوز إلى أقوال السائل الغريب، المدّعي بأنّه كان رئيس مرتّلين، وأكمل طريقه إلى البوّابة وعالجها بيده، وما أن فتحها وتحفّز ليكمل سيره نحو السكّة الحديدية حتى بهر عينيه رشّاش من أنوار حمراء وبيضاء، أضاءت الواجهة الزجاجية كلمات: «احترز من الترام!».

واقتربت الحافلة مسرعة، بعد أن اجتازت المسافة الممتدّة من (يرمالايفسكي) حتى (برونّايا). ولمّا أنهت لفّة الكوع وتابعت سيرها على السكّة المستقيمة، أُضيء فجأة نور الإنذار الكهربائي من الداخل، فصفّر الترام منذراً مكثراً من الصفير.

ورغم أنّ برليوز كان يقف في مكان آمن وبعيد، فقد قرّر أن يرجع إلى ما وراء الحاجز، فأمسك مقبض البوّابة بيده وتراجع خطوة إلى الوراء. لكن يده تملّصت ورجله انزلقت على بلاطة، كما لو كانت بلاطة من الجليد. ولم تعد تقوى الرجل الثانية على حمله، فوقع ووجد المسكين نفسه فوق قضبان السكّة الحديدية. حاول التشبّث بشيء ما فلم يفلح، فسقط على ظهره وارتطم قذاله بالبلاطة، وتراءى لناظريه القمر التائه في كبد السماء وكأنّه موشّى بالذهب، غير أنّه لم يَعِ أكان القمر عن يمينه أم عن شماله. وانقلب على جنبه، وبحركة هستيرية أدنى رجليه إلى بطنه، والتفت، فرأى امرأة، بعصابة حمراء، مندفعة نحوه كالسيل الجارف، وقد أحال الرعب لون وجهها إلى البياض. كانت هذه الامرأة هي سائقة الترام.

ولم يصرخ برليوز. لكن من كل أنحاء الشارع علا الزعيق.. زعيق نسوة كنّ هناك.

كبحت السائقة الفرامل الكهربائي، فثبّتت مقدّمة العربة، لكنّها عادت وفي لمح البصر ووثبت إلى الأمام. فطار زجاج النوافذ وتناثر وأحدث رنيناً ودويّاً كقصف الرعد.

وهتف مجهول بصوت يائس في دماغ برليوز: «أحقًّا يحدث مثل هذا؟».

ولاح القمر لعينيه للمرّة الأخيرة لكنّه بدا مبعثراً ممزّقاً... وأسدلت الظلمة ستارها على المكان.

ودهس الترام برليوز... وفوق بلاطة تحت سقف الممر رُمي بشيء ما مستدير قاتم.

وتدحرج هذا الشيء من فوق بلاطة، وراح يثب متقلّباً في الشارع فوق البلاط..

كان هذا الشيء: رأس برليوز وقد بُتِر!...

الفصل الرابع

المطاردة

هدأت صرخات النساء الهستيرية، وثقبت صفَّارات الشرطة بصفيرها الحادّ الآذان. وحضرت إلى المكان سيارتا إسعاف، نقلت احداهما الجسد والرأس المقطوع إلى قاعة الموتى، ونقلت السيارة الثانية السائقة الجميلة وقد جُرحت بالشظايا الزجاجية. حضر كذلك إلى المكان عاملا تنظيفات بمراويلهما البيضاء، فكنَّسا الشظايا وطمرا بُرك الدم بالرمال، وتهالك إيڤان نيقولايڤتش مرتمياً على المقعد، وتسمَّر، ولم يصل إلى البوَّابة.

حاول بزدومني مراراً أن ينهض فلم تسعفه قدماه. أصابه ما يشبه الشلل. فما أن سمع الصرخة الأولى حتى وثب يركض نحو البوَّابة، فرأى الرأس متدحرجاً فوق الجسر.

منظر مرعب حقّاً أفقده عقله وجعله يتهالك مرتمياً على المقعد، ويعضّ يده فيسيل منها الدم.

نسي طبعاً ما كان من أمر الألماني المجنون، حاول فقط أن يفهم مسألة واحدة فقط: كيف يمكن أن يحدث ما حدث: بعد مضيّ دقيقة على حديثه مع برليوز: يرى الرأس وقد ابتُتر!... أيعقل هذا؟!!.

وتراكض الناس من أمام الشاعر إيڤان نيقولايڤتش، تراكضوا والقلق مرتسم على وجوههم، وهتفوا بكلمات مبهمة المعاني. لكن على مقربة منه، مصادفة، التقت امرأتان، إحداهما كانت حاسرة الرأس، أنفها أقنى، خاطبت رفيقتها بصوتٍ عالٍ، وسمعه الشاعر:

ـ أنوشكا! أنوشكتنا! أتت من (السادوڤايا)! وهذا من صنعها! اشترت زيت عبَّاد الشمس من محل البقالة، وضربت القنينة بالمقبض الحديدي... وانسكب الزيت! واتَّسخت تنّورتها... شتمت حتى شبعت!... وزلَّت قدم المسكين... وانزلق فوق قضبان السكّة.

من كل ما تلفَّظت به الامرأة: علقت كلمة واحدة في دماغ إيڤان المضطرب، وهذه الكلمة هي «أنوشكا»...

وغمغم الشاعر وهو يتلفَّت جزعاً: أنوشكا... أنوشكا؟ العفو، العفو...

وتلت كلمة «أنوشكا» كلمات (زيت عبَّاد الشمس) (بيلاطس البنطي)، ولم يعرف الشاعر سبباً لذلك...

أقصى عن ذهنه كلمة «بيلاطس»، وشرع يكرِّس سلسلة ابتدأت بالحلقة الأولى: كلمة

« أنوشكا ». واكتملت هذه السلسلة بسهولة مؤدية إلى البروفسور المجنون.

العفو! ألم يقل إن الجلسة لن تعقد لأنّ أنوشكا سكبت الزيت. خذوني بحلمكم... نعدم انعقاد الجلسة نصف مصيبة! لكنّه ألم يعلن بصراحة: إنّ امرأة ستقطع رأس برليوز ؟! نعم. نعم. نعم! ألم تكن سائقة الترام امرأة؟ ما هذا؟ هل من مخبر؟...

لم يعد ثمّة شك في أنّ المستشار الخفي رجل أسرار... عرف مسبقاً وبالتفصيل ما سيحيق ببرليوز. وأيّة منيّة مرعبة سيلقى.

واقتحمت دماغ الشاعر فكرتان:

الفكرة الأولى: أن البروفسور ليس بمجنون، ومن يقول ذلك فإنّه أبله.

والفكرة الثانية: أيكون هو المدبّر لكل ما حدث؟...

ـ كيف دبّر ذلك؟

ـ هذا ما سنعرفه!

وبعد لأي، نهض إيڤان نيقولايڤتش، ورجع إلى الوراء، إلى حيث تحدَّث مع البروفسور. فوجده لحسن الحظ لم يبرح مكانه.

كانت المصابيح تضيء شارع (برونّايا) بأنوارها، والقمر يرسل أشعّته الفضية فوق برك البطريركيّة. وفي ضوء القمر المخادع دائماً، بدا للشاعر أنَّ طلبه يقف متأبّطاً حربةً لا عصا.

كان رئيس المرتّلين أو الوصي يجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه الشاعر منذ قليل. كان الوصي يجلس وقد ثبّت فوق أنفه نظّارة لا لزوم لها. إحدى عدساتها كانت بلا زجاج، والأخرى مشقّقة. وبدا المواطن صاحب البنطال ذي الترابيع، بنظّارته تلك، أبشع مما كان حينما دلّ برليوز على سكّة الحديد.

وبجنان بارد، اقترب إيڤان من البروفسور وتأمّله متفرّساً في وجهه، فرأى أن لا إمارات للجنون عليه كما ظُنّ من قبل.

وسأل إيڤان بصوتٍ خافت:

ـ من أنت، اعترف؟

والتفت الغريب وكأنّه يرى الشاعر لأوّل مرّة وأجاب باهجةٍ عدائية:

ـ لا أفهم... تتكلّم بالروسيّة...

وهتف الوصي وهو في مقعده، مع أنَّ أحداً لم يطلب منه تفسير كلمات الأجنبي:

ـ إنّه لا يعرف التحدّث باللغة الروسية.

وقال إيڤان مهدّداً، وقد شعر ببرودة في فم المعدة:

ـ لا تتظاهر بأنّك لا تفهم، ومنذ قليل كنت تتكلّم بالروسية كأحسن ما يكون. أنت لست ألمانيًّا ولا بروفسور! أنت قاتل وجاسوس!... وأردف إيڤان حانقاً: أبرز وثائقك!.

ولوى البروفسور ـ اللغز فمه مشمئزاً ، فم كان في الأصل ملتوياً ، وهزَّ كتفيه .

وصاح الرئيس الكريه من جديد :

ـ ماذا دَهَاك أيها المواطن ؟ إنَّك تزعج السائح ؟ وقد تعاقبك الشرطة على عملك هذا وتدفع الجزاء ! .

وفي هذه الأثناء حوّل البروفسور المشبوه وجهه ، وصعَّر خدّه وابتعد عن إيڤان .

وشعر إيڤان بحيرة كادت تفقده عقله ، فتوجَّه بنداءٍ إلى رئيس المرتِّلين :

ـ إيه ! أيها المواطن ! ساعدني لنلقي القبض على المجرم . إنَّك مُلزَمٌ بهذا العمل .

وانتعش الوصي ، ونهض يصرخ بملء فيه :

ـ أي مجرم ؟ أين هو ؟ الأجنبي ؟ ـ وأردف والتمعت عيناه ببريق السرور : إذا كان مجرماً لكان يجب في الحال الصراخ وطلب النجدة ، وإلاَّ فإنَّه سيهرب ... هيَّا لنصرخ معاً ... قال الرجل هذا ، وفتح فاه وكأنَّه يريد الصراخ ؛

وامتثل إيڤان المرتبك لنصيحة المازح ، وصاح : النجدة . النجدة ! . أمَّا ذاك فقد تخاذل ولم يصرخ مستغيثاً .

صرخة إيڤان المبحوحة الفريدة ، كانت ، كما يقال ، صرخة في وادٍ ، ولم تأتِ بأيَّة نتائج إيجابية . اللهمَّ إلاَّ فتاتين مالتا عليه جانباً ، تفوَّهتا بكلمة سكران ! .

وصاح إيڤان وقد تملَّكه الغضب :

ـ آه ! إذن أنت متَّفق معه ؟ ماذا فعلت ، تستهزىء بي ؟ دعني ! .

واندفع إيڤان يركض إلى اليمين ، فإذا بالوصي يتبعه ، ركض إلى اليسار ففعل اللعين كذلك .

وصرخ إيڤان مغتاظاً :

تخفق تحت الأقدام عن قصد ؟ سأدعو الشرطة لتلقي القبض عليك . وحاول إيڤان الإمساك باللئيم من كمّه فأخطأ هدفه ولم يقبض على شيء . وتوارى ذاك وكأنَّما الأرض فتحت فاها وابتلعته .

وتأوَّه إيڤان متحسِّراً ، ونظر إلى البعيد ، فرأى البروفسور البغيض يقف مع رفيقه في آخر زقاق (البطريركية) .

أمَّا كيف أفلح الوصيّ بالانضمام إلى البروفسور بمثل هذه السرعة ؟ فهذا سرّ وأمر يدعو للتساؤل والشكوك ؟ ! ...

السرّ ليس هنا ، السرّ في كائنٍ ثالث للرفيقين : هرّ ، لا أحد يعرف كيف ومتى ظهر ، ضخم الجثة كالخنزير ، أسود بلون الغراب أو السخام ، شارباه مخيفان كشاربي جندي في فوج الخيَّالة .

ودلفت الترويكا ميممة « البطريركية » والهرّ يسعى خلفها على قائمتيه الخلفيتين.

واندفع إيڤان وراء الأشرار. وهو شبه موقن، أنّ اللحاق بهم أمر في غاية الصعوبة.

وقطعت الترويكا الزقاق بمثل لمح البصر، وظهرت في (سپيردنوفكا). فأسرع إيڤان حاثا خطاه. إلا أنّ هذا لم يقصّر المسافة التي تبعده عن العصابة. وسرعان ما وجد الشاعر نفسه عند بوابة (نيكتيسكي)، وقد اجتاز حي (سپيردنوفكا) الهادىء. وأمسى وضعه أشدّ سوءًا إذ أن الشارع مزدحم بالمارّة. وضرب إيڤان بكتفه أحد المارّة فتلقّى سيلاً من الشتائم. كيف لا يكون وضعه سيئا والعصابة اتبعت أسلوب قطّاع الطرق المحترفين: التفرّق والسير في شتى الاتجاهات.

برشاقة وخفّة لا مثيل لهما دخل رئيس المرتّلين إلى الأوتـوبيس الطائـر نحو ساحـة (الأربات). وهكذا توارى عن عيني إيڤان، الذي بعد أن أفلت منه أحد المطاردين، ركّز اهتمامه على الهرّ.

ورأى إيڤان بأمّ عينيه كيف اقترب الهرّ الغريب العجيب من سلّم العربة « ا »، التي كانت متوقّفة في المحطة. وبوقاحة أجلس على مقعدٍ إمرأة كانت تولول وتتمسّك بالرفّ. لا بل وأكثر من ذلك حاول أن يُنقد من النافذة المفتوحة، بسبب الحرّ، قاطعة التذاكر عشرة كوبيكات.

لو اكتفى الهرّ بالتسلّل إلى الترام، لكان هذا عمل بسيط، وما كنّا لِنَلُمْ قاطعة التذاكر ولا الركاب، لكن الطريف والمدهش هو أنّ الهرّ استعدّ لدفع الأجرة. ولم يُبرهن الهرّ بعمله ذاك على أنه وحش محبّ للنظام وحسب بل أنّه يحسن القيام بواجباته ودفع ديونه.

ما أتى به الهرّ أدهش إيڤان، فتسمّر في زاوية قرب محل بقالة مستغرباً، لكن استغرابه لا يذكر حيال الدهشة من تصرّفات قاطعة التذاكر. فما أن رأت الهرّ يدخل مع الركّاب إلى الترام، حتى نهرته صائحة، وهي ترتعش من كيدها:

ـ ممنوع دخول الهررة! بسّ! انزل وإلاّ ناديت رجال الشرطة!.

ما أن سمع الهرّ نداء قاطعة التذاكر الشبيه بالاستغاثة، حتى نكص على عقبيه إلى الوراء، ونزل عن حافّة الترام في المحطّة، وشرع يمسح شاربيه بقطعة النقود.

وحينما شدّت قاطعة التذاكر الحبل وتحرّك الترام منطلقاً، عمد الهرّ إلى ما يفعله كل من بُطرد من الترام، ويريد أن ينتقل مع ذلك: لبث في مكانه حتى مرّت عربتا الترام الأولى والثانية، وعند مرور الثالثة قفز متسلّقاً السلّم الخلفي وتشبّث بقائمته بأحد قضبانه، وهكذا انتقل وفي نفس الوقت وفّر الأجرة.

بانشغاله بالهرّ الدنيء، كاد إيڤان يفقد أعظم الثلاثة قدراً: البروفسور. لكن لحسن الحظ لم يكن ذاك قد توارى، فقد لمح إيڤان (البيريه) الرمادية وسط الزحام، في أوّل جادة

(بولشايا نيكيتسكايا) ولما لم يوفّق في مطاردته، حثّ الخطى مُسرعاً وبدأ يهرول دافعاً المارّة، لكنّ هذا لم يدنه ولو قليلاً من ضالّته.

ورغم أنّ إيڤان كان مرتبكاً مشوّش الفكر، إلاّ أنّ المطاردة السريعة أذهلته. فبعد مضيّ أقلّ من عشرين ثانية بهرته ساحة (الأربات) بأضوائها وقد اجتاز بوّابة (نيكتيسكي).

وبعد بضع ثوانٍ أخر، وصل إيڤان إلى زقاق مظلم، ذي أرصفة ملتوية، ووقع المسكين على الأرض وكسر ركبته.

ومن جديد جادة تبهر البصر بالأنوار... شارع (كربوتكين)، ثم مشى إيڤان في زقاق... أوصله إلى شارع (أستوجنكا)، فإلى زقاق كئيب نزيز الأضواء معتم. وهناك فقد إيڤان نيقولايڤتش نهائياً غريمه. لقد اختفى البروفسور.

وارتبك إيڤان قليلاً، لكن سرعان ما زاوله ارتباكه، إذ هُيّء له فجأةً أنَّ البروفسور لا بدّ أن يكون في البيت رقم ١٣، وفي الشقة رقم ١٧ حتماً.

واقتحم إيڤان نيقولايڤتش البيت، وصعد إلى الطابق الثاني، ومن دون عناء يذكر عثر على الشقّة التي يبحث عنها. قرع الجرس وانتظر، على أحرّ من الجمر، حتى يُفتح له. وسرعان ما أتت طفلة لم تتجاوز الخامسة من العمر وفتحت له، وعادت وتوارت دون أن تستفسر منه ماذا يريد.

ودخل إيڤان إلى بهو كبير مُهمل منسي. بدّد ظلمته مصباح صغير يضيء بواسطة الفحم. ومن شحّة الضوء بدا البهو كئيباً معتماً، اسودّ سقفه العالي، وعُلّقت على حائطه درّاجة لا سلاسل لها. وعلى أرضه صندوق ضخم مصفّح بالحديد. وعلى الرفّ فوق المشجب، عُلّقت (شاپكا)، وتدلّت أذناها الطويلتان إلى أسفل.

وسُمع صوت من المذياع مدويًّا كالرعد، صوت مذيع كان يقرأ الأشعار غاضباً. ولم يرتبك إيڤان نيقولايڤتش، بل اندفع قدماً في الممرّ وفكّر في نفسه قائلاً: لا بدّ أنّ البروفسور اختبأ في الحمّام. كان الممر مُظلماً فتعثّر إيڤان واصطدم بالحائط، لكنّه على ضوء خيط من النور رأى المقبض، فعالجه برفق وانفتح الباب ودخل.

وقد وجد إيڤان نفسه في الحمّام. فظنّ أنّ الحظ حليفه، لكن الرياح جرت بما لم تشته سفينة حظه العاثر.. فرطوبة ساخنة لفحت وجهه، وعلى ضوء رسيس جمرات مشعشعة، ميّزت عينا إيڤان طسوتاً كبيرة معلّقة على الجدار. وبدا الحمّام ملطّخاً ببقع سوداء ذات مساحات هائلة، وقد ذهب الطلاء عنها.

كانت تقف في وسط الحمّام امرأة عارية، مغمورة بالصابون تحمل ليفة، وقد أعمتها الإضاءة الجهنمية النزيرة، فلم تميّز القادم جيّداً، اكتفت بأن نظرت إليه، وهي تزرّ عينيها:

وخاطبته بهدوء ومرح:

ـ كفاك ثرثرة يا كيريوشكا! أجننت؟ عمّا قليل ويعود فيدور إيڤانوڤتش. أخرج من هنا حالاً. ـ قالت هذا ولوّحت بالليفة بوجه إيڤان.

سوء التفاهم هذا، يتحمّل تبعته إيڤان نيقولايڤتش من دون شك. لكنّه ولم يرغب بالاعتراف بخطئه، جعل يصرخ معاتباً:

ـ يا عاهرة. يا فاجرة.

بعد ذلك لم يع نفسه إلاّ وهو في المطبخ، دون أن يعرف كيف ولماذا هو هناك. وقف وحيداً، قرب بلاطة اصطفّ فوقها ما يقارب عشرة (بوابير) صامتة منطفئة في الظلمة. شعاع من ضوء القمر تسرّب من نافذة تراكم عليها الغبار، فلم تُمسح أو تنظّف منذ سنوات طويلة. أضاء الشعاع القمري زاوية بنورٍ باهت. وفي تلك الزاوية عُلّقت إيقونة منسيّة، علاها الغبار، ونسج العنكبوت بيتاً له فوقها. وبدا من وراء زجاجها طرفا شمعتين من شموع الأكاليل. وتحت الإيقونة الكبيرة عُلّقت إيقونة صغيرة من الورق.

لا أحد يعرف بماذا فكّر إيڤان في تلك اللحظة، لكنّه قبل أن يركض موليًّا في الممر المؤدّي إلى المخرج السرّي، استولى على الشمعة وعلى الإيقونة الورقية، وغادر الشقّة حاملاً معه أشياءه.

غادر وهو يتمتم متفوّهاً بكلماتٍ لا معنى لها، والخجل يتملّكه ما أن تراوده فكرة أنّه خارج لتوّه من حمّام.

خرج إلى الشارع، وعقله منشغل بكيريوشكا، حاول أن يحزر من تراه يكون ذلك الوقح؟ أيكون هو صاحب (الشاپكا) * التعسة ذات الأذنين المتدلّيتين.

وتأمّل الشاعر ذلك الزقاق الكئيب المقفر من حوله. تأمّل بحثاً عن الهارب، لكن عبثاً فضّالة الشاعر توارت عن العيان...

حينذاك خاطب نفسه حازماً جازماً:

ـ لا بدّ أنّه هناك... على نهر موسكو... هيّا إلى الأمام... وجب علينا، حسبما أعتقد، أن نسأل الشاعر لماذا افترض أنّ البروفسور هناك، وليس في أيّ مكانٍ آخر. لكن المصيبة من سيطرح مثل هذا السؤال والشارع خالٍ، ولا تُشتمّ فيه رائحة أُنسيّ...

بعد مضيّ وقت قصير جداً، كان بالامكان مشاهدة إيڤان نيقولايڤتش فوق مدرج نهر موسكو، ذلك المدرج الشهير والمرصوف بحجارة الغرانيت.

نزع إيڤان ملابسه وأوكل بها إنساناً لطيفاً، شوهد في ذلك المكان. أوكل بها إنساناً

(*) شاپكا: طاقية شتوية مغرّاة.

لطيفاً مُلتحياً يدخّن سيكارة لفّ، ويرتدي سترة فضفاضة وينتعل حذاءً ممزّقاً، محلول الشريط.

وقام إيڤان بحركات جسدية: بسط يديه، وأرجع رجله إلى الوراء، ومدَّ جذعه إلى الأمام، وارتمى في المياه. وبسبب البرودة كاد يُسلم الروح وظنَّ كلّ الظنّ أنَّه لم يفلح في العوم ثانية. لكنَّه سرعان ما طفا من جديد، وجعل يشقّ طريقه بين المويجات السوداء التي كانت تفوح برائحة النفط، ويسبح بين تعرّجات أضواء المصابيح المتكسِّرة على صفحة المياه. بعد أن نال منه التعب والرعب والبلل وصل إلى المكان الذي ودع فيه ثيابه، أي إلى حيث أوكل بها الرجل الملتحي. وهناك تبيَّن له أنَّ الحارس والمحروس تعرَّضا لعملية سرقة.

لم يبقَ من كومة الثياب سوى سروال مقلَّم، وسترة ممزَّقة، وشمعة وإيقونة وعلبة كبريت.

وما كان من إيڤان حينئذٍ إلاَّ أن هدَّد بقبضة يده إنساناً كان يقف بعيداً، ولم يعر تهديدات شاعرنا أدنى اهتمام.

وتدثَّر إيڤان بما تبقَّى من ثياب ومشى...

اعتباران أو حادثتان ما كان بامكانه المرور بهما بسهولة:

أوّلاً: إضاعته بطاقة (الماسوليت)، تلك البطاقة التي لم تفارقه طوال حياته. وثانياً: أيمكنه بهذه الهيئة، المرور في شوارع موسكو دون أن يعترضه أحد في الطريق. ماذا سيقول الناس عنه إذا ما رأوه بالسروال؟ لكن ما شأن الناس مع إنسان في الشارع لا يرتدي البنطال؟ أليست هذه مسألة تخصّه وحده؟! ومع ذلك من يعلم... قد يُعترض ويُسأل؟!...

وانتزع إيڤان أزرار السروال من عند الرسغين، ظانًّا أنَّ السروال في شكله الجديد، قد يُصبح شبيهاً بالبنطال الصيفي. فعل هذا وحمل الإيقونة والشمعة وعلبة الكبريت ومشى. مشى وهو يفكّر في نفسه: إلى شارع غريبايّيدف، لا شكَّ أنَّه هناك!.

الوقت مساءً: الظلمة أسدلت نِقابها على المدينة، والشاحنات تكاد تطير مسرعة مثيرة الغبار، وتصلصل بالجنازير، وقد طفحت صناديقها بالأكياس الملأى. وفوق بطون الأكياس استلقى بضعة رجال. النوافذ مشرَّعة. ومن كل نافذة تلألأ نور وسنا من تحت مظلَّة برتقالية اللون. ومن كل النوافذ والأبواب، من الكوى والعليَّات، ومن الأقبية والأحواش أفلت نغم مدوٍّ: پولونيز مبحوح من أوپرا: (يفغيني أونيغين)★.

هواجس إيڤان كانت محقَّة، فما خشي أن يحدث أصبح حقيقة واقعة. لقد استرعى

(★) (يفغيني أونيغين): رواية بوشكين الشعرية، لحّنها تشايكوفسكي في أوبرا.

بسرواله انتباه المارّة. فأخذوا يشيرون إليه ملتفتين. فقرّر أن يتوارى عن العيان. وأن ينتقل من الشوارع الكبيرة إلى الأزقة الضيّقة. إلى حيث الناس أقلّ تطفّلاً، وإلى حيث احتمالات مضايقة انسان حافي القدمين وإضناكه وإنهاكه بالأسئلة عن السروال أقل ورودا: (السروال اللعين الذي لم يشأ أن يُصبح شبيهاً بالبنطال ولا بحال من الأحوال).

ونفذ إيڤان قراره. وتوغل مبتعداً. في تلك الشبكة السريّة المعقّدة: أزقّة (الأربات). وراح يهيم في ظلال الجدران. إيڤان يهيم خائفاً، يتلمّس طريقه. في كلّ دقيقة يتأمّل يُمنة ويُسرة. من وقتٍ لآخر يتوارى عن الأعين، ويتهرّب من تقاطع الشوارع المضاءة ومن أمام مخادع السفراء الفخمة.

طريقاً صعبة كانت تلك التي سلكها إيڤان نيقولايڤتش... رافقته فيها أنغام انبعثت من أوركسترا صاخبة... أنغام سبّبت له عذاب خفي... ورافقها صوت عميق جهوري غنّى نشيد حبّه (لتاتيانا)★.

(★) تاتيانا: بطلة رواية يفغيني أونيغين.

الفصل الخامس

القضية كانت هناك . . . في « غريباييدف »

بيت قديم بطابقين، بلون الكريم، يقع في مستديرة البولفار، في قلب حديقة زاوية، تفصلها عن رصيف المستديرة شبكة من حديد، مزخرفة.

والساحة الصغيرة أمام البيت مفروشة بالاسفلت، تتراكم فوقها كثبان الثلوج في أيام الشتاء. أمّا في أيام الصيف فكانت تتحوّل إلى مطعم صيفي فخم سقفه من الأقمشة الشراعية.

سُمّي البيت بيت « غريباييدف »، وسبب التسمية هو أنّه في سالف الأيام، كانت عمّة الأديب ألكسندر سرغيڤتش غريباييدف هي صاحبة البيت. ملكته أم لم تملكه هذا ما لا نعرفه بالضبط. ممّا يذكر أيضاً أنّه ما كان لغريباييدف عمّة مالكة بيوت . . . ومع ذلك فقد سُمّي البيت بتلك التسمية.

فضلاً عن ذلك فقد روى أحد الرواة الكاذبين الموسكوبيين: أنّه في الطابق الثاني. وفي القاعة المستديرة ذات العمد، كان الأديب المشهور يقرأ مقاطع من مسرحيته: « ذو العقل يشقى » على مسامع تلك العمّة وهي مستلقية على الأريكة. وصفوة القول الشيطان وحده يعلم بما حدث. . ربما قد يكون الأديب قرأ . . . ليس هنا بيت القصيد.

بيت القصيد هو أنّه في الوقت الحاضر تملك هذا البيت - رابطة (الماسوليت). الرابطة التي يرأس مجلس إدارتها ميخائيل ألكسندروڤتش برليوز التاعس الحظ. قبل ظهوره قرب برك البطريركيّة.

بمنتهى البساطة، كان أعضاء الرابطة يُسمّون هذا البيت « غريباييدف » ولم يُسمّه أحد منهم « بيت غريباييدف »:

- « أمضيت البارحة ساعتين بالقرب من غريباييدف ». - « وماذا هناك؟ ».
- « حصلت على تذكرة سفر إلى يالطا لمدّة شهر ».
- « عافاك يا شاطر ».

أو:

- « إذهب إلى عند برليوز، فإنّه يستقبل هذا اليوم من الرابعة حتى الخامسة في غريباييدف ».

مثل هذه الأحاديث وغيرها كانت تدور بين أعضاء الرابطة الأدبية.

شغل مبنى (الماسوليت) في غريبابيدف موقعاً لا يُظنّ أنّ هناك أفضل وأهدأ منه. والداخل إلى غريبابيدف، شاء أم أبى، لا بدّ له من التعرّف إلى إعلانات الفرق الرياضيّة المختلفة، وإلى صورة أعضاء الماسوليت مجتمعين معاً، وصورة كل شخص منهم بمفرده. كذلك عُلّقت صور على جدران الدرج المؤدّي إلى الطابق الثاني. على باب الغرفة الأولى في الطابق العلوي بدت للأعين كتابة بأحرف عريضة «قسم داتشات لصيد السمك». وقرب الكتابة صوّرت سمكة شبوط عالقة في الشبكة، وعلى باب الغرفة الثانية كُتبت كلمات غير مفهومة تماماً كُتب: «تذكرة عمل تأليفي ليوم واحد، يرجى مراجعة: م. ق. بادلوجنا». وحمل الباب التالي عبارة مختصرة لكنّها غامضة: «برليغينو». وبعد ذلك، سرعان ما تبدأ عينا الزائر المفاجىء بالزيغان من كثرة الكتابات والإعلانات التي تبرقش أبواب العمّة، هذه الأبواب المصنوعة من خشب الجوز. إعلانات مثل: «هنا تُكتب أسماء الراغبين بالحصول على الورق وحسب الدور عند پوكلڤكينا»، و«الصندوق»، و«الحساب الخاص لمؤلّفي الإسكتشات».

وإذا ما اخترقت الدور الطويل جدّاً أمام البوّابة تحت، يمكنك ساعتئذ رؤية الكتابة على الباب الذي يتزاحم أمامه أبناء الشعب في كل ثانية. إنّها يتزاحمون أمام باب مكتب: «مسألة الشقق السكنيّة».

وراء لوحة مكتب «مسألة الشقق السكنيّة» عُلّقت لافتة فخمة صُوِّرت عليها صخرة، وعلى الصخرة يمشي فارس في سترة من اللباد، معلّقاً بندقية على كتفه. وتحتها رُسمت: شرفة وأشجار نخيل. وعلى الشرفة جلس شاب ذو ذُؤابة، يحدّق في البعيد، في السماء بنظرات طافحة بالجرأة ويمسك بيده ريشة كتابة.

ثم إعلان: فُرص عمل للتأليف من فترة أسبوعين إلى فترة سنة كاملة، أسبوعان لكتابة القصص القصيرة وسنة لتأليف الروايات. يالطا، سوكسو، بروفوة، تسيخدزيري، ماخندجاوري، لينينغراد (القصر الشتوي)». أمام هذا الباب اصطفّ الناس بالدور، لكنّ عددهم كان قليلاً. كانوا مئة وخمسين شخصاً. وبعد منعطفات ومرتفعات ومنحدرات غريبابيدف المزاجيّة، التي لا بدّ من الاعتراف والتسليم بها، تُطالعك إعلانات مثل: «إدارة الماسوليت»، «الصناديق رقم ٢، ٣، ٤، ٥»، «هيئة التحرير»، «رئيس الماسوليت»، «صالة البليارد»، مكاتب مختلفة، وأخيراً تلك القاعة ذات العمد، حيث كانت العمّة تتنعّم بسماع ملهاة ابن أخيها النابغة.

وأيّ زائر، بالطبع إذا لم يكن مغفّلاً كبيراً، يعرّج على غريبابيدف، سيتصوّر حالاً العيشة الطيّبة التي يحياها أعضاء الماسوليت المحظوظين، وسينخر قلبه الحسد الأسود لا محالة

وبدون إبطاء. وسيسارع بالتوجّه إلى السماء ومخاطبتها لائماً معاتباً بمرارة، لأنّها لم تمنحه موهبة أدبيّة ساعة مولده.

إذ بدون هذه الموهبة ليس في مقدور أحد حتى في عالم الأحلام الحصول على بطاقه الماسوليت، تلك البطاقة البنيّة اللون المصنوعة من الجلد الغالي المعطّر الرائحة، وذات الكنار الذهبيّ العريض والمعروفة في كلّ موسكو.

وهل من يتفوّه بكلمة واحدة مدافعاً عن الحسد؟ الحسد ذلك الشعور الشنيع والكريه؟!. ورغم ذلك كلّه علينا أن نُقدّر ونفهم ظرف الزائر... وخاصة أن كلّ ما رآه في الطابق العلوي لا يُعدّ شيئاً مذكوراً إذا ما قوبل بما حواه الطابق السفلي.

تحوّل الطابق السفلي في يت العمّة بأكمله إلى مطعم... ويا له من مطعم عظيم!... لا نبالغ إذا قلنا إنّه أفخم وأفضل رستوران في مدينة موسكو... لا لأنّه شغل القاعتين الواسعتين ذاتي السقفين المقبّبين المزيّنين بأحصنة ليلكيّة أشوريّة اللبد، ولا لأنّ فوق كلّ طاولة ثُبّت مصباح غطّاه شال، ولا لأنّه حُظّر على السابلة دخوله... إنّما لكل تلك الأسباب مجتمعة، وفضلاً عن ذلك لأنّ أطعمة هذا الرستوران أشهى وألذّ وأطيب من أطعمة أيّ رستوران آخر في موسكو... وكانت تقدّم بثمن معتدل ومناسب، وما كان باهظاً أبداً.

لذلك لا داعي للدهشة، من مثل هذا الحديث الذي سمعه، ذات مرة، كاتب هذه السطور الصادقة بالقرب من غريباييدف:

ـ أين ستتناول طعام عشائك يا أمفروسي؟

ـ ولِمَ هذا السؤال؟ طبعاً هنا سأتناول عشائي يا عزيزي فوكا! لقد أسرّ لي أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش اليوم، بأنّهم سيقدّمون (سوداتشكا).. أكلة شهيّة للمحظوظين!

ـ تعرف كيف تعيش يا أمفروسي!

ردّ متنهّداً (فوكا) النحيف المهمل، ذو الدمّلة في عنقه، مجيباً العملاق الشاعر أمفروسي صاحب الشفتين الحمراوتين والخدّين المنتفخين والشعر الذهبي.

واعترضه أمفروسي قائلاً:

ـ لا معرفة بالحياة ولا من يحزنون.. لا تتعدّى المسألة الرغبة في الحياة كما يليق بالانسان أن يحيا. أتريد أن تقول يا فوكا إنه يمكننا العثور على (السوداتشكا) في «الكوليزه». لكن لا تنسى أنّ ثمن الوجبة في «الكوليزه» ثلاثة عشر روبلاً وخمسة عشر كوبيكاً، أمّا عندنا فثمن الوجبة ذاتها من ذلك السمك الشهي خمسة روبلات وخمسين!... وعدا عن ذلك فأسماك «الكوليزه» بائتة تُقدّم للزبائن بعد مرور ثلاثة أيّام عليها، ثم من يضمن لك أنّك تتلقّى هناك ضربة على «البوز»، يكيلها لك شاب قد يقتحم الرستوران من ممرّ

(التياترلني). لا أنا ضد الكوليزه علناً، وأكنّ له عداءً رهيباً. ولا تقنعني بعكس ذلك.

قال أمفروسي الأكول الذوّاق كلماته، والأصح إذا قلنا إنها دوت في طول البولڤار وعرضه.

وصأى فوكا:

ـ أنا لا أُقنعك يا أمفروسي... إنّما بالإمكان تناول طعام العشاء في البيت.

وبوّق أمفروسي:

عفوك عني!... أتخيّل زوجتك في مطبخ البيت المشترك مع الجيران، أتخيّلها وهي تعمل وتضع السمكات في الطنجرة!.. هيه هيه هيه..! أورڤوار، فوكا!...

قال أمفروسي كلماته ومشى نحو الظل على الشرفة وهو يدندن.

يَهْ يَهْ يَهْ... نعم، لقد كان ما كان!... وقدامى سكّان موسكو يتذكّرون غريباييدف الشهير!.. ويا عزيزي أمفروسي، ما قيمة أطباق سمك (السوداتشكا) المسلوقة! إنّها لا تستحق حتى الذكر إذا ما ذُكِرت الطيِّبات الأُخر... هل حدّثك «السترلياد» بأخباره، «السترلياد» في الطنجرة الفضيّة وقطعه المحشوّة بجنبات «الراك» والبطريخ الطازج؟. والبيض المقلي مع الفطر المُتبَّل؟.. و«الفيليه» من لحم الشحارير مع الفطر ألا تروقك؟ وطبخ طيور السماني على الطريقة الجنَويّة؟ وزيادة الخير خير، مع الأطعمة اللذيذة «جاز» يُشنِّف الآذان... وخدماتٍ لطيفة.

... وفي شهر تموز، غادرت العائلة إلى «الداتشا»، ومهمات أدبيّة أجبرتك على البقاء في المدينة... على تلك الشرفة تحت ظلّ العريشة يقدِّمون لك الحساء في صحن ذهبي اللون، يضعونه فوق غطاء الطاولة النظيف.

أتتذكّر يا أمفروسي؟... ويح قلبي ما الفائدة من طرح السؤال وعلى شفتيك الخبر اليقين..

ما طعم أسماكك من (سيغا) و(سوداتشكا)، أمام طعم لحوم السماني ودجاج الأرض والشناقب والدراريج؟ والنرزان التي تفحّ في الحلق فحيحاً؟ كفى، كفى، التهيت أيها القارىء! اتبعني!..

في الساعة العاشرة والنصف من ذلك المساء، مساء مقتل برليوز قرب بُرك (البطريركيّة)، كانت غرفة وحيدة مضاءة في الطابق العلوي في بيت غريباييدف. اثنا عشر أديباً أرهقهم الانتظار تحت سقفها، انتظروا ميخائيل ألكسندروڤتش برليوز.

أزعج الجوّ الخانق المجتمعين في غرفة الإدارة أيما إزعاج، كانوا موزّعين على الكراسي وإلى الطاولات، وحتى على أفاريز النوافذ. هذه النوافذ التي كانت مشرَّعة، لا تتسرَّب نسمة عليلة من خلالها.

لقد فاضت موسكو بكل ما خزنه إسفلتها من حرٍّ طيلة اليوم، وبدا واضحاً أنَّ الليل لن يخفّف من حرّ النهار..

وفاحت رائحة البصل من قبو بيت العمّة، إذ يوجد في القبو مطبخ الرستوران. والكلّ عطشان ظامىء إلى الماء، الكلّ منزعج وغاضب.

بلّتريست بسكودنيكوف وهو الانسان الهادىء الطبع، الذي ارتدى ثياباً حسنة تليق بالمقام، صاحب العينين اليقظتين الشاردتين، أخرج ساعة من جيبه، كانت تزحف عقاربها نحو الحادية عشرة. ونقر على ميناء الساعة، وأراها لجاره الشاعر دڤوبراتسكي، الذي كان يجلس على الطوالة، وقد انتعل حذاءً أصفر اللون، ومن فرط كربته راح يؤرجح رجليه في الهواء فوق سجّادة من مطّاط.

وجمجم دڤوبراتسكي: ولكن ماذا ننتظر...

- لا بدّ أنّ الشاب توقّف في (كليازمه)، سُمع صوت غليظ النبرات. كان صوت ناستاسيا لوكينيشنا نبرمنوفا، ابنة أحد التجّار الموسكوبيين، تربّت يتيمة، لتصبح فيما بعد كاتبة تؤلّف قصصاً عن المعارك البحريّة موقّعة باسم مستعار: «شتورمان جورج».

- عفوكم عني! هتف زاغريغوف مؤلّف الاسكتشات الشعبيّة بجرأة وأكمل: بكل سرور ألبّي الدعوة إلى شرب الشاي على الشرفة، بدلاً من أن أتسلّق هنا. ألم يحدّدوا موعد الاجتماع في العاشرة؟!.

- الطقس بديع الآن في (كليازما). لا بدَّ أنَّ البلابل بدأت تغرّد هناك. إنّني دائماً أعمل في الضاحية بشكل أفضل، خاصّة في الربيع.

بهذه الكلمات أثارت شتورمان جورج الحاضرين، بل لقد عزفت، كما يقال، على الوتر الحسّاس بتذكيرها بأنّ المنتجع الأدبي (بيريليغينة) يقع في (كليازما). هذه مسألة تثير الحساسيات... وأيم الحق.

- منذ ثلاث سنوات وأنا أحتفظ بالنقود، من أجل أن أُرسل زوجتي المريضة بالغدة الدرقيّة إلى ذلك الفردوس. لكن حتى الآن لا يُرى بريق أمل ولا تحمل الأمواج موافقة. - قال كاتب القصص القصيرة (ايرونيم بوبريخين)، بمرارة وألم لاذع - .

- الدنيا حظوظ. أزَّ صوت الناقد أبابكوف من فوق الإفريز. ولمعت عينا شتورمان جورج الصغيرتان ببريق الفرح، وقالت وقد ألانت نبرات صوتها الغليظ:

- علينا أن لا نحسد بعضنا يا رفاق. الحسد شعور مكروه، ثم أنَّ عدد الداتشات اثنتي وعشرين داتشا، وهناك سبع داتشات في طور البناء، وعددنا في الماسوليت ثلاثة آلاف.

- ثلاثة آلاف ومئة وأحد عشر شخصاً. صحَّح الرقم أحد المنتبذين الزاوية.

- تفضّلوا... - أكملت شتورمان - ما الذي بإمكاننا أن نعمله؟، مسألة بديهية أن

يحصل على الداتشات الأكثر نبوغاً!.

ـ الجنرالات!... ـ أعلنها غلوخاريف مؤلِّف السيناريوهات بصراحة، مقحماً نفسه في الخِصام.

وتثاءب بسكودنيكوف بتكلُّف وخرج من الغرفة.

وقال غلوخاريف وهو يعني بكلماته بسكودنيكوف:

ـ أن يعيش وحيداً في شقّة من خمس غرف في (برليغينه)...

وهتف دنيسكين:

ـ يعيش لاڤروڤتش وحيداً في شقَّة مؤلَّفة من ست غرف، والمطبخ في الشقّة مُغلَّف بالفلِّين.

وأزَّ صوت أبابكوف:

ـ المسألة ليست هنا. المسألة في أنَّ الساعة الآن العاشرة والنصف.

وعلت ضجَّة وحدث ما يشبه العصيان والتمرُّد. شرعوا يتَّصلون بـ (برليغين) البغيضة. لكنَّهم أخطأوا. واتصلوا بمنزل لاڤروڤتش، فعلموا أنَّ الأخير ذهب إلى النهر، مما أثار سخطهم وغضبهم، وحاولوا كيفما اتفق الاتصال بهيئة الآداب الجميلة على الرقم ٩٣٠، وبالطبع لم يجدوا أحداً هناك.

وصرخ دنيسكين، وغلوخاريف وكوانت معاً:

ـ كان بمقدوره أن يتصل بنا.

وا حرَّ قلباه!.. عبثاً يعلو الصراخ، فلم يكن بمقدور ميخائيل ألكسندروڤتش الاتصال بأحد منهم... فبعيداً، بعيداً عن غريبايدف، وفي قاعة واسعة الأرجاء، مضاءة بمصابيح تضاهي بقوة نورها أنوار آلاف الشموع، وعلى ثلاث طاولات من الزنك ارتاح ذاك الذي كان قبل قليل يُدعى ميخائيل ألكسندروڤتش، استقرَّ على الطاولة الأولى الجسد العاري الغارق في الدماء الناشفة وقد انكسرت منه اليد وتحطَّمت أضلاع قفصه الصدري. وعلى الطاولة الأخرى استقرَّ الرأس وقد تكسَّرت أسنانه الأماميّة. وما زالت عيناه المظلمتان مفتوحتين. وعلى الطاولة الثالثة كُوِّمت الخرق المتجمِّدة.

وقف بجانب الجسد المبتور الرأس، البروفسور القضائي، وطبيب التشريح، والمشرِّح ورجال القضاء ونائب ميخائيل ألكسندروڤتش برليوز في رئاسة الرابطة الأدبيّة الأديب جلديبين.

لقد ذهبت السيَّارة وراء جلديبين، ونقلته على الفور مع رجال التحقيق إلى شقّة القتيل، (كان الوقت حوالي منتصف الليل). وفي الشقّة جرى ختم أوراق الفقيد، وبعد ذلك ذهبوا جميعاً إلى قاعة الموتى.

تشاور المجتمعون فيما بينهم حول جثمان المرحوم، ما الأفضل؟ أيخَيّط الرأس المبتور بالرقبة، أم يوضع الجسد في قاعة غريبايدف ويغطّى بأكمله بغطاء أسود؟...

أجل!.. ما كان بمقدور ميخائيل ألكسندروڤتش أن يتصل بأحد، وعبثاً كان صراخ وسخط دنبسكين، وغلوخاريف، وكوانت، وبيسكودنيكوف، إذ لا فائدة ترجى من صراخهم وغضبهم. وفي تمام الساعة الثانية عشرة غادر الاثنا عشر أديباً الطابق العلوي ونزلوا إلى الرستوران. وتذكّر كلّ أديب الشرّ والعاطل في ميخائيل ألكسندروڤتش برليوز. وشُغِلَت الكراسي التي كانت تملأ الشرفة. واضطرّ الأدباء لتناول طعام العشاء في هذه القاعات الجميلة الخانقة. وفي منتصل الليل تماماً، وفي القاعة الأولى دوى صوت ما بل قل قصف ورنّ رنيناً وبدا كأنّ شيئاً ما ينهال من علٍ. دوى صوت صارخاً بيأس «هلّلويا!!»، مرافقاً أنغام الموسيقى. كان هذا قصف موسيقى الجاز الخاص بغريبابيدف. وفجأة أشرقت الوجوه المتصبّبة عرقاً أو هكذا شُبّه للقوم. وتبدّى أنّ الأحصنة التي تزيّن السقف برسومها بُعثت حيّة. وتضاعفت أنوار المصابيح وتألّقت، وفجأة شرعت القاعتان بالرقص وكأنّهما أفلتتا من قيد ورقصت الشرفة مع القاعتين ورقص غلوخاريف والشاعرة تمارا بولوسياتس، رقص كوانت، وراقص الروائي جوكولوف إحدى ممثلات السينما، وقد كانت في فستان أصفر اللون. ورقص: دراغونسكي، تشرداكتشي، والصغير دنيسكين والعملاقة شتورمان جورج، ورقصت المهندسة المعماريّة الحسناء سميكينا غال وقد جذبها بقوة نحوه رجل غريب يرتدي بنطالاً من الجلد الأبيض. رقص أصحاب البيت والضيوف المدعوون. الموسكوبيون والوافدون. كذلك رقص الأديب يوغان من كرونشتات، وشخص يدعى ڤيتيا كوفتيك من روستوف، مخرج سينمائي على ما أظنّ خدّه مصاب بالحصباء الليلكيّة. رقص أعضاء قسم الشعر، البارزين في (الماسوليت) أي پاڤيانوف، بوغوخولسكي، سلادكي، شپتشكين، وأدلفينا بوزدياك، كذلك رقص شبّان مجهولو الصنعة وقد قصّوا شعر رؤوسهم حسب موضة «البوكس»، وقد بُطّنت أكتاف ستراتهم بالقطن. رقص كهل ملتحٍ، وقد انغرزت في لحيته ريشة بصلة خضراء، رقص مع امرأة تجاوزت عهد الشباب، مصابة بفقر الدم، ترتدي فستاناً من الحرير مدعوكاً، أصفر اللون.

والنُدّل، وقد سبحوا في العرق، تراهم حاملين فوق رؤوسهم كؤوس الجعة المندّاة، ويصرخون، وفي صرخاتهم بحّة وبغض: «عفواً، عفواً أيها المواطن!».

وفي مكان ما، دوى صوت في بوق آمراً: واحد كارسكي★، اثنان زوبريك★، فلياكي★ أكابر!!؛ ولم يعد يسمع الصوت الرخيم مغنيّا، إنّما كان يُسمع عواء:

★ كارسكي: لحم مشوي. ★ زوبريك: نوع من الڤودكا. ★ فلياكي: قنينة.

« هلليلويا ».

وكانت الأواني ترنّ حينما كان ينزلها الخدم فوق سطح مائلٍ يؤدّي إلى المطبخ، وكانت هذه الضجة ترتفع أحياناً وتطغي على لعلعة صحون الجاز الذهبية. ضجيج كشهيق وزفير جهنم.

وتبدت في جهنّم رؤيا: ففي منتصف الليل، دَلَف شاب جميل إلى الشرفة، أسود الشعر، ذو لحية خنجرية، يرتدي الفراك، طاف ببصره القيصري في أنحاء مُلكِهِ!.

نعم لقد تحدَّث المتصوّفون عن زمن بعيد أتى على الانسان... لم يرتدِ الشاب الحلو في ذلك الزمن فراكاً، إنّما كان يتمنطق بحزام عريض من الجلد، تتدلّى منه مقابض المسدسات، وكان شعرُ الحلو الغرابي السواد، معصَّباً بمنديل أحمر من حرير، وتحت إمرته سفينة تشقّ عباب بحر (كرايبسكي)، تنتصب فوقها راية سوداء حالكة وجمجمة.

لا!... وألف لا... كذب المتصوّفون الغاوون، فلا وجود في الكون لأيّة بحار (كرايبسكية)، ولا قراصنة يائسين في عبابها، ولا أثر لأيّ طرّاد يطاردهم، ودخان المدافع لا يرى فوق الموج منتشراً...

لا، لا يُرى شيء، وكذب المتصوّفون فتخيّلاتهم أوهام!... تُرى شجرة زيزفون ذاوية وشبكة مزخرفة من ورائها بولڤار. وينسكب الجليد الذائب في الإناء وتُرى من وراء الطاولة المجاورة عينان كعينيَ عجل طافحتين بالدم، وخوف... خوف... آلهتي... يا آلهتي... ناولوني السمّ، السمّ!.

وفجأة رفرفت وراء المنضدة كلمة « برليوز! ». وفجأة انهار الجاز وسكن، كأنّما ضربه أحدهم بقبضة يده. « ماذا، ماذا، ما الذي حدث؟!! ». - « برليوز!!! ». وهبّ القوم يثبون ويصرخون. وتفاقمت موجة الحزن... لدى سماع خبر المصيبة الأليم، خبر مصرع برليوز. وتململ أحد الحاضرين، وصاح موعِزاً: بأنّ على الجميع، وقبل أن يغيّروا أماكنهم تدبيج برقيّة جماعيّة وإرسالها فوراً.

ولا بدّ لنا أن نسأل بدورنا عن نوع هذه البرقية وإلى أين وإلى من ستوجّه؟ ولماذا تُرسل البرقية؟ حقًّا إلى أين وإلى من؟

وما حاجة ذاك بالبرقيّات؟... ذاك الذي تعمل لجسده المسجّى يد المشرّح المطّاطيتان، وانغرزت في عنقه أبَرَ البروفسور الملتوية.

قُتِل وانتهى كلّ شيء، ولم تعد تنفع البرقية. ولن نُحمّل التلغراف ثقلاً على ثقل...

أجل إنّه قد قُتل... مات... لكن نحن ما زلنا أحياء!. نعم تفاقمت موجة الحزن، لكنّها سرعان ما وقفت عند حدّها وبدأت تنحسر... وشُوهد أحدهم يعود إلى المائدة. في البدء متسرّقاً وبعدها علناً، شرب فودكا وتناول بعض الطعام.

فعلاً أترمى (الكاتليت) المصنوعة من لحم الدجاج؟! أم ببقائنا جائعين نساعد ميخائيل ألكسندروفتش! أجل فنحن ما زلنا أحياء!. وأغلق البيانو بطبيعة الحال بالمفتاح، وسكن الجاز. وذهب بعض الصحافيين إلى صحفهم لينعوا برليوز، وعرف الجميع بمجيء (جلديبين) من قاعة الموتى.

وجلس (جلديبين) فوق، في مكتب المرحوم برليوز، وسرت شائعات في الحال أنّه سيحل في منصب الفقيد.

ودعا جلديبين إليه من الرستوران الاثني عشر أديباً، أعضاء الإدارة. وفي الاجتماع الذي عُقد على وجه السرعة في مكتب برليوز نوقشت المسائل المُلحة، مثل مسألة ترتيب القاعة الكبيرة، قاعة الأعمدة، ونقل الجثمان من قاعة التشريح إليها، وفَتْح أبوابها أمام الناس لالقاء النظرة الأخيرة. باختصار نوقشت المسائل المتعلّقة بالمصاب الأليم.

كان من الممكن أن يحيا الرستوران حياته الليليّة العادية حتى ساعة إغلاقه، أي في الساعة الرابعة صباحاً، لولا أن حدث ما لم يكن بالحسبان.. وكان له وقع الصاعقة على ضيوف الرستوران. وطغى الحادث المفاجىء بغرابته على خبر مقتل برليوز.

أول الخائفين كان المناوبون عند مدخل بيت غريباييدف، فقد اعتلى أحدهم مقعداً خشبياً وسُمع صوت صياحه:

ـ تعالوا وانظروا..

بعد ذلك من حيثما التفتَ كنتَ ترى أمام الشبكة المزخرفة ناراً صغيرة مشتعلة، أخذت تقترب من الشرفة. وأخذ الجالسون إلى الطاولات ينهضون ويتأمّلون مليًّا، فرأوا طيفاً أبيض يُواكب النار الصغيرة. وما أن اقترب الشبح المسافر من العريشة حتى جمد القوم وراء الموائد، أو قل تسمّروا على المقاعد وقطع (السترلادكي) مغروزة بالشوك، وجحظت أعينهم.

البوّاب الذي كان خارجاً في تلك اللحظة من غرفته إلى الحوش ليدخّن، رمى السيكارة على الأرض وداسها برجله، وفكّر أن يتحرّك بسرعة لمواجهة الشبح ومنعه من الدخول إلى الرستوران، لكنّه لسبب ما لم يفعل، توقّف وارتسمت على فمه ابتسامة بلهاء. مرّ الشبح في الفجوة بقلب العريشة ودخل إلى الشرفة دون أن يعترض طريقه أحد.

فرأى الجميع أنَّ هذا الداخل عليهم، ما كان طيفاً ولا شبحاً، وإنّما كان إيفان بزدومني، الشاعر الأشهر من نار على علم..

كان حافي القدمين، يرتدي السترة البيضاء الممزّقة، علّق بدبّوس انكليزي على صدر السترة الإيقونة الورقيّة، وقد امّحت عنها صورة قديس مجهول رُسمت عليها، وارتدى تلك السراويل المخطّطة، وكان يحمل بيده شمعة مضاءة. وكان خدّه الأيمن مصاباً بجرح

جديد. كان صعباً جداً سبر كنه ذلك الصمت الذي هيمن على الشرفة، كم كان كبيراً. كان يُرى كيف انسكبت الجعة على الأرض من كأس أحد الخدم، وقد أمالها إلى جانب واحد دون أن يشعر.

ورفع الشاعر الشمعة إلى فوق رأسه وقال بصوت مرتفع:

ـ العافية يا أصدقاء!..

بعد أن ألقى تحيته عليهم، ألقى نظرة على ما تحت الطاولة وهتف مكروباً:

ـ لا، إنَّه ليس هنا!..

وسمع صوتان يردَّان، صوت أوَّل (باس) أعلن بلا رحمة ولا شفقة:

ـ حمَّى بيضاء والعمر المديد لكم.

أمَّا الصوت الثاني، فكان صوتاً نسائياً، نطق خائفاً بهذه الكلمات:

ـ كيف سمحت له الشرطة بالمرور وهو في هذه الهيئة.

وسمع إيڤان هذا الصوت الأخير، فردَّ عليه:

ـ مرَّتين أرادت الشرطة توقيفي. في (سكاترتنا) وهنا في شارع (برونَّايا)، لكنَّني مررت عبر السياج، وجرحتُ خدِّي كما ترون. وهنا رفع إيڤان الشمعة وصرخ وقد علا صوته الأجش وسرى الغضب الشديد في نبراته:

ـ اخوتي في الأدب! سارعوا بإلقاء القبض عليه وإلاَّ فإنَّه سيجلب ويلات ومصائب كبيرة!.

وترادفت أصوات من كل الأنحاء تستفسر:

ـ ماذا؟ ماذا؟ ماذا قال؟ ومن الذي ظهر؟.

وأجاب إيڤان:

ـ مستشار! لقد قتل هذا المستشار ميشا برليوز في (البطريركيّة).

وتدفَّق الناس من القاعة الداخلية إلى الشرفة واجتمعوا حول نار إيڤان.

وسُمع صوت لطيف هادىء فوق أذن إيڤان نيقولايڤتش يسأل:

ـ عوفاً، عفواً، قل لنا الخبر الصحيح، كيف قُتِل؟ ومن الذي قَتَلَه؟.

وردَّ إيڤان وهو يتلفَّت:

ـ المستشار الغريب، البرفسور الجاسوس!.

وسألوه بهدوء:

ـ ما إسم عائلته؟

ـ إسم عائلته؟ إسم عائلته؟ ـ هتف إيڤان بكآبة ـ آه لو كنت أعرف اسم عائلته! لم أتأمَّل اسم عائلته على بطاقة الزيارة. أتذكَّر الحرف الأوَّل فقط. تبدأ بحرف ف. ما اسم

هذه العائلة التي تبدأ بحرف ف؟، ووضع إيڤان يده على جبهته، وأخذ يتساءل: وفجأة غمغم: ف، ف، ف. فا، فو، فاشنر، فاغنر؟ فاينر؟ فغنر. وبدأ شعر رأس إيڤان يتحرَّك من فرط جهده وعصبيته.

وهتفت إحدى النساء مشفقة:

ـ فولف؟

وغضب إيڤان، وصاح وهو يبحث عن القائلة:

ـ بلهاء!. أي فولف هذا؟ لا علاقة لفولف في الحادث لا من قريب ولا من بعيد! فو فو، لا، هكذا لن أتذكَّر!. آه وجدتها! أيها المواطنون: يتوجَّب عليكم الآن الآن أن تتصّلوا بالشرطة، ليرسلوا خمسة موتوسيكلات ورشاشات، وليلقوا القبض على البروفسور. نعم ولا تنسوا أن تقولوا لهم أنَّه ليس وحيداً، يرافقه اثنان: شخص طويل طويل، ذو ترابيع، عدسة نظاراته متصدِّعة، وهرّ أسود سمين... أمَّا أنا فسأبحث عنه في غريبابيدف. إنّني أشعر أنَّه غير بعيد عن هذا المكان!..

واضطرب إيڤان ودفع بمنكبه الحشد شاقًّا طريقه بين المتزاحمين وبدأ يميل الشمعة ذات اليمين وذات الشمال، غامراً نفسه بالشمع، وجعل ينظر تحت الطاولات.

وسُمع صوت: ادعوا الطبيب؛ ورافق الصوت ظهور وجه حلو مكتنز أمام إيڤان، وجه جميل، سمين، ونظَّارات أنيقة أطرها مصنوعة من القرون. وقال هذا الوجه بصوت تطفح نبراته بالزهوّ والخيلاء:

ـ اطمئن يا رفيق بزدومني واهدأ بالاً!.. إنَّك مغتاظ بسبب موت حبيبنا جميعاً وحبيبك ميخائيل ألكسندروڤتش، ميشا برليوز مات كما سيموت الناس جميعاً، إنَّنا نفهم حالتك ونتفَّهمها جيِّداً. إنَّك بحاجة للهدوء والسكينة، والآن سيرافقك الرفاق إلى السرير، وستسلو...

لكن إيڤان قاطعه بقوله:

لا تكشِّر عن أسنانك، يتوجَّب القبض على البروفسور وافهم هذا؟ إنَّك ما زلت تضايقني بحماقاتك يا أجدب!.

ـ عفوك يا رفيق بزدومني، إهدأ ـ أجاب المتكلِّم وقد احمرَّ لون وجهه خجلاً ورجع إلى الوراء نادماً على تدخله في مسألة لا تهمه ثم إنَّه بغنى عنها.

وأجابه إيڤان بكراهية:

ـ لا، لا. لماذا العفو؟ لا عفو ولا سماح.

وتشنَّجت عضلات وجهه، ونقَلَ الشمعة بسرعة من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى، وحرَّكها في فضاء الغرفة، وضرب بها محدِّثه المهتَّم على أُذُنِه.

وهنا فكَّروا بالانقضاض على إيڤان، وانقضُّوا عليه. وانطفأت الشمعة، ووقعت النظَّارات عن الوجه وديست بالأرجل، فور وصولها إلى الأرض.

وأرسل إيڤان صرخة مخيفة مجنونة تناهت إلى البولڤار، وشرع يدافع عن نفسه. ووقعت الأواني من فوق الطاولة محدثة جلبة ورنيناً، وصرخت النساء.

وفي الوقت الذي انهمك فيه الخدم بشدّ وثاق الشاعر بالمناشف، دار حديث في غرفة البوّاب بين قبطان السفينة والبوّاب. سأل القرصان ببرودة:

- ألم تره قادماً مرتدياً السراويل الداخلية؟

فأجاب البوّاب جزعاً:

- لكنّي لست قادراً على منعه من الدخول يا أرتشيبلد أرتشيبلدڤتش، إنّه عضو في الرابطة.

وكرَّر القرصان السؤال:

- ألم تره في السراويل الداخلية؟

- خذني بحلمك ولطفك يا أرتشيبالد أرتشيبالدڤتش، - قال البوّاب وقد احمرّ وجهه وأكمل: وما بمقدوري أن أعمل؟. أنا أعرف أنّ ثمّة سيدات يجلسن على الشرفة.

- لا علاقة للسيدات بهذا الموضوع... لا فرق عندهنّ. الشرطة وحدها لها علاقة بالموضوع. إنسان يسلك شوارع موسكو في ثيابه الداخلية، جائز هذا في حالة واحدة فقط، حينما يكون بمرافقة الشرطة ومتّجهاً إلى مكان وحيد هو المخفر!. وأنت كونك تعمل بوّاباً، وفي حال مشاهدتك إنساناً كهذا، يتوجّب أن تبدأ بالصفير فوراً. فهمت؟ سمعت؟.

بهذه الكلمات خاطب القرصان بوّابه وهو يكاد يحرقه بنظراته.

وسمع البوّاب الشارد، الضائع اللبّ، ولولة وصراخاً وضجيجاً ناجماً عن معركة تستخدم فيها الأواني، وسمع كذلك صيحات نسائية..

ثم عاد اللص القرصان وسأل:

- بماذا أجازيك على عملك هذا؟

واتّخذت بشرة وجه البوّاب لون بشرة الوجوه المصابة بمرض التيفوئيد، وانطفأ النور في عينيه. خُيِّل للبوّاب المسكين أنّ الشعر الأسود المصفَّف اشتعل والتهب بنار هادئة، ولم يعد يُرى «الفراك» وبرزت من الزنّار الذي يمنطق الخاصرة قبضة مسدّس، وتصوّر المسكين نفسه معلّقاً على خشبة المشنقة في مقدّمة السفينة، لا بل ورأى بأمّ عينيه لسانه مسحوباً ورأسه مبتوراً متدلياً على كتفه، وسمع ضجيج الموجة في المرسى. واصطكّت ركبتا المسكين. وأدركت الشفقة قلب القرصان. أجل من يصدّق أنّ الشفقة أدركت قلبه على

البوّاب المسكين وانطفأ بريق نظراته الرهيفة الجارحة.

- انتبه يا نيقولاي! إنَّها المرّة الأخيرة. لا حاجة لنا في الرستوران ببوّابين من أمثالك. اذهب واعمل حارساً في الكنيسة.

وبعد أن تفوّه القرصان الآمر بكلماته تلك. أعطى أوامر دقيقة وواضحة سريعة: ادعِ پانتلاي من المقصف، والشرطي ،ليكتب محضراً ويُحْضر سيَّارة. وإلى مستشفى الأمراض العقليّة. - وأضاف: صفِّر!.

بعد ربع ساعة، صُعق الجميع لا في الرستوران وحسب بل وحتى على البولڤار، وفي نوافذ البيوت المطلّة على ساحة الرستوران.

صُعِق جميع الناس وقد رأوا كيف خرج من بوّابة غريباييدف: پانتلاي والشرطي والخادم والشاعر روخين وهم يحملون شاباً مقمَّطاً كالدمية، ورأوا كيف كانت تطفر الدموع من عيني الشاب وكيف كان يبصق على حامليه، ويحاول الانقضاض على روخين وكيف شرق بدموعه وصاح بملء فيه:

- يا للوغد!..

وأدار السائق محرّك الشاحنة، وقد ارتسمت على أساريره إمارات الشرّ. وعلى مقربة منه هيّج الحوذي حصانه، وساطه على عجزه بمهاميز ليلكيّة اللون وصاح:

- جاهز.. للتوجه إلى مستشفى الأمراض العقلية.

وعَلَتْ همهمة بين الناس، كانوا يتناقشون حول الحادثة الغريبة، بل قل الفضيحة الشنيعة الكريهة، والمهزلة المخزية المزرية، الفضيحة التي لم تنته إلاَّ حينما تحرَّكت الشاحنة مبتعدة عن غريباييدف، وهي تنقل إيڤان نيقولايڤتش التاعسَ الحظ، والشرطي، وپانتلاي، والشاعر روخين.

الفصل السادس

هي الشيزوفرانيا!، وتمّت النبوءة!...

كانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، حينما دخل أحد الأشخاص مصح الأمراض العقلية، الذي يقع في إحدى ضواحي موسكو وقد شُيِّد منذ فترة قصيرة على ضفّة النهر هناك، كان هذا الشخص ملتحياً، لحيته حادّة، يرتدي مبذلاً أبيض.

ولم يحوّل الممرّضون الثلاثة أنظارهم عن إيڤان نيقولايڤتش الذي كان جالساً على الديوان. وكان هناك أيضاً الشاعر روخين وقد بلغ به الجزع والاضطراب مبلغاً كبيراً. وتكوّمت المناشف التي شُدَّ بها وثاق إيڤان نيقولايڤتش، على الديوان ذاته حيث كان يجلس. وقد أصبح الآن طليق اليدين والرجلين.

وحينما رأى روخين الشخص الداخل عليهم شحب لون وجهه فسعل وقال وجلاً خائفاً:

ـ مرحبا يا دكتور.

وسلّم الدكتور على روخين رادّاً التحيّة، غير أنّه لم ينظر إليه، بل أخذ ينظر إلى إيڤان نيقولايڤتش. كان هذا الأخير يجلس مسمّراً في مكانه لا يبدي حراكاً، مقطّباً حاجبيه، وسيماء الشرّ على وجهه، ولم تصدر عنه أيّة حركة ساعة دخول الطبيب عليه.

وبادر روخين إلى القول همساً، ولسببٍ ما، تلفّت إلى إيڤان نيقولايڤتش:

ـ كما ترون يا دكتور إنّه الشاعر الشهير إيڤان بزدومني. ونخاف عليه من الحمّى البيضاء.

وسأل الدكتور من بين أسنانه:

ـ كان يُفرط في الشراب؟

ـ كان يشرب، لكنّه لم يكن يتجاوز الحدّ.

ـ لم يصطد جرذاناً وصراصيراً أو كلاباً سلوقية؟

ـ لا، أجاب روخين وهو يرتعد، لقد رأيته البارحة، وصباح اليوم، وكان سليماً معافى.

ـ ولماذا هو في السراويل الداخليّة، أتكونون قد أخرجتموه من سريره؟

ـ لقد أتى يا دكتور إلى الرستوران وهو على هذه الهيئة.

ـ أيوه.. أيوه.. ـ قال الدكتور مُعبّراً عن ارتياحه للجواب ـ وهذا الخدش؟ هل تشاجر مع أحد؟

ـ لقد وقع من أعلى السياج، وضَرَبَ بعد ذلك أحد الأشخاص في الرستوران... ثم ضَرَب آخر..

ـ هكذا، هكذا، هكذا.. قال الدكتور والتفت إلى إيڤان وأضاف:

ـ مرحباً

ـ مرحباً بالمخرِّب وبمسبِّب الأذى للناس. ـ أجاب إيڤان بصوت عالٍ، تطفح نبراته بالشرّ ـ.

وذاب روخين خجلاً حتى أنَّه لم يعد يجرؤ على النظر في وجه الدكتور المهذَّب. لكنَّ الطبيب لم يغضب ولم يأبه للإهانة، وبحركة رشيقة اعتادت عليها يده، نزع النظَّارات عن عينيه ورفع طرف الثوب، ودسَّ النظَّارات في جيب بنطاله الخلفي، وبعد ذلك سأل إيڤان:

ـ كم لك من العمر؟

ـ ابتعدوا عنّي، دعوني وشأني، لتخطفكم الشياطين ـ صرخ إيڤان حانقاً وولَّى بوجهه عنهم.

ـ لماذا غضبت؟ أقلتُ لك كلاماً يُغضب؟

وأجاب إيڤان مهتاجاً:

ـ عمري ثلاثة وعشرين سنة، سأشكوكم جميعاً، سأشكوك أيها الإمّعة ـ خصَّ بكلمته الأخيرة روخين ـ.

ـ بماذا أسأنا إليك حتى تشكونا؟

ـ لأنَّكم قبضتم عليَّ بالقوة، وجررتموني جرًّا إلى مستشفى الأمراض العقلية وأنا السليم المعافى.

وهنا نظر روخين إلى إيڤان وسرت قشعريرة برد في جسده، ففعلاً لا أثر ولو يسيراً للجنون في هاتين العينين، وقد عاد إليهما صفاءهما بعد أن كانتا معتكرتين في (غريبايدف). وفكَّر روخين جزعاً: «وا أبتاه.. إنَّه سليم معافى؟ مهزلة وأية مهزلة؟ حقًّا لماذا جررناه إلى هذا المكان؟ إنَّه طبيعي وبكامل قواه، جلده فقط مصاب ببعض الخدوش البسيطة.

وتكلَّم الطبيب برزانة وقد جلس على (تابورت) صغيرة بيضاء:

ـ أنت الآن في عيادة ولست في مستشفى الأمراض العقليّة، ولن يؤخِّرك أحد في الذهاب إذا لم يكن ثمَّة داعٍ لبقائك هنا.

وتململ إيڤان في مكانه غير مصدِّق ما يسمع وغمغم:

ـ المجد والحمد لك يا رب! وُجِد أخيراً إنسان واحد طبيعي بين جميع المجانين والبله وعلى رأسهم الأجدب العقيم ساشكا.

واستفسر الطبيب عن ساشكا العقيم الأبله من يكون؟

ـ إنّه ساشكا روخين وها هو أمامك! ـ أجاب إيڤان وأشار بإصبعه المتّسخ نحو روخين. فاشتعل الأخير سخطاً، وفكّر مكتئباً بمرارة: إتّقِ شرّ من أحسنت إليه، حقّاً إنّها لبضاعة بخسة ورديئة!.

وأكمل إيڤان حديثه وقد طاب له على ما يبدو توبيخ روخين وشتمه:

ـ إنّه اقطاعي يحسن التستّر بثياب بروليتاري. انظروا إلى سحنته المكربة وقارنوها مع تلك الأشعار الرنّانة التي نظمها ليلقيها في أوّل الشهر! هيه هيه هيه أشعار!... الليل ليل والنهار نهار!... تقاطيع وأوزان وكلمات جوفاء. ولو تأمّلتم في أعماقه، وعرفتم ما يكنّه في صدره، لتأوّهتم بآه وألف آه، واخجلتاه!...

تفوّه إيڤان بكلماته وانفجر بضحك يوعد بالشؤم.

وحَبَس روخين أنفاسه، وقد اصطبغ لون وجهه بالحمرة، وقد استحوذت على عقله فكرة واحدة... فكّر كيف أنّه ربّى أفعى على صدره ومنحها العطف والدفء فإذا هي تنهشه، كيف أولى اهتمامه انساناً كان يحسبه صديقاً فإذا هو ينكشف ساعة التجربة عن عدوٍّ لدود.

ولاذ روخين بالصمت وماذا بوسعه أن يعمل؟ أيتبادل الشتائم مع مجنون؟.

وسأل الطبيب الذي كان يصغي بانتباه إلى فضائح وشتائم بزدومني:

ـ لكن قل لماذا أحضروك إلينا؟

ـ ليأخذهم الشيطان، إنّهم صعاليك!.. انقضّوا عليّ، شدّوا وثاقي بالخِرق ونقلوني في الشاحنة.

ـ اسمح لي أن أسألك، لماذا جئت إلى الرستوران بالثياب الداخلية فقط؟

ـ إذا عُرف السبب بَطلَ العجب، ذهبت لأستحمَّ في نهر موسكو، فأخفوا ثيابي وأبقوا لي حقير المتاع، أأمشي عارياً في موسكو، ارتديت ما عثرت عليه على الضفّة، لأنّني أردت أن أعجّل بالمجيء إلى الرستوران إلى غريبابييدف.

ونظر الطبيب إلى روخين مستفسراً، فجمجم ذاك عابساً:

ـ هكذا يُسمّى الرستوران.

وعاد الطبيب وسأل:

ـ نعم، ولماذا أسرعت بالمجيء، أكنت على موعد؟

وأجاب إيڤان نيقولايڤتش وهو يتلفّت جزعاً:

ـ أطارد المستشار.

ـ أي مستشار هذا؟

حينذاك سأل إيڤان الطبيب سؤالاً ذا معنى ودلالة:

ـ تعرف برليوز؟

ـ المؤلّف الموسيقي؟.

وزعل إيڤان

ـ أيّ موسيقي؟ آه نعم نعم، ثمة مؤلّف موسيقي يحمل نفس اسم عائلة ميشا برليوز!.

أراد روخين أن يبقى صامتاً وأن لا يتدخَّل، لكنَّه رأى أنَّه لا بدّ من توضيح الأمور فقال:

ـ برليـوز: أمين سر رابطـة (الماسـوليـت)، وقـد دهسـه الترام مسـاء البـارحـة في (الباتزيارشي).

وغضب إيڤان من روخين، ونهره بقوله:

ـ لا تكذب بما لا تعرف! أنا الذي كنت هناك لا أنت!. هو الذي دبَّر له عن عمد تلك المنيّة، قتلاً تحت عجلات الترام.

ـ أيكون قد دفعه تحت عجلات الترام؟

ـ دفعه؟ وهل هو بحاجة لأن يدفع أحداً، بامكانه أن يأتي أعمالاً لا تخطر على بال إنسان، لقد عَرِف مسبقاً أنَّ برليوز سيقع تحت عجلات الترام!.

ـ وهل رأى أحد غيرك ذلك المستشار؟

ـ المصيبة أنَّ أحداً غيري وغير برليوز لم يره.

ـ حسناً... ما هي الاجراءات التي اتَّخذتها للقبض على القاتل المجرم؟

قال الطبيب هذا ورمى بنظرة الإمرأة الجالسة إلى الطاولة في مبذلها الأبيض والتي أخرجت على أثر ذلك ورقة وجعلت تملأ أعمدتها الفارغة.

ـ ها هي الاجراءات التي اتخذتها... أخذت من المطبخ هذه الشمعة.

ـ هذه؟ ـ استفسر الطبيب مشيراً إلى الشمعة المكسورة المرميّة على الطاولة أمام المرأة، بالقرب من أيقونة.

ـ نعم هذه..

ـ والأيقونة ما حاجتك بها؟

ـ آه الأيقونة!... ـ واحمرَّ وجه إيڤان، لقد أخافتهم الأيقونة أكثر من أي شيء آخر، ومن جديد أشار باصبعه إلى جهة روخين وأكمل:

ـ يجب أن لا يغيب عن بالنا أنَّه مستشار، وإذا ما تكلَّمنا بصراحة أنَّه يتعامل مع القوى الشريرة، وإلقاء القبض عليه ليس بالأمر الهيِّن أبداً، بل إنَّه أمر مستحيل.

وهنا تأهَّب الممرِّضون وحضَّروا أنفسهم دون أن يُعرف سبب استعدادهم، وثبَّتوا

عيونهم على إيڤان. وأكمل هذا المسكين:

ـ نعم يتعامل! حقيقة حقّة. لقد تكلّم شخصيّاً مع بيلاطس البنطي، ما وراء هذه النظرات التي ترمقونني بها؟ إنّني أقول الحق! لقد رأى كلّ شيء، رأى الشرفة وأشجار النخيل، باختصار كان عند بيلاطس وإنّي أصدّق بل وأؤكّد قوله...

قال الطبيب: حسناً، حسناً، حسناً...

ـ وهكذا صار، علّقت الأيقونة في صدري ورحت أجري..

وفجأة دقّت الساعة ضربتين معلنة الثانية.. وإذا بإيڤان يصيح وقد نهض من فوق الديوان:

ـ يه، يه، يه! الساعة الثانية وأنا أضيّع وقتي معكم، المعذرة أين التلفون؟.

ـ أفسحوا له الطريق إلى التلفون ـ أمر الطبيب مساعديه.

وأمسك إيڤان بالسمّاعة، في هذا الوقت سألت الامرأة روخين بصوت خفيض:

ـ هل هو متزوّج؟

أجاب روخين خائفاً: ـ ما يزال عازباً.

ـ عضو في النقابة؟

ـ نعم.

وصاح إيڤان في السمّاعة:

ـ الشرطة؟ الشرطة! اسمع أيها الرفيق المناوب، الآن الآن أعطوا أوامركم بإرسال خمسة موتوسيكلات مع أسلحة رشّاشة للقبض على المستشار الأجنبي. ماذا؟ تعالوا ورائي إلى هنا، وأنا أرافقكم بنفسي... يكلّمكم الشاعر بزدوموني من مستشفى الأمراض العقلية. ـ أعطوني عنوانكم؟ ـ طلب إيڤان من الطبيب همساً وقد غطّى سمّاعة الهاتف براحة يده وعاد يصيح في السمّاعة من جديد: تسمعون؟ ألو!...

يا للسخرية! ـ فجأة زعق إيڤان ورمى السمّاعة فاصطدمت بالحائط ـ بعدها التفت إلى الطبيب ومدّ نحوه يده قائلاً بجفاء: إلى اللقاء، واستعدّ للخروج.

وقال الطبيب وهو يتأمّل إيڤان في عينيه:

ـ خذنا بحلمك! إلى أين تريد الذهاب ونحن في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، وأنت في الثياب الداخلية، وحالتك الصحيّة غير مرضية فأنت متعب مريض، إبقَ عندنا!.

ـ دعوني أمرّ ـ أمر إيڤان الممرّضين الذين تجمّعوا عند الباب. ثم صرخ بصوت رهيب النبرات: ستسمحون لي بالمرور أم لا؟.

وارتعد روخين. وكبست المرأة على زرٍّ في الطاولة، وإذا بعلبة برّاقة تظهر فوق الطاولة الزجاجية وظهر كذلك أنبوب بداخله إبرة.

ـ هكذا إذن؟! تلفَّظ إيڤان وهـو يتلفَّـت مستـوحشـاً متضـايقـاً وأردف: حسنـاً، أستودعكم الله، قال هذا، ونطح ستارة النافذة. وسُمع صوت الصدمة، غير أنَّ زجاج النافذة لم ينكسر، ومَنَعَ إيڤان من السقوط.

وما انقضت لحظة حتّى كان المسكين يتخبَّط بين أيدي الممرِّضين، شخر، صرَّخ، حاول أن يعضّهم في أيديهم، لكن عبثاً:

ـ أقمتم سدًّا منيعاً من الزجاج! اتركوني! اتركوني! أقول لكم!.

ولمعت المحقنة بين يدي الطبيب. وفتقت المرأة كمّ السترة البالي بجذبة واحدة، وتشبَّثت بيد إيڤان بقوة تعجز عنها النساء. وعبق المكان بالأثير. واستسلم إيڤان بعد أن استُنزِفت قواه بين أيدي أربعة أشخاص.

واستغلَّ الطبيب الرشيق هذه اللحظة، لحظة استسلام المريض وضعفه، فغرز إبرته في ساعده. فأمسكوا به بضع ثوانٍ ثم طرحوه بعد ذلك على الديوان.

نهض إيڤان وصاح بأعلى صوته: لصوص! قطّاع طرق!. لكن سرعان ما أُرجع إلى مكانه على الديوان من جديد. وما أن تركوه حتى عاد ونهض من جديد، ليرتمي ثانية تلقائياً على الديوان.

وصمت، ثم التفت مستوحشاً، وفجأة تثاءب، وعاد بعد ذلك وأطلق ضحكة شريرة.

ـ ومع ذلك تمكَّنتم من سجني. قال هذا وجعل يتثاءب من جديد واضطَّجع فجأة واضعاً رأسه فوق الوسادة، وراحة يده تحت خدِّه، كما يفعل الأطفال. وجمجم مستسلماً للنعاس بصوتٍ خلَتْ نبراته من الشرّ والحقد:

ـ حسناً حسناً.. ستجازون على ما فعلت أيديكم. لقد أنذرتكم وقد أُعذر من أنذر، افعلوا بي ما تشاؤون! ما يهمني هو بيلاطس البنطي دون سواه، بيلاطس نعم. تفوَّه بكلماته وأغلق عينيه.

ـ انقلوه إلى الغرفة الإفرادية رقم ١١٧، وهيِّئوا له موضعاً هناك. أمر الطبيب وهو يضع نظاراته على عينيه.

وارتعد روخين هلعاً من جديد، وفُتحت الأبواب البيضاء، دون أن تحدث صريراً، وشوهد الممرّ وقد أُضيء بالمصابيح الليليّة الزرقاء، وخرجت من الممرّ عربة سرير بعجلات مطاطية، مدَّدوا فوقها إيڤان الهاجع الهامد، ومشى روخين في الممرّ وراء العربة، وأُغلقت الأبواب وراءه.

وسأل روخين المصعوق هامساً.

ـ أيعني كلّ هذا أنّه مريض حقًّا يا دكتور؟

ـ نعم، بالتأكيد ـ أجاب الطبيب.

وسأل روخين وجلاً: ـ ما مرضه يا تُرى؟

ونظر الطبيب الواهن إلى روخين وأجاب والذبول بادٍ على وجهه:

ـ هيجان، إثارة، ثقل في النطق. حالته صعبة ومعقَّدة. ويفترض أنَّها الشيزوفرانيا... ويدخل هنا إدمانه على شرب الكحول.

لم يفقه روخين كلمة واحدة مما قاله الدكتور. ما فهمه هو أنَّ أحوال إيڤان نيقولايڤتش ليست على ما يرام، لا بل إنَّها أحوال حقًّا عاطلة. فتنهَّد وسأل:

ـ إنَّه يكثر من الكلام عن مستشار ما، فما السبب يا تُرى؟

ـ ربما يكون قد رأى ما أذهل وأقلق مخيلته المشوَّشة، وقد تكون مجرَّد هلوسة ووساوس.

وبعد دقائق نقلت الشاحنة روخين إلى موسكو.

كان الفجر قد بَزَغَ وأنوار المصابيح في الشارع لم تطفأ بعد، الأنوار غير المستحبّة وغير الضرورية وقد هلَّت تباشير الصباح. وغضب السائق لأنَّ الليل قد أدبر وولَّى، فأدار الشاحنة وقادها بسرعة فكادت تنزلق بهم عند المنعطفات.

ها هم يمرُّون على غابة ويخلِّفونها وراءهم، ويقطعون نهراً. واعترضت طريقهم مصاعب شتَّى وعقبات وحواجز، وأسيجة توزَّعت بينها أكشاك الحرس، وأكوام من الخشب، وأعمدة عالية. ونُصُبٌ نُسِّقت فوقها وشائع. اعترضتهم كذلك أكوام من الحصى وأرض خدَّدتها القنوات. خلاصة القول حواجز تجعلك تعرف بأنَّك في موسكو... عمَّا قريب، وتلقاك وراء المنعطف بوجهها، تلقاك مرحِّبة معانقة.. وجذع ملقى على الأرض أزعج روخين، خضَّه واهتزَّ بسببه جسمه. وحاول السائق مراراً أن يتجاوزه، إلى أن نجح في العبور فوقه.

مناشف الرستوران التي رماها الشرطي وپانتلاي، وقد سبقا روخين بالمجيء إلى موسكو في الترولييبوس، شوهدت منتشرة على طول الرصيف. حاول روخين أن يلمَّها، لكنَّه لسببٍ ما فحَّ كما تفحّ الأفعى:

ـ ليأخذ الشيطان المناشف، ما بي أدور كالأحمق؟ قال هذا وقذف المناشف برجله ولم يعد ينظر إليها.

كان مزاج القادم سيِّئاً متعكِّراً، لقد بدا واضحاً أنَّ زيارته لبيت الآلام أثَّرت عليه، وتركت انطباعاً قاسياً وسيِّئاً في نفسه.

حاول روخين أن يفهم ما الذي يؤلمه، أيكون مبعث عذابه ذلك الممرّ بمصابيحه الزرق، وقد عَلِقَ مشهده بذاكرته. أم آلمه التفكير في أن لا تعاسة في هذا العالم تضاهي فقدان المرء لعقله؟.

نعم! نعم!.. ربما آلمته مثل هذه الأفكار أيضاً، لكنَّها أفكار تُراود مخيلة أيّ إنسان. ثمّة أفكار أخرى عذّبته؟ أهي الإهانة... والكلمات التي تفوّه بها بزدومني. الكلمات التي رشقه بها في وجهه، كلمات حقًّا مغيظة. والمصيبة ليست أنَّها كلمات قاسية، المصيبة أنَّها كانت تنطوي على حقيقة!.

ولم يعد الشاعر ينظر إلى جنبات الشارع، جعل يحملق في الأرض المترجرجة المتَّسِخة، وشرع يجمجم متذمِّراً ويجرض بريقه: أجل شرع يفكِّر بالأشعار التي نظمها، لقد أصبح له من العمر اثنتان وثلاثون سنة! وماذا بعد كل هذه السنين؟ ماذا ينتظر وماذا يفعل؟ أيكمل مشواره في عالم الشعر.. وينظم قصيدة أو قصيدتين كلّ عام حتى يصل به العمر إلى سنوات هرمه؟ نعم حتى أيّام الشيخوخة؟ وماذا ستجلب له هذه القصائد؟ بأيّ نفع ستعود عليه؟ ماذا سيجني منها. سيتوّج بأكاليل الغار والمجد؟! «يا للمهزلة! على الأقلّ لا تكذب على نفسك ولا تخدعها». «لن يواكب المجد ناظم الأشعار الرديئة الهزيلة». «ولماذا أشعاري رديئة؟.. لقد قال الحقيقة، كلّ الحقيقة». بهذه الكلمات وبلا شفقة أو رحمة خاطب روخين نفسه وأكمل: «أنا لا أصدّق حرفاً ممّا تكتبه يميني!..».

وترنَّح الشاعر، ونغَّص عليه هيجان الأعصاب حياته، ولم تعد الأرض تميد تحت قدميه.

ورفع روخين رأسه، فرأى أنَّه في موسكو منذ زمن، وتلاويح الفجر قد هلَّت فوق المدينة، وأنَّ الغيمة الجميلة اكتست بثوب ذهبي، وأنَّ سيَّارته تقف بين رتل سيارات أُخَر عند منعطف البولڤار، وغير بعيد عنه ينتصب انسان معدني فوق قاعدة★، ينتصب تمثال وقد أمال برأسه قليلاً، وراح ينظر إلى الشارع دون اكتراث وبلا مبالاة.

وترادفت الأفكار، وتدفَّقت في رأس الشاعر المريض:

«هاكم مثلاً عن النجاح الحقّ ـ وهنا وقف روخين على رفراف الشاحنة بقامته المديدة ورفع يده، ودونما سبب ضرب الإنسان الحديدي ظلماً وافتراءً، ضرب ذلك الإنسان الذي لا يعتدي على أحد ولا يظلم أحداً.

ما أتى من أعمالٍ في دهره وما حدث معه عاد عليه بنفع كبير وفائدة، وجلب له المجد التليد، لكنني أتساءل ماذا فعل في دهره؟ لا أُدرك السرّ؟ أثمّة معانٍ خفيّة في هذه الكلمات: عاصفة، عتمة؟.. لا أفهم، إنَّه محظوظ، محظوظ!. خلص روخين إلى القول ولفظ كلماته الأخيرة بمرارة وأسى، وشعر أنَّ الشاحنة تترجرج تحته ـ أطلق الروسيّ الأبيض ـ عدوّ الثورة، رصاصه على التمثال فكسر له وركه وكفل لصاحبه الخلود.

★ ـ المقصود تمثال الشاعر بوشكين. وعاصفة، عتمة: مطلع قصيدة له.

وتحرّك رتل السيّارات، وبعد دقيقتين دخل الشاعر شرفة غريباييدف، سقماً واهياً.

كانت الشرفة خالية إلاّ من جماعة كانت تعاقر ابنة العنقود في إحدى الزوايا. وفي وسط الشرفة انهمك محاضر، اعتمر طاقية وحمل في يده قدح «أبراو».

واستقبل أرتشيبالد أرتشيبالدڤتش روخين ببشاشة وابتسامة وخلّصه من حمل الخِرق المشؤومة (المناشف).

لو لم يحدُث لروخين في العيادة ما حدث، أعني لولا تلك الآلام والمنغّصات لكان سروره تعاظم وهو يقصّ على مسامع رفاقه ما حدث أمام عينيه في المستشفى، ولكان زخرف قصّته بتفاصيل من اختراع مخيلته. لكن بعد الذي حدث فالكآبة تفترس نفسه، ولا قوة له ولا جَلَد على سَرد القصص. وأضف إلى ذلك، فبالرغم من أنّه كان ضعيف الملاحظة، فبعد العذاب المرير في الشاحنة راح يتأمّل جيّداً وبانتباه ولأوّل مرّة وجه القرصان، فأدرك أنَّ هذا اللصّ لا مبالٍ في قرارة نفسه، وغير مهتم بمصير بزدوموني، وحتى غير آسف عليه ولا حزين من أجله. أمّا أسئلته واستفساراته عن ذلك المسكين وصيحاته آه آه فما هي سوى عواطف مزيّفة كاذبة.

وفكّر روخين في نفسه وكاد يموت بغيظه:

«مثله تكون الرجال وهذا هو العمل الصحيح!».

وسأل دون أن يكمل قصّته عن الشيزوفرانيا:

ـ أرتشيبالد أرتشيبالدڤتش هلاّ طلبت لي ڤودكا...

وهمس القرصان وقد اتخذ هيئة الشفوق الرؤوف:

ـ أه... هذه الدقيقة، وأشار للنادل آمراً.

بعد ربع ساعة، جلس روخين وحيداً، في عزلة تامة، انحنى فوق سمكة، وارتشف الكأس تلو الكأس، وأدرك الآن وأقرّ بأنَّ تقويم مسيرة حياته مسألة أمست مستحيلة.. والخلاص في النسيان والنسيان فقط.

لقد أضاع الشاعر ليله الدابر بينما كان الآخرون يشربون الصهباء.. وأدرك الآن أنّه ليس في مقدوره إرجاع ما مضى.

يكفي أن يحيد رأسه عن المصابيح ويرفعه نحو السماء ليفهم أنَّ الليل ولّى ولن يعود. فالنُدل نزعوا الأسمطة من فوق الطاولات على عجل، والصباح يتراءى في سحنة القطط وقد تجمّعت بالقرب من الشرفة.

وانقضَّ النهار على الشاعر انقضاضاً.

الفصل السابع

الشقّة الملعونة

لو قيل لستيپا ليخدييف صباح اليوم التالي: ستيپا! إذا لم تنهض في الحال فستقتل، لأجاب بصوت متهدّج خافت: «اقتلوني برصاصكم وافعلوا بي ما تشاؤون فلن أنهض».

أصبح ستيپا وهو ليس غير قادر على النهوض فحسب، بل وغير قادر على فتح عينيه، لأنّه ما أن يفعل هذا حتى يلمع البرق، ويتحطّم رأسه مزقاً.

أزّ جرس ثقيل في هذا الرأس، وبين المقلتين والجفنين المطبقين أبحرت بُقع بُنيّة، خضراء الأطراف ناريّة.

ولتكتمل فصول مأساته مَسَّه شعور بالغثيان، وتزامن هذا الشعور مع أنغام حاكٍ مزعج لجوج.

حاول ستيپا أن يتذكَّر... تذكَّر يوم البارحة... وقف في مكان ما، وحمل في يده فوطة، حاول تقبيل إحدى السيِّدات، وعدها بموافاتها إلى بيتها في اليوم التالي، وفي منتصف النهار تماماً، ورفضت السيِّدة عرضه قائلة: لا... لا تأتِ، فلن أكون في البيت! أما هو فقد ألحَّ عليها أن تنتظره وأصرَّ على رأيه قائلاً: سآتي إليكِ.

نسي ستيپا السيِّدة ونسي الوقت وتاريخ الشهر واليوم. والأسوأ في الأمر أنَّه ما كان باستطاعته معرفة مكان وجوده. فحاول أن يدرك ويحدِّد هذا المكان، ولأجل هذه الغاية فتح جفني عينه اليسرى الملصقتين. ولمع شيء ما، لمع ببريق ضعيف وسط الظلمة.

وتعرَّف ستيپا أخيراً على المرآة فأدرك حينئذٍ أنَّه مستلقٍ على ظهره فوق سريره، وأنَّه في غرفة نومه فوق ذلك السرير القديم الجميل الذي ما زال يحتفظ بعزّه القديم.ولَطَمَ ستيپا على رأسه وأطبق عينيه وشرع يئنّ.

لا بدَّ من توضيح: ستيپا ليخادييف، مدير مسرح الڤاريته، أفاق من نومه في الصباح الباكر في تلك الشقّة التي تقاسمها مناصفة مع المرحوم برليوز، والتي كانت تقع في البناء الكبير، ذي الطوابق الستة، المرتفع في شارع السادوڤايا كحرف الـ پ اليونانية.

من الضروري أن نذكر أنَّ ثمّة أخبار سرت حول هذه الشقَّة ذات الرقم ٥٠، وهذه الأخبار إن لم تكن سيِّئة فإنَّها على كلّ حال كانت غريبة...

منذ سنتين، كانت أرملة الصائغ دي فوجريه تملك هذه الشقّة. كانت آنّا فرانتسيڤنا

دي فوجريه سيِّدة في الخمسين من عمرها، محترمة محنَّكة، ولقد أجَّرت ثلاث غرف من الشقّة التي تتألَّف من خمس غرف. أجَّرت إنساناً اسم عائلته بيلاموت حسبما قيل. كما أنَّها أجَرت إنساناً آخر ضاع إسم عائلته.

ومنذ سنتين جَرت في الشقّة حوادث لا تفسير لها. فقد بدأ السكَّان يختفون منها وتضيع آثارهم.

فذات مرّة، يوم أحد، ظهر شرطي في الشقّة، ودعا إليه عند المدخل أحد المستأجرين (الذي ضاع اسم عائلته)، أبلغه أنَّه مطلوب إلى مخفر الشرطة دقيقة واحدة ليوقِّع على وثيقة ما. وأوصى المستأجر أنفيسا الخادمة الأمينة التي تعمل منذ زمن في بيت آنَّا فرانتسيڤنا، بأن تردّ على الهاتف وأن تجيب من يسأل عنه أنَّه سيعود بعد عشر دقائق، وذهب بصحبة الشرطي المهذَّب ذي القفَّازات البيضاء. ولم يرجع بعد عشر دقائق، إذ أنَّ ذهابه كان دون إيَّاب!.. والأعجب في قضية اختفائه، هو أنَّ الشرطي الذي رافقه اختفى أيضاً.

أنفيسا التقيّة، وإذا قلنا بمزيد من الصراحة أنفيسا الموسوسة أنبأت فوراً آنَّا فرانتسيڤنا القلقة المتضايقة بما حدث وبصراحة وضَّحت أنَّ هذا سحر، نعم سحر، وأنَّها تعرف حقّ المعرفة ذاك الذي جذب المستأجر والشرطي، وأنَّها لا تريد التحدّث عنه حتى حلول الليل.

والحديث عن السحر حديث ذو شجون، فما أن تبدأ الأحاديث عن هذا الموضوع لن يعود بمقدور أحد أن يوقفها ويبطلها.

واختفى المستأجر الثاني وضاع أثره يوم الاثنين، ويوم الأربعاء تبعه (بلاموت) في الاختفاء، وكأنَّ الأرض فتحت فاها وابتلعته، وإن كانت ظروف اختفائه مختلفة تماماً عن ظروف اختفاء الأوَّل.

أتت وراءه سيَّارة في الصباح - كما هي العادة - ونقلته إلى مكان وظيفته.. لكنَّها لم تعد ثانية به إلى البيت، والسيَّارة هي أيضاً لم ترجع.

يعجز القلم عن وصف مصيبة ورعب السيِّدة (بلاموت). لكن واحسرتاه لا خوفها استمرّ ولا حزنها على ما أصابها كان أبديًّا.

في نفس الليلة التي رجعت بها السيِّدة آنَّا فرانتسيڤنا من الداتشا بصحبة أنفيسا، تلك الداتشا التي عجَّلت السيِّدة بالذهاب إليها لسببٍ ما، استفقدت جارتها السيِّدة بيلاموت، فلم تجدها في الشقّة.

ليس هذا وحسب، بل أنَّ أبواب الغرفتين اللتين شغلها الزوجان وُجِدا ممهورين بالأختام.

ومرَّ يومان كيفما اتفق، وفي اليوم الثالث عجَّلت السيِّدة آنَّا بالذهاب إلى الداتشا من جديد، وقد عذَّبها الأرق طيلة تلك الأيام. وهل من الضروري أن تذكر أنَّ ذهابها هي

الأخرى كان أيضاً دون إيّاب.

أمّا أنفيسا وقد بقيت وحيدة فبكت ما شاء الله لها أن تبكي وذرفت دموعاً غزيرة واستسلمت للنوم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

ماذا حدث لها بعدئذ؟ لا أحد يعرف. لكن سكّان الشقق المجاورة حكوا أنّه كانت تُسمع أصوات ضرب في الشقّة ذات الرقم خمسين... وكأنَّ نوراً كهربائياً أضاء النوافذ حتى الصباح...

وفي الصباح انكشفت الخفايا، اختفت أنفيسا..

وسرت الشائعات ونُسجت الأساطير وتناقلت الألسن القصص حول الشقّة الملعونة والمفقودين.

قصّة من تلك القصص التي تناقلها الناس أفادت أنَّ التقيّة أنفيسا الناشفة، كانت تخفي في حمّالات صدرها الجاف، في كيس من جلد الغزال، خمس وعشرين ماسّة. كانت ملكاً لسيّدتها آنّا فرانتسيڤنا.

وحكوا أيضاً أنّه عثر في المستودع الخشبي في الداتشا نفسها، إلى حيث كانت تذهب السيّدة آنّا، على كنز ثمين، وعلى تلك الماسات، كما عُثر أيضاً على نقودٍ من ذهب، قيصرية. وشاعت أخبار كثيرة مماثلة، لكنّنا لن نصدّق كلاماً لا نعرف مدى صحته.

وبعد أن كان من أمر الشقّة ما كان، بقيت فارغة ومختومة أسبوعاً واحداً فقط. انتقل إليها بعد ذلك المرحوم برليوز وزوجته، وصاحبنا ستيپا، هو الآخر مع زوجته.

ومن البديهي القول ما أن سكنوا تلك الشقّة الملعونة حتى وقعت حوادث عجيبة لا يعرف تأويلها إلاّ الشيطان.. فخلال شهر واحد اختفت الزوجتان. اختفتا لكنَّ آثارهما لم تختفِ. عن زوجة برليوز حكوا كأنّهم رأوها في خاركوف مع معلّم رقص باليه. أمّا زوجة ستيپا فزعموا أنّه عُثر عليها في (بوغدومكا)*، وأنَّ مدير الڤاريتيه استغلَّ معارفه وصلاته القوية، واحتال حتى وجد لها غرفة هناك، بشرط وحيد هو أن لا يرى لها أثر في شارع السادوڤايا. يعني أن لا تعود إلى الشقّة أبداً. ـ هذا حسبما رووا..

نعود لنكمل قصّتنا: شرع ستيپا يئنّ. أراد أن يدعو إليه الخادمة غرونايا ويطلب منها أن تأتيه بحبوب الپيراميدون، لكنّه أدرك أنَّ طلبه هذا سيكون مجرَّد حماقة لا أكثر، لأنّه ليس بحوذة غرونايا أي أقراص من الپيراميدون. فحاول أن ينادي برليوز مستغيثاً فأنَّ مرتين: ميشا ميشا، لكن، وكما تعرفون، ما من مجيب.

وران الصمت الكلي على الشقّة وحرّك ستيپا أصابع رجليه، فأدرك أنّه نام ولمّا يخلع

* مأوى عجزة خيري.

جواربه. وبيد مرتجفة تحسَّس وركه، ليعرف ما إذا كان مرتدياً البنطال أم لا، ولم يقدر أن يحدِّد.

وأخيراً وبعد أن رأى أنَّه مرمي وحيداً، وأنَّ لا معين له يخرجه من المأزق، قرَّر أن ينهض مهما كلَّفه ذلك من جهود.

وفتح ستيپا الجفون الملصقة فرأى في المرآة صورة إنسان مشتَّت شعر الرأس في كلّ الاتجاهات، منتفخ الوجه، وقد غطَّاه شعر خشن قصير، وعيناه وارمتان، يرتدي سترة متَّسخة وياقة وربطة عنق، وكان في ملابسه الداخلية، ويلبس جوارب.

رأى ستيپا نفسه في المرآة على هذه الصورة، ورأى بالقرب من المرآة إنساناً غريباً يرتدي ثياباً سوداء ويعتمر بيريه سوداء أيضاً.

جلس ستيپا على السرير، وبعينين طافحتين بالدم، حملق بالغريب على قدر طاقته.

وعكَّر الغريب صفاء الصمت السائد، فلفظ بصوت خافت ثقيل النبرات، تشوبه لكنة غريبة:

ـ صباح الخير يا ألطف الناس يا ستيپان بغدانوڤتش!.

ومضت لحظات صمت، بذل بعدها ستيپا جهوداً جبَّارة مع نفسه وأجاب:

ـ ماذا تريدون؟ ـ تلفَّظ كلماته هذه وصعق لأنَّه بالكاد عرف صوته، فكلمة (ماذا) لفظها بصوت عال، ولم يلفظ كلمة تريدون بأكملها، لفظ نصف الكلمة بصوت جهوري، وبلع النصف الآخر.

وضحك الغريب متودِّداً، ثم أخرج ساعة ذهبيّة كبيرة، ذات مثلَّث ماسيّ فوق الغطاء، وضرب إحدى عشرة ضربة، وقال: إحدى عشرة، وقد مضى عليّ ساعة بالضبط وأنا أنتظر نهوضك من النوم، لأنَّك حدَّدت لي موعداً في العاشرة وها أنذا!.

تحسَّس ستيپا البنطال على الكرسي بمحاذاة السرير وهمس:

ـ عفواً، ثم ارتدى البنطال وبصوت أجشّ سأل: هلاَّ تتفضَّل وتقول لي اسم عائلتك؟

لقد وجد ستيپا صعوبة بالغة في الكلام. فمع كلّ كلمة كان يلفظها كان يشعر أنَّ ثمّة إبرَة تُغرز في دماغه مُسبِّبة له آلاماً جهنميّة لا تطاق.

وسأل الغريب مبتسماً:

ـ كيف؟ أتكون قد نسيت اسم عائلتي؟

ـ سامحني، أجاب ستيپا بصوت أجشّ، وقد شعر أنَّ سكرة البارحة زوَّدته بأحاسيس جديدة: فقد تراءى له أنَّ الأرض قرب السرير رحلت بعيداً عنه، وأنَّه في هذه الدقيقة سيطير إلى نخاريب جهنَّم، ورأسه إلى أسفل.

ـ أيها العزيز ستيپان بغدانوڤتش، هتف الزائر وهو يبتسم ابتسامة دالّة على الدهاء

والفطنة: لن يساعدك الپيراميدون ولا مشتقّاته، اتّبع النصيحة الحكميّة القديمة: داو الداء بالداء، فما يعيدك إلى الحياة غير قدحين من الفودكا ولمجةٍ ساخنة حرّيفة.

وكان ستيپا انساناً واسع الحيلة وذا دهاء. لم يمنعه مرضه القوي من التفكير، أتته الفكرة بعد السكرة، وقد دوهم وهو على حالته فلماذا لا يعترف ولا يبوح بكلّ شيء.

وبعد لأي أدار لسانه ليقول:

ـ بصراحة.. البارحة شربت قليلاً..

ـ ولا كلمة، يكفي، ـ أجاب الزائر وابتعد.

وحدّق ستيپا بعينيه فرأى صينية وضعت على المنضدة الصغيرة أمامه، ورأى شرائح خبز أبيض، وكافيار أسود مكبوس في إناء، وصحن فطر أبيض بالخلّ، وطعام مطبوخ في طنجرة صغيرة وفودكا في دورق كبير جميل الصنع. وما بهر ستيپا بنوع خاص هو أنّ الدورق كان يتندّى بسبب الصقيع. ولا عجب في ذلك فإنّه قد وضع في إناء واسع طافح بالجليد. ووجد ستيپا نفسه أمام مائدة لذيذة تشهد للطهاة بالذوق. ولم يدع الرجل المجهول دهشة ستيپان تتعاظم وتكبر، فبرشاقة وخفّة سكب له نصف قدح من الفودكا، وصأى ستيپا:

ـ ولك؟

ـ بمنتهى السرور.

وبيدٍ مرتعشة أدنى ستيپا الكأس من شفتيه، أمّا الغريب فبرشفة واحدة احتسى ما في كأسه.

وقال ستيپا وهو يمضغ الكافيار:

ـ ماذا تنتظر... هلاّ تفضّلت وشاركتني؟

ـ أشكر لكم جزيل الشكر فأنا لا أذوق اللمج أبداً ـ أجاب الغريب وسكب ثانية الفودكا لكلٍّ منهما. ثم فتحا الطنجرة فوجدا فيها المقانق المطبوخة مع الطماطم.

وانزاح ستار النسيان من أمام عيني ستيپا وذابت البقع الخضراء الملعونة، وانحلّت عقدة من لسانه... وبدأ يتذكّر ويلملم أشتات ذكرياته.

كان البارحة في (سخودة) في الداتشا عند خوستوف مؤلّف الاسكتشات، وقد نقله هذا الأخير إلى ذلك المكان بسيّارة أجرة. وتذكّر أيضاً أنّهما استأجرا السيّارة، في الموقف قرب المتروپول، وكان برفقتهما أحد الممثلين، ممثّل في حقيبته حاكياً (فونوغراف). نعم، نعم... الآن تذكّر جيّداً... حدث ما حدث في الداتشا!.. تذكّر أنَّ ثمّة كلاباً عوت بسبب ذلك الحاكي.. غير أنَّ السيّدة تلك التي أراد ستيپا تقبيلها بقيت ملفّعة بالغموض. الشيطان وحده يعلم من كانت. ربّما كانت موظّفة في الاذاعة.. وربّما لا.

وهكذا نُشِرت صفحة الأمس شيئاً فشيئاً بعد أن كانت نسيًّا منسيًّا، لكن ما يهم ستيپا الآن هو يومه الحاضر لا أمسه الدابر، وخاصَّة ظهور الرجل المجهول في غرفة نومه ومعه الفودكا واللمجة.. ومن المستحسن جداً جلاء خفايا هذه المسألة.

ـ آمل أن تكون الآن قد تذكَّرت اسم عائلتي؟

ما كان من ستيپا إلاَّ أن ابتسم خجلاً وبسط ذراعيه ولاذ بالصمت.

ـ لكنّني أرى أنَّك شربت بورتو بعد الفودكا يوم البارحة! عفوك، أيمكن الإقدام على عمل كهذا؟

وقال ستيپا مستعطفاً:

ـ أرجوك أن يبقى هذا بيننا!..

ـ طبعاً، طبعاً، إنّني لا أثق بخوستوف مطلقاً.

ـ وهل تعرف خوستوف؟

ـ البارحة لمحت ذلك الشخص في مكتبك. نظرة سريعة في وجهه ويفهم المرء أي انسان لئيم متلوّن مداهن هو.

«كلام صحيح»، فكَّر ستيپا وقد أدهشه هذا الوصف الدقيق الصحيح والمختصر لخوستوف.

وهكذا عاد يوم الأمس كاملاً صحيحاً وعادت والتصقت مزقه بعضها ببعض. اكتملت السلسلة من جديد، ومع ذلك بقي القلق مساوراً مدير (الڤاريته)، وسبب قلقه تلك الحلقة المفقودة في عقد البارحة أو ذلك الثقب الأسود الواسع في صفحة الأمس، المعذرة والعفو فهذا الغريب المجهول المعتمر (البيريه) لم يره ستيپا يوم البارحة في مكتبه.

وقال الزائر بلهجة واثقة وقد شعر بموقف ستيپا الحرج:

ـ ڤولند بروفسور السحر الأسود، وحكى كلّ شيء وبالترتيب: وصل إلى موسكو من الخارج نهار البارحة، وفور وصوله زار ستيپا وعرض عليه إحياء حفلات في (الڤاريته).

واتَّصل ستيپا باللجنة الاقليمية الموسكوبيّة للمسرح والتمثيل ووافق، (وهنا شحب لون وجه ستيپا وطرفت عيناه). ووقَّع ستيپا والبروفسور عقداً ينصّ على أن يحيي البروفسور سبع حفلات، (وفغر ستيپا فاه تعجُّباً)، واتفقا البارحة على أن يزور ڤولند ستيپا للاتفاق على التفاصيل، وفي الساعة العاشرة من هذا اليوم... وها هو ڤولند أتى!. استقبلته الخادمة غرونايا، وقد أوضحت له أنَّها هي أيضاً حضرت الآن إلى البيت عائدة من الخارج، وأن برليوز غير موجود، وإذا كان الزائر يرغب بمشاهدة ستيپان بغدانوڤتش فليذهب إليه بنفسه إلى غرفة النوم، لأنَّ ستيپان حينما ينام فنومه عميق، وليست مستعدة أن توقظه. ولمّا رأى الفنان حالة ستيپان بغدانوڤتش التعسة، أرسل غرونايا إلى أقرب محل لتشتري الفودكا

واللمج وإلى الصيدلية لتشتري الجليدو..

ـ اسمح لي إذن أن نتحاسب... هزَّ ستيپا وجعل يبحث عن ورقة صغيرة.

ـ حديث لا داعِ لمثله!، هتف الفنَّان المتجوِّل ولم يشأ أن يسمع أكثر.

وهكذا توضَّح أمر الفودكا واللمج، كيف ومن أين أتت، ومع ذلك كان النظر إلى وجه ستيپا يولِّد شعوراً بالأسف والأسى. فهو لم يتذكَّر أبداً ما كان من أمر ذلك العقد، ولو قتلوه فلن يقرّ بأنَّه رأى هذا الڤولند البارحة... نعم خوستوف كان حاضراً، أمَّا ڤولند فلا...

وسأل ستيپا بهدوء:

ـ هلاَّ سمحت لي برؤية ذلك العقد؟

ـ تفضَّل، تفضَّل...

ونظر ستيپا إلى الورقة وسرت في مفاصله قشعريرة من البرد. كان كل شيء في العقد قانونياً وحسب الأصول. رأى امضاءه أوَّلاً وبخطِّ يده، وقد انبسط متمدِّداً على الورقة. وعلى جنب عرف الخط المائل، إنَّه خط ريمسكي، المدير المالي، والقاضي باعطاء الفنَّان ڤولند سلفة مبلغ عشرة آلاف روبل من الخمسة والثلاثين ألفاً، أجرته على إحيائه السبع حفلات. وأكثر من ذلك رأى إمضاء ڤولند المقرّ باستلامه المبلغ المذكور.

وفكَّر ستيپا: ما هذا الذي يحدث؟.. وبدأ رأسه بالدوران. فعلاً ما هٰذا الذي يحدث أتكون ذاكرته تلاشت وأصيبت بالتشتّت؟..

من البديهي القول إنَّه بعد أن رأى بأمِّ عينه العقد والتواقيع، لم يعد لإمارات الدهشة البادية على وجهه أي معنى، ولم تعد لائقة حتَّى.

واعتذر ستيپا من ضيفه، واستأذن لدقيقة واحدة. وركض دون أن يخلع الجوارب إلى الغرفة في المدخل حيث التلفون، وفي طريقه إلى الغرفة، صاح باتجاه المطبخ منادياً: غرونايا، غرونايا.. لكن لم يجبه أحد على ندائه. ورشق باب غرفة برليوز بنظرة، ذلك الباب الذي كان قريباً من غرفة المدخل، وهنا، كما يُقال، صُعِق ستيپا وتسمَّر في مكانه. فعلى مقبض الباب بان لناظريه ختم كبير من الشمع الأحمر.

وزأر أحدهم قرب رأس ستيپا: مرحبا!.

ـ «اكتملت الفرحة!». وركضت أفكار ستيپا على طريق عريض من خطين، ولكن في اتجاه واحد كما هي دائماً العادة في زمن النوائب، والشيطان يعلم أين يمَّمت تلك الأفكار. أنَّى لنا أن نعبِّر عن العصيدة التي طُبخت في رأس ستيپا.

ففي ذلك الرأس كان الشيطان المعتمر البيريه السوداء، والفودكا الباردة، والعقد العجيب الغريب، والباب المختوم بالشمع الأحمر.. وأليس هذا بكافٍ؟.. وهل سيصدِّق

قولكم أحد إذ أخبرتموه بأنَّ برليوز أتى أعمالاً عاطلة ؟.. لن يصدِّق أحد الأخبار العاطلة عن برليوز. لن يصدِّقكم وأخباركم أحد. لكن وهذه الحجّة الدامغة.. والبرهان القاطع.. ها هو أمامكم: الختم بالشمع.. نعم..

وهنا تململت الأفكار المزعجة في دماغ ستيپا. فكَّر بذلك المقال الذي دسّه منذ زمن قليل، لميخائيل ألكسندروڤتش لينشره في المجلّة. والمقال، والحديث بيننا، لا يحرز. مقال سخيف لا ينفع لشيء، ودريهماته قليلة.. يا للملابسة السيِّئة.

وترادفت الذكريات متتابعة بعد أن تذكَّر المقال. تذكَّر حديثاً حمياً قريباً، تُبودل بينه وبين برليوز حسبما يذكر في الرابع والعشرين من شهر نيسان مساءً، في المطعم حينما تناولا طعام العشاء معاً.

وإذا ما توخَّينا الدقّة في الكلام، فإنَّه لا يمكننا تسمية ذلك الحديث مريباً. (فستيپا لا يجرؤ على مثل تلك الأحاديث). لكنّه كان حديثاً نافلاً وما كان ثمّة ضرورة للخوض فيه.

الحرية المطلقة معطاة للمواطنين في أن لا يسترسلوا في مثل تلك الأحاديث. قبل نشره وطبعه يمكن أن يعتبر الحديث دون شك سخيفاً وفارغاً، لكن بعد الطبع تلك هي المسألة!...

«آه برليوز! يا برليوز!.» بدأ يغلي هذا النداء في رأس ستيپا. ما جرى لبرليوز لا يقبله العقل ولا يحتمله الرأس!.

لكن تحسّر ستيپا وويلته لم تطلا. طلب نمرة مكتب ريمسكي، مدير الڤاريته المالي. كان وضعه حسَّاساً دقيقاً وحرجاً: فأوَّلاً قد يغضب الغريب لأنَّ ستيپا أراد التأكّد وما زال غير مصدِّق، حتى بعد أن رأى العقد. وثانياً: الاتصال بالمسؤول المالي كان أمراً في غاية الصعوبة.

وفعلاً كيف سيطرح ستيپا السؤال على المدير المالي. أيمكنه أن يطرح السؤال هكذا: أخبرني هل من عقد وُقِّع البارحة بيني وبين بروفسور السحر الأسود بمبلغ خمسة وثلاثين ألف روبل؟. لا يجوز طرح السؤال بهذا الأسلوب.

ـ نعم! ـ سُمع في السمَّاعة صوت ريمسكي المزعج الحاد.

ـ مرحبا غريغوري دانيلوڤتش ـ قال ستيپا بهدوء ـ ليخدييف معكم على الخط. القضية هي إحم... إحم... عندي هذا... أي الفنَّان ڤولند، أردت أن أسأل عن برنامج المساء هذا.

وردَّ ريمسكي:

ـ آه.. السحر الأسود؟. الآن توزَّع الاعلانات.

وسأل ريمسكي:

ـ وأنت متى ستأتي ؟

وأجاب ستيپا :

ـ بعد نصف ساعة .

بعد أن علَّق السمَّاعة أمسك رأسه الساخن بيديه وفكَّر : يا للمصيبة السوداء . ماذا أصابني وماذا دهى ذاكرتي أيها الناس ؟ نعم ماذا حدث لي ؟ .

بما أنَّ التأخير في غرفة المدخل غير جائز وغير لائق أيضاً ، وضع ستيپا تصمياً فورياً وهو أن يعمد ، بكل ما أوتي من جهد وحيلة وذكاء ، إلى إخفاء نسيانه الفظيع ، واستدراج الغريب فيخبره عن برنامج الحفلة التي سيقيمها مساء اليوم ، في مسرح (الڤاريته) ، المسرح الذي يديره ستيپا نفسه .

واستدار ستيپا موليًّا ظهره للتلفون ، ورأى في المرآة المعلَّقة في غرفة المدخل ، والتي لم تنظِّفها غرونايا الكسولة منذ زمن ، رأى في تلك المرآة وبوضوح شخصاً ، غريب الهيئة ، طويل القامة ، كعمود من الخشب ، يضع على عينيه عدسات (ليت إيڤان نيقولايڤتش كان حاضراً لعرف هذا الشخص فوراً) . انعكست صورة ذلك الشخص في المرآة لحظة خاطفة واختفت .

وعاد ستيپا جزعاً مضطرباً ، يتأمَّل الغرفة مليًّا ، واصطكَّت ركبتاه من جديد . رأى قطًّا أسود معافى مكتنزاً يمرّ في المرآة ويختفي .. وكاد قلب ستيپا يتوقَّف ... وأخذ يرتجف كالورقة . فكَّر : ما هذا الذي يحدث ؟ أم تراني جُننت وفقدت عقلي ؟ . ماذا تعكس هذه المرآة . وألقى نظرة على الغرفة وصاح مرتاعاً :

غرونايا ! ... ما شأن هذا القط يتجوّل عندنا ؟ من أين أتى ومع من ؟

ـ لا تقلق يا ستيپان بغدانوڤتش ـ ردَّ صوت ، لم يكن صوت غرونايا ، بل كان صوت الضيف من غرفة النوم ، وأكمل : هذا قطّي ، لا توتِّر أعصابك ، ثم أنَّ غرونايا غير موجودة ، لقد أرسلتها إلى ڤارونج ، إلى مسقط رأسها ، لأنَّها اشتكت عليك ، بأنَّك لم تعطها فرصتها منذ زمن طويل .

لشدّة ما كانت هذه الكلمات مفاجئة وسخيفة ظنَّ ستيپا أنَّه لم يسمع جيِّداً . ركض إلى غرفة النوم حائراً ... وتسمَّر في العتبة . وقف شعر رأسه وتفصَّد جبينه بروافد من العرق الناعم .

لم يكن الضيف في غرفة النوم وحيداً ، إنَّما جلس هناك مع صحبة له . ففي المقعد الثاني جلست تلك الشخصية التي تراءت في غرفة المدخل ... الآن تبدو قسمات وجه ذلك الشخص بوضوح : شاربان أو قُل ريشتان . عدسة من عدسات النظَّارات تتلألأ . والثانية غير موجودة . وتبدَّت في غرفة النومّ أشياء أشدّ هولاً وسوءًا . فقد استلقى على المقعد الجميل

الصنع متراخياً ثالثهم: قطّ أسود هائل الحجم، أمسك بإحدى قوائمه كأساً من الفودكا وشوكة، وأفلح في اصطياد بعض الفطر المخلّل في القائمة الثانية.

النور الذي كان خافتاً وضئيلاً منذ البداية في غرفة النوم، انطفأ الآن واضمحلّ من عيني ستيپا. وفكَّر المسكين: «إنَّما هكذا تُفقد العقول، ومن هنا يبدأ الجنون»، وتشبَّث بطنف الباب.

ـ أرى أنَّك متعجِّب بعض التعجُّب يا أعزَّ الأعزَّاء ستيپان بغدانوڤتش؟ سأل ڤولند ستيپا المرتعد وأكمل: لا داعي للدهشة، إنَّهم أفراد حاشيتي.

وهنا احتسى القطّ ما في كأسه من الفودكا، وتزحلقت يد ستيپا من أعلى الطنف إلى أسفله.

وأكمل ڤولند حديثه: وتحتاج الحاشية إلى مكان، وبما أنَّ وجود أحدنا في الشقّة غير ضروري ونافل، وحسبما يبدو لي أنَّ هذا الشخص الزائد هو أنت...

ـ نعم، هُم هم.. رنَّ صوت طويل القامة ذي المربّعات كصوت التيس. وقد عنى الطويل ستيپا وأكمل متكلِّماً عنه بصيغة الجمع:

على وجه العموم إنَّهم في الفترة الأخيرة بدأوا يوسِّخون كالخنازير. يسكرون ويخمرون، ويقيمون علاقات مع النساء، ويستغلّون وظائفهم، ولا يأتون بعملٍ نافع، بل إنَّهم لا يعملون شيئاً، لا بل وأكثر من ذلك إنَّهم لا يستطيعون عمل شيء لأنَّهم لا يفكِّرون بالأعمال الموكلة إليهم، ولا يفهمونها حتى. يخدعون الرؤساء ويذرُّون الرماد في عيونهم!.

ووشى القطّ وهو يمضغ الفطر:

ـ لأي شيء المطاردة بسيّارة الحكومة، تستغلّ السيّارة لمصلحتك الخاصّة إيه!..

وهنا وقعت الحادثة الرابعة والأخيرة في الشقّة، حينما انزلق ستيپا على الأرض وارتخى ساعده، وخدش طنف الباب. وخرج من المرآة شخص ضئيل الحجم، عريض المنكبين إلى درجة تفوق حدّ التصوُّر، قبّعة كلتكاً وقد برز من فمه ناب، هيئته شنيعة قبيحة، لم يُرَ أقبح أو أشنع منها. كان أصهب اللون مما زاد من بشاعته.

ـ أنا لا أفهم كيف وصل إلى مركز المدير، أقحم الشخص الجديد نفسه في الموضوع، وخنَّ بكلماته وأردف:

إنَّه يشبه المدير كما أشبه أنا الكاردينال.

ـ لكنَّك لا تشبه الكاردينال يا عزرائيل...، علَّق الهرّ مبدياً ملاحظة وهو يضع المقانق في صحنه.

ـ هذا ما أقوله: خنَّ الأصهب والتفت إلى ڤولند مضيفاً بوقار:

ـ هل تسمح يا سيِّد بقلعه من موسكو قلعاً إلى حيث الشياطين مجتمعة؟

ـ بسّ! فجأة زأر القطّ واستنفر ووقف وبره...

شعر ستيپا حينذاك بأنَّ غرفة النوم تدور به وارتطم رأسه بالطنف، وفكَّر وهو يفقد وعيه: إنّني أموت.

لكنّه لم يمت، فتَّح عينيه برفق، فوعى نفسه جالساً على كتلة حجرية. وعلت جلبة بقربه. وحينما فتَّح عينيه جيِّداً، سمع هدير البحر من حوله، بل وأكثر من ذلك تهادت موجة عند قدميه.

صفوة القول كان يجلس على حافة رصيف، وتماوج تحت أقدامه بحر أزرق متلألئاً، ومن ورائه فوق الجبل تراءت مدينة جميلة.

وبما أنّه لم يكن يعرف كيف يتصرَّف في مثل هذه الأحوال، نهض من مكانه، وبقدمين مرتعشتين مشى فوق الرصيف قاصداً الشاطىء.

فوق الرصيف كذلك وقف إنسان كان يدخِّن سيجارة ويبصق في البحر. حدج ستيپا بنظرات متوحِّشة، وهنا ركع ستيپا على ركبتيه أمام الرجل المجهول الذي كان يدخِّن سيجارة وتلفَّظ:

ـ أتوسَّل إليك أن تجيبني في أيّ مدينة أنا؟

قال الرجل: ـ ماذا؟

ـ لا تظنّني سكراناً ـ أجاب ستيپا بصوت أبحّ، لست سكراناً، إنَّما أنا مريض، وحدثت معي أمور غريبة، أنا مريض، قل لي أين أنا الآن؟ وما اسم هذه المدينة؟

ـ إنّها يالطا.

وتنفَّس ستيپا الصعداء، تقلَّب على جنبه، فارتطم رأسه بحجر ساخن من حجارة الرصيف.

الفصل الثامن

مبارزة بين بروفسور وشاعر

عند الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً، فقد ستيبا وعيه في يالطا، وفي هذا الوقت بالذات، استيقظ إيڤان نيقولايڤتش بزدومني من نومه العميق والمتَّصل.. وعاد إليه وعيه. فكَّر بعض الوقت كيف انتهت به الحال في هذه الغرفة المجهولة ذات الجدران البيضاء، والمنضدة الليلية المصنوعة من أحد أنواع المعادن المضيئة، والستارة البيضاء التي تُحسّ الشمس من خلفها.

وهزَّ إيڤان رأسه فتأكَّد له أنَّ رأسه لا يؤلمه، ووعى حقيقة وجوده في المصحّ، فتذكَّر مقتل برليوز، لكن هذه الذكرى لم تثره اليوم كما أثارته البارحة.

فبعد أن نام إيڤان نيقولايڤتش ملء عينيه، سكن وهدأت ثائرته، وصَفَتْ أفكاره.

وفيما هو مستلقٍ، بعض الوقت في سرير نظيف ناعم مريح لا يريم، رأى زرًّا بالقرب منه، وحسب عادةٍ اعتادها وهي لمس الأشياء، دون أن يكون ثمّة ضرورة لذلك، كبس إيڤان على الزرّ، وانتظر رنيناً، أو ظهور شخصٍ ما. لكن الذي حدث كان أمراً مغايراً تماماً. فبين رجلي السرير أضاءت أسطوانة من الزجاج الأربد، وقرأ إيڤان كلمة: «شرب». وبعد أن ظلَّت الاسطوانة بعض الوقت على حالتها، بدأت تدور وظهرت عليها كلمة «الممرِّضة». وغني عن القول إنّ الاسطوانة الذكيّة المحتالة بَهَرَت إيڤان. كلمة «الممرِّضة» تبدَّلت بكلمات: «ادعوا الطبيب».

ـ إحمْ. غمغم إيڤان، ولم يعرف ما يصنع بتلك الاسطوانة. لكن لحسن الحظ، ومصادفة، كبس إيڤان على الزرّ مرّة ثانية، كَبَسَه على كلمة «مساعدة الطبيب».

ورنَّت الاسطوانة مجيبة بهدوء، ثمّ توقَّفت وانطفأت.

ودخلت الغرفة إمرأة مهذَّبة ممتلئة الجسم في مبذلٍ أبيض نظيف، وخاطبت إيڤان بكلمات:

ـ صباح الخير!..

ولم يردّ إيڤان عليها، لأنّه فكَّر أنَّ التحية غير مناسبة في مثل هذه الظروف.

حقًّا لقد رموا إنساناً سليماً، صحيح الجسم في المصحّ، واعتقدوا أنَّهم يقومون بعمل ضروري!.

الإمرأة في تلك الأثناء، ودون أن تفقد ملامح البشاشة المرتسمة على وجهها، بكبسة واحدة، رفعت الستارة إلى أعلى، وانهمرت أشعَّة الشمس على الغرفة، متسرِّبة من شبكة خفيفة عريضة، امتدَّت حتى لامست أرض الغرفة. وتبدَّت من وراء الشبكة شرفة، ومن وراء الشرفة تراءت ضفّة نهر ينساب متعرِّجاً، وعلى الضفّة الأخرى تماوج، فرحاً، حرج صنوبر.

ـ أترغب في الاستحمام، عَزَمَت المرأة إيڤان، وانشطر أمامها الجدار الداخلي، فظهر الحمَّام، وبيت الخلاء المجهَّز تجهيزاً ممتازاً.

ومع أنَّ إيڤان كان قد صمَّم على أن لا يكلِّم المرأة، لكنّه عندما رأى المياه تنسكب شلاّلاً عريضاً من صنبور يلمع، قال ساخراً:

ـ ويحكم!... كما في المتروبول.

وأجابت المرأة متباهية:

ـ لا بل أفخم. فهذه التجهيزات لا مثيل لها حتى في الخارج. يأتي العلماء والأطباء خصيصاً ليتفرَّجوا على عيادتنا. وكذلك السيّاح يفدون إلينا يوميًّا.

وما أن سمع إيڤان كلمة «سيَّاح» حتَّى تذكَّر المستشار ويوم البارحة، فاسودَّ لون وجهه وقال عابساً:

ـ السيّاح! إنَّكم تؤلّهون السيّاح!؟.. إنَّهم أنواع. فأنا مثلاً التقيت البارحة أحدهم. كان ظريفاً لطيفاً.

وكاد يسترسل في الحديث عن بيلاطس البنطي، لكنَّه استدرك وسكت. سكت لأنَّه يعرف حقّ المعرفة أنّ مثل هذه الأحاديث لا تهمّ المرأة، وبالتالي فإنَّها لا تقدر على مساعدته بشيء.

وأعطي إيڤان نيقولايڤتش في الحال كل ما يلزم المستحم بعد خروجه من الحمَّام. أُعطي قميصاً مكويًّا، وملابس داخلية، جوارب. لا بل وأكثر من هذا، فقد فتحت المرأة باب الخزانة وأشارت إلى ما في داخلها وسألته:

ـ ماذا تريد أن تلبس؟ مبذلاً أم بيجاما؟

وكاد إيڤان في إقامته الجبرية هذه أن يُصفِّق لوقاحة المرأة، لكنّه اكتفى بالاشارة إلى بيجاما من القطن قرمزيّة اللون.

بعد ذلك اقتيد إيڤان في ممرٍّ خالٍ هادىء يُخيِّم عليه الصمت، إلى مكتب واسع. ولَمّا كان قد عزم على التعامل بسخرية، مع كلّ ما يحتويه هذا المبنى من تجهيزات بديعة باهرة، عمَّد المكتب باسم «الفبركة ـ المطبخ».

ثمّة سبب وراء هذه التسمية: فعلى أرض المكتب انتصبت الخزائن الزجاجية الكبيرة

والصغيرة. والأجهزة البرّاقة المنكّلة. وكانت ثمّة مقاعد صنْعُها غاية في التعقيد، مصابيح ذات طرابيش مضيئة، كثير من القناني، مصابيح غاز، أسلاك كهربائية، وأجهزة مجهولة الأنواع لا يعلم سرّها إلاّ الله وحده.

وأوكل أمر إيڤان في المكتب إلى ثلاثة: رجل وامرأتين، يرتدون المباذل البيضاء، انتحوا به إحدى الزوايا، وأجلسوه وراء منضدة صغيرة، وغايتهم الظاهرة استيضاحه عن بعض الأمور.

وأخذ إيڤان يدرس الموقف، فرأى أمامه ثلاث طرق. أغوته فكرة واستحوذت على لبّه: وهي أن ينقضّ على هذه المصابيح والأدوات والأجهزة المعقّدة، فيحطّمها شرّ تحطيم، ويرسل بها إلى جهنّم، وبهذا يكون قد أعلن عن احتجاجه بأنّه محتجز ظلماً وبدون سبب.

لكن إيڤان اليوم غيره بالأمس. شتّان ما بينهما!... بدا له أنَّ الطريق الأوّل مريب، محفوف بالشكوك. ما النفع من تنفيذ تلك الفكرة؟ فكرة تحطيم الأجهزة والمصابيح؟ إذا ما حطّمها فسيزيدهم ذلك تشبّثاً بفكرتهم من أنّه مجنون ومشاغب!.. ورفض إيڤان سلوك الطريق الأوّل.

الطريق الثاني، أو الفكرة الثانية، هو أن يسترسل في الحديث عن المستشار وعن بيلاطس البنطي. غير أنّ تجربة البارحة لم تكن مشجّعة. لم يصدّقوا الرواية، وفهموها أنّها كاذبة وشاذة. ورفض إيڤان سلوك هذا الطريق أيضاً.

ولم يبق أمامه إلاّ اختيار الطريق الثالث، أو الفكرة الأخيرة، وهي أن يلوذ بالصمت المنطوي على كبرياء.

لكنّه لم يفلح في تحقيق ما فكّر به. فطوعاً أو كرهاً، كان عليه أن يجيب على العديد من الأسئلة، وإن أتت إجاباته مقتضبة وواهية.

سألوه عن كل شيء. بل قل استنطقوه. سألوه عن كلّ ما يتعلّق بحياته الماضية؛ سُئل حتّى: كيف ومتى أُصيب بالحمّى منذ خمس عشرة سنة.

وبعد أن كتبوا تقريراً عنه، ملأ صفحة كاملة، سألت المرأة، ذات المبذل الأبيض، عن أقارب إيڤان. سألته عن الذين قضوا، وعن الذين بقيوا أحياء. وعن تاريخ موت كلّ واحد وعن العلّة التي أودت بحياته: أأفرط في الشراب أم أُصيب بأمراض زهريّة. وطُرِحَت أسئلة كثيرة من هذا النوع. وفي الختام طلبوا منه، ودون إلحاح، أن يقصّ على مسامعهم حادثة البارحة التي وقعت، عند بُرك «البطريركيّة». ولم يدهشهم بنبأ بيلاطس البنطي.

وهنا تركت المرأة إيڤان، مفسحة المجال أمام رجل آخر تعامل معه بأسلوب آخر مختلف. رجل لم يسأل إيڤان عن شيء، قاس حرارته وجسّ له نبضه، ونظر في عينيه مسلّطاً عليهما أشعّة من نور مصباح. بعد ذلك بقليل حضرت إمرأة لمساعدة الرجل، وحقنا إيڤان

بإبرة في ظهره دون أن يسبّبا له وجعاً. وبعصا مطرقة رسما علامات على صدره. كما أنّهما ضرباه على ركبتيه عدّة ضربات، ممّا جعله يهزّ رجليه. ووخزا إصبع يده بدبّوس وأخذا دماً. ثم وخزاه في ثنية مرفقه وألبساه في معصمه أساور من مطّاط.

في تلك الأثناء كان إيڤان يضحك بسخرية ومرارة. وهو يفكّر في هذه الواقعة الغريبة التافهة. فكّر كيف أراد أن يحذّر وينذر الجميع بالخطر الداهم الآتي بسبب المستشار المجهول، وكيف استعدّ للقبض عليه... فماذا حقّق وماذا كسب؟. وقع في مكتب سرّي ليحدّثهم عن العمّ فيدور الذي يعيش في (فولوغده)، المدمن على السكر!! سخافات تضحك الثكلى حقّاً!...

وأخيراً تركوا إيڤان، ورافقوه إلى غرفته، حيث أُعطي فنجاناً من القهوة، وبيضتين وخبزاً أبيض مع الزبدة.

وبعد أن أكل وشرب كلّ ما قُدّم إليه، قرّر إيڤان أن ينتظر المسؤول الأوّل في المؤسسة، ليلتمس عنده الانتباه الكافي والعدالة.

ولم تطل فترة انتظاره، إذ سرعان ما تمّ اللقاء المرتقب بينه وبين المسؤول، بعد أن تناول إيڤان طعام فطوره. فجأةً فُتح باب غرفته، ودخلها جمع في مباذل بيضاء. وأمام الجميع، مشى، مشية الممثّلين إنسان في الأربعين من العمر، حليق الوجه، نظرات عينيه ثاقبة ولطيفة، وصاحب أساليب لبقة. وقد أظهر له جميع أفراد الحاشية أسمى آيات الاحترام والاهتمام. ممّا جعل دخوله يتّسم بالمهابة والأبّهة. وفكّر إيڤان في نفسه: إنّه يشبه بيلاطس البنطي حقّاً.

نعم!.. كان هذا هو المسؤول الأوّل في المؤسسة. جلس على المقعد، وتحلّق الجميع من حوله وقوفاً.

ـ الدكتور ستراڤنسكي. ـ عرّف الجالس عن نفسه مخاطباً إيڤان، وراح يتأمّله بنظرات رفيقة.

وقال أحد الحضور، وكان ذا لحية أنيقة:

ـ تفضّل ألكسندر نيقولايڤتش ـ قال هذا، وسلّم المسؤول الأوّل ورقة كُتب عليها تقريراً عن إيڤان.

وفكّر إيڤان في نفسه: لقد نسجوا رواية عنّي.

وقرأ المسؤول الأوّل الورقة قراءة سريعة وغمغم: «هه هه». وتبادل مع المتحلّقين حوله بعض العبارات بلغة غريبة، ففكّر إيڤان حزيناً: «إنّه يتكلّم اللاتينية كبيلاطس». كلمة واحدة جعلت إيڤان يرتعش. كانت هذه الكلمة هي: الشيزوفرانيا.

وا حرّ قلباه!... ألم يتلفّظ الأجنبيّ الملعون بهذه الكلمة، يوم البارحة، عند بُرك

(البطريركيّة)؟.. وعادت لتردّد هذه الكلمة اليوم وفي هذا المكان... ردّدها البروفسور ستراڤنسكي!.

وفكّر إيڤان جزعاً: إنّه عرف هذا مسبقاً؟!..

المسؤول الأوّل، كما بدا، ألزم نفسه باتّباع قاعدة، وهي موافقة الجميع على آرائهم، وإعلان فرحه وسروره بما يقولونه. وكان يعبّر عن فرحه بكلمات: «رائع، رائع».

ـ رائع ـ قال ستراڤنسكي بعد أن أعاد الورقة إلى أحد المحيطين به، ثم التفت إلى إيڤان وسأله:

ـ هل أنت شاعر؟

ـ نعم، شاعر. أجاب إيڤان مكتئباً. وشعر لأوّل مرّة بكراهية غامضة للشعر، وتذكّر ما نظم يراعه من أشعار وقد تبدّت له الآن، دون أن يعرف السبب، أشعاراً بغيضة ورديئة.

وسأل إيڤان ستراڤنسكي بدوره، وقد تجهّم وجهه:

ـ أنت بروفسور؟

أجاب ستراڤنسكي على هذا السؤال بأن أحنى رأسه احتراماً ولياقة.

وأردف إيڤان: وأنت هنا المسؤول الأوّل؟.

وعلى هذا السؤال أجاب ستراڤنسكي بانحناءة أيضاً.

وقال إيڤان نيقولايڤتش مُعطياً سؤاله أهميّة:

ـ أرى من الضروري التحدُّث إليك.

وردّ ستراڤنسكي:

ـ وإنّني من أجل ذلك أتيت.

وقد شعر إيڤان بأنّ ساعته أزفت، بدأ بالحديث:

ـ المسألة في أنّهم يحسبونني مجنوناً، ولا يودّ أحد أن يصغي إليّ.

ـ لا. سنكون كلّنا آذاناً صاغية إليك. ولن نسمح لأحد ولا بأي حال أن يحسبك مجنوناً. قال ستراڤنسكي كلماته هذه برصانة، مطمئناً إيڤان.

ـ اصغ إذن. البارحة مساءً، التقيت عند برك (البطريركيّة) شخصيّة خفيّة. التقيت غريباً وما هو بغريب. عرف مسبقاً بموت برليوز، ورأى شخصيًّا بيلاطس البنطي.

وأصغى أفراد الحاشية إلى الشاعر، وخيّمت على الجميع السكينة.

وسأل ستراڤنسكي وقد زرّ عينيه متأمّلاً إيڤان:

ـ رأى بيلاطس؟ بيلاطس ذاك الذي عاش في أيّام يسوع المسيح؟

ـ نعم بيلاطس ذاك بذاته.

ـ حسناً، ـ قال ستراڤنسكي ـ وبرليوز قُتِل تحت عجلات الترام؟

ـ هذا هو لبّ القضية. البارحة أمام عيني، دهسه الترام عند (البطريركيّة)، ولذاك المواطن الغريب ـ اللغز اليد الطولى في تلك المنيّة...

وسأل ستراڤنسكي الذي تميّز على ما يبدو بذكاء وفطنة:

ـ ذاك الذي يعرف بيلاطس البنطي له يد في موت برليوز؟

ـ نعم. ـ أكّد إيڤان وهو يدرس ملامح ستراڤنسكي ـ لقد أعلن مسبقاً أنّ أنوشكا سكبت الزيت، وأنّ برليوز سينزلق حيث الزيت المسكوب. أيروقك هذا؟ استوضح إيڤان بلهجة خطيرة، آملاً أن تحدث كلماته تأثيراً كبيراً على المستمع. لكن خاب أمله إذ أنّ ستراڤنسكي ببساطة طرح السؤال التالي على إيڤان:

ـ ومن هي أنوشكا؟

سؤال كدّر إيڤان بعض الشيء، فتشنّج وجهه وردّ:

ـ أنوشكا! دعنا منها، لا شأن لها في موضوعنا ـ قال هذا وتوتّرت أعصابه، وأردف: الشيطان يعلم من تكون تلك الأنوشكا، بلهاء من شارع السادوڤايا. المهم في الموضوع أنّه عرف مسبقاً، تفهمني، عرف مسبقاً بزيت عبّاد الشمس الذي سُكب... تفهمني!.

ـ أفهمك جيّداً. ـ أجاب ستراڤنسكي برصانة ورزانة. وأردف وهو يلمس ركبة الشاعر: أكمل ولا تقلق.

ـ ها إنّي أكمل: ـ قال إيڤان وهو يحاول التكلّم على طريقة ستراڤنسكي، وقد أدرك بعد التجارب المرّة أنّ الهدوء وحده كفيل بمساعدته ـ : إنّ ذلك الرجل الغريب المخيف يكذب بادعائه أنّه مستشار. إنّه يملك قوة خارقة ومن خوارقه: تطارده ولا يمكنك اللحاق به. وبصحبته زوج حسن بهيج مناسب. معه رفيق طويل، عدسة نظّارته مكسّرة. وقطّ هائل الحجم يرافقهما. قطّ يتنقّل في الترام بدون مساعدة أحد. وفضلاً عن ذلك كان بشخصه على الشرفة مع بيلاطس البنطي. ولا أشكّ بهذا أبداً.. فمن يكون هذا الشخص الغريب؟ يجب الاسراع بالقاء القبض عليه وإلاّ فإنّه سيجلب الويلات والمصائب. ـ قال إيڤان كلماته هذه بحماسة منقطعة النظير وبقناعة راسخة.

وسأل ستراڤنسكي:

ـ وإنّك تسعى لاعتقاله؟ أليس كذلك؟

وفكّر إيڤان في نفسه:

إنّ هذا البروفسور إنسان ذكي. يجب الاعتراف أنّه حتّى بين المثقفين يصادف المرء أذكياء وإن كانوا نادرين. ولا يمكن إلاّ الاقرار بهذه المسألة.

وأجاب إيڤان:

نعم! نعم! ولماذا لا أسعى إلى اعتقاله! فكّر أنت بنفسك. ومع ذلك احتجزوني هنا. سلّطوا عليّ أنوار المصباح، أمروني بأن أستحم. سألوني عن العمّ فيدور؟ وقد قضى منذ زمن! إنّني أطالب باطلاقي فوراً.

وأجاب ستراڤنسكي:

- ولِمَ لا! عظيم! عظيم!. توضّح كلّ شيء. حقًّا ما معنى احتجاز انسان معافى في المصحّ؟ حسناً سنطلقك فوراً، وأدعك تترك هذا المكان، لكن بشرط واحد فقط، هو أن تعترف لي بأنّك معافى، وبكامل قواك العقليّة، وأن تقول هذا دون أن تبرهنه. وهكذا أنت إذن انسان معافى بكامل قواك العقليّة؟.

وهنا ساد الصمت. والمرأة السمينة التي كانت حادبة على إيڤان، عند الصباح، معتنية به، أخذت تنظر الآن إلى البروفسور بمهابة. أمّا إيڤان فقد فكّر مرّة أخرى: إنّني أمام انسان ذكي حقًّا.

عَرْض البروفسور راق إيڤان. ومع هذا فقبل أن يجيب فكّر وأطال التفكير. وأخيراً قال بلهجة واثقة ووجهٍ متجهّم:

- أنا طبيعي، ومعافى، وبكامل قواي العقلية.

- رائع. هتف ستراڤنسكي، مرتاحاً للجواب، وأردف: إذا كان الأمر كما تقول، فتعال نتناقش نقاشاً منطقياً. لنستعرض معاً كيف أمضيت البارحة. وهنا استدار ستراڤنسكي وتناول التقرير الذي كُتب عن إيڤان وأكمل:

- البارحة أثناء بحثك عن الرجل المجهول الذي ادّعى أمامك أنّه يعرف بيلاطس البنطي، قمت بالأعمال التالية، - وهنا شرع ستراڤنسكي يثني أصابع يده الطويلة، متأمّلاً تارة التقرير وتارة أخرى إيڤان:

- علّقت على صدرك أيقونة؟ فعلت هذا؟

- نعم. - أجاب إيڤان متجهّماً.

- سقطت من فوق السياج، وأصبت وجهك بجروح. ثم ظهرت في الرستوران وبيدك شمعة مضاءة. وأتيت في السراويل الداخلية. وضربت أحد الأشخاص. أحضروك إلى المصحّ موثوق اليدين. اتّصلت بالشرطة من هذا المكان. رجوتهم أن يرسلوا لك أسلحة رشّاشة. بعد ذلك حاولت أن تلقي بنفسك من النافذة. وأنت بهذه الحال يمكنك أن تُلقي القبض على أحد؟. وإذا كنت انساناً بكامل قواك العقليّة ومعافى، أجب بصدق: كيف تريد مغادرة المصحّ؟ وإلى أين ستتجه فور خروجك؟.

- أتّجه إلى الشرطة! أجاب إيڤان وقد اضمحلّت الثقة في نبرات صوته. وارتبك وتضعضع أمام نظرة البروفسور.

ـ فور خروجك من هنا ؟

ـ نعم.

ـ ولن تعرّج على شقّتك ؟.

ـ لا وقت لديّ حتى أعرّج على الشقّة. ففي الوقت الذي سأضيّعه في الشقق، يكون قد هرب واختفى أثره!

ـ وماذا ستقول للشرطة أوّلاً ؟

ـ سأخبرهم عن بيلاطس البنطي. ـ أجاب إيڤان نيقولايڤتش وأظلمت نظراته.

ـ عظيم! ـ هتف ستراڤنسكي المغلوب، والتفت إلى مساعده الملتحي آمراً: ڤيدور ڤاسيليڤتش، اعمل من فضلك على أن يغادر المواطن بزدومني إلى المدينة. لكن لا تشغلوا هذه الغرفة. بإمكانكم أن تبقوها كما هي. وأن لا تغيّروا الأغطية، لأنّه بعد ساعتين سيكون إيڤان من جديد هنا. ثمّ التفت إلى الشاعر وقال له:

ـ لن أتمنّى لك النجاح في مهمتك، لأنّني لا أثق مقدار حبّة رمل بذلك. وإلى اللقاء القريب العاجل!.

قال البروفسور هذا، ونهض، وتحرّكت بعده الحاشية.

وسأل إيڤان مضطرباً:

ـ على أيّ أساس سأكون هنا من جديد ؟.

وكأنّما ستراڤنسكي كان ينتظر مثل هذا السؤال، فجلس من جديد على عجل، وأجاب:

ـ على أساس أنّك ما أن ستظهر في مخفر الشرطة، في السراويل الداخلية، وتعلن لهم أنّك لقيت انساناً يعرف بيلاطس البنطي، حتى يعيدوك إلى هذا المكان فوراً، وستجد نفسك من جديد في هذه الغرفة.

ـ وما شأن السراويل في الموضوع ـ سأل إيڤان شارداً ذاهلاً ـ .

ـ لبّ المسألة: بيلاطس البنطي... والملابس الداخلية أيضاً، وذلك لأننا سنخلع عنك ثياب المستشفى، ونردّ إليك ثيابك التي أتيت بها إلينا. ثم أنّك لم تفكّر بالذهاب إلى شقّتك مع أنني ألمحت لك إلى ذلك.. وبعد ذلك يأتي بيلاطس... والمسألة بحكم المنتهية!.

وهنا حدث لإيڤان نيقولايڤتش ما يثير الدهشة. أحسّ أنّ ارادته تصدّعت. وبأنّه ضعيف ويحتاج إلى المساعدة والنصيحة.

وسأل، ولكن مرتبكاً، هذه المرّة:

ـ وما العمل إذن؟

ـ عظيم ـ ردّ ستراڤنسكي ـ إنّه لسؤال معقول وجيّد. ما حدث معك هو أنّ أحدهم

أخافك البارحة وكدَّرك بحكاية عن بيلاطس البنطي وبقصص أفزعك بها. وأنت متعب مرهق.. فوتَّر الحديث أعصابك، فرحت تجوب المدينة، تـذيـع على النـاس قصصـاً عـن بيلاطس البنطي، ومن البديهي أن يحسبوك مجنوناً. لتخلص أنت محتاج إلى أمر واحدٍ فقط.. إلى الهدوء التام. وبقاؤك هنا أمر لا بدَّ منه.

ـ لكن من الضروري إلقاء القبض عليه! هتف إيڤان متوسِّلاً.

ـ حسناً، لكن ما الدافع لتركض أنت بنفسك؟. اكتب على ورقة اتهاماتك ضد ذاك الانسان، وببساطة نبعث بورقتك إلى الدوائر المختصَّة، وتنجلي المسألة بسرعة، خاصة إذا كنَّا حقَّاً أمام مجرم حقيقي، كما تدَّعي وتفترض. أنصحك أن لا تجهد عقلك وحاول أن تخفِّف من التفكير ببيلاطس البنطي وبما يُحكى هنا وهناك.

ـ فهمت! ـ أجاب إيڤان حازماً ـ أرجوكم أن تناولوني قلماً وورقة.

وأمَرَ ستراڤنسكي الإمرأة السمينة بأن تناول إيڤان ورقة وقلماً قصيراً. وخاطبه:

ـ لكنني أنصحك أن لا تكتب شيئاً اليوم.

ـ لا. لا. إنَّما اليوم يجب أن أكتب. ـ أجاب إيڤان منزعجاً.

ـ حسناً، لكن لا تجهد عقلك، وإذا لم تقدر على الكتابة اليوم فغداً.

ـ غداً، يكون قد لاذ بالفرار.

وردَّ ستراڤنسكي بلهجة واثقة مقنعة:

ـ أكفل لك أنَّه ليس بمقدرته الفرار. تذكَّر أنَّك تحظى بمساعدة الجميع هنا. وبدونهم لا تقدر على عمل شيء. أتسمعني؟

سأل ستراڤنسكي فجأة، وأمسك بيدي إيڤان الاثنتين، وتأمَّله طويلاً في عينيه عن كثب، وكرَّر:

ـ هنا يساعدونك أتسمعني؟ هنا يساعدونك وسترتاح. هنا هدوء وأمان.

وفجأة تثاءب إيڤان نيقولايڤتش وانشرحت أسارير وجهه، وقال بصوت خافت:

ـ نعم، نعم.

ـ عظيم. بهذا أنهى ستراڤنسكي الحديث، حسب عادته، ونهض.

ـ إلى اللقاء، قال البروفسور، وشدَّ على يد إيڤان، وعند الباب استدار نحو ذاك الرجل الملتحي وقال: جرِّبوا معالجته بالأوكسيجين... والحمَّامات...

وبعد لحظات، لم يعد ستراڤنسكي يُرى، ولا أفراد حاشيته. ووراء شبكة النافذة، وفي شمس الضحى، تماوجت غابة صنوبر ربيعية على الضفة المقابلة. تماوجت فرحة، وبالقرب تلألأ النهر وهو ينساب.

الفصل التاسع

فنون كرڤيوف

وجد نيكانور إيڤانوڤيتش باسوي نفسه غارقاً في متاعب ومشاغل هائلة، ابتداء من منتصف ليل الأربعاء الماضي وحتى يوم الخميس. ونيكانور هذا هو رئيس التعاونية السكنية رقم ٣٠٢، (ب ي ث) في شارع السادوڤايا في موسكو، حيث كان يسكن المرحوم برليوز.

ففي منتصف الليل، كما سبق وعلمنا، أتت اللجنة إلى البيت، وكان من بين أعضائها جلديبين، ودعت إليها نيكانور إيڤانوڤيتش وأنبأته بمقتل برليوز، ثم توجّه الأعضاء برفقته إلى الشقّة رقم خمسين.

وهناك جرى ختم مخطوطات المرحوم وأشيائه.

في ذلك الوقت لم يكن في الشقّة ستيپا بغدانوڤتش المستخفّ المستهتر، ولا غرونايا الخادمة المؤقّتة. وأعلنت اللجنة لنيكانور إيڤانوڤيتش أنّها ستأخذ مخطوطات المرحوم لفرزها، وأنّ شقّته المؤلّفة من الغرف الثلاث (التي كانت في السابق مكتباً جميلاً، وغرفة استقبال، وغرفة طعام) ستوضع تحت تصرّف إدارة التعاونية. أمّا أمتعة المرحوم فستحفظ في الشقّة حتى ظهور الورثة.

انتشر نبأ مقتل برليوز في البيت الكبير، كما تنتشر النار في الهشيم. ومنذ الساعة السابعة من صباح يوم الخميس بدأ التلفون بالرنين في بيت باسوي. لم يكتفوا بالتلفونات بل بدأوا يفدون زرافاتٍ ووحدانا مصحوبين بدعاوي تضمّنت اعتراضاتهم على شقّة المرحوم الفقيد برليوز.

خلال ساعة من الزمن كان في جوزة نيكانور ايڤانوڤيتش اثنان وثلاثون اعتراضاً، وتضمّنت تلك الاعتراضات توسّلات وتهديدات ودسائس ووشايات، ووعود وعهود... وعود باصلاح الشقّة على حسابهم الخاص، وشروحات وكلام عن مضايقات لا تطاق، وعن صعوبة العيْش بل واستحالته في شقّة واحدة مع لصوص.

بين تلك الشكاوى تميّزت شكوى رائعة بأسلوبها، مذهلة ببيانها. وصفت بأسلوب رائع وبيان ساحر جميل كيف يخفون (الشوشبركات) ويضعونها في جيوب الجاكيت، في الشقّة ذات الرقم واحد وثلاثين. وتضمّنت كذلك قسمين بالانتحار. وكان ثمّة شكوى تضمّنت

اعترافاً بالحبل سفاحاً.

وتوافدوا إلى بيت نيكانور ايڤانوڤيتش من كل حدب وصوب، وانتظروه في غرفة الانتظار، ووضعوا أيديهم (كما يُقال) في عبّه، وهمسوا في أذنه واعدين وغمزوه ووعدوه بأنَّه سيكون راضياً مسروراً إذا...

تواصل هذا الألم حتى الساعة الواحدة ظهراً، حتى ساعة هرب نيكانور ايڤانوڤيتش من شقّته، فعل كما لم يفعل أي انسان يقع في ورطة أو في ظرف حرج. هرب إلى غرفته في مبنى الادارة، تلك الغرفة الواقعة عند المدخل. ولكنَّه حينما رآهم يترصَّدونه ويتربَّصون به هناك أيضاً، ركن إلى الفرار وكيفما اتفق صدّ جماعة تعقَّبت آثاره عبر حوش مفروش بالاسفلت، وتخفَّى في المدخل السادس، ثم صعد إلى الطابق الخامس حيث تقع الشقّة خمسين، تلك الشقّة الرجسة والمتنازع عليها. وتوقَّف أمام باب الشقّة وتنفَّس الصعداء. وقرع نيكانور السمين الجرس، لكن لم يفتح له أحد الباب. ورنَّ ثانية وثالثة وبدأ يهمهم ويغمغم شاتماً... ولم يفتح له. وبعد أن نفد صبره أخرج من جيبه رزمة مفاتيح مزدوجة صنعت خصيصاً للادارة وكان يحتفظ بها لمثل تلك الساعة، وبيدٍ قادرة ماهرة فتح الباب ودخل.

وصاح نيكانور إيڤانوڤيتش في غرفة المدخل شبه المظلمة:

ـ إي! يا خادمة! غرونايا؟ ما اسمك؟ أين أنت؟.

ولَمّا لم يردّ عليه أحد، نزع ختم الشمع عن باب المكتب وأخرج من المحفظة متراً مطوياً وخطا نحو المكتب.

خطا خطوة ولم يخطُ الثانية... إذ توقَّف فجأة عند الباب متعجِّباً مذهولاً، وسرت في أوصاله رعدة... فقد جلس إلى طاولة المرحوم مواطن مجهول نحيل، فارع الطول، يرتدي سترة رسمت عليها مربَّعات، ويعتمر طاقيّة كطاقيّة الجوكي، وعلى أرنبة أنفه استقرَّت عدسة... بكلمة مختصرة جلس إلى الطاولة ذاك الذي...

وسأل نيكونار إيڤانوڤيتش مرتاعاً:

ـ أيها المواطن من تكون؟.

ـ آه! نيكانور إيڤانوڤيتش. ـ صرخ المواطن اللامنتظر بصوت جهوري متهدِّج، وهو يقوم من مكانه، وسلَّم على رئيس التعاونية بسلامٍ إلزامي وبشدّة على اليد فجائية.

ولم تُدخل هذه التحية ولو قليلاً من الفرح إلى قلب نيكانور إيڤانوڤيتش، وقال بارتياب: ـ معذرة! من تكون أنت؟ أتكون شخصية رسمية؟

وهتف المجهول بلجة صادقة:

ـ آه نيكونار إيڤانوڤيتش! ما هي الشخصية الرسمية أو تلك الغير الرسمية؟ هذا يتعلَّق بالزاوية التي تنظر منها إلى الموضوع، وبالظرف أيضاً، فاليوم مثلاً أنا لست شخصية رسمية

وغداً تراني أصبحت شخصية رسمية، ويحدث العكس، وحوادث الدهر شتّى يا نيكانور إيڤانوڤيتش!.

لم تُشبع هذه المناقشة فضول رئيس التعاونية السكنية، ولا شفت غليله، وهو الظّنين الكثير الشكوك والوساوس، واستخلص بأنَّ هذا المواطن المتشدّق ما هو بشخصية رسمية بل إنّه مجرّد إنسان صعلوك متشرّد..

وسأل الرئيس وقد تجهّم وجهه وأخذ يتهجّم على الرجل المجهول:

- ومن تكون أنت؟ وما اسم عائلتك؟.

وأجاب المواطن دون أدنى تأثّر أو ارتياع:

- اسم عائلتي! لنقل كارڤيوڤ، وأكمل: نيكانور إيڤانوڤيتش ألا تريد أن تشاركني في اللمجة؟ بدون مجاملات إيه!.

- أعتذر، أجاب إيڤانوڤيتش، وقد احتدم غيظاً! أيّة لمجة هذه؟

(يجب الاعتراف بأنَّ الفظاظة التي عرف بها نيكانور إيڤانوڤيتش غير مستحبّة).

- ماذا تفعل هنا؟ غير مسموح لأحد السكن في شقّة المرحوم.

- حسناً اجلس اجلس يا نيكانور إيڤانوڤيتش، لا تجزع ولا تهتم، صاح المواطن وأخذ يتملّق وهو يقدّم مقعداً لرئيس التعاونية.

وزعق نيكانور إيڤانوڤيتش رافضاً الجلوس وقد استشاط غضباً:

- من أنت؟.

- كما تتفضّل وترى، محدّثك مترجم عند شخصية أجنبية، اتّخذت هذه الشقّة مقرًّا لها.

- بهذا عرّف المدعو كارڤيوڤ عن نفسه وطقطق بكعب حذائه المتّسخ الأحمر اللون.

وفتح نيكانور إيڤانوڤيتش فاه مذهولاً. وجود شخصيّة أجنبيّة في الشقّة ومترجم: تلك مفاجأة لا على البال ولا على الخاطر. فطلب ايضاحاً للأمر.

- بكلّ سرور، قال المترجم، وابتدأ يوضح له: إنَّ الفنّان الأجنبي السيّد ڤولند لبّى مشكوراً دعوة مدير التعاونية ستيپان بغدانوڤتش ليعرض حفلاته على جمهور موسكو، وسيقيم اسبوعاً تقريباً أي خلال فترة العرض في شقّة المدير. وقد كتب ليخادييف بهذا الشأن لنيكانور إيڤانوڤيتش طالباً منه أن يسجّل الأجنبي مؤقّتاً في هذه الشقّة ريثما يعود من يالطا.

وقال الرئيس متعجّباً: إنّه لم يكتب لي بهذا الشأن أبداً.

- لكن فتّش في حقيبتك يا نيكانور إيڤانوڤيتش. اقترح كارڤيوڤ بلهجة مهذّبة.

وهزّ نيكانور إيڤانوڤيتش كتفيه وفتح الحقيبة فعثر داخلها على رسالة ليخادييف. وغمغم وهو ينظر إلى المغلّف وقد أخذ يفضّه ببلادة:

ـ كيف نسيت أمر هذه الرسالة تماماً.

ـ كثيراً ما يحدث مثل هذا يا نيكانور إيڤانوڤيتش! ـ هـدر كارڤيوڤ، إنَّما سبب هذا السهو.. الارهاق، وضغط الدم المرتفع يا صديقنا العزيز!... أنا نفسي أُصاب بالشرود الفظيع أحياناً... فقد نجلس ذات مرّة معاً ونشرب كأساً من الخمرة وأحدّثك عن بعض ما حدث لي في حياتي... وستقهقه!...

ـ ومتى سيسافر ليخادييف إلى يالطا؟!..

ـ لقد سافر... سافر ـ صاح المترجم. ـ رحـل!... والشيطـان وحـده يعـرف أيـن صار!...

وهنا لوّح المترجم بيدين كجناحي مطحنة..

وكاشف نيكانور إيڤانوڤيتش المترجم عن رغبته برؤية الأجنبي شخصيًّا، لكنَّ المترجم رفض رفضاً باتّاً تلبية طلبه قائلاً: غير ممكن إنّه مشغول بترويض القط وتدريبه.

ـ إذا أردت رؤية القطّ فممكن ـ اقترح كارڤيوڤ.

ورفض نيكانور إيڤانوڤيتش بدوره هـذا الاقتراح. وهنـا اقترح المترجـم على الرئيس اقتراحاً مفاجئاً ومثيراً جدّاً للاهتمام: بما أنَّ السيد ڤولند لا يرغب بالسكن في الفندق مطلقاً، واعتاد على السكن المريح، فهل يؤجِّره الشقّة بأكملها لمدة أسبوع، (الشقّة بأكملها يعني غرف المرحوم أيضاً)، الأسبوع الذي سيحيي فيه حفلاته في موسكو.

وهمس كارڤيوف بصوت أبحّ:

ـ بالنسبة للمرحوم لا فرق عنده الآن.. لا بدّ أنّك توافقني في رأيي، بأنّه غير محتاج للشقّة الآن!..

وردَّ نيكانور إيڤانوڤيتش مرتاعاً بقوله: إنَّه يتوجَّب على الأجانب أن يقيموا في المتروبول... لا في الشقق الخاصة.

وأجاب كارڤيوف همساً:

ـ أقول لك إنَّه مزاجي، الشيطان وحده يعلم كم هو مزاجي ومتقلّب، لا يرغب بالسكن في الفنادق، إنَّه لا يحبّها.

«هؤلاء السيّاح جدّ مضايقون، إنَّهم يسكنون هنا صدّقني، قال كارڤيوف هذا ووخز بإصبعه رقبته المعروقة وأردف يقول: صدّقني أنهكوني، أطلعوا لي روحي، يأتون إمّا للتجسّس كأقذر الكلاب، وإمَّا ليرهقوا الأعصاب بمطالبهم. هذا يروقهم وذاك لا!... إنَّها الحقيقة وصداقتك يا نيكـانـور إيڤـانـوڤيتش. اغتنم الفـرصـة ولا تضيِّعهـا، إنَّهـا لمصلحتك... مكسب مادي كبير. لا يسأل عن مال ولا يحارج، وهنا التفت كارڤيوف وهمس بعد ذلك في أذن الرئيس: إنَّه مليونير.

لقد تضمَّن عرض المترجم معنى واضحاً وعمليًّا. إنَّه عرض مشجِّع جدير بالاعتبار والدرس.. لكن ما كان غير مشجِّع هو أسلوب المترجم في الكلام والثياب التي ارتداها وهذه العدسة الكريهة التي لا تنفع لشيء... كلّ هذه الأشياء ما كانت غير جذَّابة فحسب بل ومنفِّرة. ساور الرئيس بعد هذا العرض شعوراً غامضاً مكرباً، ومع ذلك قرَّر أن يقبل.

قبل العرض لأنَّ الشقّة كانت تعاني نقصاً كبيراً إي وحقّكم!.. فها هو فصل الخريف على الأبواب، ويجب شراء النفط للتدفئة.. فبأي شيء يشتري النفط؟ أو قُل بأيّة (بعصة)؟!..

وبمال السيَّاح قد تُسوَّى الأمور وتعود فتجلّس. لكن نيكونار إيڤانوڤيتش وهو الانسان الحذر العملي أعلن أنَّ عليه قبل كلّ شيء تسوية هذه المسألة بالتنسيق مع مكتب السيَّاح.

وهتف كارڤيوڤ: بكلّ تأكيد وهل تُسوَّى الأمور بدون تنسيق، فالتنسيق ضروري، تفضَّل: إليك التلفون، واسعَ لحلّ المسألة بدون إبطاء. لا تستحِ واطلب المبلغ الذي تريد. وأضاف هامساً وهو يأخذ بيد الرئيس إلى غرفة المدخل حيث التلفون: أطلب منه كما لم تطلب من مخلوق قبله!. لو رأيت الڤيلاَّ التي يملكها في نيس. في الصيف القادم إذا سافرت إلى الخارج عرِّج عمداً على تلك الڤيلاَّ، وعندها ستذهل حقًّا!.

وسُوِّيَت القضيّة مع مكتب السيَّاح بالتلفون بسرعة غريبة مُذهلة أدهشت الرئيس. وتبيَّن أنَّهم على علم بما عزم عليه السيِّد ڤولند، ولا يبدون أي اعتراض على سكنه بشقّة ليخداييف الخاصّة. وصَاحَ كارڤيوڤ: بديع! هه!.

وأعلن الرئيس المصعوق بثرثرة كارڤيوڤ موافقته على تأجير الشقة رقم ٥٠ للفنَّان ڤولند بمبلغ... وتلعثم نيكانور إيڤانوڤيتش قليلاً وأكمل:

ـ بمبلغ خمسمئة روبل في اليوم.

وهنا أدهش كارڤيوڤ الرئيس بل وأذهله.. فإنَّه غمز بعينه كاللص، غمز صوب غرفة النوم التي انبعثت منها أصوات ناعمة بسبب قفزات القطّ السمين، وقال بصوت أبحّ:

ـ على مدى سبعة أيَّام أي لفترة أسبوع يصبح المجموع ثلاثة آلاف وخمسمئة؟..

وفكَّر نيكانور إيڤانوڤيتش أنَّ سامعه لا بدّ وأن يقول: إنَّ شهيَّتك للمال كشهيّة الذئاب الجائعة، لكن كارڤيوڤ تلفَّظ بكلمات مغايرة تماماً:

ـ وهل هذا يُعدّ مبلغاً كبيراً! أطلب خمسة فإنَّه لن يتوانى عن إعطائك!.

وابتسم نيكانور إيڤانوڤيتش مرتبكاً، ودون أن ينتبه وجد نفسه جالساً وراء طاولة المرحوم وكارڤيوڤ يحرِّر بسرعة هائلة ولباقة عقداً من نسختين.

بعد ذلك طار كارڤيوڤ بالعقد إلى غرفة النوم وعاد والنسختان بدتا ممهورتين بتوقيع الأجنبي وبالخطّ العريض. ووقَّع الرئيس العقد كذلك. وطلب كارڤيوڤ من نيكانور

إيڤانوڤيتش التوقيع على استلام مبلغ خمسة آلاف روبل:

ـ وقِّع وقِّع يا نيكانور إيڤانوڤيتش! آلاف الروبلات. وتابع القول وهو يتلفَّظ بكلمات لا تليق بالمقام: أين، تسڤي، دراي!.. ثم أخرج للرئيس خمس رزمات مصرفية جديدة.

وجرت عملية العدّ وقد تخلَّلها مزحات وفكاهات تفوّه بها كارڤيوڤ مثل: «المال يجرّ المال» و«القرد بعين أمّه غزال»... وعبارات أخرى مماثلة.

وبعد أن عُدَّت الأوراق المالية، استلم رئيس التعاونية من كارڤيوڤ جواز سفر الفنَّان الأجنبي ليجري المعاملات اللازمة ويسجِّله، في الدوائر، ووضع الجواز والعقد ورزمة المال في المحفظة، ودون أن يملك زمام نفسه طلب بخجل بطاقات تخوّله الدخول إلى المسرح مجّاناً.

فزمجر كارڤيوڤ:

ـ حديث لا يُحكى به يا نيكانور إيڤانوڤيتش! كم بطاقة تريد؟ اثنتا عشرة بطاقة، خمس عشرة؟.

وأوضح الرئيس المصعوق أنَّه بحاجة إلى بطاقتين مجّانيتين فقط.. واحدة له وواحدة لپلاغيا انتونوفنا زوجته.

وفي الحال نتش كارڤيوڤ مفكّرته، وعلَّم بطاقتين لشخصين في الصفّ الأوَّل.

ودسَّ المترجم بيمينه البطاقتين في إحدى يدي نيكانور إيڤانوڤيتش، أمَّا يساره فقد وضعت في يد نيكانور الثانية رزمة سميكة، سمعت خشخشتها الآذان.

وما أن رمى نيكانور ايڤانوڤيتش نظرة على تلك الرزمة، حتى اصطبغ وجهه بالاحمرار وراح يبعدها عنه وهو يغمغم:

ـ هذا لا يجوز...

وهمس كارڤيوڤ في أذنه: لن أستمع إليك... هذا عندنا لا يجوز وعند الأجانب يجوز... إنَّك ستغضبه برفضك يا نيكانور إيڤانوڤيتش. وهذا أمر لا يليق بك، لقد كددت وتعبت.

وهمس رئيس التعاونية بصوت خافت كل الخفوت وهو يلتفت حوله: إننا مراقبون! يراقبوننا بمنتهى الصرامة!.

فأجابه كارڤيوڤ هامساً في أذنه:

ـ وأين الشهود؟ أجب إنَّني أسألك أين الشهود؟.. وهنا حدثت معجزة (هذا ما اعترف به الرئيس فيما بعد). فالرزمة اخترقت المحفظة واستقرَّت في داخلها من تلقاء نفسها. ووجد الرئيس نفسه على الدرج بعد ذلك منهوكاً ضعيفاً وزوبعة أفكار تعصف في رأسه.

تململت في هذا الرأس صورة تلك الڤيلاَّ في (نيس)، وصورة القط الذي يُروَّض... وأفكار عن أنَّه فعلاً ليس ثمّة شهود وأنَّ بيلاغيا أنتونوفنا ستسرّ وتفرح بالبطاقات المجانية... أفكار مشتّتة لكنّها على كل الأحوال كانت لطيفة... غير أنَّ ثمّة إبرة وخزت الرئيس في أعماق أعماقه. وخزته إبرة القلق... فعلى الدرج خطرت على باله فكرة... أصابته، بل قل صدمته، هذه الفكرة هي أنَّه كيف تسنّى للمترجم الدخول إلى مكتب برليوز، وباب ذاك المكتب كان مختوماً بالشمع؟ وكيف نسي نيكانور إيڤانوڤيتش أن يسأل عن هذا الأمر؟!.

ونظر الرئيس إلى درجات السلّم بعينين كعيني الكبش، لكنَّه قرَّر أخيراً أن يتناسى وأن لا يزعج نفسه بمثل هذا السؤال المعقَّد واكتفى بأن بصق على السلّم.

وما أن غادر رئيس التعاونية الشقّة حتى تناهى إلى الأسماع صوت خفيض من غرفة النوم:

- لم يعجبني هذا النيكانور إيڤانوڤيتش!. إنَّه مخادع وغشّاش أما بمقدورنا أن نمنعه من المجيء إلى هنا؟.

- مُرني فقط بهذا يا سيِّد!... ردَّ كارڤيوڤ من مكانٍ ما بصوت نقيّ رنَّان غير ذاك الصوت المتهدِّج.

وفي الحال ظهر المترجم الملعون في غرفة المدخل، أدار رقم الهاتف، وجعل يتكلَّم في السمَّاعة بلهجة ناحبة، دون أن يُعرف سبب ذلك.

- أللو!.. أرى من واجبي أن أُبلِّغ أنَّ رئيس تعاونيتنا السكنيّة رقم اثنتين وثلاثين ب ي ث في السادوڤاي، نيكانور إيڤانوڤيتش باسوي يتاجر بالعملة الصعبة. وفي هذه اللحظة في شقّته رقم خمسة وثلاثين وفي دورة التهوية، في بيت الخلاء، خبَّأ في قصاصة جريدة أربعمئة دولاراً. يحدِّثكم أحد سكَّان البيت المذكور، ومن الشقّة رقم ١١ تيموفي كڤاستسوڤ. لكنَّني أستحلفكم أن تبقوا اسمي طيّ الكتمان ولأنَّني أخاف من انتقام الرئيس المتحدِّث عنه أعلاه. تلفَّظ الوغد بهذه الكلمات وعلّق السمَّاعة.

ماذا جرى بعد ذلك الحين في الشقّة رقم ٥٠، لا أحد يعرف. لكن الكلّ يعرف ماذا جرى لنيكانور إيڤانوڤيتش. أغلق باب بيت الخلاء على نفسه بالمزلاج، وأخرج من المحفظة الرزمة التي ربطها المترجم، وتأكَّد أنَّها تحتوي على أربعمئة روبلاً. ثم لفَّها بقصاصة جريدة ورماها في مجرى التهوية.

وبعد خمس دقائق، جلس الرئيس إلى طاولة الأكل في غرفة طعامه الصغيرة، وحملت إليه زوجته من المطبخ سمكة سيلودكا محزَّزة باتقان وقد رُشَّت عليها طبقة سميكة من البصل الأخضر.

وسكب نيكانور إيڤانوڤيتش الخمرة في القدح وجرعها ثم سكب وشرب ثانية، وتلقّف بالشوكة ثلاث قطع سيلودكا.

وفي الوقت الذي كانت تحمل فيه بيلاغينا أنتونوفنا طنجرة تتصاعد منها الأبخرة، طنجرة بمجرَّد أن تلقي نظرة واحدة عليها تحزر أنّها تحتوي في حساء البورش الغالي أطيب طيِّبات هذا العالم: عظام نخاع؛ في هذا الوقت رنَّ جرس الباب. وجرض نيكانور إيڤانوڤيتش بريقه، وأخذ يدمدم متذمِّراً كالكلب:

ـ ليذهبوا ... لعنة الله عليهم! إنَّهم لا يدعوننا حتى نتناول طعامنا!. لا تسمحي بالدخول لأحد منهم، قولي لهم إنَّني غير موجود، غير موجود. أمَّا بالنسبة للشقّة فقولي لهم أن يكفّوا، فليكفّوا عن مضايقاتهم لنا، فبعد أسبوع سيُعقد اجتماع ويُقرّر مصيرها...

وركضت الزوجة نحو غرفة المدخل. أمَّا نيكانور إيڤانوڤيتش فإنَّه جذب إليه بمرغفة من بحيرة البورش المتنفِّسة ناراً عظمة متشقِّقة بالطول.

ودخل في هذا الوقت إلى غرفة السفرة مواطنان ومعهما بيلاغيا أنتونوفنا شاحبة الوجه، دون أن يُعرف سبب ذلك. وما أن رأى نيكونار إيڤانوڤيتش المواطنين الداخلين حتى ابيضَّ لون وجهه ونهض.

ـ أين بيت الخلاء؟ سأل الأوَّل الذي كان يرتدي الكوسفورتكا ★ ، جزعاً مهموماً.

وقع شيء ما على الطاولة. لقد أوقع نيكانور إيڤانوڤيتش الملعقة على غطاء المشمَّع.

وسارعت بيلاغيا أنتونوفنا بالإجابة: هنا هنا. وانطلق القادمان حالاً في الممرّ.

وسأل نيكانور إيڤانوڤيتش بهدوء، وهو يتبع القادمين:

لا يوجد في شقّتنا ما يثير الشبهات، والمعذرة منكما.. لكن هل أبرزتما بطاقاتكما، لنعرف من أنتما.

أبرز أحد القادمين بطاقته لنيكانور ايڤانوڤيتش وهو يمشي، أمَّا الثاني فقد بدا في تلك الدقيقة واقفاً على مقعد في بيت الخلاء، وهو يدسّ يده في مجرى التهوية.

وأظلمت الدنيا في وجه نيكانور إيڤانوڤيتش، لقد عثرا على قصاصة الجريدة. وبانت الرزمة... ما احتوت روبلات إنَّما احتوت على عملات مجهولة النوع... أوراق زرقاء وأخرى خضراء عليها صور عجوز، غير أنَّ نيكانور ايڤانوڤيتش لم يرَ الاوراق النقدية بوضوح، فقد غشت عيني المسكين بقع.

وهتف الرجل الأوَّل متفكِّراً: دولارات في مجرى التهوية؟!..

وخاطب نيكانور إيڤانوڤيتش سائلاً بلطف ورفق: أهذه الرزمة لك؟..

★ الكوسفورتكا: قميص روسي أزراره من جانب.

- لا ، أجاب نيكانور إيڤانوڤيتش بصوت ينضح الرعب من نبراته. رماها الأعداء!.

- تحدث مثل هذه الأمور ، قال الرجل الأوَّل موافقاً على أقوال نيكانور إيڤانوڤيتش وأردف بلهجة ليِّنة ولطيفة: حسناً! عليك أن تسلِّم ما تبقَّى من هذه العملة.

- أقسم بالرب لا يوجد معي! لا يوجد ، وما لمست يدي عملة كهذه!. صرخ الرئيس يائساً.

واندفع بعد ذلك إلى صوان الثياب وسحب الدرج محدثاً بذلك ضجّة ، وأخرج المحفظة وتلفَّظ بكلمات مبعثرة:

- هاكم العقد... دسَّه لي في المحفظة المترجم الوغد كارڤيوڤ صاحب النظَّارة!.

وفتح المحفظة لينظر ما تحتويه في داخلها ، داسًّا يده فيها ، وازرقَّ منه الوجه ، وقذف بها في حساء البورش. اختفت بل تبخَّرت كل محتويات المحفظة.. لم تُرَ رسالة ستيبا ولا العقد ولا جواز سفر الأجنبي ولا المال ولا بطاقات الدخول المجانية.. باختصار لم يُرَ غير المتر...

وصرخ الرئيس مغتاظاً:

- أمسكوا بهم يا رفاق! في بيتنا قوّة شريرة!.

ماذا تراءى لبيلاغيا أنتونوفنا وماذا تخيَّلت ، لا أحد يدري ، غير أنَّها صرخت وهي تضرب يداً بيد: اعترف يا إيڤانوڤيتش! ستذهب رخيصاً..

رفع نيكانور إيڤانوڤيتش قبضتي يديه فوق رأسه وقد طفحت عيناه بالدم وصرخ بصوت أبحّ:

- يا لعجوز النحس الملعونة!

وانهدَّ حيله ووقع على الكرسي ، وقرَّر على ما يبدو أن يستسلم للمصير الذي لا مفرَّ منه.

في غضون ذلك كان تيموفاي كوندرانڤتش كڤاستوف يقف على مصطبة الدرج ، يلصق بثقب باب شقّة رئيس التعاونية تارة أذنه وتارة عينه ، وينوء بالألم لاشباع فضوله.

وبعد خمس دقائق رأى سكَّان المبنى المجتمعون في الحوش ، الرئيس يخرج مصحوباً بشخصين ومتوجّهاً إلى بوّابة البناية ، وتحدَّثوا أنَّ نيكانور إيڤانوڤيتش كان تائه النظرات شارد اللبّ وهو يترنَّح في مشيته كالسكران وكان يغمغم شاكياً مهموماً.

لم تنته القصّة عند هذا الحدّ. فبعد ساعة ظهر مواطن مجهول في الشقّة رقم ١١ في الوقت الذي كان يقصّ فيه تيموفي كوندراڤتش على مسامع الجيران ، وهو يشرق بالسرور ، كيف كنَّسوا رئيس التعاونية ، قلنا ظهر مواطن مجهول وأومأ بإصبعه من المطبخ لتيموفي الموجود في غرفة المدخل ، وخاطبه ببضع كلمات... واختفى الاثنان معاً بعد ذلك.

الفصل العاشر

أخبار من يالطا

أثناء الوقت الذي حدث فيه لنيكاتور إيڤانوڤيتش ما حدث من فواجع، وغير بعيد عن البيت رقم ٣٠٢ ب ي ث، وفي شارع (السادوڤايا) ذاته، وفي مكتب ريمسكي مدير الڤاريته المالي، جلس شخصان: ريمسكي ومدير الڤاريته ڤارنوخا.

أطلّت نافذتا المكتب الكبير في الطابق الثاني من مبنى المسرح على شارع السادوڤايا، أمّا تلك النافذة التي كانت تقع وراء ظهر المدير المالي الجالس إلى طاولة الكتابة، فقد أطلّت على حديقة الڤاريته الصيفية، حيث المقاصف المبرَّدة والملهى المكشوف، وميدان الرمي.

كان أثاث البيت، فضلاً عن طاولة الكتابة، عبارة عن رزمة إعلانات قديمة معلّقة على الحائط، ومنضدة صغيرة ودورق ماء، وأربعة مقاعد وأريكة في الزاوية وضع فوقها نموذج استعراضي قديم.

ومن البديهيات القول إنَّ المكتب احتوى كذلك صندوقاً فولاذياً من الحجم الصغير، فارقته قشرته، كان يقع عن يسار ريمسكي بالقرب من طاولة الكتابة.

منذ الصباح الباكر وريمسكي الجالس إلى طاولته معتكر المزاج، أما ڤارنوخا فكان بعكسه تماماً، كان نشيطاً ويفيض حيوية ممزوجة بالقلق، لكن لم يكن ثمة مصرف لطاقته تلك وحيويته.

اختبأ ڤارنوخا الآن في مكتب المدير المالي هرباً من الساعين للحصول على بطاقات مجانية، أولئك الذين سمَّموا حياته، وخاصة في أيام تبديل البرامج. والنهار هذا كان يوماً من تلك الأيام المشهودة، وما أن بدأ يرنّ جرس التلفون حتى أمسك ڤارنوخا بالسمّاعة وشرع يدجّل.

- من؟ ڤارنوخا؟ غير موجود. لقد غادر المسرح.

وقال ريمسكي بغضب:

- من فضلك تلفن مرّة أخرى لليخدييف.

- إنّه غير موجود في بيته، لقد أرسلت كاربوڤ وراءه، لا يوجد أحد في الشقة.

وفحّ ريمسكي وهو يطقطق على الآلة الحاسبة:

ـ الشيطان وحده يعرف بما يحدث.

وفُتح الباب، وسحب عامل المسرح رزمة سميكة من الاعلانات الاضافية الخارجة لتوّها من المطبعة، وقد طُبع على صفحاتها الخضر بأحرف حمراء كبيرة:

اليوم وكل يوم في مسرح الڤاريته: برنامج إضافي. البروفسور ڤولند وحفلات السحر الأسود وفضحها الكامل.

وبعد أن رمى ڤارنوفا الاعلان على الماكيت، ابتعد عنه وراح يتمتّع بالنظر إليه، وأمر العامل هناك بالصاق كل النسخ.

وحين ذهاب العامل علّق ڤارنوخا بالقول: عمل ظريف... جذّاب.

ـ لم يعجبني مطلقاً هذا التدبير، دمدم ريمسكي وهو ينظر حانقاً إلى الملصق عبر نظاراته المصنوعة من القرون، وأكمل: أنا متعجّب كيف يُسمح له بإقامة مثل تلك الحفلات.

ـ لا! لا يا غريغوري دانيلوڤتش. لا يسعك أن تعترض على مثل هذه الخطوة الدقيقة، ولا سيما أنَ جوهر المسألة في فضح السحر الأسود.

ـ لا أعرف، لا أعرف... أي جوهر هنا... دائماً كان يفكّر بمثل هذه البدائع! لو أنّه أرانا هذا الساحر على الأقل؟!. هل رأيته أنت؟، الشيطان وحده يعلم من أيّ مكان نبشه!.

وبدا أنّ ڤارنوخا هو الآخر، مثل ريمسكي، لم يَرَ الساحر. البارحة فقط هرع ستيپا كالمجنون ـ على حد تعبير ريمسكي ـ هرع الى المدير المالي ومعه مسودّة العقد، وفي الحال أمرّه بالتوقيع وتسليم المال. واختفى الساحر دون أن يراه أحد، ما عدا ستيپا.

وأخرج ريمسكي الساعة فرأى أنَّ عقاربها تدل على الثانية وخمس دقائق، فاحتدم غيظاً.

حقّا إنّه لأمر عجيب، فليخديييف تلفن في الساعة الحادية عشرة تقريباً، وقال إنّه سيأتي بعد نصف ساعة. ولم يتأخَّر عن المجيء وحسب بل اختفى من شقّته حتّى!.

همر ريمسكي وهو يغرز إصبعه في كومة الأوراق المحتاجة إلى إمضاء:

ـ أف... ما أكثر أعمالي!.

ـ أيكون قد وقع تحت الترام كما وقع برليوز ـ قال ڤارنوخا هذا وهو يرفع السمّاعة إلى محاذاة أذنه، السمّاعة التي كان ينبعث منها إشارات غليظة متواصلة قانطة.

ـ يا ليت الأمر كان كذلك.

ـ ما كان أحسنه من أمر. ـ قال ريمسكي عبر أسنانه بصوت خفيض جداً.

في تلك الدقيقة، دخلت المكتب امرأة ترتدي اللباس الرسمي: سترة حكومية، وتعتمر فورجكا، وترتدي تنورة سوداء، وتنتعل الأخفاف. ومن محفظة صغيرة عُلّقت في وسطها أخرجت المرأة مغلّفاً صغيراً أبيض ودفتراً وسألت:

ـ أين ڤاريته هنا؟ برقية مستعجلة لكم. وقِّعوا.

ورسم ڤارنوفا خطوطاً عوجاء في دفتر المرأة، ولم يفضّ الغلاف إلاَّ بعد أن غادرت وأغلقت الباب من ورائها. وما أن قرأ البرقية حتى غمز بعينيه وناولها لريمسكي:

نصَّت البرقية على ما يلي:

«من يالطا إلى موسكو. ڤاريته. هذا اليوم الساعة الحادية عشرة والنصف، المباحث. ظهر مريض متسكِّع ومجنون، بثياب النوم دون حذاء يُدعى ليخدييف. مدير التعاونية. إبرقوا إلى مباحث يالطا، حيث المدير ليخدييف».

ـ يا حبيب قلبي! ـ هتف ريمسكي، وأضاف: وهذه هدية!.

ـ يا لديمتري الكاذب ـ قال ڤارنوخا، وتكلَّم في سمَّاعة التلفون:

ـ «مكتب البرق؟ على حساب الڤاريته. استلموا برقية عاجلة! تسمعون؟ يالطا. المباحث. المدير ليخدييف. موسكو. المدير المالي ريمسكي».

رغم الإبلاغ من يالطا عن ذلك الدعيّ: فإنَّ ڤارنوخا أخذ من جديد يتلفن باحثاً عن ستيبا في كل مكان. وبديهي القول إنَّه لم يقع له على أثر. في غضون الوقت الذي كان فيه ڤارنوخا يمسك بالسمَّاعة بين يديه ويفكِّر إلى أين يتوجَّب عليه أن يتلفن أيضاً، دخلت تلك الامرأة ذاتها التي حملت إليهم البرقية الأولى، وسلَّمت ڤارنوخا مغلَّفاً جديداً، ففضّه على عجل، وما أن قرأ ما كتب في البرقية حتى أخذ يصفِّر:

وسأل ريمسكي بعصبية وهو يرتعد: ماذا بعد؟.

وسلَّمه ڤارنوخا البرقية بصمت، وقرأ المدير المالي النصّ التالي:

«أرجو المصادقة، مرمي في يالطا. من تأثير التنويم المغناطيسي الذي يأتيه ڤولند. أبرقوا للمباحث. عرِّفوا عن شخصية ليخدييف».

وقرأ ريمسكي وڤارنوخا البرقية مرّة ثانية، وعاودا قراءتها وهما يحملقان في بعضهما وقد تلامس رأساهما.

ـ أيها المواطنون! فجأة صرخت الامرأة وبغضب: وقِّعوا وبعد ذلك يمكنكم أن تصمتوا قدر ما تشاؤون! ألا تعلمون أنَّني أوزِّع البرقيات.

ووقَّع ڤارنوخا على الدفتر بخطٍّ معوجّ، دون أن يحوِّل عينيه عن البرقية. وفي الحال اختفت الامرأة.

وقال المدير وهو في حالة تضعضع كامل:

ـ ألم تتحدَّث معه بالتلفون قبل الساعة الثانية عشرة؟.

ـ كلام يثير الضحك حقًّا! نعم تحدَّثت معه أم لم أتحدَّث. غير ممكن أبداً أن يكون الآن في يالطا. أمر يثير الضحك! ـ هتف ريمسكي بحدّة.

ورد ڤارنوخا:

ـ إنَّه سكران.

ـ من السكران؟ ـ سأل ريمسكي من جديد وحملقا في بعضهما البعض.

مما لا شكّ فيه أنَّ الذي أبرق من يالطا هو أحد اثنين إمَّا مجنون وإمَّا دعي دجَّال يحمل نفس الاسم. لكن الغريب هو أنّى لمشعوذ يالطا أن يعرف ڤولند الذي وصل البارحة إلى موسكو؟ وأنّى له أن يعرف علاقة ليخدييف بڤولند؟

« تأثير التنويم المغناطيسي!...» أعاد ڤارنوخا كلمات البرقية. أنّى له أن يعرف عن ڤولند؟. وطرفت عيناه وفجأة هتف بحزم: لا، إنَّها تفاهات، تفاهات، تفاهات.

ثم عاد وسأل ريمسكي: أين يبيت هذا الڤولند، ليخطفه الشيطان؟.

وبدون إبطاء اتَّصل ڤارنوخا بمكتب السيَّاح، ولفرط دهشة ريمسكي أعلن المكتب أنَّ ڤولند يسكن في شقَّة ليخدييف. وأدار أرقام الهاتف طالباً شقَّة ليخدييف. واستمع ڤارنوخا طويلاً إلى الصفَّارات الخشنة في السمَّاعة وهي تتواصل، ومن بينها انبعث من بعيد صوت كئيب مزعج مغنيًّا: « بين الصخور... مأواي». وفهم ڤارنوخا أنَّ ثمة تداخلاً بين راديو المسرح وشبكة الهاتف فحصل هذا التشويش.

وقال ڤارنوخا وهو يضع السمَّاعة في مكانها: الشقَّة لا تردّ.

ـ حاول أن تتلفن له بعد...

لكن ريمسكي لم يكمل حديثه. إذ أنَّ الامرأة ذاتها بدت في الباب، ونهض الاثنان ريمسكي ڤارنوخا معاً ولاقياها، فأخرجت من محفظتها ورقة لم تكن بيضاء هذه المرّة بل كانت سوداء قاتمة.

ـ « ثمة ما يثير الاهتمام هذه المرّة» قال ڤارنوخا من بين أسنانه، وهو يشيِّع بنظره الامرأة المغادرة على عجل.

وعلى صفحة من الورق الأسود القاتم، بدت سطور بيضاء وتميَّزت بوضوحها:

«هاكم البرهان، خطِّي وتوقيعي. أبرقوا مؤكِّدين. شدِّدوا مراقبتكم السرية لڤولند. ليخدييف».

لقد مضى على إدارة ڤارنوخا لمسرح الڤاريته ما يقارب العشرين عاماً. وقد رأى خلالها الكثير ومرَّ على رأسه الكثير. أمَّا الآن فقد شعر أنَّ عقله قد التحف بقماط، وما كان بمقدوره التفوّه ولو بكلمة واحدة، غير جملة جوفاء: هذا غير ممكن أبداً.

أمَّا ريمسكي فلم يتصرَّف هكذا. نهض وفتح الباب ونهر العاملة الجالسة على الكرسي قرب الباب موصياً:

ـ لا تسمحي بالدخول إلاَّ لسعاة البريد!.

قال هذا وأغلق الباب وراءه بالمفتاح. بعد ذلك تناول من فوق طاولة المكتب رزمة أوراق وشرع يقارن باتقان وتؤدة أحرف البرقية السمينة المائلة إلى اليسار مع أحرف من أوراق بخط ستيپا وتواقيعه، تلك التواقيع المزوَّدة باعوجاج لولبي. وارتمى ڤارنوخا على الكرسي وتنفَّس في خدّ ريمسكي بحرارة.

وأخيراً أكَّد المدير المالي مصدّقاً: هذا خطّه. أمّا ڤارنوخا فردَّد بعده كالصدى: نعم خطّه.

وتأمَّل المدير في وجه ريمسكي فتعجَّب من التغيّر الذي طرأ على هذا الوجه. فريمسكي الذي كان نحيلاً قبل هذه المشكلة، بدا الآن أكثر نحولاً، وكأنَّ الهرم دبَّ في أوصاله، وتقدَّمت به السنون، واختفت تلك السخرية اللاذعة من العينين وراء النظّارات، وحلَّ محلّها لا القلق وحسب بل والكآبة أيضاً.

وعمل ڤارنوخا ما يتوجَّب على الانسان عمله في دقائق الدهشة الصاعقة. ركض في أرض المكتب جيئة وذهاباً، بسط يديه مرّتين كالمصلوب، وجرع كأساً طافحة بالماء الأصفر من الدورق وهتف:

ـ لا أفهم!، لا أ ف هـ م!.

أما ريمسكي فنظر من النافذة، وأجهدته فكرة ما. فموقف المدير المالي حرج للغاية، فقد طُلب منه أن يخترع شروحاً عادية لظواهر خارقة.

وزرَّ المدير عينيه وتمثَّل له ستيپا وهو في ثياب النوم، حافي القدمين، يتسلَّل اليوم في الساعة الحادية عشرة والنصف (تقريباً)، إلى طائرة خفيّة، تفوق سرعتها السرعة الاعتيادية، لتنقله بعد ذلك وبمثل لمح البصر إلى يالطا... وفي تلك الساعة بالذات الساعة الحادية عشرة والنصف، تراه عيناك يقف فوق أرض مطار يالطا بالجوارب... الشيطان وحده يعلم بما يحدث... ومن يدري؟ لعلَّ الذي تحدَّث معه من الشقّة بالتلفون هذا النهار لم يكن ستيپا؟. لا إنَّ الذي حدَّثه هو ستيپا!.. أم أنّه لا يعرف صوت ستيپا؟. وإذا لم يكن المتكلِّم اليوم ستيپا. ففي الأمس نعم في الأمس عند المساء، خرج ستيپا من مكتبه... ودخل هذا المكتب بالذات وهو يحمل معه ذلك العقد التافه وأزعج المسؤول المالي بسخافاته واستخفافه بما فيه الكفاية... أنّى له أن يغادر دون أن يتفوّه ولو بكلمة واحدة عن ذلك في المسرح؟ ولو سلَّمنا بأنّه سافر على متن الطائرة البارحة مساءً، فإنَّه لن يصل ظهر هذا اليوم، أم أنّه يصل؟!.

وسأل ريمسكي:

ـ كم كيلومتراً تبعد عنّا يالطا؟.

وسكت ڤارنوخا وعاد فهمر:

ـ فكّر ويحه بماذا فكّر! إلى سڤاستيپول على السكّة الحديدية حوالي الألف وخمسمئة كيلومتر. إلى يالطا يجب أن نضيف ثمانين كيلومتراً. هذا على الأرض أمَّا في الهواء فالمسافة طبعاً أقصر.

إحم... الحديث عن القطارات غير وارد أبداً هنا. ماذا إذن؟ طار على متن نفَّاثة؟ لكن من سمح لستيپا بدخول هذه النفَّاثة حافياً؟ ولماذا؟ أم أنَّه يكون قد خلع حذاءه وهو يطير إلى يالطا؟ ويبقى السؤال لماذا؟ لكن حتى وهو منتعل الحذاء لا يسمح له بدخول النفَّاثة! دعنا من الحديث عن النفاثة. ألم نقرأ أنَّه بدا عند رجال المباحث في الساعة الحادية عشرة والنصف، وفي ذلك الوقت بالذات تحادث في الهاتف مع موسكو.. عفوكم!!...

وهنا ظهر أمام ناظري ريمسكي ميناء ساعته.. وتذكَّر أين كانت عقارب الساعة.

يا للرعب! حدث ذلك في الساعة الحادية عشرة والعشرين دقيقة. ماذا يعني كل هذا؟، لو افترضنا أنَّ ستيپا انطلق إلى المطار بلمحة عين بعد تلك المكالمة الهاتفية، ووصل إلى المطار لنقل بعد خمس دقائق، وهذا أيضاً مستحيل، وإذا افترضنا أنَّ الطائرة وقد أقلعت في الحال، تكون قد قطعت آلاف الكيلومترات وأكثر في خمس دقائق؟ ونتيجة ذلك فسرعتها في الساعة تزيد على اثني عشر ألف كيلومتر!!، وهذا أيضاً لا يصدَّق، ومعنى ذلك أنَّه غير موجود في يالطا الآن.

ماذا يبقى؟ تنويم مغناطيسي؟ ما من تنويم في العالم بقادر على قلع انسان من مكانه ورميه على بُعد آلاف الكيلومترات!، الرجل واهم إذن، يُخيَّل إليه أنَّه في يالطا! لكن إذا افترضنا أنَّه واهم، أيكون رجال المباحث أيضاً واهمين؟ عفوكم ولطفكم هذا مما لا يمكن تصديق حدوثه أبداً! لكنَّهم يبرقون من هناك؟...

كان وجه المدير المالي مخيفاً بكلّ ما في الكلمة من معنى. في هذا الوقت أُديرت مسكة الباب من الخارج، وسُمع صوت العاملة وراء الأبواب وهي تصيح بلهجة يرشح من نبراتها اليأس:

ـ ممنوع، لن أسمح لأحد بالدخول ولو ذبحتموني! اجتماع!.

وأمسك ريمسكي سمَّاعة الهاتف وتمالك نفسه بقدر ما أمكنه ذلك وتكلَّم في السمَّاعة:

ـ أعطوني مكالمة مستعجلة جدًّا مع يالطا.

«عمل وأيم الحق ذكي». قال ڤارنوخا في نفسه.

لكن المكالمة مع يالطا لم تتم. فوضع ريمسكي السمَّاعة وقال:

ـ كل شيء يحدث بالعكس، تعطَّل الخط...

تعطيل الخط أثَّر عليه وأغضبه وجعله يغرق في التفكير. وبعد أن فكَّر قليلاً، تناول السمَّاعة بيد وباليد الثانية أخذ يسجِّل ما سيقوله فيها:

« استقبلوا برقية مستعجلة . ـ ڤاريته ـ نعم ـ يالطا . المباحث ـ نعم ـ اليوم حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف تكلّم ليخدييف معي . تلفون، موسكو (نقطة) . بعد ذلك لم يحضر إلى الوظيفة . لم نستطع العثور عليه بالتلفون، (نقطة) . أصادق وأؤكّد بأنَّ الخط خطه، (نقطة) . قبلت القيام بالاجراءات الأمنية ومراقبة الفنَّان المذكور . المدير المالي ريمسكي » .

« إجراء ينطوي على كثير من الذكاء » . فكَّر ڤارنوخا، لكنَّه ما أن وصل بتفكيره إلى حيث يجب، حتى جالت في رأسه هذه الكلمات : « يا للسخافة ! لا يمكن أبداً أن يكون في يالطا ! » .

في غضون ذلك رتَّب ريمسكي بتؤدة البرقيات التي تلقَّاها والنسخة عن البرقية التي أرسلها وجمعها في إضبارة، ووضعها في مغلّف، ثم لزَّقه ووقَّع عليه ببضع كلمات وناوله لڤارنوخا مخاطباً :

ـ إيڤان ساڤليڤتش ! احمل الوثائق حالاً وبنفسك ولينظروا فيها هناك .

« هذا اجراء ذكي حقًّا ! » فكَّر ڤارنوخا، وأخفى المغلّف في حقيبته . وبعد ذلك أدار رقم الهاتف طالباً مرّة أخرى شقّة ستيپا، وأصغى وطرفت عينه، وكشَّر فرحاً، أمَّا ريمسكي فقد مدَّ عنقه .

وسأل ڤارنوخا بتهذيب ونعومة : يمكننا التحدّث مع الفنَّان ڤولند .

وأجابت السمَّاعة بصوت متهدّج :

ـ إنَّهم مشغولون، من الذي يسأل عنه .

ـ مدير الڤاريته ڤارنوخا .

ـ إيڤان ساڤليڤتش ! ـ هتفت السمَّاعة بفرح ـ سروري لا يقدّر وأنا أسمع صوتك ! كيف أحوالك ؟

ـ مرسي . ـ أجاب ڤارنوخا متعجّباً ـ مع من أتحدّث ؟

ـ المساعد، مساعده، المترجم كارڤيوڤ ـ طقطقت السمَّاعة ـ كلّنا في خدمتك يا إيڤان ساڤليڤتش العزيز ! مُرني بما تشاء وكما تشاء . نعم .

ـ المعذرة ! هل ستيپان بغدانوڤيتش ليخدييف موجود في البيت ؟

ـ غير موجود يا حبيبي، غير موجود . ـ صاحت السمَّاعة ـ سافر .

ـ إلى أين ؟ .

ـ إلى الضاحية، ليكسدر في السيَّارة .

ـ كـ . . . كيف ؟ ليكسدر ؟ ومتى سيعود ؟

ـ قال إنَّني أريد أن أتنشَّق الهواء العليل، وأعود .

ـ هكذا ـ قال ڤارنوخا متضعضعاً ـ مرسي، من فضلك بلّغ مسيو ڤولند أنَّ حفلته

ستقام هذا المساء في المركز الثالث.

ـ سأبلّغه، وسأبلّغه في الحال، ومن كل بدّ.

طرقت السمّاعة عدّة طرقات متقطّعة.

ـ تحرسك العناية ـ قال ڤارنوخا متعجّباً.

وردّت السمّاعة:

ـ أرجو أن تتقبّل تحيّاتي الطيّبة وتمنياتي الحارّة بالنجاح والتوفيق والسعادة.

صاح المدير مهتاجاً على أثر هذه المكالمة التلفونية: لقد قلت لك لا يالطا ولا غيرها. لقد ذهب إلى ضاحية المدينة!.

ـ إذا كان الأمر هكذا ـ أجاب المدير المالي وشحب لون وجهه كرهاً ـ فهذا فعل قذر حقّا وعمل مشين...

وهنا نهض المدير من مكانه وصاح صيحة جعلت ريمسكي يرتعد حينما سمعها:

ـ الآن تذكّرت! تذكّرت. لقد افتُتحت (تشبورتشنايا) اسمها يالطا في مدينة بوشكين. توضّح كل شيء! ذهب إلى هناك فخمر وسكر... ومن هناك راح يبرق لنا.

ـ لكن هذا كثير! ـ أجاب ريمسكي وهو يمسك خدّه واشتعلت عيناه بنار الحقد الحقيقي القاسي ـ ستكلّفه هذه النزهة غالياً، لكنّه تلعثم فجأة وأضاف متردّداً: لكن والمباحث...

وقاطعه المدير الهتاج ذو العواطف الثائرة:

ـ المباحث كذبة من تلفيقه. ثم عاد وسأل:

ـ ستنقل الملفّ.

فأجاب ريمسكي:

ـ من كل بدّ.

وإذا بالباب يفتح فجأة من جديد، وتدخل المرأة ذاتها «هي». فكّر ريمسكي مكروباً دون أن يعرف سبب كربه، ونهض الاثنان لاستقبال موزّعة البريد.

هذه المرّة كان نصّ البرقية كالآتي: «أشكر لكم على الاثباتات. على عجل ارسلوا لي خمسمئة. قلم المباحث الجنائية. غداً أطير إلى موسكو. ليخدييف».

وقال ڤارنوفا بصوت خفيض: لقد فقد عقله.

وطنطن ريمسكي بمفتاحه، وأخرج من درجه المعدني مبلغاً من المال، وعدّ خمسمئة روبل. وطنطن ثانية، وسلّم العامل المبلغ وأرسله إلى مكتب البرق.

وقال ڤارنوخاغير مصدّق عينيه:

ـ عفوك يا غريغوري دانيلوڤيتش فحسبما أرى عبثاً ترسل النقود.

وردَّ ريمسكي بصوت خافت وبهدوء: سيعود المال إلينا، وسيتحمَّل وحده مسؤولية عمله هذا. سيدفع الثمن غالياً هذا المتنزِّه. وأردف وهو يشير إلى محفظة ڤارنوخا: هيَّا امشِ يا إيڤان ساڤليڤتش لا تتأخَّر.

وغادر ڤارنوخا المكتب وهو يحمل محفظته.

- نزل ڤارنوخا إلى الطابق الأرضي فرأى الطابور الطويل وراء الصندوق، وعرف من عاملة الصندوق، أنَّ التذاكر ستنفد بعد ساعة، لأنَّه ما أن رأى الناس مُلصقاً إضافياً حتى تدفَّقوا كالسيل العرم. فأوصاها بالكذب وبأن لا تبيع أفضل ثلاثين بطاقة، بطاقات الألواج والصالة. ابتعد عن الصندوق وقد أفلح في التملّص من الساعين وراء البطاقات المجانية اللجوجين المزعجين. وغاص في مقعده وراء المكتب ليأخذ قبعته. في غضون ذلك الوقت رنَّ جرس التلفون:

وصاح ڤارنوخا: نعم. وكاد يقول: ڤارنوخا غير موجود. غير أنَّ السمَّاعة قاطعته في الحال:

- لا تتحامق يا إيڤان ساڤليڤتش واصغِ، لا تنقل هذه البرقيات إلى مكان ولا تُريها لأحد.

وزمجر ڤارنوخا:

- من الذي يتكلَّم؟ أيها المواطن دع عنك هذا المزاح، فقد يلقون القبض عليك الآنِ، ما رقم تلفونك؟.

غير أنَّ الصوت الكريه ردّ:

- ڤارنوخا... افهم ما يقال لك بالفصحى، لا تنقل البرقيات إلى مكان.

- وأنت ألن تعود إلى رشدك؟ - صرخ المدير ساخطاً - انتبه، ستتحمَّل مسؤولية عملك هذا وستدفع الثمن غالياً. وصاح متفوِّهاً بكلمات تهديد، لكنَّه عاد وسكت بعد أن شعر أنَّ أحداً لا يصغي، في الطرف الآخر.

وما لبثت أن عتمت سماء المكتب، فخرج ڤارنوخا راكضاً وأغلق الباب من ورائه ويمَّم عبر الممرّ الجانبي إلى الحديقة الصيفية.

كان المدير مهتاجاً، ثائر الأعصاب يفيض حيوية. بعد تلك المكالمة الهاتفية السفيهة، لم يشكّ في أنَّ عصابة أشقياء وراء كل هذه المزحات السمجة والأعمال القبيحة، وأنّ لهذه العصابة علاقة باختفاء ليخدييف.

ملأت صدر المدير رغبة بفضح الأشرار، والغريب في الأمر أنَّ هذه الرغبة ولَّدت في نفسه شعوراً كأنَّه سيتذوّق شيئاً ما لذيذاً، كالشعور الذي يساور الانسان حينما يسعى ليصير محط أنظار وانتباه الناس، ويقدِّم لجهات معيَّنة أخباراً مثيرة.

ولفحت الريح المدير المالي في وجهه وذرَّت له الرمال في عينيه بينما كان يجتاز الحديقة، وكأنَّما ودَّت الريح أن تقطع عليه طريقه منبِّهة محذِّرة.

ووقع إطار على الأرض وكاد يتناثر الزجاج ويتطاير، ووشوشت رؤوس أشجار الزيزفون والازداراخت هادرة قلقة. بَرَدَ الطقس وأسدلت العتمة ستارها على المكان. ومسح المدير عينيه ورأى كيف تزحف في سماء موسكو، غيمة منخفضة صفراء البطن، وترامى إلى سمعه من البعيد دمدمة وأصوات قوية.

ومع أنَّ ڤارنوخا كان على عجلة من أمره، فإنَّ رغبة ملحاحة دفعته ليركض إلى بيت الخلاء الصيفي، لفترة ثانية واحدة، ليتحقَّق بنفسه إذا ما كان عامل الصيانة ألبس المصباح شبكة وقائية. ووصل ڤارنوخاإلى خميلة من الليلك وهو يركض بازاء ميدان الرمي. وكان بيت الخلاء الصيفي السماوي اللون يقع وسط هذه الخميلة.

بدا أن العامل الكهربائي كان إنساناً ماهراً يتقن عمله، فالمصباح تحت السقف في قسم الرجال غُلِّف بشبكة معدنية، وقد أرضى بعمله المدير، ولكن ما أزعجه هو أنَّه حتّى في هذه العتمة، عتمة ما قبل العاصفة تجلّى بوضوح كيف اتَّسخت الجدران بالفحم وبقلم الرصاص.

- ما هذه... وكاد المدير يبدأ بالكلام، غير أنَّه فجأة سمع من ورائه صوتاً يهرّ:

- هذا أنت يا إيڤان ساڤليڤتش.

وارتعد ڤارنوخا، والتفت فرأى وراءه شخصاً سميناً صغير الجسم، له ملامح القط.

وأجاب ڤارنوخا بنفور: هذا أنا، نعم.

- مسرور جداً جداً بمعرفتكم، ردَّ السمين الشبيه بالهرّ مصأصئاً، وبسط يديه فجأة، وضرب ڤارنوخا على رأسه ضربة أطارت طاقيته، ووقعت في فرجة المقعد في بيت الخلاء واختفت.

على أثر تلك الضربة التي تلقَّاها ڤارنوخا من الرجل السمين، أضاء نور مرتعش بيت الخلاء بأكمله للحظة واحدة، كما لو أنَّ السماء استجابت للضربة برعد قاصف ودوي، وبعد ذلك ومض نور مرّة أخرى، وظهر فجأة أمام عيني المدير شخص ثان ضئيل، عريض المنكبين أشقر، تغطّي إحدى عينيه غشاوة، ويبرز ناب في فمه. هذا الشخص الثاني والذي كان على ما يبدو أعسر، ضرب المدير على أذنه الثانية. وأجابته السماء من جديد على ضربته بدوي ولعلعة وبوابل من الأمطار انهمر على سطح بيت الخلاء الخشبي.

- ماذا يا رفا... همس المدير الفاقد الرشد، لكنه أدرك في الحال أنَّ كلمة « رفاق » لا تليق بأشقياء ينقضّون على إنسان في بيت الخلاء العام، فعاد وخاطبهم بصوت أبحّ: يا مواطنو... ولكنه استدرك... إنَّهم لا يستحقون هذه التسمية أيضاً. وتسلَّم الضربة الثالثة

الفظيعة دون أن يعلم شيئاً عن مصدرها. من أي شخص أتت؟ ضربة أسالت الدم من أنفه على الرجل السمين.

وصاح شبيه القطّ بشراسة:

ـ ماذا تحتوي محفظتك أيها الطفيلي؟ برقيات؟ ألم ننذرك بالتلفون بأن لا تنقل هذه البرقيات إلى أي مكان؟ إنّني أسألك فأجب، ألم ننبّهك؟

أجاب المدير وهو يلهث:

ـ أنذرتموني... تموني..

ـ ومع هذا تناسيت وركضت؟ هات المحفظة يا سافل!

هتف الرجل الثاني بصوت كريه مزعج، الصوت ذاته الذي كانت تسمع نبراته في السمّاعة، تفوه بكلماته هذه وخطف المحفظة من بين يدي ڤارنوخا المرتعشتين.

وأمسك الرجلان بالمدير بالأيدي، وجرّاه من الحديقة وانطلقا به في شارع السادوڤايا. وهبّت عاصفة جبّارة. وهطلت الأمطار في الحفر المخدّدة محدثة دويًّا وزعيقاً. وأزبدت وأرغت وفاضت أمواج المياه وجرت من فوق السطوح بمحاذاة المجارير، واندفعت السيول المتلاطمة من تحت الكوى. وخلا شارع السادوڤايا وأقفر، وما من حياة تنفّست في هذا الشارع.. ولن يخلّص أحد إيڤان ساڤليڤتش من مصيبته.

وقفز الأشقياء في الأمواه العكرة مستضيئين بأنوار الصواعق، وخلال ثانية واحدة وصلوا بالمدير، نصف الحي، حتى البيت رقم ٣٠٢ ب ي ث، وأسرعوا بصحبته إلى كوّة حيث ألصقت إلى الحائط إمرأتان حافيتان ممسكتان بأيديها جواربهنَّ وأحذيتهنَّ.

وبعد ذلك انطلقوا إلى المدخل السادس، وأُصعد ڤارنوخا الذي كان على قاب قوسين أو أدنى من الجنون إلى الطابق الخامس، ورُمي على الأرض، في غرفة المدخل. تلك الغرفة شبه المعتمة في شقّة ستيپا ليخدييف، والتي كان يعرفها ڤارنوخا حقَّ المعرفة.

وهنا توارى اللصّان عن العيان، وبدلاً عنهما ظهرت في المدخل فتاة عارية، ربّي كما خلقتني، عذراء شقراء، فوسفورية العينين.

وأدرك ڤارنوخا أنّه في أقصى حالات الخوف، وأنَّ كل ما حدث له مسبقاً ما كان إلاَّ تحضيراً لما يحدث الآن. فرجع المسكين نحو الحائط وهو يولول.

واقتربت الفتاة من المدير حتى كادت تلتصق به، وأراحت راحتي يديها على كتفيه، فوقف شعر رأسه من الرعب. أحسَّ ببرودة يديها وقد اخترقت السترة المبلّلة بالماء البارد، أجل لقد أحسَّ أنَّ برد هاتين الراحتين كان أصقع من الجليد. وقالت الفتاة برقّة: هات دعني أُقبّلك. تفوّهت بكلماتها وبدت عيناها المضيئتان، وقد ثبّتتها بعينيه. حينذاك فقد ڤارنوخا إحساسه ولم يحسّ بطعم القبلة.

الفصل الحادي عشر

ازدواجيّة إيڤان

اكمدّ لون حُرج الصنوبر على ضفّة النهر المقابلة، الذي كانت تضيئه قبل ساعة شمس نوّار، لقد أربد الحرج واحتجب عن عيني إيڤان.

وانهمرت المياه غزيرة مشكِّلة بساطاً ممتدًّا وراء النافذة. وومضت مراراً في كبد السماء خيوط من نار. ثمّ انشقّت السماء وغمرت غرفة المريض بأضواء مرتعشة تثير المخاوف.

وبكى إيڤان بصمت وهو يجلس فوق السرير ويتأمّل النهر المعتكر والفوّار والمزبد. وبينما كان الرعد يقصف كان صراخه يعلو ويزداد عويله وكان يغطّي وجهه بيديه.

تناثرت الأوراق التي كتبها إيڤان على الأرض. نثرتها الريح التي سفعت الغرفة وسبقت هبوب العاصفة.

ذهبت محاولات الشاعر لكتابة محضر أو بيان عن المستشار المخيف أدراج الرياح.

وما أن استلم من مساعدة الطبيب السمينة براسكوڤيا فيدوروڤنا بقية قلم وورقة حتى فرك يديه جادًّا مستعدًّا وجلس إلى المنضدة على عجل. وبان قلمه عن مقدّمة لا بأس بها:

« بيان من عضو (الماسوليت) إيڤان نيقولايڤتش بزدومني إلى الشرطة!. البارحة مساءً كنت قادماً بصحبة المرحوم م. أ. برليوز، عند بُرك البطريركية..».

واختلط على الشاعر .. كلمة « المرحوم » سبّبت له الاختلاط. أتت في غير محلها. كتب جملة فارغة.. أيّة جملة هذه. كنت قادماً بصحبة المرحوم؟! المرحومون لا يمشون. ومن ثمّ فإنّهم لا يأتون.. حقًّا ما النفع من كتابة أُحسب بسببها مجنونا!.

ومُنفِّذاً فكرته شرع إيڤان نيقولايڤتش بتصحيح ما كتبه، فأتى نصّ بيانه كالآتي:

« بصحبة م. أ. برليوز الذي أمسى فيما بعد مرحوماً...». لكن هذا النص لم يرُق للمؤلِّف أيضاً، فكان عليه أن يبدِّل هذا نصًّا آخر، ولم يكن حظ النصّ الثالث بأفضل من سابقيه، بل كان أشدّ سوءًا.

« كنت بصحبة برليوز الذي دهسه الترام...». أفٍّ ما بال النكد يلاحقه: من أين أتى اسم عائلة برليوز.. وقد يُظنّ أنّ برليوز النكرة هو ذلك المؤلِّف الموسيقي.. فكان عليه أن يضيف: غير أنّ برليوز هذا غير ذلك الموسيقي..

وقد أوجعه التعامل مع اثنين من آل برليوز، شطب كل ما كتبته يداه، وقرّر بعد ذلك

أن يفتتح البيان ـ المحضر بكلمة معبِّرة وكافية لاجتذاب انتباه القارىء وكتب: إنَّ قطًّا جلس في الترام. عاد بعد ذلك ليكتب حول حادثة بتر الرأس.

بتر الرأس ونبوءة المستشار أدّيا به إلى التفكير ببيلاطس البنطي. ورغبة بايجاد الحجة الدامغة، قرَّر أن يكتب حكاية بيلاطس البنطي بأكملها، منذ تلك اللحظة التي بدا فيها الأخير في رواق قصر هيرودوس وهو يختال في الرداء الأبيض ذي البطانة الحمراء بلون الدم.

وعمل إيڤان بجدٍّ ومثابرة، فشطب ما كتبه، وأدخل كلمات جديدة، وحاول أن يرسم بيلاطس البنطي أوّلاً ومن ثمّ القطّ وهو واقف على قائمتيه الخلفيتين، لكن الرسوم لم تساعده. وكلّما طالت محاولات الشاعر في الكتابة، كلّما أضحى بيانه أكثر غموضاً والتباساً.

وما أن بدت في السماء عن بُعد سحابة دخانية الأطراف وظلّلت الحرج وعصفت الرياح، حتّى شعر إيڤان بأنَّ حيله قد انهدَّ وقواه انهارت، وأنّه لن يقوى على كتابة بيانه، فلم يعد يجمع الأوراق المتناثرة وبكى بصمت بكاءً مرًّا.

وزارت پراسكوڤيا فيدوروڤنا، المساعدة الطيِّبة القلب، الشاعر إبَّان العاصفة، وهالها أن تراه دامع العينين باكياً، فأسدلت الستارة كي لا يفزع المريض من البرق، ولمّت الأوراق من على الأرض وركضت وراء الطبيب.

وأتى الطبيب فحقن إيڤان في يده وأكَّد له أنَّه لن يبكي بعد الآن، وأنَّ آلامه ستمر بسلام وسينسى كل شيء.

وبدا أنَّ الطبيب كان محقًّا في كلامه، فلم يمض وقت قصير حتى استعاد الحرج صورته الأولى، وبدت للعيان أشجاره كلّها، واستعاد زرقته السماوية السابقة وهدأ النهر، وبعد الحقنة فوراً بدأت الكآبة تفارق إيڤان، وإذا به يستلقي بطمأنينة ويتأمّل قوس قزح الضارب في السماء.

ومكث على حالته هذه حتى المساء. وحتَّى لم يلحظ كيف غاب قوس قزح، وكيف أمست السماء حزينة باهتة وكيف اسودَّ الحرج.

بعد أن شرب الحليب الساخن، استلقى إيڤان من جديد، وتعجَّب من أفكاره كيف تغيَّرت... فصورة ذلك القطّ الشيطاني اللعين لطفت ورقَّت في مخيلته. ولم يعد يخيفه التفكير في الرأس المبتور، بل وفارقته الأفكار كلّها عن ذلك الرأس، وجعل يفكِّر في أجواء العيادة، وكيف أنَّ هذه الأجواء لا بأس بها حقًّا وأنَّ ستراڤنسكي إنسان ذكي وشهرته طبقت الآفاق، وأنَّ التعرُّف إليه وإقامة علاقات صداقة معه، مسألة جدّ لطيفة فعلاً، أضف إلى ذلك أنَّ هواء المساء كان عليلاً بارداً بعد العاصفة.

وغفا بيت الكرب وانطفأت في ممرَّاته الساكنة المصابيح البيضاء المربدة، وأُنيرت بدلاً

منها، حسب النظام المتَّبع، المصابيح الزرقاء الشحيحة، ولم يعُد يُسمع إلاَّ نادراً وقع خطوات الممرِّضة الحذرة فوق الحصائر المطَّاطية في الممرّ.

استلقى إيڤان مسترخياً وراح يتأمّل تارة المصباح وهو تحت غطائه يسكب نوراً رقيقاً من مكانه في أعلى السقف، وتارة أخرى يتأمّل القمر الطالع من وراء الحوش الأسود، وبدأ إيڤان يُحدِّث نفسه بنفسه.

تساءل الشاعر: لماذا بلغ بي الاضطراب هذا المبلغ الكبير بسبب ما وقع لبرليوز؟ ليذهب إلى الجحيم، ولتأخذه القردة وتغرقه في المستنقع!. فأية قرابة تربطني به حقًّا؟ أأنا أبوه أم أخوه؟ إشبينه أم عمّه؟ وإذا ما محّصنا السؤال وقلبناه على جوانبه، تكون نتيجة التمحيص والدرس: هي أنّني لم أكن أعرف المرحوم معرفة جيِّدة.. ماذا أعلم عنه، ماذا أعرف من أخباره وأسراره غير أنّه كان أصلع الرأس، ذرب اللسان. وأكمل إيڤان حديثه موجِّهاً كلماته إلى إنسان ما: تعال يا ابن الوطن لنفسِّر هذه المسألة ونحلّلها ونوضِّحها: ما سبب تعلّقي حتى الجنون بهذا المستشار اللغز، بالبروفسور الساخر ذي العين السوداء الفارغة؟ وما الداعي لمطاردته، تلك المطاردة السخيفة في السراويل الداخلية والشمعة بين يديّ.. وتلك الحفلة «المهزلة» في الرستوران؟!...

ـ إذن إذن إذن: فجأة قال بصرامة إيڤان الأوّل القديم لإيڤان الثاني الجديد: لكنّه ألم يعلم مسبقاً بأنَّ رأس برليوز سيُبتر؟ فكيف لا يستبدّ بك القلق؟ ـ خاطب إيڤان الأوّل إيڤان الثاني بهذه الكلمات، همسها إمّا في أذنه وإمّا في داخله ـ

وردّ إيڤان الجديد على إيڤان القديم:

ـ لكن عمَّا يدور الحديث يا رفاق؟!. ـ يدور عن أنَّه ثمّة قوة شريرة؟!. مسألة واضحة حتى للطفل الرضيع. لا نقاش في أنّه كان شخصية بارزة كلّها خفايا وأسرار، وهذا ما يثير الاهتمام! انسان يعرف شخصيًّا بيلاطس البنطي... ماذا تريدون بعد أكثر من ذلك لاثارة اهتمامكم؟!.

وبدلاً من إثارة الفوضى والصراخ عند (البطريركيّة)، أما كان من الأجدى أن نسأل بتهذيب عمّا حدث بعد ذلك مع بيلاطس والناصري المعتقل؟.

وأنا بماذا انهمكت وبأي شيء انشغلت؟ الشيطان وحده يعلم؟ الحادثة هامّة فعلاً. دُهِس محرِّر إحدى المجلاَّت! وماذا؟ أستتوقَّف المجلة عن الصدور؟ ما العمل إن الانسان لا بدّ أن يموت، وأحسن القول وأصدقه: إنَّ الانسان بغتة سيموت.

حسناً ليدخله الله ملكوت السموات! فسيعقبه محرِّر آخر، قد يكون أفصح لساناً!

وبعد أن غفا إيڤان الجديد لبعض الوقت، سأل إيڤان القديم بخبث: ـ وما دوري أنا... وبالأحرى أي دور سيناط بي في كل ما يجري.

ـ يا للأحمق ـ سَمع صوت جهوري جليّ.. ما كان هذا صوت إيڤان القديم ولا الجديد، إنّما كان صوتاً شديد الشبه بصوت المستشار.

ولم تزعج كلمة «الأحمق» إيڤان، لا بل ملأته هذه الكلمة دهشة ورقّة، فابتسم لها بخبث واستسلم للنعاس.

وتسلّل الكرى إلى أجفان إيڤان، وتراءت له النخلة ذات الساق العاجي، ومرَّ أمامه القطّ، وما كان قطّاً مخيفاً بل على العكس كان مرحاً. وصفوة القول: ما كاد النوم يُدخل إيڤان إلى عالمه حتّى أخذت الشعرية تُزاح جانباً بلا أدنى ضجّة. وظهر على الشرفة خيال غامض، تخفّى فجأة متّقياً ضوء القمر وهدّد إيڤان بإصبعه.

ودون أن يساور إيڤان أدنى جزع نهض من سريره ورأى على الشرفة رجلاً.

وهمس الرجل الغريب وهو يُقرّب إصبعه من شفتيه: هسّ!.

الفصل الثاني عشر

السحر الأسود وفضحه!

إنسان ضئيل في قبّعة مثقوبة صفراء اللون، أنفه كالإجّاصة، كان يرتدي بنطلوناً رُسمت عليه ترابيع، وينتعل حذاءً لمّاعاً، ظهر على خشبة مسرح الڤاريته على درّاجة عادية بعجلتين.

رسم دائرة في الهواء على أنغام رقصة (الفوكستروت)، ومن ثمّ أطلق صرخة انتصار، شبّت الدرّاجة معها في الهواء.

وانقلب الضئيل رأساً على عقب وهو يمشي على العجلة الخلفيّة وحدها. وفي مساره احتال وفكّ العجلة الأمامية ورماها فوق الكواليس، وأكمل بعد ذلك طريقه بعجلة واحدة وهو يدير الدوّاسة بيديه.

وخرجت شقراء ممتلئة الجسم ترتدي التريكو والتنورة المطرّزة بالأنجم الفضيّة، خرجت معتلية درّاجة بعجلة واحدة، وانطلقت من فوق صارية معدنية عالية ثُبّت على رأسها مقعد وراحت تدور مُتّبعة الدائرة التي رسمها الرجل الضئيل، وما أن التقته حتى أطلق هتافات بالتحية ونزع برجله قبّعته عن رأسه.

وأخيراً اندسّ صبيّ صغير في الثامنة من عمره، وجهه وجه هرم، وتعلّق ما بين الكبيرين، أي ما بين الرجل والمرأة. تعلّق وهو يعتلي درّاجة صغيرة بعجلتين. غير أنّها مزوّدة ببوق هائل كأبواق السيّارات.

وبعد أن حلّقت المجموعة راسمة عدّة إنشوطات على ضربات الطبل القلقة جعلت تقترب حتى الطرف القصيّ في المسرح، وفغر النظّارة في الصفوف الأولى أفواههم واستلقوا على ظهورهم تعجّباً. لقد خُيّل لجمهور المشاهدين أنّ الترويكا بكامل آلاتها ستسقط فوق الأوركسترا.

وفي اللحظة نفسها التي بدا فيها أنّ العجلات الأمامية ستسقط فوق رؤوس العازفين، توقّفت الدرّاجات جامدة ونزل سائقوها وهم يصيحون عالياً: آپ.. ★ آپ.. وانحنوا، وأرسلت الشقراء قبلاتها للجمهور في الهواء، أمّا الصبي الصغير فقد بوّق بمزماره مفتعلاً

(★) كلمة انكليزية تعني: فوق.

إشارة مضحكة. وهزَّ التصفيق المبنى، وأُزيحت الستارة السماوية اللون من الجهتين، وحجبت السائقين، وانطفأت عند الأبواب النيران الخضر المكتوب عليها كلمة «المخرج».

وأضاءت أنوار الكرات البيضاء كالشمس عنكبوت المعيّنات تحت القبّة، وحانت فترة استراحة سبقت القسم الأخير من العرض.

غريغوري دانيلوڤيتش ريمسكي: كان الشخص الوحيد الذي لم تثر اهتمامه خوارق وتقنية الدرّاجات العالية التي أجادتها عائلة (جول).

كان يجلس في مكتبه في وحدة كاملة، يعضّ على شفتيه الدقيقتين وكان متشنّج الوجه، والقلق يلوح على وجهه. لقد أُضيف إلى همّ اختفاء ليخدييف الغريب المريب همّ آخر، همّ اختفاء ڤارنوخاالمباغت... همّ على همّ وضغث على إبّالة..

لقد كان ريمسكي يعلم حقّ المعرفة إلى أين ذهب المدير... دون أن يعود. فهزَّ كتفيه وهمس في نفسه: ماذا جنى؟!..

وحقًّا إنَّ الأمر لغريب، فقد كان يتوجَّب على رجل عملي كالمدير المالي أن يتلفن إلى هناك، إلى حيث توجَّه ڤارنوخا، وأن يعلم بالذي جدّ. هذا ما توجَّب عليه أن يعمله، لكنَّه وحتَّى الساعة العاشرة مساءً ما كان قادراً على أن يجبر نفسه على عمل كهذا. وفي العاشرة مُكرهاً نفسه ممارساً عليها ضغطاً فعليًّا، رفع ريمسكي السمَّاعة، فوجد أنَّ هاتفه معطَّل، وأبلغه العامل هناك أنَّ بقية الأجهزة في المبنى معطَّلة أيضاً.

هذه الحالة المزعجة حقًّا والتي لم تكن نتيجة قوّة خارقة هزَّت المدير وأقلقت راحته، دون أن يعرف سبب ذلك. وفي الوقت نفسه أدخلت الفرح إلى قلبه لأنَّه لم يعد ثمّة ضرورة للاتصال الهاتفي.

أثناء الوقت الذي ومض فيه المصباح الأحمر وأضاء فوق رأس المسؤول المالي معلناً عن بدء المشهد الجديد، دخل العامل وأبلغ المدير عن وصول الفنَّان الأجنبي.

وساءت حالة المسؤول المالي، وأصبح لون وجهه أكثر شحوباً وأشدّ اكمداداً من لون السحابة. وتوجَّه إلى الكواليس ليستقبل الفنَّان الضيف، لأنَّه لم يكن ثمّة أحداً غيره يقوم بهذه المهمة.

وكان الحشريون محبُّو الاستطلاع يتأمَّلون من الممرّ، حيث كانت أجراس الاشارات ترنّ، ويسترقون النظر إلى غرفة الزينة الكبيرة. اجتمع في الغرفة، الحواة والمشعوذون في مباذلهم الزاهية الألوان وعمائمهم، ومعهم الرياضي - أحد أبطال رياضة التزحلق على الجليد - في سترته البيضاء، والحكواتي الشاحب الوجه بفعل البودرة، وواضع الماكياج.

وأدهشت الشخصية القادمة الجميع بالفراك الطويل، والذي لا مثيل له لطوله، وببطانته البديعة؛ وبظهورها بالقناع النصفي الأسود اللون. لكن الغرابة والعجب كانا في مرافقي

الساحر الأسود. ذلك الطويل في لباسه ذي الترابيع والعدسة المتصدِّعة، وذاك القط الأسود السمين، الذي دخل غرفة الزينة على قائمتيه الخلفيّتين، وبمنتهى العفوية جلس على الديوان، وراح يزرّ عينيه وهو ينظر إلى المصابيح العارية «الممكيجة».

حاول ريمسكي جاهداً أن يرسم ابتسامة على وجهه، لكن محاولته باءت بالفشل، وأتت ابتسامته فجّة حامضة؛ ووجّه التحية إلى الساحر الصامت الجالس على الديوان بالقرب من القط. لم يكن ثمّة شدّ على الأيدي. غير أنَّ الرجل الوقح ذا الترابيع قدَّم نفسه للمدير المالي بأنَّه مساعدهم. ووجد المدير المالي نفسه محرجاً، ومن جديد انزعج واستاء، ففي العقد لم يذكر هذا المساعد حتى بكلمة واحدة.

واستفسر غريغوري دانيلوڤيتش بتكلّف وجفاء من ذي الترابيع، الواقف بمحاذاة رأسه، عن أجهزة الفنَّان.

وأجاب مساعد الساحر بصوت متهدِّج:

ألماسنا السماوي، وأعزّ أعزّائنا السيِّد المدير!، أجهزتنا حاضرة دائماً معنا... ها هي! أين، تسفي، دراي*!.. وأدار أصابعه المعقَّدة أمام عيني ريمسكي، وأخرج فجأة من وراء أذني القط ساعة ريمسكي الذهبيّة بسلسلتها، الساعة ذاتها التي كانت قبل هذا الوقت في جيب صدار المدير المالي تحت السترة المزرَّرة، ومربوطة بالعروة بالسلسلة.

وقام ريمسكي بحركة عفوية فأمسك بطنه، وفغر الحاضرون أفواههم تعجُّباً، وتنحنح واضع الماكياج المتأمِّل من ثقب الباب مستحسناً وقال ذو الترابيع وهو يبتسم بوقاحة:

- ساعتكم؟ أرجوكم حذوها. - قال هذا وقدَّم على راحة يده المتَّسخة الساعة، وأعطاها لريمسكي المتضعضع.

وهمس الحكواتي لواضع الماكياج بهدوء وفرح: لا تركب الترام مع هذا الشخص.

غير أنَّ الهرّ بدوره أتى فصلاً أين منه فصل الساعة الغريبة، فقد نهض فوق الديوان فجأة، وسعى على قائمتيه الخلفيتين نحو منضدة تحت المرآة. وبقائمته الأمامية سحب فلّينة دورق، وصبّ الماء في الكأس، وأرجع الفلّينة إلى مكانها، ومسح شاربيه بخرقة مطلية بالماكياج.

وهنا بلغت دهشة الحاضرين ذروتها، لم يطلقوا صيحات وآهات الاعجاب... فغروا الأفواه، وهمس واضع الماكياج مبدياً اعجابه:

- أي يا للمجموعة العجيبة!..

ورنَّت الأجراس قلقة للمرة الثالثة، وتدفَّق من الغرفة إلى الخارج سيل المنفعلين الذوَّاقة

(*) بالالمانية: واحد، اثنان، ثلاثة.

الذين أثارت «النمرة» اهتمامهم.

وانطفأت بعد دقيقة في قاعة الحفلات كرات الضوء. وومضت الرامبا ناشرة بصيصاً من النور الأحمر حتى أسفل الستارة. ومن أمام فجوة مضاءة في الستارة مثل أمام الجمهور شخص ممتلىء مرحاً كالصبي الصغير، حليق، يرتدي فراكاً مكرمشاً، وبياضات قديمة.

إنّ مدينة موسكو بأكملها تعرف هذا الشخص الماثل أمام الجمهور الآن، إنّه عريف الحفلات الشهير جورج بنغالسكي.

وقال بنغالسكي وقد ارتسمت على مخايله ابتسامة طفولية: وهكذا أيها المواطنون سيقدّم... أمامكم حفلاته. وهنا قاطع بنغالسكي نفسه وأكمل بنبرة مختلفة عن النبرة التي بدأ بها: ها إنّني أرى أنَّ عدد المشاهدين في ازدياد وقد قدموا ليروا ما سيعرض في القسم الثالث. عندنا الآن نصف المدينة! التقيت مصادفة، منذ أيام، صديقاً لي وقلت له: لماذا لا تأتي إلينا! البارحة كان نصف المدينة عندنا!.

وإذا به يجيبني: إنَّني أعيش في النصف الثاني!.

وهنا صمت بنغالسكي وقتاً قصيراً، صمت منتظراً انفجار الضحك الذي ستثيره نكتته، لكن بما أنَّ أحداً لم يضحك، أردف: وهكذا سيقدِّم الفنَّان الأجنبي، صاحب الشهرة العالمية موسيو ڤولند حفلاته، التي تبتديء بمشهد من السحر الأسود!. غير أنَّنا نفهم وإيّاكم حقَّ الفهم ونعرف معرفة جيِّدة، أن لا وجود للسحر في العالم، - وارتسمت على وجه بنغالسكي ابتسامة حكيمة وأكمل - إنَّ السحر ما هو إلاَّ خرافة، وما المايسترو ڤولند غير فنَّان أتقن فنّ ألعاب الخفّة والشعوذة، وهذا ما سيظهر في القسم الأكثر إثارة للاهتمام في الحفلة، أي في مشهد فضح الألعاب هذه، وبما أنَّنا جميعاً، كشخص واحد، نتحرَّق لرؤية الألعاب السحرية وكشف أسرارها وفضح خفاياها فنقول: تفضَّل تفضَّل يا سيِّد ڤولند!.

وما أن أنهى بنغالسكي خطبته الجوفاء، حتى شبك راحتي يديه ولوَّح بهما محيِّياً من فجوة الستارة، وأحدثت الستارة على أثر ذلك ضجّة خفيفة وانفرجت.

ظهور الساحر ومعه مساعده الطويل والقطّ وهو يقف على قائمتيه الخلفيتين على خشبة المسرح، نال إعجاب الجمهور. - مقعداً لي - أمر ڤولند بصوت خافت - وفي اللحظة ذاتها دون أن يعرف من أين وكيف - ظهر مقعد على الخشبة، وجلس عليه الساحر.

- قل لي يا عزيزي فاغوت، ماذا ترى؟

أيكون أبناء موسكو قد تغيَّروا كثيراً؟ - استفسر ڤولند من مهرِّجه ذي الترابيع، والذي على ما يبدو كان يحمل اسماً آخر غير اسم كارڤيوف.

ونظر الساحر إلى الجمهور الحابس أنفاسه، المصعوق من ظهور المقعد في الهواء.

وأجاب فاغوت ـ كارڤيوڤ بصوت خفيض:

ـ هو ما قلت يا سيِّد.

ـ إنَّك على حقّ. لقد تغيَّر المواطنون كثيراً، لكن هذا التغيير سطحي، صفوة القول كالتغيير الذي طرأ على المدينة. لا داعي للحديث عن البذلات... إنَّما ظهرت هذه التي لا أدري ما تُسمَّى: الترامويات.. والسيَّارات.

ـ والأوتوبيسات ـ هتف فاغوت بإجلال.

وأصغى الجمهور إلى هذا الحديث بانتباه، ظانًّا أنَّ هذا الحديث ما هو إلاَّ بمثابة مقدّمة للألعاب السحرية. امتلأت الكواليس بحشد الفنَّانين والعمَّال، وبين هذه الوجوه المحتشدة كنت ترى وجه ريمسكي الشاحب المجهد المتوتِّر.

بدأت تظهر على هيئة بنغالسكي المختفي جانباً علامات الحيرة. ورفع حاجبه قليلاً وقال مستغلاً فترة الصمت:

ـ الفنَّان الأجنبي يبدي اعجابه بموسكو، موسكو التي تطوَّرت تقنيًّا، وكذلك يبدي اعجابه بالموسكوبيين. قال بنغالسكي هذا وابتسم مرتين، ابتسم للجالسين في الصالة ولأولئك الذين جلسوا في الشرفة.

والتفت ڤولند وفاغوت والقطّ، أداروا رؤوسهم جميعاً ناظرين إلى عريف الحفلة.

وسأل الساحر معاونه فاغوت:

ـ أأكون قد أبديت اعجابي؟.

أجاب ذاك:

ـ أبداً يا سيِّد، إنَّك لم تبدِ اعجابك مطلقاً.

ـ وبماذا يتفوَّه هذا الانسان؟

ـ بكل بساطة يكذب ـ أعلنها المساعد ذو الترابيع بصوت مسموع في كلّ نواحي المسرح، وأضاف موجِّهاً كلماته إلى بنغالسكي:

ـ أهنِّئك أيها المواطن الكاذب.

وانفجرت الشرفة بضحك الاستهزاء، وارتعد بنغالسكي وجحظت عيناه.

ـ أمَّا أنا فلا تهمّني مطلقاً الأوتوبيسات والتلفونات وما شابه ذلك من...

ـ تجهيزات! ـ وتابع المساعد قائلاً:

ـ صحيح، صحيح، ـ أشكر لك ـ قال الساحر على مهل وبصوت أجشّ غليظ، وأكمل: إنَّما يهمني أيكون قد تغيَّر هؤلاء المواطنون من الداخل؟

ـ إنَّه سؤال من الأهمية بمكان يا سيِّد.

وبدأوا يسترقون النظرات من الكواليس ويهزّون أكتافهم، أمَّا بنغالسكي فكان يقف

وقد استحال لون وجهه أحمر، أمَّا ريمسكي فكان شاحب اللون. وقال الساحر وكأنَّه أدرك جوّ القلق الذي بدأ يرتسم على الوجوه:

ـ ولكنَّنا تكلَّمنا بما فيه الكفاية يا عزيزي فاغوت وبدأ الناس يعانون الملل. أرنا في البداية شيئاً ما بسيطاً.

وتنفَّست القاعة الصعداء مرتاحة وتململت، وتفرَّق فاغوت والقطّ كلٌّ إلى جهة، وطقطق فاغوت بأصابعه وصرخ مجازفاً:

ـ ثلاثة، أربعة، وقبض في الهواء على ورق لعب، خلطه، ورماه للقطّ ورقة فورقة راسماً شريطاً في الهواء.

التقط القطّ الورق وردّه من حيث أتى. وتململت أفعى من الأطلس وفغر فاغوت فاه كالزغلول وابتلع الورق بأكمله ورقة فورقة.

وانحنى القطّ بعد هذا، وخفق بقائمته الخلفية اليمنى فأثار ضحكاً لا مثيل له.

وهتف الجميع بإعجاب من وراء الكواليس: يا له من عمل عظيم! عمل عظيم!

وأشار فاغوت بإصبعه إلى الصالة وأعلن:

ـ أيها المواطنون المحترمون ورق اللعب الآن موجود في الصفّ السابع مع المواطن پارتشفسكي، بين ورقة نقدية من فئة الثلاث روبلات وبين ورقة جلب إلى المحكمة بشأن قضية نفقة للمواطنة زلكوڤا.

وارتفع لغط وحدثت جلبة وحركة في الصالة وبدأ الناس ينهضون من أماكنهم، وأخيراً وقف مواطن يدعى فعلاً بارتشفسكي، تحوَّل لون وجهه إلى القرمزي من الدهشة، وأخرج ورق اللعب من بين أوراقه وأخذ يلوح به في الهواء دون أن يعلم ماذا يفعل به.

وهتف فاغوت:

ـ احتفظ به للذكرى! ليس من قبيل الصدفة حديثك مساء البارحة، بعد طعام العشاء، أنَّه إذا لم تلعب البوكر فعيشتك في موسكو ستكون ضنكة.

وسُمع صوت من الشرفة يقول:

ـ لم يأتوا بجديد، فصاحبنا الجالس في الصالة هو أحد أفراد المجموعة.

ـ أتظنّ ذلك؟ ـ صاح فاغوت وهو يزرّ عينيه متأمِّلاً الشرفة ـ إذا كان الأمر كذلك فأنت أيضاً أحد أفراد عصابتنا لأنَّ ورق اللعب في جيبك الآن!

وحدثت جلبة وحركة في الشرفة، وسُمع صوت ممزوج بالفرح يقول: صحيح! معه! هنا، هنا، قف! ماذا أوراق نقدية!..

وأدار الجالسون في الصالة رؤوسهم. مواطن مرتبك جالس على الشرفة وجد في جيبه رزمة مربوطة، كما تُربط الرزم في البنوك، وكتب على غلافها الخارجي «ألف روبل».

وتدفّق الجيران عليه، فنكش الغلاف بظفره، محاولاً التأكّد إذا ما كانت الأوراق النقدية صحيحة أم هي مسحورة.

ـ وحقّ الربّ إنّها أوراق نقد حقيقية!. صرخوا من على الشرفة بمرح.

ـ العبوا معي أيضاً بمثل هذا الورق! ـ التمس رجل سمين بسرور كان يجلس في الصالة.

ـ أقك پلزير! ـ ردّ فاغوت. لكن لماذا نلعب معك وحدك والكل يشاركنا بحماس، وأمر:

أرجوكم أن تنظروا إلى فوق! واحد، ـ وظهر في يده مسدّس ـ وهتف: اثنان!... واندار المسدّس إلى أعلى ـ وهتف: ثلاثة، وبرقت ودوت وفي الحال تساقطت في القاعة الأوراق البيضاء. بدأت تتساقط من تحت القبّة سابحة بين الأفاريز.

وتطايرت الأوراق وتناثرت في أنحاء المسرح، ملأت الشرفة وتساقطت فوق الأوركسترا، وعلى الخشبة. وبعد عدّة ثوانٍ كثف وابل النقود حتى بلغ المقاعد، فأخذ النظّارة يلمّون الأوراق النقدية. وارتفعت مئات الأيدي، ونظر الحاضرون عبر الأوراق إلى خشبة المسرح المضاءة وتأكّدوا في النور من صحّة الأوراق وصلاحها، بدّدت رائحة الأوراق كل شكوكهم، انبعثت منها رائحة زكيّة لا تضاهيها بطيبها إلاّ رائحة الأوراق المجلوبة لتوّها من المطبعة. وغمر السرور المشاهدين جميعاً ومع السرور الدهشة.

ودوت كلمات: «أوراق مالية، أوراق ماليّة»، في كل مكان. وسُمعت صرخات وآهات، آه، آه!.. وضحك ومرح، وثمّة من زحف في الممشى وهو يخفق تحت المقاعد، ووقف كثيرون على المقاعد وهم يلتقطون الأوراق المتطايرة المتعجرفة.

وما لبثت أن بدأت تظهر إمارات الحيرة على وجوه أفراد الشرطة، وبدأ الفنّانون يخرجون رؤوسهم من الكواليس بدون تكلّف. وسمع صوت في الطابق الأوّل يقول: «ومالك أنت تزاحمني؟ إنّها لي، طارت نحوي!».

وصوت آخر قال: «لا تدفعني وإلاّ دفعتك!». وفجأة سمع صدى سقطة. ولمعت خوذة الشرطي، أخرج أحدهم من الطابق الأوّل.

وعلا اللغط وازداد الهيجان، ولم يعرف أحد بما كان سيسفر عنه الحادث لولا أن تدخّل فاغوت وأوقف انهار وابل الأوراق المالية، وذلك بأن نفخ فجأة في الهواء.

وتبادل شابان النظرات الدالّة الفرحة، نهضا من أمكنتهما، وتوجّها إلى المقصف مباشرة. وحدث في المسرح هرج، ولمعت عيون المشاهدين ثائرة؛ هذا ما حدث، ولم يُعرف بِمَ كان سينتهي هذا الهيجان، لو لم يجد بنغالسكي القوة الكافية ليتحرّك، نهض وهو يحاول أن يتمالك نفسه باذلاً المزيد من الجهد، وحسب عادة تعوّدها مسح يديه وبصوت مرتفع جدّاً هتف:

ـ أيها المواطنون! ، لقد رأينا معكم ماَ يُعرف بالتنويم المغناطيسي الجماعي. تجربة علمية صرفة. وخير برهان داحض على أنَّ ليس ثمة معجزات وأن لا وجود لما يسمَّى السحر، نطلب من المايسترو ڤولند الكشف عن أسرار هذه التجربة. والآن سترون أيها المواطنون أنَّ هذه الأوراق المحسوبة نقدية ما هي غير أوراق عادية وستختفي، كما ظهرت فجأة.

قال بنغالسكي كلماته هذه وصفَّق، لكنَّه صفَّق وحيداً، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة الثقة بالنفس، غير أنَّه لم يُرَ لمعان نور تلك الثقة وومضاتها في عينيه. إنَّما رشحت تلك العينان بالرجاء والتوسُّل والتضرُّع.

حديث بنغالسكي لم يعجب الجمهور. ساد صمت شامل، سرعان ما قطعه فاغوت ذو الترابيع بصوت عالٍ كصوت التيس:

ـ ومن جديد يكذب، فالأوراق صحيحة أيها المواطنون!.

ـ براڤو! عظيم ـ زأر صوت عميق متقطِّع، سمع من مكان عالٍ.

ـ الكلام بيننا، لقد أزعجني، ونكَّد عليَّ عيشي ـ قال فاغوت وهو يعني بنغالسكي ـ يحشر نفسه ويدسّ أنفه دون أن يسأله أحد، أفسد المشهد بملاحظاته الكاذبة! ماذا ينبغي علينا أن نفعل به؟

وردَّ أحدهم بحزم من على الشرفة:

ـ ابتروا رأسه!

وردَّ فاغوت في الحال على هذه الدعوة الفظيعة:

ـ كيف؟ بماذا تفوَّهت؟ إيه؟ بتر رأسه؟ فكرة والله! ـ وصرخ منادياً القطّ: بغموت! نفِّذ! أين، تسفي دري* !!.. وحدث ما لا يتصوَّره عقل، وقف وبر القطّ الأسود ومَاءَ مُواءً يبعث القلق في النفوس ويمزِّق نياط القلوب. وتكوَّم على نفسه بعد ذلك زامًّا، وانقضَّ كالفهد على صدر بنغالسكي، ومن الصدر وثب على الرأس. وبقائمتيه المنفوختين تشبَّث بشعر رأس العريف الخفيف وأخذ يهرّ هريراً ويطلق زعقات موحشة مخيفة، ودار بالعريف دورتين، قَلَع بعدها الرأس مع الرقبة وفصلها عن الجسد.

وصرخ النظَّارة صرخة واحدة، وكان عددهم ألفين وخمسمئة شخص، وانبجست ينابيع الدم من الشرايين المقطوعة عند الرقبة، وغطَّت الياقة والصدار.

وكوّم الجسد المبتور الرأس، رجليه بشكل لا يتصوّره عقل وجلس على الأرض. وسُمعت في القاعة أصوات نسائية هستيرية وصرخات.

وسلَّم القطّ الرأس إلى فاغوت، الذي أمسك بدوره الرأس بشعره ورفعه عارضاً على

(*) بالالمانية: واحد، اثنان، ثلاثة.

المشاهدين، وكان الرأس يطلق صرخات يائسة في أرجاء المسرح:

- ليأتِ الأطبَّاء... الأطبَّاء...

وسأل فاغوت الرأس الباكي مهدِّداً:

- أستبقى على ما أنت عليه وتستمرّ في تبجّحك وادّعائك؟

- لا تعذّبوه، أستحلفكم بالربّ. فجأة دوى صوت امرأة من إحدى الشرفات وطغى على الضجّة.

وأدار الساحر وجهه إلى جهة الصوت.

وسأل فاغوت مخاطباً الجمهور في القاعة:

- ما رأيكم أيها المواطنون؟ أنصفح عنه؟.

- سامحه! سامحه!، تعالت هتافات النساء، منفردة مميَّزة في البدء، وبعد ذلك امتزجت بأصوات الرجال مؤلِّفة جوقة واحدة.

- بماذا تأمر يا سيِّد؟ سأل فاغوت الرجل المقنَّع.

- حسناً - ردّ ذاك وهو مستغرق في أفكاره - الناس هم الناس، يحبُّون المال حُبًّا جمًّا وهذا منذ قديم الأزمان. نعم منذ القديم والانسانية تحبّ المال، لا يهمها المادة التي صنع منها... أصنع من الجلود أو من الورق، من البرونز أو من الذهب لا يهم. إنَّهم ناقصو العقول. حسناً. لكن الرحمة أحياناً تعرف طريقاً إلى قلوبهم. أناس عاديون يذكّرون بالأوّلين، أفسدهم موضوع الشقق السكنيّة. قال هذا وأمر بصوت عالٍ:

- ضعوا الرأس في مكانه!

وأمال القطّ الرأس المبتور فوق الرقبة، أماله وهو يسدِّد باتقان، فركز في مكانه تماماً كأنّه لم يفصل عن الجسد لحظة واحدة. والأهم أنَّه لم يبق أثر لندبة أو لجرح على الرقبة، ومسح القطّ بقوائمه فراك بنغالسكي فانمحت آثار الدماء عنه وكأنَّ شيئاً لم يكن. لا بل ودسَّ له في جيبه رزمة من الأوراق النقدية وأبعده عن خشبة المسرح وهو يخاطبه بهذه الكلمات:

- إدرج! غير مرغوب فيك، والفرحة بدونك أكمل.

فرح العريف وهو يلقي النظرات التائهة من حوله ويتعثَّر في مشيته، وما أن بلغ مكان الإطفاء حتى ساءت حالته وصرخ شاكياً:

- رأسي! الرأس! الرأس!.

وهرول ريمسكي في عداد الآخرين نحوه. وبكى العريف وكان يقبض بيديه على الهواء ويهمهم:

- ردّوا إليَّ رأسي! ردّوا الرأس! خذوا الشقّة خذوا اللوحات! ردّوا إليَّ الرأس فقط!.

وركض عامل المسرح يستدعي الطبيب، وحاولوا أن يرقدوه على الديوان في غرفة الثياب، لكنَّه أخذ يشاكسهم ويبعدهم عنه بيديه، واهتاج وثار، فاضطروا للإرسال وراء عربة. وحينما نقلوا العريف البائس، ركض ريمسكي نحو الخشبة فرأى أنَّ معجزات جديدة تجترح فوقها. ومما يجدر ذكره، أنَّه في هذا الوقت، أو قبله بقليل، توارى الساحر عن الخشبة وتوارى معه مقعده الباهت، ويجب القول هنا إنَّ المشاهدين لم يلحظوا مطلقاً هذا الاختفاء. وكان الجمهور مشغولاً بالأعمال الخارقة التي كان يقوم بها فاغوت على خشبة المسرح.

فاغوت وقد طرد العريف المعذَّب أعلن للجمهور ما يلي:

ـ والآن وبعد أن تخلَّصنا من هذا النكد، تعالوا لنفتتح مخزناً للسيِّدات!.

وفي الحال غطَّى السجاد الفارسي أرض المسرح، وظهرت مرايا كبيرة هائلة، أضاءت جنباتها قصبات خضراء. واصطفَّت واجهات العرض، ورأى النظَّارة في هذه الواجهات الفساتين الباريسية النسائية المختلفة الألوان والموض. شاهدوا هذا وقد بلغت بهم الفرحة الصاعقة مبلغاً كبيراً. ورأوا في واجهات أخرى مئات القبّعات النسائية مع وبدون ريش، مع وبدون أزرار، ومئات الأحذية السود والبيض والصفر، أحذية جلدية وأطلسيّة وأحذية أخرى مصنوعة من جلد «الشموا»، أحذية بسيور قصيرة، وأنواع بساق. وظهرت بين الأحذية أغلفة من الجلد، وداخل هذه المغلَّفات الجلدية تألَّقت أضلاع زجاجات الكريستال بالأضواء. تراكمت جبال من الحقائب المصنوعة من جلود الغزلان، ومن «الشموا» ومن الحرير. وبين هذه الحقائب أصناف من البيوت الجلدية الصغيرة المستطيلة والموشَّاة بالذهب تحتوي على أحمر الشفاه.

عذراء شقراء بكامل زينتها المسائية، الشيطان يعلم من أين أتت، جميلة كاملة الأوصاف لولا ندبة شوَّهت الخدّ البديع، وقفت أمام الواجهة، وارتسمت على وجهها ابتسامة كتلك التي يعرف بها أرباب العمل.

وأعلن فاغوت وهو يبتسم ببشاشة أنَّ الشركة تبدِّل مجّاناً فساتين السيِّدات العتيقة والأحذية بفساتين وأحذية باريسية، وقال نفس الكلام عن الحقائب والعطور وغيرها.

وشرع القطّ يخفق بقائمته الخلفية أمَّا بقوائمه الأمامية فقد قام بحركات البوَّابين.

ومع أنَّ الفتاة العذراء كانت أجشّة الصوت، لكنَّها لاثغة غنَّت غناءً عذباً، ولم تُفهم كل كلمات الأغنية، لكن من الوجوه النسائية في الصالة يمكننا القول إنَّها أغنية غاوية:

ـ هرملين، شانيل نمرة خمسة، ميتسوكو، نرسيس نوار، فساتين مسائية، فساتين متنوِّعة.

وتلوَّى فاغوت، وألقى الهرّ تحيّة، أمَّا الفتاة فقد فتحت الواجهات الزجاجية.

وصاح فاغوت:

ـ تفضّلوا بلا خجل ومجاملات!.

وماج الجمهور واضطرب، لكنّ أحداً منهم لم يقرّر أن يقترب من خشبة المسرح، وأخيراً تجرّأت فتاة سمراء، سوداء الشعر، خرجت من الصف العاشر في الصالة، وعلى فمها ارتسمت ابتسامة اللامبالاة، دليل أنّها غير آبهة ولا مهتمّة، وصعدت على سلّم جانبي إلى الخشبة.

وهتف فاغوت:

ـ عظيم! تحيّتي لك، لأنّك أوّل زائرة. يا بغموت هات مقعداً، لنبدأ بالأحذية يا مدام.

وجلست السمراء صاحبة الشعر الأسود في المقعد، وفي الحال أفرغ فاغوت أمامها على السجّادة كومة كبيرة من الأحذية.

وخلعت الفتاة فردة الحذاء اليمنى وقاست فردة بنفسجيّة اللون، وداست بقدمها السجّادة، وتفحّصت الكعب، وسألت مشغولة البال:

ـ ألن تكون ضيّقة على قدمي.

وصاح فاغوت بغضب:

ـ لا. لا تفكّري بهذا أبداً.

وماء الهرّ احتجاجاً على الإساءة.

وقالت السمراء باعتزاز وهي تنتعل فردة الحذاء الثانية:

ـ مسيو سآخذ هذا الزوج.

أمّا الحذاء القديم فقد رُمي وراء الستارة، ثم تبعته السمراء بنفسها يرافقها فتاة شقراء وفاغوت الذي كان يحمل على أكتافه بضعة فساتين متنوّعة الموض. وتململ القطّ وليمنح نفسه مزيداً من الأهمية وضع على رقبته متراً من القماش. وبعد دقيقة خرجت السمراء من وراء الستارة وهي ترتدي فستاناً أخرج التنهدات والآهات من صدور المشاهدين الجالسين في الصالة.

المرأة الجريئة وقد زفلت بثوب الجمال الساحر المدهش وقفت أمام المرآة، حرّكت كتفيها، ولمست شعر قذالها بيدها، وتثنّت محاولة أن ترى كيف تبدو من الوراء.

ـ تطلب الشركة منكِ أن تقبلي هذا للذكرى. قال فاغوت هذا وأعطى السمراء جزداناً مفتوحاً من الجلد يحتوي على زجاجة عطر.

ـ مرسي ـ أجابت السمراء بكبرياء ونزلت على السلّم متوجّهة إلى الصالة. وبينما هي في طريقها وثب المشاهدون من أمكنتهم ولمسوا بأيديهم الجزدان الجلدي. وطغى السيل البشري وتسابق الناس مندفعين إلى الصالة من جميع الجهات.

وسط الأصوات المهتاجة والضحكات والتنهّدات سمع صوت رجل يقول: «لا أسمح لك»، وصوت امرأة يُعلن: «أيها الغبي الظالم لا تكسر يدي!». واختفت النساء وراء الستارة، تركن هناك فساتينهنّ القديمة وخرجن بفساتين جديدة. وعلى مقاعد مذهَّبة الأرجل، جلس صفّ كامل من السيِّدات ورحن يضربن السجّاد بعزم بأقدام منتعلة أحذية جديدة.

وركع فاغوت على قدميه: انهمك بجمع الأحذية الجلدية القديمة، وناء القطّ بالأحمال الثقيلة من الأحذية والجزادين، كان ينقلها من الواجهات الزجاجية إلى المقاعد وبالعكس. أمّا الفتاة صاحبة العنق المشوّه فكانت تبدو تارة وتارة تختفي. وذهبت أبعد من ذلك، إذ أنّها أخذت تدردش بالفرنسية، والذي يثير التعجّب أنّ النساء كنّ يفهمنها فور نطقها بالكلمة الأولى، حتى النسوة اللواتي ما عرفن في حياتهنّ كلمة فرنسية واحدة، فهمن دردشتها. وأثار رجل طفيلي بظهوره على خشبة المسرح دهشة الحاضرين جميعاً، إذ أعلن أنّ زوجته مصابة بالأنفلونزا، وطلب أن تُرسل لها هدية ما بواسطته. وليبرهن على أنّه متزوّج أراد أن يريهم جواز سفره.

واستقبل طلب الرجل بالقهقهة، وصاح فاغوت مؤكّداً بأنّه يثق بكلامه كثقته بنفسه ولا داعي لابراز جواز السفر. وأعطاه زوجي جوارب حريرية، أمّا الهرّ فقد أهداه جزداناً يحتوي على أحمر الشفاه.

واهتاجت النسوة المتأخّرات وأرغين وأزبدن، واندفع سيل السعيدات منهن على الخشبة وهنَّ يرفلن في فساتين الحفلات والبيجامات المزدانة برسوم تنانين، وفي بذلات الزيارات والقبعات المائلة فوق الجبين وأعلن فاغوت: بما أنّنا الآن في ساعة متأخرة فسيغلق المحل أبوابه بعد دقيقة واحدة وحتى مساء الغد. وما أن تلفَّظ بكلماته حتى علت ضجة وضوضاء كبيرين لا مثيل لهما.

وتخاطفت النساء الأحذية دون تجريب، واقتحمت إحداهنَّ المكان وراء الستارة كالعاصفة الهبوب، ورمت هناك بذلتها القديمة وخطفت أوّل بذلة وقعت يدها عليها، بذلة حريرية بباقات ورد كبيرة على الصدر، وأخذت كذلك مبذلاً، إضافة إلى كل ذلك فقد أفلحت بأخذ قنينتي عطر. وبعد دقيقة واحدة بالضبط دوت طلقة رصاص من مسدّس، واختفت المرايا وانهارت الواجهات، وذابت السجّادة في الهواء ذوباناً، وكذلك الستار وما وراء الستار. واختفى أخيراً جبل الملابس والأحذية القديمة، أجل اختفى ذلك الجبل الشاهق، واستعادت خشبة المسرح صورتها الأولى الصارمة الفارغة العارية.

وتدخَّل في القضية وجه جديد.. أو قل فعالية جديدة. صوت جهوري لطيف رنّان ألحَّ في السؤال، سُمع من الشرفة الثانية يقول:

ـ أيها المواطن الفنَّان، من الأفضل ومن المرغوب به، بأن تقوم ودون ابطاء وتكشف أمام المشاهدين تقنيّة ألعابك وأسرارها، وخاصة لعبة الأوراق المالية، ومن الأفضل أيضاً أن تُعيد إلى الخشبة عريف الحفلة فمصيره يقلق المشاهدين.

لم يكن هذا الصوت الجهوريّ سوى صوت ضيف الشرف في أمسية اليوم أركادي أپوللونوڤيتش سيمپلياروف، رئيس اللجنة السمعية في المسارح الموسكوبية.

جلس أركادي أپوللونوڤيتش في الشرفة مع سيِّدتين، السيِّدة الأولى متقدِّمة في السن ترتدي الغالي من الثياب وتلبس على الموضة، أمَّا الثانية فكانت في مقتبل العمر حلوة ارتدت من الثياب أبسطها.

السيِّدة الأولى كما تبيَّن بعد قليل وحين تمَّ التعارف كانت زوجة أركادي أپوللونوڤيتش، أمَّا السيِّدة الثانية فكانت قريبة تربطها به أواصر القرابة البعيدة، ممثِّلة مبتدئة، وآمال كثيرة معقودة عليها، قادمة من ساراتوف وتشارك أركادي أپوللونوڤيتش السكن مع زوجته في نفس الشقّة.

وردَّ فاغوت على أركادي أپوللونوڤيتش:

ـ پاردون!. أعتذر، ليس ثمّة ألعاب لتفضح وتحتاج إلى تفسير.

ـ عفوك! فضح الألعاب ضروري. فإذا لم تكشف عن أسرار ألعابك البديعة وتفضحها فستُبقي أثراً أليماً في النفوس، وجمهور المشاهدين يطلب شروحات وتفسيراً.

وقاطع المهرِّج الوقح سيمپلياروف بقوله:

ـ جمهور المشاهدين لم يعلن أنَّه يريد شيئاً!، لكنَّني آخذ بعين الاعتبار رغبتك التي أكنّ لها أعمق الاحترام، فها إنّي يا أركادي أپوللونوڤيتش سأبدأ بالقيام بفضح الألعاب، لكن من أجل ذلك هلاَّ سمحت لي بأن أقوم بلعبة صغيرة جداً؟

ـ ولماذا لا أسمح لك؟ ـ أجاب أركادي أپوللونوڤيتش بلهجة حارَّة صادقة، لكن ما أطلبه هو أن تقوم باللعبة وفضحها في الوقت ذاته.

ـ سمعاً وطاعة!، سمعاً وطاعة!، هلاَّ سمحت لي أن أسألك أين قضيت مساء البارحة يا أركادي أپوللونوڤيتش؟.

ولمَّا سمع أركادي أپوللنوڤيتش هذا السؤال الوقح والمباغت، تغيَّرت قسمات وجهه تغييراً كبيراً.

وأعلنت زوجته بغطرسة:

ـ لقد كان أركادي أپوللنوڤيتش مساء البارحة في اجتماع اللجنة السمعيّة، ولكنَّني لا أفهم ما علاقة هذا الأمر بالسحر؟!.

وأجاب فاغوت مؤكِّداً:

أي يا مدام، من البديهي أن لا تفهمي تلك العلاقة، ففيما يخصّ الاجتماع أؤكّد لك أنّك على ضلال كبير، لقد خرج أركادي أپوللونوڤيتش إلى الاجتماع المذكور، والذي لم يُدعَ إلى الانعقاد مساء البارحة، وعند مبنى اللجنـة السمعيّـة (قـرب غـديـر التشيستي) سرَّح أركادي أپوللنوڤيتش سائقه، (وصمت جميع من في المسرح وكأنَّ على رؤوسهم الطير)، أمَّا هو فأكمل طريقه وانتقل في الأوتوبيس حتى شارع يلخومسكويا، وهناك حلَّ ضيفاً على مُمثّلة المسرح المتجوّل ميليتسيا أندريڤنا پكوباتكو، وأمضى بضيافتها حوالي الأربع ساعات.

ـ أي! هتف أحدهم مُتألّماً وسط الصمت الشامل.

وقهقهت قريبة أركادي أپوللونوڤيتش فجأة بضحكٍ مخيف خافت، وهتفت:

ـ تكشَّفت الخفايا! شككت بهذا منذ زمن، والآن توضَّح كيف سمح لتلك الممثّلة الغبيّة بلعب دور لويزا!.

قالت هذا بغتة ولوَّحت بمظلّة قصيرة سمينـة، بنفسجيّـة اللـون، وضربـت أركـادي أپوللنوڤيتش على رأسه.

وهتف فاغوت الخسيس أي كارڤيوف:

ـ أيها المواطنون الكرام هاكم فضح لعبة واحدة طالـب بها أركـادي أپـوللـونـوڤيتش بالحاح...!

وسألت زوجة أركادي أپوللونوڤيتش مهدِّدة، وقد وقفت في الشرفة بقامتها الفارعة الطول:

ـ كيف جرؤتِ يا سافلة على لمس أركادي أپوللونوڤيتش؟.

واجتاحت موجة الضحك الشيطاني القصير القريبة الشابة، فأجابت مقهقهة:

ـ ماذا! ماذا؟ أنا التي يحق لها لمسه.. ولا يحق لغيري.

ومرّة ثانية دوت قرقعة المظلّة المزعجة، وقد انزلقت على رأس أركادي أپوللونوڤيتش المسكين.

وصرخت زوجة سيمپلياروف بصوت مخيف:

ـ يا شرطة امسكوها!.

وسرت في قلوب الكثيرين قشعريرة من البرد، ووثب القطّ إلى الرامبا*، وفجأة زأر مصوِّتاً كالإنسان في كل أرجاء المسرح:

ـ انتهى المشهد! مايسترو! اعزف مارش!!.

(*) الرامبا: البرزخ الفاصل بين خشبة المسرح والصالة.

قائد الأوركسترا المخبول، الشارد اللب، لوَّح بعصاه دون أن يفهم ما يفعل، لكنَّ الأوركسترا لم تعـزف، ولم يُسمـع لآلاتها صـوت ولا دويّ، لكـن حسـب قسمات القـط الكريهة، فإنَّها عزفت مارشاً لا يتصوَّره عقل، ولا يشبه بسخافته وتفاهته أي مارش آخر.

وخيِّل لهم، للحظة واحدة، وكأنَّهم سمعوا في يوم من الأيام، وتحت نجوم سماء الجنوب، في علبة ليل، كلمات هذا المارش، كانت كلمات مبهمة لكنَّها جريئة، خُيِّل لهم أنَّهم سمعوا:

أحبّ جلالته

الطيور الداجنة

وتحت فيء جناحيه رعى

العذارى المِلاح

ومن يعلم، ربَّما لم تُسمع كلّ هذه الكلمات، وربّما رافقت أنغام الموسيقى كلمات أُخر، كلمات بذيئة فاحشة أكثر من اللزوم، ليس هذا بيت القصيد، بيت القصيد هو أنَّ مسرح القاريته أصبح كبرج بابل. وركض أفراد الشرطة إلى الشرفة حيث آل سيمپلياروف، وتسلَّق محبُّو الاستطلاع الحاجز، وسمعت انفجارات ضحك وقهقهة جحيميّة، وصرخات هستيرية، طغى عليها رنين الصحون الذهبيّة المنبعث من الأوركسترا.

وشوهدت خشبة المسرح وقد خلت فجـأة، وغشّهـم فـاغـوت، فـإنّـه والهرّ الوقـح بغموت★ ذابا في الهواء واختفيا، كما اختفى من قبلهما الساحر في مقعده ذي الميناء الباهت.

الفصل الثالث عشر

ظهور البطل

هدَّد الرجل المجهول إيڤان بإصبعه وهمس: « هسّ! ». وأنزل إيڤان رجليه من فوق السرير وشرع يتأمَّل القادم مليًّا، فرأى أمامه إنساناً ينظر إلى الغرفة بمنتهى الحيطة والحذر، رأى إنساناً حليق الوجه، أسود الشعر، أقنى الأنف، قلق النظرات، وتدلَّت خصلة من شعره على جبهته، له من العمر ثماني وثلاثين سنة.

وبعد أن أصاخ الزائر السرّي السمع وتأكَّد من أنَّ ايڤان وحيد، تشجَّع ودخل الغرفة.

ورأى إيڤان أنَّ زائره يرتدي ثياب المرضى، كان في البياضات وقد انتعل خفّين، وطرح على كتفيه مبذلاً بنيًّا.

وغمز الزائر القادم إيڤان وهو يخبّىء في جيبه رزمة مفاتيح، واستوضح همساً: أتسمح لي بالجلوس. ولمَّا تلقَّى إيماءة بالإيجاب جلس في المقعد.

ـ كيف وصلت إلى هنا؟ سأل إيڤان همساً مذعناً لتهديد الإصبع القاسي.

ـ كيف وصلت إلى هنا وباب الشعرية موصد بالأقفال؟.

وأكَّد الضيف: الشعرية مقفلة حقًّا، لكن براسكوڤيا فيدوروڤنا، أعزّ الأعزّاء، إمرأة شاردة الفكر، سرقتُ منها منذ شهر رزمة المفاتيح، وبهذه الطريقة أصبح بالامكان الخروج إلى الشرفة العامة التي تحيط بالطابق بأكمله، ومن ثَمّ زيارة الجيران.

وسأل إيڤان مهتمًّا:

ـ إذا كان بمكنتك الخروج إلى الشرفة، فإنَّ باستطاعتك الهرب؟ أم أنَّك تخاف من علوّ المكان فلم تركن إلى الفرار؟

ـ لا، أجاب الضيف مؤكِّداً: إنَّني لا أستطيع الهرب من هذا المكان بسبب علوّه، إنَّما إلى أين الفرار. وبعد فترة صمت أكمل: لنجلس!.

ـ لنجلس ـ أجاب إيڤان وهو يتأمَّل في عيني القادم، تيك العينين العسليتين القلقتين.

ـ حسناً لنجلس. وفجأة قال الضيف مضطّرباً: آمل أن لا تكون من المشاغبين؟ لأنَّني وحقّك لا أتحمَّل الضجّة والضوضاء وأعمال العصيان وما يمتّ إليها بصلة. وأكثر ما أكره صراخ الناس أكان مبعثه العذاب أم الغضب أم أي سبب آخر، طمئنّي ألستَ مشاغباً؟.

واعترف الشاعر بشجاعة وقد تغيَّرت ملامحه:

ـ البارحة في الرستوران ضربت أحدهم على خطمه، ضربة كادت تودي بحياته.
وسأل الضيف بجدّة: بأيّ حقّ؟
وأجاب إيڤان مرتبكاً: أعترف بدون حقّ.
وقال الضيف دائناً إيڤان:
ـ عمل مشين، وعدا عن ذلك ما معنى كلماتك: ضربته على خطمه ضربة كادت تودي بحياته؟! فمن كلامك لا يُعرف إذا ما كان للإنسان خطم أم وجه؟ وأعتقد أنَّ للانسان وجهاً. دعك من التعامل بقبضات الأيدي، دعك من هذا وإلى الأبد.
ثم استفسر الضيف بعد أن وبّخ إيڤان:
ـ ما صنعتك؟
ـ شاعر. اعترف إيڤان، دون رغبة، بالاعتراف.
واغتاظ الزائر وهتف:
ـ ما أسوأ حظّي!؛ لكنَّه سرعان ما استدرك فاعتذر وسأل:
ـ وما اسم عائلتك؟.
ـ بزدومني.
ـ آ، إي، إي، قال الضيف وهو يقطّب حاجبيه.
وسأل إيڤان سؤال المحبّ للاستطلاع:
ـ ماذا؟ لعلَّ أشعاري لم تعجبك!
ـ إنَّني أمقتها مقتاً شديداً.
ـ أيًّا من أشعاري قرأت؟
وهتف الزائر بعصبية:
ـ لم أقرأ قصيدة واحدة من أشعارك.
ـ وكيف تتكلّم وتجزم؟
وأجاب الضيف:
ـ وماذا في الأمر وكأنَّني لم أقرأ شعراً غير شعرك؟ أم تكون قصائدك معجزة؟ حسناً سأصدّقك فيما تقول. قل لي أنت أتحسب أشعارك جيّدة؟.
واعترف إيڤان فجأة بصراحة وشجاعة:
ـ أشعار مخيفة بقبحها.
والتمس القادم متوسّلاً:
ـ أرجوكَ أن لا تكتب بعد مثلها.
وتلفّظ إيڤان بوقار:

ـ أعدك وأقسم لك بأنّني لن أكتب مثلها.

وتلا القسم شدّ على الأيدي، وما لبثت أن سمعت صدى خطوات ليّنة وأصوات انبعثت من الممرّ.

وهمس الضيف وهو يثب إلى الشرفة: هسّ. ثم أغلق الشعريّة من ورائه.

أطلّت پراسكوڤايا فيدوروڤنا، وسألت إيڤان كيف يشعر الآن، وهل تحسّنت أحواله، أيرغب بالنوم في الظلمة أم في النور. فطلب إيڤان منها أن تترك له الغرفة مضاءة. وابتعدت بعد ذلك متمنّية للمريض ليلة هادئة. وحينما هدأ كلّ شيء من حوله عاد الضيف.

وأخبر الضيف إيڤان همساً أنّهم نقلوا إلى الغرفة رقم ١١٩ مريضاً جديداً سميناً أحمر الوجه، وطيلة الوقت وهو يغمغم عن عملة صعبة في مكان التهوية، ويقسم أنّ ثمّة قوة شرّيرة تسكن بينهم في شارع السادوڤايا.

ويرمي پوشكين بأقذع وأقذر الشتائم وطيلة الوقت يصرخ: «كورولسوف ب ي ث، ب ي ث!». قال الضيف هذا وهو يرتعد مضطّرباً.

وما أن اطمأنَّ حتّى جلس وأكمل: صفوة القول ليحفظه الرب. وأكمل حديثه مع إيڤان سائلاً: وأنت ما سبب مجيئك إلى هنا؟.

فأجاب إيڤان وقد أطرق متجهّماً:

ـ بسبب بيلاطس البنطي!.

ـ كيف؟ صرخ الضيف وقد نسي الحيطة وأغلق فمه بيده، يا للمصادفة! ربّ مصادفة خير من ميعاد! أرجوك أرجوك هات ما عندك وتكلّم!.

لم يُعرف لماذا أولى إيڤان ثقته الرجل المجهول، وإذا هو في البدء يتلعثم ويخجل، ومن ثمّ تشجّع وراح يحكي قصّة البارحة، التي حدثت على البُرك البطريركية بأكملها.

نعم لقد وجد إيڤان في شخص سارق المفاتيح مستمعاً نبيلاً وفيّاً. فالضيف لم يحسب إيڤان مجنوناً بل أبدى اهتماماً عظيماً جدّاً بما قُصَّ على مسامعه، وتابع تطوّر الحكاية وبلغ ذروة ابتهاجه وإعجابه ومراراً كان يقاطع إيڤان بالهتافات:

ـ حسناً! حسناً! وماذا حدث بعد ذلك، أرجوك، أستحلفك بكل مقدّس عندك، أن تذكر كلّ التفاصيل وأن لا تنسى شيئاً!.

وتحدَّث إيڤان بإسهاب، ولم ينس شاردة أو واردة إلاّ وذكرها. كان من السهل عليه أن يقصّ الحكاية. وتـدريجاً وصل إلى ذلك المكان الذي يُذكر فيه كيف خرج بيلاطس إلى الشرفة في الرداء الأبيض ذي البطانة الحمراء بلون الدم. وحينذاك شبك الضيف يديْه كأنّما أراد أن يصلّي وهمس:

ـ آه، كيف حزرت!... كيف حزرت كل شيء.

واستمع الضيف إلى وصف مصرع برليوز الفظيع بصمت مريب، والتهبت عيناه بالضغينة وقال:

إنَّما آسف على أمر واحد، لو أنَّ ما أصاب برليوز أصاب الناقد لاتونسكي، أو الأديب مستيسلاڤ لاڤروڤتش.

ثم هتف بحماس دون أن يسمع صوته:

ـ وبعد ذلك ماذا حدث؟!.

وأبهج القطّ بتصرّفه قلب الضيف وأفرحه كثيراً، وخاصة قصّة نفحه السائقة بالنقود، فاختنق بالضحك الخافت وهو ينظر إلى إيڤان الذي أقلقه نجاح حكايته، فراح يثب مقرفصاً وهو يُمثِّل حركات الهرّ في حمله لقطعة النقود قرب شاربيه.

ـ وهكذا، قال إيڤان بعد أن قصَّ ما حدث في (غريبايدف)، وحزن وتجهَّم وجهه، وأنهى حديثه بقوله: ووجدت نفسي هنا.

ووضع الضيف يده على كتف الشاعر المسكين مؤاسياً وقال:

ـ يا للشاعر البائس! أنت المذنب في كلّ ما آلت إليه حالك. وما كان يجدر بك أن تتعامل معه بكلّ هذه الصراحة وبدون كلفة، إنَّك الآن تدفع ثمن خطئك، ويتوجَّب عليك أن تشكر الله لأنَّ غلطتك معه لم تكلِّفك غالياً.

ـ حسناً لكنَّه من يكون ذلك الشخص في النهاية؟ سأل إيڤان بعصبية وهو يهزّ قبضتيه.

وتأمَّل الضيف إيڤان مليًّا وأجاب على سؤاله بسؤال:

ـ إذا أجبتك على سؤالك تعدني بأنَّك لن تقع فريسة للقلق؟ ولا سيّما ونحن هنا أناس مرضى لا يُعوَّل علينا. إذا أجبتك تعدني بأنَّه لن تكون ثمّة دعوة وراء الطبيب ولا حقن ولا بلبلات ولا غير ذلك؟.

ـ لا، لا، ـ هتف إيڤان ـ قل لي من يكون ذلك الشخص؟

ـ حسناً ـ قال الضيف. وببرهان قوي مميَّز أكمل: البارحة عند بُرك البطريركية التقيت بالشيطان!.

وكما وعد لم يقع إيڤان فريسة للقلق، ولكنَّه والحق يُقال كان كالمصعوق.

ـ هذا مستحيل، فلا وجود للشيطان أصلاً!

ـ خذني بحلمك، ودع لغيرك مثل هذه الأحاديث فإنَّها لا تليق بك. وحسبما أرى أنَّك أحد الأوائل الذين يتعذَّبون بسببه. والأغرب في المسألة أنَّك تجلس في مصحّ الأمراض النفسية وتجادل بعدم وجوده. حقًّا إنَّه لأمر عجيب!.

وصمت إيڤان الضائع اللبّ.

وأكمل الضيف: ما أن بدأت بوصفه حتى حزرت من يكون ذاك الذي سررت بلقائه وبفرحة التحدّث معه. وحقًّا إنَّني متعجِّب من برليوز! كونك إنساناً ساذجاً غير محنَّك هذا واضح لي، ـ وهنا اعتذر الضيف مرّة أخرى ـ لكن ذاك الذي سمعت عنه الكثير، ولا شكَّ أنَّه قرأ الكثير من الكتب؟.

لقد بدَّد البروفسور بأحاديثه الأولى كلّ شكوكي. أن لا تعرفه فذاك يا صديقي هو العجب!

صفوة القول اعذرني مرّة أخرى. لا أخطىء إذا قلت لك إنَّك إنسان جاهل.

ـ لا شك بذلك، ـ وافق إيڤان المتغيِّر الملامح.

ـ حسناً! حتى الوجه الذي وصفته لي.. الوجه والعينانَ المختلفتان والحواجب. المعذرة أوپرا فاوست لم تسمعها؟.

واعترى إيڤان الخجل الشديد، احمرَّ وجهه وبدأ يجمجم عن سفرة إلى مصحّ في يالطا...

ـ حسناً! حسناً!.. ليس عجيباً ليس عجيباً! أكرِّر أدهشني برليوز فعدا عن كونه إنساناً متعلِّماً فإنَّه محنَّك وواسع الحيلة، وذكي، ولكن انصافاً له وللحقيقة يتوجَّب عليَّ أن أقول إنَّ بمقدرة ڤولند ذرّ الرماد في عيون الأذكى والأوسع حيلة من برليوز.

ـ كيف؟! صاح إيڤان.

ـ صَمْتْ!..

وضرب إيڤان بيده على جبهته ضربة مبرحة وهتف بصوت أبحّ: فهمت فهمت. كان ثمّة حرف (ڤ) على بطاقة زيارته. آي يا ياي... يا لها من حادثة.

وصمت بعض الوقت وقد تملَّكته الحيرة وهو ينظر إلى القمر التائه في السماء وراء الشعرية وما لبث أن قال:

ـ إذاً بإمكانه حقًّا أن يكون عند بيلاطس البنطي؟ ألم يولد في ذلك الزمان؟ ويحسبونني بعد هذا مجنوناً! ـ قال إيڤان هذا، وأشار نحو الباب ممتعضاً ساخطاً.

ارتسمت ابتسامة أليمة على شفتي الضيف:

ـ سنكون من أتباع الحقيقة الأوفياء ـ قال الضيف هذا وأدار وجهه نحو سراج الليل التائه بين الغيوم وأكمل: أنت وأنا مجنونان. وهل يُعدُّ اكتشافاً كوننا مجنونين!؟. أرأيت كيف صعقك فأثَّر عليك وخبلك، لأنَّك على ما يبدو تملك الأرض الخصبة. وكل ما قصصته على مسامعي حدث فعلاً. حوادث خارقة حقًّا، حتّى أنَّ سترافنسكي عالم النفس العبقري لم يصدّقك. هل عاينك؟. (وأومأ إيڤان بأن نعم).

محدِّثك كان عند (بيلاطس)، وعلى مائدة الإفطار عند (كانط)، والآن يزور موسكو!.

ـ نعم؛ والشيطان وحده يعرف بما سيفعله هنا. بطريقة أو بأخرى يجب إلقاء القبض عليه؟.

واستيقظ في إيڤان الجديد ذاك الإيڤـان القـديم الذي لم يمت نهائيـاً ولم ينتـه.

ـ لقد جرَّبت ويكفيك ما أنت فيه. إنَّني لا أنصح أحداً بأن يجرِّب ـ ردَّ الضيف مستهزئاً ـ أمَّا ماذا سيجترح فصدِّقوا بأعماله وثقوا... آه! آه! أليس من سخرية الأقدار أن تلقاه أنت لا أنا، ولو احترق كلّ شيء وأمست الجمرات المشعّة رماداً؟!. أقسم لك أنَّني لو مُنيت بذلك اللقاء لأعطيت رزمة المفاتيح كلها لپراسكوڤيا فيدوروڤنا، لأنَّني لا أملك ما أعطي غير هذه الرزمة فأنا فقير معدم.

ـ وما حاجتك للقائه؟

وارتعد الضيف وحزن بعض الوقت لكنَّه قال أخيراً:

ـ قصّتي قصّة عجيبة غريبة، إنَّ الذي أتى بي إلى هذا المكان أتى بك إليه أيضاً. نعم بيلاطس البنطي هو السبب. والتفت الضيف خائفاً وأكمل: المسألة في أنَّني منذ عام مضى كتبت رواية عن بيلاطس.

وسأل الشاعر مهتمًّا:

ـ أنت كاتب؟!.

وتجهَّم وجه الضيف، وهدَّد إيڤان بقبضة يده، وبعد ذلك قال:

ـ أنا المعلِّم. ـ أعلن هذا واتَّسمت ملامح وجهه بالصرامة، ثم أخرج من جيب مبذله شاپكا* سوداء متَّسخة طُرِّز عليها بالحرير الأصفر حرف «م». لبس الطاقية وبدا لإيڤان جانبيًّا ومواجهة ليبرهن له أنَّه المعلِّم. وأردف الضيف بسريّة:

ـ هذا من صنع يديها، خاطته لي.

ـ وما اسم عائلتك؟.

ـ لا اسم عائلة لي، ـ أجاب الضيف الغريب الأطوار باستخفاف وحزن ـ لقد تبرَّأت من الاسم كما تبرَّأت من كلّ ما تزخر به الحياة. لننسى اسم عائلتي.

وطلب منه إيڤان بتهذيب:

ـ هات حدِّثنا عن الرواية على الأقل!.

ـ حسناً. إنَّ قصّتي قصّة غريبة حقًّا. بهذا بدأ الضيف ـ اختصاصي: مؤرِّخ، ومنذ سنتين بدأت أعمل في أحد متاحف موسكو، وعدا عن ذلك عملت في الترجمة.

وسأل إيڤان مهتمًّا:

(*) شابكا: طاقية فراء شتوية.

ـ عن أي لغة كنت تترجم؟.

ـ إنَّني أعرف خمس لغات عدا عن اللغة الأمّ. أعرف الانكليزية، الفرنسية، الألمانية، اللاتينية واليونانية وألمّ بالإيطالية، أقرأ بها قليلاً.

وهمس إيڤان غابطاً: ويحك!..

وعاش المؤرِّخ وحيداً، لا أقارب عنده في موسكو ولا معارف حتَّى، وتخيَّل حاله وقد ربح ذات مرّة مئة ألف روبل ـ وهمس الضيف المعتمر الطاقية السوداء: تخيَّل دهشتي حينما دسست يدي في سلّة البياضات المتَّسخة، وماذا رأيت: رأيت فوق السلّة نفس الرقم الذي في الجريدة!... أعطوني في المتحف قرضاً، سرعان ما أوضح الضيف.

وبعد أن ربح مئة ألف، تصرَّف ذو الأسرار بهذه الطريقة: اشترى كتباً وترك غرفته في شارع (مياستشكوي)، وزمجر: غرفة موحشة ملعونة!..

ـ واستأجرت عند صاحب مبنى في زقاق قرب الأربات. هل تعرف من هم أصحاب المباني؟ سأل الضيف إيڤان وفي الحال أوضح: إنَّهم عصابة مخادعين غشَّاشين، قليلة العدد، وبطريقة أو بأخرى حافظوا على وجودهم في موسكوا وبقيوا...

استأجرت عند صاحب المبنى غرفتين في قبو بيت صغير في الحديقة. تركت العمل في المتحف وبدأت بتأليف رواية عن بيلاطس البنطي.. لقد كان ذلك العصر هو عصري الذهبي. ـ همس الراوي وقد لمعت عيناه وأكمل: شقّة منفردة تماماً، مع مدخل وحوض ماء. ـ ولم يُعرف لماذا أكَّد الضيف على الحوض باعتزاز ـ وكان للبيت نافذتان صغيرتان أطلَّتا على الرصيف الممتد من الحوش أمام البيت. وقبالة البيت على بعد أربع خطوات وتحت السور انتصبت شجرة قيقب وليلاك وزيزفونة. آه! آه! آه!... نادراً ما كنت أرى من خلال النافذة الصغيرة في فصل الشتاء قدمي إنسان سوداوين، وكنت أسمع خشخشة الثلج تحت وقع تينك القدمين. والنار كانت دائماً مضطّرمة في موقدي!. وأتى الربيع على حين غرّة. ومن خلال الزجاج المعتكر رأيت لأوَّل مرّة غرسات الليلك عارية، ومن ثمّ رأيتها مكتسية بثوبها الأخضر... وفي ذلك الوقت، في الربيع الماضي، حدث ما يدعو للتعجب والدهشة أكثر من أمر حصولي على مبلغ المئة ألف روبل ألا توافقني على أنَّه مبلغ من المال كبير!.

ـ هذا صحيح ـ اعترف إيڤان المتنصِّت بكل جوارحه.

ـ وفتحت النافذة وجلست في الغرفة الثانية، تلك الغرفة الصغيرة ـ وهنا شرع الضيف يقيس بيديه ـ وهكذا وضع الديوان هنا وقُبالته ديوان آخر وبينهما منضدة صغيرة، وعلى المنضدة مصباح ليليّ رائع. وبازاء النافذة الصغيرة قرب الكُتب، وضعت طاولة كتابة صغيرة. أمَّا في الغرفة الأولى، تلك الغرفة الواسعة التي كانت مساحتها أربعة عشر متراً،

ففيها كتب، كتب، وموقد... آه كيف كانت ظروف حياتي!..

شذا الليلاك مؤرِّج معطِّر، ومن الإرهاق كنت أفقد إحساسي برأسي... وبيلاطس كان يُسرع إلى نهايته..

وهتف إيڤان:

ـ رداء أبيض له بطانة حمراء!... أفهم ما كتبت.

ـ نعم هكذا.. أسرع بيلاطس إلى نهايته، إلى النهاية، كنت أعرف أنَّ كلمات الرواية الأخيرة ستكون: «والي اليهوديّة الفارس بيلاطس البنطي». وطبيعي كنت إمَّا أخرج للنزهة. ـ مئة ألف مبلغ كبير.. وكنت أملك بذلة رماديّة بديعة ـ، أو كنت أتوجَّه إلى أحد المطاعم البخسة الثمن لتناول طعام الغداء. في شارع الأربات كان ثمّة مطعم بديع، لا أعرف ما إذا كان ما يزال موجوداً الآن.

واتَّسعت عينا الضيف، وأكمل همساً، وهو ينظر إلى القمر: كانت تحمل في يديها أزهاراً صفراء تولّد القلق والاشمئزاز. الشيطان يعرف اسم تلك الورود، التي ظهرت في موسكو لأوَّل مرّة. وقد بدت تلك الزهور متباينة مع لون معطفها الربيعي الأسود اللون. كانت تحمل أزهاراً صفراء... يا للون السيء الرديء...

انعطفت من شارع (تڤارسكـايـا) إلى الزقـاق، وحينـذاك التفتـت. أتعـرف شـارع تڤارسكايا؟ لقد كان يمشي في هذا الشارع الآلاف من الناس، لكنَّني أؤكِّد لك أنَّها لم ترَ سواي، تأمَّلتني لا أقول بقلق، الأصح أن أقول تأمَّلتني بألم. لم يدهشني جمالها بقدر ما أدهشتني بل وسحرتني تلك الوحشة في عينيها، الوحشة الغريبة التي لم يرَ أحد مثيلاً لها!.

وامتثلت للعلامة الصفراء، استدرت أنا أيضاً في الزقاق ومشيت مقتفياً آثارها. لقد مشينا في زقاق موحش مملّ أعوج، مشينا صامتين. أنا في جهة وهي في الجهة الأخرى. وتصوَّر أنَّه لم يكن ثمّة إنسان غيرنا، فقد خلا الزقاق من كلّ نسمة حيّة. وتعذَّبت. بدا لي أنَّه يجب عليَّ أن أتحدَّث معها، وجزعت لأنَّني لم أنبس ببنت شفة واحدة، وخفت من أنَّها ستذهب ولن أراها بعد ذلك. تخيَّل: هي التي بادرتني فجأة بقولها: أتعجبك أزهاري.

ما زلت أذكر جيِّداً كيف رنَّ صوتها وصدح، صوت خفيض جدًّا، متهدّج، وبدا أنَّ صدى صوتها انتشر بالزقاق واصطدم بالحائـط المتَّسـخ الأصفـر وارتـدَّ عنـه: هـذا مـا ظننت... ولو كان ظنِّي سخيفاً، وبسرعة تجاوزت الشارع إلى جهتها ودنوت منها وأجبت:

ـ لا لم تعجبني.

وتأمَّلتني متعجِّبة، وفجأة ودونما مقدّمات أدركت شيئاً واحداً، وهو أنَّني كلّ حياتي ما أحببت إلاَّ هذه الإمرأة، أليس الأمر عجيباً؟ ستقول في نفسك حتماً إنَّني مجنون؟!.

ـ لن أقول شيئاً ـ هتف إيڤان وأردف: أرجوك ماذا حدث بعد ذلك؟.

وأكمل الضيف:

ـ نعم لقد تأمَّلتني متعجِّبة، وبعد ذلك سألتني وهي ترشقني بنظراتها: أتكون لا تحبّ الأزهار ؟!.

رشحت نبرات صوتها بالعداء، أو هكذا بدا لي. لقد مشيت إلى جانبها محاولاً مجاراتها في مشيتها، وتعجَّبت من نفسي كيف لم يساورني أدنى شعور بالخجل أو الخوف. قلت لها:

ـ إنَّني أحبُّ غير هذه الأزهار.

ـ أيها تحبّ ؟

ـ أحبّ الورود.

وندمت على ما قلت. وقد ارتسمت على مخايلها ابتسامة المقترف ذنباً. ورمت أزهارها في القناة، فتضعضعت ثم جمعت الأزهار وناولتها إيَّاها. لكنَّها أبعدتها عنها وهي تبتسم ابتسامة ساخرة. فما كان منِّي إلاَّ أن حملت تلك الأزهار بيدي.

وهكذا مشينا بعض الوقت صامتين، إلاَّ أنَّها اختطفت الأزهار من بين يدي ورمتها على الرصيف، وبعد ذلك أدخلت يدها في قفَّاز أسود، ثم أدخلت فيه يدي أيضاً، ومشينا جنباً إلى جنب.

وقال إيڤان:

ـ وماذا حدث بعد ذلك، أرجوك أن لا تُسقط كلمة واحدة من الحديث.

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟ أعاد الضيف السؤال وأكمل: يمكنك أن تحزر ماذا حدث، ومسح بكمّه الأيمن دمعة مفاجئة، وأكمل:

طلع الحب أمامنا كما يطلع القاتل، في الزقاق من تحت الأرض، وأذهلنا الحب وصعقنا. والحب يصعق كما تصعق البروق وكما يصعق السكين الفنلندي المرهف الحدّ!.

وصفوة القول، لقد أكَّدت لي بعد ذلك أنَّنا تبادلنا الهوى منذ قديم الزمان، قبل أن أعرفها أو تعرفني، وقبل أن أراها وتراني... تبادلنا الحب وهي تحيا مع رجل آخر، وأنا في ذلك الوقت كنت هناك، مع تلك.. المدعوة..

وسأل بزدومني:

ـ مع من ؟.

ـ مع تلك... تلك... أيوه.. ـ أجاب الضيف وطقطق بأصابعه.

ـ كنت متزوِّجاً ؟.

ـ نعم!.. وها إنَّني أطقطق. كنت متزوِّجاً من تلك.. ڤارنكا، مانتشكا، لا.. ڤارنكا.. صاحبة الثوب المقلَّم... المتحف... خلاصة القول لم أعد أتذكَّر. لقد تحدَّثت بأنَّها خرجت في ذلك النهار حاملة بين يديها الأزهار الصفراء، لأعثر عليها في النهاية، ولو

لم يحدث ذلك لكانت شربت السم، لأن حياتها خالية.

نعم، بلحظة واحدة صعقنا الحب.. ولقد أدركتُ هذا في اليوم نفسه وبعد ساعة فقط من وصولنا، دون أن نلحظ، إلى حائط الكرملين على ضفّة النهر.

لقد تبادلنا الأحاديث كأنّنا افترقنا يوم البارحة وكأنّه قد تمّ تعارفنا منذ سنين. واتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي، وفي المكان نفسه، على ضفّة نهر موسكو. والتقينا، وقد أضاءت لنا شمس مايو. وسرعان ما أصبحت هذه الإمرأة زوجتي السريّة.

كانت تزورني يومياً، وكنت أنتظرها بفارغ الصبر كل يوم منذ الصباح. وكنت أمضي فترة الانتظار بإعادة ترتيب الأغراض على الطاولة. وقبل عشر دقائق كنت أجلس بمحاذاة النافذة وأرهف السمع إذا ما كان الباب العتيق يصرّ... والطريف أنّه قبل لقائي معها، نادراً ما كان يأتي إلى حوشنا إنسان، وبكلّ بساطة أقول إنّه لم يكن يأتي أحد. أمّا الآن فيبدو لي أنَّ المدينة كلّها أصبحت تسعى إلى ذلك الحوش. ويصرّ باب الحوش ويخفق القلب، وتخيّل أنّه بمحاذاة وجهي، وراء النافذة، تُرى أحذية متّسخة، مُجلّخ؟! وما إلى وجود مُجلّخ في بيتنا؟ وماذا يُجلّخ؟ أيّة سكاكين!؟.

لقد كانت تدخل إلى الحوش مرّة واحدة، أمّا قلبي فكان يخفق عشر مرّات.. آه كم عانيت. أجل إنّني لا أكذب. وحينما كانت تحين ساعة قدومها وكانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف النهار، ولم يكن قلبي ليكفّ عن الخفقان، حتى دون جلبة ودون ضربة، كانت تتساوى مع النافذة الأحذية المصنوعة من جلد الشمـوا، تلـك الأحـذيـة ذات الوصلات والعقد والمشدودة ببكلٍ فولاذية.

وأحياناً كانت تُداعبني عابثة، فتتأخّر بإزاء النافذة الثانية، وتضرب بمقدّمة حذائها الزجاج، وكنت أظهر حالاً بإزاء تلك النافذة، لكن سرعان ما كانت تختفي الأحذية قصداً عن عيني، وكذلك كان يتوارى الحرير الأسود الحاجب للنور، وكنت أذهب لأفتح لها الباب.

ولم يعلم أحد بعلاقتنا، أؤكّد لك هذا، ومع أنّ هذا نادراً ما يحدث. ولم يعرف زوجها ولا الأصدقاء بتلك العلاقة. أمّا في غرفتي القديمة التي شغلتها في القبو التي تعود ملكيته لي، فقد علم الجيران ورأوا أنَّ إمرأة ما تزورني، لكنّهم لم يعرفوا اسمها.

وسأل إيڤان الذي أثارت اهتمامه قصّة الحب تلك:

ـ ومن تكون تلك الإمرأة؟.

وأتى الضيف بحركة يُستدلّ منها أنّه لن يعلن هذا السرّ لأحد وأكمل حكايته.

وعرف إيڤان بأنَّ المعلّم وتلك الإمرأة المجهولة، هام كلّ منهما بالآخر وتبادلا الحب العنيف، وأصبحا كائناً واحداً لا يتجزّأ. وتمثّلت لإيڤان غرفتان في القبو، عتّمتها أشجار

الليلك، والسور، وتمثَّل كذلك أثاث البيت الأحمر الرثّ، والمكتب والساعة على المكتب التي تدقّ كل نصف ساعة معلنة عن الوقت، وكتب، كتب، كتب، ارتفعت من أرض الغرفة المطلي بالدهان حتى سقفها المسخّم بالدخان، وتمثَّل الموقد.

وعرف إيڤان أنَّ ضيفه وزوجته السريّة أدركا حقيقة منذ الأيّام الأولى لتعارفهما وهي أنَّ القدر هو الذي دفعهما إلى زاوية في شارع تڤارسكايا وإلى ذلك الزقاق، وأدركا أنَّهما وجدا ليتحابّا إلى الأبد.

وعرف إيڤان من قصّة الضيف كيف كان المحبّان يمضيان يومهما. كانت تأتي إلى بيته، وأوّل ما كانت تفعله هو ارتداء المريول، وفي المدخل الأمامي الضيِّق، حيث كان الحوض الذي كان يتباهى به المريض المسكين، وفوق طاولة خشبية كانت تضيء قنديل الغاز، وتهيء طعام الفطور، ثم تأتي به إلى الغرفة الأولى لتبسطه على الطاولة البيضويّة.

وحينما كانت تهبّ عواصف شهر مايو، وبإزاء النوافذ المغبَّشة كانت تسيل المياه هادرة تحت الكوى مهدِّدة المأوى الأخير، حينئذٍ كان المحبَّان يضرمان النار في الموقد ويشويان البطاطا، وكان البخار يتصاعد من البطاطا وتتَّسخ أصابعهما من القشر الأسود. وكان يُسمع ضحك في القبو، وكانت أشجار الحديقة تنفض عنها بعد هطول الأمطار العنود المكسَّرة والأماليد البيضاء.

وحينما كانت تسكن العواصف ويأتي الصيف بقيظه، كانت تظهر في الأصيص الورود التي طالما انتظراها طويلاً وأحبّاها. وكان ذلك الذي سمَّى نفسه المعلِّم يعمل، أمَّا هي فكانت تغرز في شعرها أصابعها النحيفة ذات الأظافر المسنونة الحادّة، وتقرأ ما يكتب، وتخيط الطاقية ذاتها. وأحياناً كانت تجلس القرفصاء بمحاذاة رفوف الكتب السفلى، أو كانت تقف على كرسيّ بمحاذاة الرفوف العلوية وتمسح بخرقتها الغبار وتنظِّف جلدات الكتب التي تعدّ بالمئات. لقد أذكت نار العزيمة داخله، وشجَّعته على المسير في طريق المجد وحثَّته على العمل. وسرعان ما أصبحت تناديه بالمعلِّم. وانتظرت طويلاً الكلمات الموعودة، تلك الكلمات الأخيرة عن والي اليهودية الخامس. انتظرت وكانت تغنِّي معيدة بصوت مرتفع بعض العبارات التي أعجبتها، وقالت إنَّها حياتها كلّها في هذه الرواية.

وانتهى العمل في الرواية في شهر آب. وأعطيت لموظّفة مجهولة لتدقّها على الآلة الكاتبة وطبعت منها خمس نسخ. وأخيراً أزفت الساعة، وكان عليهما أن يبرحا المأوى السرّي ويخرجا للقاء الحياة.

ـ وخرجت إلى الحياة وأنا أمسك الرواية بين يدي، وفي ذلك الوقت انتهت حياتي ـ همس المعلِّم وأطرق، وتأرجحت الطاقية السوداء الحزينة طويلاً بحرف الميم الأصفر. وأكمل ما تبقّى من حكايته، لكنَّ الحكاية أصبحت مشتَّتة. وكان بإمكان المرء أن

يستخلص ويفهم أمراً واحداً من كلّ الحكاية وهو أنَّ مصيبة ما نزلت بالضيف.

ـ كانت أوّل مرّة أواجه بها عالم الأدب؛ أمّا الآن وبعد أن انتهى كلّ شيء وأصبحت من الهالكين.. الآن أتذكّره، وتمثّل الذكريات مصحوبة بالفظاعة والهول ـ همس المعلّم بمهابة ورفع يده ـ أجل لقد صعقني.. آه كيف أذهلني!

ـ من هو ذلك الشخص؟ همس إيڤان بصوت خافت جداً وهو يحتاط من مقاطعة القاصّ المهتاج.

ـ المحرِّر، المحرِّر. لقد قرأ الرواية، لا لم يقرأها بل مرَّ بها مرور الكرام. تأمّلني كما لو كان خدّي مصاباً بالخراج، آه كيف نظر شزراً إلى الزاوية ومرتبكاً. حاول حبس ضحكته.. وحتّى خنقها. وبدون أن تكون ثمّة ضرورة لذلك دعك المخطوطة وتنحنح، وطرح عليَّ أسئلة بدت لي بلهاء.

لم يتحدّث عن موضوع الرواية، راح يسألني من أكون، ومن أين أتيت وكيف ظهرت؟ وإذا كنت أكتب منذ زمن؟ ولماذا لم يُسمع عنّي من قبل شيئاً. وطرح عليَّ حسبما أعتقد سؤالاً تافهاً جداً: من أوعز إليَّ بتأليف الرواية ذات الموضوع الغريب؟

وأخيراً وبعد أن مللت أسئلته سألته مكاشفاً وبصراحة: هل سيطبع الرواية أم لا؟

وسرعان ما انهمك وحاول التملّص وقال إنّه ليس بمقدوره شخصيًّا الإجابة على هذا السؤال، وإنّه يجب أن يتعرَّف إلى كتابي أعضاء آخرون من أسرة التحرير، وعلى الأخصّ الناقدان لاتونسكي وأريمان، والأديب مستيسلاڤ لاڤروڤتش. وقد طلب مني أن أعود بعد أسبوعين. وبعد أسبوعين أتيت، فاستقبلتني فتاة عيناها مائلتان من الكذب نحو الأنف.

ـ إنّها لاپشينيكوڤا، أمينة سرّ التحرير، قال إيڤان هذا وارتسمت على مخايله ابتسامة ساخرة، وهو أعلم بذلك العالَم الذي وصفه الضيف ساخطاً.

ـ قد تكون هي ـ ردَّ ذاك، وأكمل ـ وهكذا: استلمت الرواية منها متّسخة بما فيه الكفاية وبالية. وأعلنت لاپشينيكوڤا وهي تحاول أن لا تلتقي نظراتنا: إنَّ إدارة التحرير لديها من الكتابات ما يكفيها سنتين، والأمر كذلك فإنَّ مسألة طبع روايتي غير واردة حسبما ادّعت. وماذا أتذكّر بعد هذا؟ غمغم المعلّم ومسح صدغه ـ أتذكّر بتلات وردة حمراء منثورة فوق صفحة العنوان، وأتذكّر عيني صديقتي... نعم تلك العينان أتذكّرهما.

وأصبحت حكاية ضيف إيڤان مبعثرة أكثر فأكثر ومشتّتة، وامتلأت بالألغاز. لقد أتى بحديثه عن مطر مائل وقنوط في المأوى وعن أنّه ذهب أيضاً إلى مكان ما. وصرخ همساً معلناً أنَّ تلك التي حثّته على السير في طريق المجد وأذكت داخله نار العزيمة ليست مخطئة ولا يحمّلها أي وزر ولو كان صغيراً... لا إنّها غير مذنبة.

ـ أتذكّر، أتذكّر تلك الصفحة الملعونة الملحقة في الجريدة، ـ غمغم الضيف وهو يرسم

بإصبعي يده في الهواء - صفحة الجريدة، وحزر إيڤان من العبارات المتقطّعة أنَّ محرِّراً آخر طبع مقطعاً كبيراً من رواية هذا الذي يسمِّي نفسه المعلِّم.

وفُهِمَ من كلماته، أنَّه لم يمرّ أكثر من يومين، حتَّى ظهر في جريدة أخرى مقال للناقد أريمان، بعنوان: «عدوّ بثياب محرِّر». وجاء فيه أنَّ ضيف إيڤان استغلّ جهل وتغافل المحرِّر فسعى إلى تمجيد يسوع المسيح بالدسّ عبر الصحافة.

وهتف إيڤان:

- أتذكَّر، أتذكَّر! - لكنَّني نسيت اسم عائلتك!

- دعنا من الأسماء. أُعيد على مسامعك أنَّه لم يعد ثمَّة اسم، وليس هنا بيت القصيد. بعد ذلك بيوم واحد وفي جريدة أخرى كتب مقال آخر بقلم مستيسلاڤ لاڤروڤتش. اقترح كاتب المقال أن تُضرب (البيلاطسيَّات والإلهيَّات) بقوّة: نعم يجب أن تُضرب كتابات يحاول كاتبها الدسّ عبر الصحافة، والغرض منها التمجيد والتقديس، (وكما ترى استعملوا الكلمة الملعونة من جديد).

وفتحتُ الجريدة الثالثة وقد صعقتني كلمة (بيلاطسيَّات)، ووجدتُ أنَّ ثمَّة مقالين في هذه الجريدة. كاتب المقال الأوَّل لاتونسكي، أمَّا الثاني فقد وُقِّع بأحرف (ن أي). أصدّقك القول إنَّ ما كتبه أريمان ولاڤروڤتش لا يُعدّ شيئاً مذكوراً بل حتَّى مجرَّد مزحة إذا ما قيس بما كتبه لاتونسكي. يكفي أن أقول لك إنَّ لاتونسكي سمَّى مقاله: (محارب من أتباع الطقوس القديمة).

انشغلت بقراءة المقال، فلم ألحظ كيف كانت تمثل أمامي، (نسيت الباب مفتوحاً). كانت تمثل أمامي وهي تحمل بيديها المظلّة المبلّلة والجرائد المبلّلة أيضاً. انبعثت النار من عينيها، وكانت يداها ترتجفان مقرورتين.

في البدء ارتمت عليَّ وغمرتني بالقبلات. وأعلنت بعد ذلك بصوت أبحّ وهي تضرب بيدها على الطاولة، أنَّها ستدس السم للاتونسكي.

وحلَّت أيام حزينة تعيسة، فالرواية كتبت، ولم يعد عندي ما أعمله. وكنَّا نمضي أيَّامنا، نحن الاثنان، بالجلوس على السجَّادة حول الموقد، وبالنظر إلى النار. وصفوة القول أصبحنا نفترق أكثر من ذي قبل. وأصبحت هي تخرج للنزهة. أمَّا أنا فقد حدثت لي أمور غريبة، لكنَّها ليست نادرة في حياتي. ففجأة أصبح عندي صديق.

نعم، نعم، تخيَّلني وأنا الذي لا أميل إلى معاشرة الناس ومصاحبتهم، أنا صاحب المزاج المتقلِّب الغريب، والذي أتعامل مع الناس بصعوبة ولا أثق بأحد، تصوَّرني وقد دخل نفسي، رغماً عني، إنسان ما، دخل دون أن أتوقَّع مجيئه أو أنتظره. الشيطان وحده يعلم من يشبه هذا الإنسان الذي استحوذ على إعجابي وآثرته على الجميع.

في يوم خريفي لطيف، دخل من باب الحوش إنسان ـ ما زلت أذكر ـ : لم تكن هي في البيت. دخل قاصداً صاحب البناء الذي أسكنه في عمل ما. وبعد ذلك مرَّ في الحديقة وتعرَّف إليَّ بسرعة. قدَّم نفسه لي بأنَّه صحافي. لقد أعجبني وحتَّى هذا الوقت ما زلت أتذكَّره وأشتاق للقياه. بعد ذلك أخذ يكثر من زياراته لي. وعرفت أنَّه عازب، وأنَّه يعيش بالقرب منِّي وفي شقّة صغيرة كشقَّتي، وأنّه منزعج من ضيق المكان وغير ذلك. لم يدعني لزيارته في بيته، ولم يعجب زوجتي. دافعتُ عنه أمامها، فقالت لي:

ـ اعمل ما تشاء، لكنَّني أقول لك إنَّ هذا الإنسان يبعث فيَّ شعوراً منفِّراً.

وانفجرتُ بالضحك.. وفي الحقيقة بماذا جذبني إليه؟ يقول المثل: الإنسان الذي لا يملك هدية في درجه فذاك إنسان لا يثير الاهتمام. لقد امتلك (ألوزي) تلك الهدية في درجه، نسيت أن أقول لك إنَّ صديقي الجديد كان يدعى ألوزي مغاريتش. نعم، لم ألتقِ من قبل وأنا كلِّي ثقة بأنَّني لن ألتقي مستقبلاً شخصاً يملك عقلاً راجحاً ناضجاً كعقل ألوزي.

وحينما كان يصعب عليَّ فهم معنى ملاحظة في جريدة، كان ألوزي بدقيقة واحدة يشرح لي المعنى مفصَّلاً. وكنت أرى أنَّ شرحه كان سريعاً وبديهياً ولا يكلِّفه أي جهد أو عناء. وكذلك كانت الحال في شرحه لظواهر الحياة ومسائلها، لكن نادراً ما كان يحدث مثل هذا.

حبّ ألوزي للأدب وشغفه به أسر لبِّي وفتنني. لم يهدأ ولم تستقر نفسه حتى طلب منِّي أن أقرأ له الرواية بأكملها من ألفها إلى يائها.

وأثنى على الرواية ثناءً كبيراً مصحوباً بالدقّة البالغة. وكأنَّه كان حاضراً مع النقَّاد، راح يعيد ملاحظات المحرِّر المتعلِّقة بالرواية. وكانت ملاحظاته مطابقة ودقيقة مئة بالمئة. وعدا عن ذلك فإنَّه شرح لي شرحاً وافياً وصحيحاً لماذا لم يكن بالإمكان طبع روايتي. لقد قال بصراحة: إنَّ هذا الفصل غير صالح.

ولم ينقطع سيل المقالات. ضحكت ساخراً من المقالات الأولى. لكن مع ظهور عدد أكبر من المقالات تغيَّرت نظرتي إليها. المرحلة الثانية كانت مرحلة التعجّب: رشح كل سطر من سطور المقالات بالخداع النادر وبالتردُّد، بالرغم من النغمة الواثقة القوية. ساورني شعور، ما استطعت التخلّص منه، وهو أنَّ كاتبي المقالات يكذبون ويعلنون عكس ما يخفون، هذا سبب غيظهم. بعد ذلك يمكنك أن تتخيَّل: حلَّت المرحلة الثالثة: مرحلة الخوف. ما كان خوفاً من المقالات، إفهمني، إنَّما كان خوفاً من مسائل أخرى لا علاقة لها بالرواية ولا بالمقالات. صرت أخاف العتمة مثلاً، خلاصة القول لقد بدأت مرحلة المرض النفسي. يكفي أن يُطفأ المصباح قبل أن أغفو في الغرفة الصغيرة حتى يتراءى لي أنَّ

أخطبوطاً يتسلَّل إليَّ من النافذة رغم أنَّها كانت مغلقة، أخطبوط ذو قرون طويلة بيضاء، وكنت أنام كمن ينام على الجمر.

وتغيَّرت كذلك حبيبتي كثيراً، وبطبيعة الحال لم أُحدِّثها عن الأخطبوط، لكنَّها أدركت أنَّ شيئاً ما، ليس كما ينبغي، حدث لي.

نحل جسمها وشحب لون وجهها ولم تعد تعرف الابتسامة سبيلاً إلى ذاك الوجه، وراحت تطلب وتلحّ دائماً أن أصفح عنها لأنَّها نصحتني بطبع مقطع من الرواية. قالت لي إن اترك كلّ شيء وأسافر إلى الجنوب، إلى البحر الأسود، وأن أُنفق على هذه السفرة ما تبقَّى من المبلغ، مبلغ المئة ألف.

ألحَّت عليَّ ولجَّت، وحتَّى لا أجادلها وعدتها بأنَّني سأعمل بنصيحتها خلال أيام، - لكن صوتاً هاتفاً في داخلي أنبأني بأنَّ رحلتي إلى البحر الأسود لن تتم - . وقالت إنَّها ستشتري لي بنفسها بطاقة السفر. وحينذاك أخرجت كل ما أملك من مال، يعني ما يقارب العشرة آلاف روبل ونفحتها إيَّاها.

وسألت متعجِّبة: لماذا تعطيني كل هذا المبلغ. أجبتها بأنِّي أخاف اللصوص، وطلبت منها أن تحتفظ لي بالنقود معها وتفوّهت بكلام شبيه. أخذت النقود ووضعتها في محفظتها الصغيرة وغمرتني بالقبل. وقالت إنَّ الموت أهون عليها من فراقي، وتركها لي وحيداً وإنَّهم ينتظرونها وأنَّ للضرورة أحكامها وظروفها (وإنَّ غداً لناظره قريب).

ورجتني أن لا أخاف شيئاً.

كان ذلك في ساعة الغسق وفي منتصف شهر تشرين الأوَّل. قالت كلامها هذا وانصرفت. أمَّا أنا فقد استلقيت على الديوان وغفوت دون أن أضيء المصباح. واستيقظت بل قل أيقظني إحساس بأنَّ الأخطبوط بجانبي. وعبثت في الظلمة وأضأت المصباح بعد لأي، فقد أعلنت ساعة الجيب الثانية بعد منتصف الليل. واضطَّجعت معتلاً متألِّماً، واستيقظت سقيماً، وبدا لي فجأة أنَّ عتمة الخريف تحطِّم زجاج النافذة، وتجتاح الغرفة، وتراني أغرق فيها كما لو كنت أغرق في المِداد.

ونهضت في الصباح إنساناً مسلوب الإرادة، لا يملك من أمره شيئاً. فصرخت وخطرت لي فكرة، أن أهرب والتجىء إلى إنسان، أيّ إنسان، حتَّى ولو إلى مالك البيت الذي يقطن فوقي. ونشب صراع داخلي، وصرت أشبه بالفاقد الوعي. وتبقَّى لديَّ من القوة ما ساعدني لأبلغ الموقد بصعوبة وأشعل فيه الحطب؛ وحينما بدأ الحطب يفرقع وصرَّت الدرفة، استقرَّت نفسي بعض الشيء... وانطلقت إلى المدخل وأضأت المصباح وعثرت على قنينة خمر أبيض، فنزعت سدَّادتها ورحت أجرع الخمرة من فوهتها، وتخدَّر الخوف بمقدار، على الأقلّ لم يعد ثمَّة داعياً للفرار واللجوء إلى المالك، ورجعت إلى قرب الموقد، فتحت بابها

فبدأ حرّ اللهيب يلفح وجهي ويديَّ، فهمست:

ـ داهمتني مصيبة! تعالي تعالي.

لكن أحداً لم يأتِ، واضطَّرمت النار في الموقد، ونقرت الأمطار النافذة، وحينذاك وقعت الحادثة الأخيرة، أخرجت من درج الطاولة أوراق الرواية الثقيلة الوزن، وأخرجت كذلك دفاتر المسودَّات وشرعت في حرقها؛ وكان هذا العمل من الصعوبة بمقدار، لأنَّ الورقة المكتوبة لا تحترق بسهولة. ومزَّقت الدفاتر وشوَّهت أظافري، ووضعتها بين وَقش الحطب، وحرَّكت الأوراق بالمسعار.

كان الرماد يغلبني من حين لآخر ويفوز، ويخنق اللهيب، لكنَّني قاومته، ورغم أنَّ الرواية قاومت بعناد، لكنَّها هلكت أخيراً وصارت إلى رماد.

كانت تلوح أمام ناظري كلمات طالما عرفتها عن ظهر قلب. وبدت صفرة اجتا حت الصفحات وتنقَّلت من أسفل إلى أعلى. وبرزت الكلمات فوق الصفرة. ولم تتوارَ إلا حينما كانت تسودُّ الورقة، وكنت أكمل مجهزاً بعنف على الورقة بالمسعار.

أثناء ذلك الوقت، سمعت من النافذة جلبة إنسان ما. وقفز قلبي من مكانه. رميت الدفتر الأخير في النار ووثبت لأفتح الباب.

أوصلتني درجات الطوب من القبو حتى باب الحوش. ركضت نحو الباب، فتعثَّرت وسألت بهدوء:

ـ من هناك؟.

ـ أجابني صوت، كان صوتها:

ـ هذا أنا.

لم أعد أذكر كيف قدرت على حمل السلسلة والمفتاح. ما أن خطت إلى الداخل، حتَّى التصقت بي وهي مبلَّلة الخدَّين مبعثرة الشعر، ترتعش مقرورة من البرد.

ـ أنتِ!؟ أنتِ؟.. وانقطع صوتي ثم ركضنا إلى تحت. وفي المدخل نزعت عنها معطفها. ودخلنا بسرعة إلى الغرفة الأولى. وصرخت... وانتشلت بيديها العاريتين من الموقد الرزمة الأخيرة المتبقية التي كانت تحترق، ورمتها على الأرض. وفي الحال ملأ الدخان الغرفة. ودُست النار بقدمي، أمَّا هي فقد ارتمت على الديوان وأرسلت في البكاء والنشيج..

وحينما هدأت واستقرَّت نفسها، قلت لها:

ـ لقد كرهت هذه الرواية. إنَّني أخاف فأنا مريض وينتابني الهلع

نهضت وقالت:

ـ يا إلهي! كم أنت مريض؟ ماذا جنيت ماذا؟ لكنَّني سأعمل على خلاصك، سأخلِّصك. ماذا يحدث؟

ورأيت عينيها المتورِّمتين من الدخان والبكاء، وشعرت كيف أمرَّت بيديها الباردتين على جبهتي. وغمغمت وهي تتشبَّث بكتفي:

ـ سأشفيك، سأشفيك وستعيد كتابة الرواية من جديد. لماذا، لماذا لم أحتفظ بنسخة واحدة عندي؟!.

وكشَّرت ساخطة وتفوَّهت بكلمات مبعثرة. وبعد ذلك زمَّت شفتيها وشرعت تجمع وتسوِّي الصفحات المحترقة.

كانت هذه الصفحات فصلاً من الفصول الوسط في الرواية. ولم أعد أذكر أيّ فصل بالضبط.

جمعت الصفحات المحترقة ورتَّبتها، ثمّ لفَّتها بورقة وربطتها بشريط.

وبدا أنَّها كانت ممتلئة عزماً وحزماً وملكت نفسها، وطلبت خمرة، وبينما هي تجرعها، شرعت تتكلَّم بهدوء.

قالت: عاجلاً أم آجلاً سيدفع المرء ثمن نفاقه غالياً، وأنا لا أريد أن أكذب بعد اليوم. كان بإمكاني أن أبقى عندك الآن لكنَّني لا أريد أن أقدم على مثل هذا العمل وبهذه الطريقة. أنا لا أريد أن يحفر في ذاكرته أنَّني هربت منه ليلاً. لم يسبِّب لي في يوم من الأيام أيّ أذى. لقد دعوه فجأة إلى المصنع بسبب حريق شبَّ هناك ولكنه سيؤوب بسرعة. سأشرح له كلَّ شيء في صباح الغد. سأقول له إنَّني أحبّ إنساناً آخر. وسأعود إليك ولن أفارقك إلى الأبد. أجب ربَّما لا تريد منِّي أن أقدم على هذا العمل؟.

وأجبتها بقولي:

يا مسكينتي! يا مسكينة! لا لن أسمح لك بالقيام بمثل هذا. ستسوء حالتي ولا أريد لك أن تهلكي معي.

وسألتني بعد أن قرَّبت عينيها من عينيَّ:

ـ أيكون هذا هو السبب الوحيد؟

وانتعشت بل بُعثت حيّة، وكأنَّ روحاً جديدة سكنتها، التصقت بي وعانقتني وقالت:

ـ سأموت معك. سأكون عندك في الصباح.

وهكذا... وآخر ما أتذكَّره في حياتي كانت دفقة نور سطعت من المدخل، وفي دفقة النور تلك أذكر خصلة شعرها المتطايرة وقبعتها وعينيها المملوءتين حزماً وعزماً.. أذكر أيضاً شبحاً أسود على عتبة الباب الخارجي ورزمة بيضاء.

قلت لها:

ـ كان بودِّي أن أرافقك، لكنَّني لا أملك القوّة لأعود وحيداً إلى البيت فإنني أخاف.

ـ لا تخف. اصبر قليلاً. ساعات قلّة وأكون عندك في صباح الغد. هذه كانت كلماتها

الأخيرة التي سمعتها في حياتي.

ـ هسّ ـ فجأة قاطع المريض نفسه ورفع إصبعه وقال:

ـ قلقة هذه الليلة المقمرة. وسرعان ما اختفى عن الشرفة.

وسمع إيڤان صرير العجلات الصغيرة قادمة من الممشى. وسُمع نشيج إنسان ما أو صيحة ضعيفة.

وحينما سكنت الأشياء، رجع الضيف وأعلن بأنَّهم أتوا بنزيل إلى الغرفة رقم ١٢٠، يُطالب بأن يعيدوا إليه رأسه.

وصمت المتحدِّثان وقد انتابهما الجزع، لكنَّهما سرعان ما هدءا وعادا إلى حكايتهما. أوشك الضيف أن يفتح فاه ويتحدَّث، إنَّما الليلة كانت قلقة حقًّا، فقد سُمعت أصوات في الممشى، وشرع الضيف يُحدِّث إيڤان وقد قرَّب فمه من أذنه، يتحدَّث بصوت خافت بحيث أنَّ ما قصّه بقي حديثاً غامضاً وسريًّا لا يعرف سوى الشاعر كنهه، باستثناء الجملة الأولى: بعد مضيّ ربع ساعة على تركها لي، دقّوا على نافذتي.

ما قصَّه المريض على مسامع إيڤان أقلقه وأهاجه. هذا ما بدا من وجهه الذي تشنَّج مراراً، ومن عينيه اللتين كان يعوم ويتقلّب في سوادهما السخط والرعب.

أشار القاصّ بيده إلى ناحية القمر، الذي غاب ولم يَعُدْ يُرى من على الشرفة منذ وقت طويل.

وحينما خيَّم السكون ولم تعد تترامى إلى الآذان أصوات من الخارج، حينذاك ابتعد الضيف عن إيڤان وأخذ يتكلَّم بصوتٍ عالٍ:

نعم، وهكذا في منتصف شهر كانون الثاني، ليلاً، كنت مرتدياً المعطف ذاته وقد تقطَّعت أزراره، وكنت منكمشاً على نفسي مقروراً في الحوش، ومن ورائي كثبان الثلج قد غطَّت أغراس الليلك وأمامي وتحتي: نوافذ بيتي ناشرة الأضواء الضعيفة وقد غطَّتها الستائر، ألصقت أذني بالنافذة الأولى وأصخت السمع، كان يُسمع صوت حاكٍ في بيتي، هذا كلّ ما سمعته، وما قدرت أن أميِّز أو أن أرى شيئاً. وبعد أن وقفت بعض الوقت خرجت إلى الزقاق، وهبَّت عاصفة ثلجية. أخافني كلب تململ بين قدميّ فهربت منه إلى الجهة الثانية. وأضحى البرد والرعب رفيقيَّ الدائمين، وأدخلا إلى نفسي الغيظ والتأثّر الشديد.

ما كان بمقدوري الذهاب إلى مكان لأخلص. كان أسهل طريق للخلاص هو الإرتماء تحت الترام في نفس الشارع المتَّصل بالزقاق حيث أسكن. ورأيت من بعيد الصناديق الممتلئة بالنور المغطَّاة بالجليد، وترامى ضجيجها إلى مسامعي، ذلك الضجيج الكريه بسبب سيرها على الجليد. لكنَّ المسألة أيها الجار العزيز في أنَّ الهلع امتلك كل خلايا جسدي. وكما تخاف

الكلاب من الترام خفت منه أنا كذلك. أصدقك القول إنَّ مرضي هو الأخبث والأسوأ في هذا المبنى.

وقال إيڤان مؤاسياً المريض المسكين:

ـ أما كان بمقدورك أن تخبرها بما آلت إليه حالك؟ أتكوْن نسيت أنَّ نقودك معها؟ لا بدَّ أنَّها حفظتها لك؟

ـ لا أشكّ في هذا مطلقاً. حفظت لي المال، لكن كما يبدو أنَّك لم تفهمني؟ أو أكون أنا على الأرجح قد فقدت موهبتي القديمة في السرد ووصف الأمور وصفاً حسناً. صفوة القول إنَّني غير متأسِّف عليها، لأنَّها لم تعد تنفعني بشيء بعد الآن. أأعلمها بما آلت إليه حالي؟. يعني أنَّها سترى أمامها رسالة من مستشفى الأمراض العقلية. ـ وتأمَّل الضيف متهيِّباً خاشعاً ظلام الليل وأردف قائلاً: ـ وهل بالإمكان إرسال رسائل تحمل عنوان هذا البيت؟ أنا مريض نفسيًّا!! إنَّك تمزح يا صديقي!. لا لن أسبِّب لها التعاسة والشقاء، إنَّني غير قادر على ذلك.

ولم يجرؤ إيڤان أن يجيب. لكن إيڤان الصامت أحسَّ بآلام الضيف وشاركه شعوره الحزين. وهزَّ الضيف رأسه المثقل بألم الذكرى، ذلك الرأس المعتمر الطاقية السوداء، وأكمل قائلا:

ـ يا للمرأة المسكينة! صوت أمل داخلي يهتف، يبشِّرني بأنَّها نسيتني.

وقال إيڤان وجلاً: لكن يمكنك أن تتعافى وتشفى.

وأجاب الضيف بهدوء:

ـ لن أشفى، وحينما قال سترافنسكي إنَّه سيعيد إليَّ الحياة فإنَّني لم أصدِّقه. هو إنساني ويريد أن يؤاسيني. أنا لا أنكر بأنَّ حالتي الآن أفضل بكثير مما كانت عليه. حسناً أين توقَّفت في حكايتي؟.. عند الجليد والترامات الطائرة... عرفت أنَّ العيادة فتحت فمشيت إليها على قدميّ. وطفت المدينة بأكملها. جنون!... الجنون فنون. وفي الضاحية كدت أن أموت من الصقيع. أنقذتني المصادفة. تعطَّلت شاحنة، انكسر داخلها شيء ما، واقتربت من السائق، كان ذلك المكان بعيداً مسافة أربعة كيلومترات من المخفر. تعجَّبت من شفقة السائق عليَّ. وسارت الشاحنة بي متَّجهة إلى هذا المكان ونقلتني. تحججت بأصابع رجلي اليسرى بأنَّها قد صقَّعت، وعملوا على شفائي. وها هو الشهر الرابع يمرّ وأنا في هذا المكان. أصارحك القول أنَّ هذا المكان ليس رديئاً، ليس رديئاً أبداً. على الإنسان أن لا يقدِّر ولا يخطِّط لمشاريع كبيرة. حقًّا وصدقاً أيها الجار العزيز. فأنا مثلاً أردت أن أجول حول الكرة الأرضية. حسناً وماذا تراني صانع ولم يكتب لي أن أحقِّق ما حلمت به طويلا؟. إنَّني أرى الآن جزءاً صغيراً من الكرة الأرضية. وإنَّني أرى بأنَّ هذا الجزء ليس

هو أفضل ما فوق الثرى، لكنّني أعيد وأقول إنَّ هذا الأمر ليس سيّئاً إلى درجة كبيرة. ها هو فصل الصيف قادم إلينا، وعلى الشرفة سيعرّش اللبلاب، كما وعدت پراسكوڤايا فيدوروڤنا. والمفاتيح هذه أعطتني مزيداً من الإمكانيات، وفي الليالي سيطلع القمر. آه غاب القمر الآن!، الطقس يبرد، ونحن ما بعد منتصف الليل، حانت ساعة ذهابي.

وسأل إيڤان راجياً:

ـ قل لي وماذا حدث بعد ذلك مع يسوع وبيلاطس. أرجوك أريد أن أعرف.

وأجاب الضيف وهو يرتعش مرضاً:

ـ آه لا لا. ليس بمقدوري أن أتذكَّر روايتي دون رعشة، بل بإمكان صاحبك الذي تعرَّفت إليه في البطريركية أن يحدّثك بأسلوب أفضل. أشكرك على حديثك. إلى اللقاء.

وقبل أن يثوب إيڤان إلى رشده، أُغلق باب الشعرية محدثاً رنيناً خافتاً، وتوارى الضيف.

الفصل الرابع عشر

المجد للديكِ

وتقطّعت نياط قلب ريمسكي كما يُقال، فانهزم إلى مكتبه على عجل ولّما ينته من تدوين المحضر.

وهناك جلس إلى الطاولة، وبعينين ملتهبتي النظرات من شدّة التأثّر، راح ينظر إلى أوراق العملة المسحورة المرميّة أمامه.

المسؤول المالي على حافّة الجنون. يكاد يفقد عقله. ففي الخارج لغط رهيب وهمهمة، وسيل المشاهدين يتدفّق إلى الشارع من مبنى القاريته كتدفّق السيل الجارف.

ما الذي يقلق المسؤول المالي: أهي صفّارات الميليشيا، التي ترامت إلى مسامعه بوضوح؟. هذه الصفّارات التي ما بشّرت في يوم من الأيام بخير، أتراها وتّرت أعصاب ريمسكي؟

الصفير يتكرّر، يتكاثر، يقوى، وزعيق وصراخ، وتهكّمات علت، وهرج ومرج..

وأدرك المسؤول المالي أنَّ ثمّة حدثاً خطيراً.. وفضيحة مشينة. وأنَّ لما حدث علاقة وثيقة بتلك الحفلة القبيحة التي أحياها الساحر الشرّير الأسود ومعاونوه. علاقة وكأنّه أريد لها أن تكون...

ولم يغلط المسؤول المالي الحسّاس.. في تخميناته كان على حقّ. فما أن نظر من النافذة المطلّة على شارع السادوڤايا، حتى تغيّرت ملامح وجهه، بل قل اعوجّت وتشنّجت. ولم يهمس بل فحَّ قائلاً:

حَدَثَ ما خفتُ أن يحدث!...

وعلى الرصيف، في الضوء المنبعث من المصابيح الساطعة الأنوار، رأى سيِّدة، كانت ترتدي قميصاً وبنطالاً بنفسجيّ اللون، وتعتمر قبّعة وهي تحمل في يدها مظلّة.

وحول هذه السيِّدة الحائرة تماوج حشد عرمرمي. كان أفراد الحشد يقرفصون حيناً، ويركضون إلى إحدى الجهات أحياناً، ويطلقون الصيحات... والقهقهة والضحك. صيحات على أثرها كان يدبّ الصقيع في ظهر المسؤول المالي. وتقلّب قرب السيِّدة مواطن، ونزع عنه معطفه الصيفي، ومن عظم اضطرابه لم يستطع إخراج يده من كمّ المعطف.

وسُمع صراخ وزئير قهقهة من مكانٍ آخر، ومن المدخل الشمالي أيضاً، وأدار غريغوري دانيلوفْتش رأسه، فرأى سيِّدة ثانية في فستانٍ ورديّ اللون.

قفزت تلك السيِّدة على الرصيف، محاولة الاختفاء في المدخل، لكن الحشد المندفع كالسيل، قطع عليها طريقها. والضحية المسكينة، ضحية الطيش والأناقة، والمخدوعة بشركة فاغوت النجس. لم يعد عندها غير أمنية واحدة وهي أن تفتح الأرض فاها وتبتلعها.

واتجه شرطي نحو المرأة التعسة الحظ، وهو يشقُّ الهواء بالصفير. ووراءه فتيان مرحون يسرعون في القبّعات، ويطلقون الصيحات والقهقهة والصراخ.

وركض نحو المرأة الأولى العارية، حوذي نحيف، مشورب، وأوقف أمامها بقوة حصانه المنهوك الهزيل، وافترَّ وجهه عن ابتسامة سارّة.

وضرب ريمسكي على رأسه بقبضة يده، وبصق وهو يبتعد عن النافذة، وجلس إلى الطاولة بعض الوقت مصخياً بسمعه إلى ما يحدث في الشارع.

وعلا الصفير في كل مكان، علا حتى بلغ الدرجة القصوى، ثمَّ أخذ بعد ذلك ينخفض، وخُنقت الفضيحة في مهدها بسرعة أذهلت ريمسكي.

وأزَفَتْ ساعة العمل، وكان على المسؤول المالي تجرّع كأس المسؤولية المرّ المذاق. وأثناء عرض المشهد الثالث، قاموا باصلاح الأجهزة، فأصبح من الضروري الاتصال الهاتفي، والتبليغ بما حدث، وطلب النجدة، والتنصُّل من المسؤولية وإلقائها على ليخادييف وغير ذلك.

لكن... ويا لكلمة ولكن... ليُخزَ الشيطان، فقد وضع المسؤول المعتكر المزاج مرَّتين يده على السمَّاعة ثم عاد ورفعها.

وفجأة، وسط صمت كصمت المقابر، انفجر الجهاز أمام المسؤول المالي بالرنين...

وارتعدت فرائص ريمسكي، وفكَّر في نفسه: «كم أنا متعب ومُرهق الأعصاب». ورفع السمَّاعة. رفع السمَّاعة، لكنَّه في الحال عاد وابتعد عنها. وأصبح لون وجهه بلون الورق الأبيض أو أكثر بياضاً، فقد همس في السمَّاعة صوت نسوي هادىء، ليِّن النبرات، قائلاً:

«لا تتَّصل يا ريمسكي بأحد. فإن فعلت تزداد الحالة سوءاً».

وصمتت السمَّاعة، وأحسّ المدير المالي بدبيب يسري في ظهره، كدبيب النمل. ووضع السمَّاعة، ولأمر ما، التفت إلى النافذة وراء ظهره. وعبر أغصان شجرة الإزدراخت القليلة، المكسوّة بثوب أخضر باهت، رأى القمر تائهاً يجتاز غيمة شفَّافة.

وراح ريمسكي يحدِّق في الأغصان، ويسمِّر نظراته بها، وكلَّما أطال النظر إليها، كانت

مشاعر الخوف تزداد تملّكاً منه.

مرغماً، وبعد لأي وبشقّ النفس، استطاع المسؤول المالي أن يشيح بوجهه عن النافذة القمرية ويقوم. لم يعد ثمّة ضرورة للاتصال الهاتفي لا الآن ولا بعد. مسألة واحدة فقط شغلت باله، هذه المسألة هي، كيف سيتاح له الخروج من المسرح وبسرعة. وأرهف السمع: الصمت يلفّ المسرح... صمت عميق مطبق... وأدرك المسؤول أنّه متروك وحيداً، ومنذ زمن في الطابق الثاني... فيا للرعب الفظيع الذي استولى على القلب...

كانت فرائص المسؤول المالي ترتعد ما إن كان يفكّر بأنّ عليه اجتياز الممرّات الخالية، والنزول على الدرج وحيداً.

واختطف المسؤول الأوراق النقدية الممغنطة المسحورة من على الطاولة على عجل، ودسّها في الحقيبة، ومن باب تشجيع النفس سعل، لكنّ سعاله أتى واهياً أجشّاً. شعر برائحة رطوبة منتنة انبعثت من تحت باب المكتب؛ فسرت في مفاصل جسده قشعريرة. وفجأة دقّت الساعة معلنة منتصف الليل، فازدادت مخاوفه، وترك قلبه، نهائياً، مكانه في الصدر، لمّا سمع صرير مفتاح انكليزي يدور في ترباس الباب.

دسّ المسؤول المالي في الحقيبة، يديه الرطبتين الباردتين، وفكّر في نفسه بأنّه إذا طال الصرير في ثقب الباب، فلن يعود بمقدرته الصبر، وسيصرخ بملء فيه مستنجداً.

وأخيراً، راضخاً للجهود التي بُذلت، فُتح الباب. ودخل ڤارنوخا إلى المكتب بدون أيسر ضجّة. وكما نهض ريمسكي من المقعد بسرعة، عاد وجلس، لأنّ رجليه كانتا واهيتين وعجزتا عن حمله؛ وملأ صدره بالهواء وتنشّق وارتسمت على فمه ابتسامة استعطاف ومداهنة وتلفّظ بهدوء:

ـ يا إلهي... كيف أخفتني!.

أجل... هذا الظهور المفاجيء قادر على بعث الخوف في قلب أي إنسان، بيد أنّه في الوقت ذاته، تجلّى عن فرحة كبرى. لقد ظهر على الأقلّ أحد أطراف هذه القضية المعقّدة.

وقال ريمسكي بصوت أجشّ وقد ازداد تشبُّثاً بهذا الطرف:

ـ حسناً.. حسناً.. هاتِ ما عندك.. وماذا يعني كلّ هذا؟!.

وأجاب الداخل بصوت خفيض وهو يغلق الباب من ورائه:

ـ معذرة!... لقد ظننت أنّك غادرت.

تلفّظ ڤارنوخا بهذا، ودون أن ينزع قبّعته، مرّ بالمقعد الذي كان يجلس فيه ريمسكي، وجلس إلى الطاولة قبالته.

الجدير ذكره أنّ جواب ڤارنوخا رشح بأمور غريبة، طعنت المسؤول المالي في إحساسه بقدرته على الجدل مع أفضل عالم رصد زلازل في أفضل محطّات العالم.

كيف تحدث مثل هذه الأمور؟ ولماذا دخل ڤارنوخا إلى مكتب المدير المالي، إذا سبق وافترض أنَّه غير موجود في المكتب؟. إنَّ لڤارنوخا مكتبه الخاص، هذا أوّلاً، وثانياً من أي باب دخل إلى المبنى. في دخوله إلى المبنى، كان عليه أن يُصادف لا محالة أحد المناوبين الليليين، وكلّ هؤلاء قد أُبلغوا بأنَّ غريغوري دانيلوڤتش ريمسكي سيتأخَّر في مكتبه بعض الوقت.

لكنَّ المسؤول المالي لم يفكِّر طويلاً بسبب ما حدث من غريب الأمور وعجيب المصادفات. كان ثمّة ما هو أهمّ من ذلك.

وقال ريمسكي:

ـ لكن لماذا لم تتلفن؟ وماذا تعني كلّ هذه المخرقات مع يالطا؟.

ـ ما قلته كان صحيحاً. لقد وجدوه في فندق في پوشكين. ـ أجاب المدير مُتمَطِقاً كأنَّما أزعجه وأوجعه ضرس.

ـ كيف وجدوه في پوشكين؟ في پوشكين قرب موسكو؟ والبرقيات الواردة من يالطا!...

ـ أيّة يالطا... ليأخذ الشيطان تلك اليالطا... لقد أسكر موظّف البرق والبريد في پوشكين، وبدأ الاثنان بالعربدة، والقيام بالأعمال المشينة... ومنها إرسال برقيات معنونة على أنَّها من يالطا.

ـ ها... ها... حسناً حسناً. أنشد ريمسكي، ولمعت عيناه بنورٍ أصفر، وارتسمت في رأسه صورة فرحة تُمثِّل ستيپا وقد طُرد من عمله طرداً موجعاً.

أزفت ساعة التحرّر التي طالما انتظرها المدير المالي طويلاً... التحرُّر من المصيبة التي سبَّبها ليخدييف!... ومن يعلم قد يلحق بمسبِّب المصائب قصاص أشدّ من الطرد وأوجع!.

وقال ريمسكي وهو يضرب بورقة النشّافة الطاولة:

ـ احكِ كلّ التفاصيل.. هات:

وشرع ڤارنوخا يقصّ: ما أن ظهر في المكان الذي أرسله إليه المدير المالي، حتى استقبلوه في الحال، وأصغوا إلَيه منتبهين. ولم يصدّق أحد منهم أنَّ ستيپا في يالطا. الكلّ وافق على افتراضه.. إنَّ ليخدييف موجود في يالطا قرب پوشكين.

وقاطع ريمسكي ڤارنوخا بقوله:

ـ وأين هو ليخدييف الآن؟

وأجاب ڤارنوخا، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عوجاء:

ـ حيث يتوجَّب عليه أن يكون. إنَّه في المستوصف، ويعملون على تصحيته.

ـ حسناً، حسناً! شكراً:..

وأكمل ڤارنوخا حديثه... وكلّما تعمَّق في الحديث، كانت حلقات السلسلة تسطع وتلمع أكثر. سلسلة أعمال ليخدييف القبيحة وموبقاته. وكلّما بدت حلقة، لعنت أختها السابقة وتفوّقت بشناعتها عليها.

سيدفع ستيپا غالياً، ثمن مراقصته موظّف البريد وعناقه له في الروضة، وقد تعتعهما السكر. رقصة واحدة أمام مكتب البرق في پوشكين على أنغام هارمونيكا متسكِّعة، ومطاردته النساء وهنَّ يزعقن ويولولن من الرعب!. وافتئاته على عامل المقصف وخصامه معه.. ورميه البصل الأخضر فوق أرض (يالطا).. وتكسيره ثماني قناني من خمر (دانيلا) الأبيض، وتحطيم عدّاد سيَّارة رفض سائقها التخلّي عنها له، وتهديده بتوقيف مواطن حاول ردعه عن القيام بأعمال دنيئة. كلّ هذا فعله ليخدييف. فيا للرعب الأسود ويا للمصيبة الدهماء...

إنَّ ستيپا لم يكن نكرة في موسكو... فمسارح المدينة والعاملون بها يعرفونه جيِّداً. الكلّ يعلم أنّ هذا الرجل ما كان هدية من هدايا السماء ولا نعمة من نعمها... إنَّما ما تفوَّه به المدير عنه كان مبالغاً فيه، ومبالغاً كثيراً وكثيراً...

وتسمَّرت نظرات ريمسكي الثاقبة في وجه المدير ڤارنوخا، وكلّما استرسل الأخير في حديثه، كلّما أصبحت النظرات المسمّرة أشدّ كآبة وظلمة. وكلّما فاضت تلك التفاصيل القبيحة بالحيوية ورشحت بالجمال، كلّما ضعفت ثقة المستمع بالراوي.. وبالتفاصيل التي كانت بمثابة توابل تطيب بها الأحاديث المختلقة...

وحينما روى ڤارنوخا أنَّ ستيپا بلغ به الاستهتار والطيش لدرجة أنّه قاوم الذين أتوا وراءه لاعادته إلى موسكو، حينذاك تأكد للمدير المالي كذب هذا العائد في منتصف الليل. نعم تأكّد لريمسكي أنَّ حديث ڤارنوخا كان كذباً وتلفيقاً. كذب من الكلمة الأولى وحتّى الأخيرة. ڤارنوخا هذا لم يذهب إلى پوشكين وستيپا ليخادييف ما كان قطّ هناك. ولم يكن ثمّة موظّف برق سكران، ولم يُكسَّر زجاج في الخان، ولم يُقيِّدوا ستيپا بالحبال أو يربطوه. ما حدثت مثل هذه الأمور قط.

وما أن تيقَّن المدير المالي في نفسه من كذب المدير العام، حتّى سرى الهلع في جميع مفاصل جسده ابتداءً من قدميه، ومرّتان عاد وخُيِّل إليه أنَّ الأرض ترشح برطوبة ملاريا عفنة. وثبَّت بل سمَّر نظراته في وجه المدير، الذي كان طيلة الوقت يتململ في مقعده، هادفاً أن لا يخرج من تحت ظلّ مصباح الطاولة الأزرق، وقد تستَّر بطريقة تثير الدهشة، بجريدة دارئاً عنه النور المزعج، كما ادَّعى.

شغل بال المسؤول المالي أمر واحد. ماذا يعني كلّ ما يسمعه؟ ولماذا يكذب هذا العائد في ساعة متأخِّرة من الليل إلى المبنى الخالي الصامت؟، ولماذا يكذب بكلّ وقاحة؟..

الإحساس بالخطر المجهول الداهم بدأ يقلق نفس المسؤول المالي ويكئبها . ومتظاهراً بأنَّه متشاغل عن مراوغة المدير وعبثه بالجريدة، راح المسؤول المالي يتأمَّل وجه مديره ولم يعد يصغي إلى هرائه.

كان ثمّة لغزاً... أشدّ غموضاً من تلك الحكاية الملفَّقة عن مغامرات ستيپا في پوشكين، التي لا يعلم أحد لماذا لُفِّقت. واللغز الغامض كان في ذلك التبدّل في مظهر ڤارنوخا الخارجي وفي مسلكه.

وبالرغم من شدِّ المدير لحافَّة الطاقية على عينيه ليظلِّل وجهه، وبالرغم من تحريكه للجريدة وعبثه بها، فقد تسنَّى للمسؤول المالي أن يرى خدشاً هائلاً، في الجهة اليمنى عند الأنف. وكذلك لاحظ أنَّ وجه ڤارنوخا الذي كان ينضح بالعافية، كان اليوم ممتقعاً بلون الطباشير، شاحباً كوجه العليل. كذلك فكَّر المسؤول في أمر الشال الذي لفّه ڤارنوخا حول رقبته في ليلٍ خانق الحرّ. وإذا أضفنا إلى كلّ ذلك، ظهور عادات منفِّرة عند المدير العام مثل: اللعق والتمطّق والتغيّر الحاد في نبرات الصوت، الذي أمسى خافتاً وخشناً، وآثار لصوصية وجبن في العينين. إزاء هذه التحولات يمكننا أن نؤكِّد وبجرأة: أنَّ إيڤان ساڤليڤتش ڤارنوخا تبدَّل كليًّا، بحيث أضحى مجهولاً حتَّى من أقرب المقرَّبين إليه.

ثمّة شعور مؤلم أقلق المسؤول المالي. ما سبب هذا الشعور؟ ما كان بمكنته إدراكه، رغم أنّه أجهد دماغه الملتهب بما فيه الكفاية، وتأمَّل وجه ڤارنوخا مليًّا.

وتأكَّد لريمسكي أنَّ ثمّة حادثاً سريًّا مخيفاً وقع لهذه الكتلة المؤلَّفة من المدير ومن المقعد الذي يعرفه الجميع أحسن معرفة.

وهدر ڤارنوخا مكملاً حديثه: وتغلّبوا عليه ونقلوه في الشاحنة. ـ تفوّه بكلماته وهو يتأمَّل محدِّثه من وراء صفحة الجريدة، ويخفي الخدش بيده.

وفجأة، مدَّ ريمسكي يده، وبحركة تلقائية، آلية، كبس على زرّ الجرس الكهربائي، وفي الوقت نفسه راح يضرب الطاولة بأصابع يده، إذ أنَّ الرعب سرى في مفاصل جسده.

كان لا بدَّ من سماع صوت الانذار. نعم لا بدَّ أن يعقب الكبسة على الزرّ: سماع الصفير الحادّ في ذلك المبنى الخالي. لكن لم يحدث شيء من هذا، فالزرّ كان ميّتاً والجرس مخرَّباً.

ولم تنطلِ حيلة المسؤول المالي على ڤارنوخا، فسأل بعصبيّة وتشنُّج، ولمعت في عينيه نار الضغينة السافرة:

ـ لماذا كبست على الزرّ؟

وأجاب المسؤول المالي بصوت خافت:

ـ حركة عفوية. ـ قال هذا وأبعد يده، وبدوره سأل بصوتٍ متهدِّج:

ـ ما سبب هذا الخدش في وجهك؟.

فأجاب ڤارنوخا وهو يحوّل نظره عن المسؤول المالي:

ـ انحرفت السيَّارة، فاصطدمت بمقبض الباب.

وقال ريمسكي في نفسه: «إنَّه يكذب»؛ وفجأة استدارت عيناه ولمعتا ببريق الجنون، وحملق بمسند المقعد فرأى ويا للهول مما رأى!!... استقرَّ على الأرض، وراء المقعد ظلاَّن متقاطعان، وكان أحدهما أشدّ سواداً وكثافة من الآخر الذي كان رماديًّا باهتاً. وكان يُرى بوضوح ظلّ مسند المقعد وأرجله المدبَّبة. ولم يكن ثمّة ظل لرأس ڤارنوخا ولا لرجليه.

وصرخ ريمسكي في نفسه، قانطاً، واعترته رعدة خوف: «إنَّه لا يلقي ظلالاً!».

والتفت ڤارنوخا مُسترقاً كاللص، وتتبَّع نظرات ريمسكي المجنونة، وأدرك بأنَّه انفضح. فقام من على المقعد، وابتعد عن الطاولة وهو يضغط المحفظة بين يديه. وما كان من المسؤول المالي إلاَّ أن لحق به.

ـ حزر الملعون، طيلة عمره كان لبيباً فطناً. ـ قال كلماته، وارتسمت على فمه ابتسامة شريرة. وبغتة وثب نحو الباب، وأنزل الترباس بسرعة.

عندها التفت المسؤول المالي يائساً، ثم ابتعد عن النافذة المطلّة على الحديقة. وفي هذه النافذة المغمورة بضوء القمر، رأى وجه فتاة عارية ملتصقة بالزجاج. رأى كذلك يدها، وقد أدخلتها في الكوّة وهي تعالج السقَّاطة السفلى، إذ أنَّ السقَّاطة العليا كانت مفتوحة.

وبدا لريمسكي أنَّ نور مصباح الطاولة انطفأ وأنَّ طاولة الكتابة بدأت تميل، فاجتاحته موجة من الصقيع. لكنَّه تغلَّب على ضعفه، ولم يسقط على الأرض، وبما تبقَّى لديه من قوة استطاع أن يهمس همساً لا أن يصرخ:

ـ انجدوني!...

في هذا الوقت، وقف ڤارنوخا يحرس الباب، ثم قفز وطار واستقرَّ في الهواء، وراح يتأرجح ويلوِّح بأصابعه ويشير نحو ريمسكي ويفحّ ويتمطَّق ويغمز الفتاة من النافذة. أمَّا تلك فاستعجلت وأدخلت رأسها الأشقر في الكوّة: ومدَّت يدها، وبدأت تعالج بأظافرها المزلاج الأسفل، وتهزّ الإطار. وتمدَّدت يدها، وكأنَّها من مطَّاط، واكتست باللون الأخضر، لون الجثث. وأخيراً أمسكت الأصابع الميِّتة الخضراء بطرف المزلاج وأدارته، فبدأ الإطار ينفتح.

وأطلق ريمسكي صرخة ضعيفة، والتصق بالحائط، واتخذ المحفظة درعاً واقية، وأيقن من دنوّ أجله.

وانفتحت النافذة على مصراعيها، لكن بدلاً من أن تتضوَّع رائحة الليل النضرة وأريج الزيزفون، اجتاحت الغرفة رائحة الدهاليز.

ودخلت المرحومة وجلست على طنف النافذة. ورأى ريمسكي بقعة الانحلال واضحة على

صدرها. في غضون ذلك الوقت، سُمِع صراخ سارّ مباغت انبعث من الحديقة، من ذلك المبنى المنخفض، وراء ميدان الرماية، حيث كانت تُربَّى طيور، تشارك في برامج المسرح.

وصاح ديك وبشَّر بالفجر الزاحف نحو موسكو من الشرق. وغضب بربري ساطع شوّه وجه العذراء، فأطلقت شتائم بحّاء وزعق ڤارنوخا وهوى على الأرض عند الباب، بعد أن كان معلَّقاً في الهواء.

وصاح الديك ثانية، وصرَّت العذراء أسنانها، وانتصب شعر رأسها الأشقر. ومع صيحة الديك الثالثة التفتت وطارت إلى الخارج. وعلى أثرها طار ڤارنوخا ببطء من النافذة، وتمدَّد في الهواء فذكَّر بكوبيدون.

وأمامنا الآن شيخ هرم كلَّل الشيب رأسه فبدا ناصعاً كالثلج الأبيض.. هذا الشيخ كان يُدعى في الزمن الماضي: ريمسكي.

ركض الشيخ العجوز إلى الباب، فتحه وولّى هارباً في الممرّ المظلم. وعلى الدرج، عند المنعطف، تلمَّس مفتاح الإضاءة وأنار الدرج وهو يئنّ من الخوف. وسقط على الأرض.. لم تعد تحمله رجلاه. يا للوهم ماذا يفعل حينما يصبح كالحقيقة. وخُيِّل للمذعور أنَّ ڤارنوخا يهوي عليه من علٍ.

أثناء هربه، رأى ريمسكي المناوب وقد غفا على كرسيّ في البهو قرب الصندوق. فتسلَّل من أمامه على رؤوس أصابعه وانسلَّ من الباب الرئيسي.

وبعد أن أخذ لنفسه قسطاً من الراحة في الشارع، ثاب إلى رشده وعاد إليه وعيه. افتقد قبّعته فلم يجدها. تذكَّر أنَّها بقيت في المكتب. فلم يأبه ولم يرجع ليأتي بها. واجتاز الشارع العريض وهو يلهث ووصل إلى الزاوية المقابلة عند دار السينما. وهناك تراءت له نار صغيرة حمراء. فوصل بعد دقيقة إليها. ولم يوقف له أحد سيَّارة.

وسرعان ما أوقف العجوز الخائف إحدى السيَّارات، وخاطب السائق وهو يضع يده على قلبه ويلهث:

- لك ما تريد، وأوصلني إلى قطار لينينغراد السريع.

فأجاب السائق بنفور مُعْرِضاً:

- إنَّني ذاهب إلى المرآب.

ولم يستمهله ريمسكي. فقد فتح المحفظة وسحب من داخلها خمسين روبلاً. ومدَّ يده بهذا المبلغ الكبير إلى السائق من النافذة الأمامية.

بعد لحظات كانت السيَّارة المترجرجة تطير كالاعصار في دائرة (السادوڤايا).

واهتزَّ الراكب فوق مقعده، وفي بقية المرآة المعلَّقة أمام السائق، كان ريمسكي يرى عيني السائق الطافحتين بالفرحة حيناً، وحيناً آخر يرى عينيه المخبولتي النظرات.

ونزل من السيَّارة، أمام المحطّة، ونادى إليه أوّل إنسان وقع نظره عليه. كان يرتدي المريول ويضع شارة الموظَّفين.

ـ تذكرة واحدة، درجة أولى، وأعطيك ثلاثين روبلاً.. قال هذا وأخرج من المحفظة ربطة أوراق نقدية من فئة العشرة روبلات.

ـ لا يوجد تذاكر درجة أولى.

ـ إذن تذكرة درجة ثانية.

ـ نفدت هذه التذاكر أيضاً.

ـ إذن درجة خشنة عادية.

التفت الرجل صاحب الشارة، إلى الساعة المضاءة الميناء، واختطف الأوراق النقدية من بين يدي ريمسكي.

وبعد خمس دقائق، انطلق القطار السريع من تحت قبّة المحطّة الزجاجية، وتوارى في الظلمة تماماً، وبداخله ريمسكي.

الفصل الخامس عشر

حلم نيكانور إيڤانوڤتش

ليس صعباً على المرء أن يجزر بأنَّ الرجل السمين صاحب الوجه الأرجواني الذي نقل إلى الغرفة رقم ١١٩ في العيادة، كان نيكانور إيڤانوڤتش باسوي.

ولم يأتِ إلى البروفسور ستراڤنسكي مباشرة، أتى إليهَ بعد أن مرَّ ومكث في مكان آخر، غير العيادة.

القليل أو أقلّ من القليل بقي في ذاكرة نيكانور ايڤانوڤتش عن ذلك المكان الأوّل. تذكَّر أنَّ هناك طاولة كتابة، وخزانة وديوان. وتذكَّر أنَّهم دخلوا في حديث معه وقد كان زائغ النظرات بسبب الاحتقان في الدم والتهيُّج النفسي، لكن الحديث الذي دار كان مشتَّتاً وغريباً، والأصحّ لم يدر أي حديث بالمعنى الصحيح للكلمة.

وكان أوّل سؤال طرح على نيكانور إيڤانوڤتش هو التالي:

ـ أنت نيكانور ايڤانوڤتش باسوي رئيس تعاونية البيوت رقم ثلاثمئة واثنين ب ي ث في شارع السادوڤايا؟

وأجاب نيكانور إيڤانوڤتش على هذا السؤال بأن انفجر بضحك غريب وقال بالحرف الواحد:

ـ أنا نيكانور، طبعاً نيكانور! لكن القول بأنَّني رئيس، أمر يدعو للسخرية!

ـ ماذا تعني بجوابك؟ سُئل نيكانور إيڤانوڤتش، وقد زرَّ السائل عينه.

ـ أعني... لو كنت رئيساً لكان يتوجَّب عليَّ في الحال أن أثبت أنَّه يملك قوّة شريرة! وإلاَّ ما معنى هذا؟ عدسة النظَّارات تطقطق... يرتدي الخرق البالية... كيف يمكن أن يكون مترجماً عند الأجنبي!.

وسألوا نيكانور إيڤانوڤتش:

ـ عمَّن تتحدَّث؟

ـ عن كارڤيوف! ـ هتف نيكانور إيڤانوڤتش ـ لقد استقرَّ عندنا في الشقّة رقم ٥٠. اكتبوا: يجب إلقاء القبض على كارڤيوف حالاً. اكتبوا: هو هناك في المدخل السادس.

وسألوا نيكانور إيڤانوڤتش بمودّة:

ـ من أين لك العملة الصعبة؟.

ـ الله الحق على كلّ شيء قدير ويعلم بما في الصدور وإليه أعود. لم أمسك وما أظنّني أمسكت بيدي أيّة عملة صعبة، وليعاقبني الربّ على سيّئاتي. وأكمل نيكانور إيڤانوڤتش بعاطفة وهو يزرّر القميص حيناً، وحيناً آخر يفكّ الأزرار، وأحياناً يرسم إشارة الصليب على صدره. ـ أخذت! أخذت لكنّني أخذت من عملتنا، عملة سوفياتية! لقد كنت أسجّل شققاً لقاء نقود.. إنّني لا أنكر هذا، وأمين سرّنا برولجنيف هو الآخر رجل شريف أيضاً، ولنقلها بصراحة: الكلّ لصوص في إدارة المساكن، لكنّني أعود وأؤكّد بأنّني لم آخذ عملة صعبة!.

وحينما طلب منه بأن لا يتحامق ويقصّ كيف وصلت الدولارات إلى مجرى التهوية، ركع على ركبتيه وترنّح وفتح فاه كأنّما أراد أن يبتلع بلاطات أرض الغرفة. وجمجم:

ـ أترغبون وآكل الأرض... لم آخذ؟!، أمّا كارڤيوڤ فشيطان رجيم. لكن بما أنّ للصبر حدوداً، فقد ارتفعت الأصوات وراء الطاولة، وأومأوا لنيكانور إيڤانوڤتش أنّ عليه التكلّم بلغة بشرية تفهمها الخلائق.

وهنا قام نيكانور إيڤانوڤتش وملأ زئيره الوحشي الغرفة ذات الديوان:

ـ ها هو! ها هو وراء الخزانة! ها هو يبتسم! ألا ترون نظاراته! القوا القبض عليه! رشّوا المبنى!..

ونضح وجه نيكانور إيڤانوڤتش بالدم، وأخذ وهو يرتعد يرسم الصليب في الهواء. ثم دنا من الباب وعاد وابتعد عنه، ورتّل صلاة، بل قل غنّى كلماتها.. وأخيراً بدأ يهذر.

لقد وضح تماماً أنّ نيكانور إيڤانوڤتش لا يصلح لأيّ حديث، فأخرجوه ووضعوه في غرفة منفردة حيث استقرّت نفسه قليلاً، ولم يفعل شيئاً غير الصلاة والنشيج.

وذهبوا بطبيعة الحال إلى شارع السادوڤايا، وزاروا الشقّة رقم ٥٠. لكنّهم لم يعثروا هناك لكارڤيوڤ على أثر. لا بل وإنّ أحداً في البيت لم يره ولا يعرف عنه شيئاً. كانت الشقّة التي شغلها المرحوم برليوز وليخادييف الموجود في يالطا خالية. وفي المكتب ثُبّتت أختام الشمع على الخزانات بطمأنينة، دون أن يخدشها أحد. وبهذا عادوا من شارع السادوڤايا، والجدير ذكره أنّ في عداد الوفد كان أمين سرّ إدارة التعاونيات السكنية برولجنيف المرتبك الضائع.

وفي المساء أُحضر نيكانور إيڤانوڤتش إلى عيادة ستراڤنسكي. وهناك بدا قلقاً جداً مما اضطّرهم إلى حقنه حسب وصفة ستراڤنسكي. ولم تغمض عينا نيكانور إيڤانوڤتش في الغرفة رقم ١١٩ إلاّ بعد منتصف الليل، وكان يرسل بين الفينة والأخرى غمغمة أليمة من الأعماق.

وسرعان ما أصبحت غفوته هانئة وانقطع عن الأنين والتقلّب وأخذ يتنفّس بيسر

واتزان، فتركوه وحيداً.

وراودت الأحلام أجفان نيكانور إيڤانوڤتش... وبدون أدنى شك كانت آلام يومه مادة أحلامه الأساسية. رأى في المنام كأنَّ فئة من الناس اقتادته وقد حملوا بين أيديهم أبواقاً ذهبية، وأوصلوه بمهابة وإجلال إلى أبواب كبيرة لمّاعة. وأمام هذه الأبواب أدّى له المرافقون التحية وعزفوا له لحناً. وبعد ذلك دوى صوت جهير من السماء قائلاً بفرح: أهلاً وسهلاً بك يا نيكانور إيڤانوڤتش، هيّا وسلِّم العملة الصعبة.

ورأى نيكانور إيڤانوڤتش المندهش المذهول فوقه سمّاعة سوداء.

وبعد ذلك.. رأى نفسه في قاعة مسرح، وتحت القبّة المذهّبة سطعت ثريّات من الكريستال. وعلى جدران القاعة عُلِّقت الشمعدانات. كان كلّ شيء على ما يرام وكما يتوجّب أن يكون في مسرح غني جدًّا وصغير. كان ثمّة خشبة أسدل فوقها ستار مخملي أحمر داكن، وقد تناثرت على الستار المخملي رسوم العشرات الذهبية المكبّرة، كالنجوم، وكان ثمّة كشك للتلقين ونظّارة حتّى.

وأدهش نيكانور إيڤانوڤتش أنَّ النظّارة كانوا بأكملهم من الجنس الخشن ولسبب ما أرسلوا لحاهم. عدا عن ذلك كانت قاعة المسرح خالية من الكراسي وجلس النظّارة على أرض القاعة المصقولة والململمّعة جيِّدا.

واستبدَّ الخجل بنيكانور إيڤانوڤتش، وارتبك قليلاً في هذا المجتمع الجديد الكبير. ومذعناً للعادات العامة جلس على الأرض حسب الطريقة التركية، متَّخذاً مكاناً له بين أشقر ملتحٍ معافى ومواطن آخر شاحب الوجه كثيف الشعر. ولم يعر أحد من الجالسين انتباهه للمشاهد الجديد.

وهنا سمع رنين الجرس الناعم، وأطفىء النور في القاعة، وانفرج الستار عن مشهد يتلألأ بالأنوار، مشهد مقعد استقرّ فوق الخشبة، ومنضدة عليها جرس ذهبي، وستار من الوراء مخلّي أسود غامق.

وخرج من وراء الكواليس فنّان يرتدي السموكنغ، حليق الوجه ناعمه، أفرق شعر الرأس، وكان في مقتبل العمر وسيماً، حسن الطلعة. أنعش ظهوره النظّارة في القاعة فالتفتوا نحو الخشبة. دنا الفنّان من الكشك وفرك يديه وسأل بصوت جهوري ناعم بعد أن ابتسم للجالسين في القاعة:

ـ تجلسون؟

ـ نجلس! نجلس! أجابته الأصوات من القاعة معاً، وعلى مختلف أنواعها من تينور وباس...

وتكلّم الفنّان مفكّراً:

همّ... ألم يصيبكم الملل؟ لا أفهم؟ والناس كالناس في الشوارع يسعون يتمتَّعون بشمس الربيع وبالدفء... وأنتم هنا تلازمون قاعة خانقة تجلسون ملتصقين بالأرض؟! أيكون ثمّة برنامجاً مثيراً للاهتمام حقّاً فجذب انتباهكم؟!.

وسرعان ما عدَّل نبرة صوته ولهجته وجَرَس بفرح معلناً:

ـ وهكذا العرض القادم في برنامجنا: نيكانور إيڤانوڤتش باسوي رئيس لجنة التعاونيات السكنية، ومدير مطعم نباتي. كلّنا اهتمام وانتباه.. نرجوك يا نيكانور إيڤانوڤتش!!.

وأجيب الفنَّان على كلماته بتصفيق ودِّي، وحملق نيكانور إيڤانوڤتش المذهول بعينيه، أمَّا المحاضر، فقد غطَّى وجهه بيده اتِّقاءً لنور البرزخ، وبرقّة ومودّة أومأ لنيكانور بإصبعه مشيراً عليه بأن يقترب من الخشبة. ودون أن يذكر كيف، وجد نيكانور إيڤانوڤتش نفسه فوق الخشبة. وبَهَرَهُ ضوء المصابيح الملوَّنة المنبعث من تحت ومن الأمام، فلم يعد يرى القاعة والنظَّارة وقد تواروا في الظلمة.

وتكلَّم الفنَّان الشاب متأمِّلاً:

حسناً يا نيكانور إيڤانوڤتش... اضرب لنا مثلاً وسلِّم العملة الصعبة.

وران الصمت، وتنفَّس نيكانور إيڤانوڤتش الصعداء، وتكلَّم بهدوء:

ـ أقسم بالربّ إنَّني..

لكنَّه لم ينهِ كلماته، إذ أنَّ القاعة بأكملها انفجرت بصرخات السخط وتضعضع نيكانور إيڤانوڤتش وصمت.

وتكلَّم مدير البرنامج متدخِّلاً:

ـ لا أدري إذا كنت قد فهمتك أم لا. أردت أن تقسم بالربّ بأنَّك لا تملك عملة صعبة؟

قال هذا وألقى على نيكانور إيڤانوڤتش نظرة مؤاساة.

وأجاب نيكانور إيڤانوڤتش:

نطقت بالحق. لا يوجد بحوزتي عملة صعبة.

وردَّ الفنَّان:

ـ أرجوك أن تعذرني على صراحتي: من أين لك مبلغ الأربعمئة دولار، التي وجدوها في بيت الخلاء في شقّتك، التي لا يشاركك السكن تحت سقفها أحد غير زوجتك؟

وأجاب أحدهم من القاعة المظلمة بسخرية ظاهرة:

ـ دولارات مسحورة!.

ـ إنَّها مسحورة، بالضبط إنَّها مسحورة.. ـ أجاب نيكانور إيڤانوڤتش خجلاً دون أن يحدِّد إلى من يوجِّه جوابه إلى الفنَّان أم إلى القاعة المظلمة. وما لبث أن أوضح:

ـ قوّة شريرة، رماها المترجم ذو الترابيع.

ومن جديد اهتاجت القاعة سخطاً، وحينما ساد الصمت قال الفنّان:

ـ أتراني أكون مضطّراً لسماع أمثال لافونتين وما يشبهها! رموا أربعمئة دولار! ها أنتم، أنتم جميعاً هنا المتعاطون بالعملة الصعبة، أتوجّه إليكم كاختصاصيين: أتكون هذه المسألة معقولة؟

وتفرَّدت أصوات مستاءة في المسرح معلنة:

ـ نحن لسنا من تُجَّار العملة الصعبة لكن المسألة غير معقولة.

ـ أوافق على كلّ ما قلتموه، وأضمّ صوتي إلى أصواتكم، قال الفنَّان مؤكِّداً، وأسألكم: ماذا بإمكانهم أن يرموا؟

ـ طفلاً! ـ أجاب أحدهم هاتفاً من القاعة.

ـ صحيح! صحيح! ـ أكَّد مدير البرنامج ـ يمكنهم أن يرموا طفلاً، رسالة بلا توقيع، منشوراً، آلة جحيمية وغير ذلك، لكن أحداً لن يرمي مبلغ أربعمئة دولار. لم يولد بعد ذلك المغفَّل..

والتفت الفنَّان إلى نيكانور إيڤانوڤتش وأضاف لائماً معاتباً بكآبة:

ـ كدَّرتني يا نيكانور إيڤانوڤتش، كان أملي بك كبيراً. وهكذا لم تنجح (النمرة).

ودوى الصفير في القاعة، صفير الاحتجاج ضد نيكانور إيڤانوڤتش ـ تاجر عملة صعبة... ـ هتفوا في القاعة ـ إنَّها بسبب هؤلاء نعاني ونحن أبرياء.

وقال عَريف الحفلة بلين: لا تشتموه، لا بدّ أنَّه سيتوب.

وصوَّب نحو نيكانور إيڤانوڤتش عينين زرقتها سماوية، تفيضان بالدمع وأضاف:

ـ حسناً! إذهب يا نيكانور إيڤانوڤتش إلى مكانك!.

بعد ذلك رنَّ الفنَّان الجرس وأعلن بصوت عالٍ:

ـ فرصة أيها الأوغاد.

نيكانور إيڤانوڤتش، وقد صُدِم من هول المفاجأة، مفاجأة مشاركته في برنامج مسرحي، عاد وظهر من جديد في مكانه على الأرض ورأى في المنام: كأنَّ القاعة غرقت في ظلام دامس، وكأنَّها أضاءت الجدران كلمات: «سلِّموا العملة الصعبة!».

وبعد ذلك انفرج الستار من جديد وقال العريف داعياً:

ـ أرجو من سرغيه غيراردوڤتش دونتشيل الصعود إلى الخشبة.

وبدا دونتشيل جميل الطلعة، لكنَّه رجل مهمل بما فيه الكفاية وفي الخمسين من العمر.

وخاطبه العريف بقوله:

سرغيه غيراردوڤتش، مضى عليك وأنت في هذا المكان شهر ونصف الشهر، وما زلت

تعاند وترفض تسليم ما بقي عندك من عملة صعبة، في وقت تحتاج فيه الحكومة إلى هذه العملة التي لن تعود عليك بأي نفع، ولماذا العناد والتعنّت وأنت إنسان مثقّف، وتفهم، فلماذا لا تيسّر الأمور.

وأجاب دونتشيل بهدوء:

ـ آسف لأنَّه ليس بمكنتي أن أعمل شيئاً وأساعدك فأنا لا أملك عملة صعبة.

وسأل الفنَّان:

ـ كيف لا تملك؟ وألماساً ألا تملك؟

ـ ولا ألماس عندي..

ورفع الفنَّان رأسه وغرق في التفكير، وبعد ذلك ضرب كفًّا بكفّ، وخرجت إلى الخشبة سيِّدة في متوسِّط العمر، تلبس حسب الموضة: معطفاً بدون ياقة، وقبعة ضئيلة، وكان الجزع بادياً على محيّاها وكان دونتشيل يتأمَّلها دون أن يحرِّك حاجبيه.

وسأل مدير البرنامج دونتشيل:

ـ هذه السيِّدة من تكون؟

وأجاب دونتشيل معتزًّا:

ـ هذه زوجتي. قال هذا ونظر بكراهية إلى عنق السيِّدة الأتلع.

وقال عريف الحفلة مخاطباً السيِّدة:

أزعجناك يا سيِّدة دونتشيل، السبب من دعوتنا لك هو أنَّنا أردنا أن نسألك إذا كان ما يزال بحوزة زوجك عملة صعبة؟.

وأجابت السيِّدة دونتشيل مضطّربة:

ـ لقد سلَّم كل العملة الصعبة في ذلك الحين.

وقال الفنَّان:

ـ حسناً، طالما سلَّمها فقد قُضي الأمر. وإذا سلَّم كلّ ما عنده فيتوجَّب علينا أن نفترق بدون إبطاء مع سرغيه غيراردوفتش. وما بمكنتنا أن نعمل! سرغيه غيراردوفتس بمكنك أن تغادر المسرح إذا اقتضت منفعتك ذلك. ـ قال الفنَّان هذا وأتى بحركة قيصرية جليلة.

والتفت دونتشيل بهدوء واعتزاز وعاد إلى وراء الكواليس.

ـ دقيقة صغيرة! ـ أوقفه العريف وأكمل: اسمح لي أن أريك بمناسبة الوداع نمرة واحدة بعد من برنامجنا.

وضرب العريف كفًّا بكفّ من جديد.

وانشقَّت الستارة الخلفية السوداء، وخرجت إلى المنصَّة فتاة جميلة ترتدي فستاناً من ساتين الحفلات وتمسك بين يديها صينية ذهبية، وقد وضع فوقها ربطة سميكة ملفوفة

بشريط جميل، وعقد ماسي انبعثت منه في كلّ الاتجاهات نيران زرقاء صفراء وحمراء.

وارتدَّ دونتشيل إلى الوراء خطوة وغشي الشحوب وجهه، وصمتت القاعة.

وأعلن الفنَّان بمهابة:

احتفظ سرغيه غيراردوڤتش في مدينة خاركوف، في شقّة عشيقته إيدا غركولانوڤنا ڤورس بمبلغ ثمانية عشر ألف دولار وبعقد ثمنه أربعين ألفاً من الذهب، وقد ساعدتنا هذه السيِّدة مشكورة في نبش تلك الكنوز النفيسة والتي كانت موجودة بين أيدي غريبة، وإذ نُسرُّ برؤيتها نقول لها:

نشكر لك جزيل الشكر إيدا غركولانوڤنا.

وابتسمت الحسناء وتألَّقت أسنانها، وارتعشت رموش عينيها الموبرة. ووجّه الفنَّان كلامه إلى دونتشيل مخاطباً:

تحت قناع عزّة النفس يستتر عنكبوت جشع وغشّاش كاذب مرعب، شهر ونصف الشهر وأنت تُعذِّب الجميع بتعنّتك الغبي. عد الآن إلى بيتك وليكن جزاؤك الجحيم الذي تعدّه لك زوجتك.

وتمايل دونتشيل، وكاد أن ينهار، غير أنَّ أيدي عطوفة أمسكته وساعدته. وهنا انسدلت الستارة الأمامية وحجبت الواقفين على الخشبة.

وعلا التصفيق العاصف المجنون فهزَّ القاعة هزّاً، وبدا لنيكانور إيڤانوڤتش أنَّ النيران في الثريّات أخذت تتراكض وحينما ارتفع الستار الأمامي الأسود لم يكن أحد على المنصّة سوى الفنَّان بمفرده، وحيّته عاصفة ثانية من التصفيق فانحنى وقال:

ـ مثَّل في برنامجنا أمامكم في شخص هذا الدونتشيل حمار نموذجي. وسرَّني أن أكون قد تكلَّمت البارحة عن أنَّ إخفاء العملة الصعبة مسألة لا داعٍ لها، فما بقدرة إنسان ومهما كانت الظروف أن يستعملها، صدّقوني. وعلى سبيل المثال لنأخذ هذا الدونتشيل، إنَّه يقبض مرتباً كبيراً ولا يحتاج لشيء، ويملك شقّة فخمة، ولديه زوجة وعشيقة جميلة، لكنَّه لم يقنع بما عنده وبدلاً من أن يحيا حياة هادئة وادعة لا تعرف المنغّصات ويسلِّم ما يملك من عملة صعبة وحجارة كريمة راح هذا النفعي الطمّاع الغبي... وكان نصيبه أن افتضح أمره وشُهِّر أمام الجميع، وفي النهاية سبَّب آلاماً عائلية مكدّرة وفظيعة..

وهكذا من يريد أن يُسلِّم الآن؟ أما من راغب؟ والحالة كهذه فالنمرة التالية في برنامجنا: موهبة المسرح المعروف: الفنَّان كورالسوف ساڤا پوتاپوڤتش، وقد دُعي خصيصاً لتأدية مقاطع من قصيدة «الفارس البخيل» للشاعر پوشكين. وظهر كورالسوف المذكور على الخشبة حالاً، وبدا في ربطة عنق بيضاء، وكان رجلاً طويل القامة لحيماً حليقاً يرتدي الفراك.

وبلا مقدّمات (فصَّل وجهاً مكفهرّاً) وقطّب حاجبيه وتكلّم بصوت نبراته مصطنعة وهو يشزر الجرس الذهبي:

وكما ينتظر الشاب الطائش اللقاء مع عاهرة ماكرة...

وقصَّ كورالسوف عن نفسه الكثير من الأخبار القبيحة وغير المشرِّفة، وسمع نيكانور إيڤانوڤتش كيف اعترف كورالسوف بأنَّ أرملة بائسة ركعت أمامه تحت الأمطار وهي تولول. ولم يرقّ لها قلب الفنَّان القاسي ولم يعطف عليها. ولم يكن نيكانور إيڤانوڤتش يعرف مطلقاً قبل حلمه هذا قصيدة الشاعر پوشكين، لكنَّه كان يعرف الشاعر معرفة جيِّدة، وكان في منامه يتلفَّظ عدّة مرّات في اليوم بعبارات مثل: سيدفع پوشكين ثمن الشقّة؟.. «نعم پوشكين فكَّ مصباح الدرج». «حقًّا سيشتري پوشكين نفطاً؟».

والآن وبعد أن تعرَّف نيكانور إيڤانوڤتش إلى قصيدة من قصائد الشاعر وتمثَّل إمرأة جاثية على ركبتيها تحت الأمطار ومعها يتامى، فكَّر عفويًّا: «ومع هذا فإنَّ هذا الكورالسوف شخصية فذّة». أمَّا ذاك، فأكمل وهو يرفع من صوته معلناً عن توبته، لكنَّه لخبط نيكانور إيڤانوڤتش لأنَّه فجأة بدأ يخطب موجِّهاً كلماته إلى مجهول غير موجود على الخشبة، وكان يجيب بنفسه عن هذا المجهول مسمِّياً نفسه تارة «السيِّد الحاكم» وتارة «النبيل»، وحيناً «أباً» وحيناً آخر «إبناً»، ومرَّة يخاطب نفسه «بأنتم»، ومرّةأخرى «بأنت».

وبعد ذلك فهم نيكانور إيڤانوڤتش واقعة واحدة، وهي أنَّ الفنَّان مات ميتة شريرة، وهو يصرخ بملء فيه: «المفاتيح! مفاتيحي!». وانهار بعد ذلك على الأرض وهو يشخر، ونزع عنه بحذر ربطة العنق.

وقام كورالسوف من الموت، ونفض الغبار عن بنطال الفراك، وانحنى وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مخادعة، وابتعد على دويّ تصفيق منتقص، وتكلَّم عريف الحفلة:

استمعنا معكم إلى ساڤا پوتاپوڤتش وقد أدَّى قصيدة «الفارس البخيل» إداءً رائعاً. لقد ظنَّ هذا الفارس أنَّ العرائس اللعوبات سيتراكضن نحوه ومعهن العذوبة والفرح، لكن كما ترون لم يحدث شيئاً من هذا البتّة، ولم تتراكض نحوه العرائس، ولم تحمل له آلهات الشعر أيّة هدية، ولم يشيِّد القصور، بل بالعكس مات ميتة مخزية، نعم لقد مات بسبب ضربة على صندوقه المملوء عملة صعبة وحجارة كريمة.

أحذِّركم أنَّه ستحدث معكم أمور مماثلة إذا لم تكن أسوأ إذا لم تسلِّموا العملة الصعبة التي تملكون.

أشاعرية پوشكين أم حديث العريف النثري تركت انطباعاً وتأثيراً على النظَّارة، فقد دوى فجأة في القاعة صوت خجول:

ـ سأسلِّم عملة صعبة...

ودعاه العريف بلطف وهو يتأمَّل القاعة المظلمة:

ـ تفضَّل إلى الخشبة أرجوك.

وبدا على الخشبة مواطن نحيف أشقر الشعر، يستدلّ من مظهر وجهه أنَّه لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أسابيع.

واستوضح العريف:

ـ معذرة! ما اسم عائلتك؟..

ـ نيقولاي كانافكين، ردَّ الرجل الماثل أمام الأعين بخجل.

ـ تشرَّفنا تشرَّفنا أيها المواطن كانافكين... ماذا؟

ـ أسلِّم ما عندي ـ قال كانافكين بهدوء.

ـ كم؟

ـ ألف دولار وعشرين ذهبية.

ـ براڤو!، وهل هذا كلّ ما عندك؟.

وسمَّر مدير البرنامج عينيه في عيني كانافكين، وبدا لنيكانور إيڤانوڤتش أنَّ أشعة انطلقت من تيك العينين، واخترقت كانافكين كأنَّها أشعة رنتجن. وحبس الجمهور أنفاسه في القاعة.

وهتف الفنَّان في النهاية وقد انطفأت النار في عينيه:

ـ أصدِّقك، فهاتان العينان لا تكذبان. ألم أقل لكم مراراً إنما تكمن غلطتنا الأساسية في أنَّنا لم نقدِّر قيمة الأعين البشرية حقَّ قدرها، عليكم أن تفهموا أنَّ بمقدرة اللسان أن يخفي الحقيقة أمَّا العيون فلا!.. يباغتونكم بسؤال وحتَّى دون أن ترتعشوا، خلال ثانية واحدة، تمتلكون أنفسكم وتعرفون ما يتوجَّب عليكم أن تقولوه لتخفوا الحقّ، وتتكلَّموا باقتناع راسخ، ودون أن تختلج عضلة واحدة في وجوهكم. لكن للعيون شأناً آخر... فالحقّ وقد أقلقه السؤال المطروح، يقفز إلى العيون من أعماق النفس، في لحظة واحدة، ينتهي كلّ شيء... ويظهر الحقّ وتُكشفون!..

بعد أن تلفَّظ الفنَّان بحرارة وصدق حديثه المفعم بالقناعة، استفسر من كانافكين بودّ:

ـ أين خبَّأت المبلغ؟

ـ عند عمَّتي پوروخوڤنيكوڤا، في شارع پرتشيستنكيه...

ـ آه!... أتكون كلاڤديا إيليتشنا عمّتك؟..

ـ نعم.

ـ آه... نعم، نعم، نعم، نعم، في ذلك البيت الصغير الذي تقع قبالته حديقة؟ أعرفها،

أعرفها!.. وأين أخفيتهم هناك؟

ـ في القبو، في علبة سيجار.

وضرب الفنّان يداً بيد، وهتف مهتاجاً:

ـ أحدثت أمامكم أموراً مماثلة؟ ألا تعرفون أنَّ العملة قد تُصاب بالعفن والرطوبة في ذلك المكان؟ أمِنَ المعقول أن تؤمِّن أمثال هؤلاء الناس على العملة الصعبة؟ إيه، أجيبوني، وحقّ الربّ عقولكم كعقول الأطفال؟!..

وأدرك كانافكين أنَّه ارتكب غلطة فظيعة فنكَّس رأسه المشعَّث الشعر. وأكمل الفنَّان قائلاً:

إنَّها يجب أن تحفظ النقود في البنوك الحكومية وفي الأماكن المخصَّصة لها والمحروسة جيِّداً، وليس في أقبية العمَّات حيث تتلفها الجرذان. عيب عليك يا كانافكين! ما أعرفه عنك أنَّك إنسان رشيد وناضج.

وودَّ كانافكين أن تفتح الأرض فاها وتبتلعه، واكتفى بأن أخذ ينكش بإصبعه حاشية سترته.

وقال الفنَّان وقد لانت لهجته:

ـ ما فات مات. ما مضى قد مضى. وفجأة ودون انتظار أضاف:

ـ حسناً قبل أن أنسى، لكي لا نرسل السيَّارة مرَّتين... ألا يوجد بحوزة عمَّتك شيئاً؟ إي؟..

وارتعد كانافكين الذي لم ينتظر مثل هذا التقلّب السريع. وران الصمت في المسرح. وقال عريف الحفلة لائماً بمودّة:

ـ كانافكين... ما زلت أمدحه!.

هذا عمل سخيف يا كانافكين... ألم أتكلَّم الآن أمامكم عن هذا الأمر. بحوزة العمّة شيئاً ما؟ لماذا تسبِّبون لنا العذاب عبثاً؟.

وصاح كانافكين مجازفاً:

ـ عندها...

ـ براڤو ـ صاح العريف.

ـ براڤو. عصفت القاعة وزمجرت.

وحينما هدأت القاعة، هنَّأ العريف كانافكين، وشدَّ على يده، وعرض عليه أن ينقله إلى بيته في المدينة بالسيَّارة، وأمر أحد الأشخاص الذين كانوا في الكواليس أن يذهب بالسيّارة نفسها وراء العمَّة، ويطلب منها أن تُشرِّف بحضورها المسرح النسائي.

واستفسر العريف:

ـ تذكَّرت، أردت أن أسأل: ألم تخبرك عمّتك عن المكان الذي خبّأت فيه أموالها؟

قال العريف هذا، وعرض على كانافكين بلطف سيجاراً وعود ثقاب مشتعلا، وأخذ كانافكين يُدخِّن وارتسمت على مخايله ابتسامة باهتة.

وردَّ الفنَّان وقد اطمأن:

ـ أصدِّق، أصدِّق أنَّ هذه العجوز البخيلة ليست كابن أخيها. لن تقول حتى للشيطان أين أخفت أموالها. حسناً لنحاول إيقاظ المشاعر الإنسانية داخلها. من يعلم ربّما لم تعفِّن كلّ أوتار النفس المرابية. رافقتك السلامة يا كانافكين!.

وغادر كانافكين السعيد. أمَّا الفنّان فسأل:

ـ هل من يرغب في تسليم عملة صعبة؟.

وكان الجواب الصمت الشامل.

وتكلَّم الفنَّان وهو يهزّ كتفيه:

ـ وحقّ الربّ إنَّكم لغريبو الأطوار. وما أن تلفَّظ بكلماته هذه حتى توارى وراء الستار.

وانطفأت المصابيح. وساد الظلام فترة من الوقت. وسمع في الظلمة الدامسة صوت جهوري يغنِّي، وكانت نبراته عصبية:

«هناك... أكوام من الذهب كدِّست، وكلّها تعود بملكيتها لي!».

ـ إحدى السيِّدات في المسرح النسائي تُسلِّم ما عندها. ـ قال بغتة جار نيكانور إيڤانوڤتش، الملتحي الأشقر الشعر، وبعد أن تنفَّس أضاف: لولا إوزَّاتي!... يا حبيبي عندي إوزَّات محاربة في ليانوزوف، أخاف أن تختنق بدوني! طيور محاربة... لطيفة تتطلَّب رعاية واهتمام... آه لولا طيور الإوزّ!... لن تدهشني ببوشكين... قال هذا، ومن جديد تنفَّس تنفُّساً عميقاً!.

وسطعت القاعة بالأنوار، وبدأ نيكانور إيڤانوڤتش يرى في منامه: أنَّ جمعاً من الطهاة بدأوا يتوافدون من كلّ الأبواب، في القلابق البيض. أتوا وهم يمسكون بأيديهم ملاعق طافحة وقد حملوا إلى القاعة دِنًّا مملوءًا بالحساء وسماطاً عليه شرائح الخبز الأسود.

وانتعش المشاهدون وخفق الطهاة مرحاً بين الهواة، وسكبوا الحساء في القصاع ووزَّعوا الخبز.

وصاح الطهاة:

ـ كلوا يا شباب، وسلِّموا ما بحوزتكم من عملة صعبة! وإنّما بسبب العملة الصعبة تجلسون عبثاً هنا؟ أم أنَّكم ملتذّون بهذه الحفلة... أما كان الأفضل لأيّ منكم أن يذهب إلى البيت ويجرع كأساً كما يجب ويتناول اللمجة.

ـ وأنت يا أب، مثلاً، لماذا تجلس هنا؟ ـ وجَّه الطاهي السمين ذو الرقبة القرمزية اللون

سؤاله مباشرة إلى نيكانور إيڤانوڤتش، وهو يناوله قصعة، سبحت في سائلها ورقة وحيدة من الملفوف.

وردَّ نيكانور إيڤانوڤتش صائحاً بصوت مرعب:

ـ لا، لا، عملة صعبة عندي. تفهمني لا أملك شيئاً!.

ـ لا عملة عندك، زمجر الطاهي بصوت رهيب يرشح التهديد من نبراته.

ـ لا عملة عندك ـ سأله صوت نسائي رقيق.

ـ لا مال عندك، لا، لا... غمغم الصوت مهدِّئاً، وقد انقلب المتكلِّم من طاهٍ إلى مساعدة الطبيب پراسكوڤيا فيدوروڤنا.

وهزَّت الإمرأة برفق كتف نيكانور إيڤانوڤتش الذي كان يئنّ في نومه. وذاب حينئذٍ الطهاة، وانهار المسرح بستاره. وعبر الدموع تأمَّل نيكانور إيڤانوڤتش غرفته في المصحّ، فرأى اثنين في المباذل البيض. ما كانا أبداً من الطهاة الوقحين المندسِّين بين الناس بنصائحهم. كانا طبيبين وبرفقتهما پراسكوڤيا فيدوروڤنا، تحمل بين يديها بدل القصعة صحناً مغطّى بالشاش، وفوق الشاش محقنة.

وقال نيكانور إيڤانوڤتش بمرارة أثناء حقنه:

ـ لكن ما هذا! لا أملك شيئاً. لا أملك، لا! ليسلِّمهم پوشكين ما يملك من عملة صعبة... أمّا أنا فلا!...

وهدَّأته پراسكوڤيا فيدوروڤنا الطيِّبة القلب:

ـ لا. لا. وعلى كلمة لا... لا يحاكم الإنسان.

وبعد الحقنة ارتاح نيكانور إيڤانوڤتش، وغفا دون أن تزوره الأحلام هذه المرّة، ولكن بفضل صراخه انتقل الهمّ إلى الغرفة رقم ١٢٠، حيث صحا مريض وأخذ يبحث عن رأسه، ثمّ انتقل القلق إلى الغرفة رقم ١١٨ حيث بدأ يساور معلّماً مجهولاً لوى يده بكآبة وهو يتأمَّل القمر ويتذكَّر الليل الخريفي الأليم، ذلك الليل الأخير في حياته، ودفقة النور من تحت باب القبو والشعر المتهدِّل.

وانتقل القلق من الغرفة رقم ١١٨... وطار إلى إيڤان عبر الشرفة. فاستيقظ وأخذ في البكاء.

لكن الطبيب هدَّأ من روع المهمومين القلقين الشجانى، فبدأوا يغفون الواحد تلو الآخر.

وكان إيڤان آخر من غفا... غفا حينما انتشر النور فوق النهر. وبعد أن سرى الدواء في كلّ عروق جسده، عادت السكينة إليه وغمرته كما تغمر الموجة الحصى، فارتاح جسده واستقرّ، ونسَّم نسيم النعاس الناخن فوق رأسه، وغفا. -

وآخر ما ترامى إلى مسمعه من عالم اليقظة، كانت زقزقة العصافير في الغابة، زقزقة قبيل الفجر. لكن سرعان ما صمتت العصافير، وبدأ إيڤان يرى في المنام جبلاً أجرداً وقد انحدرتَ فوقه الشمس. وكان هذا الجبل مطوَّقاً بطوقين من الجند...

الفصل السادس عشر

الإعدام

كانت الشمس قد انحدرت فوق الجبل الأجرد، وقد ضرب الجنود حوله طوقين.

فرقة الخيّالة التي اعترضت طريق الوالي في الظهيرة. سعت خبباً إلى البوّابة العبريّة في المدينة، ولا سيما أنّ الطريق كانت مهيّأة أمامها. وأبعد مشاة كتيبة (كبادوكيا) جموع الناس وقطعان البغال والجمال جانباً وآذوهم. ووصلت الفرقة وهي تخبّ خبباً، وتثير أعمدة بيضاء من الغبار، إلى تقاطع الطرق. والتقى عند نقطة التقاطع هذه طريقان: طريق جنوبي يوصل إلى بيت لحم، وطريق شمالي غربي يؤدّي إلى يافا. وسلكت الفرقة الطريق الشمالي الغربي.

وكان الكبادوكيون أنفسهم منتشرين على جنبات الطريق، وأبعدوا عنها كلّ القوافل المسرعة إلى أورشليم بهدف حضور العيد. وكانت جموع المصلّين تقف وراء الكبادوكيين، وقد خرجوا من خيمهم المؤقّتة المقلّمة والمنصوبة مباشرة فوق الأعشاب. وبعد أن قطعت الفرقة كيلومتراً واحداً تجاوزت كتيبة فيلق الصاعقة الثانية ثم قطعت كيلومتراً واحداً آخر وكانت السبّاقة في وصولها إلى سفح الجبل الأجرد.

وترجّلت الفرقة في هذا المكان ووزّعها القائد إلى فصائل راحت تطوّق كل سفوح الهضبة الواطئة، تاركة مرتقىً واحداً محرّراً فقط من جهة طريق يافا.

وبعد وقت قصير من وصول الفرقة إلى الهضبة، وصلت الكتيبة الثانية، وتجاوزتها في الصعود بمدرج واحد، وطوّقت الجبل متّخذة شكل الإكليل.

وأخيراً وصلت وحدة عسكرية بإمرة مرقس كريسابوي، قدمت منتشرة على حافّتي الطريق مؤلّفة فرقتين، وبين تينك الفرقتين، وبمواكبة حرس سرّي نُقل في عربة ثلاثة معتقلين، وقد عُلّقت في أعناقهم ألواح بيضاء، وقد كتب على كلّ لوح: «لصّ ومتمرّد». كُتبت هذه الكلمات باللغتين: الآرامية واليونانية.

وتحرّكت وراء عربة المحكومين عربات أخرى مُحمّلة بالأعمدة ذات العوارض المقطوعة حديثاً، والحبال والرفوش والدلاء والفؤوس. وانتقل على متن العربات ستة جلّادين. وقدم وراءهم على صهوات الجياد: القائد مرقس، ورئيس حرّاس الهيكل في

أورشليم، ذو القلنسوة، نفس الشخص الذي قابله بيلاطس في غرفة القصر المظلمة وتشاور معه بعض الوقت.

انتهى ذيل الموكب بقافلة من الجند، ووراء القافلة مشى حوالي الألفين فضولي، من الذين لم يخفهم قيظ جهنّم، والراغبين بالتفرّج على منظر مثير للاهتمام.

وانضمّ الآن إلى جمع الفضوليين، وفد من المصلين المحبِّين للاستطلاع، أتوا من المدينة يسعون. وكان يؤذن لهم دائماً بالمرور والالتحاق في مؤخَّرة الموكب.

وتوغَّل الموكب في الجبل الأجرد، في الوقت الذي كان فيه المنادون، المرافقون الرتل، يطلقون صيحاتهم الرقيقة، ويردِّدون ما نادى به بيلاطس عند الظهيرة. وأذنت الفرقة للجميع بالدخول إلى المدرج الثاني؛ أمَّا الوحدة الثانية فقد سمحت فقط للذين كان لهم علاقة بالاعدام بالصعود إلى فوق حيث مكان وجودها.

وبعد ذلك وبمناورة سريعة تشتّت الحشد من حول الهيكل، وبدا الهيكل للعيان محاطاً بطوق من المشاة من فوق، وبفرقة من الخيَّالة من تحت، وأصبح بمكنة أفراد هذه الوحدة أن ترى مشهد الإعدام من خلال حلقة من المشاة.

وهكذا مضى أكثر من ثلاث ساعات على ارتقاء الموكب إلى الجبل، والشمس كانت قد انحدرت فوقه، غير أنّ القيظ كان شديداً ولافحاً، فأزعج الجنود المطوِّقين، فأرهقوا وملّوا ولعنوا في قرارة أنفسهم اللصوص الثلاثة وتمنّوا صادقين الموت الخاطف لهم.. آمر الفرقة الصغير، بجبهته المبتلّة وقميصه الأبيض، الذي غمق لون ظهره بفعل العرق، والذي كان يقف في أسفل الهضبة، عند المطلع الأوَّل المسموح ارتقاؤه، كان مراراً يدنو من جردل جلديّ قرب الفصيلة الأولى وبراحتي يديه يغرف منه الماء ليشرب ويبلِّل عمامته. وقد فرَّج عن نفسه قليلاً بعمله هذا، كان يبتعد ومن جديد يقيس الطريق المغبّرة الموصلة إلى القمّة، وحسامه الطويل يضرب جزمته الجلدية السوقاء.

أراد القائد أن يضرب لفرسانه مثلاً في الصبر والجَلَد، لكنَّه شفقة على الجنود ورأفة بهم، أذن لهم أن يبنوا من رماحهم المغروزة في الأرض أهراماً، وينشروا عليها المباذل البيضاء.

تحت هذه الخيام اختبأ كذلك السوريون واتَّقوا أشعّة الشمس المحرقة.

وفرغت الأدلاء بسرعة، وتوجَّه خيَّالة مختلف الفصائل بالدور وراء الماء إلى وهدة في أسفل الجبل، حيث جدول معتكر المياه يحيا أيامه الأخيرة في القيظ الجهنَّمي تحت شجيرات توت عجاف خفيفة الظلّ. ووقف في هذا المكان أيضاً المشرفون على الخيل، وقد ملّوا وهم يمسكون بأعنَّة خيولهم الوادعة.

إرهاق الجنود وشتمهم اللصوص كان أمراً مفهوماً ومبرّراً. حذَّر الوالي من الفوضى

الممكنة الحدوث أثناء الإعدام، في أورشليم المدينة البغيضة إلى قلبه. هذا الخوف، لحسن الحظ، لم يكن في محله. وحينما أزفت ساعة الإعدام الرابعة، لم يبق فرد واحد من الجنود المشاة الموجودين فوق، ومن الخيّالة المنتشرين عند السفح، رغم الترقّب والانتظار. لقد أحرقت أشعّة الشمس الحشد وأرجعت أفراده إلى أورشليم. ووراء الطوق الذي ضربته الوحدتان الرومانيتان ظهر كلبان مجهولان، لم يعرف سبب وجودهما على التلّة، وقد أحرقهما الهجير فرقدا وسحبا لسانيهما، وشرعا يتنفّسان بصعوبة دون أن يعيرا أدنى انتباه إلى العظايا ذوات الظهور الخضراء، هذه الكائنات الوحيدة التي لم ترهب أشعّة الشمس وراحت تزحف بين الحجارة الساخنة ونباتات معرّشة فوق الأرض أشواكها كبيرة.

ولم يبذل أحد محاولات لفكّ أسر المعتقلين، لا في أورشليم الملأى بالجنود، ولا هنا فوق الهضبة المطوّقة. وعاد الحشد أدراجه إلى المدينة لأنّه لم يكن ثمّة ما يثير الاهتمام حقًّا في حفلة الإعدام هذه. أمّا هناك في المدينة فقد كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق بمناسبة حلول عيد الفصح الكبير، مساء اليوم.

وكانت حصّة مشاة الرومان من العذاب أكبر من حصّة الفرسان، إذ أنّ المشاة كانوا في المدرج الثاني، وأجاز القائد كريسبوي لجنوده عملاً واحداً فقط: فقد سمح لهم بأن يخلعوا خوذهم ويلفّوا رؤوسهم بعصبات بيضاء مبلّلة بالماء، لكنّه أمر بأن يبقى الجندي منهم واقفاً والرمح في يده.

أمّا القائد فقد لفّ رأسه بعصبة جافة، وراح يذرع الأرض جيئة وذهاباً غير بعيد عن فرقة الجلاّدين، ودون أن ينتزع حتى عن قميصه أخطام الأسود الفضيّة الملصقة به والحمائل والسيف والسكين.

لقد ضربت أشعّة الشمس القائد مباشرة دون أن تسبّب له أيّ أذى. وأضحى النظر إلى أخطام الأسود يُعدُّ أمراً صعباً، إذ أنّ أشعّة باهرة أغشت العين الناظرة، وكأنّها لمعان فضة تغلي وتفور تحت أشعّة الشمس المحرقة.

لم تُرَ على وجه كريسابوي المشوّه علامات الإجهاد ولا التبرُّم. وبدا أنّه كان بمقدرة القائد العملاق أن يغدو هكذا طيلة النهار وأثناء الليل، وطيلة يوم آخر.. وباختصار كان بمقدرته أن يروح هكذا ويجيء إلى ما شاء الله.. وهو يضع يديه على زنّاره النحاسي الثقيل ذي الشارات، وبنفس الطريقة ينظر بحدّة إلى الأعمدة والمعتقلين وحيناً آخر إلى الجنود الضاربين الطوق.

أجل، كان بمقدوره أن يستمرّ وهو يدفع غير مبال برأس جزمته الوبرية كل ما يقع أمامها من عظام هياكل بشرية ابيضّت مع مرور الزمن، أو من حصى صوانية.

أمّا ذلك الشخص ذو القلنسوة فقد جلس على مقعدٍ ذي ثلاث أرجل، غير بعيد عن

الأعمدة. جلس في مكانه جامداً باشّاً. وقتلاً للوقت وللملل كان بين الفينة والأخرى ينكت الرمال بعود كان في يده.

والإدّعاء بأنَّه ليس ثمة إنسان واحد وراء الطوق الذي شكَّله جنود الفيلق غير صحيح بل كان هناك إنسان لم يره أحد من الناس. ولم يجلس من جهة الممرّ الصاعد إلى الجبل، حيث يمكنه أن يرى منظر الإعدام بوضوح، إنَّما جلس في الجهة الشمالية، قرب هضبة وعرة المسالك، صعبة الارتقاء، بجوار الشعاب والأغوار، في مكان نبتت في شقٍّ من أرضه الملعونة العارية شجرة تين مريضة تكافح من أجل الحياة.

وتحت هذه التينة بالذات، البخيلة الظلال، استقرَّ هذا المتفرِّج الوحيد، وبما أنَّه لم يكن من المشاركين بالإعدام فقد جلس على حجر منذ البداية، أي منذ أربع ساعات.

أجل، كي يتفرَّج على منظر الاعدام فإنَّه لم يختر أحسن المواقع بل اختار أسوأها. ومع ذلك كان يرى من موقعه ذاك الأعمدة وكذلك كانت تُرى من وراء طوق الجنود بقعتان تلألأتا على صدر القائد. وما يُرى يُعدُّ كافياً بالنسبة لانسان يريد أن يبقى متوارياً عن العيان لا يريد أن يراه أو يزعجه أحد. لكن منذ وقت قصير، وبالتحديد منذ أربع ساعات، أي منذ البدء بتنفيذ الحكم، سلك هذا الانسان سلوكاً كاد يفضحه ويكشفه. وربَّما أدرك خطورة عمله هذا، فغيَّر من مسلكه وانفرد. فما أن وصل الموكب إلى قِنَّة الهضبة متجاوزاً طوق الجند، حتَّى بدا ذلك لأوَّل مرّة وبدا كما لو كان من المتخلِّفين عن اللحاق بالموكب. أخذ يلهث مكملاً طريقه نحو الهضبة ركضاً. وزاحم الناس، لكنَّه لما رأى أنَّ طرفي الجند تلاحما وتلاصقا أمامه وأمام الآخرين، لجأ إلى حيلة ساذجة وتظاهر بأنَّه لا يفهم الصيحات الهائجة وبأنَّها لا تعنيه، وانسلَّ من بين الجنود إلى مكان ساحة الاعدام، حيث كان المحكومون قد أُنزلوا من العربات. وكان أن تلقَّى على عمله هذا ضربة قاسية على صدره من كعب رمح، فتقهقر مبتعداً عن الجندي وصرخ من اليأس لا من الألم.

ورشق الجندي الذي ضربه بنظرة زائغة لا مبالية بكلّ ما يجري حوله، رشقه بنظرة إنسان فقد إحساسه بالآلام الجسدية. وسعل وتنفَّس وراح يركض حول الهضبة واضعاً يده على صدره، وقصد الجهة الشمالية، ساعياً أن يجد ثغرة في الحصار ليتسلَّل منها، لكن محاولته هذه باءت بالفشل، لأنَّها أتت متأخِّرة وبعد أن انغلقت الدائرة.

وأُجبر الرجل الذي بشَّعت المصيبة وجهه، أن يكفَّ عن محاولاته للتسلُّل إلى العربات التي أُنزلت منها الأعمدة. وما كان لمحاولاته أن تؤدِّي إلى شيء غير القبض عليه وتوقيفه في هذا اليوم الذي لم يدخل في حساباته.

وها هو تراه يمضي إلى شعبة من الشعاب الآمنة من أي ازعاج.

والرجل ذو اللحية السوداء والعينين العمصاوتين بسبب السهر والشمس، تراه الآن يجلس

على حجر يتحسَّر مستوحشاً. وكان يتنهَّد حيناً وهو يفتح رداءه البالي من التجوال والتشرّد، والذي نصلت ألوانه واستحالت من أزرق سماوي إلى رمادي متَّسخ، تراه يفتح الرداء حيناً ليرى صدراً رضّه الرمح وتصبَّب عليه العرق المتَّسخ، وحيناً آخر كنت تراه يرفع عينيه نحو السماء والآلام الفظيعة تقطع نياط قلبه، يرصد ثلاثة صقور تحلّق في السماء منذ فترة وهي ترسم دوائر كبيرة موعودة بالوليمة المنتظرة.

وأحياناً أخرى كان يحملق يائساً في الأرض الصفراء، وينظر فوقها إلى جمجمة كلب أتى الدهر على نصفها، ومن حولها تركض العظايا...

إنَّ آلام هذا الانسان لفظيعة، فلا تتعجَّب إذا رأيته من حين لآخر يتحدَّث مع نفسه.

وغمغم وهو يرتعش فوق الحجر، وخدش بأظافره صدره الأسمر والألم يكاد يمزِّق نفسه:

أنا أحمق، أنا إمرأة بلهاء... أنا جبان.. أنا جثّة فطساء.. انا لست بإنسان!...

وصمت مطرقاً، وبعد ذلك شرب ماءً فاتراً من قربة خشبية كانت ملقاة قربه، فانتعش، وأخذ حيناً يمسك بالسكّين المخبَّأ تحت البرقع فوق صدره، وحيناً آخر كان يمسك بورقة الرقّ الملقاة أمامه على حجرٍ بالقرب من عصا وزجاجة حبر صيني.

وتناثرت على ورقة الرق هذه الكلمات:

«تركض الدقائق... وأنا (متّى ليفي) الآن فوق الجبل الأجرد، والموت لم يأتِ بعد!...».

«الشمس تدرج نحو الأفول... والموت لم يأت بعد...».

وكتب ليفي بعصاه المدبَّبة:

«يا رب! عَلاَمَ أنت غاضب عليه؟ أُرسل له الموت!».

وبعد أن كتب هذا، أرسل في النشيج دون أن يذرف الدمع ومن جديد أخذ يخدش صدره بأظافره.

سبب قنوط ليفي كان الفشل الذريع الذي أصابه ويسوع، بالإضافة إلى تلك الغلطة الرهيبة التي ارتكبها أو على الأقل يعدّ نفسه مسؤولاً عنها.

ففي يوم ما قبل الأمس كان يسوع وليفي في (فيفانيا) تحت أورشليم، كانا بضيافة بستاني بهرته تعاليم يسوع، وكان يدعى بتانيا.

وطيلة الصباح والضيفان يعملان في البستان يساعدان صاحبه، وعند حلول المساء تأهّبا للذهاب باكراً إلى أورشليم. لكن يسوع لسببٍ ما عجّل في الذهاب، وقال إنَّ عملاً لا يقبل التأجيل ينتظره في المدينة، وهكذا غادر في حوالي الظهيرة. وهنا تكمن غلطة ماتفي الأولى... لماذا ترك يسوع يغادر وحيداً؟!...

وعند المساء، لم يقدر ماتفي على الذهاب إلى أورشليم. علّة فظيعة مباغتة صعقته. أخذ يرتعد. وصارت أسنانه تصطك: نضج جسده بالنار، وشرع يطلب الماء كل دقيقة ليشرب، ولم بعد قادراً على الذهاب إلى أي مكان. وانهار على متّكإٍ في كوخ البستاني ورقد فوقه حتى فجر يوم الجمعة، بعد أن تركته العلّة فجأة كما أصابته.

ومع أنَّه كان ما يزال واهن القوى، وقدماه ترتعشان، فالاحساس المسبق بالمصيبة ملأ نفسه وأثقله، فودَّع البستاني ويمَّم نحو أورشليم.

وفي أورشليم عرف أنَّ أحاسيسه لم تخدعه وكانت صادقة. حلَّت المصيبة وكان ما تخوَّف أن يكون...

كان ليڤي حاضراً بين الحشد، حينما أعلن الوالي الحكم بالموت. وحينما اقتادوا المحكومين إلى الجبل، كان ليڤى ماتڤي يركض محاولاً أن يبلِّغ يسوع ولو بأية طريقة ولو حتَّى بالاشارة ودون أن يلحظ أحد، أنَّه هنا برفقته، وأنَّه ما يزال معه ولم ولن يتركه يموت وحيداً وأنَّه يُصلّي حتى يدرك الموت يسوع بأقصى سرعة.

لكن يسوع الذي كان يتأمَّل في البعيد إلى حيث يقتادوه لم يرَ بالطبع ليڤي.

وحينما قطع الموكب مسافة نصف فرسخ، ودفعوا ماتڤي بين الحشد وحاصروه عند طوق الجند، برقت في باله فكرة عظيمة وبسيطة؛ ومن حِدّته راح يكيل اللعنات لنفسه لأنَّ هذه الفكرة لم تخطر على باله من قبل، هذه الفكرة هي أنَّ حلقة الجنود لم تكن كثيفة، كانت ثمة ثغرات فيها، وإذا ما تحرَّك ليڤي برشاقة وحسابات دقيقة، لكان بمكنته أن ينحني وينسلّ من بين جنديين ويثب على العربة لا بل وينقضّ عليها، وحينذاك يخلِّص يسوع من الآلام. ولحظة واحدة تكفي لطعن يسوع بالسكين في ظهره وأن يصرخ به: «يسوع! ها إنِّي أخلِّصك، وها أنا ذاهب معك! أنا ماتڤي تلميذك المخلص الوحيد!».

وإذا أعان الله وساعد... وأعطى لحظة مباركة حرّة فبإمكانه أن يلحق به وأن ينتحر هو الآخر ويخلص من الموت صلباً. صفوة القول المسألة الأخيرة، مسألة الانتحار لم تثر اهتمام ماتڤي جابي الضرائب القديم، ليس مهماً بالنسبة له كيف يموت، إنَّما أراد شيئاً واحداً، أراد أن يخلِّص يسوع من التعذيب، يسوع الذي لم يسبِّب الأذى لأحد من الناس.

الفكرة جيِّدة حقًّا. لكن المسألة هي أنَّ ليڤي لم يكن يحمل سكيناً معه، وما كان يملك قطعة نقود واحدة.

وبسورة غضب على نفسه، انفرد ليڤي عن الحشد، وركَض عائداً إلى المدينة، وفي رأسه المحموم سرحت فكرة واحدة مجنونة. هذه الفكرة هي أنَّه الآن الآن، ومهما كلَّف الأمر، يجب أن يحصل في المدينة على سكين ويلحق بالموكب.

وركض حتى بوَّابات المدينة واندسَّ في زحمة القوافل الوافدة إليها من أجل الماء. ورأى

عن يساره حانة يُباع فيها الخبز وبابها مفتوح. وشوهد يلهث بصعوبة بعد مشواره الطويل الذي اجتازه ركضاً على الطريق الساخنة. وتشدّد ليڤي ودخل إلى الحانة وعلى محيّاه إمارات الجدّ والرصانة، وحيّا صاحبة الحانة الواقفة وراء المنضدة، وطلب منها أن تبيعه الرغيف الموجود على الرف الأعلى، والذي أعجبه لسبب ما من بين كلّ الأرغفة. وحينما أدارت صاحبة الحانة ظهرها اختطف بسرعة وبهدوء أفضل ما احتوته الحانة، اختطف سكيناً طويلاً مشحوذاً كالشفرة. وانطلق في الحال من الحانة يعدو إلى الخارج. وبعد عدّة دقائق وجد نفسه من جديد على طريق يافا. لكن الموكب كان قد توارى عن العيان، فراح يركض ومن وقت لآخر كانت تراوده فكرة أنَّ عليه أن يقع على الأرض وسط الغبار، ويستلقي ليرتاح. وهكذا كان، فقد نفَّذ فكرته وتمدَّد على الأرض مُذْهِلاً بعمله هذا المسافرين على البغال والساعين على الأقدام إلى أورشليم. كان يصغي مستلقياً لا إلى نبضات قلبه وخفقانه في صدره، إنّما كان يسمع أيضاً الخفقات في الرأس والأذنين.

وما أن أخذ لنفسه بعض الراحة حتى قام ليكمل مشواره، لكن ببطء. وأخيراً بدا الموكب للعيان وقد كادت تحجبه الأغبرة، كان الموكب قد وصل في تلك الساعة إلى سفح الهضبة.

وشعر ليڤي أنَّه سيتأخَّر فارتعشت شفتاه بكلمة يا ربّ...

وقد تأخَّر فعلاً.

وحينما انقضت الساعة الرابعة على بدء العملية، بلغت آلام ليڤي حدّاً لا يطاق. فساورته حمّى سخط شديد. وقام من فوق الحجر، ورمى على الأرض السكين المسروق، ذلك السكين الذي لا نفع منه ولا فائدة حسبما يفكّر ليڤي الآن، وضرب قربة الماء برجله، فضاع الماء هدراً، ورمى العمامة عن رأسه، وراح يشدّ شعر رأسه الخفيف ويصبّ اللعنات على نفسه ويكيل لها الشتائم.

ولعن نفسه متلفِّظاً بكلمات جوفاء، وزمجر وبصق، ولعن أمّه وأباه اللذين جنيا عليه وأتيا به إلى هذا الوجود، وبعد أن رأى أنَّ السُباب والشتائم لن تؤثّر ولن تغيِّر شيئاً في مجريات الأمور تحت الشمس المحرقة، ضغط قبضتي يدين ناشفتين وزرَّ عينيه، ورفع تينك القبضتين نحو السماء، إلى الشمس المنحدرة المانحة الأشياء ظلالاً مديدة وهي تأفل في البحر الأبيض المتوسِّط، وسأل الرب معجزة سريعة... طلب أن يرسل الله حالاً الموت ليسوع.

وما أن فتح عينيه حتى تأكَّد له أنَّه لن يتغيَّر شيء على التلّة باستثناء البقع المضيئة على صدر قائد الوحدة والتي انطفأت الآن، وقد رأى كيف أنَّ أشعّة الشمس تضرب ظهور المعتقلين المولّين وجوههم نحو أورشليم، وصاح حينذاك ليڤي:

إنّني ألعنك أيها الرب!.

وصرخ بصوت أجشّ معلناً أنّه اقتنع بظلم الرب، وأنَّ لا نية عنده للإيمان بهذا الربّ بعد اليوم.

وزمجر ليڤي:

أنت إله أصمّ! ولو لم تكن أصمًّا لسمعتني وقتلته في الحال. وزرَّ عينيه وانتظر النار التي ستسقط عليه من السماء وتصعقه، لكن لم يحدث شيء من هذا البتَّة. ودون أن يفتح ليڤي جفنيه أكمل يصرخ لاعناً السماء متلفِّظاً بكلمات قاسية لاذعة. صرخ معلناً خيبته الكبيرة... وإنَّه بدأ يعتقد أنَّ ثمَّة آلهة وأديان أخرى. نعم فإله غير هذا الإله ما كان ليسمح أبداً للشمس أن تحرق على العمود إنساناً مثل يسوع، وصرخ بصوت في نبراته بحَّة: لقد أخطأت... أتكون إلهاً شريراً أم أنَّ دخان مجامر الهيكل أعمى بصرك، ولم تعد أذناك تسمع سوى أنغام أبواق الكهنة. إنَّك لست بربٍّ قدير. أنت إله شرير. أصبّ لعناتي عليك يا إله اللصوص وسندهم!...

وهنا لفحت نسمة وجه الجابي القديم، وخشخش شيء ما تحت قدميه. ولفحته النسمة مرّة ثانية، وحينذاك فتح ليڤي عينيه فرأى أنَّ كلَّ شيء حوله قد تغيَّر، دون أن يعرف أتكون لعناته وراء هذا التغيّر أم ثمَّة أسباب أخرى.

وتوارت الشمس دون أن تلامس البحر الذي كانت تغطس وتستحم فيه كل مساء. وظهرت في السماء سحابة واعدة بالأمطار، أتت من الغرب، متجهمة، وراحت تتوغَّل في السماء وقد فارت أطرافها بالزبد الأبيض وتألَّق بطنها الأسود المدخّن بضوء أصفر.

ودمدمت السحابة وكان ينسلّ منها من حين لآخر خيوط ناريّة.

وعلى طريق يافا في الوادي، وادي (غيون) المقفر، فوق خيام المصلِّين التي اقتلعتها فجأة الرياح الهبوب، شوهدت الأعمدة وهي تطير وسط الغبار.

وصمت ليڤي، وفكَّر. فكَّر بالعاصفة، أستغيِّر هذه العاصفة وهي تهبّ على أورشليم مصير يسوع البائس.

وحينما أخذ ينظر إلى الخيوط النارية الباترة السحابة، أخذ يصلِّي من أجل أن يسبِّب البرق صدمة ليسوع بالعمود فيموت.

وأخذ يتأمَّل السماء الصافية الأديم، السماء التي لم تلتهمها السحابة بعد، موطن الصقور المتَّكئة على أجنحتها لتتَّقي العاصفة، وندم لأنَّه أسرع بلعناته، وفكَّر أنَّه بتسرّعه لمجنون حقًّا، وعقاباً له لن يسمع الرب دعاءه الآن.

وما أن نظر ليڤي إلى سفح الهضبة حتَّى تسمَّرت نظراته في المكان حيث توقَّف فوج الخيالة وانتشر، ورأى أنَّ ثمة تغييرات خطيرة حدثت هناك.

لقد أتيح لليڤي أن يرى من مكانه المشرف تحرّك الجنود وتململهم. رآهم وقد اقتلعوا

حرابهم من الأرض وطرحوا على مناكبهم المباذل، ورأى كيف ركض ساسة الخيل خبباً نحو الطريق، وقد أرخـوا أعنّة الخيول الدهم. اتَّضح أنَّ الفوج يرحل.

واتَّقى ليڤي براحة يده الغبار الذي كان يضرب وجهه، وتنحَّى وهو يفكِّر بمعنى استعداد فوج الخيَّالة للرحيل، وماذا يخفي هذا الاستعداد؟

وحوَّل نظره إلى أعلى حيث بدا لناظريه رجل عسكري في ثوب أرجواني صاعداً نحو منصّة الاعدام. وبرد حينذاك جسد جابي الضرائب القديم وقد شعر بالنهاية المفرحة.

لم يكن الرجل الصاعد إلى الجبل في هذا الوقت، أي بعد الساعة الخامسة على عذاب اللصوص سوى قائد الكتيبة وقد قدم من أورشليم على جناح السرعة وبرفقته معاونه.

وباشارة من كريسابوي انفتحت دائرة الجنود وأدَّى قائدها التحية العسكرية للخطيب الصاعد نحو المنصّة. وما كان من هذا الأخير إلاَّ أن أقصى كريسابوي، هامساً في أذنه بكلمات ما.

أدَّى القائد التحية العسكرية ثانية ومشى نحو فرقة الجلاَّدين الذين كانوا يجلسون على الحجارة عند قواعد الأعمدة. أمَّا الخطيب فيمَّم نحو الجالس على المقعد ذي الثلاث أرجل. وما كان من الجالس إلاَّ أن نهض واستقبله بجفاوة. وحدَّثه الخطيب بكلمات ما بصوت خفيض، وتوجَّه الاثنان نحو الأعمدة. وهناك انضمّ إليهما رئيس حرس الهيكل.

ومال كريسابوي مشمئزاً عن الخرق الموسّخة، المرمية على الأرض قرب الأعمدة، وقد كانت هذه الخرق من قبل ثياباً للمجرمين ورفض اقتنائها حتى الجلاَّدين.

ونادى كريسابوي اثنين من الجلاَّدين وأمر:

ـ اتبعاني...

وترامت من العمود القريب أغنية أجشّة، سخيفة الكلمات، أمَّا غستاس المعلّق على هذا العمود فقد فَقَدَ عقله بعد مرور ثلاث ساعات على صلبه، لقد أفقده الذباب وأشعة الشمس الحارقة عقله. فما كان من المسكين إلاَّ أن صدح بهدوء، منشداً أغنية عن العنب، ورأسه ما زال يتأرجح بالعمامة، والأمر الذي جعل الذباب يتفرَّق عن هذا الوجه بخمول ليعود ويرحع إليه من جديد.

أمَّا ديسماس المعلَّق على العمود الثاني، فقد كان عذابه أشدّ إيلاماً من عذاب الاثنين، وذلك لأنَّ الغيبوبة ما كانت أخضعته بعد لسلطانها. فتحرَّك الرأس مراراً وباتِّزان يمنة ويساراً لكي تضرب أذنه بكتفه.

يسوع كان أسعد الاثنين، فقد أُغمي عليه في الساعة الأولى، وبعد ذلك دخل عالم الغيبوبة ونكّس الرأس الذي انحلَّت عمامته. وغطَّى الذباب والهوام هذا الرأس، وتوارى الوجه تحت هذا الجيش الأسود المتحرِّك.

وجثمت على الإرك والبطن وتحت الإبطين ذبابات دسمة وأخذت تمتص الجسد الأصفر العاري.

وامتثالاً لأمر الرجل ذي القلنسوة أمسك أحد الجلاَّدين الرمح بيده، أمَّا الآخر فقد قرّب من العمود دلواً واسفنجة. ورفع الجلاَّد الأوّل الرمح وضرب به يسوع على يديه المنبسطتين بالحبال إلى عارضة العمود. ضربه على اليد الأولى أوّلاً ثم على اليد الثانية. وارتعش الجسد بأضلعه النافرة. وأمر الجلاَّد كعب رمحه فوق البطن. ورفع حينذاك يسوع رأسه. وطار الذباب مدندناً وبان وجه المعلّق على الصليب وقد تورَّم من اللّسع، وسمنت العينان في هذا الوجه فبات لا يُعرف.

وفتَح الناصري جفنيه ونظر إلى تحت. العينان الصافيتان كعادتهما أصبحتا مكوّرتين.

وهمهم الجلاَّد: الناصري.

وحرّك الناصري شفتين متورمتين، وأجاب بصوت أجش:

ـ ما حاجتك؟ ولماذا دنوت منّي؟.

ـ اشرب ـ قال الجلاَّد، وارتفعت الاسفنجة المبتلّة بالماء، المثبَّتة على كعب الرمح حتى شفتي يسوع. ولمعت عينا يسوع ببريق السرور، وألصق شفتيه بالاسفنجة وشرع يمتصّ ماءها بنهم. وسُمع صوت ديسماس من العمود المجاور:

ـ ظلم.. ظلم، ليس من الحقِّ في شيء، فأنا أيضاً لصّ مثله.

وجهد ديسماس حتى يتحرَّك، لكنه لم يستطع فقد قُيِّدت يداه بأطواق من الحبال في ثلاثة أمكنة، فطوى بطنه وتشبَّثت أظافره بطرفي العارضة وأبقى رأسه مائلاً إلى عمود يسوع، واتَّقدت عيناه بنار الضغينة.

وحجبت الساحة سحابة من الغبار فأظلمت. وحينما انقشع الغبار صرخ قائد الوحدة: سكوت على العمود الثاني.

وصمت ديسماس وأبعد يسوع شفتيه عن الاسفنجة، وجهد أن يتكلّم بنبرات ناعمة ومقنعة، وحينما لم يفلح في محاولته التمس من الجلاَّد بصوت أجشّ:

ـ أعطه ليشرب.

اشتدَّت ظلمة المكان. غطَّت السحابة نصف السماء ميمِّمة نحو أورشليم، ومخرت غيوم فائرة عباب السماء أمام السحابة المشحونة بالنار والنداوة السوداء. وبرقت وأرعدت فوق الهضبة. ونزع الجلاَّد الاسفنجة من كعب الرمح.

ـ المجد للإيغمون الكريم النفس! همس الجلاَّد بمهابة وهدوء ووخز يسوع في قلبه، فارتعش الأخير وهمس:

ـ إيغمون...

وسال الدم على بطنه. وارتعشت اللثة التحتيّة متشنّجة، وتدلّى الرأس.

وحينما قصف الرعد ثانية، كان الجلاّد قد سقى ديسماس، وخاطبه بالكلمات ذاتها: المجد للإيغمون، وقتله.

غستاس الفاقد العقل صرخ مرعوباً حينما ظهر الجلاّد قربه. لكن حينما لامست الاسفنجة شفتيه لثغ بكلمات ما، وغرز أسنانه بها. وبعد عدّة ثوانٍ تدلّى جسمه هو الآخر بقدر ما سمحت به الحبال.

ومشى الرجل ذو القلنسوة في أثر الجلاّد وقائد الوحدة، ومشى وراءه رئيس حرس الهيكل. وحينما توقّف ذو القلنسوة عند العمود الأوّل راح يتأمّل متمعّناً بيسوع الغارق بالدماء، ولمس بيده البيضاء بطن قدم يسوع وقال لمرافقيه:

ـ إنّه ميّت.

وأعيدت الكلمة نفسها قرب العمودين الآخرين.

وبعد ذلك أومأ الخطيب لقائد الكتيبة ملتفتاً، ونزل من قِنة الهضبة برفقة رئيس حرس الهيكل والرجل صاحب القلنسوة.

وحلَّ الغسق وخدَّدت البروق السماء السوداء. وبغتة اشتعلت السماء بالنار ونضحت، وضاعت صرخة القائد الآمر بفكِّ الطوق في لعلعة الرعد. وانطلق الجنود السعداء الحظّ يركضون من القِنّة وهم يلبسون الخوذ. ولفَّت الظلمة بنقابها أورشليم. وانهمرت الأمطار بغتة، وأجبرت قائد الكتيبة أن يقف في منتصف الطريق على الهضبة. وطاردت السيول المسعورة الجنود الراكضين إلى السفح. وانزلق الجنود وخاضوا في الوحول، وسلكوا طريقاً إلى أورشليم كانت ممهّدة وقد غيّرت معالمها الأمطار، التي بلّلتهم حتّى العظام.

وبعد عدّة دقائق في معمودية العواصف والأمطار والنار، في المعمودية السوداء بلون الدخان، ظهر على الهضبة رجل واحد فقط. لم يَهُزّ هذا الرجل سكّينه المسروق عبثاً، لم يهزّ سكينه دون فائدة وهو ينطلق حيناً فوق النتوءات الملساء متشبّثاً بكلّ ما تقع عليه يداه، وأحياناً كان يزحف على ركبتيه قاصداً العواميد، ويتوارى في الظلمة الدامسة، وحيناً آخر، كان يستضيء بنور يرتعش.

ولمّا وصل إلى الأعمدة ارتمى عند قواعدها متهافتاً وقد غطّس رسغيه في الماء، ونزع عنه المبذل المبتلّ بالماء فأصبح ثقيل الوزن، وبقي في القميص الداخلي فقط وركع عند قدمي يسوع. وقطع الحبل عند الساقين وصعد على العارضة السفلى، ضمّ يسوع إليه وحرّر له يديه من القيود.

وسقط جسد يسوع الرطب العاري مع ليفي ومن ثمّ وقع على الأرض.

وأراد ليفي في الحال أن يلقي بهذا الجسد على الكتفين. لكن فكرة طارئة أوقفته. فترك

على الأرض في الماء جسداً تدلّى منه الرأس إلى الوراء وانبسطت يداه. وركض خائضاً في الوحل إلى الأعمدة الأخرى فقصَّ حبالها.. وسقط الجسدان على الأرض.

ومرَّت بضع دقائق، لم يبق على قِنّة الهضبة سوى جسدين وثلاثة أعمدة فارغة، وكانت المياه المتفجِّرة تقلّب الجسدين. ولم يعد يرى فوق الهضبة أحد، لا ليڤي ولا جسد يسوع...

الفصل السابع عشر

يوم قَلِق

وصباح يوم الجمعة أي اليوم الذي تلا ذلك المشهد المشؤوم، كان مسرح الڤاريته في هرج ومرج بكامل هيئته الإدارية المؤلَّفة من أمين عام المحاسبة ڤاسيلي ستيپانوڤتش لاستوتشكين، والمحاسبين، والعاملات الثلاث على الآلة الكاتبة، وأميني الصندوق، والسعاة، ومراقبي البطاقات، وعمَّال التنظيفات. بكلمة مختصرة كان كل موظَّفي المسرح الحاضرين منهمكين ولم يُوجدوا في أماكن عملهم. كانوا يجلسون على رفوف النوافذ المطلَّة على شارع السادوڤايا، وينظرون إلى ما يحدث تحتهم أي تحت حائط المسرح.

احتشد الناس بالآلاف وتراصّوا فوجين اثنين بطابور طويل، كان رأس الطابور تحت الحائط. أمّا الطرف الآخر فكان في ساحة (كودرينسكايا).

وكان في مقدمة هذه الصفوف المتراصّة ما يقارب العشرين (مُزايداً) من التجّار المضاربين والمعروفين جيّداً في أوساط موسكو المسرحية.

وكان الحشد يموج مضطّرباً وقد جذب انتباه المواطنين المتدفِّقين كالسيل من أمامه.

ناقش أفراد الحشد الحكايات العاصفة عن حفلة البارحة العجيبة، مشهد السحر الأسود. ناقشوا الحكايات التي حيَّرت عقل كبير المحاسبين ڤاسيلي ستيپانوڤتش وأدهشته، ولا سيما أنّه كان غائباً عن الحفلة.

وتحدّث العمَّال بقصص تشيب لهولها رؤوس الأطفال. وغيض من فيض قصصهم: أنَّه بعد انتهاء المشهد خرج بعض الموظَّفين من المسرح وراحوا يركضون في الشارع بمظهر غير لائق. كما أنَّهم تحدَّثوا بقصص أخرى مماثلة.

وكان ڤاسيلي ستيپانوڤتش الهادىء الطبع المتواضع، يسمع الحكايات عن هذه العجائب ويغمز بعينيه، دون أن يعلم بالتحديد ما يتوجَّب عليه أن يعمل وأيّة اجراءات يجب أن يتّخذ في ظرفٍ يعوزه فيه قرار حاسم، واتخاذ مثل هذا القرار مطلوب منه دون غيره، لأنَّه كان الأكبر سنَّا الآن في مسرح الڤاريته.

وما أن اقتربت الساعة العاشرة حتى تورَّم صف الطامعين بالبطاقات، وبلغت أخبار هذا الورم رجال الشرطة. وبسرعة مدهشة أرسلت دوريتّين، واحدة من المشاة وأخرى من الخيّالة. وأعاد رجال الدوريّة بعض النظام إلى الطابور. ومع هذا فإنَّ الأفعى الكيلومترية

المنتظمة الطول، كانت بحدّ ذاتها عنصر غواية خطيراً ومثار دهشة للمواطنين في شارع السادوڤايا.

هذا في الخارج، أمّا في الداخل فلم تكن الأمور أفضل. فمنذ الصباح الباكر بدأت أجراس الهاتف ترنّ. رنّت الأجراس دون انقطاع في مكتب ليخادييف، في مكتب ريمسكي، في غرفة المحاسبة، وفي غرفة الصندوق، وفي مكتب ڤارنوخا.

وأجاب ڤاسيلي ستيپانوڤتش، في بادىء الأمر، على التلفون، وردّت أمينة الصندوق، وجمجم في السمّاعة العمّال، لكنّهم سرعان ما لاذوا بالصمت. لاذوا بالصمت لأنّهم ما امتلكوا جواباً على أسئلة: أين ليخادييف، وأين ڤارنوخا وريمسكي. في البدء حاولوا التخلّص مستعينين بكلمات: ليخادييف في الشقّة. لكنّ السائلين أجابوا من المدينة أنّهم اتّصلوا بالشقّة وقيل لهم بأنّ ليخادييف في الڤاريته.

وتلفنت سيّدة جزعة وطلبت ريمسكي بالحاح، فنصحوها بأن تتلفن لزوجة الأخير وتسأل عنه، فما كان من السيّدة إلاّ أن أجابت منتحبة باكية بأنّ السائلة هي الزوجة نفسها، وأنّ ريمسكي زوجها قد ضاع وليس له أثر. وساد الهرج وعلا اللغط. وكانت عاملة التنظيفات قد قصّت على مسامع الجميع كيف أنّها حينما ذهبت إلى مكتب المدير لتنظّفه، وجدت بابه مفتوحاً على مصراعيه، والمصابيح مضاءة، والشرفة المطلّة على الحديقة محطّمة، والمقعد مرمي على الأرض، والمكان خالٍ ...

وفي الساعة الحادية عشرة اقتحمت السيّدة ريمسكي مسرح الڤاريته، اقتحمته شابكة يديها ناحبة. وتضعضع ڤاسيلي ستيپانوڤتش ولم يدرِ ما يفعل وبِمَ ينصح زائرته. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف حضرت الشرطة. وكان سؤال الشرطة الأوّل السؤال المنتظر والمعقول:

ـ ما الذي يحدث عندكم أيها المواطنون؟ ما المسألة؟

وصمتت الفرقة متقهقرة منيطة أمر تمثيلها إلى ڤاسيلي ستيبانوڤتش الشاحب الجزع. وكان لا بدّ من تسمية الأمور بأسمائها والاعتراف بأنّ مدراء الڤاريته الثلاثة: المدير العام، والمدير المالي، ومدير الأعمال اختفوا، ولا أحد يعرف عن مكان وجودهم، وأنّ عريف الحفلة بعد حادثة البارحة قد نُقل إلى المصحّ، وباختصار كان مشهد البارحة مشهداً حافلاً بالفضائح والمفاجآت.

وأرسلوا السيّدة ريمسكي الناحبة إلى بيتها بعد أن هدّأوا من روعها وواسوها، وأولوا بعد ذلك كل اهتمامهم لحكاية عاملة التنظيفات عن مكتب المدير المالي وبأية حالة وجدته.

وطُلب من الموظفين أن يعودوا إلى أماكنهم ويهتمّوا بأعمالهم. وبعد مرور بعض الوقت حضر إلى مبنى الڤاريته رجال المباحث، وأتوا مصحوبين بكلب يفيض الذكاء الحادّ من

عينيه، مرهف السمع، مكتنز، لونه كلون رماد السجائر. وتعالى الهمس بين موظّفي الڤاريته، مَفَاد الهمس أنَّ الكلب هذا كان توزبوبن الذائع الصيت. وصدقت تخمينات الموظّفين فالكلب هو توزبوبن بنفسه. وقد أذهل الجميع. فما أن دخل إلى مكتب المدير المالي حتى أخذ يزمجر مكشِّراً عن أنياب صفراء مرعبة، ثم رقد مُلصِقاً بطنه بالأرض وزحف نحو النافذة المكسورة وقد رشحت نظرات عينيه بالكآبة وبشيء من السخط. ومتخطياً هلعه وثب إلى حافّة النافذة، ورفع خطمه الحادّ إلى أعلى وعوّى عواءً وحشياً شرساً. ولم يرد أن يبتعد عن النافذة، وزمجر وارتعش وحاول أن يقفز إلى أسفل. وأخرجوا الكلب من المكتب وأدخلوه إلى البهو، ومن هناك خرج إلى الشارع عبر الممرّ الرئيسي وانتهى بتابعيه إلى موقف التاكسي. وقرب الموقف أضاع توزبوبن الأثر المقتفى.

أقام رجال المباحث في مكتب ڤارنوخا، وإلى ذلك المكتب دُعي موظفو المسرح الذين شهدوا حوادث يوم الأمس، تلك التي جرت على الخشبة. والجدير ذكره أنَّ رجال المباحث صادفوا في عملهم صعوبات غير متوقّعة كان عليهم أن يتغلّبوا عليها، ومراراً كان ينقطع الخيط بين أيديهم.

كان ثمّة اعلانات طُبعت وأُلصقت؟ أجل، لكن في الليل المنصرم أُلصقت فوق الاعلانات القديمة أُخرى جديدة. والآن مهما فعلت لا تقع عينك على إعلان واحد قديم.

ـ من أين أتى هذا الساحر؟ ومن يعرفه؟ وهل ثمّة عقد موقّع واتفاق معه؟.

وأجاب ڤاسيلي ستيپانوڤتش الجزوع: من المفروض أن يكون ثمّة عقد.

ـ وإذا وُقِّع عقد بينكم وبين الساحر، فيجب أن يمرّ على المحاسبة.

ـ بالتأكيد ـ أجاب ڤاسيلي ستيپانوڤتش قلِقاً.

ـ وأين العقد إذن؟

ـ لا أثر له. أجاب المحاسب، وقد ازداد لون وجهه شحوباً وبسط ذراعيه متعجِّباً.

وفعلاً لم يُعثر على العقد لا في ملفّات المحاسبة ولا عند المدير المالي، ولا عند ليخادييف ولا عند ڤارنوخا.

ما اسم عائلة هذا الساحر؟ ڤاسيلي ستيپنوڤتش لا يعرف، لأنَّه كان يوم البارحة غائباً. مراقبو البطاقات هم أيضاً لا يعرفون. أمينة الصندوق قطّبت جبينها وعبست وفكّرت وفكّرت، وأخيراً قالت:

ـ ڤو... يبدو لي أنَّ اسم عائلته ڤولند.

وقد لا يكون ڤولند.. قد يكون الاسم ڤالاند.

وتبيَّن أنَّه في مكتب السياحة لم يُسمع لا باسم ڤولند الساحر ولا بڤالاند... ولم تصلهم أخبار السحر والسحرة.

كاربوف أحد العمّال أعلن أنَّه حسبما يظنّ يقيم الساحر في شقّة ليخادييف. وبالتأكيد فإنَّهم ذهبوا إلى الشقّة في الحال ولم يجدوا للساحر أي أثر. وليخادييف نفسه غائب عن بيته، الخادمة غروناويا غائبة أيضاً، إلى أين يمّمت لا أحد يعرف. رئيس تعاونية البيوت نيكونار إيڤانوڤتش غائب أيضاً. پرليجنيف غائب.

ما حدث لا يقبله أو يقرّه عقل بشري، لقد فُقدت هيئة الڤاريته الادارية بأكملها، ومُثِّل البارحة مشهد غريب حافل بالفضائح، من أحيا الحفلة ومن أوعز بها، لا أحد يعلم. في غضون ذلك كان النهار قد اكتهل والصندوق يجب أن يُفتح، لكن عن فتح الصندوق لم يجرِ أيّ حديث! ففي الحال عُلِّقت على أبواب الڤاريته قطعة هائلة الكبر من الكرتون كُتب عليها: «تبديل تمثيلية اليوم».

وماجت الصفوف المتراصّة واضطربت، ودبّت الفوضى ابتداءً من المقدّمة، وبدأت الصفوف بالتفكّك والناس بالانصراف. وبعد مرور ساعة تقريباً خلا شارع السادوڤايا من كل أثر للحشد. وغادر رجال المباحث المسرح ليكملوا مهمتهم في مكان آخر، وسمحوا للموظفين بالذهاب مبقين المناوبين فقط وأقفلوا أبواب الڤاريته.

مهمّتان أوكلتا إلى ڤاسيلي ستيپانوڤتش: كان عليه أوّلاً التوجّه إلى لجنة العرض المسرحي والألعاب الخفيفة مصحوباً بتقرير عن حوادث الأمس. وثانياً الذهاب إلى دائرة المال ليسلّم غلّة صندوق البارحة: مبلغ ٢١٧١١ روبلاً.

ووضّب ڤاسيلي ستيپانوڤتش أوراق النقد بورقة جريدة وهو المعروف عنه الاتقان والمواظبة. ولفَّ الحزمة بخيط قوي، ووضعها في محفظة. وحسب التعليمات التي يعرفها جيِّداً لم يتوجَّه إلى محطّة الأوتوبيس أو الترام، بل توجَّه إلى موقف التاكسي. وما أن رأى سائقو السيارات الثلاث رجلاً يحثّ الخطى نحو الموقف ويحمل محفظة ممتلئة، حتى مرّوا من أمامه مسرعين بسيَّاراتهم الفارغة دون أن يتوقَّفوا، لا بل رشقوه بنظرات حاقدة دون معرفة السبب.

تسمَّر المحاسب في مكانه كالمصعوق، حاول أن يفقه ما يحدث من حوله وماذا يعني كل هذا. وبعد ثلاث دقائق اقتربت منه سيَّارة فارغة، تشنَّج وجه سائقها حينما رأى الراكب أمامه.

وسأل ڤاسيلي ستيپانوڤتش وهو يسعل مندهشاً:

ـ السيَّارة فارغة؟!.

وأجاب السائق بحقد دون أن يلتفت إلى الراكب:

ـ أرني النقود أوّلاً.

فما كان من المحاسب، وقد تعاظمت دهشته، إلاَّ أن ضغط على محفظته الثمينة التي

تحت إبطه وأخرج منها ورقة نقدية من فئة العشرة روبلات وأراها للسائق. وما كان من هذا الأخير إلاَ أن قال مختصراً الحديث: مشغول.

وهتف المحاسب: المعذرة... ولكنَ السائق قاطعه بقوله:

ـ لديك أوراق من فئة الثلاثة روبلات؟

وأخرج المحاسب الضائع اللب، من محفظة نقوده ورقتين من فئة الثلاثة روبلات وأراها للسائق.

ـ اجلس ـ صاح السائق وضرب مؤشّر العدّاد ضربة كادت أن تحطّمه.

ـ هيّا بنا.

وسأل المحاسب بخجل: أليس لديك نقوداً كي تصرف وتردّ لي؟.

ـ جيبي محشو بالنقود! ـ أجاب السائق وانعكست في المرآة عيناه الطافحتان بالدم ـ وأردف: هذه هي الحادثة الثالثة اليوم، وقد حدث مع الآخرين أيضاً ما حدث معي. نقدني ابن كلب قطع نقدية من فئة العشر روبلات، ورددت له أربعة روبلات وخمسة.. ونزل الوغد من السيّارة!.. وبعد خمس دقائق نظرت فرأيت بدلاً من العشر روبلات ورقة كتلك التي تلصق على قنينة النرزانا. ثمّ تفوّه السائق بكلمات لا تُكتب، وأكمل: وركب رجل آخر معي وراء زوبوفسكايا، نقدني عشر روبلات أيضاً، ورددت له ثلاثة روبلات! ودسست يدي في الجزدان، وإذا بنحلة تعقصني في إصبعي!.. يا للويل.. بحثت عن العشر روبلات فلم أعثر عليها!.. وهنا تفوّه السائق، من جديد، بكلمات لا يمكن كتابتها. البارحة في هذا الڤاريته (كلمات لا تكتب) أحيا مشعوذ كريه حفلة وعمل أوراقاً من فئة العشر روبلات (كلمات لا تكتب).

وصُعق المحاسب وانكمش على نفسه وتظاهر وكأنّه يسمع لأوّل مرة في حياته بكلمة ڤاريته، وقال في نفسه: «حسنا؛ حسناً!».

وما أن وصل المحاسب إلى حيث يقصد حتّى نفح السائق أجره وأجزل. ودخل إلى المبنى، واجتاز الممرّ متوجّهاً إلى مكتب المسؤول. فهم المحاسب وهو في طريقه إلى المكتب أنّه بكّر في مجيئه. وساد هرج ومرج في دائرة لجنة النظّارة، وركضت من أمام المحاسب عاملة، وقد سقط منديلها على ظهرها وجحظت عيناها. وصرخت دون أن يُعرف لمن تُوجّه كلماتها:

ـ لا! لا! يا أحبّائي. السترة والبنطال هنا. السترة فارغة! قالت العاملة هذا واختفت وراء أحد الأبواب. وفي الحال انبعثت وراءها أصوات وقرقعة أوانٍ منزلية. ومن غرفة أمانة السرّ خرج المسؤول عن القسم الأوّل في اللجنة راكضاً، وكان في وضع لا يُحسد عليه. في البداية لم يعرفه المحاسب. ظهر المسؤول وتوارى دونما أثر. واقترب المحاسب المصعوق

المروَّع ممّا يرى، من غرفة السكرتارية. وكانت هذه الغرفة بمثابة مدخل يؤدِّي إلى مكتب رئيس اللجنة. وهنا كاد المحاسب يفقد عقله وصُعق: فمن وراء أبواب المكتب المغلقة ترامت أصوات وسمع وعيد وتهديد. كان هذا الصوت صوت رئيس اللجنة پرخور پتروڤتش.

وفكَّر المحاسب المتضعضع: لعلَّهم يوبِّخون إنساناً ما. ثم التفت فرأى ما لم يخطر على باله رؤيته، لقد رأى الحسناء آنّا ريتشاردوڤنا أمينة سر پروخور پتروڤتش، مضطّجعة في مقعد جلدي وملقية برأسها إلى الوراء على ظهرها، وقد أصابتها نوبة جنون، وكانت تنتحب حاملة منديلاً بيدها ومدَّت رجليها نحو وسط غرفة السكرتارية.

وكانت ذقن آنّا ريتشاردوڤنا مطلية بأحمر الشفاه، وعلى الوجنتين اللتين كانتا بلون الدرّاق زحفت من الأهداب سيول من وحل المساحيق.

وما أن رأت آنّا ريتشاردوڤنا الداخل، حتى وثبت من مكانها مندفعة نحو المحاسب، وتشبَّثت بسترته وراحت تهزّه صائحة به:

ـ الحمد لله! وُجد رجل شجاع واحد! هرب الكلّ وخانوا.. هيَّا بنا لنذهب إليه، إنِّي لا أعلم ما يتوجَّب عليَّ أن أعمله. ـ قالت هذا وجرَّت المحاسب إلى المكتب وهي تواصل نحيبها. أمَّا المحاسب فمنذ أن دخل المكتب رمى محفظته على الأرض وتبلبلت أفكاره، ومما يجدر ذكره أنَّه كان ثمّة سببٍ كافٍ وافٍ لما يحدث، فوراء طاولة كتابة هائلة الحجم، فوقها محبرة ضخمة، جلست بذلة. وكانت هذه البذلة تجري على الورق بريشة ناشفة لم تُغمس في الحبر. ربطة العنق كانت معقودة... وكانت مع البذلة أيضاً. ظهر من جيب البذلة قلم حبر، لكن لم يُرَ فوق الياقة لا رقبة ولا رأس كما أنَّه لم تبد راحتا اليد من الأكمام.

كانت البذلة منهمكة غارقة في العمل. ولم تشعر بالهرج والمرج السائدين حولها. لكن ما أن شعرت بدخول شخص غريب حتى استلقت على ظهرها في المقعد. وصدح من فوق الرقبة صوت پروخور پتروڤتش، ذلك الصوت الذي يعرف المحاسب نبراته معرفة جيِّدة. صرخ قائلاً:

ـ ماذا حدث؟ مكتوب على الباب بأنَّ المقابلات ممنوعة.

وزعقت السكرتيرة الحسناء صارخة وهي تلوي يديها:

ـ ألا ترون؟ ألا ترون؟ إنَّه غير موجود! أعيدوه! أعيدوا!

وهنا اندسَّ أحد الأشخاص إلى المكتب، وتأوَّه وركض إلى الخارج. وشعر المحاسب بأنَّ ركبتيه تصطكَّان، فجلس على حافَّة الكرسي. ولم ينس أن يلمَّ المحفظة.

وقفزت آنّا ريتشاردوڤنا قرب المحاسب وشدّته بسترته حتى كادت تُمزِّقها وصاحت:

ـ دائماً، دائماً كنت أوقفه عن غيِّه حينما كان يشتم وينادي الشيطان، وها هو... قد نادى الشيطان بما فيه الكفاية...

قالت الحسناء هذا وركضت نحو طاولة الكتابة. وما لبثت أن هتفت بصوت موسيقي ناعم النبرات لكنه أخنّ بسبب البكاء:

ـ پروشا! أين أنتِ؟.

ـ وأين هي پروشا؟ وهل هي هنا؟ استوضحت البذلة بكبرياء، وقد غرقت أكثر فأكثر في المقعد.

ـ لم يعرفني! لم يعرفني! تفهم ما يحدث؟ قالت السكرتيرة ناحبة.

ـ أرجوك أن لا تنتحبي في المكتب! ـ قالت البذلة المخطّطة وقد اتَّقدت سخطاً، وجذبت بكمِّها رزمة أوراق جديدة، بهدف واضح هو صوغ القرارات وكتابتها على تلك الأوراق.

وصاحت آنَّا ريتشاردوڤنا:

ـ ليتني متُّ قبل هذا... لا! لا! ليس بمقدرتي أن أرى ما أرى!.

تفوَّهت السكرتيرة بكلماتها هذه وركضت إلى غرفة السكرتارية. وكطلقة الرصاص، تبعها المحاسب. وقصَّت آنَّا ريتشاردوڤنا وهي ترتجف مضطّربة وقد تشبَّثت من جديد بكمّ المحاسب: تصوَّروا، كنت جالسة وإذا بقطّ يدخل، قطّ أسود معافى كفرس النهر.. وبالتأكيد صحت به: بِسّ!.. فخرج، خرج ليدخل عليَّ رجل سمين، خطمه كخطم الهرّ.. ويقول: ماذا تفعلين أيتها الإمرأة! تنهرين زوَّارك، وتصيحين بهم بِسّ؟ ماذا دهاك؟.. ودخل السمين بغتة على پروخور پتروڤتش.. وأنا أصيح وراءه: أفقدت عقلك؟.. أمَّا الوقح فقصد پروخور پتروڤتش رأساً وجلس قبالته في المقعد!.. وپروخور ذو النفس السمحاء عصبي المزاج. لا أنكر لقد اشتعل پروخور غيظاً إنَّه إنسان عصبيّ المزاج يعمل كالبغل. نعم احتدم غيظاً وخاطب الوقح بقوله: كيف تدخل من دون إذن؟ فما كان من الغريب الوقح إلاَّ أن انهار على المقعد، تخيَّلوا، وقال وهو يبتسم: إنَّما جئت بمهمة.. جئت لأتحدَّث معك بقضية.

وغضب پروخور پتروڤتش من جديد وصرخ: «أنا مشغول!».

أمَّا ذاك فأجاب: (تخيَّلوا): «إنَّك لست مشغولاً بشيء...».

وهنا نفد صبر پروخور پتروڤتش وصاح بملء فيه:

ـ «ما هذا! اطردوه من أمامي، لتخطفني الشياطين!».

أمَّا ذاك (تخيَّلوا) فقد اكتفى بأن ابتسم وقال: «لتخطفك الشياطين؟ حسناً وهذا أيضاً ممكن!».

وما كدت أصيح « ترك ».. حتى كان شبيه الهرّ قد اختفى من أمام عيني.. وظهرت بذلة.. وزعقت آنّا وولولت لاوية فمها ورسمت علامة الصليب على صدرها. وتلقّفت المسكينة أنفاسها وغصّت بالنحيب وبدأت تهذي وتهذر باللغو والسخافات:

ـ البذلة تكتب، تكتب، تكتب! نعم وتتكلّم بالهاتف... فرَّ الجميع كغزلان البراري!.. يا للهول، يا للهول.

المحاسب كان يقف ويرتجف كالورقة. لكن القدر تدخَّل وأنقذه. أنقذته الشرطة بحضورها. دخل رجال الشرطة إلى غرفة السكرتاريا بخطوات عملية آمنة. تمثَّلت الشرطة بشخصين من أفرادها. وما أن رأتهما الحسناء حتى علا نشيجها ونواحها وأخذت تضرب باب المكتب بيدها. وخاطبها الشرطي الأوَّل بهدوء:

ـ دعينا من النحيب أيتها الإمرأة...

وشعر المحاسب بأنَّ وجوده أصبح نافلاً فقفز من غرفة السكرتارية وبعد دقيقة أصبح في الهواء الطلق.

دوى نغم في رأسه.. كدويّ البوق. وكان يسمع في هذا الدويّ نتفاً من حكايات العاملين في المسرح عن قطّ البارحة، الذي شارك في الحفلة.. وقال في نفسه: « إي هيه يه يه، أيكون القطّ الذي تحدَّثت عنه السكرتيرة قطّنا ».

ولما لم ينل ڤاسيلي ستيپانوڤتش ذو الضمير الحي مبتغاه في اللجنة فقد قرَّر أن يقصد أحد فروعها الكائن في زقاق (فاغنكومسكي). وليروِّح عن نفسه قليلاً، اجتاز الطريق حتّى الفرع الذي يقصد مشياً على الأقدام. الفرع المسرحي هذا كان يقع في مخدع، زال عنه طلاؤه بفعل السنين. يتوسَّط حوش اشتهر ببهوه ذي الأعمدة الأرجوانية اللون. لم تدهش أعمدة البهو الزائرين، إنَّما أدهشهم هذه المرّة ما كان يحدث تحت الأعمدة.

وقف بعض الزائرين مذهولين وهم ينظرون إلى الآنسة الباكية الجالسة إلى منضدة أُلقيت فوقها كتب مسرحية، وقد عرضتها الفتاة للبيع. في الدقيقة الحاضرة لم تعرض الآنسة على أحد أيًّا من الكتب. كانت تتملَّص من الأسئلة المؤاسية المنهارة عليها. في وقت تواصل فيه رنين الهاتف.. ورنين يسمع من كلّ ناحية من فوق، ومن تحت، ومن الجوانب ومن كل ناحية من أنحاء المخدع.. عشرون جهازاً على الأقلّ كانت ترنّ شاقّة حناجرها.

وفجأة ارتعشت الآنسة وأطلقت صرخات هستيرية:

ها إنَّهم من جديد!..

وغنَّت بغتة (بسوپرانو) بصوت متهدِّج:

بحر ممجَّد: والبايكال المقدَّس.

وبدا عامل في أعلى الدرج، بدا يهدِّد بقبضة يده أحد الأشخاص، وغنَّى مشاركاً

الآنسة ببريتون ذاوٍ:

سفينة ممجَّدة تغسل البرميل.

وانضمَّت إلى صوت العامل أصوات أخرى من البعيد، وبدأت الجوقة تكبر، وأخيراً صدحت الأغنية في أربع زوايا المكان.

وفي الغرفة المجاورة، الغرفة رقم ٦، حيث قسم التدقيق في الحسابات، سمعت بوضوح «أوكتاف» عاصفة ببحّة خفيفة. ورافقت جوقة المغنين طقطقة أجهزة الهاتف الآخذة في الارتفاع.

وهمدر العامل في أعلى الدرج:

هيّا بارغوزين... دع الأمواج تثورِ.

وانسابت الدموع في وجه العذراء، وجهدت ضاغطة على أسنانها، لكن فمها انفتح من تلقاء نفسه، وغنّت بصوت أعلى بسلّم واحد من صوت العامل:

على الشاطر أن لا يبتعد!.

ما أذهل زوّار الفرع الصامتين هو أنَ مغنّي الجوقة الذين كانوا موزّعين في الجهات المختلفة أتى انشادهم منسجماً متآلفاً، وكأنَّ الجوقة بأكملها كانت تقف أمام قائد أوركسترا موجّه مخفي. وكان المارّة يتوقّفون عند شعرية الحوش متعجبين للفرح والمرح السائدين هنالك.

وما أن شارف المقطع الشعري الأوّل على نهايته حتّى هدأ الغناء فجأة. وكأنّما كان هدوؤه استجابة لاشارة من صولجان قائد الأوركسترا... وبعد ذلك تفوّه العامل بشتائم لاذعة وتوارى. ثم انفتحت الأبواب الرئيسية وشوهد مواطن يدخل بمعطف صيفي، وقد بدت من تحته حواشي مبذلٍ أبيض، وقد صحبه شرطي.

وأطلقت العذراء صرخةً هستيرية:

ـ اتخذوا الاجراءات يا دكتور... أرجوكم أن تتخذوا اجراءات.

وركض على الدرج أمين سرّ الفرع وقد ذاب من فرط الحياء والارتباك وتكلّم متلعثماً بكلماته:

ـ إنَّني أرى يا دكتور أنّنا بُلينا بما يسمّى تنويم مغناطيسي جماعي. لذلك أرى من الضروري... لكنّه لم يكمل جملته واختنق بالكلمات... وبغتة صرخ بصوت (تنوري) النبرات:

ـ شيلكا ونرتشينسك...

ـ يا أحمق.. صرخت العذراء دون أن تسمّي المغني بكلمتها، يا أحمق، وصدحت بترنيمة عاصفة مغنيّة هي الأخرى عن شيلكا ونرتشينسك...

قال الدكتور لأمين السرّ:

ـ املك زمام نفسك وكفّ عن الغناء. وحسب الظاهر نستطيع أن نجزم بأنَّ أمين السرّ كان مستعداً لأن يبذل كل ما بمقدرته حتى يكفَّ عن الغناء. لكنَّه لم يقدر، لا بل على العكس فقد شارك الجوقة ترتيلها موصلاً إلى أسماع المارّة خبراً مفاده: أن في غياضه، لم يقربه وحش مفترس ولا أدركته رصاصة الرماة!...

وما أن انتهى المقطع الشعري حتى تناولت الفتاة الأولى من الطبيب نصيبها الذي كان عبارة عن جرعة من الدواء المستخرج من الحشائش، وركض الطبيب بعد ذلك وراء السكرتير، ليبحث عن الآخرين ويسقيهم الدواء.

وفجأة وجّه ڤاسيلي ستيپانوڤتش كلامه إلى الفتاة وقال:

ـ معذرة يا مواطنتي الصغيرة... ألم يعرِّج عليكم قطّ أسود؟

وصرخت الفتاة بحدّة:

ـ أيّ قطّ.. عندنا في الفرع حمار! حمار!. ثم أضافت: ليسمعوني! سأعلن كلّ شيء وأفضح الخفايا.. وفعلاً فقد نفَّذت تهديداتها وباحت بما كان...

وتبيَّن أنَّ رئيس الفرع في المدينة هو هادم الحفلات المسلية كلّها ـ على حدّ قولها ـ وكان يعاني من جنون العظمة ومن هوس تنظيم الحفلات بأكملها. وصرخت الفتاة: لقد ذرّ الرماد في عيني الرئيس العام.

لقد نجح رئيس الفرع، خلال سنة واحدة، في تنظيم حلقة دراسية عن لرمونتوف وعن الشطرنج ولعبة الداما، والبنغ بونغ، وحلقة عن ركوب الخيل، ووعد بتنظيم حلقة عن التجديف في المياه الحلوة، وأخرى عن تسلّق جبال الآلب قبل حلول فصل الصيف. وأكملت الفتاة قصّتها: واليوم أثناء فرصة الغداء وإذا برئيس الفرع يدخل علينا متأبّطاً ذراع كلب ابن كلب، غريب لا أحد يعلم شيئاً عن أصله وفصله، كان يرتدي بنطلوناً ذا ترابيع ونظّارة متصدِّعة... وهيئته مزعجة إلى حدٍّ لا يطاق!. وقدَّم المدير ضيفه للجالسين في مطعم الفرع على أنَّه اختصاصي ماهر في تنظيم حلقات الترتيل والجوقات الغنائية. وهنا (والكلام ما زال للفتاة) اكفهرَّت وجوه هواة تسلُّق الجبال، هواة الغد، لكن الرئيس دعا الجميع ليتحلّوا بالحيوية والنشاط، أمَّا الاختصاصي فمزح معهم وروى لهم النكات وأكَّد لهم بأغلظ قسمٍ بأنَّ تعليم الغناء سيأخذ وقتاً قصيراً، أمَّا نفع الغناء فسيملأ عربة كبيرة... والكلام بيننا. وكما روت الفتاة فإنَّ أوَّل الراكضين ليسجِّل اسمه كانا فانوف وكسارتشوف، الدنيئان المداهنان المهاذقان والمعروفان بصفاتهما الحميدة في الفرع. واقتنع باقي الموظفين بأنَّه لا يجوز تفويت مثل هذه الفرصة فكان عليهم أن يتسجَّلوا في الحلقة أيضاً. وقرَّروا أن يغنّوا أثناء فرصة الغداء، وذلك لأنَّهم كانوا مشغولين بالدراسة عن لرمونتوف ولعبة الداما.

وليضرب رئيس الفرع مثلاً على نفسه أعلن أنَّ فئة صوته « تينور ». وجرت الامور بعد ذلك كما تجري في الأحلام المزعجة. أمَّا الاختصاصي « مايسترو » الجوقات ذو الترابيع فصاح بأعلى صوته:

دو مي سول دو، وشدَّ من وراء الخزانة أولئك الذين تملّكهم الخجل واختبأوا في مكانهم ذلك، في محاولة منهم للتملّص من الغناء. وقال ذاك لكوسارتشوك إنَّه يملك أذناً مرهفة، وبكى وولول مطالباً باحترام المطرب العجوز وشيخ المرتّلين، وضرب (بالكامرترون) على أصابعه ورجاهم بأن تدوّي أصواتهم بأغنية: بحر ممجّد...

وغنُّوا... وغنُّوا وأجادوا في غنائهم. ذو الترابيع كان فعلاً معلّماً ماهراً. وما أن أنهوا غناء المقطع الأوَّل إلاَّ وشيخ المغنين يستأذن قائلاً: دقيقة واحدة وأعود. وتوارى عن العيان، وظنُّوا أنَّه سيعود بعد دقيقة حقًّا. لكن ها قد مرَّت عشر دقائق وحضرته لم يعد بعد. وغمر السرور صدور أفراد الفرع لأنَّه هرب ولم يعد. وفجأة... وإذا بهم يغنُّون المقطع الثاني من الأغنية من تلقاء أنفسهم، وقاد الجميع كوسارتشوك. كوسارتشوك ربَّما لم يملك أذناً مرهفة، لكنَّه كان راضياً فرحاً بصوته (التنوري) النبرات.

وغنَّوا.. وكان الغناء يأتي رغماً عن إرادتهم.. وحتى النهاية. وما كان بمقدرتهم أن يكفُّوا عن الغناء.. كانوا يسكتون ثلاث دقائق ومن جديد ترتفع أصواتهم بالغناء. صمت فغناء! ثمّ صمت فغناء!، وهنا أدركوا أنَّ ثمَّة مصيبة داهمتهم. وأغلق رئيس الفرع الباب على نفسه اتِّقاءً للفضيحة.

وهنا انقطعت الفتاة عن الكلام المباح، فالدواء لم ينفعها والشربة لم تساعدها في شيء. وبعد ربع ساعة وصلت إلى قرب الشعرية في حيّ ڤاغكوفسكي ثلاث شاحنات. ونقلوا بهذه الشاحنات موظفي الفرع جميعاً وعلى رأسهم الرئيس المسؤول. وما أن تحرَّكت في الزقاق الشاحنة الأولى التي كانت تترجَّج في البوَّابة، حتَّى فتح الموظَّفون الذين كانوا يقفون على الرصيف متكاتفين أفواههم، ودوَّت أغنية شعبية في كلّ أرجاء الزقاق. وانطلقت الشاحنة الثانية وسرعان ما تبعتها الثالثة. وبهذا سافرت الشاحنات الثلاث.

اكتفى المارّة الساعون وراء أعمالهم بأن رشقوا العربات بنظراتهم الخاطفة، ولم يتعجَّبوا ممَّا رأوا، ظنُّوا أنَّ ثمَّة نزهة ومتنزهين في المدينة. وفعلاً لقد يمَّمت الشاحنات ضاحية المدينة، لكنَّها ما نقلت الركاب للنزهة، إنَّما نقلتهم إلى عيادة البروفسور ستراڤنسكي.

بعد مرور نصف ساعة، تمكَّن المحاسب الفاقد اللبّ من الوصول إلى مسؤول الفرع المالي، آملاً أن يخلص في النهاية من الأموال الأميرية. وقبل كلّ شيء ألقى المحاسب الحالب من الدهر شطريه، ألقى نظرة وجلة على القاعة المستطيلة حيث كان يجلس الموظَّفون وراء الزجاج المعتم ذي الكتابات الذهبية. ولم يشعر المحاسب بالقلق والجزع في هذا المكان ولم يرَ

أي أثر للفوضى. كان الهدوء سيّد المكان، وكما يفترض أن يكون في مؤسّسة معتبرة.

وأدخل ڤاسيلي ستيپانوڤتش رأسه في تلك النافذة الصغيرة التي دوِّنت فوقها كلمات: هنا تُسَلّم الأموال.

وتبادل المحاسب التحية مع موظّف يراه لأوّل مرّة وبتهذيب طلب منه استمارة. وسأله الموظّف من الداخل:

ـ وما حاجتك بالاستمارة؟

وذهل كبير المحاسبين وأجاب:

ـ أريد أن أسلّم مبلغاً من المال؛ أنا آتٍ من مسرح الڤاريته.

وأجاب الموظّف:

ـ دقيقة واحدة من فضلك. وبلحظة عين غطّى ثقب الزجاج بستارة.

«أمر غريب عجيب»، فكّر المحاسب بينه وبين نفسه. ودهشته كانت حقًّا في محلّها. فلأوّل مرّة في حياته يقع في مأزق كهذا. الكلّ يعلم بمدى الصعوبة التي تواجه الانسان ليحصل على المال. ثمّة عقبات كأداء مفترضة، وبالامكان خلقها بسهولة. لكنّ المحاسب من خلال تجربته العملية، تجربة ثلاثين سنة من العمل لم تواجهه حالة واحدة امتنعت فيها شخصية رسمية أو خاصّة عن تسلّم الأموال...

وأخيراً انزاحت الستارة عن الكوّة، والتصق المحاسب من جديد بالنافذة.

وسأله الموظّف:

ـ أبحوزتك مبلغاً كبيراً من المال؟

ـ احد وعشرون ألفاً وسبعمئة وأحد عشر روبلاً.

ـ ها ها... أجاب الموظّف وأعطى المحاسب استمارة خضراء، ولسبب ما ارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة.

وملأ المحاسب الاستمارة بلحظة عين وهو العليم بهذه الشكليات، وشرع يفك الربطة.

وما أن فكّ حمله.. حتى زاغت نظراته.. وجمجم مغتمًّا حزيناً. لقد لمعت أمام عينيه قطع نقود أجنبية.

قطع نقود...: دولارات كندية.. وجنيهات انكليزية، وغولدنات هولندية، ولاتات لاتڤية، وكرونات أستونية. وسُمع صوت رهيب دوّى فوق رأس المحاسب الذي أصيب بوقرٍ في أذنيه...

قال الصوت:

ـ هاكم أحد تجّار العملة الصعبة المضاربين في الڤاريته.

واعتُقِل ڤاسيلي ستيپانوڤتش.

الفصل الثامن عشر

الزوّار المنحوسون

فيما كان المحاسب المجدّ ينتقل في سيَّارة تاكسي ليعثر على بذلة تكتب من تلقاء نفسها، خرج من عربة وثيرة في قطار كييف التاسع القادم إلى موسكو مسافر محترم يحمل في يده حقيبة صغيرة مصنوعة من «البلاستيك».

لم يكن هذا المسافر سوى عم المرحوم برليوز، رجل الاقتصاد، الاختصاصي في التخطيط: «ماكسيمليان أندريڤتش پوپلاڤسكي» الذي يسكن في مدينة كييف في شارع «أنستيتوسكايا».

وكان سبب مجيء ماكسيميليان أندريڤتش إلى موسكو برقية تلقَّاها في ساعة متأخِّرة من مساء أمس الأوَّل وكانت كلمات البرقية تقول:

«دهسني الترام في البطريركية، الدفن يوم الجمعة، الثالثة عصراً. إحضر.

برليوز»

كان ماكسيميليان أندريڤتش من أذكى الناس في مدينة كييف. لكن مثل هذه البرقية تحيِّر عقل أذكى الأذكياء. وطالما أنَّ إنساناً يبرق أنَّه دُهس، فهذا يعني بوضوح أنَّه ما زال حيًّا. والأمر هكذا فأي معنى للتذكير بالدفن؟ أم أنَّ حالته خطرة وشعر بدنوّ أجله؟ لكن هذه الدقَّة في التوقيت غريبة حقًّا ومحيِّرة، من أين عرف برليوز أنَّه سيدفن يوم الجمعة وفي الساعة الثالثة؟ يا للبرقية العجيبة الغريبة!.

لكن علينا أن لا ننسى أنَّ الأذكياء أوتوا ذكاءً ليبيّنوا الخط الأبيض من الخط الأسود في الأمور المعقَّدة. بكلّ بساطة ثمّة غلطة. والبرقية المستعجلة أرسلت محرَّفة. إنَّ الضمير (ني) قد التصق خطأ (بدهس). البرقية الصحيحة هي دهس الترام برليوز بدلاً من دهسني الترام. وأتت كلمة برليوز في غير محلّها في البرقية ومع هذا التصحيح يتوضَّح فحوى البرقية المأساوية.

وما أن سكنت عاصفة الحزن التي اجتاحت زوجة ماكسيميليان أندريڤتش، على فقد ابن شقيقها، حتَّى أخذ زوجها يستعد للمجيء إلى موسكو بدون إبطاء. وينبغي أن نكشف سرًّا من أسرار ماكسيميليان أندريڤتش، فأسفه وحزنه على ابن شقيق زوجته الذي قضى في زهرة الشباب لا شكَّ في صدقه. لكنَّه أدرك كأي رجل أعمال، أنَّه ليس ثمّة ضرورة

تقتضي حضوره يوم الدفن. ومع هذا فقد أسرع بالمجيء إلى موسكو. ما سبب مجيئه بمثل هذه السرعة والهمة؟... الشقّة هي السبب.

شقّة في موسكو؟ نعم نبأ وأيم الحقّ لصادق. لا أحد يعلم لماذا لم تعجب مدينة كييف ماكسيميليان أندريڤتش. ففكرة المجيء إلى موسكو طالما عذّبته في الآونة الأخيرة.

لم تفرح قلبه فيضانات نهر الدنيبر الربيعية وهي تغمر الجزر عند الضفّة السفلى. لم يبهجه ذلك المنظر الخلاّب الساحر المتجلّي عند قدمي تمثال الأمير فلاديمير، ولم تفرحه شامات الشمس الربيعية المغناج المتداعية على دروب هضبة فلاديمير المرصوفة بحجارة الطوب. ما أراد شيئاً من هذا، أراد المجيء إلى موسكو.

لم تنفع الاعلانات في الجرائد عن مقايضة شقّة في شارع أنستيتوتسكايا في كييف بمساحة صغيرة في موسكو. ولم يتقدّم منها راغبون. وإذا ظهروا بين الفينة والأخرى فبعروض مجحفة. هزّت البرقية كيان ماكسيميليان أندريڤتش. لقد كانت فرصة ضياعها تعتبر حقّاً غصّة. يعرف رجال الأعمال أنّ مثل هذه الأمور لا تتكرّر.

صفوة القول، بالرغم من كل المصاعب، يجب بطريقة أو بأخرى العمل على أن يرث الشقّة في شارع (السادوڤايا). نعم هذا أمر صعب ومعقّد جداً. ويجب تذليل العقبات. وأدرك ماكسيميليان أندريڤتش المحنّك أنّه لا بدّ من اتخاذ خطوة إلزامية وهي: أن يتسجّل في شقّة المرحوم ذات الغرف الثلاث، ولو مؤقّتاً.

ويوم الجمعة دخل ماكسيميليان أندريڤتش الغرفة التي تقع فيها إدارة المبنى رقم ٣٠٢ ب ي ث في شارع السادوڤايا بموسكو. وفي غرفة ضيّقة، عُلّق على جدارها ملصق قديم يبيّن في عدة رسوم وسائل إنعاش الغرقى، ووراء طاولة خشبية، جلس رجل كهل وحيداً. لم يعرف موسى الحلاقة سبيلاً إلى ذقنه منذ أيّام، وكانت نظرات عينيه جزعة. وبعد أن خلع رجل الأعمال قبعته ووضع حقيبته على الطاولة الفارغة، استفسر بلطف وتهذيب:

ـ هل بامكاني مواجهة رئيس الادارة؟

هذا السؤال البسيط جدًّا أزعج على ما يبدو الرجل الجالس، أزعجه لدرجة أنّ ملامح وجهه تغيّرت، فزرّ عينيه جزعاً، وجمجم بكلمات يستدلّ منها أنّ الرئيس غائب.

وسأل پوپلاڤسكي:

ـ أيكون الرئيس في شقّته، لقد جئت إليه بأمر لا يحتمل التأجيل.

ومن جديد أجاب الرجل الجالس بكلمات مبعثرة يُفهم منها أنّ الرئيس غائب عن شقّته

ـ ومتى يحضر؟.

ولم يجب الجالس على هذا السؤال، واكتفى بأن نظر متحسّراً من النافذة.

«ها ها» قال پوپلاڤسكي الذكيّ مخاطباً نفسه. وسأل يستفسر عن السكرتير.

الانسان الغريب الجالس إلى الطاولة، تضرّج وجهه من الجهد، وأجاب بكلمات مبعثرة، يُفهم منها أنَّ السكرتير غائب أيضاً، وأنَّه لا يعرف متى يحضر وأنَّه مريض و...

« هه هه » قال پوپلاڤسكي في نفسه، وسأل: أيوجد أحد في الادارة؟.

وردَّ الرجل بصوت خفيض:

ـ أنا.

وتكلَّم پوپلاڤسكي بوقار:

إنَّني كما ترون أكون وارث المرحوم برليوز الوحيد، برليوز نسيبي الذي قضى كما تعرفون في « البطريركية »، وأنا ملزم حسبما ينصّ القانون على قبول الإرث، أي الشقّة رقم خمسين، لكنَّ الرجل لم يدع پوپلاڤسكي يكمل حديثه وقاطعه بكربة:

ـ لست مطَّلعاً على هذا الأمر يا رفيق.

وردَّ پوپلاڤسكي بصوت جهوري: لكن المعذرة فأنت عضو إدارة ومجبر...

وقُوطع پوپلاڤسكي مرّة أخرى. قاطعه هذه المرّة دخول شخص غريب إلى الغرفة، وما أن وقعت عينا الرجل الجالس عليه حتَّى شحب لون وجهه.

وسأل الداخل الجالس:

ـ من هو عضو الادارة پياتنجكو؟

ـ أنا ـ أجاب ذاك بصوت كادت لا تُسمع نبراته.

وهمس الداخل إلى الجالس بكلمات ما، نهض الرجل الجالس على أثرها متضعضعاً مرتبكاً وتواريا معاً.

وبعد عدّة ثوانٍ بقي پوپلاڤسكي وحده في غرفة الإدارة الفارغة. « أمور معقَّدة جدًّا. أكان ثمَّة ضرورة لوجود هؤلاء جميعاً معاً!». بهذا فكَّر پوپلاڤسكي متكدِّراً وهو يجتاز الحوش المفروش بالاسفلت حاثًّا الخطى إلى الشقّة رقم ٥٠.

وما أن كبس رجل الاقتصاد والمشاريع الجرس حتّى فُتح الباب، وألفى نفسه في مدخل مظلم.

حصلت ملابسة أدهشت ماكسيميليان أندريڤتش بعض الشيء. فإنَّه لم يعرف من الذي فتح الباب. المدخل كان خالياً. قطّ أسود هائل الحجم جلس وحده على الكرسي.

وسَعَلَ ماكسيميليان أندريڤتش، وضرب الأرض برجليه، وحينذاك فُتح باب المكتب وخرج كارڤيوڤ ليستقبل زائره في المدخل. وانحنى ماكسيميليان أندريڤتش مسلِّماً بلطف وتهذيب ودون أن تفارقه رصانته قال:

ـ اسم عائلتي پاپلوڤسكي، أكون عمّ...

وما أن تفوَّه بكلماته هذه حتَّى امتدَّت يد كارڤيوڤ إلى جيبه وسحب منها منديلاً

مُتَسِخاً غطّى به أنفه وأرسل في البكاء والنحيب. وأكمل پاپلوڤسكي: أنا عمّ المرحوم برليوز.

وقاطعه كارڤيوڤ بقوله، وقد أبعد المنديل عن وجهه: إيه إيه.. ما أن رأيتك حتى حزرت أنَّك أنت... وبدأ يـرجـف ويصيـح: يـا للمصيبـة العظمـى! مـاذا يحدث تحت الشمس؟! آهاً وواهاً!.

وسأله پاپلوڤسكي همساً:

ـ دهسه الترام!؟.

وهتف كارڤيوڤ: بالضبط. وانسابت الدموع سيولاً من تحت العدسات، وأكمل: بالضبط! لقد كنت شاهداً، صدّقوني. ضربة واحدة وبُتِر الرأس، طاك.

طراك! وانقطعت الرجل اليمنى إلى نصفين! طراك! وانقطعت الرجل اليسرى إلى نصفين! ماذا تسبِّب هذه التراموايات، وإلى مَ ستوصلنا!.. وكأنَّه لم يقدر أن يتمالك زمام نفسه فضرب أنفه بالحائط بجوار المرآة، وأرسل في البكاء والنحيب.

أذهل الرجل الغريب بتصرفه عمّ بـرليـوز. ـ « يقـولـون إنَّ عصرنـا يفتقـد النـاس المخلصين »؟؟ ـ فكَّر العمّ، الذي أخذ يشعر هو الآخر أنَّ عينيه ستذرفان الدمع أيضاً، لكن سبحت غيمة كآبة في سماء نفسه.. وفكرة شريرة افعوانية ومضت في خاطره. من يدري لعلَّ هذا الانسان الصادق العواطف سبقه وسجَّل نفسه في شقّة المرحوم؟! ومثل هذه الحادثة ليست نادرة الحدوث.

ـ معذرة على سؤالي. أكنت صديق المرحوم ميشا؟ سأل العم وهو يمسح بكمّه عينه اليسرى الناشفة، أمَّا العين اليمنى فكانت مشغولة بدرس كارڤيوڤ الجزع الحزين. لكن ذاك وقد أرسل في النحيب والنواح لم يعد يفهم من كلامه شيئاً غير كلمات كانت تتكرَّر مثل: « طراك، طاك، وإلى نصفين! ».. وبعد أن ناح كارڤيوڤ بما فيه الكفاية، ابتعد عن الحائط أخيراً وتفوّه:

ـ ليس باستطاعتي أن أتحمَّل أكثر! سأذهب لأتجرَّع ثلاثمئة نقطة أثيرية! قال هذا وأدار نحو پاپلوڤسكي وجهاً باكياً وأضاف: إلاَمَ هذه الترامويات تجرّ!

ـ معذرة أنت الذي أبرقت لي؟ سأل ماكسيميليان اندريڤتش وهو يفكّر متألّماً من عساه يكون هذا البكّاء العجيب.

ـ هو الذي أبرق لك. أجاب كارڤيوڤ وأشار بإصبعه إلى القطّ.

وحلق پاپلوڤسكي بعينيه، ظانًّا أنّه لم يسمع الكلام جيّداً.

ـ لا... ليس بمقدرتي، ليس باستطاعتي، شهق كارڤيوڤ وأردف: « ما أن أتذكَّر: دولاب على الرجل... الدولاب الواحد يزن عشرة أرطـال... طـراك! أه... سـأذهـب

وأتمدّد في السرير... علّني أغفو وأنسى، قال هذا وتوارى من المدخل.

وهنا اهتزّ القطّ، ووثب عن الكرسي، وانتصب على قائمتيه الخلفيتين، ووضع قائمته الأمامية على خاصرته، وفتح فمه وقال:

ـ أنا الذي أبرقت لك... وماذا بعد؟...

وهنا أصابت ماكسيميليان أندريڤتش دوخة في رأسه، وشلّت يداه ورجلاه معاً. فوقعت الحقيبة، وجلس على كرسي قبالة القطّ.

وقال القطّ بحدّة: «إنّني أكلّمك حسبما أعتقد بلسان روسي فصيح، ماذا تريد بعد!؟..

ولم ينبس پاپلوڤسكي ببنت شفة.

ـ جواز سفرك! ماء القط ومدّ راحة قائمته المورّمة.

وسحب پاپلوڤسكي من جيبه جواز السفر كما يُسحب الخنجر. ولم يعد يفقه شيئاً مما يحدث أمامه... ولم تعد ترى عيناه غير شرارتين مشتعلتين انبعثتا من عيني القط. وأخذ القط النظّارات من فوق طاولة المرآة، نظّارات كانت ذات إطار سميك أسود ووضعها على خطمه، فجعلت منظره أكثر مهابة، وسحب من يد پاپلوڤسكي المرتعشة الجواز.

وفكّر الأخير في نفسه: أتراني أسقط مغمى عليّ أم لا؟!...

وترامى من بعيد نشيج كارڤيوڤ، وامتلأ المدخل برائحة الأثير، والحشائش، وبرائحة عفنٍ مثير للغثيان.

وسأل القط وهو يمعن النظر في الورقة: من أي قسم أُعطيت هذه الوثيقة. ولمّا لم يسمع جواباً أجاب بنفسه وهو يمرّ بقائمته على جواز السفر الذي أمسكه رأساً على عقب، القسم أربعمئة واثنا عشر؛ حسناً... وبالتأكيد إنّني أعرف ذلك القسم!.. في ذلك القسم يعطون الجوازات لمن يرغب!.. أمّا أنا فلا أعطي أمثالك جوازاً! ولا بأي مقابل! لو كنت أنا المسؤول لتأمّلت وجهك مرّة واحدة ورفضت فوراً إعطاءك جوازاً، وغضب القط ورمى بالجواز على الأرض وأكمل بصوت رسمي مسؤول: ساعة حضورك الدفن ستُبدّل، إعمل على السفر إلى مدينتك؛ تفوّه القط بهذا وهدر: عزرائيل!

وركض إلى المدخل، ملبّياً النداء، رجل صغير أعرج بعض الشيء، ارتدى بزّة سوداء، وقد دسّ في حزامه الجلدي سكّيناً، كان أشقر، أصفر الناب، أبيض العين اليسرى.

وشعر پاپلوڤسكي أنّ الهواء لم يعد كافياً للتنفّس، فنهض وتقهقر إلى الوراء خائفاً.

وأمر القط:

ـ رحّله يا عزرائيل. أمر بهذا وتوارى من المدخل.

وخنّ الداخل بهدوء: آمل أن تكون قد فهمت كلّ شيء يا پاپلوڤسكي!.

وأومأ پاپلوڤسكي برأسه بالايجاب.

وأكمل عزرائيل:

عُدْ إلى كييف من حيث أتيت! وعش هناك قرير العين، ناعم البال.. ولا تحلم بأي شقق في موسكو! فهمت؟!.

هذا الصغير المروّع بنابه وسكينه وعينه الحولاء، والذي زرع في قلب پاپلوڤسكي الرعب، لم تتجاوز قامته كتف الاقتصادي، لكن تصرّفه كان متّزناً وفاعلاً ومنظّماً.

بعد ذلك التقط جواز السفر من الأرض وأعطاه لماكسيميليان أندريڤتش، فاستلم ذاك الكتاب بيد ميتّسة. ثم أمسك المدعو عزرائيل الحقيبة بيد، وباليد الأخرى فتح الباب على مصراعيه، وتأبّط ذراع عمّ المرحوم، وأخرجه إلى مصطبة الدرج. والتصق پاپلوڤسكي بالحائط. وفتح عزرائيل الحقيبة دون مفتاح، وأخرج منها دجاجة محمّرة هائلة الحجم، فقدت إحدى رجليها، وكانت مغلّفة بجريدة ملطّخة بالزيت. أخرجها ورماها على المصطبة. ثم انتشل زوج ملابس داخلية، وسير حلاقة، وكتيّباً موضوعاً داخل غلاف. ثم قذف عزرائيل بمحتويات الحقيبة إلى تحت. وما لبث أن أتبع بها الحقيبة، فسُمع دويّها حينما اصطدمت بالأرض. وعُرِف من الدويّ أنّ غطاءها طار. وبعد ذلك أمسك اللص الأشقر الدجاجة من رجلها، وبقوة مرعبة هائلة ضرب ببطنها عنق پاپلوڤسكي، فطار جذع الدجاجة وبقيت الرجل بين يدي عزرائيل.

بلبلة كبرى في بيت أبلونسكي*!.. ما أصدق وأصحّ ما كتبه يراع الكاتب الشهير ليف تولستوي!. وهذا ما سيكتبه يراع الأديب الكبير مرّة أخرى لو طُلب ذلك منه. نعم! بلبلة كبرى في رأس پاپلوڤسكي.

انتشرت شرارة طويلة أمام عينيه، لتصبح بعد ذلك أفعى سوداء، حجبت لحظة واحدة نور نهار من أيام نوّار... وطار پاپلوڤسكي على الدرج إلى أسفل، وهو يمسك جواز سفره بيده. ووصل حتى منعطف الزقاق، فكسر برجله زجاج أحد النوافذ في الساحة.

وجلس على متّكأ، وإذا بدجاجة عرجاء تنطّ من أمامه وتقع هاوية.

أمّا عزرائيل الذي بقي وحيداً فوق، فقد اعترق رجل الدجاجة في لحظة واحدة. ودسّ العظمة في جيب بزّته الجانبية. وعاد إلى الشقّة وأقفل الباب من ورائه بقوة محدثاً صريراً.

في غضون ذلك، بدأت تُسمع تحت، وقع خطوات حذرة. كانت خطوات إنسان صاعد إلى فوق. وبعد أن قطع پاپلوڤسكي بضعة أمتار، جلس على مقعد خشبي صغير في الساحة وتلقّف أنفاسه.

في هذه الأثناء، صعد على السلّم إنسان ضئيل هرم، ملامح وجهه حزينة، يرتدي بزّة

(*) جملة من رواية «آنّا كارنينا» للروائي العظيم تولستوي.

حرير قديمة، ويعتمر قبعة قاسية من القش، ذات شريط أخضر، وما أن أصبح بمحاذاة پاپلوڤسكي حتى توقَّف. واستفسر بلهجة حزينة:

ـ أين تقع الشقّة رقم خمسين؟.

أجابه پاپلوڤسكي بحدّة:

ـ فوق.

وردّ الإنسان الصغير بلهجة حزينة أيضاً:

ـ أشكرك يا مواطني، قال هذا وأكمل طريقه إلى فوق، أمّا پاپلوڤسكي فنهض وركض إلى تحت.

ويسأل سائل: أيكون ماكسيميليان أندريفتش يمّم مخفر الشرطة ليشكو اللصوص المشاغبين، الذين آذوه وعاملوه بوحشية في رابعة النهار؟! ونجيب «بلا» أكيدة وماذا؟ أيذهب إلى الشرطة ليشتكي بأنّ قطًّا يضع نظّارات على عينيه تفحّص جواز سفره، ومع القط جلس إنسان في بزّة سوداء يحمل سكّيناً؟!. لا يا أعزائي فماكسيميليان أندريڤتش إنسان عاقل جدًّا، وأُوتي حظًّا وافراً من الذكاء ولن يقدم على عمل كهذا!

عند الباب الخارجي، تحت، رأى ماكسيميليان أندريڤتش باباً يؤدّي إلى غرفة صغيرة. وكان زجاجه محطّماً.. أخفى پاپلوڤسكي جواز سفره في جيبه، والتفت حوله آملاً أن يرى أغراضه المرمية، فلم يعثر عليها، ولم يغضب ولم يتكدّر، فتعجّب من نفسه ولامبالاتها.

فكرة أخرى شغلته وأثارت اهتمامه وأغوته!.. فقد انشغل بانتظار ما سيحدث لهذا الإنسان الضئيل في تلك الشقّة الملعونة. بما أنّه يسأل أين تقع الشقّة، فهذا يعني أنّه يأتي إليها لأوّل مرّة. يعني أنّه متوجّه مباشرة ليقع فريسة سهلة في مخالب تلك العصابة التي سكنت الشقّة رقم ٥٠. حدّثته نفسه بأنّ الرجل الضئيل الحجم سيغادر الشقّة بعد وقت قصير.

ونسي ماكسيميليان أندريڤتش ما كان من أمر قريبه، ولم يعد يتهيّأ للذهاب إلى المأتم.. قرّر أن ينتظر، وحتى موعد مغادرة القطار إلى كييف كان ثمّة متّسع من الوقت.

التفت الاقتصادي حوله وتوارى في الحجرة الصغيرة. وفي هذا الوقت، كان ثمّة باب قد طرق، ففكّر پاپلوڤسكي وقلبه يكاد يتوقّف عن الوجيب: ها هو يدخل!.

وكانت الحجرة باردة وكانت تفوح في أرجائها روائح الفئران والجذم. وجلس ماكسيميليان أندريڤتش على جذمة خشبية مرتاحاً وكيف لا وموقع الغرفة كان مناسباً وكاشفاً.. يرى الجالس فيها باب المدخل السادس بوضوح تام.

وكان على ابن كييف أن ينتظر فترة أطول مما ظنّ. لم ترَ عيناه أحداً على الدرج، لكنه سمع جيّداً كيف دُقّ الباب في الطابق الخامس.

ووجف قلب پاپلوڤسكي... إنّها خطواته.. خطوات الضئيل «إنّه ينزل على الدرج!».

وفُتح الباب في الطابق الأدنى. ولم يعد يُسمع وقع خطوات. سمع صوت إمرأة، ثم صوت إنسان حزين. نعم هذا هو صوته. تلفَّظ الصوت بكلمات: دعوني وشأني من أجل المسيح!...

وانتصبت أذنا پاپلوڤسكي.. وفيما الزجاج يتكسَّر، التقطت هاتان الأذنان ضحكاً نسائياً، ووقع خطوات سريعة نشيطة تنزل. ثم بدا ظهر إمرأة. وخرجت تلك الإمرأة إلى الحوش وهي تحمل في يدها محفظة من المشمَّع الأخضر. ومن جديد سمع وقع خطوات ذلك الإنسان. «أمر غريب حقًّا، لقد رجع إلى الشقّة». فترة الانتظار كانت قصيرة هذه المرّة. سمع صرير باب. ولم يعد يُسمع وقع الخطوات. سُمع صراخ قانط، مواء هررة، وخطوات حثيثة وهي تنزل. وانتظر پاپلوڤسكي حتى النهاية. ومرَّ من أمامه إنسان كئيب مرَّ كالطائر وهو يغمغم ويرسم إشارة الصليب. كان عاري الرأس وآيات الجنون على وجهه، صلعته مخدَّشة، وبنطلونه مبلَّلاً بالماء. وكاد أن يقتلع مقبض الباب الخارجي. ومن شدّة هلعه نسي المسكين كيف يُفتح الباب إلى الداخل أم إلى الخارج. وخرج أخيراً إلى الحوش حيث الشمس المنيرة.

بعد أن تمَّ رصد ومراقبة الشقّة خرج ماكسيميليان أندريڤتش إلى الحوش ناسياً ما كان من أمر نسيبه المرحوم، وكان يرتعد خوفاً عندما يتذكَّر المخاطر التي تعرَّض لها. وكان يهمس بكلمتين لا غير: «مفهوم مفهوم!.»

وبعد عدّة دقائق نقل «الترولليبوس» رجل الاقتصاد والخطط باتجاه محطَّة كييف.

وفيما كان رجل الاقتصاد يجلس في الحجرة تحت، حدثت قصة بشعة للرجل الصغير فوق. كان هذا الرجل عامل مقصف في مسرحية الڤاريته، وكان اسمه أندريه ڤوكيتش سوكوف، وحينما أجروا تحقيقاً في الڤاريته، انتحى أندريه ڤوكيتش جانباً. لكن لوحظ أنَّ حزنه ازداد وكآبته تعاظمت أكثر من المعتاد. وعُرف أنَّه سأل العامل كارپوف عن مكان إقامة الساحر الأجنبي.

وهكذا بعد أن ترك عامل المقصف رجل الاقتصاد في الساحة، وصل إلى الطابق الخامس ورنَّ جرس الشقّة رقم ٥٠. وفُتح له في الحال، لكنّه رجع على أعقابه مرتجفاً ولم يدخل. وكان ثمة سبب لفعلته تلك. لقد فتحت له الباب فتاة عارية، إلاَّ من مريول مزركش من الدانتلاّ، وشريطة من حرير عقدت خصلة الشعر بها. كانت فتاة جميلة كاملة المحاسن، عيب واحد شوَّه جمال قامتها، هذا العيب كان ندبة قرمزية اللون في عنقها.

قالت الفتاة وقد صوَّبت على العامل عينان خضراوان داعرتان:

ـ طالما أنَّك دققت الجرس فادخل!.

وتنحنح أندريه ڤوكيتش وغمز بعينيه وهو يخطو نحو المدخل، وقد نزع قبعته.

في هذا الوقت رنَّ جرس التلفون في المدخل، فتناولت الوصيفة النحيفة السمَّاعة ووضعت رجلها على الكرسي وتكلَّمت قائلة:

ـ آلّو!..

ولم يعرف العامل المسكين إلى أين ينظر، وكيف يوزِّع نظراته بين رجليه، وفكَّر في نفسه: «وصيفة شنيعة!». وليخلص من الشناعة أخذ ينظر شزراً إلى جانب.

أخافت ظلمة المدخل المسكين وقد تكدَّست تحت سقفه أشياء غريبة وملابس. طُرح على ظهر كرسي مبذل أسود مبطّن بقماش ناريّ الألوان، وعلى طاولة المرآة رُميت حربة طويلة، مقبضها من الذهب الخالص. وكذلك شوهدت ثلاث حراب مقابضها من الفضّة، منتصبة في الزاوية وكأنَّها مظلاَّت أو مجرَّد عصي. وعلى مشجب من قرون الوعل عُلِّقت طاقيات شُكَّت فيها ريش نسور.

وردَّت الوصيفة على الهاتف:

ـ نعم.. ـ كيف؟. ـ البارون مايغل؟ ـ نعم إنَّني أسمع. ـ نعم السيِّد الفنَّان اليوم في البيت. ـ وسيكون مسروراً برؤيتك. ـ نعم ضيوف. ـ فراك أو سترة سوداء. ـ ماذا؟

ـ حتى الساعة الثانية عشرة أي حتى منتصف الليل.

وما أن أنهت الوصيفة حديثها، حتى أعادت السمَّاعة إلى مكانها، والتفتت إلى عامل المقصف وسألته:

ـ وأنت ماذا تريد؟.

ـ إنَّني أريد مقابلة السيِّد الفنَّان.

ـ كيف؟ تريد أن تراه بذاته؟

ـ نعم أريد أن أراه. ـ أجاب عامل المقصف بحزن.

سأستأذنه، ـ قالت الوصيفة وارتبكت، على ما يبدو، وفتحت باب مكتب المرحوم برليوز وبلَّغت:

ـ أيها الفارس في الباب إنسان ضئيل، يقول إنَّه يودّ رؤية السيِّد.

وسُمع صوت كارڤيوڤ المنهك يلعلع من المكتب:

ـ ليدخل.

ـ تفضَّل إلى غرفة الاستقبال ـ خاطبته الفتاة ببساطة، وكأنَّها كانت ترتدي ثيابها كسائر الفتيات، وفتحت له باب غرفة الاستقبال، وتوارت من المدخل.

وما أن دخل عامل المقصف إلى غرفة الاستقبال حتى نسي القضية التي أتى من أجلها. أدهشه ترتيب الغرفة فنسي. فمن خلال زجاج النوافذ الكبيرة الملوَّنة انثال نور ساحر

كضوء الكنائس... وزخارف: وليدة مخيلة فنّان أجاد وتوارى بدون أثر. أمّا الموقد القديم العهد الهائل بكبره، فقد اضطّرمت النار فيه، واشتعلت الأخشاب، بالرغم من الطقس الربيعي الحار. وما نعمت الغرفة بالدفء بسبب الموقد، لا بل بالعكس فإنّ رطوبة الأقبية كانت تواجه الداخل إلى الغرفة. وأمام تلك الموقد على جلد نمر، جلس قطّ أسود سمين منشرح الصدر، يزرّ عينيه مستمتعاً بالدفء، وكان في المكان طاولة ما أن رآها عامل المقصف التقيّ حتى ارتعش. لقد كانت مغطّاة بقماش من الديباج الذي يرتديه أحبار الكنائس. وفوق غطاء الديباج اصطفّت زجاجات مختلفة الأنواع والأحجام، وتلألأت بين الزجاجات مائدة، بدا بوضوح أنّها مصنوعة من الذهب الخالص. وقرب الموقد وقف الأشقر الصغير وقد غرز في حزامه سكيناً، كان يقف ويشوي قطع اللحم وقد شكّها بسفود طويل من الفولاذ. وكانت العصارة تقطر منها في النار، والدخان يصعد من المدخنة. ومع رائحة الشواء فاحت في الأرجاء رائحة عطرة حادّة ورائحة بخور.

فكّر عامل المقصف وقد عرف من الجرائد بمصرع برليوز وبمكان سكنه. إنّ الجماعة ربّما كانوا من أهل الخير فأقاموا قدّاساً وصلاة عن روح المرحوم، لكنه سرعان ما طرد هذه الفكرة من رأسه وقد بدت سخيفة.

وبغتة سمع العامل المصعوق صوت (باس) غليظ:

ـ بأي شيء يمكنني أن أخدمك؟

وهنا أدرك العامل أنّه وجد ضالّته المنشودة. كان الساحر الأسود مستلقياً على ديوان واسع مريح، تبعثرت فوقه الوسائد، وبدا للعامل أنّ الفنّان كان في ملابس داخلية سوداء وخُفَّين أسودين لّماعي الرأسين. وتكلّم عامل المقصف بمرارة وقال:

ـ أكون المسؤول عن مقصف مسرح الڤاريته.

وبسط الفنّان يداً إلى الأمام، يداً تلألأت الحجارة الكريمة في أصابعها وبرقت، وكأنّما أراد أن يسدَّ بهذه اليد فم العامل وتكلّم بحماس كبير زائد:

ـ لا لا لا! اسكت. اخرس. لن أسمح لك بالكلام. أبداً!.. لن أضع في فمي شيئاً مما يمتلىء به مقصفكم! لقد مررت البارحة يا محترم أمام طاولتكم وحتى الآن لم أنس سمك الزجر ولا الجبنة (البرينزا) يا عزيزي الغالي! (والبرينزا) ما كانت في يوم من الأيام خضراء اللون، لعلّهم خدعوك. من المفترض أن يكون لونها أبيض، نعم الشاي الذي تبيعونه ماء غسالة إي نعم! لقد رأيت بأمّ عينيَّ هاتين، كيف أنَّ فتاة كريهة سكبت في سماوركم الكبير ماءً غير صالح. ومع ذلك واصلتم صبّ الشاي.

نعم.. إنّها أمور لا تحتمل يا عزيزي!

وتكلّم أندريه فوكيتش وقد صعقه وأذهله التهجّم الفجائي:

ـ إنّي أعتذر وما جئت من أجل هذا. وسمك الزجر ليس بيت القصيد.

ـ وكيف لا يكون سمك الزجر بيت القصيد وقد كان فاسداً؟.

وأعلن عامل المقصف:

ـ ماذا أفعل وقد أرسلوا لنا سمك الزجر بائتاً، طازجاً من الدرجة الثانية.

ـ هذا هراء يا عزيزي!.

ـ ما الهراء؟

ـ الهراء: الطازج من الدرجة الثانية ثمّة درجة أولى وأخيرة. وإذا كان الزجر طازجاً من درجة ثانية فهذا يعني أنّ سمك الزجر فاسد.

وبدأ عامل المقصف من جديد بالاعتذار دون أن يعرف كيف يمكنه أن يخلص من مهاجمة الفنّان له. وقال هذا مؤكّداً:

ـ ما بمقدرتي أن أعذرك.

وقال العامل وقد تضعضع:

ـ ليس من أجل هذا أتيت!

وقال الساحر الأجنبي مستغرباً:

ـ ليس من أجل هذا أتيت؟ وأية قضية غير هذه يمكنها أن تأتي بك إليّ؟ إذا لم تخنِ الذاكرة تعرّفت إلى إحدى عاملات التموين. عاملة مثلك. كان هذا منذ زمن بعيد لم تكن فيهِ أنت مولوداً بعد. صفوة القول إنّي مسرور.

ـ عزرائيل أحضر مقعداً للسيّد المسؤول عن المقصف.

التفت ذاك الذي كان يشوي اللحم، فأرعب بأنيابه العامل. وبخفة ورشاقة ناوله أحد المقاعد الواطئة المصنوعة من خشب السنديان الغامق. لم يكن في الغرفة مقاعد غيرها. وتلفّظ عامل المقصف:

ـ أشكر لك جزيل الشكر، وسقط على المقعد.

تحطّمت رجل المقعد الخلفية مفرقعة، وهوى العامل واصطدم قفاه بالأرض فتأوّه من الوجع. وحينما هوى على الأرض ركل مقعداً آخر كان منتصباً أمامه فسكب على بنطلونه قدحاً مليئاً بالخمر الأحمر. وهتف الفنّان:

ـ هل تضرّرت؟

وساعد عزرائيل عامل المقصف على النهوض وناوله مقعداً آخر. وبصوت حزين النبرات رفض عامل المقصف عرض ربّ البيت عليه بخلع بنطلونه وتنشيفه أمام النار، وقد شعر بأنّه جدّ متضايق بثيابه الداخلية المبلّلة، فجلس على مقعد آخر لكن بحذر وحيطة هذه المرّة.

وتكلّم الفنّان: ـ إنّني أحبُّ الجلوس على المقاعد الواطئة لأنّه لا خطر من السقوط عنها.

توقفنا في حديثنا عند سمك الزجر؟ يا عزيزي المأكولات الطازجة يجب أن تكون شعار المقصف.

وهنا تلألأت الحربة على ضوء نار الموقد الأرجواني أمام عيني العامل، ووضع عزرائيل في صحن ذهبي قطعة من اللحم، وعصر فوقها عصير الليمون وناول العامل شوكة ذهبية بسنين.

وهتف العامل:

ـ أشكرك جزيل الشكر.. أنا..

ـ لا.. لا!.. جرّب.

وهنا من باب المجاملة واللياقة وضع العامل في فمه قطعة، وأدرك فوراً أنّه يعلك في فمه شيئاً طازجاً من الطيّبات.

وكاد العامل يهوي على الأرض ثانية وهو يعلك قطعة اللحم الطرية الزكية. وطار من الغرفة المجاورة طائر كبير أسود ولامس بجناحه صلعة العامل. وجثم على الرفّ فوق الموقد بالقرب من ساعة الحائط. كان هذا الطائر بومة.

«اي سيّدي وربّي»... فكّر أندريه ڤوكيتش العصبي المزاج ككل عمّال المقاصف، ما هذه الشقّة؟.

ـ كأس خمرة؟ حمراء أم بيضاء؟ خمرة أيّة بلاد تفضّل في هذه الساعة من النهار؟

ـ أشكركم... إنّني لا أشرب..

ـ خسارة. هل أمرت بأن نلعب النرد؟ أم أنّك تفضّل ألعاباً أخرى؟ الورق، الدومينو؟

ـ إنّني لا ألعب. ردّ العامل متعباً هذه المرة.

ـ عاطل جدًّا، خلص ربّ البيت إلى القول. عفوك عني إذا قلت قلت لك: إحذر الذين يجتنبون الخمرة والنساء وكل أنواع اللعب ومجتمع الإناث الساحر، والأحاديث وراء الموائد.. إنَّ خبثاً يتوارى في صدور أمثال هؤلاء الرجال وهم إمّا مرضى معتلّون وإمّا يكرهون محيطهم في سرّهم. وثمّة استثناءات حقًّا. الاستثناءات ممكنة. بين الذين جلسوا معي إلى مائدة الشراب والمنادمة، كان يجلس أحياناً أوغاد يتعجّب المرء من دناءة نفوسهم! المهم إنّي أصغي لك. ما شأنك.

ـ البارحة سمحت وقمت بألعاب خفّة.

ـ أنا ـ هتف الساحر مستغرباً.. عفوك خذني بلطفك.. أوَيليق بمقامي القيام بألعاب خفّة.

ـ أعتذر أخطأت ـ قال عامل المقصف المذهول ـ ألم تُقم حفلة السحر الأسود.

ـ آه نعم نعم..! يا عزيزي سأكشف لك سرًّا: أنا لست فنَّاناً إنَّما رغبت بمشاهدة جموع الموسكوبيين. والمسرح كان أنسب مكان لتنفيذ رغبتي تلك. وعصابتي ـ وأومأ إلى جهة الهر ـ هي التي قامت بالحفلة. أمَّا أنا فاكتفيت بالجلوس فقط وبالنظر إلى الموسكوبيين. لا تعبس وقل لي ما علاقة الحفلة بقدومك إليّ؟

ـ إذا سمحت أن تصغي، وهنا أخفض عامل المقصف من صوته والتفت خجلاً.

الأوراق التي هبطت من السقف أخذوها بأكملها. ودخل عليّ شاب في المقصف وناولني ورقة من فئة العشرة روبلات فرددت له ثمانية روبلات وخمسين كوبيكاً.. وبعد ذلك دخل عليّ آخر.

ـ وهل هو شاب أيضاً؟

ـ لا إنَّه كهل وثالث ورابع.. وكلهم رددت لهم نقوداً. واليوم رحت أتفقَّد الصندوق، نظرت وإذا بي أرى بدل النقود.. أوراقاً بيضاء.. أوراق (قناني رزانا) وهكذا تكونون قد عاقبتم المقصف بمئة وتسعة روبلات.

وهتف الفنَّان: ـ ياي ياي.. أيكونوا قد ظنُّوا بأنها أوراق نقد حقيقية؟ لا لم يخطر في بالي أنَّهم سيعملون هذا عن سابق تصوُّر وتصميم.

وهنا التفت العامل بكآبة جانباً ولم ينبس ببنت شفة.

وسأل الساحر ضيفه قلقاً: أيكونون محتالين! أيكون بين سكَّان موسكو أناس محتالون؟

وأجاب العامل وقد ارتسمت على فمه ابتسامة مريرة أزالت الشكوك:

ـ نعم يوجد بين الموسكوبيين محتالون.

ـ هذه سفالة وأيم الحق! ردَّ ڤولند ثائراً. أنت إنسان فقير.. أحقًّا أنت إنسان فقير؟

وحرَّك العامل رأسه بين كتفيه مُبيِّناً أنَّه رجل فقير حقًّا.

ـ كم تدَّخر في صندوق التوفير؟

ومع أنَّ السؤال طُرح بلهجة ودية. لكن لا يسعنا إلاَّ الاقرار بأنَّه كان سؤالاً محرجاً وسمجاً وقد أربك عامل المقصف.

ـ مئتان وتسعة وأربعين ألفاً من الروبلات في خمسة صناديق توفير. وفي البيت تحت الأرض مئتا قطعة من العشرات الذهبية. ردَّ صوت متهدِّج من الغرفة المجاورة.

وشعر عامل المقصف وكأنَّه تسمَّر في مقعده.

وقال ڤولند مكلِّماً ضيفه برفق:

ـ إنَّه ليس بمبلغ كبير.. والكلام بيننا فإنَّك لن تحتاجه. متى ستموت؟

وامتعض عامل المقصف، لكنَّه أجاب:

ـ هذا ما لا يعرفه أحد ولا يخصّ أيًّا من الناس..

ـ ما لا يعلمه أحد؟! هذا مجرَّد كلام.. أو تعتقد؟ «بينوم نيوتون»! يقول إنك ستموت بعد تسعة أشهر من الآن، أي في شهر شباط القادم ستموت بسرطان الكبد وفي عيادة (م. غ. أو) الأولى ـ وفي الحجرة الرابعة ـ سُمع الصوت الكريه ذاته من المكتب.

واصفرَّ لون وجه عامل المقصف.

ـ تسعة أشهر وَحَسَبَ ڤولند واسترسل في التفكير ـ مئتان وأربعون ألفاً. إذا ما قسَّمناها على تسعة أشهر. سبعة وعشرين ألفاً. مبلغ زهيد، لكنَّه يكفي ليعيش الإنسان عيشة متواضعة.. وتلك العشرات الذهبية؟!

ـ العشرات الذهبية لن ترى النور ـ قال الصوت نفسه متدخِّلاً ـ وقد أوقف قلب العامل عن الوجيب. وأكمل بعد موت أندريه ڤوكيتش سيُخلع الباب وستُرسل العشرات الذهبية إلى بنك الدولة، وأكمل الفنَّان: وأنا لا أنصحك بالنوم في العيّادة.. وأي معنى للموت في حجرة المستشفى على أنين وحشرجات المرضى الميؤوس منهم. أليس من الأحسن أن تقيم حفلة بالسبعة والعشرين ألفاً وأن تتناول السم وتنتقل إلى العالم الثاني على أنغام الأوتار محاطاً بالحسناوات الثملات والأصدقاء الميامين الشجعان؟!.

جلس عامل المقصف جامداً في مكانه وقد هرم. وأحاطت عينيه دوائر سوداء وتهدَّل خدَّاه وتدلَّى فكّه الأسفل.

وسرعان ما هتف رب البيت:

ـ لقد شططنا.. وابتعدنا عن الموْضوع.. هات أرنا أوراق (الرزانا).

وسحب عامل المقصف من جيبه حزمة ونشرها. وصعق. لقد احتوت الجريدة على أوراق نقدية من فئة العشرة روبلات. وقال ڤولند وهو يهزّ كتفيه:

ـ يا عزيزي إنَّك رجل مريض حقًّا.

وابتسم العامل ابتسامة خجولة وقام من على المقعد.

وقال متلعثماً:

ـ آ... لكن إذا تغيَّرت هذه...

ـ إحم ـ فكَّر الفنَّان ـ حينذاك تعود إلينا ثانية، رافقتك السلامة! عدم المؤاخذة!... سررت لتعارفنا.

وهنا قفز كارڤيوف من المكتب، فأمسك بيد العامل، وأخذ يهزها راجياً من أندريه ڤوكيتش أن يبلِّغ تحياته للجميع... للجميع... وقد فهم العامل كلاماً ما غلط ومشى نحو الممر.

فصاح كارڤيوف:

ـ هيلّلا، شيعيه!...

ومن جديد بانت العارية في المدخل!...

وشقَّ عامل المقصف طريقه نحو الباب، وصأصأ قائلاً «إلى اللقاء» وغادر كالسكران. وما أن نزل قليلاً على الدرج، حتى توقَّف وجلس على درجة وأخرج الرزمة وتفحَّصها... الأوراق المالية كانت في مكانها وعلى حالها.

في هذا الوقت ومن شقّة يؤدِّي بابها إلى الساحة خرجت إمرأة تحمل في يدها محفظة خضراء. فما أن رأت أندريه فوكيتش جالساً على حافَّة الدرج وينظر ببلاهة إلى الأوراق المالية حتى ابتسمت وقالت:

ـ ما الذي يحدث عندنا! انظروا هذا السكران عند الصباح. لقد حطَّم زجاج النافذة من جديد.

وما أن تأمَّلت جيِّداً عامل المقصف حتى أكملت: ... أوه... أيها الرجل أموالك لا تأتي عليها النار، تعال لنتقاسمها!...

ـ دعيني وشأني من أجل المسيح. قال العامل خائفاً وأخفى النقود بخفّة. فضحكت المرأة من عمله وقالت:

ـ عفريت يخطف روحك يا شحيح! إنَّني مزحت معك.. قالت هذا وأكملت طريقها إلى تحت. ونهض العامل على مهل، رفع يده ليسوّي قبعته، فتأكَّد إذ ذاك أنَّها ليست في مكانها على رأسه. ما أحبَّ أن يعود ليسترجعها، تردَّد بعض الوقت.. وعاد ودقَّ الجرس.

وسألته هيللا الملعونة:

ـ وماذا تريد بعد؟.

ـ لقد نسيت القبعة ـ همس عامل المقصف وحكَّ صلعته بإصبعه.

وحينما التفتت هيللا، بصق (في نفسه) وأغمض عينيه. وحينما فتحهما ناولته هيللا قبعته وحربة سوداء المقبض.

ـ إنَّها ليست لي، همس عامل المقصف، مُبعداً عنه الحربة، واعتمر القبّعة على عجل.

ـ ماذا؟ أتكون قد أتيت من دون حربة ـ قالت هيللا مستغربة. ودمدم عامل المقصف بكلام ما ونزل إلى الأسفل بسرعة. لم يكن رأسه مرتاحاً في القبعة، التي كانت دافئة أكثر من اللزوم. فخلعها واثباً من الخوف وصاح بهدوء. لقد وجد في يده (بيريه) مخمليّة غُرز فيها ريشة ديك مرتعشة. رسم عامل المقصف اشارة الصليب. في اللحظة ذاتها تحوَّلت (البيريه) إلى هرّ أسود وماءت، وقفزت ثانية على رأس أندريه فوكيتش، وتشبَّث الهرّ بأظافره بصلعة المسكين. فأطلق هذا صرخة، وانطلق يعدو إلى الأسفل، أمَّا القطّ فهوى من فوق الرأس وصعد على الدرج.

وعندما أصبح العامل في الهواء الطلق راح يركض خبباً إلى البوَّابة، وفارق حتى الأبد

بيت الشياطين رقم ٣٠٢ (ب. ي. ث).

ماذا حدث له بعد ذلك. الكلّ يعلم جيّداً ماذا حدث له... فما أن اجتاز البوّابة حتى التفت مستوحشاً، كأنّما كان يبحث عن شيء ما فقده. وبعد دقيقة كان في الجهة الثانية من الشارع في صيدلية. وما أن تلفّظ بكلماته: قولي من فضلك... حتى بادرته الإمرأة من وراء المنصّة:

ـ رأسك مصاب بجروح! ماذا حدث لك يا رجل.

بعد خمس دقائق كان رأس عامل المقصف معصوباً بالشاش، وأُعلم أنّ البروفسور برنادسكي والبروفسور كوزمين وهما أفضل الاختصاصيين بأمراض الكبد. وحين سأل عن أي منهما أقرب، طار فرحاً عندما عرف أنّ كوزمين يحيا بالقرب منه في مبنى أبيض قديم، بينهما حوش واحد. المبنى قديم لكنّه كان مريحاً جدّاً جدّاً. وتذكّر عامل المقصف أنّ أوّل إمرأة صادفها كانت ممرّضة عجوزاً أرادت أن تأخذ منه قبعته، وبما أنّ القبعة لم تكن موجودة، توارت الممرّضة وهي تعلك مع أنّ فمها كان فارغاً.

وبدلاً منها، ظهرت قرب المرآة، تحت إحدى القناطر، إمرأة في متوسّط عمرها، وقالت إنّ التسجيل يبدأ ما بعد التاسع عشر من الشهر، أمّا قبل هذا التاريخ فممنوع منعاً باتّاً.

وأدرك عامل المقصف لبّ القضية.. عرف كيف يتم الخلاص. رشق المكان بنظرة فاترة، حيث كان ثلاثة أشخاص ينتظرون في المدخل المكشوف، وهمس:

ـ مريض حتى الموت!.

ونظرت المرأة ذاهلة إلى الرأس المضمّد فاحتارت، وقالت:

ـ حسناً ما العمل... وسمحت لعامل المقصف بالمرور إلى ما وراء القنطرة. وفي اللحظة ذاتها، انفتح الباب المقابل، وتلألأت منه عدسة نظّارات ذهبية، وقالت المرأة المرتدية المبذل:

ـ يا عزيزي... ليدخل هذا المريض دون دور.

وقبل أن يرتدّ طرف العامل إليه ألفى نفسه في مكتب البروفسور كوزمين.

ولم يكن يُشتمّ رائحة الخوف والمهابة والطب في هذه الغرفة المستطيلة.

ـ ماذا حدث لكم؟ سأل البروفسور كوزمين بصوت رقيق النبرات، ونظر بجزع إلى الرأس المضمّد.

ـ علمت الآن من مصادر موثوقة، أنّني سأموت في شهر شباط من العام القادم بمرض سرطان الكبد. أتوسّل إليك أن توقف الموت. بهذه الكلمات أجاب عامل المقصف وهو يتأمّل مكتئباً صورة فوتوغرافية جماعية وراء الزجاج.

واستلقى البروفسور مسنداً ظهره إلى ظهر مقعدٍ غوطي عال وأجابه:
ـ اعذرني فإنّني لم أفهمك... أكنت في زيارة طبيب؟ ولماذا رأسك مضمَّد؟..
ـ أي طبيب؟ لو رأيت ذلك الطبيب!.. وهنا تمطّق بشفتيه وأكمل: لا تعر الرأس انتباهك.. فإنَّه لا يمتّ بصلة إلى الموضوع. دعك من الرأس، أبصق عليه... أرجوك أن توقف سرطان الكبد.
ـ عفواً من أخبرك بهذا؟
ورجا عامل المقصف الطبيب بحرارة: صدّقه فإنَّه يعرف مسبقاً.
ـ لا أفهم شيئاً ـ قال الطبيب وهزَّ كتفه وابتعد بمقعده عن الطاولة. أتظنّ أنَّه يعرف متى ستموت؟ ولا سيما أنَّه ليس بطبيب.
فأجاب عامل المقصف: وستوافيني المنيّة في الغرفة الرابعة.
وتأمَّل البروفسور مليًّا زبونه، تأمَّل رأسه، وبنطلونه المبلَّل، وفكَّر في نفسه: زاد عدد المجانين مجنوناً!.. وسأل:
ـ أتشرب ڤودكا.
أجاب العامل: ـ لم أذق طعمها.
بعد دقيقة، تعرَّى العامل، وتمدَّد على متَّكأ بارد مغطًّى بالمشمّع، ودلك له البروفسور بطنه. وما يجب قوله هنا إنَّ عامل المقصف قد سُرَّ سروراً عظيماً. فقد أكَّد له البروفسور بصورة جازمة لا تقبل الشك أنَّه في الوقت الحاضر لا أثر للسرطان لكن بما أنَّه يخاف... وقد زرع مشعوذ هذا الخوف في قلبه فينبغي عليه أن يعمل التحاليل كلّها... وكتب البروفسور على صفحات الورق... شارحاً إلى أين يجب الذهاب وما يجب شراؤه.
وبالاضافة إلى ذلك حوّله على طبيب الأعصاب البروفسور بوري، موضحاً له أنَّ أعصابه سليمة وقوية.
وسأل عامل المقصف بصوت متهدّج النبرات ناعمها:
ـ كم تريد أن أدفع لك يا حضرة البروفسور؟؟
قال هذا وأخرج من الرزمة ثلاثين روبلاً ووضعها على الطاولة، وبغتة وبتؤدة وكأنَّه يقوم بعملية جراحية لرجل هرٍ مريض، وضع فوقها كومة نقود رنَّت داخل الجريدة. وفتل كوزمين شاربه وسأل:
ـ ماذا تضع أمامي؟
أجاب عامل المقصف همساً:
ـ لا تقرف يا حضرة البروفسور.. أرجوك أن توقف السرطان.
وردَّ البروفسور مفتخراً بنفسه:

ـ أرجع ذهبك إلى جيبك، والأفضل لك أن تعتني بأعصابك. أعطِ في الغد بولاً للتحليل، لا تكثر من شرب الشاي وإيّاك والمأكولات المملّحة.

وسأل العامل:

ـ حتى الحساء أتناوله من دون ملح؟

ـ لا تملّح شيئاً ـ أمر كوزمين.

ـ إخ!... هتف عامل المقصف مكتئباً، ونظر إلى البروفسور بعين الرضى وراح يلمّ أوراق النقد ويتراجع إلى الوراء مولياً الباب ظهره.

كان عدد زوّار ومرضى كوزمين في ذلك اليوم قليلاً جدًّا، وعند حلول المساء غادر الزائر الأخير.

وفيما كان البروفسور يخلع مبذله نظر إلى ذلك المكان الذي وضع فيه العامل النقود الذهبية، فلم يرَ لها أيّ أثر، اختفت بسحر ساحر وبقدرة قادر... وبدلاً من الذهب رأى ثلاث أوراق كتلك التي تغلّف بها القناني.

وغمغم كوزمين وهو يجرّ حاشية المبذل على الأرض ويتحسّس بيده أوراق (الأتيكيت):

ـ الشياطين وحدها تعلم بما يحدث!.. مريض بالشيزوفرانيا، مُحتال أيضاً!... لكنّي لا أفهم ماذا يريد مني؟... ورقة تحليل البول هذا كلّ ما أراده؟.. آه... لقد سرق لي المعطف!.

واندفع إلى المدخل... وصاح محتدًّا: كسينيا نيكيتشينا!... انظري هل المعطف باقٍ في مكانه؟... وتبيّن أنَّ المعطف كان في مكانه وعلى حاله. وما أن عاد البروفسور إلى طاولته فخلع مبذله، حتى جمد في مكانه وقد تسمّرت نظراته على الطاولة... فقد جلس، حيث كانت النقود الذهبية، هرٌّ أسود يتيم، منحوس الخطم، وكان يموء قرب قصعة حليب.

ـ ما الذي يحدث... عفوكم؟.. هذا زائد عن... وشعر بقشعريرة برد تسري في قذاله.

وركضت كسينيا نيكيتشينا على صراخ البروفسور الخافت الشاكي؛ وطمأنته بقولها: إنَّ هذا من صنع الزبائن الذين غالباً ما يرمون القطط في العيادات.

وأوضحت قائلة:

ـ إنَّهم من أهل الفقر... وعندنا بالطبع..

وأخذا يفكّران ويخمّنان.. من عساه يكون ذاك الذي خصّهم بمثل هذه الهدية.

حامت شكوكهم حول تلك العجوز المصابة بقروح في معدتها.

قالت كسينيا نيكيتشينا: هي، بالتأكيد هي. لا بدَّ أنَّها فكّرت: سأموت حتماً... أمّا هذا القط المسكين فما ذنبه.

وصاح كوزمين:

ـ المعذرة والصفح الكريم! والحليب من أين؟! أتكون العجوز قد أتت به أيضاً؟ والقصعة ما شأنها؟..

وأوضحت كسينيا نيكيتشينا:

ـ لقد حملت الحليب في زجاجة الدواء، وسكبته هنا في القصعة.

وقال كوزمين:

ـ ابعدوا القصعة والقط. قال هذا وشيّع كسينيا نيكيتشينا إلى الباب.. وحينما رجع تبدّل الموقف:

ففيما كان البروفسور يعلّق المبذل على المشجب سمع قهقهة في الحوش، فأطلّ ليرى ما يحدث.

ومن البديهي القول إنّه ذهل. رأى سيّدة تركض عابرة الحوش إلى الجناح المقابل، ترتدي قميصاً، وكان الطبيب يعرف اسمها، كانت تُدعى ماريا ألكسندروفنا. وكان ثمة صبياً يقهقه. وتساءل كوزمين بازدراء: ما هذا؟؟.

وخلف الجدار في غرفة ابنة البروفسور غنّى حاكٍ لحن هللويا لرقصة الفوكستروت.

وفي نفس اللحظة، سُمعت وراء ظهر الطبيب زقزقة. فالتفت ليرى عصفوراً دورياً ضخماً يكرج على طوالته.

« إحم... هدوء... لقد طار إلى هنا حينما ابتعدت عن النافذة. لا بأس». فكّر البروفسور بينه وبين نفسه مقتنعاً، وقد شعر بأنّ « الدوري » هو سبب الفوضى الضاربة أطنابها في أرجاء العيادة. وتمعّن في الطائر مليّاً، فتأكّد له أنّه دوري من الحجم الكبير.

ألصق الدوري السافل رجله اليسرى بالأرض، واستند عليها وجرّها، وتماوج مع أنغام الحاكي ورقص رقصة الفوكستروت وترنّح كالسكران، وتسافل قدر المستطاع، وهو يتأمّل البروفسور بكلّ وقاحة.

ووضع كوزمين يده على السمّاعة، أراد أن يتّصل بزميله في الدراسة بوريا ليسأله عن جنس هذه العصافير التي ما أن يراها ابن الستين حتّى يدوخ رأسه بغتة؟. وفي غضون ذلك جثم الدوري فوق المحبرة ـ الهدية ووسّخ عليها (إنّني لا أمزح)، ومن ثم طار وحوّم في الهواء، وبعد ذلك بملء عزيمته نقر زجاج الصورة الفوتوغرافية بمنقار كاد يكون فولاذياً. كانت الصورة تمثّل خريجي عام ٩٤ وكسر الزجاج وطار إلى النافذة.

وأدار البروفسور أرقام الهاتف، لكن لا ليطلب بوريا رفيق الدراسة، إنّما ليتّصل بقسم المحاجم، وليبلّغهم أنّ المتكلّم كوزمين ويطلب أن تُرسل المحاجم حالاً إلى البيت.

ووضع السمّاعة والتفت ثانية إلى الطاولة وزعق. فإلى الطاولة نفسها جلست إمرأة في

ثياب ممرِّضة وفي يدها محفظة كتب عليها (محاجم). وزعق البروفسور ثانية وهو يتأمّلها، كان فمها فم رجل، وكان أعوج وكبيراً حتى الأذنين، ووحيد الناب. وكانت نظرات عينيها فاترة.

وقالت الممرِّضة بصوت (باس) رجوليّ النبرات:

- سأجمع النقود، أفضل من بقائها مبعثرة. وجمعت أوراق (الأتيكيت) وأخذت تذوب في الهواء.

ومضت ساعتان. جلس البروفسور كوزمين في غرفة النوم فوق السرير فيما كانت المحاجم مثبَّتة فوق صدغيه ووراء أذنيه وعلى رقبته. وعند قدميه وفوق شرشفٍ حريري جلس البروفسور بوريا ذو الشوارب الشائبة، وكان ينظر إليه مؤاسياً معزياً ومؤكِّداً بأنَّ كلّ ما حدث هراء ومجرَّد هلوسة. وكانت العتمة قد لفَّت المكان وأسدلت ستارها على الكائنات.

لا نعلم ماذا حدث بعد ذلك من المدهشات تحت سماء موسكو، في هذه الليلة، ولن نتعذَّب في سبيل معرفته، ولا سيما أنَّ ساعة الانتقال إلى الجزء الثاني من هذه الرواية الصادقة أزفت. فاتبعني أيها القارىء! اتبعني!.

الفصل التاسع عشر

مارغريت

اتبعني أيها القارىء! من قال لك إنَّ الحب الصادق الحقيقي الخالد لا يحيا على هذه الأرض؟ ليُقطع لسان الكاذب الخبيث!

اتبعني أيها القارىء اتبعني ولا تتبع أحداً سواي، وأنا سأدلّك على حبٍّ كهذا!.

لقد تحدَّث المعلِّم مع إيڤانوشكا في المستشفى طويلاً. دار بينهما في منتصف الليل حديث ذو شجون عنها. لقد أخبر المعلِّم جاره أنَّ الحبيبة قد نسيته. وكانت كلماته ممزوجة باللوعة. لكن المعلِّم كان مخطئاً في ظنونه فحبيبته لم تنسه. فنسيانه أمر مستحيل!.

وبادىء ذي بدء سنبوح بسرٍّ لم يرد المعلِّم أن يكشفه لإيڤانوشكا. فحبيبته كانت تُدعى مارغريت نيقولايڤنا، وكلّ ما تفوَّه به المعلِّم عنها على مسامع الشاعر المسكين كان حقًّا وصدقاً. لقد وصفها وصفاً وافياً وصحيحاً. كانت ذكية وجميلة، وإلى ذكائها وجمالها لا بدّ أن نضيف شيئاً آخر.. وهو أنَّ نسوة كثيرات كنَّ على استعداد لبذل الغالي والرخيص لتُستبدل حياتهن بحياة مارغريت نيقولايڤنا، إنَّه وأيم الحق لقول صادق.

لقد كانت العاقر ابنة الثلاثين ربيعاً زوجة أحد كبار الاختصاصيين وصاحب اكتشافات ذات أهمية عالمية. وكان الزوج شاباً شريفاً طيِّباً، يحبّ زوجته ويخلص لها إلى درجة العبادة. وشغلت مارغريت نيقولايڤنا وزوجها طابقاً علوياً بأكمله في مبنى ضخم كان يقع في وسط حديقة في زقاق قرب الأربات.

مكان ساحر خلاَّب، وبمقدرة أيّ كان التأكّد من جمال المكان بنفسه. وإذا أراد أحد أن يرى تلك الحديقة فليأتِ إليَّ فأنا أُعطيه العنوان وأدلّه على الطريق. البيت ما يزال على حاله حتى هذا اليوم.

ولم تحتج مارغريت نيقولايڤنا إلى نقود. لقد كان بامكانها أن تشتري ما تريد وما يعجبها. ومعارف زوجها: معظمهم كانوا من عليّة القوم. نعم إنَّ مارغريت نيقولايڤنا من أهل اليسار، ولم تقرب بابور الكاز في حياتها أبداً. نعم ولم تذق مارغريت نيقولايڤنا طعم مرارة السكن في الشقّة المشتركة. ولكن هل كانت مارغريت سعيدة؟ لا لم تتذوَّق طعم السعادة دقيقة واحدة!. فقد جافتها السعادة منذ أن تزوَّجت وهي في التاسعة عشرة من عمرها وسكنت ذلك البيت الفخم!.

أيتها الآلهة! أيتها الآلهة! هل أحظى عندكم بجواب على سؤالي؟! ماذا تريد هذه الإمرأة من دنياها بعد؟.. ماذا تريد صاحبة العينين المتلألئتين دائماً بنارٍ غامضة؟ ماذا تريد من دنياها هذه الساحرة الناظرة شزراً، التي تتزيَّن بأزهار الميموز الربيعية؟. أنا لا أعرف ماذا تريد هذه الإمرأة من دنياها، ولم يخبرني بذلك أحـد؟!. إنَّهـا على مـا يبـدو تفـوَّهـت بالحقيقة.. تريده هو... أي المعلِّم. ما أرادت مالاً ولا بيتاً غوطي الطراز، ولا حديقة منفردة... إنَّها أرادت المعلِّم... أحبَّته... وهذه هي الحقيقة.

وأنا الغريب البعيد والراوي الصادق تتقطَّع نياط قلبي ما إن أفكِّر بكأس المرارة التي تذوَّقتها مارغريت نيقولايڤنا حين أتت في اليوم التالي إلى بيت المعلِّم ولم تجده، ولم تلحق لحسن حظِّها أن تحدِّث زوجها بالأمر، لأنَّه لم يعد من سفرته في الوقت المحدَّد.

لقد فعلت كل ما بوسعها لتعرف شيئاً عن المعلِّم، وتتنسَّم أخباره، ولمَّا لم تحظ بطائل، رجعت إلى البيت وسكنت في المكان القديم.

« نعم! نعم! يا لها من غلطة! لماذا فارقته في تلك الليلة؟ لماذا؟ ألم يكن تركي له عملاً جنونياً؟ لقد عُدتُ إليه في اليوم التالي كما وعدته... لكن عودتي أتت متأخِّرة. نعم لقد عدت كما عاد ليڤي ماتڤي البائس!... رجعت متأخِّرة جدًّا!». بهذه الكلمات حدَّثت مارغريت نفسها وهي تجلس قرب الموقد تتأمَّل النار. لكن ما نفع الكلمات السخيفة!... وفعلاً ماذا كان سيتغيَّر لو أنَّ مارغريت نيقولايڤنا باتت ليلتها تلك قرب المعلِّم ولم تفارقه؟! أكانت قادرة على إنقاذه؟ ـ يا لها من فكرة مضحكة! سنهتف بدورنا نحن أيضاً. لكنَّنا لن نفعل هذا حيال إمرأة يائسة.

وأمضت مارغريت نيقولايڤنا فصل الشتاء في العذاب حتى مجيء الربيع. وفي اليوم نفسه الذي حدثت فيه تلك الضجّة الفارغة التي سبَّبها الساحر الأسود بظهوره في موسكو، أي في يوم الجمعة، اليوم نفسه الذي نُفي فيه عمّ برليوز إلى كييڤ واعتقل المحاسب، وحدثت أمور غامضة، مضحكة ومبكية، في هذا اليوم استيقظت مارغريت عند الظهر في غرفة نومها الناشرة ضوئها على برج المبنى.

استيقظت هذه المرّة ولم تشرع في البكاء كما حدث لها مراراً من قبل. استيقظت بشعور جديد. شعور ألهمها بأنَّه سيحدث أمر مهم هذا اليوم. وراحت تدفّىء هذا الشعور وترعاه محتاطة، خوفاً من أن يفلت منها بعد أن ملأ كيانها. وهمست مارغريت بخشوع: «أنا متيقِّنة بأنَّ أمراً ما سيحدث. ومستحيل عدم حدوث أي أمر، لا بدّ من أن ينبلج فجر ما... ويُشرق بنور... وحقًّا عَلاَمَ أعذَب في حياتي وأتألَّم؟! أعترف بأنَّني كذبت وغششت وعشت حياة خاصّة خفية عن الناس؟ لكن هل أعاقب على ما فعلت بهذا العقاب الشديد؟ لا بدّ سيحدث أمر لأنّ دوام هذا الحال من المحال، وحلمي كان حسيًّا وإنَّني

متيقّنة من الرؤيا. بهذا همست مارغريت نيقولايڤنا وهي ترتدي ثيابها مضطربة وتتأمّل الستائر القرمزية المغمورة بأشعّة ذكاء وتمشّط شعرها القصير الأجعد قبالة المرآة المثلّثة.

الحلم الذي رأته مارغريت نيقولايڤنا في نومها هذه الليلة كان حلماً غير اعتيادي حقًّا، ففي شتاء العذاب لم ترَ المعلّم في الأحلام، ولم يزرها طيفه بل عذّبتها ذكراه في ساعات النهار. أمّا هذه الليلة فقد زارها في عالم الرؤيا!.

لقد رأت في الحلم مكاناً لم تره من قبل. رأت مكاناً كئيباً ناحباً، وسماء ربيعية مكفهرة، ونتفاً من سماء رمادية تركض وسرب غربان صامتاً، ومعبرة مائلة، انساب من تحتها جدول ربيعي معتكر، وأشجاراً عجفاء، نصف عارية، وحورة وحيدة. وبين الأشجار وراء إحدى الحواكير رأت بيتاً خشبياً.. وربّما كان مطبخاً مشتركاً، أو حمّاماً... الشيطان يعلم. وأجواء تعاسة وموت مخيّمة تولد في الإنسان مشاعر بأنّ يعلّق نفسه في الحورة ليموت شنقاً تحت المعبرة؛ ولا نسيم هبوب ولا غيوم مسافرة ولا نفس حيّة.. قطعة من الجحيم للإنسان الحي!.

وتصوَّروا يُفتح باب هذا البيت الخشبي على مصراعيه ويظهر بنفسه.. يقف في البعيد، لكنّه يُرى بوضوح، في الرثّ من الثياب.. لا ترى العين ماذا يرتدي.. أشعث شعر الرأس، طويل شعر الخدّين، والعينان قلقتان مريضتان. لوّح لها بيده منادياً، وفوق المرتفعات الناتئة ركضت نحوه وهي تتنشّق الهواء الميت.

واستيقظت مارغريت في هذا الوقت، وناقشت الحلم بينها وبين نفسها: للحلم تفسيران لا ثالث لهما: إذا كان ميّتاً فإيماءته لي تعني أنّه آتٍ من أجلي وأنّني سأموت قريباً، وهذه بشرى عظيمة لأنّ الموت سيضع حدًّا لآلامي، أمّا إذا كان ما يزال حيًّا فإنّه يذكّرني بنفسه، ويقول إنّنا سنلتقي وموعد لقائنا لقريب!.».

وارتدت مارغريت ثيابها وهي على ما هي عليه من قلق واضطراب، وراحت تقنع نفسها بأنّ الأمور تسير نحو الأفضل، وأنّه يجب تحيّن الفرص والاستفادة منها.

غاب الزوج في مهمة لثلاثة أيام، وهذه فرصة ستُترك فيها لشأنها ولن يزعجها أحد في أفكارها.. فرصة مؤاتية لتحلم فيها مارغريت بما تشاء. الخمس غرف في الطابق العلوي بأكملها... الشقّة التي يحسدها عليها عشرات الآلاف من الناس في موسكو... في تصرّفها... فلتحلم...

لكن مارغريت في أيام الحرية الثلاثة تلك، ما اختارت أفضل مكان في شقّتها الفخمة، فبعد أن شربت الشاي انتبذت غرفة مظلمة لا نوافذ لها، حيث احتفظت بشمعدانات وبتحف قديمة في خزانات كبيرة. وجلست القرفصاء وسحبت الدرج الأخير في الخزانة الأولى، ومن تحت أكوام القصاصات الحريرية أخرجت أغلى وأقدس ما تمتلك في الحياة.

وظهر بين يدي مارغريت ألبوم قديم غلافه من الجلد البنّي، احتوى على صورة

فوتوغرافية للمعلّم ودفتر توفير بمبلغ عشرة آلاف روبل على اسمه، وبُتلات زهرة يابسة انبسطت بين أوراق سجائر، وصفحات كاملة من دفتر كتبت على الآلة الكاتبة، وقد احترقت أسافلها.

وبعد أن عادت مارغريت نيقولايڤنا بهذه الثروة إلى غرفة النوم، وضعت الصورة أمام المرآة، وجلست ما يقارب الساعة وهي تُمسك إلى ركبتيها الدفتر المحروق بالنار، فتصفَّحته وقرأته مراراً، رغم أنَّ النيران شوَّهته، ولم يعُد يُعرف له أوّل من آخر.

« حجبت الظلمة القادمة من البحر الأبيض المتوسِّط المدينة البغيضة إلى قلب والي اليهودية. توارت الجسور المعلَّقة التي تصل ما بين الهيكل وبرج الأنتونيڤيا الشاهق. وانهمرت الأمطار من السماء وغمرت الآلهة المجنَّحة في الميدان والقصر والكوى، غمرت الأسواق ومجمّعات الإهراءات والأزقّة والبُرك، وزالت أورشليم المدينة العظيمة، وكأنَّها لم تكن موجودة على الأرض... ».

وأرادت مارغريت أن تقرأ المزيد من الصفحات.. لكن لم تجد بعد ذلك غير هدب زاوية ملتوية.

وتركت مارغريت نيقولايڤنا الدفتر وهي تمسح دموعها، وارتفقت طاولة المرآة وقد ظهرت صورتها فيها، ثم جلست تتأمَّل الصورة الفوتوغرافية وتمسح دموعها. وبعد ذلك رتَّبت مارغريت ثروتها، لتعود بعد دقائق وتدفنها تحت الخرق الحريرية. وصرَّ قفل الغرفة المظلمة وقد أقفلته ربَّة البيت.

وارتدت معطفها في المدخل متهيِّئة للنزهة، وسألتها خادمتها الحسناء ناتاشا عن الأكلة التي يتوجَّب تحضيرها مع الحساء. وما أن تلقَّت الخادمة جواباً بأن تحضِّر ما يروق لها حتى استرسلت في الحديث مع سيِّدتها وراحت تقصّ على مسامعها حكايات غريبة: مفادها أنَّه يوم البارحة عرض مشعوذ على الجمهور ألعاباً سحرية، فَشَدَهَهُم بها، وأعطى كلاً من الحاضرين مجَّاناً، قنينتي عطر، أجنبية الصنع، وجوارب. وبعد أن انتهت الحفلة وخرج النظَّارة إلى الشارع، وجدوا أنفسهم عراة!... وانهارت مارغريت نيقولايڤنا على الكرسي في المدخل قرب المرآة وانفجرت تقهقه...

وما لبثت أن خاطبت خادمتها قائلة:

ـ ناتاشا! وأنت الفتاة الذكيّة المتعلِّمة ألا تخجلين من أقوالك. الناس في الطوابير يهرفون بأكاذيب فظيعة وأنت تردِّدين أكاذيبهم؟!

واصطبغ لون وجه ناتاشا بالحمرة وردَّت على سيِّدتها بحماس كبير بأنَّهم لا يكذبون، وأنَّها رأت اليوم بأمِّ عينيها في مخزن « سمانة » في الأربات، إمرأة تدخل إلى المحل منتعلة حذاءها، وما أن بدأت تدفع على الصندوق حتى اختفى الحذاء، وبقيت في الجوارب فقط.

وجحظت عيناها إذ أنَّ ثمّة ثقوب في الجوارب!. والحذاء المسحور جُلب من تلك الحفلة.

ـ وبهذا عادت؟ سألت مارغريت نيقولايڤنا.

فهتفت ناتاشا وقد ازداد احمرار لون وجهها لعدم تصديق كلماتها:

ـ وبهذا عادت يا مارغريت نيقولايڤنا. ويوم البارحة اعتقلت الشرطة مئة شخص. وخرج الناس من تلك الحفلة في السراويل فقط وركضوا في شارع: تڤارسكايا!.

وردَّت مارغريت نيقولايڤنا:

ـ لقد تكلَّمت عن هذا داريا أيضاً. لاحظتُ منذ فترة أنَّ أكاذيب تلك المرأة أصبحت فاحشة.

وانتهى الحديث المضحك بمفاجأة سارّة لناتاشا. فقد دخلت مارغريت نيقولايڤنا إلى غرفة النوم، وعادت وهي تحمل زوج جوارب وقنينة كولونيا. وقالت لناتاشا إنَّها هي أيضاً تريد القيام بألعاب خفّة. وأهدتها الجوارب والقنينة وأبلغتها مطلبها الوحيد وهو أن لا تركض بدون ملابس في شارع تڤارسكايا، وبأن لا تصغي إلى أكاذيب داريا.

وافترقت ربّة البيت وخادمتها بعد أن تبادلتا القبلات. وركبت مارغريت نيقولايڤنا الترولّلبوس، وقد أسندت ظهرها إلى ظهر المقعد المريح الوثير.

وقطع الترولّلبوس بها (الأربات) وهي تارة تفكّر بما آلت إليه حالها، وتارة أخرى تتنصَّت لتهامس رجلين كانا يجلسان أمامها.

وكان الراكبان يتلفَّتان بين الفينة والأخرى خوفاً من أن يسمعهما أحد وهما يتهامسان بسخافة. وكان الجالس بمحاذاة النافذة لحماً معافى وتفيض نظرات عينيه خبثاً وحيوية، وأخبر جاره الصغير بهدوء بأنَّهم اضطّروا لتغطية التابوت بغطاء أسود.

وهمس الصغير منذهلا:

ـ غير معقول... وما سمع بمثل هذا من قبل... وماذا فعل جلدبين؟.

وسمعت من النافذة وسط الهدير الرتيب هذه الكلمات:

ـ قلم المباحث الجنائية... فضيحة... تصوّف مفضوح.

وركَّبت مارغريت نيقولايڤنا من هذه النتف المبعثرة شيئاً ما متناسباً. يتحدَّث الناس عن ميِّت دون أن يسمّوه، وقد سُرق رأسه من التابوت! وجلدبين مضطّرب الآن بسبب هذا.

والهمس الذي دار بالترولّيبوس له علاقة أيضاً بالمرحوم المنكوب برأسه، لأنَّ الرجل الصغير سأل قلقاً:

ـ أنلحق ونشتري الأزهار، فالدفن في الساعة الثانية؟.

ملَّت مارغريت نيقولايڤنا من سماع سخافات عن رأس سُرق من تابوت، وفرحت حينما

وصلت إلى حيث تقصد. وبعد عدة دقائق كانت تجلس عند جدار الكرملين على أحد المقاعد وقد بدا لناظريها ميدان السباق.

تحت شمس ساطعة الأنوار، زرَّت مارغريت عينيها، وتذكَّرت الرؤيا، تذكَّرت كيف أنَّه منذ سنة كاملة في مثل هذه الساعة وفي الدقيقة عينها جلست على المقعد ذاته بقربه. وكما كان منذ سنة كذلك الآن: ها هي محفظتها ملقاة على المقعد إلى جانبها.

إنَّه اليوم بعيد، لكن مارغريت نيقولايڤنا، قريبة بفكرها منه، تخاطبه عن بعد: «حتى لو كنت منفيًّا... فلماذا لا تقل لنا أين أنت؟ أم أنَّك تنفرد بتصرّفاتك عن الناس؟ أنسيت حبّي لك؟ لا لا أصدّق أنَّك نسيتني.. أم يعني أنَّك نُفيت ومُتّ... وإذا كان الأمر كذلك فأرجوك أن تحرِّرني. أعطني حريتي... دعني أتنشَّق نسيم الحرية». وأجابت مارغريت نيقولايڤنا بالنيابة عنه: «حرّة أنت وطليقة.. وهل تراني أقيِّدك؟. وردَّت عليه: لا لن أقبل هذا الجواب! اذهب وامحِ من ذاكرتي... وحينذاك أتحرَّر!.»».

ومرَّ الناس بها وهي في جلستها تلك. ونظر رجل إليها شزراً، وقد أغوته وحدتها وجذبه جمالها، فسعل وجلس على طرف المقعد حيث جلست، وقوّى قلبه وخاطبها قائلاً:

ـ الطقس، وبالتحديد هذا اليوم جيِّد.

وتأمَّلته مارغريت مكروبة فنهض وانصرف.

وشرعت تخاطب بالفكر مالك لبِّها: «هَاكَ مثلاً! لماذا طردت هذا الرجل؟ والملل ينغِّص عليَّ حياتي... إنَّني لا أرى عيباً في زير النساء هذا؟ لا عيب فيه غير كلمته السخيفة «بالتحديد»، ولماذا أجلس وحيدة كالبومة في ظلّ الجدار؟ لماذا أحيا على هامش الحياة؟.». واكتأبت نفسها وحزنت، وفجأة هدرت في صدرها موجة الانتظار والتمرّد كتلك الموجة الصباحية، وهدرت ثانية، فقالت في نفسها: ليكن ما يكون!».

ومن خلال ضجيج المدينة سمعت بوضوح ضربات طبل تقترب وأنغام أبواق مزيّفة.

وأوّل المارّين من أمام سياج الحديقة كان أحد رجال الخيَّالة، تبعه ثلاثة مشاة، ثم مرَّت شاحنة ببطء وعلى متنها جماعة من الموسيقيين. وتحرّكت وراءها عربة جديدة مكشوفة، عربة دفن الموتى، سُجِّي فيها تابوت مغطًّى بالأكاليل. وفي زوايا الساحة وقف أربعة أشخاص: ثلاثة رجال وإمرأة. ولقد استطاعت مارغريت أن تتبيَّن من بعيد الحيرة المرتسمة على وجوه الواقفين في عربة الدفن المشيّعين الميت إلى مثواه الأخير. وكان الهلع يمرح على وجه الإمرأة الواقفة في الزاوية. سرّ غاوي نفخ خدَّي الإمرأة السمينين، من الداخل، فزادهما سمنة على سمنة، ومرحت في العينين المنتفختين نيران غامضة. بدا أنَّه عمَّا قليل وينفد صبر الإمرأة فتشير إلى المرحوم وتهتف: هل رأيتم شيئاً مماثلاً... تصوّف وأسرار... تصوّف مفضوح!. وكذلك ارتسمت الحيرة على وجوه المشيّعين الذين كان عددهم يقارب الثلاثمئة شخص،

وقد مشوا ببطء وراء عربة الدفن.

ورافقت مارغريت بنظراتها الموكب، وأصغت إلى ضربات الطبل التركي الكئيبة وهي تتلاشى في البعيد. الضربات التي كانت تتكرَّر واحدة تلو الأخرى «بومس، بومس، بومس!».. وفكَّرت في نفسها: يا للجنازة الغريبة.. أية مشاعر كئيبة تولِّد هذه الضربات في النفس! إنَّني مستعدّة لأرهن نفسي للشيطان من أجل أن أعرف هل هو حيّ أم ميّت!. مهم أن يعرف المرء من تُشيِّع هذه الوجوه المتَّشِحة بالدهشة والوجوم!.

ـ يشيِّعون ميخائيل ألكسندروفِتش برليوز، رئيس رابطة الماسوليت. سمعت مارغريت صوت رجل، وكأنَّه خرج من أنفه.

والتفتت متعجِّبة، فرأت رجلاً يشاركها الجلوس على المقعد. ربَّما جلس هذا الرجل قربها، من دون ضجّة، في الوقت الذي كانت تتأمَّل فيه الموكب. ويفترض أنَّها طرحت سؤالها الأخير عن التشييع بصوت مسموع، بسبب شرودها.

وفي تلك الأثناء توقَّف الموكب، ربَّما بسبب الإشارات الضوئيّة.

وأكمل الرجل المجهول:

ـ نعم إنَّهم غريبو الأطوار حقًّا، يحملون المرحوم ويفكِّرون بمسألة واحدة وهي أين فُقِد الرأس؟!.

ـ أيّ رأس ـ سألت مارغريت وهي تتأمَّل الجار المفاجىء.

وبدا أنَّ هذا الأخير كان صغير الجسم، أشقر شعر الرأس، شُقرته زائدة. في فمه ناب. ملابسه مُنشَّاة. يرتدي بزّة جميلة مقلَّمة. ينتعل حذاءً لمّاعاً، ويعتمر قبّعة على رأسه. ألوان ربطة عنقه زاهية. وأغرب ما في أمره أنَّ عظمة دجاجة معروقة تدلَّت من جيبه. وقد اعتاد الناس أن يضعوا في جيوبهم إمَّا محارم وإمَّا أقلاماً للكتابة.

وأوضح الأشقر: كما ترين، ففي صباح هذا اليوم سُرِق رأس الميِّت من التابوت المسجَّى في قاعة غريبابيدف.

فسألت مارغريت بعفوية وقد تذكَّرت الهمس في الترولّليبوس:

ـ كيف يمكن أن يحدث مثل هذا؟؛

فأجابها الأشقر بكلمات مبعثرة:

ـ الشيطان وحده يعلم! لا بأس إذا ما سألنا بغيموت عن هذا، فظاعة كيف نشلوه بخفّة. فضيحة وأيّة فضيحة. لا أحد يفهم من هو المحتاج إلى ذلك الرأس؟.

ومع أنَّ مارغريت كانت مهمومة فقد صعقتها أكاذيب الغريب الفاحشة. وهتفت فجأة:

ـ عفواً أريد أن أسألك عن برليوز.. أيكون برليوز الذي كتبت عنه صحف اليوم؟.

ـ نعم نعم.

ـ يعني الأدباء هم الذين كانوا يشيِّعونه ـ سألت مارغريت، وفجأة كشَّرت.

ـ طبعاً هم هم.

ـ وهل تعرفهم جيِّداً ؟.

أجاب الأشقر:

ـ أعرفهم جميعاً، وكلاً بمفرده.

وسألت مارغريت وقد أخفضت صوتها:

ـ قل لي أيكون بينهم الناقد لاتونسكي.

فأجاب الأشقر:

ـ ها هو في الصف الرابع، على الطرف.

سألت مارغريت وقد زرَّت عينيها:

ـ ذاك الأشقر ؟

ـ ذو اللون الرمادي، ترينه يرفع بصره إلى السماء.

ـ يشبه الكهنة.

ـ نعم نعم.

وسكتت مارغريت وراحت تتأمَّل لاتونسكي جيِّداً.

وقال الأشقر وقد ارتسمت على مخايله ابتسامة:

ـ يبدو أنَّك تبغضين هذا اللاتونسكي.

ـ أكرهه كرهاً شديداً ولا داعٍ للتحدُّث عن هذا، أجابت مارغريت من بين أسنانها.

في غضون ذلك تحرَّك الموكب ووراء المشيِّعين امتدَّ رتل من السيَّارات، وكانت فارغة في معظمها.

وقال الأشقر:

ـ نعم ليس ثمَّة ما يثير الاهتمام يا مارغريت نيقولايڤنا!..

ودهشت مارغريت.

ـ أتعرفني ؟.

وبدلاً من أن يجيب، نزع الأشقر طاقيته عن رأسه وأمسكها بيدٍ ممدودة إلى الأمام.

وفكَّرت مارغريت وهي تنظر إلى محدِّثها ـ عابر الطريق ـ : « هيئته هيئة لص محترف! ».

وردَّت بجفاء:

ـ أنا لا أعرفك.

ـ أنّى لك أن تعرفيني!.. وقد أُرسلتُ إليكِ بمهمة.

وأشاحت مارغريت بوجهها وقد شحب لونه. وأجابته:

ـ من هنا كان يجب عليك أن تبدأ... لا أن تهذر عن الرأس المبتور. تريد أن تعتقلني؟

وهتف الأشقر مجيباً:

ـ لا شيء من هذا، لا شيء من هذا، ما أن تُكلّموا حتى تظنّوا أنّكم لا بد معتقلون! لقد أُرسلت إليكِ بمهمة.

ـ أيّة مهمة؟

والتفت الأشقر وقال كمن يتكلّم بألغاز:

ـ لقد أُرسلت لأستضيفك هذا المساء.

ـ بماذا تهذر. ومن هو الذي يستضيفني؟.

وأجاب الأشقر بلهجة معبِّرة رصينة وقد زرَّ عينه:

ـ أنتِ مدعوّة لزيارة أجنبي طبقت شهرته الآفاق.

وغضبت مارغريت: «يا للزمن الأخير الملعون!.. قوّاد من الشارع!» تفوّهت بهذا وقامت لتنصرف.

ـ شكراً على هذه الوكالة! ـ هتف الأشقر وقد غضب. وعاد فجمجم:

ـ بلهاء!.

فأجابته شاتمة: يا سافل.

وفي الحال سمعت صوت الأشقر يقول:

«حجبت الظلمة القادمة من البحر المتوسّط المدينة البغيضة إلى قلب والي اليهودية، توارت الجسور المعلّقة التي تصل الهيكل ببرج أنتونوڤيا الهائل. زالت أورشليم المدينة العظيمة وكأنّها لم تكن على الأرض... وهكذا ستزولين أنتِ ودفترك المحروق وزهرتك اليابسة.. اجلسي على هذا المقعد وحيدة وتوسّلي راجية من أجل أن يعطيك حريتك ويدعك تتنشّقين نسيم الحرية، وينمحي من ذاكرتك!.».

وعادت مارغريت إلى المقعد، بيضاء الوجه، فيما كان الأشقر يتأمّلها وهو يزرّ عينه.

وقالت مارغريت نيقولايڤنا بهدوء: إنّني لا أفهم شيئاً ممّا يحدث... بمقدرتك أن تعرف الصفحات، وأن تصل إليها وتقرأها.. ربّما قد تكون ناتاشا ارتشت؟ ولكن قل لي كيف قرأت أفكاري؟..

وقطّبت حاجبيها متألّمة وأضافت: قل لي من أنت؟ ومن أيّة مؤسّسة؟.

ـ سأم قاتل.. ـ جمجم الأشقر ثم رفع صوته قائلاً: العفو لقد قلت لكِ إنّني لست من أيّة مؤسّسة!. اجلسي من فضلك.

وأذعنت مارغريت دون أدنى اعتراض لكنَّها عادت وسألت مرّة أخرى:

ـ من أنت؟

ـ حسناً، إنَّني أدعى عزرائيل، ولن يعني اسمي لك شيئاً.

ـ ألن تقول لي كيف عرفت كلمات دفتري وأفكاري؟

أجاب عزرائيل بجفاء:

ـ لن أقول لك.

وهمست مارغريت متوسّلة:

ـ هل تعرف شيئاً عنه؟

ـ لنقل إنَّني أعرف.

ـ أرجوك أخبرني! أريد أن أعرف أمراً واحداً فقط، هل هو في عداد الأحياء؟ لا تعذّبني.

ـ حيٌّ يُرزق ـ ردَّ عزرائيل مُكرهاً.

ـ يا إلهي.

ـ لا تجزعي ولا تقلقي من فضلك. قال عزرائيل متجهّماً.

ـ الصفح! الصفح!. غمغمت مارغريت المطيعة وأكملت: لقد استأت منك، لكنَّك تشاطرني الرأي حينما يدعون إمرأة في الشارع!... لا خلفيات عندي أؤكّد لك ـ وابتسمت ابتسامة ساخرة وأليمة وأردفت: لم أُقابل في حياتي أي رجال أجانب، ولا أرغب في الاجتماع بهم، وعدا عن ذلك فإنَّ زوجي!... مأساتي إنَّني أحيا مع إنسان لا أحبّه، أنغِّص عليه حياته فتلك مسألة مشينة خاصّة وإنَّني لم ألق منه إلاَّ الخير.

وأصغى عزرائيل بسأمٍ ظاهر إلى الحديث المشتَّت وقال بحدّة:

ـ أرجوكِ أن تسكتي لدقيقة واحدة.

وصمتت مارغريت مذعنة:

ـ أدعوك لضيافة رجل أجنبي مأمون الجانب، ولن يعرف مخلوق بزيارتك له. أؤكِّد لك هذا.

ـ ولأي شيء يحتاجني الأجنبي؟ سألت مارغريت مستعطفة.

ـ ستعرفين هذا في حينه.

ـ أفهم... يجب أن أستسلم له. قالت مارغريت متفكِّرة.

وهمهم عزرائيل بغطرسة مستاءً من جوابها وردَّ عليها:

ـ صدِّقيني إنَّ أية إمرأة في العالم تحلم بالاستسلام له. لكن اسمحي لي أن أخيِّب آمالك. فهذا الأمر لن يحدث. ـ تفوّه عزرائيل بهذا وقد شوَّهت وجهه ابتسامة.

ـ وما شأن هذا الغريب؟ هتفت مارغريت بحيرة وبصوت مرتفع ألفت انتباه المارّة وما الفائدة من ذهابي إليه؟

ودنا عزرائيل منها وهمس بمزيد من الوقار:

ـ الفائدة كبيرة... تستغلّين الفرصة.

وهتفت مارغريت وقد جحظت عيناها:

ـ ماذا؟ إذا أكون قد فهمتك فهماً صحيحاً، فإنّك تلمّح أنّه بإمكاني أن أعرف شيئاً عنه؟.

وأومأ عزرائيل برأسه بأن نعم.

ـ أذهبُ أذهبُ إلى حيث تريد. هتفت مارغريت بقوّة وأمسكت بيد عزرائيل.

وتنفّس عزرائيل الصعداء، واستند إلى ظهر المقعد الذي حفرت عليه كلمة نورا بأحرف كبيرة، فغطّاها بظهره، وقال مستهزئاً:

ـ التعامل معهنَّ أمر شاق!... ثمّ دسَّ يده في جيبه ومدَّ رجله إلى الأمام، وأردف: لماذا كُلِّفتُ أنا بهذه المهمة، أما كان من الأفضل لو أنّهم أرسلوا بيغموت... فإنّه جذّاب...

وقالت مارغريت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ممزوجة بالأسى والازدراء:

ـ كفى كفى لا تعذّبني بألغازك وماورائياتك...فأنا إنسانة تعسة بائسة، فلا تستغلّ تعاستي. إنّني أخوض غمار حادثة غريبة، لكنّني أقسم لك بأنّني أقدم على هذا لأنَّ كلماتك عنه أغوتني وجذبتني! وألغازك الغامضة أوجعت رأسي.

وردَّ عزرائيل مكشّراً: دون مسرحيات، عليك أن تفهمي وضعي: مهنتي الحقيقية: الإمساك بخناق مدير، أو سحب عمّ من بيت، أو إطلاق الرصاص على الأشخاص، وكلّ عمل شبيه بهذا... أمّا التحدُّث مع النساء العاشقات... فعلى هذا لست بقادر... ها قد مضت نصف ساعة وأنا أمالقك.. هل تسمعين وتأتين؟

وأجابت مارغريت نيقولايڤنا ببساطة:

ـ أذهب.

ـ إذن تفضّلي واستلمي..

قال عزرائيل هذا وأخرج من جيبه علبة ذهبية مستديرة ناولها إيّاها وأردف: خبّئيها أفضل من أن يراها المارّة. هذه العلبة ستنفعك. لقد هرمت من الهمّ في النصف الأخير من السنة، (احتدمت مارغريت غيظاً لكنّها لم تجب)، أمّا عزرائيل فأكمل: اليوم مساءً في الساعة التاسعة والنصف: تعرّي من ثيابك وابذلي جهدك وادهني من هذا المرهم وجهك وجسدك كلّه. وبعد ذلك افعلي ما تريدين، لكن لا تبتعدي عن الهاتف، ففي العاشرة سأتّصل بك، وأبلغك الأخبار الضرورية. ولن تضطرّيـن للاهتمام بشيء. سيـوصلـونـك

بأنفسهم إلى حيث يجب، ولن يسبِّبوا لكِ أي إزعاج. فهمت؟.

وصمتت مارغريت هنيهة وما لبثت أن أجابت:

ـ فهمت، العلبة التي أعطيتني مصنوعة من الذهب الخالص، من وزنها عرفت ذلك، إنَّني مدركة تماماً أنَّكم ترشونني وتوقعونني في داهية، وسأدفع الثمن غالياً.

وفحَّ عزرائيل:

ـ ما هذا؟ عُدت من جديد؟

ـ لا، أصبر.

ـ هاتي المرهم.

وضغطت مارغريت العلبة بيدها بقوة، وأكملت:

ـ اصبر، إنَّني أعرف على أي أمر أُقدم. لكنَّني لا أتردَّد عن القيام بأي عمل من أجله، لأنَّه أملي الوحيد في هذا العالم. إنَّما أريد أن أخبرك أنَّك إذا قتلتني فسيجلِّلك العار، نعم العار! لأنَّني أكون قد قضيت من أجل الحب. قالت مارغريت هذا وضربت بيدها على صدرها وراحت تتأمَّل الشمس.

وصفَّر عزرائيل بضغينة وقال: أعيدي إليَّ ما أعطيتك أعيدي إليَّ ما أعطيتك... وليأخذ الشيطان كلّ شيء!، وليرسلوا بيغموت.

وهتفت مارغريت وقد أذهلت المارّة:

ـ لا!... إنَّني موافقة على كل شيء، موافقة على مهزلة الدَهن بالمرهم، وموافقة على الذهاب إلى حيث العفاريت الحمر. لكن لن أعيد إليك العلبة.

ـ واهاً!.. صاح عزرائيل فجأة وجحظت عيناه وراح يتأمَّل سياج الحديقة ويشير بإصبعه إلى مكانٍ ما بعيد.

والتفتت مارغريت إلى حيث أشار عزرائيل بإصبعه فلم تقع عيناها على ما يثير الاهتمام. حينذاك التفتت إليه وهي ترغب بأن يوضح لها معنى صرخته الهستيرية (واهاً)، لكن لم يكن ثمّة من يعطي تفاسير، فمحدِّثها اختفى وزال...

ودسَّت مارغريت يدها بسرعة في المحفظة، حيث أخفت قبل تلك الصيحة علبتها، فتأكَّدت أنَّ العلبة في محلِّها. فغادرت حديقة (ألكسندرفسكايا) وهي تركض على عجل.

مرهم عزرائيل

طلع البدر، وبدا من خلال أغصان شجرة الازدراخت وكأنَّه قد عُلِّق في كبد السماء المسائية الصافية الأديم. وظلّلت أشجار الزيزفون والأكاسيا أرض الحديقة بزخرفٍ من البقع المتشابكة. كانت النافذة ذات الثلاث دُرف المفتوحة والمغطّاة بستارة مضاءة بنور كهربائي باهر. تلألأت النيران في غرفة نوم مارغريت نيقولايڤنا وأضاءتها بالفوضى الضاربة الأطناب: فالقمصان والجوارب والبياضات كانت مبعثرة على السرير فوق الغطاء، والبياضات المدعوكة كانت ملقاة هي الأخرى على الأرض بالقرب من علبة سجائر ديست في ساعة هيجان. وكان الحذاء مرمياً على منضدة ليلية بالقرب من فنجان قهوة لم يُشرب حتى الثمالة، ومنفضة مُلئت بأعقاب سجائر لم تنطفىء بعد، وما زال الدخان ينبعث منها. وعلى ظهر المقعد طرح فستان سهرة أسود. وعبقت الغرفة بالروائح العطرة، ومن مكان ما هبّت عليها رائحة مكواة حامية.

جلست مارغريت نيقولايڤنا قبالة المرآة وقد دثّرت جسدها العاري بمبذل الحمّام، وانتعلت حذاءً من الشموا الأسود، أمّا السوار الذهبي والساعة فقد وضعتها بالقرب من العلبة التي أعطاها إيّاها عزرائيل. جلست وعيناها مسمَّرتان على ميناء الساعة. وكان يبدو لها بين الفينة والأخرى أنَّ الساعة تكسَّرت وجمدت وتوقَّفت عقاربها. لكنَّ العقارب كانت تتحرَّك ببطء وكأنَّها قد لُزِّقت. أخيراً أشار العقرب الكبير إلى التاسعة والتسع وعشرين دقيقة، وخفق قلب مارغريت وازدادت نبضاته، وباتت عاجزة حتى عن إمساك العلبة بيدها. وبعد لأي فتحتها فرأت في داخلها مرهماً دسماً أصفر اللون. وخُيِّل إليها أنَّ رائحة المكان فاحت كرائحة وحول المستنقعات، ووضعت مارغريت برأس إصبعها كميّة صغيرة من المرهم على كفِّها فقويت رائحة أعشاب المستنقعات والغابة. وبعد ذلك شرعت تدهن جبهتها وخدّيها بالمرهم. وقد كان المرهم طرياً ليّناً بين يديها... وبدا وكأنَّه يتبخَّر على الفور.

بعد أن دهنت جسدها عدّة مرّات نظرت إلى وجهها في المرآة وضربت بالعلبة زجاج الساعة فكسرته. وأغلقت عينيها ثم نظرت إلى نفسها في المرآة مرّة أخرى وأطلقت قهقهة عاصفة مجنونة. وانعقد الحاجبان المنتوفان بالملقط كقوسين متوازيين أسودين جثما فوق

العينين الخضراوين وذاب الغضن العمودي الدقيق الذي ظهر في شهر تشرين الأوّل منذ توارى المعلّم وشوّه قصبة الأنف. وكذلك زالت الظلال الصفراء عند الصدغين، واللطختان اللتان كانتا باديتين في زاويتي العينين. واصطبغت بشرة الخدّين باللون الوردي المعتدل. وأصبحت الجبهة بيضاء فضيّة نظيفة. وانحلّت خصل الشعر. وأطلّت من المرآة إمرأة في العشرين من عمرها شعرها أسود أجعد.. وراحت الفتاة تتأمّل مارغريت ابنة الثلاثين عاماً وهي تطلق قهقهة هستيرية مكشّرة عن أنيابها. وبعد أن قهقهت مارغريت الفتية حتى شبعت وآلمتها خاصرتاها، وثبت وثبة واحدة وخلعت مبذلها عنها وغرفت من المرهم الخفيف الوزن الدسم وراحت تفرك جسدها بقوة.

وبعدها بلحظة واحدة، وكأنّها أُخرجت إبرة من دماغها، سكن وجع صدغها الذي لازمها طيلة فترة المساء بعد ذلك اللقاء في حديقة ألكسندروڤسكي. فاشتدَّت عضلات يديها ورجليها وفقد جسمها وزنه.

وقفزت في الهواء ثمّ تدلّت على علوّ منخفض فوق سجّادة، وعادت بعد ذلك لتُجذب على مهلٍ إلى تحت... وتنزل. وهتفت وهي ترتمي على المقعد:

- آي!.. يا للمرهم العجيب!... يا للمرهم العجيب.

الفرك بالمرهم لم يغيّر مارغريت من الخارج وحسب إنّما غيّرها من الداخل أيضاً... الآن كلّ ذرّة من ذرّات جسدها تهتزّ ابتهاجاً وفرحاً... وفرحة مارغريت عظيمة تحسّ بها كإحساسها بالفقّاعات التي توخز جسدها. لقد وُلِد داخلها شعور بالانعتاق والتحرُّر. وأدركت مارغريت أنَّ أحاسيس الصباح تحقّقت... وأنّها عمّا قريب ستغادر ذلك المخدع إلى غير رجعة... وتفارق حياتها القديمة أيضاً. غير أنَّ فكرة واحدة من الحياة القديمة استحوذت على لبِّها.. هذه الفكرة هي: أنَّه يتوجَّب عليها تأدية الواجب الأخير قبل بدء العهد الجديد الخارق الذي يجذبها إلى فوق جذباً... إلى عالم الفضاء إلى العلاء، وكما هي، عارية ربِّي كما خلقتني، وقد حلّقت مراراً في الهواء ركضت من غرفة النوم إلى مكتب زوجها فأضاءته وارتمت على طاولة الكتابة. وعلى صفحة ورق مزّقتها من المفكّرة كتبت وصيتها بقلم رصاص... بدون تصحيح وبكلمات كبيرة الحروف: «إصفح عنّي وانسني بسرعة. إنّني مفارقة لك إلى الأبد. لا تبحث عنّي. فلن يجديك البحث نفعاً. داهمتني المصائب والفواجع وأذهلتني.. فغدوت ساحرة.. أزفت ساعتي، وداعاً.

«مارغريت»

وطارت مارغريت إلى غرفة النوم ونفسها طافحة بالمشاعر المريحة الخفيفة، واقتفت ناتاشا آثار سيّدتها وهي مثقلة بالأحمال من العلاّقات الخشبية والثياب ومناديل الدانتيلاّ،

والأحذية الزرقاء الحريرية. ووقعت كلّ هذه الأشياء على الأرض، فتحرَّرت ناتاشا منها وصفَّقت بيديها.

وصرخت مارغريت نيقولايڤنا بصوت متهدِّج عالٍ:

ـ كيف ترينني؟ حلوة؟.

ـ كيف تمّ هذا؟ ـ همست ناتاشا وهي تتقهقر إلى الوراء ـ ماذا صنعت يا مارغريت نيقولايڤنا؟.

ـ هذا من صنع المرهم، المرهم العجيب ـ أجابت مارغريت وهي تومىء إلى العلبة الذهبية المتلألئة وتلتفت نحو المرآة.

ونسيت ناتاشا الفستان المدعوك المرمي على الأرض، وركضت نحو المرآة، وبعينين نهمتين متلألئتين حملقت بما تبقّى من المرهم، وغمغمت شفتاها بكلمات غامضة، ومن جديد التفتت نحو مارغريت وخاطبتها بلهجة امتزجت نبراتها بشيء من التبجيل:

ـ جلدك! جلدك؟ جلدك يلمع يا مارغريت نيقولايڤنا.

ـ هتفت ناتاشا بهذا، وفي الحال تذكَّرت الفستان المرمي على الأرض، فركضت إليه ولمّته ونفضته.

وما أن رأتها سيِّدتها حتى نهرتها قائلة:

ـ دعيه عنكِ! دعيه عنكِ! ارميهِ للشياطين وابعديه عنكِ! حسناً احتفظي به لنفسك وخذيه للذكرى. خذي كل محتويات الغرفة.

وبدا وكأنَّ ناتاشا فقدت عقلها، فقد تسمَّرت في مكانها بعض الوقت وراحت تنظر إلى مارغريت. ثمّ تعلَّقت برقبتها وأخذت تقبِّلها وتصيح:

ـ تضيئين كما لو كنت من أطلسٍ... أنت سيِّدة من أطلس!.. والحواجب! يا للحواجب ما أجملها.

ـ خذي الخرق وقناني العطر، ضعيها في صندوقك. خبِّئيها داخله. وإيَّاكِ أن تأخذي الأشياء الغالية الثمن فتُتهمين بالسرقة.

وصرَّت ناتاشا كلّ ما وقعت عليه يداها من ثياب وأحذية وجوارب وبياضات في صرّة، وخرجت تركض من غرفة النوم. في غضون ذلك، ومن الجهة الثانية للزقاق دوّت موسيقى ڤالس. وترامى إلى الآذان هدير سيَّارة اقتربت من البوَّابة.

وهتفت مارغريت وهي تنصت للڤالس المنثال المتهادي في الزقاق:

ـ الآن سيتلفن عزرائيل! سيتلفن لي. والأجنبي مأمون الجانب. الآن، أدرك حقًّا أنّه مأمون الجانب!.

وهدرت السيَّارة وهي تبتعد عن البوَّابة، وسمع حفيف أغصان شجرة الخوخ، وسمع

وقع خطوات فوق بلاط الممرّ..

وفكّرت مارغريت في نفسها: «هذا نيقولاي إيڤانوڤتش أعرفه من وقع خطواته. يجب أن نحيي حفلة مضحكة جداً ومثيرة بمناسبة يوم الوداع».

وشدّت الستارة وجلست على مصطبة النافذة وشبكت يديها حول ركبتها، وقد غمر ضوء القمر جنبها الأيمن، والتفتت مصعّدة الطرف نحو القمر وارتسمت على محيّاها سيماء الشاعرية والتفكير العميق. وخفقت الخطوات مرّتين ثم عادت وسكنت من جديد.

راق منظر القمر مارغريت فمكثت مكانها لتتمتّع برؤيته، وتنهّدت لياقة، ثم التفتت نحو الحديقة فرأت نيقولاي إيڤانوڤتش الذي يشغل الطابق السفلي من المبنى، رأته مغموراً بضوء القمر، جالساً على دكّة. ومن جلسته يبدو أنّه ارتمى بغتة على مقعده ذاك. كان يضغط بيديه على محفظته، أمّا نظارته فبدت وكأنّها ملتوية.

وكلّمته مارغريت بصوت حزين النبرات:

- مرحباً يا نيقولاي إيڤانوڤتش! أسعدت مساءً! أأنت آتٍ من الاجتماع؟.

ولم ينبس نيقولاي إيڤانوڤتش ببنت شفة.

وأردفت مارغريت شاكية وقد أطلّت أكثر على الحديقة:

- أمّا أنا.. فكما تراني.. أجلس وحيدة، أتأمّل القمر وأسمع الڤالس، يكاد السأم يقتلني.

قالت هذا ومرّت بيدها اليسرى على صدغها، فسوّت خصلة الشعر. وبعد ذلك قالت بكآبة وانزعاج:

- هذا عمل غير مهذّب من طرفكم يا نيقولاي إيڤانوڤتش! فأنا في النهاية سيّدة، وعدم الردّ على سيّدة يعتبر إساءة إليها وفظاظة وأيم الحق!.

ونيقولاي إيڤانوڤتش الذي كان يُرى في ضوء القمر حتى آخر زرّ في صداره الرمادي، وحتى آخر شعرة في لحيته الصهباء الإسفينية الشكل... نيقولاي إيڤانوڤتش ذاك ابتسم ابتسامة خبيثة وحشية، وقام من على الدكّة، ومن الحيرة نسي نفسه، وبدلاً من أن يخلع قبّعته، لوّح بمحفظته ولوى رجليه كأنّه يستعدّ للرقص.

وأكملت مارغريت كلامها له:

- إنّك مثال الإنسان المملّ يا نيقولاي إيڤانوڤتش! لقد سئمت منكم جميعاً، وما بمكنتي أن أعبّر عن سأمي منكم، وسعادتي لا توصف لفراقكم، لتأخذكم الشياطين.

وفي هذه الاثناء، رنّ جرس الهاتف في غرفة النوم وراء ظهرها، فوثبت من فوق المصطبة حيث كانت تجلس، ونسيت نيقولاي إيڤانوڤتش وحديثها معه، وأمسكت السمّاعة وما أن وضعتها على أذنها حتى سمعت صوت متكلّم يقول:

ـ أنا المتكلّم عزرائيل.

وَهَتَفَتْ تجيب:

ـ حبيبي حبيبي عزرائيل!.

ـ أزفت الساعة فهيّا حلّقي.

كانت نبرات صوت عزرائيل مفعمة بالمشاعر الصادقة الحارّة والسارّة. وأكمل يخاطبها:

ـ حينما تعبرين البوّابات اصرخي: غير مرئية! وحينما تطيرين حلّقي فوق المدينة لتعتادي على الطيران. ثم غادري المدينة وطيري نحو الجنوب صوب النهر، إنَّهم هناك بانتظارك.

وبعد أن انتهى المتحدّث من كلماته علّقت مارغريت السمّاعة، وفي الحال سُمع وقع خطوات خافتة هادئة في الغرفة المجاورة. كان ثمّة شخص يدرج كالحجل، وضرب على الباب ففتحت الباب على مصراعيه وإذا بها ترى المكنسة تطير إلى غرفة النوم وهي ترقص، وكانت تسقط الفتات على الأرض وتهتزّ وهي مندفعة نحو النافذة.

ومن سرورها زعقت واعتلت المكنسة. وفطنت وهي فوق سدّة حصانها، بأنَّ الضوضاء السائدة أنستها ارتداء ثيابها. فقفزت خبباً إلى السرير واختطفت قميص نومها الأزرق السماوي، ولوّحت به كالراية ووثبت نحو النافذة، وقد علا الڤالس في سماء الحديقة.

وانزلقت مارغريت نيقولايڤنا من النافذة إلى تحت فرأت نيقولاي إيڤانوڤتش ما يزال جالساً على الدكّة في مكانه، مصعوقاً يستمع إلى الصياح والصلصلة المتناهية إلى سمعه من غرفة النوم المضاءة في الشقق العليا. وصاحت وقد راحت ترقص أمامه:

ـ وداعاً يا نيقولاي إيڤانوڤتش!.

فما كان من الأخير إلاّ أن تأوّه وزحف فوق الدكّة وهو يقلّب يديه فأوقع محفظته على الأرض.

وكرّرت مارغريت صيحتها التي غطّت موسيقى الڤالس:

ـ وداعاً إلى الأبد، إنّي راحلة.

وأدركت أنّها ليست بحاجة إلى قميص النوم، فاطلقت قهقهة شرّيرة ودثّرت بالقميص رأس نيقولاي إيڤانوڤتش، فسقط من فوق الدكّة على حجارة الطوب بعد أن غشي بصره.

والتفتت مارغريت لتلقي النظرة الأخيرة على المخدع الذي طالما تعذّبت طويلاً تحت سقفه، فرأت على ضوء النيران الملتهبة وجه خادمتها ناتاشا وقد شوّهته الدهشة.

ـ وداعاً يا ناتاشا ـ صاحت مارغريت وجذبت المكنسة. ثم ما لبثت أن رفعت صوتها قائلة: غير مرئية غير مرئية. هتفت بهذا وعبرت البوّابة من بين أغصان شجرة الازدراخت، التي لفحتها في وجهها، ووثبت إلى الزقاق. ولحق بها الڤالس المجنون.

الفصل الواحد والعشرون

التحليق في السماء

حرّة ولا تراها الأعين!.

طليقة ولا تراها الأعين!.

وبعد أن اجتازت مارغريت الزقاق الذي تقطنه، وصلت إلى الزقاق الثاني الذي كان يؤلّف في تقاطعه زاوية قائمة مع الزقاق الأوّل.

بلحظة واحدة قطعت مارغريت هذا الزقاق المرفوء والطويل والأعوج. وفي هذا الزقاق كانت تقع دكّان نفط ذات بابٍ مائلٍ إلى جانب واحد، حيث كان يُباع زيت الكاز والسوائل المضادّة للطفيليات في الأكواب والقوارير.

وحينما قطعت مارغريت الزقاق أدركت بالرغم من أنّها طليقة ولا تراها الأعين فإنّه يتوجّب عليها أن تكون ذكية وعاقلة في ساعات نعيمها. وبمعجزة خارقة توقّفت ونجت من الموت المحتوم بعد أن كادت تصطدم بفانوسٍ مائل معلّق في الزاوية. وبعد ان حادت عنه أمسكت العصا بقوّة وطارت الهوينا وهي تنظر إلى الأسلاك الكهربائية واليافطات المعلّقة على طول الرصيف. الزقاق الثالث هذا كان يؤدّي مباشرة إلى (الأربات). واستوعبت مارغريت جيّداً قيادة المكنسة وأدركت أنّها تُقاد بأيسر لمسة من الرجل أو إحدى اليدين، وأنّه عليها أن تكون جدّ حذرة ويقظة وهي تحلّق في سماء المدينة، ولا حاجة إلى مزيد من الشغب. وبالإضافة إلى ذلك فقد بدا واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أنّ السابلة في الزقاق لا يرون الإمرأة الطائرة في سمائهم، إذ أنّه لم يرفع أحد منهم رأسه ليهتف: «انظر انظر!..» ولم يتنحَّ أحد جانباً ليزعق، ولم يُصب أحد بدوّار أو يقهقه أو ينفجر بضحكٍ ماجن.

وكانت مارغريت تطير بصمتٍ وبطءٍ وعلى علوٍّ منخفض، علوّ بيت بطابقين. وعند نهاية الأربات المضاء بالأنوار الباهرة المجنونة طاشت واصطدم كتفها بقرص يتلألأ بالأنوار رُسم عليه سهم.

وأغضب الاصطدام مارغريت، فأدارت المكنسة المطواع، وغيّرت وجهة سيرها وانقضّت على القرص فجأة، وبطرف مكنستها حطّمته شرّ تحطيم، فتناثرت الشظايا محدثة ضجّة. وتنحّى السابلة وصفّروا، أمّا هي وقد قامت بعملٍ لا لزوم له، اكتفت بأن قهقهت

وفكَّرت: في (الأربات) يجب أن يكون المرء أشدّ حذراً وأكثر يقظة فقد اختلطت الأشياء وتشابكت بحيث أنَّ التمييز بينها بات أمراً صعباً.

وغاصت مارغريت بين الأسلاك ومن تحتها كانت تمرّ سطوح الناقلات والأوتوبيسات والسيَّارات الصغيرة، وعلى الأرصفة كانت تتدفَّق أنهار من القبّعات، وتفرَّعت هذه الأنهار إلى جداول متعرِّجة على المروج الناريّة، مروج مخازن الليل. وفكَّرت مارغريت ساخطة:

« خليط عجيب من الأمم حتى أنَّه يصعب على المرء أن يلتفت ويدير ظهره ». واجتازت (الأربات) وارتفعت في السماء حتى مستوى الطبقات العليا، وعبرت زقاقاً ضيِّقاً بين مبانٍ شاهقة بمحاذاة أنابيب مثبَّتة في زاوية المسرح تبهر الأبصار بتلألؤ أنوارها. كانت نوافذ البيت مشرَّعة، وكانت تنبعث منها أنغام موسيقية تبثّها الاذاعة. ومن باب الفضول نظرت في إحدى النوافذ فوقع نظرها على إمرأتين كانتا تقفان في مطبخ قرب المجلى. واستقرَّ فوق المجلى (بابوران) كانا يزأران. كانت الإمرأتـان تحملان في أيـديهما الملاعـق وتتبـادلان الشتائم.

وقالت إحداهنَّ وقد وقفت إزّاء إناء تصاعدت منه الأبخرة:

ـ يجب أن تطفئي النور في المرحاض وراءك، وإلاَّ طردناك.

فأجابتها الثانية:

ـ وأنت أيضاً تنسين ولا تطفئين النور. إنَّك غير مقصِّرة أبداً في هذا المجال.

ـ الاثنتان طيِّبتان ولا بأس بكما. ردَّت مارغريت بصوت جهوري ـ وقفزت إلى المطبخ من فوق الرفّ.

والتفتت المتخاصمتان إلى مصدر الصوت وقد تسمَّرتا والملاعق الموسَّخة في أيديهما.

ومدَّت مارغريت بمنتهى الحذر يدها من بينهما، واطفأت (بابوري) الكاز.

دُهشت الإمرأتان وكادتا أن تَصعقا. وتركتهما مارغريت وقفزت من المطبخ وطارت في الزقاق. في طرف الزقاق لفت انتباهها بيت كبير مُزخرف مؤلَّف من ثمان طبقات، وقد شُيِّد على ما يبدو منذ زمن قريب.

وهبطت حتى علوٍّ منخفض فرأت واجهة البيت المصنوعة من الرخام الأسود، ومن وراء زجاج بابه العريض بدت بزّة البوَّاب المقصَّبة بأزرارها الذهبية، وفوق الباب كُتب بماء الذهب: بيت « الدرامليت ».

وأمعنت مارغريت النظر في الكتابة مفكِّرة بما تعنيه كلمة « درامليت »، وما لبثت أن يَمّمت المدخل متأبِّطة المكنسة. فدفعت باب الحاجب المذهول، لترى بالقرب من المصعد لوحة هائلة سوداء مثبَّتة في الحائط وقد كُتب عليها بأحرف بيضاء: أرقام الشقق وأسماء الساكنين فيها. وما أن قرأت كلمات: « بيت الأدب والمسرح » حتى أطلقت صرخة وحشية

مخنوقة، وحلّقت في السماء لتقرأ بنهم أسماء العائلات: خوستوف، دڤوبرانسكي، كوانت، بسكودنيكوف، لاتونسكي...

وزعقت مارغريت:

لاتونسكي، لاتونسكي ما غيره! لاتونسكي الذي آذى المعلّم ورماه بين أشداق الهلاك!.

البوّاب وقد اتّسعت عيناه من فرط الدهشة وثب من مكانه وراح يتأمّل اللوحة السوداء محاولاً أن يفهم سرّ هذه المعجزة:

لماذا وكيف زعقت لوحة الأسماء فجأة؟.

في أثناء ذلك كانت مارغريت قد صعدت على الدرج قاصدة الطوابق العليا وهي تردّد بنشوة فرحة:

لاتونسكي: أربعة وثمانون!. لاتونسكي: أربعة وثمانون. هاك الرقم ٨٢ على الشمال. ٨٣ على اليمين. طابق فوق. وعلى الشمال ٨٤. هنا. ها إنّي أخيراً أرى إسم: أ. لاتونسكي.

وترجّلت مارغريت من فوق المكنسة. وبرّد الرواق الحجري بلذة خفّيها الساخنين. وكبست مارغريت الجرس كبسة واحدة ثم أتبعتها بثانية. لكنّ الباب بقي مقفلاً. فما كان منها إلاّ أن راحت تكبس ضاغطة على الزرّ، وتناهى إلى أسماعها رنين الجرس داخل الشقّة...

حقّاً إنّ الناقد لاتونسكي ذو حظٍّ عظيم وأنّه لا بدّ مولود في يوم سعيد... ونجمة السعادة قد ترافقه حيثما حلّ.. نعم إنّ لاتونسكي ساكن الشقّة رقم ٨٤ في الطابق الثامن مُدين حتى آخر لحظة من حياته للمرحوم برليوز... ووجب على لاتونسكي أن يشكر المرحوم لأنّه قضى دهساً تحت عجلات الترام، ولأنّهم...

حظٌّ يفلق الصخر. لقد خلّصه الحظّ من لقاء مارغريت التي تحوّلت إلى ساحرة في يوم الجمعة هذا!..

ولمّا لم يُفتح الباب، هبطت مارغريت نزولاً وهي تعدُّ الطوابق، وما أن وصلت إلى الطابق السفلي حتى انطلقت إلى الشارع وراحت تعاين المبنى من فوق وتعدّ طبقاته وتتفحّصها طابقاً طابقاً، وتفكّر أيها نوافذ شقّة لاتونسكي تكون؟!. لا بدّ أنّ تلك النوافذ الخمس المعتمة في زاوية المبنى، في الطابق الثامن، كانت هي نوافذ الشقّة المقصودة.

ولمّا تيقّنت من صحّة أفكارها، صعدت في الهواء، وبعد ثوانٍ معدودة اقتحمت الغرفة المظلمة من النافذة المفتوحة؛ هذه الغرفة التي فضّض أرجاءها شعاع القمر وقد تلألأ كطريق ضيّقة صغيرة. وركضت مستعينة بالشعاع واهتدت إلى الزرّ.

وبعد هنيهة كان النور يغمر الغرفة، والمكنسة تأخذ محلاً لها في الزاوية. وبعد أن تحقّقت

من أنَّ الغرفة خالية من الناس، فتحت الباب المؤدِّي إلى الدرج، ونظرت متفحِّصة البطاقة المكتوب عليها اسم صاحب الشقّة، فوجدتها في مكانها فأيقنت أنَّها لم تَتُه ودخلت حيث تريد.

ويحكى أنَّ الناقد لاتونسكي، وحتى هذا الحين يشحب لون وجهه ما أن يتذكَّر ذلك المساء الرهيب، والآن يلفظ اسم برليوز مشفوعاً بأسمى آيات التكريم.

لا أحد يعرف على أيّة جريمة شنعاء سوداء كانت ستغيب شمس ذلك النهار، فقد خرجت مارغريت من المطبخ وبين يديها مطرقة ثقيلة الوزن.

فالساحرة العارية المحجوبة عن الأنظار ملكت زمام نفسها وبسبب لجاجتها كانت يداها ترتعشان.

وبعد أن سدَّدت نحو الهدف بإحكام، ضربت مارغريت بمطرقتها مفاتيح البيانو. وعلا في الشقّة الزعيق الشجن... صرخ البيانو مغتاظاً... صرخ هذا المظلوم الذي لم يأتِ ذنباً غير أنَّه آلة موسيقية من صنع مصانع بيكير... وتخلخلت مفاتيحه، وتشتَّت أوصاله العظمية في كلّ جانب... فزأر وناح وشخر ونخر... وتحطَّمت لوحة الأوتار المصقولة من جرّاء ضربة بالمطرقة تزامنت مع دويّ طلقة من فوهة مسدّس. وراحت مارغريت لاهثة تقطع الأوتار وتدعكها. وبعد أن نال منها التعب هوت على المقعد لتلتقط أنفاسها وترتاح.

وانسابت المياه في الحمَّام والمطبخ محدثة خريراً مزعجاً، ففكَّرت مارغريت في نفسها: «المياه تتدفَّق في أرض الشقّة». ثم أضافت بصوتٍ عالٍ: «ومع ذلك لا داعٍ لإطالة البقاء هنا».

في هذا الوقت كانت المياه قد تدفَّقت سيولاً من المطبخ إلى الممَر؛ غامسة بقدميها العاريتين في سيل المياه المتدفِّقة، راحت مارغريت تنقل المياه بالدلاء من المطبخ إلى مكتب الناقد وتصبّها في أدراج الطاولة. وما لبثت أن بدأت بتحطيم أبواب خزانة المكتب بمطرقتها. ولمّا انتهت اندفعت إلى غرفة النوم، وحطَّمت مرآة الخزانة وأخرجت بذلة الناقد ورمتها في المياه. أعمال التخريب والأذى هذه سبَّبت لمارغريت نشوة عارمة. لكن لم يفارقها التفكير بأنَّ الأضرار تلك كانت جدّ طفيفة. لذلك شرعت تعبث بمحتويات الغرفة كيفما اتفق وتخرِّب كل ما تقع عليه يداها كما يحلو لها.

كسَّرت أصص (الخبيّزة) في غرفة البيانو. وما أن انتهت من عملها ذاك حتى هرعت عائدة إلى غرفة النوم، وراحت تمزِّق الشراشف بسكّين أخذتها من المطبخ، وكسَّرت زجاج الصور. ولم تشعر بالتعب غير أنَّ العرق تصبَّب منها جداول.

في غضون ذلك، وفي الشقّة رقم ٨٢ الواقعة تحت شقّة لاتونسكي، كانت الخادمة في بيت الأديب المسرحي كوانت تجلس في المطبخ وتشرب الشاي. وكانت هذه الخادمة في

حيرة وذهول بسبب الضجّة والجلبة المنبعثتين من الطوابق العليا فوقها. ورفعت رأسها نحو السقف فرأته يتحوَّل بغتة أمام عينيها من أبيض إلى أزرق شاحب. ثم أخذت البقعة الزرقاء في السقف تعرض وتكبر وتنضح بقطرات من الماء.

بقيت الخادمة جالسة دقيقتين مستغربة هذه الظاهرة العجيبة، حتى بدأ المطر الحقيقي ينهمر من السقف ويضرب الأرض. فما كان منها حينئذٍ إلاَّ أن قامت من مكانها ووضعت طستاً لتجمع المياه. لكن هذا العمل لم يسعفها، لأنَّ البقعة التي نزل منها المطر اتسعت، وراحت المياه تسقط على البلاطة التي وضع فوقها (الغاز)، وعلى الطاولة التي صُفَّت فوقها الأواني.

عندها أطلقت الخادمة صيحة وخرجت من الشقّة، وفي الحال بدأ يُسمع رنين في شقّة لاتونسكي.

- «طالما بدأوا بالرنين فقد حان الرحيل» - قالت مارغريت هذا، وامتطت المكنسة مصغية إلى الصوت النسائي الذي كان يصيح في ثقب الباب:

- افتحوا يا دوسيا! غمرتنا المياه افتحوا. المياه من عندكم؟.

وارتفعت مارغريت فوق الأرض بمقدار مترٍ واحدٍ واصطدمت بالثريَّا فهشَّمت مصباحين من مصابيحها فتطايرت الشظايا في كلِّ الاتجاهات. وهدأت الصيحات في ثقب الباب، وسُمع على الدرج وقع أقدام. وعبرت مارغريت النافذة، وبعد أن صارت في الخارج لوَّحت بالمطرقة بهدوء وضربت الزجاج ضربة خفيفة.

وأزَّ الزجاج وتطايرت شظاياه على الجدار الملبَّس بالرخام. وركضت مارغريت إلى النافذة الثانية، أمَّا في البعيد فقد تراكض الناس على الرصيف، وهدرت إحدى السيَّارتين اللتين كانتا متوقِّفتين أمام المدخل، وتحرَّكت مغادرة المكان.

بعد أن أنهت مارغريت مُهمَّتها وفعلت ما فعلته بنوافذ شقّة لاتونسكي طارت إلى الشقّة المجاورة. وتسارعت الضربات وامتلأ الزقاق بالضجيج والجلبة. وركض بوّاب من أمام المدخل الأوَّل ونظر إلى السماء وتردَّد قليلاً، وربَّما لأنَّه لم يفطن إلى ما يجب عمله في مثل هذا الظرف دسَّ في فمه صفَّارة، وأطلق الصفير.

وبحماس زائد، ربَّما تحت تأثير الصفير، حطَّمت مارغريت زجاج النافذة الأخيرة في الطابق الثامن وهبطت إلى السابع لتبدأ بتحطيم زجاج نوافذه.

البوَّاب وقد أتعبته البطالة الدائمة والتسكُّع وراء مرايا الأبواب، حشد كلّ قواه في الصفّارة، وراح يتتبَّع أثر مارغريت، كأنَّه ألزم نفسه بمواكبتها. في فترات الصمت حينما كانت تطير متنقِّلة من نافذة إلى نافذة كان يستجمع قواه، وعند كلّ ضربة من ضربات مارغريت كانت تنتفخ أوداجه ويكاد أن ينفجر خارقاً السماء البعيدة بالصفير.

وأعطت جهود البوّاب متّحدة مع جهود مارغريت الساخطة نتائج كبيرة وهائلة. فقد حدث ذعر رهيب في البيت، وعلت الضوضاء، نوافذ ما تزال سليمة شُرِّعت وأطلّت منها رؤوس بشرية ثم عادت وتوارت في الحال، نوافذ أخرى كانت مفتوحة أُغلقت. ومن نوافذ البيوت المقابلة في الأعماق والمضاءة، تراءت أطياف بشرية قاتمة، تراءت محاولة أن تفهم لماذا وبدون أي سبب يُحطّم الزجاج في مبنى (الدراملبت) الجديد.

وتراكض الناس في الزقاق نحو البيت المذكور. وفي داخله على الأدراج تزاحم الناس وتدافعوا بلا سبب أو هدف. الخادمة في شقّة كوانت صرخت مستنجدة بالراكضين على الدرج. أخبرتهم بأنّ المياه غمرت بيتها. وسرعان ما انضمّت إليها خادمة كوستوف من الشقّة رقم ٨٠ محتجّة هي الأخرى. (كانت شقّتها تقع تحت شقّة كوانت). سقطت المياه في شقّة خوستوف من سقفي المطبخ والمرحاض. وانهارت أخيراً في مطبخ (كوانت) طبقات من الملاط، هائلة الحجم، وحطّمت الأواني المتّسخة. وانهمر المطر من بين ألواح السقف المبتلّة، انهمر كأنّه من أفواه القرب.

وتعالى الصياح على درج المدخل الأوّل، ونظرت مارغريت من نافذة الطابق الرابع فرأت إنساناً مذعوراً يلبس قناعاً واقياً من الغاز، فضربت زجاج النافذة بمطرقتها فأخافت الرجل الذي توارى بسرعة.

وتوقّف التدمير الوحشي فجأة. وزحفت مارغريت إلى الطابق الثالث، وتأمّلت من النافذة القصيّة الأخيرة المغطّاة بستارة قاتمة رقيقة فرأت مصباحاً شحيحاً يضيء أرجاء الغرفة بأنواره الشاحبة، وفي سرير صغير، جوانبه من الشبك، كان يتمدّد طفل صغير في الرابعة من عمره. ولم يكن في الغرفة أي شخص راشد. هرب الجميع من الشقّة على ما يبدو.

قال الطفل:

ـ إنّهم يكسّرون الزجاج. وما لبث أن نادى:

ـ ماما!.. ولمّا لم يسمع جواباً قال:

ـ ماما!.. أنا خائف!.

وأزاحت مارغريت الستارة ودخلت من النافذة.

وردّد الطفل وهو يرتعد من الخوف:

ـ أنا خائف.

فردّت مارغريت وهي تحاول أن تهدّىء من روعه بصوتها الأبحّ الأثيم النبرات:

ـ لا تخف. لا تخف يا صغيري. أطفال صغار كسّروا الزجاج.

وسأل الصغير وقد سكنت نفسه:

ـ ضربوه بحجارة من المرجام؟
فأكّدت مارغريت:
ـ من المرجام، من المرجام... نَمْ يا صغيري!.
ـ آه هذا سيتنيك... عنده مرجام.
ـ نعم، هو.
والتفت الصغير حوله بمكر وسأل:
ـ وأين أنت يا عمَّة؟
أجابت مارغريت:
ـ أنا غير موجودة. أتراءى لك في الحلم.
ـ لقد ظننتُ هذا.
وأمرت مارغريت:
ـ نَمْ. توسَّد راحة يدك ونَمْ وسأظهر لك في الحلم.
ـ اظهري. اظهري. هتف الصغير موافقاً، واضطّجع في الحال متوسِّداً راحة يده.
وقالت مارغريت وقد وضعت يدها الساخنة على الرأس المقصوص الشعر:
ـ سأقصُّ على مسامعك حكاية. كان ما كان في قديم الزمان. عاشت عمّة، لكنّها لم تُرزق بنيناً، ولم تكن سعيدة في حياتها. وفي البداية بكت طويلاً، وصارت بعد ذلك شريرة.
وصمتت مارغريت. ثم رفعت يدها وقد غفا الصغير.
ووضعت المطرقة على الرفّ، وطارت خارجة من النافذة. كان الهرج والمرج سائدين حول البيت. وكانت الجموع تتراكض على الرصيف المفروش بالاسفلت وشظايا الزجاج ويتصايحون. وقد اختلط أفراد الشرطة بالجمع. وفجأة قُرع جرس، واقتربت شاحنة إطفاء مندفعة من الأربات نحو الزقاق، وكانت مجهَّزة بسلّم.
ولم تهتم مارغريت بما حدث بعد ذلك.
متنبِّهة حذرة، من أن تصطدم بأي سلكٍ من الأسلاك، ضغطت المكنسة بقوة، ثم بدت في السماء فوق البيت المشؤوم. والتوى الزقاق تحتها وغاب وكأنَّ الأرض ابتلعته. وتحت قدميها ظهرت مجموعات السطوح وقد قطَّعتها الدروب المتلألئة بالأنوار إلى زوايا.
كانت تُرى تحت قدمي مارغريت مجمّعات السطوح التي مالت فجأة إلى جانب واحد، وسلاسل نيران امتزجت وتألَّقت.
وقامت مارغريت بوثبة أخرى، فابتلعت الأرض حشد السطوح، وتلألأت بحيرة من النيران الكهربائية، وارتفعت هذه البحيرة عمودياً فجأة، وظهرت فوق رأس مارغريت، أمَّا تحت قدميها فقد سنا القمر بأنواره. وحينذاك أدركت أنَّها انقلبت رأساً على عقب،

فصحَّحت وضعها، ونظرت إلى البحيرة فلم تجدها، رأت وراءها هالة وردية في الأفق البعيد.

وبعد ثانية زالت الهالة الوردية تلك، ووجدت بطلتنا نفسها تطير برفقة القمر، الذي كان يمخر العباب فوقها وعن يسارها.

كان شعر مارغريت مبعثراً، وغسل ضوء القمر جسدها العاري، وصحب عملية الغسل صفير.

وحسب خطّي النار المتلألئين الممتزجين في خطّين مستمرين، سرعان ما زالا، خمَّنت مارغريت بأنَّها تطير بسرعة هائلة وصعقت من كونها لم تختنق.

وهناك في البعيد، وبعد مرور ثوانٍ عدّة، في ظلمة الأرض الدامسة، تلألأت بحيرة جديدة من الأنوار الكهربائية، ورست تحت قدمي الإمرأة الطائرة. ودارت هذه البحيرة دورة حلزونية وذابت في الأرض. وبعد عدّة ثوانٍ أُخر، تكرَّرت هذه الظاهرة ثانية. وهتفت مارغريت:

ـ مدن! مدن!..

وبعد ذلك رأت تحتها سيوفاً تلمع شاحبة وقد مُدِّدت في أغمدة سوداء مفتوحة. مرّتان أو ثلاث مرَات بدت هذه السيوف أمام عيني مارغريت، ففكَّرت بأنَّها لا بدّ أنهار جارية. والتفتت إلى فوقها وإلى شمالها، فراقها منظر القمر وهو يمخر العباب متَّجهاً، كالمجنون، نحو موسكو، وفي الوقت نفسه تحسبه جامداً لا يفارق مكانه، وكان يُرى بوضوح تنّين قاتم فوق سطحه. أجل يُرى تنين أو مهر أحدب مديراً خطمه الحاد نحو المدينة التي فارقتها بطلتنا.

وهنا ساورت مارغريت فكرة جديدة وهي: لماذا تستحثّ المكنسة وتسوقها بكل هذا الحنق والحماس الزائدين. إنَّها بعملها هذا تضيِّع على نفسها إمكانية رؤية الأشياء عن قرب وكما ينبغي، والتمتّع بنشوة التحليق.

وكأنَّ هاتفاً أخبرها أنَّهم ينتظرونها هناك، فلا داعٍ إذن للعجلة والتهوّر والملل والتحليق على علوّ مرتفع. وهنا أمالت مارغريت مقدّمة المكنسة إلى الأمام، فارتفع الذنب إلى فوق، وراحت تقترب من الأرض ببطء. سبَّب لها الانزلاق نحو الأرض الذي تمَّ كما في الطائرات الهوائية سعادة كبرى.

واقتربت الأرض من مارغريت... نعم اقتربت منها هذه الكتلة السوداء التي كانت منعدمة الشكل وتتجلَّى الآن بأسرارها البديعة وجمال لياليها المقمرة... الجمال الساحر الأخَّاذ.. ونضحها عطر الغابات الخضراء بالأريج.. وطارت فوق ضباب المروج المندَّاة، ومرَّت بعد ذلك من فوق الغدير. على الأرض كانت جوقة ضفادع ترتِّل وسُمِع هدير

قطار من مكان بعيد، ووجف القلب من هدير القطار دون سبب. وسرعان ما رأت القطار. وكان يزحف بطيئاً كالإوزّة، مُوزّعاً الشرر في الهواء. وتبعته محلّقة فوق مرآة صافية من المياه، طفا على سطحها قمر ثانٍ تحت قدمي مارغريت. واقتربت من الأرض أكثر فأكثر وهي تكاد تلامس بقدميها رؤوس أشجار الصنوبر العملاقة.

في تلك اللحظة، داهمت مارغريت ضجّة مزعجة سبّبها الريح الهبوب. انضمّ إلى الضجيج شيء ما انطلق جامحاً كالقذيفة، ويُسمع أزيزه من مسافة فراسخ عديدة. وكان الأزيز شبيهاً بقهقهة إمرأة. التفتت مارغريت فرأت أنّ كائناً قاتماً معقّد الهيئة يطاردها. ولمّا اقترب هذا الكائن منها، تجلّى عن فارس فوق مطيّة... وأخيراً بدا وجهه بوضوح. فأبطأت مارغريت سرعتها فأدركتها ناتاشا. وكانت عارية، ربّي كما خلقتني، وقد بعثر الهواء خصل شعرها، وامتطت ذكر خنزير سمين، يُمسك بين ظلفيه الأماميين محفظة، ويضرب الهواء بقساوة بظلفيه الخلفيين.

أمّا «النظّارات» التي كانت تلمع حيناً في ضوء القمر وتعود وتخمد لمعانها، فقد انزلقت من فوق أرنبة الأنف وطارت بمحاذاة الخنزير. والقبّعة كانت تسقط مراراً فوق عينيه. وما أن تأمّلت مارغريت مليًّا هذه المطيّة العجيبة - الخنزير، حتى عرفت فيه نيقولاي إيڤانوڤتش... ودوت قهقهتها فوق الغابة كقصف الرعد ممتزجة بضحك ناتاشا.

وهتفت مارغريت محتدّة:

- ناتاشا! ماذا فعلت؟ أتكونين قد دهنت نفسك بالمرهم؟

فأجابت ناتاشا، موقظة بولولتها غابة الصنوبر الغافية:

- يا حبيبتي! يا مليكتي الفرنسية!.. دهنت له صلعته. دهنت له!.

وقبع الخنزير باكياً وهو يعدو بالفارسة خبباً:

- آه يا أميرة.

وهتفت ناتاشا وهي تطير بمحاذاة مارغريت:

- يا حبيبتي مارغريت نيقولايڤنا، أعترف لك بأنّني أخذت من الكريم. فنحن أيضاً نريد أن نحيا ونطير في السماء! اصفحي عنّي يا وليّة نعمتي، فإنّني لن أعود، لن أعود مهما يكن الأمر. ما ألذّها ساعات يا مارغريت نيقولايڤنا! لقد طلب يدي. - وهنا راحت ناتاشا تنقر بإصبعها رقبة الخنزير اللاهث الخجول وأكملت:

- نعم لقد طلب يدي!. ماذا سمّيتني قُلْ؟، - وصاحت وقد انحنت فوق أذنه: ماذا سمّيتني قل؟!.

وزعق ذاك مجيباً:

- سمّيتك إلهة!. رجاءً لا أقدر أن أطير بمثل هذه السرعة. قد تضيع منّي أوراق هامّة.

أريد أن أحتجّ يا ناتاليا بروكوفيوڤنا.

فصاحت ناتاشا وقهقهت مجترئة:

ـ لتخطفك الشياطين وأوراقك الهامة!.

فقبع الخنزير متوسّلاً:

ـ بماذا تتلفَّظين يا ناتاليا بروكوفيوڤنا! قد يسمعوننا!.

وراحت ناتاشا تقصّ على مسامع مارغريت ما جرى في البيت، بعد أن غادرته سيِّدته وطارت من النافذة.

قصَّت ناتاشا تلك الحوادث الغريبة وهي تقهقه وتطير خبباً بمحاذاة مارغريت. اعترفت بأنَّها لم تلمس أيّة هدية من الهدايا التي تلقَّتها من سيِّدتها. اكتفت بأن نزعت عنها ثيابها وأخذت المرهم ودهنت منه في الحال. فحدث لها ما حدث لسيِّدتها من قبل. وفي الوقت الذي كانت فيه ناتاشا تقفز طرباً وسروراً مأخوذة مدهوشة بجمالها الساحر أمام المرآة، فُتح الباب، وبدا أمامها نيقولاي إيڤانوڤتش. كان مضطرباً، وقد حمل بين يديه قميص مارغريت نيقولايڤنا بالاضافة إلى قبّعته ومحفظته. وما أن رأى ناتاشا حتى تسمَّر في مكانه مذهولاً. وبعد أن عاد إليه هدوؤه واحمرّ لون وجهه حتى أصبح بلون السرطان، أعلن أنَّه رأى من واجبه إحضار القميص شخصيًّا. وأكملت ناتاشا وهي تقهقه زاعقة:

ـ ماذا لفظ الوغد!.. ماذا قال.. بِمَ أغوى! وبأيّة نقود وعد السافل! زعم أنَّ كلافديا پتروڤنا لن تعرف شيئاً. ماذا تقول الآن يا دنيء. أأكون كاذبة؟ ـ صاحت ناتاشا بالخنزير الذي اكتفى بأن أشاح بخطمه خجلاً.

وأكملت ناتاشا قصتّها. فبعد أن عَبَثَتْ بغرفة النوم ورَتَعَتْ بما فيه الكفاية، دَهَنَتْ نيقولاي إيڤانوڤتش بالمرهم. وذهلت من الدهشة. فقد تحوَّل وجه ساكن الطبقات السفلى، نيقولاي المبجَّل فجأة إلى خطم خنزير، وبدت يداه ورجلاه مزوَّدة بأظلاف. وما أن تأمَّل نفسه في المرآة حتى زعق زعقة يائسة همجية. لكنَّها لم تسعفه في شيء... لأنَّها صدرت بعد فوات الأوان. وبعد عدّة ثوانٍ كانت المطية قد جُهِّزت وأسرجت، وطارت مغادرة موسكو. إلى أين.. حتّى الشيطان لا يعرف إلى أين... أجل طار نيقولاي إيڤانوڤتش وهو ينتحب باكياً من هول المصيبة.

وفجأة شخر الخنزير ونخر لا متوسِّلاً ولا حانقاً:

ـ أطلب منكم أن تعيدوا لي طبيعتي الأصلية، فأنا لست ملزماً بالطيران مع جماعة خارجة على القانون!. مارغريت نيقولايڤنا أنت ملزمة بأن تضعي حدًّا لخادمتك.

وهتفت ناتاشا:

ـ خادمتك؟ أنا خادمة؟ ـ لفظت كلماتها وقرصت الخنزير في أذنه، وأكملت: كنت

إلهة؟ ماذا سمّيتني؟.

وأجاب العفر* بلهجة بكّاءة:

سمّيتك فينوس.. ـ نبس بكلماته وهو يعبر فوق نهر تتكسّر مياهه على الحصى. ولمس بأظلافه غرسة جوز فخشخشت.

ـ فينوس! فينوس! ـ صاحت ناتاشا مزهوة منتصرة. ووضعت يدها على خاصرتها. أمّا يدها الأخرى فمدّتها نحو القمر. وقالت:

ـ مارغريت! يا مليكتنا! تشفّعي لي كي أبقى ساحرة. إنّهم طوع إرادتك، وقد أوتيتِ سلطاناً مبيناً!.

فردّت مارغريت:

ـ حسناً أعدك بذلك!.

وصاحت ناتاشا:

ـ لكِ جزيل شكري. وراحت تصيح بوقاحة ممزوجة بالكآبة:

ـ هيّا! هيّا!.. أسرع. أسرع يا..!!.

وضغطت بكعبي رجليها جنبي الخنزير الضامرين، فانطلق يثب من جديد كالمجنون، شاقّاً عنان السماء، وبعد لحظات صارت ناتاشا تُرى في المقدمة كنقطة سوداء. ولم يعد تُسمع ضجّة طيرانها.

أمّا مارغريت فأكملت طيرانها بهدوء عابرة سماء صحراء مجهولة فوق هضاب مزروعة بالصخور الملساء النادرة الرابضة بين شجرات صنوبر منفردة.

وكانت مارغريت تفكّر بأنّها لا بدّ أصبحت في مكان بعيد عن موسكو.

حملتها المكنسة وعبرت بها فوق جذوع أشجار صنوبر فضّضها القمر من جانب واحد. الساحرة تطير ويزحف ظلها على الأرض أمامها. وفضّض ضوء القمر ظهرها. وحينما شعرت بأنّها تقترب من المياه أدركت بأنّ الهدف بات قريباً. وانكشفت أشجار الصنوبر. وعبرت مارغو بهدوء حتى وصلت إلى جرف طبشوري، انساب في ظلّه نهر وسنان.

وانتشر الضباب غامراً الأغراس في أسفل الجرف. أمّا الضفّة المقابلة فكانت مسطّحة ومنخفضة.

ارتعشت على تلك الضفة، وتحت ظلال الأشجار الوارفة نار وشوهدت أطياف تتحرّك. وبدا لمارغريت أنّ ثمّة موسيقى مضجرة تدندن مُنبعثة من ذلك المكان. وبعد ذلك لم تعد تلحظ العين في ذلك السهل الفضي أيّة علامات تدلّ على الحياة والناس.

* ذكر الخنزير.

وقفزت من أعلى الجرف إلى الهوّة وغطست بسرعة في المياه. لقد جذبتها المياه بعد تلك المطاردة في الهواء. فأبعدت عنها المكنسة وغطست في الماء ورأسها إلى أسفل. واخترق الماء جسدها الخفيف اختراق السهم. وعند هبوطها، ارتفع عمود ماء، بلغ القمر.

كانت مياه البحيرة فاترة كمياه الحمّام. وسبحت وعامت في مياه النهر كما لم تفعل في حياتها من قبل. ساعدتها الوحدة وظلام الليل الدامس.

لم يكن أحد بجوارها. لكن من مكان قريب من وراء الأغراس سُمع تصفيق وخفقان. كان ثمة أشخاص يسبحون.

ركضت مارغريت على الشاطىء وقد تورَّد جسدها من السباحة ولم تشعر بالوهن، بل بالعكس راحت ترقص فرحة على الأعشاب المبلّلة بالماء. وفجأة انقطعت عن الرقص واحتاطت متيقِّظة، إذ أنَّها سمعت خفقان ووقع أقدام آخذة في الاقتراب. ومن وراء غرسات الصفصاف بدا رجل سمين عارياً، يعتمر قبّعة من الحرير الأسود، أمالها حتى قذاله. كان يمشي في الوحل. وبدا بفردتي حذائه السوداوين وكأنَّه غطّاس. وإذا ما تأمّلناه مليّاً ورأيناه كيف يلهث ويحزّق لحكمنا علناً وجزمنا بأنَّه عاقر الخمرة حتى ثمل... وتؤكِّد حكمنا رائحة الكونياك التي فاحت من النهر.

وما أن رأى الرجل السمين مارغريت حتى راح يتأمّلها مليّاً، وصاح جذلاً مسروراً:

ـ ما هذا؟ من أرى أمام عيناي؟ هذا أنتِ يا كلودينا؟ أنت هنا أيتها الأرملة الكئيبة.

ـ لفظ السكّير كلماته، ودنا ليسلّم على مارغريت.

وتقهقرت مارغريت وأجابت مزهوّة:

ـ ليخطف الشيطان نفسك؟ أنا كلودينا؟ أيّة كلودينا هذه؟ انتبه واعرف من تكلّم؟. وبعد أن فكَّرت لحظة واحدة، أضافت إلى كلماتها جملة بذيئة طويلة أعادت الأرعن السمين إلى صوابه.

ـ آه!، هتف السمين مرتعشاً وأردف: اصفحي عنّي اصفحي عنّي الصفح جميل أيتها المليكة النورانية مارغو! لم أعرفك والذنب ذنب الكونياك، ألا لعنة الله على الكونياك!

وهنا ركع السمين على ركبة واحدة، ووضع القبعة السوداء جانباً وانحنى مقدّماً آيات الاحترام وتمتم مازجاً الكلمات الروسية بكلمات فرنسية. تمتم بتفاهات مخبراً عن عرس صديق له يُدعى غيسّار يعيش في باريس، وأنَّه كان عرساً دموياً وقد ارتكب غلطة فأحزنته فعلته تلك وكادت أن تسحقه.

فقالت مارغريت وقد لانت لهجتها:

ـ يا ابن الكلب إلبس بنطلونك على الأقل!.

ولّما رأى السمين أنَّ مارغريت لم تغضب منه كشَّر فرحاً وأعلن مبتهجاً أنَّه بدا عارياً في

اللحظة الحاضرة فقط لأنَّه ترك سهواً البنطلون على ضفة نهر الأنيسيه، حيث كان يستحمّ قبل أن يحضر لملاقاتها، وأنَّه سيطير الآن إلى ذلك المكان لأنَّه على بعد خطوتين، وبدأ يتقهقر بعد أن وطّد عرى المعرفة بينه وبين مارغو. وكادت أن تزلّ به القدم ويغطس في الماء. وحتى بعد أن سقط في الماء لم تفارق ابتسامة البهجة والانشراح الوجه ذو الفودين الصغيرين الكثّين.

أطلقت مارغريت صفرة ثاقبة، وسرجت المَكنسة الطائرة، وعبرت النهر إلى الضفّة المقابلة، تلك الضفّة التي لم يدركها ظلّ جبل الطبشور ولا غمرها القمر بضوئه.

وما أن داست مارغريت العشب المبتلّ بقدميها، حتى علت أنغام الموسيقى تحت أشجار الصفصاف، وتطايرت حزم الشرر من النار الملتهبة تحت الأفنان المزدانة بالعراجين الناعمة الموبرة الناظرة إلى ضوء القمر. وعلى صفّين جلست ضفادع سمينة، كانت تنتفخ كما لو كانت من المطّاط، كانت هذه الضفادع تعزف على مزامير خشبية «مارشاً» ناريّ الألحان. قطع أخشاب منخورة مشتعلة عُلّقت على أماليد الحور أمام الموسيقيين، أنارت لهم كُتب «النوطات»، وارتعشت على وجوه الضفادع أنوار خجولة مصدرها النار الملتهبة.

عُزف «المارش» تكريماً وتمجيداً لمارغريت، وكان ناريّ الألحان عميقاً بالمعاني ومهيباً. الحوريات الشفّافات تركن حلقة الرقص فوق النهر ولوّحن للضيفة بأعشاب المياه. وقد سُمعت في البعيد هتافات تحياتهنّ، وفوق الضفة الخضراء الفسيحة.

ووثبت الساحرات العاريات من وراء أشجار الصفصاف واصطففن وقد جلسن القرفصاء وانحنين مسلّمات كما هي العادة في بلاط الملوك. ودنا جدي من مارغو وقبّل يدها، وبسط فوق الحشائش بساطاً حريرياً واستوضح عمّا إذا كانت الملكة قد استحمّت جيّداً، عارضاً عليها أن تستلقي وترتاح.

وقبلت مارغريت عرض الجدي شاكرة، وافترشت بساط الحرير، وحمل إليها الجدي صينية عليها قدح من الشمبانيا، فشربت القدح فتسرّب الدفء إلى مفارق جسدها في الحال، وسألت عن ناتاشا فأجابوها بأنّ ناتاشا استحمّت منذ فترة، وطارت ممتطية خنزيرها متّجهة نحو موسكو لتبشّرهم بقدوم مارغريت وتساعد في تحضير الزينة والاستقبال.

وتميّز حضور مارغريت القصير تحت أشجار الصفصاف بعرض سلسلة من المشاهد: فقد انطلق صفير في الهواء، وظهر جسم أسود طائش وسقط في الماء.

وبعد لحظات مثل الرجل السمين ذاته أمام مارغريت، السمين صاحب الفودين الذي مرّ ذكره والذي فشل في مثوله أمامها في المرّة السابقة على الضفّة الثانية. وقد أفلح على ما يبدو في الانتقال إلى ضفّة (الإنيسيه)، لأنَّه كان مرتدياً (فراكاً) مبتلاً من رأسه إلى أخمص قدميه. ولعب الكونياك في رأسه من جديد. وبينما كان يحاول الجلوس سقط في الماء مرّة

ثانية، وفي هذه الحالة الحزينة أيضاً، لم تفارقه الابتسامة، وسمحت له مارغريت الضاحكة بتقبيل يدها.

والتأم شمل الجميع، وأكملت الحوريات رقصتهنّ في ضوء القمر، وما لبثن أن ذبن بالضوء، واستوضح الجدي بخشوع من مارغريت عن الآلة التي استخدمتها في مجيئها إلى النهر. ولمّا عرف أنّها أتت ممتطية مكنسة قال لها:

ـ لماذا أتيت بهذه الطريقة. هذه وسيلة غير مريحة. لفظ كلماته وبلحظة صنع جهاز تلفون عجيب من العود، وطلب بواسطته من إحدى الجماعات أن ترسل له حالاً شاحنة. وبالفعل نُفِّذ طلبه خلال دقيقة واحدة.

هوت في الجزيرة شاحنة مكشوفة فاتحة اللون. غير أنّه في المكان المخصَّص للقيادة جلس سائق لم تألفه العين. جلس غراب أسود المنقار، طويله، يعتمر قبعة من المشمَّع، ويلبس قفَّازات قمعية الشكل.

وترك الجزيرة زوَّارها! ذابت الساحرات المجنّحات في ضوء القمر المتلألىء، وخمدت النار الملتهبة وانطفأ الجمر تحت الرماد الشائب.

أجلس الجدي والرجل السمين مارغريت على المقعد المريح فتمدَّدت مسترخية. وأزَّت الشاحنة واثبة صعوداً نحو القمر. وزالت الجزيرة واندثر النهر، وانتقلت مارغريت إلى موسكو.

الفصل الثاني والمشرون

في ضوء الشموع

وهدهدت السيَّارة الطائرة فوق الأرض بأزيزها الرتيب مارغريت، وحباها ضوء القمر بالدفء اللذيذ. مغمضة عينيها مُسلِّمةً وجهها للرياح تسفعه من كل جانب، راحت بطلتنا تفكِّر وقد اكتنفها الحزن. راحت تفكِّر بالضفة المجهولة وقد فارقتها ولن تكتحل عيناها برؤيتها بعد الساعة. حدَّثتها مشاعرها بهذا. وبعد عجائب وخوارق أمسية ذلك اليوم، حزرت إلى أين ينقلونها ومن ستستضيف، ولم تخف.

الأمل بلقاء الحبيب وباستعادة السعادة المفقودة منحها الشجاعة والقوّة، غير أنَّه لم يُتح لها التفكير طويلا وهي في الشاحنة، بتلك السعادة المنشودة المفقودة.

أكان الغراب سائقاً ماهراً، أم أنَّ الشاحنة كانت جيِّدة وسريعة، المهمّ أنَّ مارغريت ما أن فتَّحت عينيها حتَّى رأت تحتها، بحيرة النيران الموسكوبية ترتعش، بدلاً من ظلمة الغاب. حلَّ الغراب الأسود (سائق الشاحنة) عمداً الدولاب الأوّل لجهة اليمين، وبعد ذلك انتحى بالشاحنة مكاناً بعيداً في مقبرة مهجورة تقع في حيّ (دوردغيميلاڤا). وأنزل مارغريت ومكنستها قرب شاهدة أحد القبور، دون أن يسألها عن شيء. وعاد الغراب بعد ذلك وأدار الشاحنة ووجّهها إلى الأمام، نحو وادٍ وراء المقبرة، فسقطت في أعماقه وتحطَّمت وكان دويّ سقوطها عظيماً. وأدَّى الغراب التحيّة العسكرية بإجلال وأُبّهة وامتطى الدولاب وطار. وفي الحال تبدَّى مبذل أسود من وراء قبر ولمع ناب في ضوء القمر. وعرفت مارغريت في صاحب الناب عزرائيل. وبإيماءة دعاها لتمتطي المكنسة. أمَّا هو فقد قفز فوق حربة طويلة وامتطاها، وحلَّق الاثنان في السماء دون أن تلحظهما عين إنسان. حلَّقا لينزلا بعد ثوانٍ معدودة بالقرب من البيت رقم ٣٠٢ (ب. ي. ث) في شارع (السادوڤايا).

وحينما عبر الرفيقان الكوّة وهما يتأبَّطان الحربة والمكنسة، لمحت مارغريت رجلاً منهكاً يعتمر قبّعة وينتعل أحذية سوقاء، ربَّما كان ينتظر شخصاً ما.

وبالرغم من أنَّ خطوات مارغريت وعزرائيل كانت خفيفة الوقع فقد أحسَّ بها الرجل. المنهك الوحيد، وارتعش مضطّرباً، دون أن يعرف صاحبها ومصدرها. وعند المدخل السادس لقيا إنساناً ثانياً يشبه الأوّل إلى حدٍّ يثير التعجّب. وتكرَّرت القصّة من جديد: خطوات... وإنسان يلتفت مضطّرباً ويعبس.

وحينما فُتح الباب وأُغلق، اندفع الرجل متتبّعاً أثر الزائرين المحجوبين عن النظر. تأمّل المدخل، ولكنّه لم يرَ أحداً بالطبع.

أمّا الرجل الثالث، والذي كان نسخة طبق الأصل عن الثاني وبالتالي عن الأوّل، فقد كان يُناوب فوق مصطبة الطابق الثالث. كان يدخّن سجائر، حامية التبغ، فسعلت مارغريت وهي تمرّ من أمامه. وقفز المدخّن من فوق المقعد الذي كان يجلس عليه، كمن نهشته أفعى، وشرع يتأمّل حوله مضطرباً ودنا من الدرابزين ونظر إلى تحت.

في هذا الوقت كانت مارغريت ومرافقها أمام باب الشقّة رقم ٥٠، ولم يكبسا على الجرس، فقد فتح عزرائيل الباب بمفتاحه وبدون أدنى ضجّة.

ما أدهش مارغريت: تلك الظلمة السائدة، الظلمة الدامسة التي حجبت الأشياء وكأنّها صاعدة من أعماق الأرض، فما كان منها إلاَّ أن تشبّثت عفوياً برداء عزرائيل خوفاً من أن تتعثّر وتقع. لكن غير بعيد من المكان ارتعشت نار خفيفة، نار مصباح آخذة في الاقتراب. وسحب عزرائيل من تحت إبط مارغريت المكنسة فاختفت في الظلمة دون جلبة. ثم راحا يصعدان درجات سلّم عريض، درجات بدت أنّها بلا نهاية. وأذهل مارغريت كيف يمكن لمدخل شقّة موسكوبية عادية أن يتّسع لمثل هذا الدرج الهائل، المحجوب، والملموس المحسوس في آنٍ معاً. وسرعان ما انتهى صعودها. ورأت مارغريت نفسها تقف في الرواق. وهنا اقتربت النار الصغيرة وأصبحت على بعد مسافة قريبة جداً، وبدا وجه رجل طويل أسود وقد أضاءته ألسنة اللهب، وكان يحمل في يده المصباح: مصدر تلك الأنوار.

حتى البائسين الذين يقودهم حظّهم التعيس إلى بين يديه في هذه الآونة، حتى هؤلاء لو رأوه، ولو في ألسنة النور الضعيفة، لعرفوا فيه في الحال كرڤيوڤ أو بيغموت.

والحق يُقال إنّ مظهر كرڤيوڤ قد تغيّر كثيراً. لم تنعكس النار الصغيرة المتلألئة على العدسة المتصدّعة والتي آن لها أن تُطرح في حفرة الأقذار، إنّما انعكست على (المونوكل) الذي كان متصدّعاً أيضاً.

كان الشاربان في الوجه الوقح مفتولين ومدهونين «بالكسموتيك»، أمّا سبب اللون الأسود فلأنّه كان مرتدياً «الفراك». صدره كان أبيض فقط.

كبير السحرة، شيخ المرتّلين، المترجم، ربّ الألاعيب والفنون أو صاحب الشخصيّة التي لا يدرك كنهها ولا سبر غورها سوى الشيطان وحده، باختصار: كرڤيوڤ، انحنى مُسلّماً ولوّح بالمصباح في الهواء، داعياً مارغريت لتتبعه. أمّا عزرائيل فتوارى عن العيان.

وفكّرت مارغريت بينها وبين نفسها: «لقد انتظرت كلّ شيء إلاَّ هذا. أتكون قد انطفأت أنوار الكهرباء في ديارهم؟ وهذا البيت الرحب، الهائل، بمساحته ألا يدعو إلى الدهشة حقّاً؟!.. كيف وبأيّة طريقة تتسع شقّة موسكوبية لمثل هذا البيت الفسيح الجنبات؟

مسألة عجيبة، عجيبة. ورغم أنّ النور الذي انبعث من مصباح كرڤيوڤ الصغير كان شحيحاً، فقد أدركت مارغريت أنّها في قاعة رحبة عالية السقف، منتصبة الأعمدة، مُعتمة، وتبدو للوهلة الأولى رحبة واسعة.

وتوقّف كرڤيوڤ بمحاذاة ديوان صغير، ووضع مصباحه فوق منضدة صغيرة، وأشار على مارغريت أن تجلس، أمّا هو فاتّكأ على المنضدة متّخذاً وضعية تناسب ريشة الفنّانين. وقال بصوت خافت:

- اسمحي لي أن أقدّم لك نفسي: كرڤيوڤ. لا بدّ أنّ العتمة تدهشك والمصابيح المطفأة؟ ربّما فكّرتِ بأنّنا فعلنا هذا بقصد التوفير!؟. لكن، لا، لا. وليقطع أوّل جلاّد قادم إلينا رأسي فوق هذه المنضدة إذا كان الأمر كذلك. أجل ليقطع أوّل جلاّد رأسي وحتى ولو كان من أولئك الذين سيمثلون أمامك ويتشرّفون بالركوع عند قدميك في سويعة متأخّرة من هذا المساء.

المسألة هي أنّ السيِّد لا يحبّ الأنوار الكهربائية. لكنّنا سنضيء القاعة في اللحظة الأخيرة، وحسبما أظن، فسيكون الضوء كافياً ولو كانت كميّته قليلة.

وراق كرڤيوڤ لمارغريت، ثرثرته الرنّانة أثّرت فيها تأثيراً حسناً وهدّأت من روعها، فأجابت:

- لا.. ليس هذا ما يدهشني، ما يذهلني هو كيف تسع الشقّة...- قالت هذا ولوّحت بيدها مشيرة إلى رحابة القاعة.

وارتسمت على شفتي كرڤيوڤ ابتسامة لطيفة، اختلجت على أثرها الثنايا عند الأنف وأجاب:

ليس بعسير على من يعرف البعد الخامس أن يكبّر القاعة حسبما يرغب ويشاء. وأقول لك أكثر من ذلك يا سيِّدتي المبجّلة، بأنّه قادر على أن يكبّرها حتى بأكبر المقاييس! وأنا عرفت أناساً لا يملكون أيّة مفاهيم عن البعد الخامس، ومع ذلك صنعوا عجائب مدهشة في مجال توسيع البيوت والشقق. فثمّ مواطن - كما رووا لي - سُلِّم شقّة من ثلاث غرف عند عمود (زميلاني)، وبدون مفاهيم عن البعد الخامس والمسائل الأخرى التي تأخذ العقل، وبسرعة خاطفة، حوّل هذا المواطن شقّته إلى شقّة بأربع غرف، وذلك بأن قسم كل غرفة إلى نصفين. وبعد ذلك بدّل هذا المواطن شقّته تلك بشقّتين منفردتين في حيين مختلفين من أحياء موسكو: شقّة من ثلاث غرف وشقّة من غرفتين. وإنّك لا بدّ موافقة على أنّه أصبح يملك خمس غرف.

ولم يكتفِ بذلك، بل عاد وبدّل الشقة ذات الثلاث غرف بشقّتين كلّ شقّة فيها غرفتان. وهكذا أصبح يملك، كما ترين، ست غرف، ولو أنّها موزّعة بشكل فوضوي في

كلّ أحياء موسكو . هذا ، وما أن استعدَّ ليضرب ضربته الأخيرة القاضية ووضع في الجريدة إعلاناً عن تبديل ست غرف في أحياء مختلفة من موسكو بشقّة من خمس غرف في (زملياني ڤال) ، قلنا ما أن استعدّ ليضرب الضربة القاضية حتى تقلّص نفوذه وزال سلطانه ، لأسباب غير عائدة إليه . لا بدّ أنَّه يملك الآن غرفة بالتأكيد في مكان بعيد عن موسكو... هاكي... غشّاش ، تاجر شقق ! .. وأنت تتحدّثين عن البعد الخامس ! . ومع أنَّ مارغريت ما تحدّثت قطّ عن هذا البعد ، وإنّما كان المتحدّث الشارح عنه هو كرڤيوڤ وحده ، مع ذلك ضحكت ملء فيها وهي تسمع قصّة مغامرات تاجر الشقق . أمّا القاص فأكمل قائلاً :

ـ هيّا بنا ! هيّا بنا ! لنبادر إلى العمل يا مارغريت نيقولايڤنا . أنت إمرأة ذكيّة جدّاً . ولا شكّ أنّك حزرت من يكون سيّدنا ! .

ووجف قلب مارغريت وأطرقت :

أمّا كرڤيوڤ فأكمل :

ـ أجل .. نحن أعداء كلّ الأسرار والتكتّم . أخبرك بأنَّ السيّد يقيم كل عام حفلة . اسمها حفلة : الربيع ـ البدر ، أو حفلة المئة ملك ، يقيمها للشعب !... وهنا جذب كرڤيوڤ المكنسة إليه وبدا كما لو أنَّ سنّه أوجعه ـ وأردف قائلاً :

ـ آمل أن تقتنعي بهذا ... والسيّد أعزب مثلك ، لا شك أنّك فهمتِ بأنّنا بحاجة إلى ربّة بيت ـ وهنا بسط كرڤيوڤ يديه ، وأكمل : توافقين أنّه بدون ربّة بيت ...

واستمعت مارغريت إلى كلمات كرڤيوڤ محاولة أن لا تدع كلمة وحدة من حديثه تفوتها . وسرت قشعريرة برد تحت قلبها . تأمّلت بأن تحظى بطائر السعادة وثَقُلَ الرأس بذيّاك الأمل .

وأكمل كرڤيوڤ :

وقد جرت العادة أن تحمل ملكة الحفلة اسم مارغريت أوّلاً ، وأن تكون موسكوبية الأصل ثانياً . ونحن كما ترين في حلٍّ وترحال ، نجول في أقطار الأرض ، وفي الوقت الحاضر حللنا ضيوفاً على موسكو ، ووجدنا في هذه المدينة مئة وإحدى وعشرين مارغريت . وصدّقيني أنّنا لم نجد واحدة مناسبة بينهنَّ . ـ وهنا ضرب كرڤيوڤ بيده على فخذه قانطاً ـ وأخيراً أنت صاحبة الحظّ السعيد فيا لقدرك العظيم !

وابتسم كرڤيوڤ ابتسامة غنية بالمعاني وهو يحني قامته .

ومن جديد سرت قشعريرة برد في قلب مارغريت .

وهتف :

ـ باختصار ! باختصار ! قولي أترفضين القيام بهذه المهمة ؟ أم تراكِ ترضين بها ؟ .

وأجابت مارغريت بحزم :

ـ أقبل.

ـ طبعاً تقبلين. ـ قال هذا ورفع المصباح وخاطبها بقوله:

ـ أرجوك أن تتبعيني.

ومشيا بين الأعمدة ودلفا إلى قاعة ثانية، كانت تفوح منها رائحة الليمون. وسُمع همس، وشيء ما مسَّ رأس مارغريت فارتجفت.

وهدّأ كرفيوف من روعها ملاطفاً:

ـ لا تخافي، إنَّها ألاعيب بيغموت. تمارين ما قبل الحفلة ليس غير، هذا وإنَّني أسمح لنفسي متشجّعاً وأنصحك يا مارغريت نيقولايفنا بأن لا تخافي شيئاً أبداً. الخوف نقص وعجز. ولا أخفي عليك بأنَّ الحفلة ستكون زاهرة وعامرة. وسيستضيفنا أناس كانوا يحسبون في زمانهم الماضي من عظماء وكبار هذا العالم، وكان لهم سلطان على الأعناق والأرزاق، أمّا الآن فما أن يفكّر المرء بامكانياتهم الضئيلة قياساً إلى قدرات العصابة التي لي شرف ترؤسّها حتى يضحك ويبكي في آن. وقد قيل شرّ البليّة ما يضحك... هذا، وينبغي أن تعلمي يا سيِّدة مارغريت: أنَّ في عروقك تسري دماء ملكيّة نبيلة.

وهمست مارغريت خائفة وهي تلتصق بكرفيوف:

ـ ويحي! من أين أتتني الدماء الملكيّة النبيلة!.

وهمهم كرفيوف مداعباً:

مليكتي!... إنَّ مسائل الدم هي أكثر المسائل تعقيداً في هذا العالم!. وإذا ما استوضحنا بعض الجدّات وخاصة اللواتي يتمتّعن بالتواضع والسلوك الحسن لتكشّفت أسرار عجيبة وغريبة. نعم كم وكم من الأسرار والخفايا كانت ستُكشف يا سيِّدتي المبجّلة مارغريت نيقولايفنا. وتراني لن أرتكب إثماً كبيراً إذا ما تذكّرت ورق اللعب المخلوط بمهارة وفنّ. ثمّة مسائل لا تخضع لقوانين الفوارق الطبقية ولا للحدود الفاصلة بين الدول... هاكي مثلاً: ملكة من ملكات الفرنسيين عاشت في القرن السادس عشر، أعتقد أنَّها ستدهش إذا ما أخبرت أنَّ حفيدة حفيدتها وهي إمرأة رائعة الجمال، سأتأبّط بعد مرور أعوام طويلة، ذراعها، وسترافقني في قاعات الحفلات بمدينة موسكو... وها نحن قد وصلنا!...

وأطفأ كرفيوف مصباحه، الذي ما لبث أن سقط من يده على الأرض. ورأت مارغريت حزمة من الضوء تنتشر أمامها تحت باب معتم.

وقرع كرفيوف الباب بهدوء، واضطربت مارغريت وبلغ بها الخوف مبلغاً كبيراً. وتمشّت في مفاصل جسدها قشعريرة برد وصرَّت أسنانها.

فُتح الباب وبدت غرفة صغيرة، رأت مارغريت فيها سريراً عريضاً مصنوعاً من خشب السنديان وعليه شراشف مدعوكة وموسّخة ووسادة. وانتصبت أمام السرير طاولة من

خشب السنديان ذات أرجل منقوشة ومزخرفة. ووضع فوق الطاولة شمعدان مُلِء أعشاشاً بشكل قوائم العصافير. وفي القوائم الذهبية السبع أضاءت سبع شمعات ثخينة. وبالاضافة إلى ذلك كان على الطاولة لوحة شطرنج كبيرة وأشكال مصنوعة بمهارة فائقة. وفوق سجّادة نظيفة وصغيرة انتصبت منضدة خفيضة، وثمّة طاولة أخرى انتصب فوقها قدح ذهبي وشجرة تفرّعت أغصانها. وكان جوّ الغرفة رطباً وقد فاحت منه رائحة القطران بشكل افعواني.

وكانت ظلال الشمعدانات تُرى وقد تقاطعت على الأرض. وعرفت مارغريت من بين الحاضرين عزرائيل، الذي كان مرتدياً الفراك ويقف بمحاذاة ظهر السرير.

وكان هذا بملابسه الجديدة الفاخرة لا يشبه من قريب ولا من بعيد ذلك اللص الذي تراءى لها في حديقة (ألكسندروڤسكي)، خاصّة وقد سارع إلى الانحناء أمامها بلياقة ولطف تامين.

العرّافة العارية (هيلاّ)، التي أخافت عامل المقصف المبجّل، نعم تلك التي (لحسن الحظ) أخافها الديك ليلة تلك الحفلة المشهورة، تراها الآن جالسة على سجّادة صغيرة على الأرض قرب السرير، وهي تحرّك الطعام في طنجرة يتصاعد منها بخار حار.

وكان في الغرفة قط أسود هائل الحجم، جثم فوق مقعد عالٍ، أمام طاولة الشطرنج، وهو يمسك في قائمته اليمنى الحصان. ونهضت (هيلاّ) وانحنت مُسلِّمة، وحذا القط حذوها ووثب من فوق مقعده العالي وهو يخفق بقائمته الخلفية. ووقع الحصان على الأرض فاندسَّ تحت السرير ليلمّه.

رأت مارغريت المرعوبة كل هذا، في ظلال الشموع القلقة.

لفت انتباهها السرير... السرير ذاته الذي كان يتمدَّد فوقه الشخص الذي حاول إيقان المسكين إقناعه يوماً، بعدم وجود الشيطان... هذا الكائن غير الموجود (الشيطان) متربّع الآن فوق سرير المرحوم، يحدّق بعينيه الاثنتين في وجه مارغريت. كانت تنبعث من سواد العين اليمنى شرارات ذهبية ثاقبة تسبر غور الإنسان الناظر إليه.

وكانت العين اليسرى فارغة سوداء، تشبه ثقب الابرة الضيّق، أو بوّابة بئر عميقة الأغوار، بئر ظلال وظلمات. كان وجه ڤولند مائلاً إلى جهة واحدة. وزاوية الفم اليمنى مشدودة إلى أسفل. والحواجب النحيفة ثلمت التجاعيد المتوازية في الجبهة الصلعاء العريضة.

وكانت بشرة وجهه سوداء وكأنّما لوّحتها الشمس بأشعّتها مرّة واحدة وإلى الأبد.

وكان يتربّع فوق السرير مسترخياً، في مبذل طويل، موسّخ ومرمي على الكتف الأيسر. طوى إحدى رجليه العاريتين تحته، والرجل الثانية مدّها فوق المنضدة. وكانت (هيلاّ) تدهن ركبته الممدودة بمرهم يتصاعد منه الدخان.

ورأت مارغريت على صدر ڤولند المكشوف الأجرد جُعلاً مصنوعاً بمهارة وفنٍّ فائقين، جُعلاً من حجر كريم قاتم اللون، معلَّقاً في سلسلة ذهبية وقرأت كلمات ما محفورة على ظهر الجُعل.

وبجواره فوق السرير، على قاعدة ثقيلة الوزن، استقرَّت كرة أرضية غريبة الشكل وكأنَّها حقيقية أنارتها الشمس من جانب واحد.

وساد الصمت ثواني معدودة، وفكَّرت مارغريت بينها وبين نفسها: «إنَّه يدرسني». ومشدِّدة عزيمتها حاولت أن تتغلَّب على مخاوفها وقد سرت في رجليها رعشة الذعر.

وأخيراً تكلَّم ڤولند وهو يبتسم، فبدا وكأنَّ عينه المتلألئة ومضت.

ـ تحيَّاتي للملكة. أرجو المعذرة على استقبالي لك بملابس النوم. وكان صوته خفيفاً لدرجة أنَّه تلفَّظ بكلماته على مهل وببحَّة، ثم تناول من الفراش حربة طويلة، أمالها محرِّكاً فوق السرير وقال:

ـ أخرج. قَدِمَ الضيف، ولا بدّ من تبديل اللعب.

وصفَّر كرڤيوڤ قلقاً في أذن مارغريت، كمن يلقِّنها الكلام تلقيناً:

ـ ولا في أي حال..

وهتفت مارغريت معيدة:

ـ ولا في أي حال.

وهمس كرڤيوڤ في أذنها:

ـ السيِّد...

وأجابت مارغريت بوضوح وهدوء مستدركة: ولا في أي حال يا سيِّد، أتوسَّل إليك بأن لا توقف اللعب. أعتقد أنَّ مجلاَّت الشطرنج تدفع مبالغ كبيرة من المال، لو يُتاح لها أن تطبع على صفحاتها أسرار اللعبة هذه.

وتنحنح عزرائيل مثنياً، أمَّا ڤولند فقد أخذ يتأمَّل مارغريت ويدرسها. وعلَّق قائلاً وكأنَّه يخاطب نفسه:

ـ نعم كرڤيوڤ على حقّ! كيف يخلط ورق اللعب، بمهارة مذهلة، المهنة في دمه. شاطر ماهر... قال هذا ومدَّ يده مشيراً إلى مارغريت أن تقترب منه. فما كان منها إلاَّ أن أذعنت لرغبته ودنت منه، ولم تحسّ بأرض الغرفة تحت قدميها الحافيتين.

ووضع ڤولند يده الثقيلة على كتف مارغريت، يده الساخنة والقاسية قسوة الحجارة الملتهبة، وجذبها إليه وأجلسها قربه على السرير، وخاطبها قائلاً:

ـ ما أنت عليه من السحر والروعة واللطف كافٍ.. ولا حاجة لأروع وأبهى من جمالك.. ولنتكلَّم بلا مجاملات ـ وهنا انحنى ڤولند من جديد فوق حافّة السرير وهتف:

ـ أسيمكث هذا الماجن طويلاً تحت السرير ؟ أخرج أيها الماكر الملعون!.

وردّ القط من تحت السرير بصوت مخادع، ودود النبرات:

ـ لم أجد الحصان، إنّه مرمي بعيداً، ورأى ضفدعة عوضاً عنه.

وسأل ڤولند، متكلّفاً الغضب.

ـ أتظن نفسك في السوق؟ من أين أتت الضفادع إلى تحت السرير. دع عنك هذه الألعاب الهزلية. دعها لمسرح (الڤاريته). وإذا لم تظهر في الحال، فإنّنا نعتبر أنّك عجزت واستسلمت أيها الهارب الملعون.

ـ لن أستسلم يا سيِّد مهما يكن الأمر.

صاح القط وفي الثانية نفسها خرج من تحت السرير ممسكاً الحصان في قائمته.

ـ أنصحك بـ ... بهذا أراد ڤولند أن يبدأ حديثه لكنّه سرعان ما قاطع نفسه بقوله: لا ما بقدرتي أن أرى هذا الماجن الخليع. بالله عليكم انظروا إلى ما فعله بنفسه تحت السرير ؟!.

في غضون ذلك انتصب القط على قائمتيه الخلفيتين وقد لطخه الغبار، وانحنى مسلّماً أمام مارغريت.

وظهر القط وقد عقد حول رقبته ربطة عنق، وزيَّن صدره بمنظار نسائي، علّقه بسير، وكان شارباه مذهّبين.

وهتف ڤولند:

ـ ماذا فعلت؟ ولماذا طليت شاربيك بالذهب، وما حاجتك إلى ربطة العنق طالما أنَّك لا ترتدي بنطلونا؟.

فأجاب القط باعتداد وزهو كبيرين:

ـ لا يليق بالقط أن يلبس بنطلوناً يا سيِّد!، ربَّما أمرتني بانتعال الأحذية أيضاً؟ في الحكايات وحدها تنتعل القطط أحذية يا سيِّد. لكنّني أسألك هل رأيت في حياتك شخصاً يذهب إلى حفلة بدون ربطة عنق. من جهتي أنا غير مستعدّ أن أظهر في يوم من الأيام دون ربطة عنق، وأكون بالتالي مدعاة لسخرية الناس، ولا حتى أن أخاطر بأن أطرد ممسوكاً بخناقي! كلٌّ يزيِّن نفسه حسب مقدرته. يمكنك يا سيِّد أن تعتبر أنَّ كلامي يعني المنظار أيضاً.

ـ والشوارب؟

فردَّ القط بجفاء:

ـ أنا لا أفهم كيف يُسمح لكرڤيوف وعزرائيل أن يطليا وجهيهما بالبودرة البيضاء بعد الحلاقة، وأنا لا يمكنني أن أطلي شاربي بالذهب. وهل تكون البودرة البيضاء أفضل من

الذهب وبأي شيء؟. لو حلقت ذقني لكان للحديث معنى آخر. ولكنت طليت شاربي بالبودرة! لكن قطّ وحليق الذقن!، هذه مسألة قبيحة فعلاً، وغير لائقة. إنّني أقرّ بهذا، لكن لا وألف لا لحلاقة ذقن القط. لكنّني أرى أنّهم يضيّقون عليّ بدون ذنب وأمامي قضيّة جديّة ـ وهنا ارتعشت نبرات صوت القط استياءً وأكمل: ـ مسألة جديّة: هل سيُسمح لي بحضور الحفلة؟ وماذا سيكون رأي السيِّد في هذه القضية؟

وانتفخت أوداج القطّ من الغضب وبدا أنّه عمّا قليل لا محالة منفجر.

وقال ڤولند هازّاً رأسه:

ـ يا للمحتال ما أن يحسّ نفسه في موقع الخاسر حتى يبدأ بتغيير الموضوع، دون أي خجل، شأنه شأن أي مشعوذ صعلوك؛ اجلس، اجلس حالاً ودع عنك هذه السفسطة الكلامية.

وردَّ الهرّ وهو يجلس:

ـ ها إنّني أجلس لكنّني أعترض على ما قلته، فحديثي ليس سفسطة لغوية كما ادَّعيت أمام السيِّدة. إنّما هو مجموعة نتائج منطقية عقلية متماسكة مرصوصة يجلّها كثيرون من الحصفاء والعلماء أمثال (سكس أمبيريكيس ومارنيوس كاپلا) وحتى أرسطو ذاته؟.

وقال ڤولند:

ـ الوزير ضد الشاه.

فأجاب القط وهو ينظر إلى اللوح بالمنظار:

ـ حسناً، حسناً.

وكلّم ڤولند مارغريت قائلاً:

حسناً... سيِّدتي (دونّا)، أقدِّم لك أفراد عصابتي.. كبير الحمقى: القط، بيغموت، وقد تعرَّفت على عزرائيل وكرڤيوف. وخادمتي (هيلاً)، النشيطة، الأريبة، والتي لا يعيقها شيء عن تأدية واجباتها على أكمل وجه.

وابتسمت الحسناء (هيلاً) موجّهة نحو مارغريت عينيها الخضراوين وواصلت دهن ركبة سيِّدها بالمرهم.

وأكمل ڤولند:

هؤلاء هم أفراد عصابتي. مجتمع كما ترين صغير وخليط ساذج. ـ وعبَسَ حينما شدَّت هيلاً بقوة على ركبته ـ وبعد تقديم الرفاق، سكت ڤولند، وراح يدير كرته المصنوعة بفنٍّ مذهل، بحيث أنّه ما أن حرّكها حتى ترجرجت مياه المحيطات الزرقاء وكأنّها مياه حقيقية، وكذلك بدت الطبقات القطبية وكأنّها من ثلج وجليد حقيقيين.

في غضون ذلك حدث انقلاب على لوحة الشطرنج. الشاه المعتكر المزاج تململ بردائه

الأبيض، وراوح في مربَّعه رافعاً يديه يأساً. ثلاثة بيادق بيض، جنود مسلَّحون بالفؤوس رموا بنظراتهم الزائغة الضابط الذي كان يلوِّح بحربته مومِئاً إلى الأمام، حيث يُشاهد في المربَّعات المتلاصقة البيضاء والسوداء فارسان من فرسان ڤولند على متن حصانين جامحين يضربان بحوافرهما المربّعات.

وما أذهل مارغريت وأثار انتباهها هو أنَّ بيادق الشطرنج المتحرِّكة كانت كائنات حيّة حقيقية.

بعد أن أبعد القط المنظار عن عينيه، دفع «شاهه» من ظهره بهدوء إلى الأمام، فما كان من (الشاه المدفوع) إلاَّ أن حجب وجهه بيديه يأساً.

وقال كرڤيوڤ بصوت خفيض ساخر النبرات:

ـ الحالة سيّئة يا عزيزي بيغموت.

فردَّ بيغموت:

ـ الوضع دقيق، غير أنَّه لا يدعو إلى اليأس. وعدا عن ذلك فكلّي ثقة بالنصر النهائي، وإنَّما يجب تحليل الوضع جيِّداً.

وشرع بيغموت يحلِّل بطريقة غريبة عجيبة، وراح يصعِّر وجهه ويكشِّر غامزاً «الشاه». فعلَّق كرڤيوڤ:

ـ لن يسعفك عملك هذا بشيء.

وهتف بيغموت:

ـ آي.. طارت الببغاوات! كما سبق وأخبرت!..

وفعلاً في مكان ما، في البعيد، سمع خفقان آلاف الأجنحة. فركض كرڤيوڤ وعزرائيل إلى الخارج لينظرا ما حدث. ودمدم ڤولند دون أن يتحوَّل عن كرته:

ـ ليأخذكم الشيطان وتدابيركم.

وما أن اختفى كرڤيوڤ وعزرائيل حتى اشتدَّت غمزات بيغموت. وأخيراً حزر الملك الأبيض ما يُراد منه، فإذا به يطرح عنه الرداء فجأة فوق أرض المربّع ويركض خارجاً من لوحة الشطرنج. وما كان من الضابط إلاَّ أن ارتدى لباس الملك المرمي وشغل مكانه على اللوحة.

وسرعان ما عاد كرڤيوڤ وعزرائيل.

ودمدم الأخير وهو ينظر شزراً إلى بيغموت:

ـ خداع وأكاذيب، تعوَّدناها!.

فأجاب القط:

ـ خانني السمع.

وسأل ڤولند :

ـ أستستمر هذه اللعبة طويلا ؟ الوزير ضد الشاه.

فأجاب القط :

ـ لم أسمع جيِّداً يا معلِّمي. الوزير ضد الشاه. هذا غير ممكن أبداً.

ـ أكرِّر : الوزير ضد الشاه.

وردَّ القط بصوت ماكر مُتهدِّج النبرات :

ـ إنَّك لا بدَّ مرهق يا سيِّد. لا يوجد وزير ضد الشاه.

فردَّ ڤولند دون أن ينظر إلى لوحة الشطرنج :

ـ الشاه فوق المربَّع : ج ٢.

فزعق القط وقد ارتسمت ملامح الذعر على خطمه :

ـ أنا في داهية يا سيِّد. لا أثر للشاه فوق هذا المربَّع.

فسأل ڤولند حينذاك مرتبكاً :

ـ ماذا ؟ ـ ثم راح ينظر إلى لوحة الشطرنج حيث كان على المربَّع الملكي يقف ضابط مُشيحاً ومُغطِّياً وجهه بيده.

وقال ڤولند وقد استرسل في تفكير عميق :

ـ إنَّك وأيم الحق لوغد زنيم!

ـ سيِّدي : إنَّني أحكِّم المنطق من جديد ـ قال القط هذا وألصق قوائمه بصدره وأكمل : إذا ما أعلن اللاعب أنَّ الوزير ضد الشاه، والشاه في خبر كان، فمعنى هذا أنَّه لا أثر للوزير أيضاً...

وصرخ ڤولند بصوت مخيف : ـ قل أتستسلم أم لا ؟

فأجاب القط مذعناً :

ـ امنحني فرصة للتفكير. ـ قال هذا وارتفق الطاولة وغمر أذنيه بقائمتيه واستسلم للتفكير. وبعد تفكير طويل هتف أخيراً : أسلِّم.

وهمس عزرائيل :

ـ قُتِل المخلوق العنيد...

وقال القط :

ـ نعم، أستسلم لأنَّني غير قادر أن ألعب في أجواء مشحونة بالاضطهاد الذي يدبِّره الوشاة والحاسدون.

تلفَّظ القط بكلماته ونهض، أمَّا الأشكال الشطرنجية فتسلَّلت إلى داخل الصندوق.

وقال ڤولند :

ـ أوانك يا هيلاً. واختفت الأخيرة. أمَّا ڤولند فأكمل: تُسبِّب لي رجلي آلاماً شديدة. والحفلة ستقام هذا اليوم. وتوسَّلت مارغريت بهدوء: اسمح لي يا سيِّد. وهنا حدجها ڤولند بنظرة ثاقبة وأدنى ركبته منها.

الركبة الساخنة سخونة الطمي البركاني أحرقت يد مارغريت، فلم تعبس أو تتأفَّف، بل راحت تدهنها بصبر دون أن تشعر بوجع.

وقال ڤولند دون أن يحوِّل نظره عن ضيفته:

يؤكِّد المقرَّبون أنَّ هذا داء المفاصل، لكن حسبما أعتقد أنَّ هذا المرض هو ذكرى عرَّافة رائعة ربطتني بها وشائج مودّة في سنة ١٥٧١ في جبال بروكنسكي في فرع العلوم الإبليسية.

وهتفت مارغريت:

ـ واهاً!! أيمكن لهذا أن يكون!.

ـ هُراء... بعد ثلاثمئة عام ويزول الوجع. لقد نصحوني بالعديد من الوصفات الطبية، لكنَّني ملتزم بالقديم، بوصفات الجدَّات. لقد تركت جدَّتي المنحوسة، من جملة ما تركت من إرث، أعشاباً مدهشة المفعول. بالمناسبة أسألكِ هل يؤلمك شيء؟ أثمّة غمامة حزن سوداء في سماء نفسك، أم كآبة موجعة أو همّ على القلب؟

وردَّت مارغريت الذكية:

ـ لا يا سيّد!. لا شيء من هذا أبداً. والآن كوني عندك تراني بأحسن حالاتي وأهنأها.

ـ حقًّا إنَّ مسألة الدم لمسألة عظيمة، قال ڤولند كلماته هذه بفرح، دون معرفة سبب ذلك، وأضاف: أرى أنَّ كرتي تثير اهتمامك.

ـ أجل.. ولا سيّما أنَّني لم أرَ مثلها في حياتي.

ـ إنَّها تحفة رائعة. وبصراحة أنا لا أحبّ آخر الأخبار التي ينقلها الراديو وتقرأها فتيات لا يلفظن بوضوح أسماء الأماكن. وعدا عن ذلك، كلّ ثالثة بينهن، جاهلة بأمور القواعد واللغة، وكأنهن اخترن عن عمد. وكُرتي هذه أبسط بكثير وأيسر، إنَّها تريحني، وخاصّة إنَّني أودّ معرفة الأحداث بدقّة تامة. هاكي مثلاً هذه الناحية من الأرض التي تغسل مياه المحيط جوانبها. انظريها وقد اندلعت فيها النار. اضطرمت نار الحرب فيها، وإذا ما دنوتِ منها أكثر لشاهدت المزيد من التفاصيل.

وانحنت مارغريت فوق الكرة فرأت بقعة أرضية مربَّعة مزخرفة بالكثير من الألوان تحوَّلت إلى ما يشبه الخريطة النافرة. وبعد ذلك رأت نهراً متعرِّجاً وبقربه ضيعة، ثم بيتاً صغيراً كانت مقاييسه بمقدار حبّة الحمص كَبُرَ وأصبح بحجم علبة الكبريت. وفجأة وبدون جلبة طار سقف البيت في العلاء مع أعمدة من الدخان الأسود وانهالت جدرانه. ولم يبق من

العلبة ذات الطابقين غير حطام حقيرة تصاعد منها دخان أسود. ودنت مارغريت من الكرة فتميَّزت إمرأة ضئيلة الحجم ممدَّدة على الأرض وبقربها يد طفل صغير مرمية في بركة من الدم.

وقال ڤولند مبتسماً:

- طفل لم يقترف إثماً بعد. ولا يُلام (أبادونّا) على عمله.

فردَّت مارغريت:

- ما أردت أن أكون إلى جانب أعداء (أبادونّا)، لكنّني أردت أن أعرف إلى جانب من يقف هو؟.

وردَّ ڤولند بتحبُّب:

- كلّما أطلت الحديث معك، كلّما ازددت اقتناعاً بذكائك المتوقّد. أطمئنك: (أبادونّا) نزيه، ونادر في تجرّده، ومشاعره نحو الفريقين المتحاربين واحدة، لذلك فنتيجة حرب المتنازعين ستكون عادلة ومتساوية الكفّتين.

ونادى ڤولند بصوت خفيض: أبادونّا...

وهنا برز من الجدار طيف شخص نحيل في نظّارات قاتمة.

لا أحد يعلم لماذا تركت النظّارات القاتمة تأثيراً كبيراً على مارغريت، فصرخت بنعومة ووارت رأسها وراء رجل ڤولند.

وهتف ڤولند:

- ما بكِ؟ يا إلهي كم هم عصبيون أناس هذا العصر، - ولطم مارغريت على ظهرها بقوّة فسرت قشعريرة في جسدها. وأكمل: سبب خوفك رؤيتك له في النظّارات. ولم يظهر أبادونّا أمام أحد غيرك قبل أوان ظهوره. وأخيراً أنتِ بضيافتي، وأردتِ أن ترينه.

في غضون ذلك كان (أبادونّا) يقف مُسمَّراً في مكانه. وطلبت مارغريت وهي تلتصق بڤولند وترتجف هذه المرّة حبًّا للمعرفة:

- هل بامكانه أن يخلع نظّاراته ولو لثانيةٍ واحدة.

وأجاب ڤولند بصوتٍ يرشح من نبراته الجدّ:

- هذا الطلب مرفوض رفضاً باتًّا.

لفظ كلماته وأومأ بيده (لأبادونّا) فما كان من الأخير إلاّ أن توارى وذاب.

وسأل ڤولند:

- ماذا تريد أن تقول يا عزرائيل؟

فردَّ عزرائيل:

- اسمح لي يا سيِّد أن أخبرك أنَّه بضيافتنا غريبان: حسناء تترجَّى شاكية باكية

لنجمعها بسيِّدتها وتبقى بقربها ومعها، عفواً، مطيتها: عفر.

وقال ڤولند معلِّقاً:

ـ يا لحسناوات الزمن الغريب! ويا لسلوكهن!...

وهتفت مارغريت:

ـ هذه ناتاشا! ناتاشا!

ـ لنبقيها مع سيِّدتها، وليذهبوا بالعفر إلى الطهاة.

وهتفت مارغريت مذعورة:

ـ أيُقتاد العفر إلى عند الطهاة ليذبح؟ عفوك وحنانك يا سيِّد، فهذا العفر هو نيقولاي إيڤانوڤتش ساكن الطابق الأسفل. وحدث سوء تفاهم. ودَهَنَته بالمرهم كما ترون..

فردَّ ڤولند:

ـ عفوكِ!... ومن سيذبحه. وهل لحمه يؤكل حتى يذبح؟!. ليقتادوه وليجلس مع الطهاة. ولا بدّ أنَّك توافقين أنّه ما بمقدرتنا أن نفلته في قاعة الحفلات.

وأضاف عزرائيل مخبراً:

ـ تجاوز الليل منتصفه يا سيِّد!.

وخاطب ڤولند مارغريت بقوله:

ـ حسناً... حسناً. أرجوك! سلفاً أشكر لك. لا تضعفي ولا تخافي من شيء. لا تشربي غير الماء، وإلاَّ سترهقين وستسوء حالتنا وتصعب. هيَّا بنا. أزفت الساعة.

ونهضت مارغريت من فوق السجَّادة الصغيرة. وحينذاك ظهر فجأة كرڤيوف عند الباب.

الفصل الثالث والعشرون

حفلة الشيطان الكبرى

وأوشك الليل أن ينتصف، فكان عليهم أن يسرعوا. وبالكاد كانت مارغريت تُميِّز الأشياء أمامها. ميّزت الشموع والحوض المتلألىء بالأنوار.

وما أن أصبحت مارغريت في قاع الحوض، حتّى راحت هيلاّ ومساعدتها ناتاشا تغمرانها بسائل أحمر كثيف ساخن، وحينما أحسَّت بطعم الملوحة على شفتيها عرفت إذ ذاك أنّهم يغسلونها بالدماء. وتبدَّلت البردة الدموية ببردة شفَّافة وردية اللون، فأصاب مارغريت دواراً في الرأس بسبب رائحة ماء الورد.

وبعد ذلك وضعوها فوق مقصورة «كريستالية» وراحوا يفركون لها جلدها بأوراق خضراء عريضة. وهنا اندفع القط وأخذ يساعدهما. جلس القرفصاء عند قدمي مارغريت وراح يدلك لها أخمص قدميها كأنَّه يمسح حذاءً في الشارع.

ولم تعد تذكر مارغريت الذي صنع لها حذاء من أوراق زهرة شاحبة. ونسيت كيف أنَّ فردتي حذائها بُكِّلتا تلقائياً ببكلٍ ذهبية.

قوةٌ جذبت مارغريت إليها وثبَّتتها قبالة المرآة. وسطع تاج ملكي من الألماس على رأسها. وسرعان ما حضر كرڤيوڤ وعلّق لها على صدرها سلسلة ثقيلة الوزن، وفيها صورة كلب أسود ثقيلة في إطار بيضاوي الشكل. يا لها من زينة أثقلت عنق الملكة.. وأزعجتها، فالسلسلة أثَّرت في العنق والصورة جعلتها تنحني. لكن مارغريت كوفئت على المضايقات التي سبَّبتها لها السلسلة والعلاَّقة بأسمى آيات التكريم والإجلال التي أخذ يظهرها نحوها كرڤيوڤ وبيغموت.

وغمغم كرڤيوڤ وهو يقف أمام باب الغرفة: لا! لا! ليس بمقدوري أن أعمل! يجب، يجب، يجب عمل أي شيء. اسمحي لي يا مليكتي بأن أزوّدك بالنصيحة الأخيرة، الضيوف سيكونون من أجناس مختلفة، فلا تؤثري أيتها المليكة ضيفاً على آخر.. إذا لم يروقك أيّاً منهم، فلا تدعي هذا الأمر يبدو على ملامحك، لأنَّ الضيف سيلحظ هذا في الحال، أحبّي الضيف. أحبّيه أيتها الملكة، وستكافئين على ذلك بتتويجك، وثمّة نصيحة واحدة بعد، وهي أن لا تغفلي ولا تهملي أحداً. وإذا لم يتَّسع وقتك لتخاطبيه بكلمة واحدة، فعلى الأقلّ اعطفي عليه بابتسامة ولو صغيرة أو بايماءة يسيرة من رأسك.. أجل ردّي عليه بالتفاتة،

المهم... لا تدعي أحداً يشعر بأنّنا غير مُهتّمين به، فذلك الشعور يجعلهم يذوون مرضى!..

وما لبثت مارغريت أن قفزت من الحوض، وبرفقتها كرڤيوڤ وبيغموت، ومن حولهم الظلام الحالك. وهمس القط:

ـ انتظروا إشارتي!

فردَّ عليه كرڤيوڤ:

ـ هيَّا.. نحن في انتظارها.

وزعق القطّ بجدّة:

ـ بدأت الحفلة!.

وصرخت مارغريت، وأطبقت عينيها ثواني معدودة.

لقد فاجأتها الحفلة بالأنوار الباهرة وبالأصوات الصاخبة، والروائح العطرة، فتأبّطت ذراع كرڤيوڤ لترى نفسها في غابةٍ استوائية بعيدة.

ببغاوات حمر الصدور خضر الأذناب كانت تتنقَّل على الأفنان، وتطلق صرخات مشدوهة وهتافات: «أنا مبتهج، أنا مسرور»!.

واجتازوا الغابة ولم يعودوا يشمُّوا رائحة الرطوبة. هيمنت برودة كان مصدرها قاعة الحفلات ذات الأعمدة المصنوعة من الحجارة الصفراء المتلألئة. وكانت القاعة خالية تماماً كالغابة، اللهمَّ إلاَّ بمحاذاة الأعمدة حيث وقف زنوج عراة تسمَّروا في أمكنتهم، ولفُّوا رؤوسهم بعصبات فضيّة اللون. وما أن مرَّت مارغريت بهم وقد صحبها أفراد العصابة، التي انضمَّ إليها عزرائيل، حتى تغيَّرت سحنة وجوههم واسمرَّت من القلق.

وأفلت كارڤيوڤ يد مارغريت همس:

ـ هيَّا بنا نتَّجه حالاً إلى السوسنات!

جدار واطىء من السوسن الأبيض ارتفع أمام مارغريت، ووراءها رأت نيراناً لا تُحصى. وأمام النيران تمايلت نحور بيضاء وأكتاف سوداء، (كانت أكتاف المدعوّين لابسي الفراكات). حينئذٍ عرفت مارغريت مصدر الأصوات الصاخبة. وداهمها زئير الأبواق، وتسرَّبت أنّات الكمنجات وغمرت جسد الملكة، كما لو كانت سيولاً من دماء. وعزفت أوركسترا، قُدِّر عدد عازفيها بمئة وخمسين، پولونيز. وما أن رأى المايسترو، الذي كان يقف أمام العازفين، مارغريت حتى شحب لون وجهه وابتسم، وباشارة من يديه حرَّك الأوركسترا بكامل عازفيها وآلاتها. وغمرت الأنغام الموسيقية التي لم تتوقَّف لحظة واحدة عن الانسياب مارغريت من رأسها حتى أخمص قدميها.

وتنحَّى قائد الأوركسترا جانباً وانحنى وهو يبسط يديه، فحيَّته مارغريت بابتسامة.

غير أنَّ كرڤيوڤ همس في أذنها قائلاً:

ـ هذا غير كافٍ! هذا غير كافٍ. إنَّه لن ينام طوال الليل، اهتفي له: تحيَّاتي لك يا ملك الڤالس.

وتلفَّظت مارغريت بهذه الكلمات، ودُهشت لأنَّ نبرات صوتها التي كانت شبيهة برنَّة الأجراس غطَّت زعيق الأوركسترا.

وارتعش قائد الأوركسترا من الفرح، ووضع يده اليسرى على صدره. أمَّا في اليد اليمنى فكان يحمل صولجاناً أبيض ويوجِّه العازفين.

وهمس كرڤيوڤ ثانية في أذن مارغريت:

ـ غير كافٍ، غير كافٍ، انظري إلى اليسار، إلى الكمنجات الأولى، وأشيري لعازفيها بطريقة تدع كل عازف بمفرده يفكِّر بأنَّك عرفتيه شخصيًّا. فها هنا مشاهير موسيقيي العالم.. هاكي «فيتان».. يجلس وراء المنصَّة الأولى. حسناً الآن هيَّا بنا لنكمل.

وسألت مارغريت وهي تطير مبتعدة:

ـ ومن هو قائد الأوركسترا!.

فماء القط مجيباً:

ـ يوهان شتراوس. ليشنقوني ويعلِّقوني على أغصان الشجر إذا عزفت أوركسترا في حفلة ما، وفي ذات يوم من الأيام، مثل هذه!. لقد دعوت عازفيها جميعاً، ولا بدّ من القول إنَّ أحداً لم يتأخَّر أو يمرض أو يرفض الدعوة.

في القاعة التالية لم يكن ثمّة أعمدة. بدلا من الأعمدة انتصبت من جهة، جدران بلون الورود الحمراء والزهرية والبيضاء، ومن الجهة الأخرى ارتفع جدار من الكميليا اليابانية الموبرة. ومن بين هذه الجدران كانت تتفجَّر النوافير وتتدفَّق، وكذلك كانت تفور فقاقيع من الشمبانيا في ثلاثة أحواض. وكان الحوض الأوَّل بلون البنفسج الشفَّاف. والحوض الثاني بلون العقيق الصافي، والحوض الثالث بلون الكريستال النقي. وحول هذه الأحواض كان يخفق زنوج في عصبات قرمزية اللون. كانوا يغرفون بمغارف فضيّة من الأحواض ويملأون الكؤوس. ومن ثقبٍ في الجدار الزهري بدا إنسان ثائراً محتدماً، يرتدي (فراك) له ذيل سنونو. وكان الجاز العالي يدوّي ويقصف ذونما هوادة. وعندما رأى قائد الأوركسترا مارغريت، انحنى أمامها حتى لامست يداه الأرض. وبعد ذلك انتصب وهتف بقوّة وحِدّة:

ـ هلّلويا!...

وضرب على إحدى ركبتيه. ثم ضرب على ركبته الأخرى. واجتذب صحناً من بين يدي العازف الذي كان يجلس في الطرف، وضرب به العمود.

ولم ترَ مارغريت، وهي تطير مبتعدة، سوى عازف الجاز الماهر، الذي كان يعزف لحن البولونيز ـ اللحن الذي كان يدوّي من الخلف ـ وفي الوقت نفسه يضربُ بالصحن رؤوس

أفراد عصابة الجاز، الذين كانوا يجلسون وهم في حالة من الهلع تثير السخرية. وأخيراً وصلا إلى الساحة فاستقبلها كرفيوف بمصباح صغير بدّد الظلام الدامس. والآن وفي الساحة انبهرت الأبصار من الأنوار المنهمرة من العناقيد الكريستالية.

وأوقفوا مارغريت عن يسار عمود منخفض من الأماتيست. وهمس كرفيوف في أذنها:

ـ إذا تضايقت فيمكنك أن تستندي إلى هذا العمود.

ووضع زنجي أسود عند قدمي مارغريت وسادة طرّزت عليها صورة كلب (بودال) بخيطان من الذهب. وثَنَتْ يدٌ أحد المدعوين رجلها اليمنى. جهدت مارغريت لتلتفت حولها وقد وقف قربها كرفيوف وعزرائيل في وقفة استعراضية، وبقرب الأخير وقف ثلاثة شبّان ذكّروها (بأبادونّا).

وسرت قشعريرة برد في جسم الملكة ورأت نبعاً من الخمرة فوّاراً يتدفّق من الجدار الرخامي خلفها ويصبُّ في حوضٍ زجاجي. وأحسَّت عند رجلها اليسرى بشيء ساخنٍ وموبر. لقد كان بيغموت.

لقد كانت الملكة فوق، ومن تحت قدميها امتدَّ إلى الأسفل، درج طويل هائل مفروش بالسجّاد، وعند أسفل الدرج رأت غرفة خدم هائلة الكبر، ذات موقد كبير فسيح، تدخل من فوهته شاحنة وزنها خمسة أطنان. نعم لقد رأت مارغريت تلك الغرفة الفسيحة وكأنَّها تنظر بطريقة عكسيّة في منظار. وسبَّب النور الذي غمر الغرفة والـدرج الألم للعيون.

وكانت تلك الغرفة خالية من الناس وكذلك الدرج، وترامى نفير الأبواق إلى أسماع الملكة من البعيد. وسُمِّرت في مكانها لا تريم حوالي الدقيقة وما لبثت أن سألت كرفيوف:

ـ وأين هم الضيوف؟

فأجابها:

ـ سيأتون أيتها المليكة، سيأتون، وسيملأون القاعة بجمعهم، وإنَّني وأيم الحقّ أفضِّل مهنة قطع الأخشاب على استقبالهم في هذه الساحة.

وسارع القط الذي كان يصغي بكلِّ جوارحه إلى القول:

ـ والله إنَّ قطع الأخشاب لعمل هيِّن، أمَّا أنا فأردت أن أعمل مفتّشاً في الترام، وليس ثمّة وظيفة أنحس منها تحت السماء.

وأوضح كرفيوف وقد لمعت عينه عبر المنظار المعطَّل:

ـ كلّ شيء يجب أن يُهيَّأ مُسبقاً أيتها المليكة، فلا شيء يضاهي بشناعته وقبحه وصول ضيف مدعوٍّ قبل بدء الاحتفال وتجواله دون هدف، وبقربه إمرأة سليطة اللسان ـ عاهرته القانونية ـ تؤنّبه على مجيئهما قبل بدء الحفلة. إنّما يجب طرح مثل تلك الحفلات في مجاري

الأقذار أيتها المليكة.

وقال القط مؤكّداً:

نعم يجب أن تُرمى في مياه الأقذار وأضاف كرڤيوف:

ـ عشر ثوانٍ بقيت لينتصف الليل... وتبدأ الحفلة.

وبدت العشر ثوانٍ وكأنَّها دهر طويل... ومرَّت الثواني ولم يحدث أمر جلل. لكن، فجأة، وفي الموقد الكبير الهائل، قصف شيء ما ولعلع، وبرزت من الموقد مشنقة، انفضَّ عن حبلها غبار واصطدم بالأرض، وبُعثَ رجل وسيم، أسود الشعر، يرتدي الفراك، وينتعل أحذية لَمّاعة. وانطلق من الموقد تابوت صغير، لم يدبّ إليه الفناء كلياً بعد، فانفتح سقفه وثار منه غبار آخر.

ركض الرجل الوسيم نحو التابوت، وبكياسة مدّ إليه يده حانياً جذعه، وإذا بالغبار الثاني يتكشَّف عن إمرأة عارية رشيقة تنتعل حذاءً أسود، وغرزت في رأسها ريشة سوداء. وأسرع الرجل والإمرأة وارتقيا الدرج إلى فوق.

وهتف كرڤيوف:

لقد سبقا الجميع بحضورهما... السيِّد جاك وعقيلته!.. أعرِّفكِ أيتها المليكة إلى زوج مثير للاهتمام!.. هو أكبر خائن لوطنه، ومعلِّم ماهر في تزوير النقود، وكيميائي لا بأس به.

وأكمل كرڤيوف حديثه همساً في أذن مارغريت:

ذاع صيته لأنَّه سمَّم عشيقة الملك، وهذا عمل لا يقدم ولا يقدر عليه أيّاً كان من الناس!. تأمَّليه ما أجمله!

وفتحت مارغريت الشاحبة اللون فاها، وهي تنظر إلى أسفل الدرج، لترى كيف اختفى التابوت في أحد الممرَّات الجانبية، وتبعته المشنقة.

وَصَاحَ القط في وجه السيِّد جاك الصاعد على الدرج:

ـ أنا مسرور وفي أقصى حالات الابتهاج.

في غضون ذلك برز من الموقد هيكل مبتور الرأس، أكتع، اصطدم بالأرض وتحوَّل إلى بشرٍ سويّ وقد ارتدى الفراك.

وركعت زوجة السيِّد جاك على ركبة واحدة عند قدمي مارغريت، ولثمت ركبتها، ولون وجهها شاحبٍ من شدّة اضطرابها.

وغمغمت زوجة السيِّد جاك:

ـ مليكتي!.

وصاح كرڤيوف:

ـ المليكة مُعجبة ومبتهجة!.

وقال السيِّد جاك الجميل بهدوء:

ـ مليكتي!.

وزعق القطّ:

ـ نحن معجبون مبتهجون..

وارتسمت على وجوه الشباب مرافقي عزرائيل ابتسامات شاحبة، لكنَّها على كلّ حال كانت بشوشة. حاصر هؤلاء الشباب السيِّد جاك وعقيلته في إحدى الجهات، ودعوهما إلى أقداح الشمبانيا التي كان يمسك بها الزنوج في أيديهم.

وشُوهد رجل يرتقي الدرج وحيداً، هو أيضاً في الفراك. وهمس كرڤيوف في أذن مارغريت:

إنَّه الكونت روبير. إنسان مثير للاهتمام كما كان في الماضي. الحالة مضحكة أيتها الملكة، العكس هنا... إنَّه كان عشيق الملكة وسمَّم زوجته!..

وسرعان ما صاح بيغموت:

ـ نحن معجبون مبتهجون أيها الكونت!.

ومن الموقد، الواحد تلو الآخر، برزوا... ثلاثة توابيت تفجَّرت... انحلَّت... وفُتِحَت. وشوهد رجل في مبذل أسود يطعن الرجل الذي تلاه في الخروج من فوهة الموقد بسكِّين في ظهره. وسمع صراخ مكتوم عند أسفل الدرج. وشوهد تابوت وهو ينطلق من الموقد وقد دبَّ فيه الفناء.

وزرَّت مارغريت عينها، وما لبثت أن أحسَّت بيدٍ تدسُّ لها تحت أنفها حقًّا يحوي ملحاً أبيض. واعتقدت أنَّها قد تكون يد ناتاشا. وغصَّ الدرج بالوافدين، وشوهد لابسو الفراكات من نوع واحد وشوهدت نساء عاريات في صحبة الرجال، وتميَّزن بلون الريش الذي شككنه برؤوسهنَّ وبأحذيتهنَّ.

واقتربت من مارغريت سيِّدة عرجاء، انتعلت في رجلها اليسرى حذاءً خشبياً غريب الشكل، وكانت تطبق عينيها مقلِّدة الراهبات، كانت نحيلة متواضعة، وتلفّ عصبة خضراء عريضة حول عنقها.

وسألت مارغريت بعفوية:

ـ وهذه الخضراء من تكون؟

وهمس كرڤيوف مجيباً:

ـ أقدِّم لك السيِّدة توفان. سيِّدة فاتنة ورصينة. ذاع صيتها وانتشر بين شباب نابولي الجميلين، وبين سكَّان پاليرمو وخاصة بين النسوة اللواتي ملَلْن من أزواجهنّ. يحدث أيتها

المليكة وتملّ الزوجة من عشرة زوجها !؟...

وأجابت مارغريت:

ـ نعم يحدث مثل هذا !، قالت هذا وابتسمت لسيّدين كانا في (الفراك)، وقد انحنيا عند قدميها، الواحد تلو الآخر، وقبّلا ركبتها ويدها إجلالاً.

ـ وهكذا يا مليكتي!... ـ همس كرڤيوف في أذن مارغريت، ثمّ صاح بأحد الخدم:

ـ يا دوق! هات قدحاً من الشمبانيا!، أنا مُعجب، أنا مبتهج!.

وأكمل حديثه:

لقد تفهَّمت السيّدة توفان ظروف تلك النسوة وباعتهن نوعاً خاصًّا من المياه في القناني.

وكانت كلّ واحدة منهنّ تسكب من هذا الماء الخاص في الحساء الذي تقدِّمه للزوج. وبعد احتساء الزوج للحساء، كان يشكر لزوجته لطفها وذوقها ويشعر بأنّه في حالة جيِّدة ويُحسد عليها، لكنّه بعد ساعات كان يُصاب بظمأ شديد... ثم بعد ذلك كان يرقد المسكين في السرير، وبعد يوم واحد فقط، تصبح النابولية الروعاء حُرَّة طليقة كأنفاس الربيع!..

وسألت مارغريت وهي ما فتئت تمدُّ يدها إلى الضيوف دون أن يعتريها وهن أو تعب،

ـ الضيوف الذين كانوا يطاردون السيِّدة العرجاء:

وما سبب البقعة في رجلها، وتلك اللطخة الخضراء في عنقها؟ أتكون كالحة العنق؟

وهتف كرڤيوف: أنا معجب ومبتهج أيها الأمير...

ثمّ أجاب همساً على سؤال مارغريت: ثمّة حكاية للطخة التي ترينها في عنقها.

ـ وما حكايتها؟

ـ ما أن عرف السجناء، بمسألة الأزواج الذين قضوا في ناپولي وپاليرمو، حتّى اجتمعوا وقرَّ رأيهم أن يخنقوها ويتخلّصوا منها... ونفَّذوا خطّتهم.

ـ أنا سعيدة أيتها المليكة السوداء، وسعادتي لا توصف... لا بل أعتبر نفسي محظوظة بمثولي أمامك. ـ قالت السيِّدة توفان كلماتها مقلِّدة بلهجتها الراهبات، وحاولت أن تركع لكن الحذاء الاسباني أزعجها ولم يُسهِّل عليها مهمتها، فسارع كرڤيوف وبيغموت إلى مساعدتها لتنهض.

وأجابتها مارغريت:

ـ أنا حقًّا مسرورة. ـ قالت هذا ومدَّت يدها للزوّار.

في غضون ذلك، كان الزوّار يرتقون الدرج أفواجاً أفواجاً. ولم تعد ترى مارغريت ما يحدث في غرفة البوّاب. وأصبحت بحركة آلية لا إرادية ترفع وتنزل يدها وقد ارتسمت على فمها تكشيرة واحدة وابتسامة واحدة لكلّ الضيوف على السواء.

وفي فضاء الساحة حدث دويّ وجلبة. وانبعثت الأنغام الموسيقية من القاعات تزأر كأمواج البحر.

ـ هاكي إمرأة مملّة.. لم يهمس كرڤيوف كلماته همساً هذه المرّة، بل لفظها بصوت مسموع، لأنّه كان يعرف أنَّ صوته سيضيع في وسط الضجيج ولن يسمعه أحد، وأكمل: سيّدة مولعة بالحفلات إلى حدّ العبادة.. وتحلم المسكينة بأن يعود لها منديلها؟.

وحدجت مارغريت الإمرأة التي دلَّ عليها كرڤيوف. كانت ترتقي الدرج مع رجال آخرين. كانت في مقتبل العمر. وكانت أعضاء جسدها متناسقة وجميلة. غير أنَّ نظرات عينيها كانت قلقة ومتطفِّلة.

وسألت مارغريت:

ـ وما قصّة ذلك المنديل العجيب؟

وأوضح كرڤيوف:

وصيفتها اللجوج تضايقها. منذ ثلاثين سنة والوصيفة تضع لها المنديل على المنضدة ليلاً. وما أن تستيقظ المسكينة حتى ترى المنديل أمام ناظريها. فتلقيه حيناً في الموقد طعمة للنيران، وأحياناً ترميه في النهر. وتتكرَّر هذه الظاهرة يومياً. لكن هذا لم يساعدها في شيء.

وسألت مارغريت همساً وهي ترفع وتنزل يدها:

ـ لا بدّ من أنَّ لهذا المنديل قصّة عجيبة... فاحكها لي:

ـ إنّه-منديل أزرق الحاشية. عندما كانت تعمل خادمة في أحد المقاهي، دعاها صاحب المقهى إلى المستودع، وبعد تسعة أشهر أنجبت صبيًّا. فحملته إلى الغابة، وأدخلت في فمه منديلاً، ودفنته في الأرض. وفي المحكمة ادَّعت بأنَّها لا تملك ما يقيم أود الطفل المسكين!.

وسألت مارغريت:

ـ وأين صاحب ذلك المقهى؟

وفجأة زعق القط:

ـ مليكتي! اسمحي لي أن أسألك، وما شأن صاحب المقهى هنا؟ ليس هو الذي خنق الطفل؟!.

ولم تغب ابتسامة مارغريت، ولم تكفّ عن هزّ يدها اليمنى، أمَّا أظافر اليد اليسرى فقد غرزتها في أذن بيغموت، وهمست في تلك الأذن:

ـ أيها الوغد!.. إذا تدخَّلت مرَّة أخرى في الحديث فـ !...

وصأصأ بيغموت وشخر:

مليكتي... قد تتورَّم أذني؟! وهل نفسد الحفلة بسبب أذنٍ وارمة؟ قلت ما قلته من

وجهة نظر قانونية. وسألوذ بالصمت حسبما ترغبين وتشتهين. احسبيني سمكة لا قطًّا. دعي أذني من فضلك.

وأفلتت مارغريت أذنه، إذ أنَّ العينين المتطفِّلتين الزائغتين كانتا تحدِّقان بها.

ـ أيتها المليكة «ربَّة الحفل»، أنا سعيدة كوني مدعوّة إلى حفلة «اكتمال البدر» العظمى.

فأجابتها مارغريت:

ـ وأنا مسرورة بك. مسرورة جداً. أتحبِّين أن تشربي كأساً من الشمبانيا؟.

وهمس كرڤيوڤ في أذن مارغريت يائساً:

ـ ما العمل أيتها المليكة... ازدحام كبير؟

وهتفت إحدى النساء:

ـ أنا أحبّ أن أشرب ـ وفجأة راحت تكرِّر بنبرة آلية:

ـ فريدا! فريدا! يدعونني فريدا أيتها الملكة.

وردَّت مارغريت:

ـ ستثملين اليوم يا فريدا، ولن يقلق بالك شيء.

ومدَّت فريدا يديها الاثنتين نحو مارغريت، غير أنَّ كرڤيوڤ وبيغموت سارعا إلى إمساكها بيديها، بخفّة يحسدان عليها. وما لبثت أن غابت في الحشد الصاخب.

بدأ الآن حشد الناس يهبط على الدرج إلى الأسفل. لقد بدوا وكأنَّهم يريدون ضرب طوق حول الساحة التي تقف على أرضها مارغريت.

وتماوجت أجساد النساء العاريات في بحر أسود من الفراكات. وتزاحمت وتدافعت الأجساد السمراء والبيضاء والسوداء التي كانت بلون حبَّات البن، واصطدمت بجسد الملكة. وسنت مشعشعة الأحجار الكريمة في الشعور الشقراء والسوداء والكستنائية الصهباء بلون الكتَّان، وتناثرت حبيبات النور وكأنَّها يد خفية رشَّت جموع الناس بها، وتألَّقت الأنوار من الأزرار الماسيّة على الصدور.

وأصبحت مارغريت تحسُّ كلّ ثانية بالقبل تطبع على ركبتها. وفي كلّ ثانية أصبح ينبغي عليها أن تمدّ يدها إلى الأمام لتُلثم.. وتحوَّل وجهها إلى قناع جامد مزوَّد بابتسامة.

وصدح كرڤيوڤ بلهجة رتيبة:

ـ أنا معجب. ونحن مبتهجون والملكة في أقصى حالات البهجة والانشراح.

وخنَّ عزرائيل:

ـ إنَّ الملكة معجبة ومبتهجة أيضاً.

وهتف القط:

ـ أنا مبتهج مسرور.

وغمغم كرڤيوف:

ـ هذه المركيزة سمَّمت أباها، وأخويها، وأختيها، بسبب الإرث. المليكة منشرحة الصدر معجبة. ما أجمل السيِّدة مينكينا. غير أنَّها عصبيّة بعض الشيء. لكن ما الذي دفعها إلى حرق وجه وصيفتها بمكواة الشعر؟. هذا العمل يُجازون عليه بالذبح. حقًّا. الملكة معجبة مبتهجة. ثانية انتباه واحدة أيتها الملكة: ها هو الأمبراطور رودولف. ساحر وفنَّان وكيميائي. كيميائي آخر شُنِق وعُلِّق. آه.. ها هي أطلَّت. آه! أي بيت دعارة بديع كانت تُدير في ستراسبورغ!. نحن معجبون ومبتهجون!.. خيَّاطة موسكوبية أحببناها جميعاً على عبقرية وخيال لا ينضبان. كانت تدير مشغلاً للخياطة، وأتت عملاً مضحكاً غريباً: فتحت ثقبين مستديرين في الجدار...

وسألت مارغريت:

ـ ولم تعرف السيِّدات بعملها ذاك.

فأجاب كرڤيوف:

ـ عرفن جميعاً أيتها الملكة، أنا مبتهج!. انظري ذاك الفتى ابن العشرين ربيعاً. منذ صغره تميَّز بقدرة هائلة على التخيُّل والابداع. يا له من فتى حالم غريب الأطوار. فُتِنت به إحدى الفتيات. صحبها إلى بيت الدعارة وباعها.

وتدفَّق نهر من تحت. لم يظهر للعيان منبع هذا النهر. بل انبجس عن تلك الموقدة الهائلة التي ما فتئت تغذيه بالبشر. ومرَّت ساعة، فساعتان، وطوفان البشر لم ينقطع. وشعرت مارغريت بأنَّ سلسلتها أضحت أثقل وزناً من ذي قبل. وأصابتها علّة غريبة في يدها.

أصبحت الآن قبل أن ترفع يدها، تـراهـا تقطِّـب حـاجبيهـا وتعبس. وملاحظـات كرڤيوف التي كانت على جانب كبير من الأهمية لم تعد لتثير اهتمامها. ولم تعد ترى فارقاً بين الوجوه المنغولية ذات العيون الحول والوجوه البيضاء والسوداء. كانت هذه الوجوه تمتزج من حين لآخر.. أمام عيني الملكة.. وبدأ الهواء يعصف في القاعة؛ وأصابها ألم حاد كوخز الابر فجأة في يدها فما كان منها إلاّ أن صرّت أسنانها وارتفَقَتْ المنضدة.

وترامى من الخلف، من القاعة الثانية، ما يشبه حفيف الأجنحة. أجنحة اصطدمت بالجدران. وفُهم أنَّ الجيش العرمرمي بدأ بالرقص، وبدا أنَّ رخام وفسيفساء وكريستال أرض القاعة المجنونة كانت تنبض مع الإيقاع الراقص.

ولم يعد أحد يثير انتباه مارغريت... لا (غاي كيسار كاليغولا)، ولا (مسالين)، ولا أي ملك من ملوك الأرض، ولا أيّ دوق من دوقاتها، ولا أي فارس أو قاتل سفَّاح، ولا أي دسَّاس سمّ ولا مجرم استحقَّ أن يُعلَّق على عود مشنقة، ولا أي قوَّاد أو سجين أو واش

من الوشاة أو جلاَّد من الجلاَّدين.. ولا أحد من الخونة والمجانين.. أو رجال المباحث ولا الفاسقين. تاهت أسماؤهم في رأسها. وانعجنت الوجوه مكوِّنة رغيفاً كبير الحجم. وجه واحد معذَّب. وجه وحيد حزين القسمات دخل ذاكرتها دون استئذان. وجه مطوَّق بلحية من نار أثار انتباهها. هذا الوجه ذو القسمات الحادّة كان وجه (ماليوتا سكوراتوف).

واعوجَّت ساقا مارغريت وخافت من أن تغلبها الدموع فتبكي. إذ أنَّ ركبتها اليمنى آلمتها، وسبَّبت لها عذاباً شديداً. تورَّمت الركبة التي قبَّلتها الشفاه وازرَّق لون جلدها، بالرغم من حبو ناتاشا وعنايتها، وهي التي شوهدت عدّة مرّات راكعة عند الركبة حاملة اسفنجة وتدهنها بمرهمٍ عطر.

وعند انتهاء الساعة الثالثة ألقت مارغريت نظرة يائسة إلى تحت، وانفرجت أساريرها، وكيف لا وعدد الزوّار آخذ في النقصان.

وهمس كرفيوف:

إنَّ قوانين الحفلات هي هي لا تتغيَّر أيتها الملكة. الآن تبدأ الموجة بالانحسار. إنَّنا في الدقائق الأخيرة.. أقسم لك. هاكي فرقة صعاليك متسكِّعين. إنَّهم آخر من يأتي.. ها هم.. انظري خفَّاشين ثملين.. لا يوجد غيرهما! ماذا أرى؟ خفَّاشاً ثالثاً. لا إنَّهما اثنان!.

وارتقى الضيفان الأخيران الدرج.

وأردف كرفيوف وهو يزرّ عينه متأمِّلاً عبر الزجاج: من يكون ذاك الرجل، أيكون ضيفاً جديداً. آه، نعم، الآن عرفته. في إحدى المرّات زاره عزرائيل، وأسدى إليه نصيحة وهما يرشفان الكونياك. علَّمه كيفيّة التخلّص من شخص كان يخاف أن ينفضح على يديه. فما كان من هذا الذي نراه الآن، إلاَّ أن أمر أحد معارفه برش جدران المكتب بالسمّ.

وسألت مارغريت:

ـ وما اسم هذا الرجل؟.

فردَّ كرفيوف:

إنَّني لا أعرف اسمه حقَّاً. علينا أن نسأل عزرائيل.

ـ ومن الذي يصحبه؟

ـ إنَّه منفِّذ أوامره وكاتم أسراره.

وهتف كرفيوف مخاطباً الرجلين: أنا معجب مبتهج الصدر.

وخلا الدرج من الصاعدين. ومن باب الحيطة والحذر انتظروا بعض الوقت. لكن لم يظهر أحد من الموقد.

وبعد ثانية واحدة، ودون أن تعرف كيف تمَّ ذلك، رأت مارغريت نفسها في القاعة ذات الحوض. واسترسلت في البكاء، بسبب آلام يدها ورجلها. ارتمت على الأرض. غير

أنَّ هيلاَّ وناتاشا واسياها وحملاها إلى تحت « دوش » الدم، وفركا لها جسدها من جديد، فإذا هي تنتعش وتستعيد قواها.

وهمس كرڤيوف الذي بدا فجأة قربها:

- مليكتي يجب أن تطوفي ثانية في القاعات، لكي لا يشعر ضيوفنا الكرام بأنَّهم متروكون.

وطارت مارغريت مغادرة القاعة. وعلى المسرح وراء السوسنات، حيث كان يعزف ملك الڤالس. دوّى الآن الجاز المجنون، وكانت توجِّه الفرقة (غوريلاَّ) هائلة الحجم، فوداها كثيفان، وكانت تحمل بوقاً في يدها وترقص بخطى ثقيلة. وكان أبناء الغابة مصطفِّين في صفٍّ واحد وينفخون في أبواق برَّاقة. وجلست على أكتافهم القرود (الشمپانزيه) وكان كلّ قرد يحمل (هارمونيكا) أكورديون.

كما أنَّه شوهد قردان بلبدتين كلبد الأسود، يعزفان على البيانو. ولم يكن عزفهما مسموعاً، فقد غطَّى عليه دويّ وقصف السيكسفونات والطبول والكمنجات التي كانت بين قوائم قرود من أنواع (الغيبون) و(الماندريلاَّ) و(المارتيش).

وفوق أرض القاعة المصقولة اجتمع حشد غفير، من كل زوج اثنان، حشد بدا وكأنَّه كتلة واحدة. أدهش برشاقته وسرعة ودقّة تحرُّكه. كان هذا الطوفان العرمرمي أو قل هذا البنيان المرصوص يتحرك في اتجاه واحد ويهدِّد بجرف كل من يعترض سبيله.

وحوَّمت الفراشات الحيّة الطيلسانية فوق جيش أو قل جحافل الراقصين. ونثرت الزهور من السقوف. وعندما أُطفئت الأنوار الكهربائية تألَّقت وسطعت آلاف الحباحب النورانية فوق تيجان الأعمدة. ومخرت فضاء القاعة النيران السنية. وبعد ذلك وجدت مارغريت نفسها، داخل حوض هائل، مسوَّر بالأعمدة. وظهر نبتون عملاقاً أسود السحنة، ومن فمه تدفَّقت السيول الوردية اللون العريضة. وعبقت رائحة الشمبانيا من الحوض وملأت المكان. وساد مرح عفوي. السيِّدات تضاحكن وتراشقن بالأحذية، وناولن المنابس إمَّا لعشَّاقهنّ وإمَّا للزنوج الذين كانوا يغدون بينهن ويحملون في أيديهم المناشف، ويرتمون بالحوض، ويطلقون الهتافات الشبيهة بزقزقة طيور السنونو.

وارتفعت أعمدة من الرغوة. وأضيء قاع الحوض الكريستالي بنور اخترق طبقات الخمرة، وبدت الأجساد الفضيّة التي كانت تسبح في الأمواج الخمريّة. وكانوا يقفزون من الحوض ثمالى. وتعالى الضحك تحت الأعمدة وفي الحوض.

وسط هذا الهرج والمرج علقت في ذاكرة مارغريت صوَرة وجه نسائي. وجه إمرأة ثملة، كانت نظرات عينيها فارغة متوسِّلة. كما أنَّها تذكَّرت كلمة واحدة: فريدا. وانتاب مارغريت دوار في رأسها بسبب رائحة الخمرة، فأرادت أن تغادر، لكن القط أحيا نمرة في

الحوض، فبقيت. وقرأ بيغموت تعويذة سحرية قرب فم نبتون، وإذا بغمامة مضطّربة من الشمبانيا، تخرج من الحوض مصحوبة بالفحيح والقصف. وجعل نبتون يتقيّأ من فمه أمواجاً تراها تتلألأ حيناً وترغي صفراء قاتمة اللون أحياناً.

وصرخت السيّدات وزعقن:

فاض الكونياك! فاض الكونياك. وتسرّب من بين الأعمدة. صِحنَ ووثبن من وراء الأعمدة. وبعد ثوانٍ معدودة امتلأ الحوض، والقط الذي كان قد تقلّب في الهواء ثلاثاً، هوى أخيراً في بحيرة الكونياك المتماوجة. وخرج بعد ذلك وهو يشخر وقد ابتلّت ربطة عنقه، وزالت الطبقة الذهبية من فوق شاربيه، وأضاع منظاره. إمرأة واحدة فقط قرّرت أن تحذو حذو بيغموت وتفعل فعله. ما كانت هذه الإمرأة غير الخيّاطة صاحبة الذوق المبتكر. وكان معها عشيقها الخلاسي. وارتمى الاثنان في الكونياك. وتأبّط كرڤيوڤ ذراع مارغريت وخرجا معاً تاركين المستحمّين.

وبدا لمارغريت أنّها في مكان، تُرى فيه بحيرات صخرية كبيرة وقد ارتفعت في البحيرات جبال شاهقة من المحار. ثمّ طارت فوق أرض زجاجية، اتّقدت تحتها أتونات نارية جحيمية، كان يتنقّل بينها طهاة بيض من الأبالسة. ثمّ وجدت نفسها بعد ذلك في مكان ثالث، وما عاد بمكنتها أن تدرك ما يجري حولها. رأت أقبية معتمة، أضاءتها القناديل. وثمّة نسوة كنّ يوزّعن المشاوي على الحاضرين، الذين كانوا يرشفون من الأقداح الكبيرة نخب صحّتها. ورأت بعد ذلك دبباً بيضاء، تعزف على آلات الأكورديون، وترقص رقصات استعراضية. ورأت سمندلاً مشعوذاً كان يرمي نفسه في الموقد المتّقد بالجمر ولا يحترق.. ومن جديد وهنت قواها وضعفت.

وهمس كرڤيوڤ في أذنها وقد انشغل باله: بقي علينا اجتياز باب واحد، ونصبح طليقين.

ومن جديد بدت بصحبة كرڤيوڤ في قاعة الاحتفالات، غير أنّ الضيوف هذه المرّة لم يرقصوا، بل اجتمعوا بأعدادهم الكبيرة بين الأعمدة، وأخلوا وسط القاعة. ولم تعد مارغريت تتذكّر الشخص الذي ساعدها في ارتقاء قمّة تلك الهضبة، التي برزت وسط القاعة الخالية. وحينما ارتقت الهضبة سمعت الساعة تدقّ معلنة منتصف الليل، فتعجّبت، وقد كانت تظنّ أنّ ساعة نصف الليل مرّت.. وأزفت ساعة شروق الشمس. وساد الصمت في القاعة حيث حشد الضيوف، وتزامن مع ضربة الساعة الأخيرة التي ترامت إلى الأسماع من مكان ما. وحينذاك رأت مارغريت ڤولند سيّد الحفلة. كان يمشي محاطاً بأبادونّا وعزرائيل وبعض الشباب السود الذين كانوا يشبهون أبادونّا.

ورأت مارغريت هضبة ثانية هُيّئت قبالة هضبتها خصّيصاً لڤولند، لكنّه لم يرتقيها. ما

أدهش مارغريت هو ظهور ڤولند الأخير في الحفلة الكبيرة في ملابس النوم، التي كان يرتديها من قبل، وفي القميص المرفوء الموسَّخ ذاته. وكان ينتعل نفس الخفّين الباليين. وما فارقته حربته، الحربة المسلولة التي كانت عصاه.

ومثل عزرائيل أمام ڤولند وهو يحمل طبقاً بين يديه. وفوق هذا الطبق رأت مارغريت رأس إنسان مقطوع وقد اقتلعت أسنانه الأماميّة. وظلَّ الصمت سيِّد الموقف فترة طويلة عكَّره رنين جرس آتٍ من مكان بعيد لم يفهم أسباب رنينه في مثل تلك الساعة والظروف..

وخاطب ڤولند الرأس المقطوع بصوت خفيض:

والآن... يا ميخائيل ألكسندروڤتش... ألا ترى أنَّ النبوءات تحقَّقت؟!.

وهنا تفتَّحت أجفان الرجل الميِّت، ورأت مارغريت المضطّربة كيف امتلأت العينان في الوجه الميِّت حياة ومشاعر وعذاباً.

وأكمل ڤولند وهو ينظر إلى العينين:

ـ لقد بترت امرأة رأسك. أليس كذلك؟ والاجتماع لم يعقد، وها أنا أسكن في شقّتك. وهذه حقيقة واقعية. وإنَّ الواقع يا عزيزي الكاتب هو أرسخ برهان في هذا العالم. كلّ ما يهمّنا الآن هو ما سيحمله الغد وليس حادثة مضى عليها الزمن. لقد كنت دائماً من أتباع النظرية القائلة: إنَّ حياة الإنسان تنتهي حالما يُبتر رأسه وتفارق روحه جسده، وإنَّه يتحوَّل إلى رماد ويصبح منسيًّا. أجل لقد كنت ملحداً متحمِّساً غيوراً، ويسعدني أيها الصديق أن أعلن لك وبحضور ضيوفي والذي يعتبر وجودهم بمثابة برهان دامغ لنظرية مغايرة تماماً لنظريتكِ، يسعدني أن أعلن لك أنَّ نظريتك ظريفة وحصيفة، ومختصر القول كلّ نظرية تلغي أختها. وبين النظريات واحدة تقول إنَّما الجزاء يكون حسب النيّات... ولتُعْطَ أنتَ حسب نيّتك وافْنَ في عالم الفناء والزوال. ويسرُّني أن أرشف من كأس كانت بالأمس جمجمتك.. يسرُّني أن أرشف من هذه الكأس نخب الخلود والبقاء...

ورفع ڤولند حربته. وقتمت قشرة الرأس وتكرمشت، وتناثرت بعد ذلك مِزقاً، واختفت العينان، وسرعان ما رأت مارغريت على الطبق جمجمة صفراء، زمردية العينين، أسنانها من جمان، منصوبة فوق رجلٍ ذهبية. وكان سطح الجمجمة يُفتح بمفصّلة.

وقال كرڤيوڤ وقد لحظ نظرة ڤولند المتسائلة:

ـ سأدعه يمثل أمامك في هذه الثانية يا سيِّد. إنَّني أسمع في هذا الصمت المطبق كصمت المقابر جلبة حذائه الملَّع، ورنين القدح الذي وضعه على الطاولة، وقد احتسى منه قطرة الشمبانيا الأخيرة في حياته. ها هو... إنَّه يتقدَّم نحوك...

وذرع القاعة ضيف جديد، توجَّه نحو ڤولند. لم يتميَّز من حيث مظهره الخارجي عن حشد الضيوف الغفير. افترق عنهم بميزة واحدة، وهي أنَّ الضيف كان يترنَّح من الجزع.

وثمة لطخات احمرّت على خدّيه. وعيناه كانتا نهباً للقلق. لقد كان الضيف متعجّباً، بل مصعوقاً، وما الأمر بمستغرب. كان مصعوقاً ممّا يرى. أذهله مظهر ڤولند ولباسه، غير أنّه استقبل استقبالاً حارًّا.

ـ أعزّ الأعزّاء! البارون مايغل!.

بهذه الكلمات استقبل ڤولند ضيفه وهو يبتسم ببشاشة، وجحظت عينا الضيف.. وأكمل ڤولند مخاطباً الضيوف:

ـ يسعدني أن أقدّم لكم البارون المحترم مايغل، الدليل وعضو اللجنة المسرحية، الذي كان يعرّف الأجانب إلى معالم العاصمة.

وتسمّرت مارغريت في مكانها لأنّها عرفت في الحال مايغل. ولا سيما أنّها كانت قد التقت به مرّات عديدة في مسارح موسكو و(رستوراناتها). وفكّرت: اللهم عفوك! أيكون قد انتقل البارون مايغل من عالم الأحياء إلى عالم الأموات؟. لكن المسألة توضّحت في الحال. فقد أكمل ڤولند وهو يبتسم فرحاً:

ـ كان البارون العزيز مثالاً للياقة، فما أن عرف بقدومي إلى موسكو حتّى اتصل بي هاتفياً، وعرض خدماته عليَّ، طبعاً حسب اختصاصه، أراد أن يعرّفني إلى معالم المدينة. وغنيّ عن القول بأنّني سعيد بدعوته إليَّ.

في غضون ذلك رأت مارغريت، كيف ناول عزرائيل الطبق الذي كانت الجمجمة فوقه إلى كرڤيوف.

وفجأة شرع ڤولند يخاطب البارون بلهجة ودية النبرات خافتة:

تذكّرت يا بارون الآن، أنّه سرت في السابق شائعات عن حبّك الكبير للاستطلاع والمعرفة. حبّك للاستطلاع مقروناً بفصاحتك لفتت الانتباه العام إليك. وبدأت ألسنة السوء توزّع الاتهامات... اتهمتك بالجاسوسية والوشاية. وثمة اعتقاد بأنّ عاقبة هذه الاتهامات ستكون وخيمة عليك. وقد تتأكّد من كلامي هذا بعد شهر، لو لم أقرّر إنقاذك من الانتظار المضني، وأنجدك في الوقت المناسب، مستغلاً الطلب الذي قدّمته ليسمح لك بحضور حفلتنا هذه، وقصدك طبعاً الاصغاء والفرجة.

وهنا أصبح وجه البارون أشدّ شحوباً من وجه أبادونّا، الذي كان بطبيعته شديد الشحوب.

ثم وقعت حادثة غريبة جدًّا. لقد ظهر فجأة أبادونّا أمام البارون، وخلع نظّارتيه ثانية واحدة. ولمع شيء ما بين يدي عزرائيل. وسُمعت جلبة خافتة. ووقع البارون على ظهره. وانبجس الدم القرمزي من صدره، فلطّخ قميصه المنشّى وصداره. ووضع كرڤيوف كأساً تحت مسيل الدماء المتدفّقة، وأعادها ملآنة إلى ڤولند. في تلك الأثناء كان جسد البارون قد

أصبح جثّة هامدة مرميّة على الأرض.

وقال ڤولند بصوت خفيض:

- أشرب نخب صحّتكم أيها السادة. ثم رفع الكأس وألصقها بشفتيه.

وحدث حينذاك تحوُّل هائل. اختفى القميص المرفوء والحذاء البالي. وبدا ڤولند لناظريه في مبذلٍ أسود وعلى جنبه حربة فولاذية. واقترب من مارغريت بسرعة. ناولها الكأس وخاطبها بلهجة آمرة:

- إشربي.

وشعرت مارغريت بدوار. غير أنَّ الكأس كانت قد التصقت بشفتيها، وأصوات رنَّت في أذنيها بكلمات:

- لا تخافي أيتها المليكة... لا تخافي أيتها المليكة. لقد ابتلعت الأرض الدماء. وهناك فوق المكان الذي سالت فيه... نمت أغراس الكرمة.

ودون أن تفتح عينيها، رشفت قطرة من الكأس، فسرى في عروقها تيَّار منعش عذب، وبدأت تسمع رنيناً في أذنيها... وصياح ديكة يصمُّ الآذان.. وبدا لها أنَّها تسمع عزفاً.. عزفوا (مارشاً) في مكان ما. أخذت ملامح حشود الضيوف تذوب وتتلاشى.. وتحوَّل الرجال لابسو (الفراكات) والنساء إلى ذرَّات غبار. وسربل الفَناءِ القاعة وانتشرت في أرجائها رائحة الرموس. وذابت الأعمدة وخمدت الأنوار وتقلَّصت الأشياء، ولم يعد للنوافير ولغرسات السوسن والكاميليا أي أثر. وأصبحت ترى العين ما كانت تراه من قبل: غرفة جوهري متواضع. ومن بابه المشرَع تسرَّبت حزمة من الضوء. ومن هذا الباب دخلت مارغريت.

الفصل الرابع والعشرون

استحضار المعلّم

وبدا كلّ شيء في غرفة نوم ڤولند على حاله، أي كما كان قبل الحفلة. فڤولند كان يجلس في قميص النوم فوق السرير، و(هيلاّ) كانت تقف قربه، غير أنّها لم تكن تدلك له رجليه. والمنضدة التي كانت مغطّاة بلوحة الشطرنج، وضعوا فوقها طعام العشاء، وقد جلس إليها كرڤيوڤ وعزرائيل بعد أن نزعا عنهما مبذليهما، وتربّع بالقرب منهما القط الذي لم يرغب بأن تفارقه ربطة عنقه رغم أنّها استحالت إلى خرقة بالية تماماً.

واقتربت مارغريت مترنّحة من الطاولة واستندت إليها، وسرعان ما دعاها ڤولند إليه مشيراً عليها بالجلوس قربه، كما فعل في الماضي. وسألها:

ـ سبّبنا لكِ الكثير من العذاب!

وأجابت مارغريت بصوت خافت:

ـ لا يا سيِّد.

وقال القط معلّقاً وقد سكب لها سائلاً شفّافاً في كأسها:

ـ النبالة اقتضت ذلك وفرضته..

وسألت مارغريت بصوت واهن:

ـ هذا ڤودكا؟.

ووثب القط على الكرسي مغتاظاً من جوابها، وشخر:

ـ عفوك أيتها المليكة، لم أسكب الڤودكا طيلة حياتي في كأس سيِّدة... اطمئنّي فهذا الشراب هو من السبيرتو النقي!..

وابتسمت مارغريت وحاولت جاهدة أن تبعد عنها الكأس. وخاطبها ڤولند مشجّعاً فما كان منها إلاّ الاذعان... وأخذته بيدها. وأمر (هيلاّ) بالجلوس، وأردف يشرح لمارغريت:

ـ ليلة اكتمال البدر.. هي بمثابة عيد عندي.. فرحة كبيرة. وفي هذا الليل، أتناول طعام العشاء مع الخدم والأصدقاء، فكيف ترين نفسك بعد تلك الحفلة المتعبة؟.

وهمهم كرڤيوڤ مجيباً:

ـ الكلّ مسحور مُعجب ويحبّها مدلّه، والكلّ بقدراتها مفتون وعن مفاتنها ولباقتها يتحدَّث.

وتناول ڤولند كأسه بصمت وتبادل ومارغريت الأنخاب.. فشربت مذعنة وفي قرارة نفسها فكَّرت بأنَّ السبيرتو سيجلب لها نهايتها. لكن لم يحدث شيء من هذا البتّة. فقد شعرت بدبيب ساخن يتمشَّى في بطنها، وبضربات ناعمة على قذالها. فانتعشت وكأنَّها نهضت لتوِّها من الفراش بعد حلم طويل منعش، وشعرت بجوع ينهشها كجوع الذئاب. وأخذ غول الجوع يزأر حين تذكَّرت أنَّها لم تأكل شيئاً منذ صباح البارحة... فراحت تزدرد الكاڤيار بنهمٍ.

وحزَّ بيغموت قطعة من الأناناس، وبعد أن رشّ عليها الملح والبهار وضعها في فمه، وبعد ذلك رشف كأساً ثانية من السبيرتو جرعة واحدة، فصفَّق له الجميع.

وبعد أن شربت مارغريت كأساً ثانية، ازداد سطوع وتألُّق شموع الثريّا، وشعشعت الجمرات في الموقد، ولم تشعر بأنَّها ثملت، وكانت منتشية وهي تمتصّ عصير اللحم بعد أن كانت تعلكه بأسنانها، وفي الوقت ذاته كانت تنظر إلى بيغموت، وهو يدهن سمكة بالخردل.

وقالت هيلاَّ بهدوء وقد لكزت القط في جنبه:

ـ ضع قليلاً من العنب فوق السمكة!.

وأجاب بيغموت:

ـ أرجوكِ أن لا تعلّميني الجلوس. ها إنّي جلست إلى المائدة. اطمئنّي جلست!...

ودمدم كرڤيوڤ بصوت مرتجف النبرات:

ـ جلسة ممتعة قرب الكاميليا، وما أطيبه عشاء وما أبسطه بين المقرَّبين.

وردَّ القط:

ـ لا تغلط يا فاغوت.. فللحفلة رونق وأبعاد.

وقال ڤولند:

ـ لا رونق لها ولا أبعاد. كادت الدببة الغبية ونمور البار تسبّب لي بزئيرها الصداع.

وردَّ عليه القط:

ـ لتكن إرادتك يا سيّد، وإذا كنت ترى أن لا رونق للحفلة ولا أبعاد فأنا من مؤيديك.

وقال ڤولند:

ـ هذا رأيك.

وأجاب القط بلين:

ـ إنّني أمزح... أمّا فيما يختصّ بالنمور فسآمر بشيِّها!.

فقالت هيلاً:

ـ لكن لحم النمور لا يؤكل.

ـ أتظنِّين ذلك؟ أرجوك إذن أن تصغي إلى ما سأقصّه عليكم. ـ تلفَّظ الهر بكلماته وزرّ عينه سروراً ـ أمّا قصّته فتلخَّصت بأنَّه تاه ذات مرّة في صحراء مقفرة. ضاع فترة تسعة عشر يوماً فقتل نمراً وتغذَّى بلحمه. واستمع الجميع إلى تلك الحكاية الطريفة، وما أن انتهى حتّى هتف الجميع بصوت واحد:

ـ كذب بكذب!.

وقال ڤولند معلِّقاً:

ـ ما يثير الانتباه في هذه الحكاية أنَّها كذب بكذب من كلمتها الأولى وحتى الأخيرة.

فهتف القط:

ـ أتظنّون أنَّها كذب بكذب؟ ـ وظنَّ الجميع أنَّه سيحتجّ بشدّة، لكنَّه اكتفى بالقول وبهدوء:

ـ أترك الحكم للتاريخ وحده.

وقالت مارغو مخاطبة عزرائيل وقد انتعشت بعد أن شربت الڤودكا:

ـ قل لي يا عزرائيل... أقتلت ذلك البارون بالرصاص؟!...

فأجاب عزرائيل:

ـ طبيعي. وهل كان عليّ أن أقتله بغير الرصاص؟ بكلّ تأكيد كان من المفروض قتله بتلك الطريقة.

وهتفت مارغريت:

ـ أصابني والله جزع شديد! لقد حدث هذا بغتة.

فردَّ عزرائيل:

ـ كلّ شيء ممكن.

وزعق كرڤيوف وهو يبكي:

ـ وكيف لا يجزع المرء؟ لقد ارتعدت فرائصي هلعاً! طلقة واحدة والبارون أمسى صريعاً!..

وقال القط وهو يلحس الكاڤيار من الملعقة:

ـ كدت أصاب بهستيريا.

وقالت مارغريت وخفقت في عينيها الأنوار الذهبية المتلألئة من الكريستال:

ـ أحبّ أن أفهم ألم يكن مسموعاً دويّ الموسيقى وصخب الحفلة في الخارج؟

وأوضح كرڤيوف:

ـ لم يكن الدويّ مسموعاً يا مليكتي... تترتَّب الأمور ولا يُسمع شيئاً. أجل تترتَّب الأمور.

ـ أيصدق مثل هذا. أيصدق مثل هذا... وذلك الرجل الذي كان يقف على الدرج، حينما مررت مع عزرائيل. وذاك الذي كان يقف عند المدخل. أظن أنَّه كان يرصد شقّتك...

وصاح كرڤيوف:

ـ إنَّكِ تتكلَّمين بالصدق.. نعم الصدق تقولين أيتها العزيزة مارغريت نيقولايڤنا. وبأقوالك ترسِّخين شكوكي. نعم لقد كان يراقب شقّتي، ظننته استاذاً شارد اللبّ أو عاشقاً مضنى. إنَّه لا هذا ولا ذاك!. حسرة أوجعت قلبي. آه! لقد كان يرصد شقّتي!.. وعند المدخل أيضاً كان يقف رجل آخر! وما حدث في الكوّة تحت له معناه أيضاً!...

وسألت مارغريت مستفسرة:

ـ وإذا قدموا ليأخذوك إلى السجن... مسألة والله فيها نظر!؟.

فأجاب كرڤيوف:

ـ إنَّهم قادمون أيتها المليكة الفاتنة الروعاء!... إنَّهم قادمون!. قلبي يحدّثني بمجيئهم... لكن ليس الآن، سيحضرون في الوقت المحدَّد. لكنَّني أعتقد أنَّه لن يحدث شيء هام.

وقالت مارغريت:

ـ لله كيف كان جزعي شديداً حينما خرَّ البارون صريعاً على الأرض. إنَّك تسدِّد جيِّداً وتحسن إطلاق الرصاص.

قالت مارغريت كلماتها تلك وهي ما تزال تحت تأثير حادثة قتلِ البارون، فهذه أوّل حادثة قتل تراها بأمِّ العين.

وأجابها عزرائيل:

ـ أجل إنَّني أحسن التسديد، وأطلقت الرصاص في الوقت المناسب.

وطرحت مارغريت سؤالاً غامضاً على عزرائيل:

ـ وهل تصيب الهدف من مسافة بعيدة؟

فأجاب عزرائيل:

ـ حسب... فتكسير زجاج نوافذ شقّة الناقد لاتونسكي بالمطرقة مسألة... وتمزيق قلبه برصاصة مسألة أخرى...

وهتفت مارغريت وقد وضعت يدها على قلبها:

ـ تمزيق قلبه برصاصة!... وأعادت جملتها الأخيرة بصوت خافت مرّة ثانية.

وسأل ڤولند وقد زرَّ عينه متأمِّلاً مارغريت:

ـ ومن هو ذاك اللاتونسكي؟..

وأطرق الثلاثة: عزرائيل وكرڤيوف وبيغموت خجلاً. وأجابت مارغريت وقد صبغت حمرة الخجل وجهها:

ـ ثمّة ناقد يدعى لاتونسكي. ومساء هذا اليوم دَمَرتُ شقّته تدميراً.

وسألها ڤولند:

ـ وما سبب ذلك؟

فأوضحت:

ـ إنَّه آذى أحد المعلِّمين يا سيِّد!.

وقال لها ڤولند:

ـ ولماذا تعذَّبتِ كلّ هذا العذاب وتحمَّلتِ المشقَّات؟

وهتف القط فرحاً وقد وثب من مكانه:

ـ اسمح لي يا سيِّد لأقوم بهذه المهمة؟.

ودمدم عزرائيل وهو ينهض:

ـ إبقَ حيث أنت، وأوكلوني بالمهمة فسأقوم بها خير قيام.

وهتفت مارغريت:

ـ لا! لا! أرجوك يا سيِّد. لا لزوم لذلك.

فأجاب ڤولند:

ـ كما تريدين وترغبين... قال هذا وعاد وجلس في مكانه.

وتحدَّث كرڤيوف مخاطباً الملكة:

.. أي.. أين توقَّفنا في حديثنا أيتها الملكة الغالية مارغو... نعم رصاصاته تصيب القلب وتمزّقه ـ قال هذا وأشار بإصبعه باتجاه عزرائيل ـ وأكمل: كما يشتهي.. والرصاصات تصيب القلوب في القلوب، وتمزِّق أية معدة..

ولم تفهم مارغريت ما عناه كرڤيوف بقوله. ولمّا أدركت مرامه هتفت متعجِّبة:

ـ لكنَّ الأبواب موصدة، موصدة..

فردَّ عليها كرڤيوف بصوت مرتجف النبرات:

ـ وهنا لبُّ المسألة يا عزيزتي... فالأبواب المفتوحة سهلة المنال.. يدخلها من يريد ومن لا يريد..

قال كرڤيوف كلماته وسحب من درج الطاولة «سبعة» البستوني، وعرضها على مارغريت، وطلب منها أن تعلِّم الورقة بظفرها. فعلَّمت الزاوية اليمنى من فوق. وبعد أن

خبّأت هيلاً الورقة تحت الوسادة هتفت:
ـ ها أنا مستعدّة!.

عزرائيل الذي كان يجلس بعيداً عن الوسادة، سحب من جيب بنطلونه الأسود مسدّساً آلياً، وضع فوهته فوق كتفه، ودون أن ينظر إلى السرير أطلق الرصاص. وأثار بفعلته هذه الذعر في قلب مارغريت، لكنّه كان خوفاً ممزوجاً بالفرح. ومن تحت الوسادة التي ثقبها الرصاص أخرجوا سبعة البستوني. لقد أصابت الرصاصة المكان الذي علّمته مارغريت على الورقة.

وهتفت وهي تنظر إلى عزرائيل بغنجٍ ودلال:
ـ لا! لا.. لا أحبّ لقاك، وبجوزتك مسدّس
ـ لقد كانت تنتظر بعين الرضى والاعجاب إلى كلّ الذين كانوا يمتلكون مواهب فذّة ـ.
وصأصأ كرڤيوف:
ـ أيتها المليكة الغالية... أنا لا أنصح أحداً بلقياه.. حتّى ولو لم يكن يحمل مسدّساً... أنا المرتّل الأوّل في الجوقة أقسم بشرفي أنّني لا أغبط إنساناً على لقائه بعزرائيل.
القط الذي كان يجلس مقطّب الوجه أثناء الرماية، أعلن بغتة:
ـ أنا مستعدٌّ لضرب الرقم القياسي بالرماية.
وزجر عزرائيل بكلمات ما... لكن القط كان عنيداً وطلب بدل المسدّس الواحد اثنين. وسحب عزرائيل المسدّس الثاني من جيب بنطلونه الخلفي. ومدَّ يده نحو المتبجّح بالمسدّسين، وهو يلوي فمه استهزاءً. وعلّموا سبعة البستوني في مكانين مختلفين. واستعدَّ القط طويلاً وقد تنحّى عن الوسادة. أمّا مارغريت فقد سدَّت أذنيها بأصابعها وراحت تتأمّل البومة الغافية فوق سطح الموقد. وأطلق القط رصاصة من الفوهتين معاً. وولولت هيلاً وزعقت.

لقد وقعت البومة على الأرض. وتوقّفت عقارب الساعة عن الدوران. قُتِلت البومة بالرصاص وتحطّمت الساعة!. وشدَّت هيلاً وبر القط وهي تولول وتصرخ وكانت إحدى يديها ملطّخة بالدم. فما كان من القط إلاّ أن شدَّها من شعرها... والتحما وتعاركا وتدحرجا على الأرض، ووقع كأس على الأرض وتحطّم.
ـ ابعدوا عنّي هذه الشيطانة المجنونة ـ زعق القط وهو يدفع عنه (هيلاً)، التي ثبّتته تحتها. وفرّقوا بين المتنازعين.
ونفخ كرڤيوف على إصبع هيلاً المصاب، فشفي في الحال.
وصاح بيغموت:

ـ أنا لا أقدر أن أرمي، حينما يتكلّمون قربي.

قال هذا وحاول أن يعيد خصلة الوبر الكبيرة التي اقتلعت من ظهره.

وقال ڤولند وهو يبتسم لمارغريت:

ـ أقسم يميناً مغلظة، أنَّه فعل هذا عن عمد، إنَّه يجيد الرماية.

وتصافى القط وهيلاً، وتبادلا القبلات، وأخذا ورقة اللعب من تحت الوسادة وتفحّصاها. لم تكن مصابة بغير رصاصة عزرائيل.

وقال القط وهو ينظر عبر الورقة إلى نور الشمعدان:

ـ هذا غير ممكن أبداً.

استمرَّ العشاء السارّ. وطاف الشمع في الشمعدانات. وانتشرت من الموقد أمواج الحرّ الناشف الشذي في أرجاء الغرفة. وغمر مارغريت شعور بالرضى والغبطة، فراحت تتأمَّل الدوائر الدخانية اللولبية الزرقاء السابحة فوق الموقد والمتصاعدة من سجائر عزرائيل، والتي كان القط يحاول اصطيادها بكعب حربته.

ولم ترغب مارغريت أن تغادر المكان رغم اعتقادها أنَّها تأخَّرت كثيراً. وكانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً (هكذا ظنَّت). ومستغلّة فترة الصمت التفتت إلى ڤولند وقالت له بخفر:

ـ لقد تأخَّرت وحانت ساعة الذهاب.

وسألها ڤولند بتهذيب لكن بنبرة جافّة:

ـ وإلى أين تعجّلين؟.

اكتفى الآخرون ـ أي أفراد العصابة ـ بالصمت وأظهروا اللامبالاة، وهم ينظرون إلى الدوائر الدخانية.

وردَّدت مارغريت وقد أزعجها وأربكها مظهر أفراد العصابة ولامبالاتهم:

ـ آن لي أن أغادر ـ قالت هذا، والتفتت كأنَّها تبحث عن الطرحة أو المبذل.

وفجأة بدت أمام نفسها عارية وضايقها عريها وآلمها. فنهضت من مكانها. وأسرع ڤولند ونزع عن السرير مبذله الموسَّخ المدعوك، ودون أن يتفوَّه ببنت شفة ناوله لكرڤيوڤ، فأخذه هذا بدوره وطرحه فوق كتفي مارغريت.

ـ أشكر لك يا سيِّد جزيل الشكر ـ قالت مارغريت كلماتها بصوت خافت، وحدجت ڤولند بنظرة مليئة بالتساؤلات. وابتسم الأخير وكأنَّه بابتسامته اللطيفة اللامبالية أجاب على تساؤلاتها... وافترست قلبها حسرة سوداء موجعة.

خابت آمالها، وشعرت بأنَّها وقعت ضحيّة رخيصة.. نعم لن تكافأ على جهودها.. تلك الجهود الجبّارة التي بذلتها في الحفلة... ساورتها... هذه المشاعر وإلاَّ لماذا لم يحاول أحد

اعتراضها ومنعها من الخروج؟!..

كانت مارغريت تستعد للخروج وتدرك وتعي تماماً أنَّه ليس بمقدرتها الذهاب إلى أيّ مكان.. وبرقت في رأسها فكرة.. هي أن ترجع إلى بيتها القديم.. لكن يا لها من فكرة ملأت القلب قنوطاً وحزناً...

وفكّرت... هل تذلّ نفسها بالسؤال كما نصحها عزرائيل الرجيم الغاوي في حديقة (ألكسندروڤسكي)... وأجابت بصوتٍ عالٍ على تساؤلاتها: لن أذلّ نفسي.

- إلى اللقاء يا سيِّد! طاب ليلك، وأتمنَّى لك الخير... قالت هذا وقرَّرت: بعد أن أغادر هذا المكان سأيمِّم النهر القريب، وأرمي نفسي في مياهه وأموت غرقاً.

وفجأة... خاطبها ڤولند بلهجة آمرة:

- اجلسي يا...

وجلست مذعنة وقد تغيَّرت ملامح وجهها.

وخاطبها:

- هل تريدين إبلاغي أمراً ما قبل الذهاب؟.

وأجابت مارغريت باعتزاز وكبرياء تحسد عليها:

- لا! لا شيء يا سيِّد. كلّ ما أريد أن أقوله هو: إذا كنت بحاجة إليّ بعد، فأنا مستعدّة لتنفيذ أوامرك.. لأنَّني لم أتعب، بل على العكس كان سروري عظيماً بالحفلة. حتّى ولو استمرَّت فترة أطول لكنت بكل طيبة خاطر أقدِّم ركبتي لينحني أمامها ويلثمها آلاف القتلة والذين استحقُّوا عقوبة الموت شنقاً.

قالت مارغريت هذا، ونظرت إلى ڤولند عبر غشاوة من دموع طفرت من عينيها.

وهتف ڤولند بصوت رنَّان مخيف النبرات:

- إنَّكِ على حقّ! إنَّكِ على حقّ! هذا ما يجب أن يكون!.

وردَّد أفراد العصابة كالصدى:

- نعم، هذا ما يجب أن يكون!

وأكمل ڤولند يقول:

- لقد جرَّبناكِ. لا تعرِّضي نفسك لذلّ السؤال عند من هم أقوى منك! هم يعرضون عليك خدماتهم... ويمنحونك كلّ ما تتمنين!. اجلسي أيتها الإمرأة المتكبِّرة!..

ونزع ڤولند المبذل الثقيل عن كتفي مارغريت. وبَدَت من جديد تجلس قربه على السرير. وأكمل وقد لانت لهجته:

- ماذا تريدين يا مارغريت جزاء جهودك التي بذلتيها. ماذا تريدين جزاء قيامك بدور ملكة الحفلة وتمضيتك ليلتك هذه عارية؟ أيّ ثمن تريدين لآلام ركبتك؟ وأية خسائر

جسيمة ألحقها بك ضيوفي الذين سمّيتهم قتلة واستحقّوا عقوبة الموت شنقاً! تكلَّمي وافصحي ولا تخجلي، لأنَّني أنا الذي أطلب منك ذلك؟.

ووجف قلب مارغريت. فحبست أنفاسها وتاهت في بيداء تصوّراتها.

وحمَّسها ڤولند:

ـ تكلَّمي بشجاعة أيتها الملكة، أذك نار تخيّلاتك، أيقظِ ملكة خيالك من سباتها! أي إنسان يستحق الشكر والجزاء على حضوره مصرع البارون التعس السافل، وخاصّة إذا كان هذا الإنسان أنثى!.. تكلَّمي بالله عليكي..

ودبَّت الشجاعة في نفس مارغريت وأرادت أن تردِّد كلمات حفظتها عن ظهر قلب. كلمات قدسيّة محفورة في أعماق نفسها، لكن لون وجهها شحب فجأة، وفغرت فاها وجحظت عيناها، وسمعت هاتفاً ملحاحاً متوسِّلاً يرنّ في أذنها مُعلِناً: «فريدا، فريدا، فيردا، أُدعى فريدا». وتلعثمت مارغريت وتمتمت:

ـ بمكنتي إذن أن أسأل عن أمر خاص واحد؟.

ـ إسألي، إسألي... يا دونّتي الغالية. قال هذا وأعاد كلماتها: «أمر خاص واحد»... ربَّما قد يكون أدرك ما تريد؟!.

ومرَّة أخرى تنهَّدت مارغريت وقالت:

ـ أريد أن يكفُّوا عن فريدا، وأن لا يضايقوها بذلك المنديل الذي خنقت به طفلها.

ورفع القط عينيه إلى السماء، وتنفَّس ضاجًّا، غير أنَّه لم يتفوّه بشيء، ربَّما تذكَّر «فركة الأذن» في الحفلة.

وقال ڤولند وهو يبتسم ساخراً:

ـ مجرَّد التفكير بأنَّ فريدا الغبيّة رشتك باطل، لأنَّ الرشوة تتناقض وكرامتك الملكية، لذلك ترينني حائراً في طلبك ولا أدري ما عليَّ أن أفعله، ثمّة حلٌّ واحد برأيي وهو اقتناء مجموعة من الخرق وسدّ ثقوب غرفة نومي بها.

وهتفت مارغريت متعجِّبة، وهي تسمع كلمات غامضة حقًّا ومفكَّكة المعاني:

ـ عمَّا تتحدَّث يا سيِّد؟

وتدخَّل القط وقال:

ـ أنا من مؤيِّدي رأيك يا سيِّد. نعم يجب أن تسدَّ الثقوب بالخرق. قال الهر هذا وضرب بقائمته الطاولة معبِّراً عن سخطه.

وأوضح ڤولند كلماته دون أن يحوِّل نظراته الناريّة عن مارغريت:

ـ إنَّما أتحدَّث عن الرحمة. إنَّها أحياناً تخترق بمكر ثقوب غرفتي الصغيرة.. ولا بدّ من اقتناء الخرق.

ـ وهذا موضوع حديثي أيضاً!

هتف القط وابتعد عن مارغريت وهو يفرك أذنيه بقائمتيه المدهونتين بالكريم الورديّ اللون.

وقال ڤولند للقط:

ـ أخرج.

فأجاب القط:

ـ لم أشرب القهوة بعد.. فكيف أخرج؟ أم أنَّكم تقسِّمون الضيوف في ليالي الفرح إلى فريقين؟... ضيوف مميَّزون وضيوف «نضارة» درجة ثانية حسب تعبير عامل المقصف التعس الشحيح؟.

وأجابه ڤولند بلهجة آمرة:

ـ صه.

ثم التفت إلى مارغريت وسألها:

ـ أنت إذن إنسانة طيِّبة؟ وخلقك عظيم؟

فأجابت مارغريت بقوّة:

ـ لا. إنَّني أعلم أنَّه يمكن التحدّث معك بصراحة وبصراحة فقط. لذلك أعترف أمامك بأنَّني إنسانة نزقة. طلبت منك الاهتمام بأمر فريدا، لأنَّني وعدتها، بل وأمَّلتها بالوعود. وهي تنتظر يا سيِّد، وتثق بسلطاني. أمَّا إذا ظلَّت مخدوعة، بلا أمل، فسيكون موقفي فضيعاً ورهيباً، ولن أعرف الطمأنينة طيلة حياتي. وما بمقدرتي أن أتراجع وقد حدث ما حدث، ومنَّيتها بالوعود...

فقال ڤولند:

ـ الآن فهمت.

وسألت مارغريت بهدوء: أتعدني بأنَّك فاعل؟.

فأجاب ڤولند:

ـ لن أفعل أيتها الملكة العزيزة. لقد حصل خطأ صغير. فكلّ ساحر موكل بأموره، وله سلطانه الخاص. ولا جدال في أن قدراتنا عظيمة وبلا حدود، وأكبر ممَّا يظنّ البعض، القصيرو النظر.

ـ نعم قدراتنا أكبر ممَّا يظنُّون...

قال القط كلماته بلهجة من نفد صبره. ثم نهض ربَّما تباهياً بتلك القدرات.

فقال له ڤولند:

ـ إخرس، لتخطف الشياطين نفسك.

وأكمل موجِّهاً كلماته إلى مارغريت:

- أيتها الملكة!.. أيّة عبرة في أن نقوم بعمل غيرنا.. ثمّة أعمال موكل بها سحرة آخرون. لذلك لن أفعل ما طلبتيه منّي.. أنتِ قادرة على القيام بذلك العمل..

- وهل بمقدرتي أن أقوم به؟..

وشزر عزرائيل مارغريت بعينه الحولاء استهزاء، وأدار رأسه الأصهب وشخر:

- افعلي ما تريدين... عذاب وأيم الحق ما كان بالحسبان...

تمتم ڤولند بكلماته هذه، وأدار كرته الأرضية، وراح يتأمّل أحد أجزائها، حسبما يبدو شغلت تفكيره مسائل أخرى أثناء حديثه مع مارغريت.

وتمتم كرڤيوڤ مذكِّراً:

- نعم... فريدا...

وهتفت مارغريت بحدّة:

- فريدا!..

وفُتِح الباب على مصراعيه، ودخلت الغرفة امرأة عارية، ربّي كما خلقتني، شعثاء، لا أثر للثمل عليها، تائهة النظرات؛ ومدَّت يديها نحو مارغريت. فما كان من الأخيرة إلاَّ أن خاطبتها بجلال وعظمة الملوك:

- غُفِرَ ذنبك..! لا خوف عليك، ولن يظهر المنديل أمامك بعد اليوم.

وسُمِع عويل فريدا.. وخرَّت مصعوقة على الأرض، وانبطحت أمام مارغريت.

ولوَّح ڤولند بيده، فتوارت فريدا. وقالت مارغريت وهي تنهض:

- أشكر لك يا سيِّد. ووداعاً الآن.

وتكلَّم ڤولند:

- ماذا ترى يا بيغموت؟!.. لن تؤاخذ إنسانة غرّة على أعمالها في ليالي الفرح هذه.

- قال هذا والتفت إلى مارغريت وأردف: هذا العمل غير محسوب. إنَّني لم أفعل شيئاً. ماذا تطلبين لنفسك؟

وساد صمت كلّي، قطعه كرڤيوڤ بهمسة في أذن مارغريت:

- سيِّدتي الغالية! أنصحك بأن يكون طلبك هذه المرّة أكثر تعقُّلاً وذكاءً.. وإلاَّ خذلتنا مليكة الحظوظ وتضيع الفرصة وضياع الفرصة غصَّة.

وقالت مارغريت وقد تشنَّجت عضلات وجهها:

- أريد أن يحضروا لي حبيبي المعلِّم، في هذه الثانية بالذات..

وعصف نسيم في الغرفة.. وخفت لهيب الشموع في الشمعدانات، وانزاحت الستارة الثقيلة، وانفتحت النافذة، وفي السماء البعيدة طلع البدر... وكان الوقت منتصف الليل..

رسم ضوء القمر على أرض الغرفة منديلاً أخضر اللون، ومن الضوء برز ضيف الشاعر إيڤانوشكا.. ضيفه الليلي ذاك المسمّي نفسه معلّماً. كان في ثياب المستشفى.. في المبذل والخفّين والطاقية السوداء التي لم تفارقه. واختلجت عضلات الوجه الذي عادى شفرة الحلاقة منذ زمن. وكشَّر الضيف وهو ينظر شزراً كالمجنون إلى لهب الشموع وحبيبات من نور القمر كانت تغلي من حوله.

وعرفته مارغريت في الحال، (وكيف لا تعرفه). فصرخت ونشجت وصفَّقت بيديها وركضت نحوه. وقبَّلته في جبينه وفي شفتيه. ضمَّته إليها. ألصقت وجهها بالوجنتين الشوكيتين. والدموع... الدموع التي حبستها في المآقي طويلاً... انسابت الآن على الوجنتين... انسابت ساخنة حرّى..

كانت تلفظ كلمة واحدة فقط، وكانت تكرِّرها دونما تفكير:

ـ هذا أنت! أنت! أنت!...

وأبعدها المعلّم عنه وقال لها بجفاء:

ـ لا تبكِ يا مارغو. لا تبكِ. لا تؤلميني. إنَّني مريض. ومرضي لا شفاء لي منه. ـ قال هذا واستند إلى رفّ النافذة بيده كأنَّه استعدَّ ليصعد عليه ويهرب ـ وكشَّر عن أسنانه وهو ينظر إلى الجالسين وصرخ:

ـ أنا خائف يا مارغو! عادت الهلوسة إليَّ من جديد.

وخنقت العبرات مارغريت. وهمست وهي تلفظ الكلمات وكأنَّها تحشرج حشرجة:

ـ لا، لا تخف. أنا معك. أنا معك!.

وبلباقة ودون أن يشعر أحد، قدَّم كرڤيوڤ كرسيًّا إلى المعلّم، فتهاوى فوقه. أمَّا مارغريت فقد ركعت على ركبتيها والتصقت برجل المريض، وهدأت ثائرتها.

وهي في ارتباكها واضطرابها لم تنتبه إلى أنَّها لم تعد عارية. كان على كتفيها مبذل من حرير أسود.

ونكَّس المريض رأسه وراح يتأمَّل الأرض بعينين مريضتين كئيبتين.

وقال ڤولند قاطعاً حبل الصمت:

ـ ساعدوه.

ثم أمر ڤولند كرڤيوڤ قائلاً:

ـ أيها الفارس!، أعطِ هذا الإنسان شراباً ما ليشربه!.

ورجت مارغريت المعلّم بصوت متهدِّج النبرات:

ـ إشرب، إشرب. تخاف؟ ممَّن؟ لا تخف. صدِّق أنَّهم سيساعدونك.

وتناول المريض الكأس وشرب ما فيه. غير أنَّ يده لم تسعفه فاهتزَّت وسقط الكأس على

الأرض وانكسر.

وهمس كرڤيوڤ في أذن مارغريت:

ـ انكسر الشرّ. انكسر الشرّ! . انظري كيف يعود إليه رشده.

وفعلاً فنظرة المريض لم تعد قلقة وقاسية.

وسأل الضيف، القادم مع ضوء القمر:

ـ هذا أنتِ يا مارغو؟.

فأجابت:

ـ نعم. صدّق. أنا هي.

وأمر ڤولند:

ـ ناولوه كأساً ثانية ليشرب.

وبعد أن رشف المعلّم الكأس الثانية حتّى الثمالة، أبرقت عيناه بنور الحياة وامتلأتا بالأحاسيس.

وقال ڤولند وقد زرّ عينه:

ـ وقد تغيّر الموقف، يمكننا أن نتحدّث الآن. من أنت؟

أجاب المعلّم وقد لوَتْ الابتسامة فمه:

ـ أنا لستُ أحداً الآن.

ـ من أين أنت قادم؟

ـ من بيت الكرب. أنا مريض نفسيًّا.

ولم تحتمل مارغريت وقع هذه الكلمات فبكت ونشجت. لكنّها سرعان ما مسحت دموعها وهتفت:

ـ يا لها من كلمات حزينة، قاسية! إنّه المعلّم يا سيّد. أنبّهك يا سيّد. اشفه إنّه يستحق!.

وسأل ڤولند زائره:

ـ هل تعرف من الذي تحدّثه الآن؟

أجاب المعلّم:

ـ نعم أعرف. لقد حدّثني عنك الشاب إيڤان بزدومني وهو جاري في مستشفى الأمراض العقلية.

وردّ ڤولند:

ـ نعم... نعم، لقد حظيت بلقاء ذلك الشاب عند برك (البطريركية)، وكاد يسبّب لي الجنون وهو يبرهن لي عن عدم وجودي!.. وهل أنت مصدّق بي حقًّا... وإنّني أخاطبك الآن؟!.

وقال الزائر:

- لم يبقَ إلاَّ التصديق. لكن كان من الأفضل لو حسبناك هلوسة ووهم خيال مريض، لاطمأنَت حينئذٍ قلوبنا وسكنت بين جنباتنا نفوسنا، وأردف المعلّم متلعثماً: المعذرة على كلامي هذا.

فأجاب ڤولند بتهذيب:

- لك اعتقادك... وليطمئنَّ قلبك.

وقالت مارغريت وهي تهزّ كتف المعلّم خائفة:

- لا! لا!.. تذكَّر أنَّه (هو) حقًّا أمامك!.

وتدخَّل القط في الحديث هنا أيضاً وقال:

- أن أشبه الهلوسة فعلاً. تأمَّلوني جيِّداً من جهة جانبيه، كيف أبدو في ضوّ القمر. قال هذا ونطّ إلى حيث عمود النور، وأراد أن يكمل حديثه، لكنَّه سكت استجابة لطلبهم، واكتفى بالقول:

- حسناً، حسناً. سأسكت، وأكون هلوسة صامتة.

وسأل ڤولند:

- قل لماذا تسمِّيك مارغريت المعلّم؟

فابتسم المعلّم ساخراً وقال:

- ضُعف يُغفر لها. إنَّها تولي روايتي أهمية وتقديراً أكثر ممَّا تستحق.

- وما موضوع الرواية؟

- بيلاطس البنطي.

وخفقت ألسنة اللهيب وارتجفت. رنَّ الإناء فوق الطاولة. لقد أطلق ڤولند ضحكة مدويّة رعديّة، غير أنَّها لم تخف أو تدهش أحداً. وصفَّق بيغموت دون أن يُعرف السبب. وقال ڤولند وقد قطع ضحكته:

- إنَّها لرواية مذهلة حقًّا؟ مذهلة بموضوعها وببطلها. أما كان بمكنتك أن تجد موضوعاً آخر... وتختار بطلاً غير ذلك البطل؟ هات أرني الرواية!.

قال ڤولند هذا ورفع يده نحو السماء.

وأجاب المعلّم:

- ما بمقدرتي أن أفعل ذلك للأسف الشديد... لأنَّني أحرقتها في الموقد.

فأجاب ڤولند:

- عفوك... إنَّني لا أستطيع أن أصدّق ما لا يمكن أن يحدث. فالمخطوطات لا تحترق.

والتفت ڤولند نحو بيغموت وقال:
ـ هات، أعطني الرواية يا بيغموت.
وقفز القطّ من مكانه وخلال لحظة واحدة رأوه يجلس على رزمة مخطوطات سميكة. وناول ڤولند النسخة الأولى وهو ينحني أمامه.
وارتعشت مارغريت وهتفت وقد طفرت الدموع من عينيها:
ـ ها هي المخطوطة! ها هي!.
واندفعت نحو ڤولند وهي تردِّد باعجاب:
ـ على كلٍّ شيء قدير!.. على كلِّ شيء قدير!..
وتناول ڤولند المخطوطة فوضعها جانباً وسكت. وراح يحملق بالمعلّم. وإذا بهذا الأخير يقع فريسة الكآبة والقلق. فنهض من مكانه ورفع يديه إلى السماء، مولياً وجهه نحو القمر، وشرع يتمتم وهو يرتعش:
ـ وفي الليل، في ضوء القمر، لا تعرف نفسي الطمأنينة... لماذا تقلقون راحتي بحقِّ الله... أيتها الآلهة! أيتها الآلهة!..
وتشبَّثت مارغريت بالمبذل، وراحت هي الأخرى، دامعة العين، تهتف بكآبة:
ـ يا إلهي! يا إلهي! ألم ينفعك الدواء؟
وهمس كرڤيوڤ، وهو يتلوّى قرب المعلّم:
ـ لا بأس... لا بأس. كأس واحدة... ويهدأ.
ولاح في ضوء القمر الكأس ولمع... كان كأس الخلاص. بعد أن شربه المعلّم، أجلسوه في مكانه، فسكن، وهدأت قسمات وجهه المعذَّبة القلقة.

وقال ڤولند:
ـ الآن توضَّحت الأمور.
قال هذا وراح يضرب المخطوطة بسبَّابته.
ـ نعم... وضحت وضوح الشمس في رابعة النهار.
أكَّد القط الذي نسي وعده بأن يبقى هلوسة صامتة، وأكمل:
ـ الآن بانت لي خيوط تلك الرواية. والتفت إلى عزرائيل الصامت وسأله:
ـ ماذا تقول يا عزرائيل؟
فخنَّ ذلك مجيباً:
ـ أما كان من الأفضل لك أن تموت غرقاً؟
فردَّ عليه القط:
ـ كن رحيم القلب يا عزرائيل، لا تقسو، ولا تلهم سيِّدي هذه الفكرة. صدِّق بأنَّني

سأظهر لك ببُردة من نور، مثل هذا المعلّم المسكين، وسألوّح لك بيدي وأدعوك إليّ. ومن دوني ماذا كان سيحلّ بك؟

وسأل ڤولند:

ـ مارغريت.. اطلبي ما تشائين!..

وومضت عينا مارغريت وكلّمت ڤولند متوسّلة:

ـ هلاّ سمحت يا سيّد بأن أسرّ إلى المعلّم ببضع كلمات؟

وأومأ ڤولند برأسه، علامة الرضى. فقرّبت مارغريت فمها من أذن المعلّم وهمست بكلمات ما. سُمِع المعلّم يجيب على أثرها:

ـ تأخّرنا. ماتت آمالي. ولم أعد أرغب إلاّ برؤيتك. لكنّني أنصحك من جديد بأن تتركيني وشأني. ستخسرين حياتك قربي.

وأجابت مارغريت:

ـ لن أتركك.

والتفتت إلى ڤولند وقالت له:

ـ أتوسّل إليك أن تعيدنا إلى ذلك القبو البعيد في زقاق (الأربات)، حيث يضيء لنا المصباح. وأن تعيد كلّ شيء إلى حالته السابقة.

فضحك المعلّم من قولها ولثم خصل شعرها المبعثر وقال مخاطباً ڤولند:

ـ لا تصغي يا سيّد إلى أقوال إمرأة مسكينة. ولا سيّما أنّ إنساناً آخر يسكن القبو منذ فترة. وما سمعنا بعد أنّ الأمور عادت في يوم من الأيام إلى سابق عهدها.

قال هذا وأسند خدّه إلى رأس حبيبته، ثمّ ضمّها إليه وشرع يتمتم:

ـ يا للمسكينة! يا للمسكينة.

وكلّمه ڤولند متسائلاً:

ـ تقول إنّ الأمور لا تعود إلى سابق عهدها؟!... قولك صحيح لكن علينا أن نجرّب.. فلنجرّب!..

قال ڤولند هذا وهتف: عزرائيل!...

وفي الحال هوى من سقف الغرفة على الأرض رجل شارد اللبّ ضائع كالمجنون، كان في ملابسه الداخلية ويحمل في يده حقيبة، ويعتمر قبّعة. ومن شدّة هلعه ارتمى في الحال على كرسيّ.

وسأل عزرائيل القادم، النازل من السماء:

ـ أنت مغاريتش.

فأجاب ذاك وهو يرتجف كالورقة:

ـ نعم، أنا ألوزي مغاريتش.
فسأله عزرائيل:
ـ أنت الذي وشيت بهذا الإنسان بعد أن قرأت مقال الناقد لاتونسكي عن روايته، واتهمته بأنّه يحتفظ في بيته بكتب ممنوعة؟..
وازرقّ لون وجه المواطن القادم لتوّه، وبكى ندماً.
وخنّ عزرائيل متسائلاً، وهو يحاول التحدُّث بصراحة أكثر:
ـ أردت أن تأخذ شقّته وتسكنها؟.
وسُمع فحيح القط المغتاظ في الغرفة. وصرخت مارغريت:
ـ إذا كنت تَماماً فأنا ساحرة شرّيرة.
ثم غرزت أظافرها في وجه ألوزي مغاريتش.
وحدث في الغرفة هرج ومرج.
وصاح المعلّم بصوت نبراته مفعمة بالألم:
ـ مارغو! ماذا تفعلين. لا تنزلي إلى مستواه، عيب عليكِ.
فولول القط:
ـ أنا أحتجّ! أنا أحتجّ... هذا لا يُعدّ عيباً.
وجذب كرڤيوڤ مارغريت نحوه وأبعدها.
وهتف مغاريتش النازف، وهو يصرّ أسنانه:
ـ لقد بنيت حوضاً للاستحمام... ثم تلفَّظ بكلمات مفكَّكة، لا معنى لها مثل: جير.. زاج.
وقال عزرائيل مُثنياً:
ـ لقد أحسنت صنعاً ببنائك الحوض، لأنَّه بحاجة للاستحمام. ثمّ هتف:
ـ اخرج!.
وهنا نكَّسوا رأس مغاريتش إلى أسفل ورفعوا له رجليه إلى أعلى وقذفوه من نافذة الغرفة.
وحملق المعلّم بعينيه وهمس:
ـ أعترف بأنَّ ما أراه بأمّ عيني أبلغ في النفس ممّا حدَّثني به إيڤان!... وتأمَّل من حوله مشدوهاً كالمصعوق وأخيراً خاطب القط بقوله:
ـ معذرة هذا أنت. أنتم.. ارتبك، احتار كيف يخاطب القط. «بأنت» أم «بأنتم». وأكمل:
ـ أنتم القط نفسه الذي جلس في الترام؟..

ـ نعم أنا ـ أجاب القط المثنى عليه مؤكّداً. وأضاف: من دواعي سروري أن أسمع مخاطبتك القط بتهذيب ولطف.

لا أعرف لماذا يخاطبون القط بصيغة المفرد، مع إنّي لم أعرف ولم أرَ في حياتي قطّا واحداً شرب نخب أحد من أيٍّ من الناس.

وأجاب المعلّم بلهجة المشكّك:

ـ لماذا يبدو لي أنكم لستم قطّا. ـ والتفت إلى ڤولند وقال له:

ـ على أيّة حال، لن يدعوني أغادر المستشفى.

ـ ولماذا لن يدعوك تترك المستشفى؟ ـ قال كرڤيوڤ بلهجة مطمئنة وبدت بين يديه أوراق وكتب ـ أيكون السبب: ملفّ مرضك؟!.

ـ نعم.

وقذف كرڤيوڤ بملفٍّ في الموقد.

وقال كرڤيوڤ:

ـ طالما أنّ الوثائق مفقودة، فمعنى هذا أنَّ الانسان لم يعد هو أيضاً موجوداً.

ـ وهذا دفتر وكيل المبنى.

ـ صحيح!...

ـ أنظر الأسماء المسجَّلة في الدفتر... اسم ألوزي مغاريتش!... ونفخ كرڤيوڤ على صفحة الدفتر، وأمحى الاسم فوراً. وأردف: تفضّل وانظر: أمحي الإسم كأنّه لم يكن. وإذا تعجّب صاحب المبنى فقل له إنّ ألوزي ذاك كان طيفاً رآه في الحلم. مغاريتش أي مغاريتش هذا. لا مغاريتش ولا ألوزي... وتبخّر الدفتر من بين يدي كرڤيوڤ..

وقال:

ـ الدفتر الآن على الطاولة أمام وكيل المبنى.

قال المعلّم الذي صعقته أعمال كرڤيوڤ الخارقة:

ـ لقد نطقت بالصواب: إذا فقدت الوثائق، فقد الإنسان هو أيضاً وجوده... وأنا إذن غير موجود لأنّني لا أملك وثائق تثبت وجودي.

ـ المعذرة! المعذرة ـ هتف كرڤيوڤ ـ هذه هلوسة حقّا.. هاك وثيقتك خذها!.. وناول كرڤيوڤ المعلّم أوراقه، وبعد ذلك همس في أذن مارغريت مستعطفاً:

ـ هاكِ ثروتك يا مارغريت نيقولايڤنا. ـ قال هذا، وناولها دفتراً محترق الحواشي، وزهرة يابسة وصورة فوتوغرافية. وبحيطة وحذر كبيرين ناولها دفتر التوفير. ثمّ هتف:

ـ نقودك يا مارغريت نيقولايڤنا... العشرة آلاف روبل... الحمد لله لسنا بحاجة إلى أموال الآخرين.

ـ الأفضل أن تيبس قوائمي من أن آكل مال الغير ـ قال القط المرهق وهو يرقص فوق حقيبة كي يجعلها تتّسع لنسخ رواية لم يكتب لها النجاح.

ـ أوراقكِ!... قال كرڤيوڤ وهو يناول مارغريت الأوراق الثبوتية خاصتّها. وبعد ذلك التفت إلى ڤولند مبلّغاً باحترام:

ـ نفّذت كلّ أوامرك يا سيّد!.

فأجاب ڤولند وقد حوّل بصره عن «الكرة» أمامه:

ـ لا. لم تنفّذ كلّها بعد. وأكمل مخاطباً مارغريت:

ـ سيّدتي العزيزة إلى أي مكان تريدين نقل أفراد حاشيتك. إذ لم أعد بحاجة إليهم.

وهنا دخلت ناتاشا، عارية، وصفّقت بيديها وهتفت مخاطبة مارغريت:

ـ بورك لكِ هذه السعادة يا مارغريت نيقولايڤنا! لقد كنت أعرف إلى أين ذهبت، ـ قالت هذا وأومأت برأسها نحو المعلّم.

وقال القط معلّقاً وقد رفع قائمته ـ إشارة دالّة ـ :

ـ إنّ الخدم يعرفون كلّ الخفايا ومن الخطأ أن نعتبرهم عمياناً!.

وسألت مارغريت خادمتها:

ـ ناتاشا! ماذا تريدين؟ أتودّين العودة إلى البيت القديم؟.

وأجابت ناتاشا مستعطفة وقد جثت على ركبتها:

ـ يا حبيبتي مارغريت نيقولايڤنا!... تشفّعي بي عندهم. إسأليهم، ـ وأومأت بطرف عينها إلى ڤولند ـ إسأليهم ليبقوني ساحرة. لا أريد العودة إلى المخدع القديم! لا أريد أن أتزوّج لا مهندساً ولا حرفيًّا... في حفلة البارحة طلب السيّد جاك يدي.. نعم.. وفتحت ناتاشا كفها وأرتهم عملة ذهبية.

وحوّلت مارغريت طرفها السائل نحو ڤولند، فأومأ ذاك برأسه بالايجاب.

وحينذاك طوّقت ناتاشا عنق مارغريت بيديها، وأمطرتها بالقبلات الرنّانة، وصاحت صيحة الظفر وطارت من النافذة.

ومثل أمام ڤولند المواطن نيقولاي إيڤانوڤتش، وقد بدا كئيباً ومغتاظاً حتّى. وقد عادت إليه هيئته الآدمية.

وقال ڤولند وهو ينظر إليه متقزّزاً:

ـ بكلّ سرور.. بل وبفرح غامر أطلق سراح هذا الإنسان. فإنّني لست بحاجة إليه، ولا منفعة ترجى من وجوده هنا.

وأجاب نيقولاي إيڤانوڤتش وهو ينظر من حوله مستوحشاً:

ـ أرجوكم، رجاءً حارًّا، إعطائي وثيقة تشهد بأنّني أمضيت ليلة البارحة عندكم.

ـ وكان نيقولاي يلحّ في طلبه هذا ـ
وسأل القط بصراحة:
ـ ولمن ستبرز هذه الشهادة؟
ـ سأبرزها لرجال الشرطة ولزوجتي.
فأجاب القط وقد عَبَس:
ـ نحن لا نعطي عادة مثل تلك الشهادات. لكنّنا سنستثنيك وحدك.

وما كاد نيقولاي إيڤانوڤتش يهدأ، حتّى كانت قد سبقته (هيلاً) (عارية) وجلست وراء الآلة الكاتبة. وأملى القط عليها ما يلي:

« أنا الموقّع امضائي أدناه، أشهد أنّ حامل هذه الوثيقة نيقولاي إيڤانوڤتش قد أمضى ليلة البارحة عند الشيطان. وقد حضر إلى الحفلة الكبرى بمثابة وسيلة نقل. (امتُطِيَ كالعفر*).

الامضاء:
بيغموت

وصأصأ نيقولاي إيڤانوڤتش:
ـ ضعوا التاريخ، أرجوكم!

فردّ القط: إنّنا لا نضع التاريخ. فالتاريخ يُبطل الوثيقة. قال القط هذا ولوّح بالورقة، وحصل من مكان ما على خاتم، وحسب ما تنصّ عليه العادات نفخ عليه، وطبع على الوثيقة كلمة (للتأكيد) وسلّمها لنيقولاي إيڤانوڤتش، الذي تبخّر بعد ذلك. وظهر مكانه إنسان جديد فاجأ بحضوره الجميع.

وسأل ڤولند بازدراء، وقد وضع يده فوق عينه متّقياً أنوار الشموع:
ـ وهذا من يكون؟..
وأطرق ڤارنوخا. وقال بعد أن تنفّس الصعداء:

ـ أعيدوني، إلى حيث أتيت! لم أولد لأكون مصّاص دماء. كدتُ وهيلاً نسبّب الموت لريمسكي! أنا لست متعطّشاً لشرب الدماء. أطلقوني.

وسأل ڤولند وقد قطّب حاجبيه:
ـ بماذا يهرف هذا؟ ومن هو ريمسكي؟ أيّة سخافات بربّكم هي هذه؟.
فردّ عزرائيل: اطمئنّ ولا تقلق يا سيّد.
والتفت إلى ڤارنوخا وقال له:

(*) ذكر الخنزير.

ـ الدجل ممنوع على التلفون أليس كذلك؟ أتعدني بأن لا تدجّل بعد اليوم، وبأن لا تعود إلى مثل تلك الأعمال الشائنة؟!..

واختلطت الأمور في رأس ڤارنوخامن فرط سروره، وأشرق وجهه بالنور، وراح يتمتم دون تفكير:

ـ أريد أن أقول الحقيقة... يا صاحب الجلا... الآن بعد الغداء..

ووضع ڤارنوخا يده على صدره وأخذ ينظر إلى عزرائيل متوسّلاً مستعطفاً.

وأجاب عزرائيل:

ـ هيّا... عُدْ إلى بيتك.. وذاب ڤارنوخا...

وأمر ڤولند مشيراً إلى المعلّم ومارغريت:

ـ أمّا الآن دعوني أنفرد بهما..

ونُفّذ أمر ڤولند بلمحة خاطفة. وبعد فترة صمت كلّم ڤولند المعلّم:

ـ تريد العودة إلى القبو في الأربات. ومن سيكتب وسيبدع؟ ولمن ستترك الوحي والإلهام والخيال؟

ـ تركتني الأحلام، ولا خيال ولا إلهام، وما عاد بمقدور أحد أن يدخل إلى قلبي السرور أو يثير انتباهي.. سواها هي..ـ ووضع المعلّم يده من جديد على رأس مارغريت وأكمل: لقد حطّموني.. ومللت البقاء.. وأريد أن أعود إلى القبو.

ـ وروايتك.. روايتك عن بيلاطس ماذا تفعل بها؟

ـ لله كم هي بغيضة إلى قلبي.. لقد سبّبت لي الكثير من العذاب.

ورجته مارغريت موجعة أن يكفَّ عن كلامه.

وقال ڤولند:

ـ لكن يجب أن تكتب. يجب أن تبدع؟! وإذا استنفد ذلك الوالي مدادك، فابدأ بالكتابة ولو عن ألوزي؟

وابتسم المعلّم وقال:

ـ ألوزي.. موضوع ليس ذا أهمية، عدا عن أنَّ لاپشنيكوف لا يطبع مثل هذه الروايات!.

ـ وكيف ستكسب قوتك؟ إذ أنّك ستصبح فقيراً بائساً.

ـ يا ليت! يا ليت!.. أجاب المعلّم، وقد ضمَّ مارغريت إلى صدره، وأضاف: وحينذاك ستفهم وستعقل وستتركني وشأني.

فقال ڤولند عبر أسنانه: لا أظنّ أنّها ستدَعك وشأنك. وأردف: هكذا إذن... الإنسان الذي أرّخ حياة بيلاطس البنطي، يريد العودة إلى القبو، ليرتاح في ضوء المصباح،

ويعيش فقيراً معدماً !..

وابتعدت مارغريت عن المعلّم وقالت بحماس ملتهب:

- لقد بذلت كلّ ما بوسعي. وأرشدته إلى أكثر الطرق غواية. فرفض.

- إنّني أعرف بماذا أسرّيتِ إليه. والطريق التي أرشدتيه إلى سلوكها ليست أشدّ الطرق غواية، لكن الحق أقول لك إنّ روايتك ستحمل لك مزيداً من المفاجآت.

فأجاب المعلّم:

- وهذا ما سيسبّب لي الحزن والأسى.

- لا حزن ولا خوف عليك بعد الآن. لقد تمّ كلّ شيء يا مارغريت نيقولايڤنا. هل أغضبتكم بعملٍ من أعمالي؟ تكلّما؟ أثمّة احتجاج ضدّي؟!..

- العفو! العفو يا سيّد!..

- إذن، على سبيل الذكرى، تقبّلا هذه الهدية منّي. قال ڤولند هذا وأخرج من تحت الوسادة نضوة من ذهب مرصّعة بالألماس.

- لا.. لا.. إنّها هدية غير مناسبة..

فسألها ڤولند وهو يبتسم:

- أتريدان مخاصمتي؟.

وأخذت مارغريت النضوة، ووضعتها في محرمة، وصرّتها، لأنّ مبذلها كان بدون جيوب له.

مسألة ما حيّرتها... فنظرت من النافذة فبدا القمر مضيئاً، فسألت:

- ما لم أقدر أن أفهمه، هو أنّنا ما زلنا في منتصف الليل، فكم يا ترى طويل ليلنا؟ لقد تأخّر الصباح، أما آن لشمسه أن تشرق؟!.

فأجاب ڤولند:

- من مدعاة ليل السرور تأخير الفرح قليلاً... أتمنّى لكما السعادة!.

ومدّت مارغريت يديها نحو ڤولند كما يفعل المصلّون في المعابد، لكنّها لم تجرؤ على الاقتراب منه، اكتفت بأن هتفت بهدوء:

- وداعاً! وداعاً!.

وردّ ڤولند:

- إلى اللقاء!.

وخرجت مارغريت مرتدية مبذلها الأسود، وبصحبتها المعلّم وهو في ثياب المستشفى. خرجا إلى ممرّ في شقّة الجوهري.. ممرّ أضاءته شمعة وحيدة، وكان بانتظارهما أفراد عصابة ڤولند.

وحينما غادروا الشقّة، حملت هيلاَّ الحقيبة التي حوت داخلها الرواية وثروة مارغريت نيقولايڤنا الصغيرة. وساعدها القط، وعند الباب، انحنى كرڤيوف مودّعاً واختفى. أمّا المشيّعون فنزلوا على الدرج الذي كان خالياً. وحينما مرُّوا أمام الطابق الثالث سُمعت ضجّة خفيفة ناتجة عن اصطدام شيء بالأرض. لكنَّها لم تُثر انتباه أحد. وعند الباب الرئيسي في أسفل الدرج، نفخ عزرائيل في الهواء.

ولما خرجوا إلى الحوش الذي أناره ضوء القمر، رأوا إنساناً مستسلماً للنوم، وما زال في حذائه وقبّعته. ورأوا كذلك سيَّارة كبيرة سوداء اللون متوقِّفة عند المدخل، وكانت مصابيحها الأمامية مطفأة. ومن الزجاج الأمامي بدا طيف غراب مغتمّاً.

وما أن استعدّا لركوب السيَّارة حتّى هتفت مارغريت بصوت خافت يائس النبرات:

ـ يا إلهي لقد أضعت النضوة.

فقال لها عزرائيل:

ـ اجلسي في السيَّارة وانتظريني، فسأعود بعد قليل... بعد أن أتبيَّن ما حدث. قال هذا وتركهم.

تلخّصت المسألة في أنّه قبيل مغادرة المعلّم ومارغريت وصحبها الشقّة رقم ٤٨، الواقعة تحت بيت الجوهري، كانت قد سبقتهم على الدرج إمرأة نحيفة تحمل محفظة في يد وفي اليد الثانية صحيفة من التنك. كانت هذه الإمرأة هي أنوشكا التي مرَّ ذكرها آنفاً.. والتي سكبت زيت عبّاد الشمس على سكّة الترام يوم الأربعاء، ذلك اليوم المشؤوم الذي نفّذ فيه القدر حكمه ببرليوز التعس.

لا أحد يعرف شيئاً عن أنوشكا، لا الآن ولا مستقبلاً.. ماذا كانت تعمل في موسكو؟ وكيف كانت تكسب قوتها؟ أسرار لا يعرفها أحد. جُلّ ما عُرِفَ عنها أنّها كانت تشاهد يومياً وهي تحمل بيدها إمّا صفيحة من التنك وإمّا محفظة، وإمّا المحفظة والصفيحة معاً، وتقف قرب محطّة للزيوت أو في السوق، أو تحت رواق بيت، أو على الدرج. وغالباً ما كانت تُشاهد في مطبخ الشقّة رقم ٤٨، حيث كانت تعيش هناك. ما عرف عنها وشاع أيضاً، أنها حيث ما توجد، تبدأ في الحال الفضائح والمشاكل، وأنّها تلقّب بالطاعون.

وما كان أحد يعرف سبب نهوضها باكراً. وهذا اليوم نهضت قبل بزوغ الفجر، قامت من فراشها في الواحدة من منتصف الليل. فأدارت المفتاح في رتاج الباب ثمّ أخرجت أنفها، ثمّ عادت وظهرت بكليتها، وأغلقت الباب من ورائها واستعدَّت للتطواف في المدينة. وإذا بصرير باب يسمع في أحد الشقق الفوقية، وأحد الأشخاص تدحرج على أرض الدرج إلى الأسفل... وهجم عليها فوقعت وارتطم قفاها بالجدار. وزعقت:

ـ إلى أين تذهب في ملابس النوم، لتخطفك الشياطين؟.

فما كان من المطرود في ثياب النوم والمعتمر قبّعة والحامل في يده حقيبة، وعيناه ما زالتا مطبقتين، إلاّ أن أجابها بصوت قاسي النبرات:

عمود ـ زاج، الطرش وحده كلّف غالياً... ـ قال هذا وزأر باكياً:

ـ أخرج، أخرج... ثمّ وثب إلى أسفل الدرج وثباً، وعاد إلى فوق حيث نافذة زجاجية مكسورة، كسرها المسؤول الحالي. وعبر هذه النافذة طار الرجل إلى الحوش، ورأسه إلى فوق ورجلاه إلى تحت.

ونسيت أنوشكا أوجاع قفاها، فتوجّهت متأوّهة، نحو النافذة، وانبطحت على الأرض، وأخرجت رأسها من النافذة لتطلّ على الباحة وترى ما جرى للإنسان الطائر، وهل تحطَّمت أضلاعه فوق الاسفلت المضاء بأنوار المصابيح، وإذا كانت حقيبته بقربه؟. لكنَّها لم تَرَ أحداً. فاعتقدت أنّ الكائن الغريب طار من نافذة البيت كما تطير العصافير... دون أن يبقى منه أيّ أثر...

ورسمت أنوشكا إشارة الصليب على صدرها وفكَّرت: ليس من قبيل المصادفة كلام الناس عن الشقّة رقم خمسين!.. يا لها من شقّة منحوسة؟!... وأثناء انشغالها في التفكير، صرّ الباب ثانية فوقها، وركض شخص آخر مندفعاً من الأعلى. والتصقت أنوشكا بالحائط ورأت مواطناً محترماً ملتحياً، وجهه يشبه خطم الخنزير، مرَّ من أمامها وغادر البيت طائراً من النافذة مثل رفيقه، دون أن يفكّر بأنَّ أضلاعه قد تتحطَّم على الاسفلت!.

ونسيت أنوشكا وجهة سيرها، تسمَّرت على الدرج وهي ترسم إشارة الصليب وترسل الآهات وتتحدّث مع نفسها. وبدا شخص ثالث لا لحية له، وجهه حليق ومدوَّر، ويرتدي قميصاً، ركض إلى فوق، خلال وقت قصير، ومثله مثل رفيقيه، طار يرفرف من النافذة.

ويحقّ لأنوشكا أن تفخر بأنَّها كانت محبّة للاستطلاع، ميَّالة بطبعها إلى المعرفة.. فقرَّرت أن تنتظر إذا ما كانت ستحدث خوارق جديدة؟... وفُتِح الباب من جديد، وخرجت جماعة من الناس.. ونزل أفرادها على الدرج بهدوء.

وركضت أنوشكا، مبتعدة عن النافذة إلى شقّتها. فتحت بابها بسرعة واختبأت وراءه. ولمع طرفها بنار الحشرية وتلألأ من ثقب الباب. ورأت شخصاً مريضاً وما هو بمريض، غريب الهيئة، شاحب الوجه، طويل اللحية، يعتمر طاقية سوداء، ويرتدي مبذلاً. وكان ينزل على الدرج بخطوات مرتعشة؛ وقد أمسكت ذراعه بحرص سيِّدة في بردة سوداء. وكانت السيدة تبدو، في الظلام الدامس حافية القدمين حينا، ومنتعلة فردتي حذاء شفّافتين مستوردتين أحياناً. وقالت أنوشكا بينها وبين نفسها: «تفو! ماذا أرى.. فردتي حذاء عجيبتين؟! والسيِّدة عارية، نعم البردة لفَّت جسداً عارياً.. شقّة يا لها من شقّة.. ملعونة حقّا».

وغمرت السعادة نفس أنوشكا ... وكيف لا وقد امتلأت جعبتها بالأخبار اللذيذة التي ستقصّها على الجيران في الغد!

ولحقت بالسيّدة الغريبة الزيّ، سيّدة ثانية، عارية أيضاً، تحمل حقيبة صغيرة في يدها، وخفق قربها قطّ أسود هائل الحجم. وكادت أنوشكا أن تصأصىء بصوت مسموع وهي تمسح عينيها من فرط الدهشة.

وسار في نهاية الموكب رجل غريب ضئيل أحول العين، ارتدى صداراً أبيض، دون سترة، بربطة عنق. ونزل الموكب إلى تحت مارًّا من أمام أنوشكا. ووقع شيء ما على الأرض. وما أن تلاشى وقع الخطوات حتى راحت أنوشكا تزحف كالأفعى من وراء الباب، مسندة صفيحة التنك إلى الجدار.. راحت تبحث منبطحة عن الشيء المفقود ووقعت بين يديها المحرمة فرازتها فإذا هي ثقيلة الوزن، وفغرت أنوشكا فاها تعجُّباً. وما أن فتحتها حتَّى لمعت عيناها ومضتا بنارٍ كتلك التي تومض في عيون الذئاب الجائعة. وكيف لا تلمع عيناها وأمامها ثروة حقيقية!...

وعصفت في رأس أنوشكا زوابع الطمع، وحدَّثت نفسها قائلة: «لا أحد رأى ولا أحد عرف!.. والآن ما تراني فاعلة بهذه النضوة الثمينة، أأذهب إلى ابن أختي وأهديه إيَّاها؟ أم أقطِّعها ولا سيما أنَّه من السهل انتزاعها مني؟.. أم أقسمها إلى قسمين وأخفي نصفاً في پتروڤكا والنصف الثاني في سمولنسكي... لا أحد رأى ولا أحد عرف!.. أي!». وأخفت أنوشكا الثروة في عبِّها، وأخذت صفيحة التنك وأرادت أن تنسلّ إلى شقّتها بعجلة، مؤجِّلة رحلتها إلى المدينة، وإذ انتصب أمامها بغتة كائن، إبليس وحده يعرف من أين أتى. انتصب أمامها ذو الصدار الأبيض نفسه وهمس بهدوء:

ـ هاتِ النضوة والمنديل..

وسألت أنوشكا بتكلّف وختل ظاهرين:

ـ أيّة نضوة. لا علم لي بما تسأل عنه. أتكون ثملاً أيها المواطن أم أنَّك فقدت عقلك؟

فما كان من صاحب الصدار الأبيض إلاَّ أن أمسك بخناقها بيدين قاسية الأصابع كقضبان الأوتوبيسات وباردة مثلها. وضغط وكادت تلفظ أنفاسها خنقاً، فوقعت الصفيحة من يدها على الأرض. وأفلت الغريب عنق أنوشكا من بين أصابعه، بعد أن حبس عنها الهواء بعض الوقت وكاد يقتلها. وبعد أن ملأت أنوشكا رئتيها بالهواء ابتسمت وقالت:

ـ تتكلَّم عن النضوة. سأحضرها في هذه الدقيقة. إنَّها لك؟. نظرتُ فرأيتها في المنديل. لقد التقطتها قصداً حتّى لا تقع بين يدي عابر سبيل فيخفيها.

وما أن حصل الغريب على النضوة حتى راح يزجي المديح لأنوشكا ويشدّ بقوة على يدها

ويشكر لها بجرارة صنيعها.. شكرها بكلمات معبّرة وبلكنة أجنبية مميّزة:

- أشكر لك صنيعك يا سيّدتي. إنّ هذه النضوة عزيزة عليّ. ذكرى غالية. اسمحي لي أن أكافئك بمئتي روبل لأنّك حافظت عليها. قال هذا وفي الحال أخرج من جيب صداره نقوداً ونفحها بها.

وارتسمت على مخايل أنوشكا ابتسامة يائسة واكتفت بأن هتفت:

- أشكر لك.. مرسي! مرسي!..

واجتاز الأجنبي الكريم درجات السلّم بخطوة واحدة، منسلاً إلى تحت، لكن قبل أن يتوارى تماماً عن الأنظار هتف بلهجة سليمة صحيحة هذه المرّة:

- اسمعي يا عجوز النحس. إذا وجدتِ غرضاً ضائعاً في المرّة الثانية، فسلّميه لرجال الشرطة بدلاً من أن تخبّئيه في عبّك!.

وظلّت أنوشكا مسمَّرة على الدرج، مشدوهة مشوَّشة الأفكار وتهتف بلا وعي:

- أشكر لك صنيعك... مرسي مرسي مرسي!..

ولكن الغريب كان قد اختفى عن الأعين، واختفت كذلك السيَّارة من الباحة. وودَّع عزرائيل مارغريت بعد أن أرجع لها هدية ڤولند. وسألها عن جلستها إذا ما كانت مريحة أم لا؟!. وتبادلت هيلاً ومارغريت القبل، أمَّا القطّ فانحنى ولثم يدها.. ولوَّح المشيِّعون بأيديهم للمعلّم الذي تهاوى على مقعده بلا حياة ولا حركة. ولوَّح المشيِّعون للغراب وذابوا في الهواء دون أن يتجشّموا مشقّة الصعود على الدرج.

وأضاء الغراب (السائق) مصابيح السيَّارة الأمامية وانطلق بها، مارًّا من أمام إنسان مستسلم لسلطان الكرى العميق. وضاعت أنوار السيارة السوداء الكبيرة وسط الأنوار الأخرى في شارع السادوڤايا الصاخب الذي لا ينام.

وبعد ساعة من الزمن، وفي قبو بيت صغير في أحد أزقّة الأربات، وفي الغرفة الأولى حيث بدا كلّ شيء كما كان في السابق أي قبل تلك الليلة الرهيبة من ليالي خريف العام الماضي، ووراء طاولة مغطّاة بغطاء مخملي تحت نور المصباح... نفس المصباح قرب أصيص السوسن... تحت سقف الغرفة ذاتها، جلست مارغريت.. وبكت، بكت بهدوء وذرفت الدموع من فرط السعادة والتأثّر...

ووضعت أمامها على الطاولة الدفتر الذي حرقت النار حواشيه، وبقربه مجموعة دفاتر سليمة. وكان الصمت العميق يهيمن على المكان. وفوق ديوان في الغرفة المجاورة، اضطجع المعلّم مستسلماً للنوم العميق متسربلاً بمبذل المستشفى، ولم يكن يسمع صوت تنفّسه المتّزن.

وبعد أن ذرفت مارغريت الدموع السخينة، أمسكت بالدفاتر السليمة وعثرت على ذلك المقطع الذي كانت تقرأه قبل لقائها عزرائيل بجوار سور الكرملين. وجافاها النوم. فراحت

تمسّد النسخ بحنان، كما لو كانت وبر هرّ عزيز. ثم حملت المخطوطات بيديها وراحت تديرها وتتأمّلها من جميع الجهات، تارة تتأمَّل صفحة العنوان، وطوراً الصفحة الأخيرة. وأحياناً كانت تقرأ خاتمة الرواية.

وفجأة ساورها شعور بأنَّ كلّ ما تراه وهم وسحر باطل.. وعمّا قليل وتختفي الدفاتر.. وترى نفسها من جديد في مخدعها الزوْجي، في البيت الأوَّل، وإمّا تستيقظ عليها أن تدفىء البيت. لكن هذا الشعور... ما كان سوى صدى للعذاب المرّ الذي تجرَّعت كأسه حتّى الثمالة.. لم يختفِ شيء... وڤولند كان جبّاراً حقّاً وعلى كلّ شيء قدير.. أجل كان بمكنتها قدر ما تشاء وحتّى طلوع الفجر... أن تتصفَّح أوراق الدفاتر وأن تتأمَّلها وتلثمها وتقرأ كلماتها...

تلك الكلمات عن الظلمة.. الظلمة الزاحفة من البحر المتوسّط والتي حجبت المدينة البغيضة إلى قلب الوالي... نعم الظلمة!...

كيف حاول الوالي إنقاذ يهوذا الأسخريوطي

وحجبت الظلمة الزاحفة من البحر المتوسّط المدينة البغيضة إلى قلب الوالي. تلاشت الجسور المعلّقة التي تصل الهيكل ببرج أنطونيوس المخيف. وهوت لجّة من السماء وغمرت الآلهة المجنّحة فوق المدرج، وغمرت القصر والكوى والأسواق والعنابر والأزقّة والبرك.

زالت أورشليم المدينة العظيمة. زالت وكأنّها لم تكن موجودة من قبل.

لقد ابتلعت الظلمة الشرهة كلّ شيء، وأخافت الأحياء في أورشليم وضواحيها.

وزحفت سحابة كبيرة من ناحية البحر، عصر الرابع عشر من الشهر الربيعي، شهر نيسان، وجثم بطنها فوق الجبل الأجرد، الجبل الذي نفذت فوقه عملية الإعدام، وحيث طعن الجلاّدون المصلوبين بحرابهم. وانحدرت السحابة من فوق الهيكل ضباباً ملأ بدخّانه القسم الأسفل من المدينة. واقتحمت النوافذ وطاردت الناس في الأزقّة الملتوية، وجعلتهم يلوذون ببيوتهم. ولم تمنح الناس رطوبة إنّما منحتهم ومضات من ضوء..

وحينما شقّت ألسنة النار بطن الكتلة الدخانية السوداء، برز الهيكل العظيم مرّة واحدة بقبّته الصدفية المتلألئة. لكن سرعان ما انطفأت النار وتسربل الهيكل ببردة سوداء الإهاب. وكان الهيكل يخلع بردته تلك ليعود فيرتديها. وكلّ مرّة كانت تتلألأ صدفات الهيكل وتخمد مصحوبة بضجيج الكارثة.

وخفقات ضوء خجولة، أنارت من أعماق اللجّة قصر هيرودوس العظيم الذي يقع مقابل الهيكل فوق الهضبة الغربية.

ورحلت التماثيل الذهبية العمياء المخيفة إلى السماء الحالكة السواد باسطة يديها، ومن جديد أضاءت النار في السماء وعادت فاختفت، وطارد الرعد المزمجر القاصف التماثيل الذهبية في الظلام، وانهمرت الأمطار بغتة، وتحوّلت العاصفة إلى إعصار.

وفي المكان نفسه، في الحديقة قرب المقعد الرخامي، حيث تحادث عند الظهيرة الوالي ورئيس الكهنة، سقطت شجرة السرو وتكسّرت أغصانها محدثة ضجيجاً كقصف الصواعق. وسقط البَرَدُ والغبار والأزهار المقطوعة وأوراق الماغنوليا والعيدان الصغيرة والرمال على الشرفة. وفي هذه الأثناء كان في الرواق إنسان واحد، هو الوالي.

لم يكن جالساً الآن في مقعده، إنّما كان ممدّداً فوق أريكة أمام طاولة صغيرة منخفضة،

وضعت فوقها المآكل والخمور المسكوبة في الدوارق. ولم يضطجع أحد فوق الأريكة المقابلة. واستراحت عند قدمي الوالي بركة حمراء كأنّها من الدم، وتناثرت شظايا دورق مكسور، وما اهتمّ أحد بجمعها.

اضطرب الخادم، أمام الوالي، وهو يغطّي الطاولة، قبل هبوب العاصفة. وخاف لأنّه أتى عملاً شائناً فأوقع الدورق على الأرض المزخرفة بالفسيفساء وكسره. وهتف الوالي غاضباً:

ـ لماذا لا تنظر أمامك حينما تقدّم لي شيئاً؟ أم تراك سرقت شيئاً فخفت؟.

وأصبح لون وجه الافريقي رماديًّا، وامتلأت عيناه رعباً، فوقف وكاد يكسر الدورق الثاني. غير أنّ غضب الوالي زال بغتة كما أتى.

واندفع الافريقي يجمع حطام الدورق المكسور ويمسح حوض البركة. لكن الوالي أومأ له بيده... فغادر، مبقياً الحوض على حاله. واختبأ قرب فجوة ارتفع فيها تمثال أنثى بيضاء عارية، حافية الرأس.

احتجب الافريقي الخائف من أن تراه الأعين، وفي الوقت نفسه احتاط مستعدًّا لتلبية نداء الوالي له.

متمدّداً على أريكته، في ظلمة العواصف، كان الوالي يسكب الخمرة في الكأس خادماً نفسه بنفسه، ويمزّ الكأس متمهّلاً، وحيناً كان يتناول الخبز ويفتّته ثم يبلع الفتات.. وأحياناً كان يمصّ المحار ويعلك الليمون، ليعود ويرشف الخمرة من جديد.

ولولا خرير الماء وقصف الرعود التي هدّدت القصر بالهدم، ولولا طرق حبّات البرد على درجات المنظرة، لكان بالإمكان سماع تمتمته وهو يتحدّث مع نفسه.

ولو أنّ ومضات النار الخجولة في السماء تحوّلت إلى ضياء ثابت مستقرّ، لرأى المراقب وجه الوالي بعينيه الحمراوين من السهد والخمرة، ولرأى تعابير هذا الوجه ترشح قلقاً ولجاجة، ولرآه كيف لم يكن ينظر إلى الزهرتين البيض الغارقتين في البحيرة الحمراء فقط، بل كان دائم التلفّت إلى الحديقة مُولياً وجهه للغبار والرمال... إنّه كان ينتظر شخصاً ما وعلى أحرّ من الجمر... أجل إنّه ينتظر...

وبعد مرور بعض الوقت، خفّ زخم المطر، وانقشع البساط الهتن من أمام عيني الوالي، وأخذ الاعصار ينحسر رغم شدّته، ولم تعد تتكسّر الجذوع أو تسقط. وندر قصف الرعد ولمعان البرق. ومخرت سماء أورشليم سحابة عادية رمادية... لا تشبه بشيء أختها تلك البنفسجية البيضاء الطرف. وانتقلت العاصفة إلى البحر الميت. والآن يمكننا بوضوح سماع ضجيج الأمطار وخرير المياه المنسابة في الميازيب، وعلى درجات السلّم الذي نزل عليه الوالي نهاراً، ليعلن أحكامه في الساحة، ويمكننا أيضاً سماع النافورة التي كانت ما تزال صامتة.

وأشرق المكان بالنور، وظهرت في البساط الرمادي الزاحف نحو الشرق كوى زرقاء.

وتناهى إلى سمع الوالي من مكان بعيد، عبر ضجيج الأمطار الخافت، نفير أبواق ضعيف ووقع حوافر خيل. فدبَّت الحياة في مفارقه وانتعش؛ وفكَّر: لا بدَّ أنَّ كتيبة الخيَّالة في طريقها من الجبل الأجرد تجتاز الساحة التي أُعلنت فيها الأحكام.

وأخيراً سمع الوالي وقع خطوات وخفق أحذية على السلّم، المؤدّي إلى ساحة الحديقة العليا الواقعة أمام الشرفة.

ومدَّ عنقه ولمعت عيناه سروراً. فقد ظهر بين الأسدين الرخاميين رأس يعتمر قلنسوة.. ثمَّ ظهر صاحب الرأس: إنسان مبلَّل بالماء وفي مبذل ملتصق بجسده.

لقد كان هذا القادم هو الشخص ذاته الذي اختلى بالوالي في غرفة القصر المظلمة قبل صدور الحكم، والذي كان أثناء التنفيذ يجلس على مقعد ذي ثلاث أرجل وينكش الأرض بقضيب.

ودون أن يلتفت إلى البحيرة، اجتاز الرجل المقلنس ساحة الحديقة، ومشى فوق أرضها المزخرفة بالفسيفساء، ورفع يده وقال بصوت مرتفع ناعم النبرات وباللغة اللاتينية:

- ليطيل الله حياة الوالي ويسعده.

وهتف بيلاطس:

- يا للآلهة!.. ملابسك مبتلّة! أيّة عاصفة تضربنا؟ أرجوك أن تدخل غرفتي حالاً وتغيِّر ملابسك.

ونزع القادم قلنسوته، فإذا بشعر رأسه ملتصق بجبهته، وافترَّ وجهه الحليق عن ابتسامة لطيفة، ورفض أن يغيِّر ثيابه مؤكِّداً أنَّ الأمطار لن تسبِّب له الأذى.

وأجاب بيلاطس:

- لا أريد حتّى أن أسمع جوابك. قال هذا وصفَّق منادياً الخادم المحتجب. ولمّا حضر هذا أمره بأن يهتمّ بالقادم، وأن يحضر بعد ذلك طبقاً ساخناً.

ولم يحتج الشخص إلى وقت طويل لينشِّف شعره ويبدِّل ثيابه ويغيِّر حذاءه ويصلح هندامه... إذ أنَّه سرعان ما ظهر على الشرفة في صنادل جافّة، ومبذل حربي أرجوانيّ اللون، وبشعر مسرَّح.

في أثناء ذلك كانت الشمس تجنح نحو المغيب فوق أورشليم، وقبل أن تأفل وتغطس في البحر الأبيض، أرسلت أشعّتها الوداعية نحو المدينة البغيضة إلى قلب الوالي، وذهبَّت درجات الرواق.

وانتعشت النافورة هي الأخرى وصدحت.. وهدل الحمام وهو ينطّ فوق الرمال، ويتنقَّل فوق الأغصان المكسَّرة، وينكت بمناقيده الرمل المبتلّ، والبركة الحمراء نُظِّفت،

والشُقف المتناثرة لُمَّت. وتصاعد الدخان من اللحم المشوي في الأطباق فوق الطاولة.
وقال الزائر وهو يقترب من الطاولة:
- كلِّي آذاناً صاغية لأوامر الوالي.
فأجاب بيلاطس بلطف، وأشار نحو الأريكة المقابلة:
- لن تسمع شيئاً طالما لم تجلس وترشف الخمرة.
واستلقى القادم على الأريكة، وصبَّ له الخادم في كأسه خمرة حمراء كثيفة، وصبَّ خادم ثانٍ الخمرة في كأس بيلاطس وهو ينحني فوق كتفه بحذرٍ كبير.
وبإيماءة أبعد بيلاطس الخادمين بعد أن سكبا له ولضيفه الخمرة.
وفيما كان القادم يأكل ويشرب، كان بيلاطس يجرع الخمرة متأمِّلاً ضيفه، زارًّا عينيه.
كان القادم في أواسط العمر، لحيم الأنف، وديع قسمات الوجه، حسن الهندام، لا لون محدَّداً لشعر رأسه، الذي بدا يلمع بعد تنشيفه. كان من الصعب تحديد جنسيّته. قسمات وجهه كانت تفيض أنساً عكَّرت صفاءه العينان، أو بالأحرى نظرات الزائر لمحدِّثه.
لقد حمى الزائر عينيه الصغيرتين بجفنين مطبقين بديا وكأنَّهما مورَّمان ولمع في أعماقهما بريق المكر الهادىء. يجب الافتراض أنَّ ضيف الوالي كان ميَّالاً إلى المزح. وبين الحين والحين كان بريق المرح يخمد في عيني الزائر فكان يفتح جفنيه ويروح يتأمَّل عن كثب محدِّثه، وكأنَّه يريد أن يتحقَّق من لطخة صغيرة بدت على أنف الأخير فجأة. ولم تكن تستمر عملية فتح الجفنين أكثر من لحظة واحدة لتعود ثم تُزرّ العينان ويلمع فيهما المكر البريء والأنس.
ولم يرفض الزائر قدحاً ثانياً من الخمرة، والتهم بمتعة ظاهرة بعض المحارات، وتذوَّق الخضار المسلوقة، وأكل قطعة من اللحم.
وبعد أن شبع، راح يثني على الخمرة بقوله:
- كرمة عظيمة يا حضرة الوالي. هل هي خمرة (فالرنوية)؟
فردَّ الوالي بلطف:
- (تسكوبا) معتَّقة، ثلاثينية.
ووضع الضيف يده على قلبه، رافضاً على ما يبدو دعوة إلى المزيد من الأكل وحينذاك سكبَ بيلاطس الخمرة في كأسه وحذا الضيف حذوه. وفاضت الخمرة من الكأسين فوق طبق اللحم. وهتف الوالي بصوت مرتفع النبرات وهو يرفع الكأس إلى شفتيه:
- أشرب نخبنا جميعاً، ونخبك أنت أيها الكاهن، يا أبا الرومان وأفضل العالمين.
ورشفا الخمرة، وما لبث العبدان أن رفعا الأطباق عن الطاولة، أبقيا الفواكه والدوارق. ومن جديد وبإيماءة أبعد الوالي الخادمين، وبقي وحيداً مع ضيفه.

وسأل بيلاطس بصوت خفيض:

ـ هل بامكانك أن تخبرني عن أحوال هذه المدينة؟.

قال هذا وسرَّح نظره لا شعورياً في البعيد، وراء مدارج الحديقة، حيث تلألأت الأعمدة والسقوف التي ألبستها أشعَّة الشمس الأخيرة رداءً من الذهب.

وأجاب الضيف:

ـ أعتقد يا حضرة الوالي أنَّ الأحوال في أورشليم مرضية.

وعاد بيلاطس ليسأل:

ـ أيمكننا أن نكفل عدم عودة الشغب إلى المدينة؟

ـ نعم يمكننا ذلك ـ أجاب الضيف وهو يتأمَّل الوالي بمودّة، وأردف: إنَّنا نعمل في سبيل هدف واحد في العالم، إعلاء سلطة القيصر العظيم.

ـ لتطيل الآلهة عمره.. وعمر العالمين، ـ هتف بيلاطس وصمت ليضيف: وهل بامكاننا الآن سحب الجيش؟

أجاب الضيف:

ـ أعتقد أنَّه بإمكان كتيبة البرق أن تنسحب؛ وأردف: لو تقوم هذه الكتيبة بعرض عسكري في المدينة وهي في طريق عودتها.

وردَّ الوالي مثنياً:

ـ فكرة رائعة. وسأسرِّح أفراد الكتيبة بعد غد، وسأتبعها حالاً وأغادر أنا كذلك، وأقسم بالاثني عشر إلهاً وباللارات، أنَّني سأُضحِّي بالغالي والرخيص لو يتمّ هذا الأمر اليوم.

وسأل الضيف بلهجة ودودة:

ـ لماذا يبغض الوالي مدينة أورشليم؟.

وأجاب هذا وهو يبتسم:

ـ إنَّها مدينة اليأس في العالم. وطقسها وطبيعتها ماذا تراني أقول فيها؟... إنَّني أمرض كلّما أتيت إليها. ولو اقتصر الأمر على هذه الأمور لهانت المصيبة.. لكن أين تذهب بالأعياد والسحرة والمشعوذين وجموع المصلّين والمؤمنين.. وهل أتاك حديث المتعصّبين.. كلّهم متعصِّبون... وهذا النبي الجديد ماذا كلَّفنا ظهوره؟.. لقد تحوَّل موعد مجيئه إلى عيد سنوي ينتظرونه!.. لذلك عليَّ أن أكون شاهداً كل دقيقة على حوادث دموية.. وكل دقيقة يجب عليَّ إرسال الجيوش والتحقيق في الوشايات والنمائم ومعظمها ضدّي! وحقّك إنَّها حياة مملّة.. لولا خدمة القيصر!..

ووافق الضيف محدِّثه وقال مؤكِّداً:

ـ إنَّ أيام الأعياد لصعبة حقًّا.

ـ من كلّ قلبي أتمنّى أن تنتهي بسرعة ـ قال بيلاطس بلهفة، وأردف: حينئذٍ سيكون بمكنتي العودة إلى قيصاريا. أتصدّق أنَّ بيت هيرودوس النحس هذا يكاد يسبّب لي الجنون؟. ـ قال بيلاطس هذا وأشار بيده إلى الرواق، فأصبح واضحاً أنَّه عنى بكلماته القصر الذي يسكنه ـ أنا لا أستطيع أن أغفو في حجراته. لم يعرف العالم هندسة أغرب من هندسته. دعنا منه ولنعد إلى مشاكلنا! قبل أن أنسى: ألا يقلقك باراباس النجس؟ ألا يزعجك بقاءه حيًّا؟!

وهنا راح الضيف يتأمّل وجنتي الوالي من جديد. غير أنَّ الأخير كان يسرّح نظره الكليل في البعيد، وعبس وبدا مشمئزًّا وهو يتأمّل أحد أحياء المدينة المنبسط عند قدميه، وكانت أنواره تخبو قبيل حلول الظلام.

وانطفأ طرف الضيف وأطبق جفنيه. وعاد ليتكلّم وقد ثلمت الغضون وجهه المستدير:

ـ البارابا.. لم يعد مخيفاً.. لقد أصبح كالحمل الوديع. والعصيان لم يعد في مصلحته الآن.

وسأل بيلاطس وقد تخايلت على فمه ابتسامة ساخرة:

ـ صار مشهوراً؟

ـ الوالي، كعادته، يفهم دائماً الأمور الدقيقة.

ـ على كلّ حال يجب أن.. ـ علّق الوالي ورفع نحو العلاء إصبعاً طويلاً نحيفاً يحمل خاتماً مصنوعاً من حجر كريم أسود؛ غير أنَّ الضيف لم يدعه يكمل، وقاطعه بقوله:

ـ يمكن لحضرة الوالي أن يطمئن... وطالما أنا في اليهودية فأنفاس باراباس محصيّة.

ـ أنا مطمئنّ البال الآن. فحينما تكون أنت هنا تلفّني الطمأنينة.

ـ إنّك لإنسان طيّب القلب، نقيّ السريرة.

ـ والآن أرجوك أن تخبرني عن كيفية تنفيذ حكم الإعدام.

ـ وماذا يهمّ حضرة الوالي بنوع خاص؟.

ـ ألم تظهر محاولات شغب وتخريب أو امتعاض؟

ـ لا أبداً.

ـ حسناً جداً. وهل تحقّقت بنفسك من أنَّ المحكوم أسلم الروح؟

ـ يمكن للوالي أن يطمئن!.

ـ قل لي، هل ناولوه شراباً قبل أن يُعلّق على الخشبة؟

ـ رفض أن يشرب. ـ أجاب الضيف وقد أطبق جفنيه.

وسأل بيلاطس:

ـ ومن الذي رفض؟

ـ معذرة يا ايغمون ـ هتف الضيف ـ ألم أسمّ لك المتحدّث عنه؟ الناصري رفض!..

وقال بيلاطس وقد كشَّر ـ دون أن يعرف سبب ذلك:

ـ يا للمجنون! ـ واختلج عرق تحت عينه اليسرى ـ سيموت حرقاً بأشعّة الشمس!.. لماذا رفض عرضاً هو حقّه حسبما تنصّ القوانين؟! وبأية كلمات عبَّر عن رفضه؟.

ومن جديد أطبق الضيف جفنيه وأجاب:

ـ لقد أعلن أنَّه يشكر السلطة ولا يتَّهم أحداً بجريمة سلبه الحياة.

وسأل بيلاطس بصوت خافت:

ـ ومن هذا الذي لا يتَّهمه الناصري؟

ـ إنَّه لم يسمِّ ذاك الشخص يا (إيغمون).

ـ ألم يُبشِّر بتعالم ما.. أمام الجنود؟

ـ لا يا إيغمون... لم يتكلَّم كثيراً هذه المرّة. ما قاله هو أنَّه يعتبر الجُبن أفظع الرذائل البشرية..

وسمع الضيف صوتاً مرتجف النبرات:

ـ وفي أيَّة مناسبة تلفَّظ كلماته تلك عن الجُبن؟ ولماذا؟.

ـ هذا ما لم ندركه. لقد كان غريباً أمام الموت، كما عهدناه في الحياة.

ـ وماذا فعل؟

ـ طيلة الوقت وهو يحاول أن يتأمَّل في عيني المصلوبين عن يمينه وعن يساره، وعلى فمه ابتسامة حائرة.

وسأل صوت متهدِّج النبرات:

ـ وماذا فعل أيضاً؟

ـ هذا كلّ ما فعله.

وقرع الوالي الكأس وهو يسكب فيه الخمرة، وبعد أن رشفها حتَّى الثمالة، قال:

ـ تتلخَّص المسألة بالتالي: ليس بمقدورنا في الوقت الحاضر أن نجد أتباعه ومؤيّديه، لكن ينبغي علينا أن لا نعتقد بأنَّهم غير موجودين. وحتَّى لا تداهمنا الحوادث، أيًّا كان نوعها، أرجوكم أن تخفوا من فوق سطح الأرض، حالاً وبدون أيَّة ضجّة، جثث القتلى الثلاثة، وأن تعملوا على أن يُدفنوا سرًّا. ولتنطفىء أخبارهم وليصبحوا نسيًّا منسيًّا. (كان الضيف يصغي حانياً رأسه).

ـ سمعاً وطاعة يا سعادة الإيغمون ـ قال الضيف كلماته ونهض ثم أضاف: أرجو أن تسمحوا لي بالذهاب آخذين بعين الاعتبار المسؤولية الملقاة على عاتقي وأهمية المسائل التي

تواجهنا.

وردّ بيلاطس:

- ابق! ابق عندنا. وبحركة منع ضيفه من الذهاب - وأكمل: ثمّة مسألتان ما زالتا عالقتين:

المسألة الثانية هي: بعد أن أدّيت خدمات جلّى وقمت بمهمّتك الصعبة خير قيام ونفّذت ما أوكل إليك من مهام سريّة مساعداً بذلك والي اليهودية، فإنّه أصبح بإمكاني الكتابة إلى روما مخبراً عمّا أدّيته من أجلها.

وهنا تورّد وجه الضيف، فنهض وانحنى أمام الوالي بإجلال وقال:

- لقد قمت بواجبي في خدمة الأمبراطورية لا أكثر.

وأكمل الإيغمون:

مطلب آخر بعد وهو: إذا عرضوا عليك ترفيعك ونقلك فارفض وابق هنا. لا أريد أن أفترق عنك رغم كل شيء. ولتكافأ بغير النقل.

- أنا سعيد بالعمل مساعداً لك، وبأن تكون رئيسي يا إيغمون.

- يسرّني أن أسمع ما تعلنه. المسألة الثالثة تتعلّق بذاك... المسمّى يهوذا من قيريافا.

وهنا وجّه الضيف نظراته نحو الوالي، وكما يفترض خمد بريق تلك النظرات في الحال؛ وأكمل بيلاطس:

- زعموا أنّه قبض مبلغاً من المال لأنّه استقبل الفيلسوف المجنون بحفاوة في بيته. - تلفّظ الوالي بهذه الكلمات وقد خفض صوته.

وصحّح الزائر قول بيلاطس:

- سيقبض مبلغاً من المال!.

- مبلغاً كبيراً ؟!.

- هذا ما لا يعرفه أحد يا سعادة الإيغمون.

- حتّى أنت لا تعرفه؟ سأل بيلاطس مستغرباً، وكأنّ استغرابه هذا كان بمثابة ثناء على الضيف.

- ليت شعري، حتّى أنا لا أعرف يا إيغمون، كلّ ما أعرفه أنّه سيقبض المبلغ مساء هذا اليوم، وسيُدعى إلى قصر قيافا.

فقال الوالي وهو يبتسم:

- يا لعجوز قيريافا الجشع!.. إنّه حسبما علمت عجوز؟

فأجاب الضيف بتهذيب:

- لم يخطىء الوالي في حياته.. لكنّه غلط هذه المرّة، إنّه شاب وليس بعجوز.

ـ قل لي أبإمكانك أن تصفه لي. هل هو متعصّب؟

ـ لا متعصّب ولا من يحزنون يا سعادة الوالي.

ـ وماذا عنه بعد؟

ـ وسيم الطلعة جميل.

ـ أيكون ذا ميول؟

ـ من الصعب أن نعرف كلّ ساكني هذه المدينة الكبيرة يا سعادة الوالي...

ـ أرجوك يا أفراني، لا تقلّل من أهميّة معلوماتك وخدماتك؟

ـ شهوة واحدة متسلّطة على أفكاره يا سعادة الوالي، ـ وأضاف بعد فترة صمت قصيرة ـ إنّه يحبّ المال حبًّا جمًّا.

ـ وماذا يشتغل؟

ورفع أفراني عينيه نحو السماء، وبعد أن فكّر قليلاً أجاب:

ـ يعمل صرّافاً في حانوت أحد أقاربه.

ـ حسناً، حسناً، حسناً... ـ هتف الوالي بكلماته وصمت، ثم التفت ليرى إذا ما كان أحد غيرهما على الشرفة، ثمّ أكمل بهدوء: وصلتني أخبار مفادها أنّه سيُذبح في هذه الليلة.

وهنا لم يحدج الضيف الوالي بنظراته، بل حملق به وأجاب:

ـ إنّني لا أستحقّ المديح الذي أزجيته لي يا سعادة الوالي، ولا أستحقّ كتاب الشكر الذي تريد أن ترسله إلى روما... لأنّ ما تعلنه لي.. لم أعرفه بعد ولم أسمعه.

أجابه الوالي:

ـ إنّك تستحقّ أرفع مكافأة وأجزل عطاء. لكن ثمّة أنباء تصلنا...

ـ أسمح لنفسي بالسؤال عن مصدر تلك الأخبار؟..

ـ اسمح لي ولن نتكلّم عن هذا الآن. ولا سيّما أنّ الأخبار ملفّقة وغامضة وغير موثوق بها. غير أنّني ملزم بمعرفة كلّ ما يجري. منصبي يُحتّم عليَّ هذا، وإنّني ملزم بتصديق أحاسيسي الداخلية أكثر من أيّ شيء آخر، لأنّها لم تخدعني ولا مرّة. وقد بلغني أنّ أحد أصدقاء الناصري المكتومين وقد أغضبته وأثارته خيانة ذلك الصيرفي الفظيعة، فاتفق مع مخبريه على ذبحه ليلاً. كما أنّهم اتفقوا أن يرجعوا «مال الخيانة» إلى رئيس الكهنة مرفوقاً بجملة: «أعيدت إليك النقود النجسة».

ولم يحدّق رئيس الأمن السرّي بالوالي كعادته، اكتفى بالإصغاء زارًّا عينيه، أمّا بيلاطس فأكمل:

ـ تخيّل، أسيكون رئيس الكهنة مسروراً باستلامه ليلة العيد مثل تلك الهدية؟

فأجاب الضيف وهو يبتسم:

ـ أعتقد أنَّ هذا الأمر إذا ما حدث فسيسبِّب فضيحة كبيرة يا سعادة الوالي.

ـ وأنا من رأيك. لذلك أرجو منك أن تولي هذه القضية الاهتمام الكافي، أي أن تتَّخذ كلّ الاجراءات لحماية يهوذا الأسخريوطي.

ـ أوامر الوالي ستُنفَّذ ـ قال أفراني ـ لكنَّني أرى من واجبي تطمين الأيغمون.. فمخطَّط الأشرار لن ينفَّذ. ولنفكِّر قليلاً، ـ قال الضيف وهو يلتفت حوله، وأكمل: رصد إنسان فذبحه، ومعرفة مبلغ المال الذي قبضه، ومن ثَمّ العمل على إرجاع المال إلى قيافا.. وكلّ ذلك في ليلة واحدة؟ في هذه الليلة؟.. من الصعب جدًّا تنفيذ كلّ هذا المخطَّط؟!

لكن بيلاطس كرَّر مصرًّا:

ـ ومع ذلك سيُذبح الليلة. أقول لك إنَّ أحاسيسي لم تخدعني أبداً.

وارتعشت عضلات وجه الوالي وفرك يديه بلطف.

ـ ستنفَّذ أوامر الوالي ـ ردَّ الضيف مذعناً، ونهض منتصباً، وفجأة سأل بحدّة:

ـ سيُذبح إذن يا إيغمون؟..

ـ أجل، أجل، والأمل في هِمَّتك التي أدهشت الجميع.

وسوَّى الضيف نِطاقه الثقيل تحت المبذل وقال:

ـ لي الشرف بأن أتمنَّى للوالي الهناء والسعادة.

وهتف بيلاطس بصوت خفيض:

ـ آه نسيت!.. إنَّني مدين لك.. لك بذمّتي نقود أليس كذلك؟.

وذهل الضيف:

ـ إنَّك لست مديناً لي بشيء يا حضرة الوالي.

ـ كيف؟ أنسيت يوم قدمنا إلى أورشليم ولقينا جموع الشحاذين، فأردت أن أعطيهم نقوداً، فلم يكن معي، فاستقرضت منك؟.

ـ لكنَّها حادثة لا تستحقّ الذكر يا حضرة الوالي.

ـ إنَّما بمثل تلك الحوادث يجب التذكير ـ وهنا رفع بيلاطس مبذله الملقى على المقعد وراءه، وأخرج من تحته جراباً من الجلد، وناوله للضيف، الذي تسلَّمه شاكراً، وأخفاه تحت المبذل.

وقال بيلاطس:

ـ إنَّني أنتظر تقريراً عن الدفن، وعن قضية يهوذا الأسخريوطي، وإنَّني منتظر التقرير هذه الليلة. تسمعني جيِّداً يا أفراني، هذه الليلة. وسآمر الحرس أن يوقظوني فور حضورك. إنَّني أنتظرك.

ـ وسأتشرَّف بمقابلتك ـ قال رئيس الأمن السرّي هذا ودار على عقبيه مغادراً الشرفة.

وكانت تسمع جلبة جزمته وهو يمشي على رمال الساحة المبتلّة، وبعد ذلك عادت وسمعت الجلبة فوق الرخام بين الأسدين.. ثمّ اختفت رجلاه أوّلاً عن العيان وعاد فتبعهما جذعه، وأخيراً توارت قلنسوته.

وهنا رأى الوالي أنَّ الشمس قد أَفَلَتْ والظلمة أسدلت نقابها على الكائنات.

الفصل السادس والعشرون

الدفن

ومن يدري لعلَّ تلك الظلمة لم تكن حقيقية!.. ولعلَّ سببها كان مظهر الوالي والتغيير الكبير الذي طرأ عليه. نعم لقد طرأ على الوالي تغيير هائل... إنَّه يبدو الآن وكأنَّ الهرم قد دبَّ فيه في لحظة عين، فتقوَّس ظهره وبدا قلقاً جزوعاً.

التفت مرَّة واحدة وارتعش، دون معرفة السبب، وطرح فوقه ثوبه، وألقى نظرة على المقعد الخالي.

العيد يقترب.. والظلال المسائية تستعدّ لاستقباله، فلعبت لعبتها... وبدت أطياف وهمية أمام عيني الوالي المرهق. وغرق في بحر من الأوهام وهُيِّء له أنَّ شخصاً ما يجلس في مقعده الفارغ. وبسبب الخوف نفض الوالي الثوب.. ثمّ تركه وركض نحو الشرفة وهو يمسح يديه، ثمّ عاد ودنا من الطاولة وأمسك بالكأس، وما لبث أن تركها وشرع يُحدِّق في الأرض المزخرفة بالفسيفساء، وكأنَّه يحاول فكّ رموزٍ ما ويقرأ كلمات ما...

هذه هي المرّة الثانية التي يقع فيها فريسة الكآبة في هذا اليوم. ماسحاً صدغه، هذا الصدغ الذي لم يبقَ فيه من آلام الصباح الجحيمية غير ذكرى باهتة موجعة، جهد الوالي أن يفهم سبب آلامه النفسيّة... وسرعان ما عرفه... ومن دون عناءٍ كبير، غير أنَّه حاول أن يخدع نفسه ويكذب عليها.

لقد وضح وضوح الشمس في رابعة النهار أنَّه في يومه هذا أتى أمراً فريًّا، وقصَّر وارتكب غلطة لا ولن تغتفر.

وها هو يحاول أن يصحِّح الغلطة بأفعال تافهة لكنَّها أتت متأخِّرة على كلّ حال.

أمَّا خداعه لنفسه فكان محاولته إقناعها بأنَّ الأعمال المسائية التافهة لا تقلّ من حيث أهميتها عن الحكم الذي أعلنه في الصباح. غير أنَّه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً!..

وتوقَّف وصفَّر. وجواباً على الصفير هدر عواء خافت، ووثب من حديقة القصر إلى الشرفة كلب هائل الحجم، رمادي اللون، في رقبته طوق من الخرز.

وهتف الوالي بصوت خفيض واهن:

ـ بانغا! بانغا!..

وانتصب الكلب على قائمتيه الخلفيتين، أمَّا القائمتان الأماميّتان فأسندهما إلى كتف

سيِّده، الذي كاد أن يقع من جرَّاء ذلك على الأرض. وراح الكلب يلعق خدّ سيِّده.

وجلس الوالي في المقعد، وتمدَّد بانغا عند قدميه، وهو يلهث مادًّا لسانه. ووميض الفرح في عيني الكلب عنى أنَّ العاصفة انتهت... العاصفة التي كان يخشاها الكلب أشدّ ما كان يخشى في العالم... انتهت العاصفة وبانغا من جديد هنا، بالقرب من الإنسان الذي يكنّ له الحبّ الكبير والاحترام الكبير ويعتبره أقوى سلاطين العالم، وبفضل هذا الحاكم القوي اعتبر الكلب نفسه كائناً قوياً أيضاً ومن طبقة عالية ومميَّزة!.

وكان الكلب ينظر إلى الحديقة وقد سربلها المساء ببردته، ولم يبادل سيِّده النظرات.. أيكون قد فهم أنَّ مصيبة داهمته فغيَّر جلسته، ونهض ومشى آتياً معلِّمه من جانبٍ ووضع رأسه وقائمتيه الأماميتين على ركبَتِه ووسَّخ له أطراف الثوب بالرمال المبتلّة.

ومن يدري ربّما أراد بحركاته تلك مواساة سيِّده والإعلان عن استعداده لمقاسمته ساعات بؤسه. وعبَّر عن ذلك بنظرات العينين الموجَّهة إلى صاحبه وبانتصاب الأذنين المرهفتين.

وهكذا، على الشرفة، وفي تلك الحالة النفسية، استقبل الاثنان: الإنسان والكلب ليلة العيد.

في ذلك الوقت، كان ضيف الوالي منهمكاً مهموماً. فما أن اجتاز الساحة المنبسطة أمام الشرفة، حتّى نزل على الدرج إلى المدرج، ودار على اليمين وخرج ميمّماً ثكنات العسكر الواقعة على مشارف القصر.

رابطت في هاتين الثكنتين كتيبتا العسكر اللتان صحبتا الوالي إلى أورشليم بمناسبة العيد. وكذلك رابط هناك حرسه الخاص. وكان رئيس الحرس الضيف الذي مرَّ ذكره آنفاً.

أمضى الضيف في الثكنتين وقتاً قصيراً - أقلّ من عشر دقائق - خرجت خلالها من الحوش ثلاث عربات مُحمَّلة بآلات حفر وببراميل ماء. ورافق العربات الثلاث خمسة عشر شخصاً في ملابس رمادية اللون، كانوا على متون الأحصنة. خرجت العربات من البوَّابات الخلفية واتَّجهت نحو الغرب، سالكة طريق أورشليم بعد أن خرجت من بوَّابة السور. ثمّ ما لبثت أن اتجهت شمالاً، وما أن وصلت إلى مفترق طرق عند بوَّابة (بيت لحم)، حتَّى سلكت طريق يافا، تلك الطريق التي سلكها نهاراً موكب المحكومين بالإعدام. وكان الوقت ظلاماً والقمر يلوح في السماء.

وبعد مغادرة العربات بحمايتها العسكرية، بوقت قصير، غادر مشارف القصر ضيف الوالي أيضاً، وكان قد بدَّل ثيابه ولبس رداءً رثًّا غامق اللون. لم يتوجَّه الضيف إلى الضاحية، بل توجَّه نحو المدينة. وبعد مرور بعض الوقت كان بالإمكان رؤيته ميمّماً حصن (أنطونيا) الواقع شمالاً على مقربة من الهيكل العظيم. ومكث الضيف في الحصن قليلاً، وبعد

ذلك شوهدت آثاره في حيّ المدينة الأسفل في الشوارع الملتوية المتقاطعة، وقد قدم إلى تلك الأمكنة على ظهر بغل.

وفتّش عن الشارع الذي يريد، وهو الذي كان يعرف طرقات المدينة جيِّداً. كان اسمه الشارع اليوناني، وذلك لأنَّه كانت تقع في هذا الشارع عدة حوانيت يملكها يونانيون. وكان ثمّة حانوت يُباع فيه السجّاد. وأمامه أوقف الضيف بغله، ونزل عنه وربطه إلى حلقة أمام الباب، وكان الحانوت ما يزال مغلقاً. ودفع الضيف باباً كان يقع بمحاذاة باب الحانوت ودخل إلى حوش صغير مربّع الشكل، اصطفَّت على جنباته الاهراءات من كل ناحية، بشكل حرف (پ) اليوناني. ثم بدا الضيف أمام شرفة حجرية لبيت مأهول، عرَّشت على جدرانه شجرة لبلاب. وبعد أن وقف أمام البيت التفت حوله، كانت الظلمة تغمر البيت والاهراءات، ولم يشعلوا النيران بعد. ونادي بصوت خفيض:

ـ نيزا.

وصرّ باب البيت، وخرجت في الظلمة، إلى الشرفة إمرأة في مقتبل العمر حاسرة الرأس. انحنت فوق الدرابزين وتأمَّلت حولها قلقة جزعة، وهي تريد أن تعرف هويّة القادم.

وما أن عرفته حتّى حيَّته بابتسامة باشَّة، وهزَّت رأسها ولوَّحت بيدها.

وسأل أفراني بصوت خفيض، وباللغة اليونانية:

ـ أنتِ وحيدة؟.

همست المرأة من على الشرفة:

ـ نعم، إنَّني وحيدة، فزوجي غادر منذ الصباح إلى كيساريا. ـ وهنا التفتت نحو الباب وأضافت همساً: الخادمة في البيت. ثمَّ أتت حركة تعني أن: أدخل.

والتفت أفراني حوله، وصعد على الدرج الحجري. وبعد ذلك اختفى والإمرأة داخل البيت.

ولم يُمضِ أفراني وقتاً طويلاً عند هذه الإمرأة. أمضى خمس دقائق لا أكثر. وبعد ذلك غادر وقد أمال قلنسوته فوق عينيه وخرج إلى الشارع. وفي تلك الأثناء كانت المصابيح قد أُضيئت داخل البيوت، وما زال ازدحام ما قبيل العيد عظيماً، فاندسَّ أفراني ومطيّته في حشد المارّة والخيَّالة، أمَّا وجهته المقبلة فلم يكن يعرفها أحد.

وما أن اختلت نيزا بنفسها، حتَّى راحت تبدِّل ملابسها بسرعة، ورغم صعوبة العثور على الأشياء الضرورية في الظلام فإنَّها لم تنر المصباح ولم تدع الخادمة إلى مساعدتها. وبعد أن انتهت من ارتداء ثيابها، غطَّت رأسها بغطاء غامق، وسُمِع صوتها يدوي في أرجاء البيت:

ـ إذا سألك أحد عنّي، فقولي له إنَّني ذهبت لزيارة أنانتا.

ـ لزيارة انانتا؟! وما لنا ولانانتا تلك؟ ألم يمنعك زوجك من زيارتها.. أنانتا قوّادة! وسأبلغ زوجك.

ـ اخرسي! اخرسي. ذلك أفضل لك. ـ ردَّت نيزا، وانسلَّت من بيتها الصغير كما ينسلّ الظلّ. وسُمِعت جلبة صندلها فوق بلاطات الحوش الحجرية. وأغلقت الخادمة باب الشرفة وهي تدمدم.

وفي تلك الأثناء بالذات، ومن أحد أزقّة الحي الأسفل في المدينة، ومن زقاق تتَّصل الصخور على جانبيه ببركةٍ من برك المدينة، ومن بيت لا يلفت الانتباه ولا يجذب النظر، من بيت يطلّ بواجهته الكالحة على الزقاق، وبنوافذه على الحوش: خرج شاب، شعر لحيته مقصوص بتأنّق، وكان يعتمر عمامة بيضاء نظيفة تدلَّت على كتفيه، ويرتدي ثوب عيد جديد سماوي اللون، محشوّة أهدابه من تحت بالعظام، وينتعل مداسات جديدة يُسمع صريرها. وكان الشاب الوسيم ذو الأنف الأقنى المتزيِّن لاستقبال العيد الكبير، يخطو بهمّة ونشاط، سابقاً المارّة العائدين إلى بيوتهم، المسرعين للجلوس إلى موائد العيد. وكان ينظر إل النوافذ وهي تُضاء الواحدة تلو الأخرى.

لقد سلك الشاب الطريق الموازية للسوق والمؤدية إلى قصر قيافا رئيس الكهنة، ذلك القصر المتربّع فوق سفح هضبة الهيكل.

وشُوهد بعد فترة قصيرة من الوقت يدخل حوش القصر، ويغادره بعد فترة قصيرة جداً.

وبعد دخوله القصر المضاء بالمصابيح والمشاعل، علت بين جدرانه الضوضاء والضجة. وخرج بعدها وهو أكثر حيوية وسروراً، مسرعاً إلى الحي الأسفل في المدينة.

وفي تلك الزاوية المزدحمة بالناس، والتي يتَّصل فيها الشارع بساحة السوق، لحقت بالشاب إمرأة، كانت تنقل خطواتها بهدوء، وكأنَّها في حلبة رقص، وقد تدثَّرت بغطاء أسود غطِّاها حتَّى العينين. وما أن أدركت الشاب الوسيم حتى رفعت النقاب عن وجهها لحظة واحدة، وحدجته بنظرة، ثم عادت وأسرعت في مشيتها، وكأنَّها تحاول أن تختفي عن عيني من تُطارد.

وشعر الشاب بوجود المرأة. فالتفت نحوها وعرفها، فارتعد وتوقَّف، وراح ينظر إلى ظهرها بارتباك، وسمح لنفسه بمطاردتها، فاصطدم بعابر سبيل كان يحمل دورقاً بين يديه، فكاد يوقعه على الأرض.

وأخيراً لحق الشاب بالمرأة، وبعد أن تلقَّف أنفاسه نادى:

ـ نيزا!.

التفتت المرأة، زرَّت عيناها وارتسمت على وجهها علامات السأم واللامبالاة، وأجابت

بجفاء وباللغة اليونانية:

- أهذا أنت يا يهوذا؟ لم أعرفك من النظرة الأولى. فأل حسن. يقولون إنَّ من لا تعرفه في الحال، فلا بدَّ أن يصبح غنيًّا.

مضطَرباً جزعاً، خافق الجنان، يكاد قلبه أن يثب من مكانه، سأل يهوذا بهمس متقطِّع خوفاً من أن يسمعه أحد:

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا نيزا؟

وأجابت نيزا وقد خفَّفت من سرعتها، وراحت تنظر إليه بغطرسة:

- لماذا تسأل عن هذا الأمر؟

حينذاك سُمع في صوت يهوذا نبرة طفولية، وهمس مرتبكاً:

- كيف لا أسأل؟ ألم نتَّفق على أن أعرّج عليك. ألم تقولي لي إنّك ستكونين في البيت مساءً!.

- آه.. لا. لا. - أجابت نيزا، وقد أرخت شفتها السفلى إلى الأمام. وبدا ليهوذا أنَّ وجهها الذي كان من أجمل الوجوه التي رآها في حياته، ازداد الآن جمالاً على جمال - لقد مللت. ماذا أعمل في عيدكم هذا. أجلس على الشرفة لأسمع تنهّداتك، وكلّي خوف من الخادمة من أن تشي بي لزوجي؟!. لقد صمَّمت على الذهاب إلى الضاحية لأسمع تغريد البلابل.

وسأل يهوذا المرتبك:

وهل تذهبين إلى الضاحية وحيدة؟

- طبعاً وحيدة.

ورجاها يهوذا وهو يلهث: اسمحي لي بمرافقتك. قال هذا وتشوَّشت أفكاره ونسي وراءه مشاكله ومشاكل العالم، وراح يتأمَّل بعينين متوسِّلتين عيني نيزا الزرقاوين، واللتين بدتا الآن زرقاوين. ولم تجبه نيزا، بل أكملت سيرها.

وسأل يهوذا شاكياً وهو يتبعها:

- ما لكِ لا تجيبين يا نيزا؟

- ألن أشعر بالضجر معك؟ سألت نيزا فجأة وتوقَّفت. وهنا تشوَّشت أفكار يهوذا مرَّة أخرى. وأردفت نيزا وقد لانت لهجتها:

- حسناً حسناً لنذهب سويّة.

- لكن إلى أين؟ إلى أين.

- لندخل هذا الحوش ونتَّفق، وإلاَّ أخاف من أن يراني أحد يعرفني، فسيقول إنّني كنت مع عشيقي في الشارع.

واختفى يهوذا ونيزا. اختليا في مدخل أحد الأحواش فتهامسا واتفقا.

- إذهب إلى حقل الزيتون - همست نيزا وهي تشدُّ الإزار فوق عينيها مبتعدة عن شخص دخل إلى الحوش حاملاً في يده دلواً - إذهب إلى حقل الزيتون على طريق (بيت لحم) وراء جدول (سدرون)، فهمت؟.

- نعم. نعم.

وأكملت نيزا:

- أمّا أنا فسأتابع سيري. سر بعيداً عنّي. لا تقتفِ أثري. سأمشي أمامك، وحينما تجتاز الجدول، تعرف أين تقع المغارة.

- أعرف. أعرف.

- تمرّ من أمام معصرة الزيتون، إلى فوق، ومن هناك تدخل إلى المغارة. سأنتظرك هناك. لكن إيّاك أن تتبعني الآن. تزوَّد بقليل من الصبر. انتظر هنا بعض الوقت.

وتركت نيزا يهوذا عند مدخل الحوش، وذهبت وكأنَّهما لم يتهامسا.

ووقف يهوذا وحيداً بعض الوقت، وهو يحاول أن يجمع شتات أفكاره... فكَّر كيف يشرح للأقارب سبب تخلّفه عن دعوتهم ليلة العيد. وأي عذر سينتحل. فكَّر باعتذار كاذب.. لكنَّه من فرط جزعه لم تسعفه مخيلته، وحملته قدماه دون وعي من الحوش.

وغيَّر وجهة سيره. لم يكمل صوبْ الحي الأسفل. بل قفل راجعاً إلى قصر قيافا. ولم يعُد يرى أمامه جيِّداً. بدأت الاحتفالات بالعيد. وتلألأت الأنوار في النوافذ، وسمعت أناشيد التمجيد. وكان يرى المتأخِّرين وهم يسوطون الحمير وينهرونها، لتسرع في مشيها. وحملته قدماه دون وعي. ولم ينتبه كيف تجاوز أبراج (أنطونيا) الهائلة المغشَّاة بالطحلب، ولم يسمع نفير البوق، ولم يلتفت حتّى إلى فرقة من عسس الرومان كانوا يطوفون الشوارع حاملين المشاعل التي كانت تضيء الطرقات بالأنوار المرتعشة.

وحينما اجتاز البرج، التفت يهوذا، فرأى على علوٍّ شاهق، فوق الهيكل، شموعاً ضخمة عملاقة. لكنَّه لم يتميّزها جيِّداً، فتبدَّت له وكأنَّها عشرة مصابيح هائلة معلَّقة في سماء أورشليم، راحت تنازع النور مع المصباح الوحيد، الذي ما فتىء يصعد في السماء فوق المدينة، القمر.

وبدا يهوذا، في هذه الأثناء، ضائع اللب مشغول البال، ولمّا لم يعد عنده ما يشغله، توجَّه نحو بوَّابة (بيت لحم)، أراد مغادرة المدينة وبأسرع ما يمكن. ومن حين لآخر كان يُهيَّأ له أنَّه يرى، في زحمة الظهور والأوجه، شبحاً راقصاً يقوده. لكن هذا الشبح كان من نسيج الخيال ليس إلاَّ، فيهوذا ميقن بأنَّ بينه وبين نيزا مسافة بعيدة.

وركض من أمام دكاكين الصيارفة، واقترب أخيراً من بوَّابة (بيت لحم). وكان لا بدَّ

له من التوقّف هناك، رغم أنّه كان يلجّ واللجاجة تكاد تحرقه.

ودخلت قافلة من الجمال المدينة، تبعتها دورية عسكرية سورية. فلعنها يهوذا في سرّه.

لكن لكل شيء نهاية.. ويهوذا اللجوج أصبح خارج الأسوار. ورأى عن يساره مقبرة، وقد نصبت قربها بضعة خيام مخطّطة آوت تحتها المصلّين.

وما أن قطع الطريق المغبّرة التي فضّضها القمر بنوره، حتى توجّه نحو جدول (سدرون) ليقطعه. وكانت مياه الجدول تدمدم بهدوء، وتنقّل يهوذا وثباً من حجر إلى حجر حتّى وصل أخيراً إلى الضفّة المقابلة. ورأى والفرح يغمره أنَّ الطريق بين حقول الزيتون كانت خالية، وشُوهدت القناطر وقد أخنى عليها الدهر فهدم حجارتها.

وبعد جوّ المدينة الخانق أذهلت ليالي الربيع بأريجها العبق يهوذا، إذ أنَّ أمواج من روائح النعناع والأضاليا كانت تهبّ من سهول بيت لحم وتقتحم الحقل.

لم يكن ثمّة حرّاس عند البوّابة. وبعد دقائق كان يهوذا يركض تحت ظلال أشجار الزيتون المتفرّعة الأغصان الدهرية. وقادته الطريق إلى الجبل. فتوقّلها وهو يلهث. ومن حينٍ لآخر كان ينتقل من الظلمة إلى سجّادة نسج خيوطها وزخرفها ضوء القمر، وقد ذكّرته بالسجّاد في دكّان زوج نيزا الغيور.

وبعد فترة قصيرة من الوقت لاحت عن يساره في السهل معصرة زيتون: بدولابها الحجري الثقيل وكومة من البراميل. وكانت الحديقة خالية فالعمّال أنهوا أعمالهم مع غروب الشمس، وكانت أجواق البلابل تغرّد فوق رأس يهوذا.

وبات الهدف قريباً. إنّه على يمين يهوذا في الظلمة. وانتظر سماع خرير المياه وهي تنساب في المغارة. وها هو بدأ يسمع الخرير. وبردت الأجواء، وسرت في مفاصله قشعريرة برد.

وحينئذٍ مشى متمهّلاً وصاح بصوت خفيض:

ـ نيزا!...

لكن بدلاً من أن تجيبه نيزا، قفز طيف رجلٍ عريض المنكبين، قصير القامة، وانفصل عن جذع زيتونة ثخين كان ملتصقاً به، ولمع في يده شيء وخبا في الحال.

وتقهقر يهوذا إلى الوراء وصاح بصوتٍ واهن:

ـ آه!...

وسدّ شخص ثاني الطريق أمامه.

وسأله الشخص الأوّل:

ـ قل ما قيمة المبلغ الذي قبضته الآن؟..

وخفق الأمل في قلب يهوذا، فصاح يائساً:

ـ ثلاثون درهماً! نعم ثلاثون درهماً! هذا هو المبلغ بأكمله! هاكم النقود فخذوها. لكن

امنحوني الحياة!.

وبلحظة عين جذب الشخص الذي كان في المقدّمة الكيس من بين يدي يهوذا ، وومض خلفه سكّين كالبرق وانغرز في ظهره تحت لوح الكتف. فهوى إلى الأمام وبسط يديه ذات الأصابع الملتوية في الهواء. فما كان من الرجل الأوّل إلاّ أن أمسكه وطعنه بالسكّين في قلبه وغرزها حتّى المقبض.

- نيـ ... زا ... هتف يهوذا بصوت خافت شاكٍ غير ذلك الصوت المرتفع، النقي النبرات. وما لبثت أنفاسه أن همدت. وسقط مرتطماً بالأرض محدثاً ضجة.

وحينذاك بدا طيف رجل ثالث على الطريق. كان يرتدي مبذلاً ويعتمر قلنسوة.

وأمر الرجل الثالث: هيّا أسرعا.

أمرهما بالإسراع وناولهما ورقة محفوظة داخل قطعة من الجلد. ولفّها القاتلان مع الكيس بخيط قوي. ودسّ الرجل الثاني الرزمة في صدر ثوبه. وبعد ذلك انتحى القاتلان جانب الطريق، وابتلعتهما الظلمة، واختفيا بين أشجار الزيتون.

أمّا الرجل الثالث فقرفص قرب القتيل وراح يتأمّل وجهه.

وبدا الوجه في الظلّ أبيض كالطبشور وجميلاً. وبعد عدّة ثوانٍ لم يعد يُرى أحد على الطريق. كانت الجثّة ممدّدة على الأرض مبسوطة اليدين. وأضاءت بقعة من ضوء القمر بطن قدم الرجل اليسرى، فبانت سيور الحذاء.

في غضون ذلك كان تغريد البلابل مرتفعاً في سماء حديقة (بيت لحم). ولم يعرف أحد وجهة سير القاتلين اللذين طعنا يهوذا بالسكّين. لكن عُرفت وجهة سير الرجل صاحب القلنسوة، فقد انحرف عن الدرب ويمّم غيضة الزيتون باتجاه الجنوب. وبعيداً عن البوّابة الرئيسية، في الزاوية الجنوبية، حيث كانت الحجارة منهارة، قفز الرجل من فوق السياج. وما لبث أن شُوهد على ضفّة جدول سدرون. ثمّ مشى في ماء الجدول، وأكمل طريقه حتى رأى من بعيد طيفين. كانا طيفي حصانين وقربهما إنسان. ثمّ رأى الحصانين يقفان في ماء الجدول، الذي كانت مياهه تنساب وتغسل حوافرهما.

واعتلى الفارس متن حصان. وصاحب القلنسوة متن الحصان الثاني. وسار الفارسان الهوينا في الماء. وكانت تسمع صلصلة الحصى تحت حوافر حصانيهما. ثمّ خرجا من الماء وصعدا ضفّة أورشليم، وأكملا طريقهما بمحاذاة سور المدينة. وهنا تنحّى الفارس وهمز حصانه فعدا خبباً وتوارى عن العيان. أمّا الرجل المعتمر القلنسوة فقد أوقف الحصان ونزل من فوقه. وفي أرض خالية خلع ثوبه، وقلَبَه، وأخرج منه خوذة مفلطحة بدون ريش، ولبسها. واعتلى متن الحصان الآن إنسان في لباس عسكري، تدلّى على جانبه سيف قصير. وهمز حصانه ذا الدماء الحارّة، فراح يعدو خبباً، وهو يخضّ فارسه. الآن لم تعد الطريق

طويلة أمام الفارس. ها هو ذا يقترب من بوّابة أورشليم الجنوبية.

تحت قناطر البوّابات كانت نار المشاعل ترقص مضطّربة. وكان بعض الحرّاس من سرية الصاعقة يجلسون على المقاعد الحجرية ويلعبون بالكعاب. وما أن رأوا الرجل العسكري القادم حتى وقفوا احتراماً له، ولوّح لهم بيده رادًّا التحيّة. وأكمل طريقه نحو المدينة.

كانت المدينة تختنق بنيران العيد، وأنوار المصابيح ترتعش في كلّ نافذة. وفي كلّ البيوت كانت تصدح أناشيد الحمد والتمجيد متّحدة في جوقة متنافرة الأنغام. ومن حين لآخر كان الرجل العسكري ينظر إلى النوافذ المطلّة على الشارع ويرى الناس وقد جلسوا إلى مائدة العيد الدسمة وأمامهم لحوم الماعز وكؤوس الخمرة وقد صُفّت بين أطباق الحشائش المرّة. وسلك الفارس ببطء، الشوارع الخالية في الحي الأسفل للمدينة، وكان يصفّر مُلحّناً إحدى الأغنيات وهو في طريقه إلى برج أنطونيوس. وحيناً كان ينظر إلى الشموع الخمس التي لا يوجد مثيلاً لها في العالم كلّه، والتي كانت تتألّق وتسنو فوق الهيكل. وأحياناً كان ينظر إلى القمر المعلّق فوقها في كبد السماء.

ولم يشارك قصر هيرودوس العظيم باحتفالات الفصح المهيبة لا من قريب ولا من بعيد. ففي حجرات القصر الجنوبية حيث ينزل ضبّاط الكتائب الرومانية وقائد الفيلق. أضيئت الأنوار. ثمّة حياة تنفّست في تلك الحجرات وانبعثت حركة. أمّا في الغرف الأمامية فقد أوى تحت سقفها ساكن القصر الوحيد الوالي المقيم كرهاً لا طوعاً.

هذا الجناح بأكمله ـ جناح الوالي ـ بأعمدته وتماثيله الذهبية ورواقه، بدا تحت ضوء القمر الساطع وكأنّه مشوّهاً. الظلام والصمت مهيمنان هنا هيمنة مطلقة.

لقد كان الوالي صادقاً في حديثه مع أفراني، فإنّه فعلاً لم يكن يحبّ السكن في القصر ولا دخوله.

وأمر بأن يفرشوا له لينام على الشرفة وفي نفس المكان الذي تناول فيه طعام الغداء عند الظهر، واستجوب الموقوفين في الصباح. واستلقى الوالي على الأريكة، لكنّ الكرى جافاه وكأنّ بينهما عداءً قديماً. وكان القمر المنير يمخر عباب السماء تائهاً، وقد سمّر الوالي نظره به. وفي حوالي منتصف الليل أشفق الكرى على الإيغمون، فتثاءب وتشنّج، وفكّ أزرار ثوبه وخلَعَه، ثمّ حلّ الزنّار العريض الذي كان يمنطق به قميصه والذي تدلّى منه سكّين عريض الشفرة في غمده. فكّ الزنّار ووضعه على المقعد قرب الأريكة، وخلع حذاءه وتمدّد.

وصعد بانغا إليه على السرير واضطّجع بجانبه، واضعاً رأسه قرب رأس سيّده. وما أن وضع الإيغمون يده على عنق الكلب وأغلق عينيه، حتى غفا الكلب أيضاً.

كان مضجع الوالي غارقاً في الظلمة وقد منع الرواق عنه ضوء القمر، غير أنَّ شريطاً من ضوء امتدّ من درجات السلّم حتّى الأريكة. وما أن انسلخ الوالي عن واقعه، قاطعاً كلّ صلة به، حتّى راح يتحرَّك دون إبطاء وسلك طريقاً من نور متوجِّهاً إلى أعلى نحو القمر.

وضحك في المنام وغمرته السعادة، وكيف لا، والأحوال لا أروع ولا أبهى على الطريق النورانيّة الشفّافة السماوية الزرقة.

لقد مشى على تلك الطريق وبرفقته بانغا، وقربهما مشى ذلك الفيلسوف المشرَّد، وقد دار بينهما جدال حامي الوطيس. تجادلا حول مسائل معقَّدة وهامة. وما كان بمكنة أيٍّ منهما إقناع الآخر برأيه. فلم يتَّفقا على شيء، وبسبب هذا كان نقاشهما هامًّا ومثيراً للانتباه وطويلاً. وبديهي القول إنَّ عملية الإعدام التي نُفِّذت اليوم، ما كانت - حسبما يظهر - غير وهم من الأوهام. وكيف لا تكون كذلك وها هو الفيلسوف أمام عينيك يحاول أن يقنعك بتعاليم خرقاء لا يقبلها عقل إنسان. يقول الفيلسوف: إنَّ كلّ الناس طيِّبون!.

طالما أنَّه يمشي بجانبك فمعنى هذا أنَّه حيّ يرزق. ومجرَّد التفكير بأنَّ مثل هذا الإنسان حُكم بالإعدام، فهذا يعني شيء عظيم وفظيع ومخيف. لم ينفَّذ الحكم بالإعدام. لا. ولم يكن أصلاً.. ما كان أبداً مثل ذلك الحكم.. وهنا إذن يكمن بهاء تلك الرحلة الرائعة إلى فوق... إلى القمر.

وكان لديهم متَّسع من الوقت للنقاش، ولن تهبَّ العاصفة قبل المساء، والجُبن رذيلة من الرذائل البشرية!... بهذا تكلَّم يسوع الناصري.

لا... أيها الفيلسوف، إنَّني أعترض على كلامك، الجُبن ليس رذيلة من الرذائل فحسب... بل هو أفظع الرذائل على الاطلاق. هاك مثلاً: لم يجبن الوالي الحالي، إنَّما جبن خطيب الفيلق في وادي العذارى، حين انقضَّ المتوحشون على (كريسابوي) العملاق، وكادوا يمزِّقونه بأسنانهم. لكن عفواً ومعذرة أيها الفيلسوف! أتعتقد أنت ذو العقل الكبير والمنطق الصائب أنَّ والي اليهودية يضحِّي اليوم بمنصبه بسبب شخص ارتكب جريرة بحق القيصر؟

وزعق بيلاطس في المنام ونشج: نعم نعم.. يضحِّي.

نعم من المؤكَّد أنَّه على استعداد ليضحِّي بمنصبه.

لو سألته في الصباح لرفض العرض. أمَّا الآن في الليل وبعد أن راز المسائل: هو مستعدٌّ، مستعدٌّ للتضحية بمنصبه، مستعدٌّ لبذل كل ما تملكه يمينه، ومستعدٌّ أن يبذل حتّى حياته، من أجل أن يخلِّص من الإعدام خيالياً مجنوناً... وطبيباً حالماً هائماً... بريئاً لم يقترف إثماً.

- وسنبقى سويّة إلى الأبد، ولن نفترق بعد الآن. بهذا خاطب في المنام الفيلسوف

المشرّد الرثّ الثياب بيلاطس البنطي، ولم يُعرف كيف شُوهد على الطريق أمام فارس يحمل رمحاً ذهبياً. وطالما وُجد الأوّل، فسيوجد الثاني، وطالما أنَّهم تذكّروني، ففي الحال سيتذكّرونك أنت أيضاً... وسيتذكّرونني أنا اللقيط الذي لا حسب له ولا نسب. وسيتذكّرونك أنت، يا ابن الملك المنجّم، وابنة الطحّان.. يا ابنة بيلا الحسناء..

ـ لا تنسني، واذكرني يا ابن المنجّم.

وقد طمأنته إيماءة من رأس مرافقه فقير الناصرة، ما كان من والي اليهودية القاسي إلاَّ أن بكى في المنام من فرط فرحه وسروره.

لكن.. ولكن.. كان ذلك حلماً هانئاً ليس إلاَّ..

فيا ليقظة الإيغمون ما أقساها..

يا لليقظة القاسية التي أعقبت ذلك الحلم الجميل.

الكلب ينبح على القمر. وانهارت الطريق الملساء اللزجة السماوية الزرقة.

وفتح الوالي عينيه وتذكّر... تذكّر قبل كلّ شيء أنَّ حكم الاعدام قد نُفِّذ وأنَّه كان حقيقة حقّة.

وأوّل ما فعله أنَّه قام بحركة اعتاد عليها منذ زمن، وهي التشبّث بطوق بانغا. وراح يبحث عن القمر بنظرات زائغة من عينين مريضتين. فرأى القمر في مكان قصيّ في السماء، وقد اكتسب لوناً فضيًّا. وبدا ضوء مزعج قلق أطلّ على الشرفة أمام عيني الوالي وحجب ضوء القمر. ومَض ودخَّن المشعل بين يدي آمر الحرس (كريسابوي). وحدج حامل المشعل الوحش المخيف المتهيّء للوثوب بنظرة مملوءة بالضغينة والخوف.

وقال الوالي بصوت ضعيف واهن النبرات:

ـ لا تمسّه يا بانغا ـ قال هذا وسعل واتّقى بيده نور المشعل، وأردف: وفي الليل، تحت ضوء القمر، لا تعرف الطمأنينة سبيلاً إلى قلبي. إيه أيتها الآلهة!.. وأنت يا مارك وظيفتك تعسة.. تشوّه الجنود... ونظر مارك إلى الوالي منذهلاً... واستيقظ الأخير وصحا من غفوته، وحتى يمحي الكلمات الفارغة التي تلفّظها وهو نائم، قال:

ـ لا تزعل أيها الآمر. وضعي سيء حقًّا، وأسوأ مما تتصوّر. ماذا تريد؟.

وأبلغ مارك بهدوء:

ـ رئيس الحرس السرّي استأذن في الدخول عليك.

ـ دعوه يدخل، دعوه يدخل ـ أمر الوالي وهو يطهِّر حلقه بالسعال، وراح يبحث عن الحذاء (كان حافياً). وخَفَقَ ضوء المشعل في الأروقة. وسُمعت فوق الفسيفساء جلبة جزمة آمر الحرس وهو يغادر إلى الحديقة.

وخاطب الوالي نفسه وهو يصرُّ أسنانه:

ـ تحت ضوء القمر في الليل، لا تعرف الطمأنينة سبيلاً إلى قلبي.
وبدلاً من رئيس الحرس ظهر على الشرفة رجل يعتمر قلنسوة.
وقال الوالي بهدوء وقد دهس برجله قفا كلبه:
ـ لا تعضّه يا بانغا.
وقبل أن يشرع أفراني بالكلام، تلفَّت حوله حسبما تعوَّد، ودنا من الظلّ، ولمّا تأكَّد أنَّ الشرفة خالية قال بهدوء:
ـ أرجو منك أن تحاكمني يا حضرة الوالي. لقد كنت محقًّا بإحساسك. ولم أستطع المحافظة على حياة يهوذا من قيريافا. لقد ذبحوه. ولهذا أطلب منكم أن تقيلوني وتحاكموني.
وهُيِّء لأفراني أنَّ أربع عيون حملقت فيه: عينا ذئب، وعينا كلب.
وما لبث أن أخرج من ثوبه كيساً تجمَّدت عليه الدماء، وخُتم بخاتمين. وأكمل القادم:
ـ هاكم كيس النقود وقد رماه القتلة في بيت رئيس الكهنة. والدم المتجمِّد على هذا الكيس هو دمّ يهوذا من قيريافا.
وسأل بيلاطس وقد انحنى فوق الكيس:
ـ وكم يحتوي كيس النقود هذا، يا حبَّذا لو أعرف.
ـ ثلاثون درهماً.
وارتسمت على فم الوالي ابتسامة ساخرة وقال:
ـ مبلغ صغير.
وصمت أفراني.
ـ وأين الجناة؟ ـ سأل بيلاطس.
ـ لا أعرف. أجاب الرجل بهدوء الواثق من نفسه، والذي لم يشأ أن تفارقه قلنسوته، وأكمل: صباح هذا اليوم يبدأ التحقيق والتفتيش.
وارتجف الوالي وأفلت سير الحذاء من بين يديه، الذي لم يزرِّر ولا بأية طريقة؟
ـ وهل أنت تعرف يقيناً أنَّه قتل؟
وأتى الردّ جافاً:
ـ إنَّني أعمل منذ خمس عشرة سنة في اليهودية يا حضرة الوالي، بدأت في عهد (ڤاليري غراتي)، وليس من الضرورة أن أرى الجثّة لأحكم بموت صاحبها. وها إنِّي أبلِّغك بأنَّ ذاك المدعو يهوذا من (قيريافا)، قد قتل، منذ بضع ساعات.
وأجاب بيلاطس:
ـ عفواً يا أفراني إنَّني لم أصحُ من نومي بعد، لذلك بدر منِّي ما بدر من أسئلة. إنَّ نومي مضطّرب. وأكمل الوالي وهو يبتسم ساخراً: أرى في منامي شعاعاً من القمر. وحالتي

تدعو إلى الشفقة. تصوَّر إنَّني أرى نفسي وكأنَّني أسلك ذلك الشعاع. وأردت أن أعرف رأيك في هذه المسألة. وفي أيّ مكان ستبحث عن الجثّة؟ اجلس يا رئيس حرسي السرّي.

وانحنى أفراني وأدنى المقعد من السرير وجلس وهو يصلصل بالسيف وقال:

ـ إنَّني أستعدّ للبحث عن الجثّة بالقرب من معصرة الزيتون في حديقة بيت لحم.

ـ حسناً، حسناً، ولماذا في ذلك المكان بالذات؟

ـ حسب تصوّراتي يا سعادة الإيغمون، يهوذا لم يقتل في أورشليم، إنَّما في مكان بعيد عنها. لقد قتل في الضاحية.

ـ إنَّني أعتبرك أحد العارفين المولين عملهم كلّ اهتمام. لا أعرف شيئاً عن حالة الأمن في روما، أمَّا في المستعمرات فلا أجد نظيراً لك. أوضح لماذا تظن أنَّ يهوذا قتل في ذلك المكان بالذات؟

وأجاب أفراني بصوت خفيض:

ـ إنَّني متيقِّن لدرجة لا تقبل الشكّ من أنَّ يهوذا وقع بين أيدي مشبوهين في ضاحية المدينة. مستحيل قتل إنسان في وسط شارع في المدينة واخفاء معالم الجريمة. لقد أغووه وأخذوه إلى أحد الأقبية. لقد بحث عنه رجال الأمن في حي المدينة الأسفل. ولو كان هناك لعثروا عليه. لكنَّه لم يكن في المدينة وأنا متأكِّد من هذا. ولو كان مكان الجريمة بعيداً عن المدينة لما كان بامكان القتلة رمي النقود بمثل هذه السرعة. قُتِل يهوذا إذن بالقرب من المدينة. أُغوي إلى الضاحية.

ـ ما بمقدرتي أن أستوعب كيف تمَّ لهم ما أرادوه؟

ـ وهذا هو السؤال الصعب في القضية، ولا أعرف هل سيكون بمقدرتي كشف كلّ الملابسات؟..

ـ قضية مليئة بالألغاز والمعميات!.

ـ قضية غامضة حقًّا. في ليلة عيد، يغادر مؤمن إلى جهة مجهولة، ويغيب عن مائدة الفصح ليقتل؟!. ومن هم يا ترى الذين أغووه، وبأيّ شيء أغووه؟ أيكون للمرأة دور في الجريمة؟ ـ سأل الوالي فجأة وكأنَّه أهم السؤال.

فأجاب أفراني بهدوء وبحجّة مقنعة:

ـ لا يا سعادة الوالي. احتمال ضعيف وحتّى غير وارد دور المرأة هنا. إذا اتَّبعنا المنطق في نقاشنا.. من المستفيد من قتل يهوذا؟ المستفيد جماعة من الخياليّين المشرّدين الصعاليك، ولا وجود للنساء بينهم.

ـ ليتزوَّج المرء يحتاج إلى نقود يا حضرة الوالي. ولتولّد الزوجة يحتاج الأمر إلى نقود أيضاً، لكن ليقتل إنسان بمساعدة إمرأة، فأمر يحتاج إلى مبلغ كبير وكبير جدًّا من النقود

والصعاليك المشرَّدون لا يملكون شيئاً منها. لا يد للمرأة في هذه الجريمة يا سعادة الوالي. وأقول لك أنَّ محاولة تأويل الجريمة بهذا التفكير سيبعدنا كثيراً عن الموضوع وسيزيد القضايا تعقيداً.

وقال بيلاطس:

ـ إنَّني أراك محقًا في أقوالك يا أفراني، ولقد سمحت لنفسي بمثل هذه الافتراضات..

ـ لكنَّها ولعمري افتراضات مغلوطة يا سعادة الوالي.

وهتف الوالي حينذاك، وراح يتأمَّل وجه أفراني بنهم:

ـ وما العمل إذن؟

ـ أفترض أنَّ الدافع إلى الجريمة هو المال، والمال فقط.

ـ فكرة رائعة. لكن من بمقدوره أن يعرض عليه المال ليلاً في ضاحية المدينة وكيف؟

ـ ليس هذا الذي حدث يا حضرة الوالي. لديّ تصوُّر واحد لما حدث، وإذا لم يصحّ فلن أجد له حينئذٍ تفسيراً آخر.

وهنا انحنى أفراني ودنا من الوالي وأكمل حديثه همساً:

ـ لقد أراد يهوذا أن يخبىء نقوده في مكان معزول آمن لا يعرفه أحد سواه.

ـ شرح دقيق. قد يكون هذا ما حدث حقًّا. والآن أصبح باستطاعتي فهمك.. لقد أغوته وساوسه لا الناس.. هذا ما حدث فعلاً.

ـ نعم لقد كان كثير المخاوف والشكوك، فخبَّأ نقوده عن الناس.

ـ لقد قلت إنَّه قُتل على طريق بيت لحم، فلماذا في ذلك المكان بالذات؟ هذا ما لم أستطع أن أفهمه.

ـ تلك وأيم الحقّ مسألة بسيطة يا حضرة الوالي. أي إنسان لا يخبِّىء النقود على الطرقات وفي الأماكن الظاهرة الخالية. ولم نرَ أثراً له لا على طريق (عفرون) ولا على طريق (ڤيفانيا). فمن المفترض أن يكون في مكان آمن معزول، بعيد عن الأشجار، نعم بكل بساطة أقول لا يوجد أماكن معزولة وبعيدة وآمنة في ضواحي أورشليم غير طريق بيت لحم. وما كان بمقدوره أن يذهب أبعد من ذلك المكان.

ـ لقد أقنعتني بحججك الدامغة.. فما العمل الآن؟

ـ سأشرع بالبحث والتنقيب عن القتلة الذين طاردوا يهوذا خارج المدينة، وفي الوقت نفسه سأقدِّم نفسي للمحاكمة كما سبق وأبلغتكم.

ـ وما هي الجناية التي ارتكبتها لتقدِّم نفسك للمحاكمة؟

ـ لقد قصّرت فرقة حرسي فأفلت يهوذا من رقابتها في السوق عند المساء، بعد أن غادر قصر قيافا. كيف حدث ذلك لا أعلم. لم يحدث معي من قبل مثل هذا الأمر. لقد كان

مراقَباً بعد حديثي معك في تلك الليلة. عرَّج إلى مكان ما قرب السوق، وسلك منعطفات غريبة واختفى...

ـ أبلغك بأنّك لا تستوجب المحاكمة. عملت كل ما بوسعك. ولا يوجد شخص في العالم يقدر أن يقدِّم أكثر ممَّا قدَّمت أنت. ـ وهنا ابتسم الوالي وأكمل: قاضٍ رجال المباحث الذين أضاعوا يهوذا. وهنا أُنبِّهك متمنياً أن لا يكون التفتيش عن الجناة جديًّا ودقيقاً. ففي نهاية الأمر عملنا كل ما بوسعنا للحفاظ على حياة ذلك الوغد! نسيت أن أسألك ـ وهنا مسح الوالي جبينه ـ كيف احتالوا ورموا النقود في بيت قيافا؟.

ـ سعادة الوالي، المسألة بسيطة جدًّا. لقد مرَّ المنتقمون من خلف قصر قيافا، من المكان الذي يعلو فيه الزقاق عن الحوش، ورموا بصرّة المال عبر السياج.

ـ والورقة معها؟

ـ بالضبط يا حضرة الوالي. ـ وهنا فضَّ أفراني الختم عن الصرّة وأراها مفتوحة لبيلاطس.

ـ العفو!! العفو!.. ماذا تفعل يا أفراني، تفضّها وهي ممهورة بخاتم الهيكل.

أجاب أفراني وهو يعيد الصرّة إلى ما كانت عليه:

ـ لا تقلق من هذا الأمر يا حضرة الوالي.

فسأل بيلاطس وهو يضحك:

ـ أتكون الأختام كلها بحوزتك؟.

ـ هذا ما يجب أن يكون. ـ أجاب أفراني بلهجة جافّة وبدون ضحك.

ـ أتصوّر حالة قيافا.

ـ نعم يا حضرة الوالي. لقد حدثت فوضى كبيرة. ودعوني إليهم في الحال ـ وحتّى في الظلام الحالك كان يُرى وميض عينا بيلاطس ـ.

ـ حقًّا.. ثمّة ما يثير الاهتمام حقًّا!..

ـ أسمح لنفسي وأعترض بأن ليس ثمّة ما يثير الاهتمام، بل هناك مسائل مملّة منهكة.. على سؤالي لهم: هل تلقَّى أحد العاملين في قصر قيافا أموالاً من جهة ما، فكان جوابهم: إنَّ أحداً لم يتلقَّ شيئاً وجزموا بهذا.

ـ حسناً؟ طالما أنّهم لم يقبضوا، فيجب أن نصدِّقهم أنَّهم لم يقبضوا. والعثور على الجناة بات أمراً صعباً. هذه هي الحقيقة يا حضرة الوالي.

ـ خطرت الآن فكرة على بالي يا أفراني، لعلَّه انتحر.

ـ لا، يا حضرة الوالي، ـ أجاب أفراني ـ ومن فرط دهشته استلقى على المقعد إلى الوراء! ـ عفوك ليس لمثل هذه الفكرة أي نصيب من الصحة!..

ـ كلّ شيء يمكن أن يحدث في هذه المدينة! أنا مستعدّ أن أراهن أنَّه بعد وقت قصير جدًّا وتسري شائعات عن انتحاره في كلّ أرجاء المدينة.

وهنا رمى أفراني الوالي بنظرة، وفكَّر قليلاً وأجاب:

ـ وقد يحدث مثل هذا يا حضرة الوالي.

وحسبما بدا لم يشأ الوالي، أو بالأحرى لم يقدر أن ينتهي من قضية القتل. رغم أنَّها توضَّحت وانكشفت ملابساتها. فعاد وسأل بلهجة الحالم:

ـ كم كنت أتمنَّى أن أراهم ساعة قتلوه.

فأجاب أفراني وهو يرمي الوالي بنظرات ممزوجة بالسخرية:

ـ لقد قتلوه بفن.

ـ وكيف عرفت؟

أجاب أفراني:

ـ أريد أن ألفت انتباه الوالي إلى الكيس. أؤكِّد لك أنَّ دم يهوذا تدفَّق على الجراب كما تتدفَّق المياه من فوهة قربة. لقد مرَّ عليَّ ورأيت الكثير من القتلى.. يا حضرة الوالي.

ـ أيفهم من كلامك أنَّه لن ينهض بعد اليوم.

ـ لا. إنَّه سينهض يا حضرة الوالي ـ أجاب أفراني بلهجة فلسفية وهو يبتسم، وأكمل: سينهض حينما يُنفخ فوق رأسه في البوق، أي يوم القيامة. لكنَّه قبل هذا اليوم أؤكِّد لك أنَّه لن يقوم.

ـ كفى يا أفراني كفى! زالت كل الملابسات. نعود إلى مسألة الدفن.

ـ لقد دُفن الذين نُفِّذ فيهم حكم الاعدام.

ـ إيه أفراني.. إنَّ تقديمك للمحكمة جريمة وظلم. وإنَّك لتستحق جزيل العطاء وأرفع المكافآت. أخبرني كيف تمَّ دفنهم.

وبدأ أفراني يتحدَّث فقال: إنَّه في غضون الوقت الذي انشغل فيه بقضية يهوذا، وصلت فرقة من رجال الأمن السرّي، بقيادة أحد مساعديه، وصعدت إلى الهضبة عند حلول المساء، ولم تجد هناك الجثث. وارتعش بيلاطس وقال بصوت أجشّ:

ـ آه كيف لم أفطن إلى هذا؟

ـ لا داعي للقلق يا حضرة الوالي، ـ قال أفراني، وأكمل قصتَه: لقد لمُّوا جثَّتا ديسماس وغستاس وقد نقرت الطيور الجارحة أعينهما، ثم عادوا ورموا الجثَّتين ليبحثوا عن الثالثة. وسرعان ما وُجدت، كان ثمّة إنسان يدعى...

وقاطعه بيلاطس بلهجة المؤكِّد لا بلهجة السائل:

ـ ليڤي ماتڤي.

ـ نعم يا حضرة الوالي.

ـ لقد كان ليڤي ماتڤي مختبئاً في كهفٍ يقع عند سفح جبل الجماجم الشمالي، وينتظر حلول الظلام ومعه جسد يسوع الناصري عارياً. ولمّا أدركوه راح يتلفَّظ بكلمات لا معنى لها، وحيناً كان يستعطف وأحياناً كان يهدِّد ويلعن ويتوعَّد.

وسأل بيلاطس مكتئباً:

ـ ألم يلقوا القبض عليه ويمسكوه؟

فأجاب أفراني مهدِّئاً مطمئناً:

ـ لا يا حضرة الوالي، لقد تمكَّنوا من إقناع المجنون المتهوِّر واستطاعوا تهدئته موضحين له بأنَّ الجسد سيُدفن بالتراب. وبعد أن اقتنع ليڤي هدأت ثائرته ولكنَّه عاد وأعلن أنَّه لن يغادر المكان ولو أرادوا قتله، وإنَّه يرغب أن يشارك بالدفن، وعرض عليهم سكِّيناً كانت معه ليقتلوه بها.

وسأل بيلاطس بصوت مخنوق النبرات:

ـ أيكونون قد طردوه؟

ـ لا يا حضرة الوالي، لا، لقد سمح له مساعدي بأن يشارك في الدفن!

وسأل بيلاطس:

ـ وما اسم مساعدك الذي قاد تلك العملية؟

أجاب أفراني:

ـ تالماي. وأضاف جزعاً: أيكون قد ارتكب هفوة ما؟

فأجاب بيلاطس:

ـ لا ليس ثمة هفوة. بدأت أشرد. أعتقد بأنَّني أتعامل مع إنسان لا يرتكب هفوات، وهذا الإنسان هو أنت يا أفراني.

وأكمل أفراني قائلاً:

ـ لقد نقلوا ليڤي ماتڤي في العربة مع الجثث، وبعد ساعتين وصلوا إلى إحدى الشعاب الخالية الواقعة في شمال أورشليم، وهناك في ذلك المكان تناوب أفراد الفرقة، وخلال ساعة حفروا حفرة عميقة وواروا الجثث فيها.

ـ هل دفنوا الجثث عارية؟

ـ لا يا حضرة الوالي. لقد أخذ أفراد الفرقة معهم أكفاناً، وكان الموتى يضعون محابس في أصابعهم، محبس يسوع كان بحزٍّ واحد، ومحبس ديماس كان بحزّين، ومحبس غستاس كان بثلاثة حزوز. وقد غُطِّيت الحفرة وسُدَّت بالحجارة. ووضع تالماي فوق الحفرة حجراً كعلامة مميِّزة.

وقال بيلاطس وقد قطَّب ما بين حاجبيه وعبس:

ـ آه لو كان باستطاعتي رؤية كل مراسم الدفن. نعم كان لازماً عليَّ رؤية ذاك (الليڤي ماتڤي).

ـ إنَّه هنا، يا حضرة الوالي.

وجحظت عينا بيلاطس، وسمَّر نظره على أفراني، ثمَّ خاطبه بقوله:

ـ أشكرك، أشكرك على ما بذلت من جهود في هذه القضية. أرجوك أن ترسل لي غداً (تالماني)، وأخبره مسبقاً بأنَّني مسرور منه ومنك. ـ وهنا أخرج الوالي من جيب نطاقه، الذي كان ملقى على الطاولة، أخرج خاتماً وأعطاه لزائره مخاطباً:

ـ أرجوك أن تقبل منِّي هذه الهدية على سبيل الذكرى.

فانحنى أفراني وهو يتلفَّظ:

ـ إنَّه لشرف عظيم لي يا حضرة الوالي.

ـ أرجو منك أن تكافىء أفراد الفرقة الذين دفنوا الجثث. وأن تنزل العقاب بالذين أفلتوا يهوذا من رقابتهم، وأن ترسل وراء ليڤي ماتڤي حتى يحضر. أريد معرفة قضية يسوع بكلّ تفاصيلها.

وردّ أفراني وهو يرجع القهقرى وينحني:

ـ سمعاً وطاعة يا حضرة الوالي.

وصفَّق بيلاطس وصاح:

ـ إليّ، ليضيئوا سراجاً في الرواق.

واختفى أفراني في الحديقة. ووراء ظهر بيلاطس كانت النيران تتلألأ بين يدي الخادم، ووضعت على الطاولة أمام الوالي ثلاثة أسرجة مضيئة. وأفل ضوء القمر وكأنَّه غادر مع أفراني.

ويمَّم الشرفة إنسان مجهول. بدا قزماً نحيلاً أمام الحارس العملاق، الذي عاد إلى الحديقة بسرعة واختفى حالما وقع نظر الوالي عليه، لا بدَّ أنَّه فهم معنى تلك النظرة التي رشقه بها سيِّده.

ودرس الوالي قسمات القادم بنظرات خائفة شرهة. تأمَّل بيلاطس زائره كما يتأمَّلون عادة الإنسان الذي تكلَّموا عنه كثيراً وفكَّروا به كثيراً ثم ظهر أمامهم أخيرا.

كان القادم في الأربعين من العمر، أسود، رثّ الثياب، عابس الوجه، ويبست الأوساخ على ثيابه. صفوة القول إنَّه كان قبيح المنظر، يشبه المتسوّلين المشرّدين في الشوارع، الذين يتسكَّعون في الباحات أمام الهيكل وفي الأسواق الصاخبة الموسّخة في حيّ المدينة الأسفل.

وساد صمت، عكَّره سلوك القادم الغريب، فقد انقبضت عضلات وجهه، وترنَّح،

ولو لم يمسك بيده الموسّخة حافة الطاولة لوقع على الأرض.

وسأله بيلاطس:

ـ ماذا حدث لك؟

ـ لا شيء، أجاب ليڤي ماتڤي، وأتى بيده حركة وكأنّه بلع شيئاً ما. وبدا وكأنَّ عنقه الهزيل الموسَّخ العاري تورَّم ثم عاد وزال ورمه في الحال.

وكرَّر بيلاطس سؤاله: ماذا حدث لك أجب؟.

فأجاب ليڤي وهو ينظر إلى الأرض بكآبة:

ـ إنَّني متعب.

فقال بيلاطس:

ـ اجلس، وأشار نحو المقعد.

كان ليڤي ينظر إلى الوالي بنظرات مريبة وهو يقترب من المقعد. ونظر مرتبكاً إلى قوائم المقعد الذهبية، ولم يجلس فيه، بل جلس قربه على الأرض.

وسأله بيلاطس:

ـ قل لماذا لم تجلس في المقعد؟

فقال ليڤي وهو ينظر أمامه إلى الأرض:

ـ إنَّني موسَّخ. وأخاف أن أوسِّخه.

ـ الآن يعطونك لتأكل.

فأجاب ليڤي:

ـ لا أريد أن آكل.

فسأله بيلاطس بهدوء: لماذا تكذب؟ لقد مضى عليك أكثر من يوم لم تدخل فيه إلى بطنك لقمة. حسناً وليكن ما تريد. دعوتك إليَّ لتريني سكِّينك.

فأجاب ليڤي:

ـ لقد انتزعه الجنود مني حينما ساقوني إلى هذا المكان. وأضاف بحزن: أعيدوه إليّ فإنَّني أريد أن أرجعه إلى صاحبه الذي سرقته منه.

ـ ولماذا سرقته؟

فأجاب ليڤي:

ـ لأقطع الأمراس.

وصاح المدَّعي العام:

ـ مارك!..

وعاد الحارس إلى الرواق ملبِّياً النداء.

وأمر بيلاطس:

ـ أعطوني سكّينه.

وأخرج الحارس من غمدٍ كان مشكوكاً في زنّاره سكّيناً موسّخاً وأعطاه للمدّعي العام. وابتعد. (كان السكّين من النوع الذي يستعمل لقطع الخبز).

ـ ومن أين أخذت السكّين؟

ـ من دكّان خبّاز عند بوّابة (خفروسكي)، تقع على الجهة اليسرى وأنت داخل إلى المدينة.

وراح بيلاطس يتأمّل شفرة السكّين العريضة ويختبر بإصبعه مدى حدّتها، ليقول بعد ذلك:

ـ يمكنك أن لا تقلق بشأن السكّين. سيعاد إلى دكّان الخبّاز. أمّا الآن فيهمّني أن أرى الميثاق الذي تحمله وكلمات يسوع المكتوبة.

وحدج ليڤي بيلاطس بنظرات بغيضة وارتسمت على فمه ابتسامة مليئة بالكراهية. ابتسامة شوّهت وجهه، فسأل:

ـ تريدون أن تنتزعوا منّي كلّ ثروتي، كلّ ما أملك!.

فأجابه بيلاطس:

ـ لم أقل لك أعطني، قلت لك أرني.

وبعد أن فتّش ليڤي في عبّه، أخرج رزمة من الرقّ. فأخذها بيلاطس وفكّها ونشر الأوراق بين النيران وراح يفكّ إشارات متشابهة ورموز كُتِبت بالمداد، زارًّا بعينيه.

كان من الصعب فهم السطور المعوجّة، وعبس بيلاطس ومال بكليته فوق ورق الرقّ، وهو يمرّر إصبعه فوق السطور.

ومع أنّ حلّ تلك الرموز كان أمراً بغاية الصعوبة، إلاّ أنّه استطاع أن يفهم الكتابات التي كانت عبارة عن حفنة مبعثرة من الحكم والأقوال المأثورة والتواريخ، والملاحظات والمقاطع الشعرية. وقرأ بيلاطس: «لا وجود للموت». «البارحة أكلنا شمّاماً ربيعياً حلواً».

ثم تابع القراءة وقد زرّ عينيه وكشّر وتشنّجت عضلات وجهه: «سنرى نهر ماء الحياة النقي»، «سيأتي يوم تنظر فيه الإنسانية إلى الشمس عبر زجاج شفّاف».

وهنا ارتعش بيلاطس. وميّز في السطور الأخيرة هذه الكلمات: «الجُبن أمُّ الرذائل».

وعاد بيلاطس ولفّ ورق الرقّ، وبحركة حادة، أعاده لليڤي.

ـ خذ. ـ قال له. وبعد أن صمت قليلاً أضاف: إنّك كما أرىٰ إنساناً تحبّ الكتب. وليس ثمّة سبب يحوجك إلى التسكّع في الثياب الرثّة ودون مأوى. عندي مكتبة كبيرة في

قيصاريا، وإنّني غني، وأريد أن آخذك لتعمل عندي بتنظيم وحفظ (البردى)، وستكون مكسوًّا وشبعاناً.

ونهض ليڤي وأجاب: لا. لا أريد مثل هذه الوظيفة.

وسأل الوالي وقد اسودَّ لون وجهه: ولماذا ترفض؟ أتراني ذمياً كريهاً، أم أنّك تخافني؟.

قال ليڤي وقد شوَّهت الابتسامة وجهه:

ـ لا. لأنّني أخافك، بل لأنّك ستخافني أنت. ستخافني. لن يكون هيّناً عليك النظر إليّ بعد أن فعلت ما فعلت وقتلته.

فأجابه بيلاطس:

ـ هاك هذا المبلغ من المال خذه.

وهزَّ ليڤي رأسه، رافضاً العرض، أمّا الوالي فأكمل:

ـ أنا أعلم.. أنّك تعتبر نفسك تلميذ يسوع، لكنّني أقول لك إنّك لم تستوعب شيئاً من تعاليمه. ولو كان الأمر بعكس ما قلت لقبلت أن تأخذ منّي أي شيء. تذكّره حين لاقى الموت ماذا قال؟ قال إنّه لا يتّهم أحداً بقتله ـ وهنا رفع بيلاطس إصبعه مؤكّداً، واختلج وجهه وأكمل ـ لو كان هو لقبل منّي ما أعطيه. أنت قاسٍ. أمّا هو فلم يكن قاسياً. إلى أين ستذهب؟.

واقترب ليڤي بغتة من الطاولة، وتمسّك بها بكلتا يديه الاثنتين، ونظر إلى الوالي بعينين متّقدتين غضباً وهمس:

ـ أنت تعرف يا إيغمون أنّني سأذبح شخصاً في أورشليم. أريد أن أبلّغك أنَّ مزيداً من الدماء سيهرق.

وأجاب بيلاطس:

ـ وأنا أعرف أيضاً أنَّ مزيداً من الدماء سيهرق. ولن تُدهشني بكلماتك. هل تريد قتلي؟

فأجاب ليڤي وقد كشّر مبتسماً:

ـ لا ليس باستطاعتي أن أقتلك. ولست بالمغفَّل حتّى أفكّر بهذا العمل. لكنّني سأذبح يهوذا من قيرياڤا. وسأنذر ما بقي من أيّام حياتي من أجل هذا.

وهنا لمعت عينا الوالي ببريق البهجة والسرور، وأومأ لليڤي بإصبعه بأن يدنو منه وقال:

ـ وهذا العمل أيضاً لن يكون بمقدرتك الإقدام عليه. لا تقلق نفسك، لأنَّ يهوذا قُتِل الليل الفائت.

وقفز ليڤي مبتعداً عن الطاولة وألقى حوله نظرات متوحّشة وصاح:

ـ ومن الذي قام بذاك العمل؟

ـ لا تكون غيوراً ـ أجاب بيلاطس وكشَّر وهو يمسح يديه ـ أخاف أن يكون ليسوع أتباع غيرك.

وأعاد ليڤي سؤاله همساً:

ـ من الذي قام بذاك العمل؟

أجاب بيلاطس:

ـ أنا الذي قمت به.

وفغر ليڤي فاهه مُتعجِّباً، ورمى الوالي بنظرة متوحِّشة، وخاطبه بيلاطس:

ـ إنَّه بالطبع عمل صغير، لكنَّني أنا الذي قمت به. والآن هل تقبل شيئاً منِّي؟

وفكَّر ليفي وقد لانت لهجته، وقال أخيراً:

ـ مُرهم بأن يناولوني ورقة رقّ نظيفة.

وبعد مضي ساعة من الوقت، لم يعد ليڤي في القصر.

وساد الصمت العميق مع بزوغ الفجر. عكَّرته جلبة خطوات الحرَّاس في الحديقة. وخبا نور القمر بسرعة. وشوهدت في طرف السماء بقعة بيضاء، بقايا نجمة الصباح.. وانطفأت السرج منذ وقت طويل. واضطّجع الوالي على الأريكة وقد توسَّد راحة يده، واستسلم لسلطان الكرى وهو يتنفَّس بهدوء، وكان كلبه ينام بجانبه.

وهكذا استقبل والي اليهودية الخامس بيلاطس البنطي فجر اليوم الخامس عشر من شهر نيسان.

الفصل السابع والعشرون

نهاية الشقّة رقم ٥٠

« ... وهكذا استقبل والي اليهودية الخامس: بيلاطس البنطي فجر الخامس عشر من شهر نيسان »، ما أن قرأت مارغريت هذه الكلمات التي انتهى عندها الفصل، حتّى بدأت تلوح تباشير الصباح.

بدأت تلوح تباشير الصباح وسُمعت القُبرات في الحوش على أفنان شجرتي الصفصاف والزيزفون، وقد شرعت في حديث الصباح المرح المحتدم.

نهضت مارغريت من مقعدها، ثم تمدَّدت. الآن فقط شعرت بأنَّها متعبة وبحاجة إلى النوم. وممَّا يجدر ذكره أنَّها كانت واعية وهادئة ولم تكن مضطّربة أو في حالة هذيان، ولم يقلقها أبداً كونها أمضت ليلتها بضيافة القوى الخارقة، ولم تزعجها الذكريات عن حفلة الشيطان الكبرى وحضورها تلك الحفلة، ولا عودة المعلِّم إليها بمعجزة خارقة.. ولا بعث الرواية من الرماد.

لم يزعجها أنَّ كلَّ شيء عاد إلى سابق عهده في القبو، وقد طُرد منه النمَّام ألّوزي مغاريتش. وصفوة القول إنَّه لم تُسبِّب لها معرفتها بڤولند أيّ ضرر. كان كلّ شيء كما يجب أن يكون.

مشت إلى الغرفة المجاورة، فتأكَّد لها أنَّ المعلِّـم مستغـرق في نـوم عميـق. فـأطفـأت المصباح، وتمدَّدت على الديوان بجوار الحائط المقابل، الذي كان مغطّى بشرشفٍ ممزَّق قديم.

وبعد دقيقة استسلمت لسلطان النوم، دون أن تزورها الأحلام وحتَّى الصباح.

لقد كان الصمت هو السائد في غرف القبو، وفي البيت الصغير، وفي الزقاق الأصمّ الأبكم.

لكن في تلك الأثناء، وبينما كان المعلِّم ومارغريت مستسلمين لسلطان الكرى، لم يعرف النوم طابق بأكمله في إحدى المؤسسات الموسكوبية، نعم الطابق بأكمله بنوافذه التي تطلّ على ساحة كبيرة مفروشة بالاسفلت، ساحة اجتازتها الشاحنات خصّيصاً ببطء وهي تهدر، لتنظِّفها بالفراشي وترسل من مصابيحها أنواراً ساطعة، أشحبت نـور الصباح القادم.

كان الطابق بأكمله منشغلاً بقضية ڤولند، وقد أضاءت المصابيح طيلة الليل الفائت

حجراته العشر.

وما يجدر ذكره أنّه لم يعد ثمّة التباس حول القضية، وقد توضّحت منذ يوم الأمس - الجمعة، حينما أجبروا على إغلاق الڤاريته بسبب اختفاء أعضاء إدارته وبسبب الفضائح التي حصلت فيه عشية مشهد السحر الأسود.

لكن المسألة كانت في أنَّه طيلة الوقت لم ينقطع عن الطابق السهران سيل الأخبار الجديدة.

والآن وقد زال الغموض عن هذه القضية الغريبة وبانت فيها بوضوح الأعمال الشيطانية والألعاب المغناطيسية الممزوجة بالجريمة، فلم يبق أمام لجنة التحقيق، والحالة كهذه، إلاّ إدخالها في ملفٍ واحد مع كلّ الحوادث والبلبلات التي وقعت في مختلف أنحاء موسكو. والإنسان الأوَّل الذي كان عليه المبيت في الطابق السهران المضاء بالأنوار الكهربائية كان أركادي أبولونوڤيتش سيمبلابروف (رئيس اللجنة السمعيّة).

وإليكم كيف تمّ ذلك:

ففي يوم الجمعة، بعد الغداء، رنَّ جرس الهاتف في شقّة أركادي أبولونوفيتش الواقعة في مبنى فوق جسر (الكامّني). ومن الطرف الآخر تكلّم رجل وطلب التحدُّث معه.

واقتربت زوجة أركادي من الهاتف وأمسكت بالسمَّاعة وأجابت بكآبة: إنَّ زوجها مريض، ولا يقدر على النهوض من سريره والاقتراب من الجهاز ومع ذلك.. رغم المرض الشديد استطاع الزوج أن يقترب من الهاتف.

وعلى سؤال: من أين يُطلب أركادي أبولونوڤيتش... أفاد الصوت باختصار، ذاكراً اسم المكان.

- هذه الثانية.. هذه، هذه الدقيقة، - لثغت الزوجة المتغطرسة، وطارت كالسهم إلى غرفة النوم لتوقظ زوجها المتمدِّد فوق الأريكة، وهو يعاني الآلام الجهنمية ممَّا حدث في مشهد البارحة والفضيحة التي حدثت ليلاً والتي رافقها طرد قريبته السارتوفيّة من الشقّة.

والحقيقة أنَّه لا بعد انقضاء ثانية، ولا بعد انقضاء دقيقة، بل بعد انقضاء ربع دقيقة، كان أركادي أبولونوڤيتش بفردة حذاء واحدة في الرجل اليسرى، وفي ملابس النوم الداخلية، يقف قرب الجهاز ويلثغ في السمَّاعة:

- نعم أنا... أنا... أسمع، أسمع...

الزوجة وقد نسيت في تلك اللحظات جريمة الخيانة الشنيعة، المتَّهم بها أركادي أبولونوڤيتش التعس، أطلّت من باب الممرّ، وقد ارتسمت على وُجهها علامات الذعر والخوف، وراحت تنفض فردة الحذاء في الهواء وتهمس:

- انتعل الحذاء... انتعل الحذاء... وإلا فستبرد قدماك وتُصاب بالرشح. أمَّا الزوج

فكان يحاول أن يتملّص منها بقدمه العاري. وكان يرمقها كالوحش بنظرات قاسية ويهمهم في التلفون:

ـ نعم، نعم.. فهمت، كيف لم أفهم. سأحضر الآن.

لقد أمضى أركادي أبولونوڤيتش طيلة المساء في ذلك الطابق الذي جرى فيه التحقيق. وكان ثمّة حديث ذو شجون، حديث لا يسرّ ولا يُفرح، لأنّه أُجبر على أن يتحدّث وبصراحة لا عن ذلك المشهد الشنيع وحسب وعن الشجار في (اللوجه)، لكنّه تحدّث أيضاً عن ميليتسا أندريڤنا بوكابوتكا القاطنة في شارع (غروخڤايا)، وعن نسيبته السارتوفية وعن أشخاص آخرين. وقد سبّبت له كلّ هذه الأحاديث آلاماً لا تطاق.

وبديهي القول إنّ اعترافات وأدلّة أركادي أبولونوڤيتش دفعت عجلة التحقيق إلى الأمام. وكيف يكون العكس وهو المثقّف المتعلّم، والفطن الأريب الذي كان شاهداً أميناً على ما حدث أمامه في تلك الليلة المشؤومة.. وقد وصف ذلك الساحر الخفي المقنّع ومساعديه الوغدين، وصفهم وصفاً جليّاً. وأبلغهم باسم عائلة كبير العصابة: ڤولند.

مقابلة أدلّة أركادي أبولونوڤيتش مع أدلّة الآخرين، وكان من بينهم بضع سيّدات تعذّبن بعد ذلك المشهد، (ومنهنّ تلك التي بدت في ملابس داخلية بنفسجية اللون، وفتنت ريمسكي وآخرين كثيرين). مقابلة تلك الأدلّة مع شهادة الساعي كارپوف الذي كان أوّل من انتُدِب إلى الشقّة رقم ٥٠ في شارع السادوڤايا، ساعدت على تحديد ذلك المكان، الذي توجّب عليهم البحث فيه، عن مسبّبي الشغب. ولقد حضروا إلى الشقّة أكثر من مرّة. ولم يُدقّقوا فيها وحسب، بل نقّبوا جدرانها، وتفحّصوا مداخنها، وفتّشوا مخابئها السرية، لكن كان كل ذلك دون نتيجة. وما استطاعوا أن يعثروا على أحد فيها رغم أنّهم كانوا شبه موقنين بأنّ ثمّة حياة وأشخاص في الشقّة، ورغم أنّ الأشخاص الذين استجوبوا وطرحت عليهم الأسئلة عن الفنّانين الأجانب المقيمين في موسكو، أكّدوا جازمين أنّ العاصمة لم ترَ وجه ساحر يُدعى ڤولند.. نعم ما حدث ولما يحدث أنّ ساحراً بهذا الاسم زار موسكو.

لم يُسجّل في أيّة دائرة حكومية تاريخ قدومه، ولم يقدّم جواز سفره أو أوراقه الثبوتية، أو أي اتّفاقات أو عقود، لأية وزارة. حتّى أنّه لم يسمع أحد عنه شيئاً. كيتايتسف، المسؤول عن تقديم البرامج في المسرح، أقسم يميناً مغلّظة، أنّ المفقود ستيپا ليخدييف، لم يبعث له بأيّ برنامج عرض يقدّمه ڤولند. نعم لم يُرسل إليه مثل هذا البرنامج، وبالتالي لم يوقّع، وحتّى لم يتّصل به هاتفياً أحد بشأن ذلك الساحر.

لذلك فإنّ كيتايتسف لا يعلم ولا يفهم كيف استطاع ستيپا السماح بحفلة السحر في الڤاريته.

وحينما قالوا له إنَّ أركادي أبولونوڤيتش رأى بأمّ عينيه هذا الساحر على الخشبة، اكتفى كيتاتيسف حينذاك بأن بسط يديه ورفع عينيه نحو السماء. ومن رؤية عينيه كان يمكننا الحكم عليه بشجاعة: إنَّه نقي نقاوة الكريستال.

أمَّا ذاك... برخور پتروڤتش، رئيس الهيئة العامة، فقد عاد في بذلته حال دخول رجال الشرطة إلى مكتبه. وكادت آنَّا ريتشاردوڤنا تطير من شدّة الفرح. أمَّا رجال الأمن القلقون، ولم يكن ثمّة داعٍ لقلقهم، فقد وقعوا في حيرة عظمى وأسقط في أيديهم.

والجدير بالذكر أنَّ برخور پتروڤتش عاد إلى مكتبه السابق ببذلته الرمادية المخطَّطة، واطّلع على الحلول والتقارير التي اتَّخذتها البذلة أثناء غيابه القصير وأثنى عليها. وهذا الأخير، أيضاً، صاحب البذلة المخطَّطة، جزم بأنَّه لا يعرف شيئاً عن ڤولند.

وأيم الحقّ إنَّها لمسائل تتنافى والعقل.

آلاف المشاهدين... والڤاريته بكامل هيئته من موظّفين إداريين وعمَّال وسيمپلاروڤ الذي يُعدّ من كبار المثقَّفين، كلّ هؤلاء رأوا الساحر بأمّ العين.. ومعه مساعديه الثلاثة الملعونين مثنىً وثلاثاً.. ومع كلّ هذا ليس ثمّة إمكانية في العثور عليه وعليهم؟!!؟...

اسمحوا لي بسؤال؟ ما هذا؟ هل أنَّ الأرض فتحت فاها وابتلعته، أم أنَّه ذاب كما يذوب الملح بعد أن أحيا تلك الحفلة الشنيعة، أم أنَّه، كما يحلو للبعض أن يؤكّد، لم يزر موسكو أبداً..

وإذا سلَّمنا بالافتراض الأوّل.. وقلنا إنَّ الأرض فتحت فاها وابتلعته، أيكون قد اصطحب معه كل المسؤولين عن (الڤاريته)؟. وإذا أخذنا بالافتراض الثاني، وهذا يعني أنَّ أعضاء ادارة المسرح التعس ارتكبوا عملاً شائناً وتواروا.. وهربوا؟! (تذكَّروا النافذة المحطّمة في المكتب.. وتصرُّف توزبوبن!).

ويجب الاعتراف بمقدرة رئيس وأعضاء لجنة التحقيق ولقد عثروا على ريمسكي الضائع بسرعة غريبة. فبعد أن قارنوا بين تصرُّف توزبوبن عند موقف التاكسي قرب دار السينما، مع بعض التواريخ مثل: ساعة انتهاء المشهد وساعة اختفاء ريمسكي، أرسلوا برقية إلى لينينغراد. وبعد ساعة أي مساء (الجمعة) تلقَّوا برقية جوابية تفيد بأنَّه عُثِر على ريمسكي في الغرفة رقم أربعمئة واثنتي عشرة، في الطابق الرابع، في فندق «أستوريا»، بجوار غرفة نزل فيها مدير أحد المسارح الموسكوبية التي تعرض في هذا الوقت بلينينغراد. كان ريمسكي يسكن.غرفة لون أثاثها رمادي أزرق موشّى بالذهب، وحمَّاماتها ممتازة.

وأُلقي القبض على ريمسكي في الحال، بعد أن عُثِر عليه مختبئاً في صوان الثياب في الغرفة المذكورة، وأُجريت التحقيقات معه هناك في مدينة لينينغراد. وبعد ذلك وردت إلى موسكو برقية جديدة تفيد بأنَّ مسؤول الڤاريته المالي في حالة الاختبال واللاوعي، وأنَّه لا

يردّ بوضوح على أسئلة التحقيق، وربّما لا يرغب بالإجابة، ويطلب شيئاً واحداً فقط وهو أن يخبّئوه في حجرة مغلقة ويُعيّنوا لها حرّاساً. ووردت برقية جوابية من موسكو، طالبت بإرسال ريمسكي تحت الحراسة المشدَّدة.. وكان لهم ما أرادوه، ووصل ريمسكي مساء الجمعة بقطار الليل.

ومساء الجمعة وردتهم أخبار عن ليخدييف أيضاً. وُزِّعت البرقيات في كلّ أنحاء موسكو مستقصية عنه. وأتى الجواب هذه المرّة من يالطا، ليخدييف هناك. وكان أن نُقل إلى العاصمة في الطائرة.

الشخص الوحيد الذي لم يُعثر عليه، أو على أيّ أثر منه، كان ڤارنوخا... ذلك المسؤول المسرحي المشهور، الذي تعرفه كلّ موسكو، اختفى وكأنَّ الأرض فتحت فاها وابتلعته.

في غضون ذلك، وقعت حوادث جديدة في أماكن أخرى من العاصمة، وليس في مسرح الڤاريته فقط، ولا بدّ من معالجتها. كان عليهم أن يوضحوا ويعلّلوا حادثة غريبة خارقة وقعت مع موظَّفين كانوا يغنّون الأغنية الشهيرة (بحر مجيد) بصورة جماعية؛ والجدير بالذكر أنّ البروفسور سترافنسكي استطاع أن يهدّىء من ثائرتهم ويعيدهم إلى صوابهم، بعد ساعتين، وبمساعدة حقنات تحت الجلد. وكان عليهم كذلك معالجة قضية مالية أيضاً. خلاصتها أنّ أشخاصاً كانوا ينقدون أشخاصاً آخرين، مثلهم، أو موظَّفين في مؤسسات حكومية أوراقاً نقدية مجهولة النوع. وكان لا بدّ من معالجة الأشخاص الذين تألّموا بسبب تلك العملة.

لكنّ سرّ الأسرار أو لغز الألغاز، تبقى تلك المسألة المستعصية الحل، أو قل الفضيحة الشنيعة: سرقة رأس المرحوم الأديب برليوز من التابوت، من قاعة غريباييدڤ، وفي وضح النهار.

واجتمع اثنا عشر مستنطقاً.. ليحقّقوا.. وبدأوا عملهم وكأنّهم كانوا يودّون العثور على إبرة ضاعت في كومة من القش. أرادوا أن يحلّوا أنشوطة قضية معقَّدة ملعونة، حلّت لعنتها على كلّ موسكو.

وحضر أحد المستنطقين إلى عيادة البروفسور سترافنسكي، وطلب منه لائحة بأسماء الأشخاص الذين أُحضروا إليه في الأيّام الثلاثة الأخيرة. وبهذه الطريقة عُثر على نيكانور إيڤانوڤتش باسوي، وعلى عريف الحفلة التعس الذي بُتِر رأسه، لكنّهم لم ينشغلوا بهما طويلاً. أصبح من السهل التثبّت من أنّ الشخصين كانا ضحيتي العصابة التي يترأسها الساحر الخفي. وإيڤان نيقولايڤتش بزدومني أثار أيضاً انتباه واهتمام المحقّق إلى درجة كبيرة.

فمساء يوم الجمعة فُتح باب الغرفة رقم ١١٧، غرفة ايڤانوشكنا، ودخلها شاب مستدير الوجه، هادىء، ليّن في معاملته، لا يشبه المستنطقين بشيء وفي نفس الوقت كان أحد

أفضل المحقّقين في مدينة موسكو.

ورأى المستنطق شاباً ممدّداً في السرير، شاحب الوجه، نحيله، رأى شاباً يُقرأ في إنسان عينيه اللامبالاة بما يجري من حوله، نعم اللامبالاة في تينك العينين اللتين كانتا تنظران حيناً إلى البعيد، وأحياناً إلى أعماق الشاب الزائر.

وعرّف المستنطق على نفسه بتهذيب وأدب جمّ، وأعلن أنّه قادم لزيارة إيڤان نيقولايڤتش ليتحدّث معه عمّا جرى قبل الأمس عند برك (البطريركية).

آه... ما كان أحلاه أمراً لو أنّ المستنطق أتى قبل هذا اليوم!.. أجل لو أتى المستنطق قبل هذا اليوم، لكانت فرحة إيڤان بمجيئه كبيرة.

لو كانت هذه الزيارة يوم الخميس.. ليلاً، حينما كان إيڤان يحاول ثائراً ملهوفاً أن يجعلهم يسمعوا حكايته وما جرى له عند البرك..

... والآن ها هي أحلامه تتحقّق...

وها هم أتوا لمساعدته في إلقاء القبض على المستشار، ولم تعد به ثمّة حاجة للركض وراء أحد من الناس..

هذه المرّة هم الذين أتوا إليه ليستمعوا.. وليعوا قصّته.. وما حدث له مساء الأربعاء.

لكن هيهات هيهات... فقد سبق السيف العذل. فإيڤان هو الآخر قد تغيَّر أيضاً... تغيَّر بعد موت برليوز. لقد كان مستعدًّا ليجيب بكلّ طيبة خاطر وبتهذيب على أسئلة المستنطق... غير أنّ عدم الاكتراث سكن نظراته وهيمن على نبراته. وما عاد الشاعر متأثّراً بمصير برليوز.

كان إيڤان مستلقياً مستسلماً للنوم قبل دخول المستنطق، وكانت الرؤى تمرّ أمامه في عالم الأحلام. لقد رأى مدينة غريبة سريّة غير موجودة، ورأى أكواماً رخامية وأعمدة منتصبة منحوتة من الرخام تلمع تحت أشعّة الشمس. ورأى كذلك برجاً أسود كئيباً شاحباً، وقصراً على هضبة مغموراً حتّى سطحه بنباتات الحديقة الخضراء. ورأى تماثيل برونزية تشعّ في الأفق فوق بساط أخضر، ووحدة من الجنود الرومانيين يمشون وهم مكبّلين بالسلاسل بمحاذاة أسوار المدينة القديمة.

وبدا في المنام أمام إيڤان إنسان مسمَّر في مقعد، حليق الوجه أصفره، وكان منهكاً وفي رداء أبيض، أحمر البطانة، وكان ذلك الجالس يتأمّل بكراهية حديقة وارفة، لا تعود بملكيّتها له.

ورأى إيڤان هضبة صفراء جرداء، وفوق الهضبة عيدان منكّسة وعوارض خشبية...

رأى الشاعر هذا في منامه... وما حدث عند برك (البطريركية) لم يعد ليثير اهتمامه..

وسأله المحقّق:

ـ قل لي يا إيڤان نيقولايڤتش، هل كنت بعيداً عن باب الحاجز، حينما انزلق برليوز تحت عجلات الترام.

ولامست ابتسامة ساخرة لامبالية شفتي إيڤان وأجاب:

ـ أجل لقد كنت بعيداً.

ـ وذاك المرتدي البنطلون ذي المربَّعات، هل كان قريباً جداً؟

ـ لا. كان يجلس على مقعد بالقرب منّي.

ـ وهل تذكر جيِّداً أنَّه لم يقترب من باب الحاجز لحظة سقوط برليوز؟

ـ أذكر. لم يقترب. لقد كان مستلقياً فوق المقعد.

بعد أن وجَّه المستنطق أسئلته الأخيرة والنهائية، قام ومدَّ يده إلى إيڤان مُتمنياً له الشفاء العاجل، آملاً بأن يعود، عن قريب، يقرأ له أشعاره من جديد.

وأجاب المريض بهدوء:

ـ لا، لن أعود إلى كتابة الشعر.

وابتسم المستنطق بتهذيب جمّ وقال إنَّه موقن بأنَّ حالة الكآبة التي يمرّ بها الشاعر عابرة، وعمّا قريب ويعود كلّ شيء إلى سابق عهده.

وردَّ إيڤان وهو يتأمَّل الشفق البعيد الخابي ودون أن ينظر إلى المحقِّق:

ـ لا، لن أتغيَّر أبداً، والأشعار التي كتبتها رديئة جدًّا، وقد أدركت هذا الآن.

وترك المستنطق إيڤانوشكا، وقد تزوَّد بأدلّة هامّة مساعدة. وأمسك الخيط من طرفه الأخير وتبعه حتَّى الطرف الأوَّل، ووصل أخيراً إلى النبع، النبع أو قُل الأصل الذي تشعبت منه كلّ الفروع... والحوادث.

لم يخالط المستنطق أدنى شكّ في أنَّ كلّ الحوادث التي وقعت في العاصمة إنَّها بدأت من حادثة القتل على (البطريركية).

والمؤكَّد أنَّه لا إيڤان ولا المرتدي البنطلون ذي الترابيع دفع البائس رئيس الماسوليت إلى تحت عجلات الترام. نعم لم يسبِّب أحد الانزلاق لأحد. غير أنَّ المستنطق كان موقناً من أنَّ برليوز حينما ارتمى تحت العجلات، أو حينما انزلقت قدماه، كان مُنوَّماً!...

كثرت الأدلّة، وعُرفت هويّة المتّهم، لكن كيف يُلقى القبض عليه وأين؟ تلك كانت المسألة.. مسألة إلقاء القبض على رئيس العصابة أو على أيّ فرد منها، كانت عملية شبه مستحيلة. ففي الشقّة الملعونة مثنى وثلاثاً، الشقّة رقم ٥٠، كانت ثمّة حياة، دون أدنى شكّ. فمن وقت لآخر كانت الشقّة تجيب على رنين الهاتف، إمّا بصوت رنّان، وإمّا بصوتٍ أخنّ. وأحياناً كانت تُفتحَ نوافذ الشقّة، وأكثر من ذلك كان يُسمع منها أنغامَ حاكي. وكلّ مرّة كانوا يتوجّهون إليها ما كانوا يجدون أثراً للحياة فيها. وكانوا تحت

سقفها أكثر من مرّة، وفي أوقات مختلفة من اليوم. لا بل وأكثر من ذلك مشوا في غرفها وهم يحملون شبكة وتفحّصوا كلّ زواياها. ومنذ اشتبهوا بها، راقبوا مدخلها السرّي، فضلاً عن الطريق المؤدية إلى الحوش عبر البوّابة الرئيسية.

ووضعوا حرّاساً عند فوهة المدخنة على السطح. نعم الشقّة رقم ٥٠ شاكست، واتخاذ الإجراءات ضدّها كان أمراً صعباً، بل قُلْ مستحيلاً. وبقيت الحالة على ما هي عليه حتّى منتصف ليل الجمعة، وفجر يوم السبت، حينما استقبلت الشقّة، البارون مايغل بحذائه اللمّاع، وبذلته المسائية، استقبالاً حارًّا مهيباً.

وقد علت في الخارج الضجة التي رافقت السماح للضيف بالدخول. وبعد عشر دقائق بالضبط اقتحمت الشقّة دون رنين أجراس، ولم يعثروا لا على صاحبها ولا على البارون مايغل الذي رأوه يدخلها بأمّ الأعين... وهذه عجيبة وأيم الحقّ ولا كالعجائب..

وكما سبق وذكرنا، ظلّت الحالة على ما هي عليه حتّى فجر السبت، وقد أتتهم أدلّة جديدة هامّة جدًّا. فقد حطّت في مطار موسكو طائرة قادمة من القرم، تتّسع لستة ركّاب.

في عداد الوافدين إلى العاصمة كان ثمّة مسافر غريب الهيئة، شاباً في مقتبل العمر، وقد نما شعر ذقنه القصير بشكل بريّ، لم يغسل وجهه طيلة ثلاثة أيام، وكانت عيناه ملتهبتين جزعتين، وكان دون حقائب، وملابسه أيضاً كانت غريبة. لقد كان يعتمر (الپاپاخا)، ويرتدي معطفاً من اللبّاد فوق قميص النوم، وينتعل خفّين يبدوان جديدين مصنوعين من الجلد، لونهما أزرق.

وما أن ابتعد قليلاً عن سلّم الطائرة حتى اقتربوا منه وأمسكوا بتلابيبه. لقد كانوا ينتظرون وصوله على أحرّ من الجمر!..

وبعد وقت قصير كان مدير الڤاريته الذي لم ينسه أحد، ستيپان بغدانوڤتش ليخدييف يمثل أمام التحقيق ويدلي بشهادته، مساعداً التحقيق.

ووضُحَ وضوح الشمس في رابعة النهار أنّ ڤولند تسلّل إلى مسرح الڤاريته بصفة «فنّان»، ونوّم ستيپا ليخدييف، وبعد ذلك احتال وأبعد هذا المسكين عن موسكو مسافة كبيرة، الله وحده يعلم كيلومتراتها...

أدلّة جديدة، لكن دون جدوى... لم تساعد معذّباً ولم تبعد الأذى عن أحد.. لا بل زادت المسائل تعقيداً. وكيف لا، وشخصية تملك قوى خارقة يذهب ضحيتها ستيپا ليخدييف وتفعل معه ما فعلت، فإنّها لشخصية قوية غامضة وصعبة، وما أعمالها بمعقولة.

ومما يجدر ذكره أنّ ليخدييف وُضِع في حجرة مغلقة ـ نزولاً عند طلبه ـ. ومثل ڤارنوخا أيضاً أمام التحقيق. وقد أُلقي القبض عليه في شقّته بعد أن عاد إليها بعد غيبة مجهولة طالت فترة يومين.

وبالرغم من الوعد الذي قطعه ڤارنوخا على نفسه أمام عزرائيل بأنَّه لن يكذب أبداً، فإنَّه شرع يكذب من جديد.

ومع ذلك لا يجدر بنا أن نطلق عليه حكماً قاسياً. فعزرائيل منعه من الكذب والدجل حينما يتكلَّم في التلفون. أمَّا الآن فإنَّه يتحدَّث بعيداً عن ذلك الجهاز، فلا بأس عليه إذا ما كذَب.

وأعلن إيڤان ساڤليڤتش وقد زاغت نظراته، أنَّه يوم الخميس الماضي، بينما كان جالساً في مكتبه في الڤاريته، شرب حتَّى ثمل، وبعد ذلك لم يعد يتذكَّر إلى أيّ مكان ذهب. تذكَّر أنَّه شرب (ستاركا) أيضاً، لكنَّه نسي أين شربها، ولم يعد يتذكَّر. تسكَّع قرب سياج، نسي أيضاً موقعه. وحينما قالوا للمسؤول إنَّه بأقواله وسلوكه الأحمق السخيف يعيق التحقيق في مثل هذه القضية المهمة، وإنَّه يتحمَّل تبعة عمله ذاك، حينذاك انفجر ڤارنوخا بالنشيج، واعترف هامساً بصوت مرتجف النبرات، بأنَّه يكذب بداعي الخوف لا غير، وأنَّه يخاف من انتقام عصابة ڤولند التي وقع ضحيَّة بين يديها، وأنَّه يطلب ويتوسَّل بالحاح بأن يضعوه في حجرة مقفلة.

وهمهم أحد المحقِّقين:

ـ ليُخْزَ الشيطان، كيف حليت بأعينهم الحجرات المغلقة.

وقال المحقِّق الذي زار إيڤانوشكا في المستشفى:

ـ لقد أرعبهم الأوغاد.

وهدَّأوا من ثائرة ڤارنوفا حسبما استطاعوا، وطمأنوه بأنَّهم يحرسونه دون أيّة حجرات مغلقة. حينذاك اتَّضح في الحال أنَّه لم يشرب (الستاركي) قرب السياج، واعترف بأنَّ شخصين ضرباه ضرباً مبرحاً، أحدهما أصهب الشعر، في فمه ناب وآخر سمين.

ـ وهل يشبه القطّ؟

ـ نعم، نعم، نعم، همس وتسمَّر في مكانه من الرعب. وراح كلّ ثانية يتلفَّت من حوله. وتوسَّع في اعترافاته وقصَّ عليهم عن تمضية يومين في الشقّة رقم ٥٠، مؤدِّياً مهمّة مصَّاص دماء، وكاد يسبِّب الموت للمسؤول الاقتصادي ريمسكي.

في غضون ذلك، كان ريمسكي الذي نُقل من لينينغراد في القطار، يُساق للمثول أمام هيئة التحقيق.

غير أنَّ العجوز الشاب، المضطَّرب، الجزع، السادر، المريض نفسيًّا، المشوَّش الأفكار، والذي لم يعد يشبه ريمسكي المسؤول المالي السابق لا من قريب ولا من بعيد، لم يشأ أن يردّ على أجوبتهم.. كان عنيداً جدًّا. لقد أكَّد المسكين أنَّه لم يرَ (هيلاَّ) أو غيرها في نافذة مكتبه في الليل، مثله مثل ڤارنوخا، لم يرَ أحداً. إنَّما بكلّ بساطة ضاقت عليه نفسه فتوجَّه

دون وعي إلى لينينغراد، وأنهى المسؤول المالي المريض شهادته بمطلب وهو أن يسجنوه في حجرة مغلقة أيضاً.

وأوقفت أنوشكا فيما كانت تحاول نفح المحاسبة في المحلاَّت الكبرى في الأربات ورقة نقدية من فئة العشرة دولارات.

وأصغى المحقِّقون إلى قصَّتها بانتباه، قصَّتها عن الناس الذين طاروا كالعصافير من نافذة البيت في شارع السادوڤايا، وعن النضوة التي لَمَّتها لتسلِّمها - على حدّ قولها - لرجال الشرطة.

وسألوا أنوشكا:

- أحقًا كانت النضوة من الذهب الخالص المرصَّع بالماس؟

أجابت أنوشكا:

- لا أدري عن أي ماس تتحدَّثون.

- وهل أعطاك نقوداً ذهبية؟

- لا أدري عن أيّ نقود ذهبية تتحدَّثون.

- ومتى وكيف تحوَّلت إلى دولارات؟

- لا أعرف شيئاً ولم أرَ دولارات. أجابت أنوشكا بنبرة عالية. وأكملت: هذا حقِّي! لقد كافأوني.. وبمالهم نشتري قماش «الشيت».

وتفوَّهت بكذبة حينما قالت إنّ إدارة البيت أحضرت إلى الطابق الخامس قوّة شريرة فأخافت الناس، ولم يعد أحد يجرؤ على السكن فيه.

وهنا لوَّح المستنطق لأنوشكا بالقلم بأن تسكت، لأنَّها أزعجت الجميع، وكتب لها على قصاصة خضراء أذناً بالخروج. فما لبثت أن توارت عن الأعين مما أفرح قلوب الحاضرين جميعاً.

وبعد ذلك توافدت أرتال الشهود... وكان من بين الوافدين نيقولاي إيڤانوڤتش، وقد أوقف للتوّ، بسبب غباء زوجته وغيرتها العمياء، إذ أنَّها أبلغت الشرطة في الصباح بأنَّ زوجها مفقود.

ولم يُدهش نيقولاي إيڤانوڤتش المحقِّقين حينما وضع أمامهم على الطاولة وثيقة تُثبت بأنَّه أمضى وقتاً غير قصير عند الشيطان، وأخبرهم كيف حمل على ظهره خادمة مارغريت نيقولايڤنا - عارية ربِّي كما خلقتني - وطار بها في الهواء إلى حيث الشياطين كانوا يستحمُّون في النهر، وأخبرهم أيضاً عن ظهور مارغريت عارية هي الأخرى.. لكنَّه لم يقل كلّ الحقيقة.. لم يعتبر ضرورياً إخبارهم بقصَّة مجيئه إلى غرفة نوم ناتاشا وهو يحمل قميص النوم، وأنَّه سمَّاها ڤينوس. حسب أقواله: طارت ناتاشا من النافذة وامتطت ظهره وسحبته

بعيداً عن موسكو . .

ـ خضعت للقوّة ـ مجبر أخاك بطل ـ هكذا تكلّم نيقولاي إيڤانوڤتش وأنهى قصّته بمطلب خاص وملحّ وهو أن لا يخبروا زوجته بأقواله . ووُعِد بذلك .

ساعدت أدلّة نيقولاي إيڤانوڤتش أعضاء اللجنة في التثبُّت من أمر اختفاء مارغريت وخادمتها ناتاشا ، واتّخذت اجراءات بالتفتيش عنهما .

وتواصل التحقيق صباح يوم السبت .

في غضون ذلك سرت شائعات رهيبة في المدينة . وطغت الأكاذيب على فتات الحقيقة . لقد تحدَّثوا عن مشهد في حفلة الڤاريته ، خرج على أثره آلاف المتفرّجين إلى الشارع عراة . وتحدَّثوا عن العثور على مطبعة سريّة في شارع السادوڤايا ، تزوِّر العملة . وتحدَّثوا عن عصابة خطفت خمسة رؤساء أقسام في فرع التسلية ، وقد عثر عليهم أفراد الشرطة الآن ، وتناقلت الألسن قصصاً كثيرة أخرى .

وبينما كان الوقت يقترب من الظهيرة ، رنَّ جرس التلفون في غرفة التحقيق ، وأُبلغوا من السادوڤايا بأنَّ الحياة عادت مجدَّداً إلى الشقّة الملعونة .

بُلِّغوا أنَّ النوافذ فُتحت من الداخل ، وتناهت أنغام بيانو وغناء ، وشوهد قطّ أسود يجلس على رفّ النافذة يستمتع بدفء الشمس .

وحوالي الساعة الرابعة بعد ظهر يوم حار ، شوهدت ثلاث شاحنات كبيرة تتوقَّف في شارع السادوڤايا ، قبل أن تصل إلى بيت رقم ٣٠٢ ب ي ث ، وفرقة كبيرة من الرجال تنزل منها .

وانقسمت الفرقة الكبيرة إلى فرقتين صغيرتين ، إحداهما أخذت طريقها عبر كوّة في السياج ، وقصدت المدخل الرئيسي في الطابق السادس ، والفرقة الثانية فتحت الباب الصغير الذي كان مسمَّراً والمؤدِّي إلى المدخل السرِّي . سلك رجال الفرقتين أدراجاً مختلفة في طريقهم إلى الشقّة رقم ٥٠ .

في تلك الأثناء كان كرڤيوڤ وعزرائيل يجلسان في غرفة الطعام وينهيان المعاملة الأخيرة مع الفطور . وكان كارڤيوڤ في ملابسه الاعتيادية ، ولم يكن مرتدياً الفراك الجديد . أمَّا ڤولند فكان يجلس ، كعادته ، في غرفة النوم . أمَّا أين كان القطّ فلا أحد يعلم . أمّا إذا حكمنا على أصوات القدور المتناهية من المطبخ ، فيمكننا الظن أنَّ بيغموت كان هناك يتحامق كعادته .

وسأل كرڤيوڤ وهو يحرّك بملعقته الصغيرة فنجان قهوة سوداء :

ـ أسمع وقع خطوات على الدرج . من عساه يكون القادم ؟ .

ـ إنَّهم قادمون لالقاء القبض علينا ـ أجاب عزرائيل ، وهو يرشف الكونياك من

الكأس.

وردَّ كرڤيوف:

ـ حسناً! حسناً..

في تلك الأثناء كان الصاعدون على الدرج الرئيسي قد أصبحوا على المصطبة أمام الطابق الثالث. وكان ثمّة عمّال يصلّحون جهاز تدفئة بخارية. وتبادل القادمون مع العمّال النظرات المعبّرة. وهمس أحد العمّال وهو يضرب القسطل بمطرقته: إنّهم جميعاً في البيت.

حينذاك ما كان من السائر في المقدّمة إلاّ أن سحب وعلى المكشوف مسدّساً أسود، وأخرج الرجل الذي كان بقربه مفتاحاً. والجدير بالذكر أنّ القادمين كانوا مسلّحين كما يجب بكلّ أنواع الأسلحة. فاثنان منهما كانا يضعان في جيوبهما شبكات حريرية دقيقة تفتح وتنشر بسهولة، وتزوّد آخر بأنشوطة، وحمل آخر أقنعة من شاش وخراطيم كلورفور.

وفي ثانية واحدة انفتح الباب الرئيسي في الشقّة رقم ٥٠. وبدا المهاجمون في مدخلها، ومن صرير باب غرفة المطبخ عُلِمَ أيضاً أنّ الفرقة الثانية، التي دخلت من الباب السرّي وصلت أيضاً في الوقت المناسب.

وبدت على الوجوه معالم الفرحة بالنجاح، ذلك النجاح الذي لم يكتمل.

وبطرفة عين توزّع الرجال في كلّ الغرف، لكنّهم لم يعثروا على أحد، وجدوا في غرفة الأكل بقايا طعام متروك على الطاولة، وفي غرفة الاستقبال على سطح الموقد، بالقرب من دورق كريستالي جَثَمَ هرٌّ أسود هائل الحجم، وكان يمسك بين قائمتيه (بريموس). وتوقَّف المقتحمون وقتاً طويلاً وهم يتأمّلون هذا القطّ وسط صمت مطبق.

وهمس أحدهم:

ـ شيء عظيم فعلاً.

وقال القطّ بلهجة جافّة وقد عبس وقطّب ما بين حاجبيه:

ـ إنّني لا ألعب، ولا أُزعج أحداً، أُصلّح البريموس. وأعتبر من واجبي لفت انتباهكم إلى أنّ القطّ حيوان عريق، مصون، وقديم.

وهمس أحد القادمين:

ـ عمل عظيم ونظيف.

وقال آخر بصوتٍ عالٍ واضح النبرات:

ـ تفضَّل إلى هنا أيها الهرّ المصون، المتنبّىء في مهده.

ونُشِرَت الشبكة الحريرية وارتفعت، غير أنَّ راميها أخطأ هدفه، ولم يعلق بها غير الدورق، الذي وقع وتحطّم وسط دهشة وذهول الجميع.

وصاح القطّ: يعيش يعيش.. التمرين غير كاف.. وهنا وضع القطّ البريموس جانباً،

وسحب من وراء ظهره مسدَّساً. وفي لحظة صوَّبه نحو أقرب الواقفين أمامه. لكن ذاك سبق خصمه واندلعت النار من فوهة مسدَّسه قبل أن يسدِّد القطّ. ومع طلقة الرصاص سقط الهرّ من فوق سطح الموقد على الأرض، رأسه إلى أسفل ووقع المسدَّس والبريموس.

وبصوت واهن صاح القطّ:

ـ لقد انتهى كلّ شيء... ثم تمدَّد جثّة مضرَّجة بالدماء.

ـ ابعدوا عنّي دقيقة واحدة. دعوني أودِّع الأرض. يا صديقي عزرائيل أين عيناك.. ألا تراني! ـ وعلا نحيب القطّ والدماء تنزف منه وراح يرمق بنظراته الخامدة باب غرفة الأكل. وأكمل:

ـ أين أنت يا صديقي عزرائيل، لماذا لم تأتِ لنجدتي... في معركة غير متكافئة تركت بيغموت المسكين.. بعته بكأس من كونياك (كونياك من النوع الجيِّد). ليتحمَّل ضميرك تبعة موتي. وها أنا أوصي لك بمسدَّسي!.

وهمسوا حول القطّ بقلق:

ـ الشبكة. الشبكة. غير أنَّ الشبكة، لسبب لا يعلمه إلاَّ الشيطان، علقت في جيب أحد المهاجمين، ولم يقدروا على سحبها إلى الخارج.

وقال القطّ:

ـ شيء واحد يمكنه أن يخلِّص القطّ الجريح من الموت. هذا الشيء هو قطرة من البترول..

ومستغلاً الفوضى السائدة دنا القطّ من ثقب مدوَّر في البريموس وشرب. وانقطع الدمّ عن النزيف من تحت قائمته السفلى الأمامية في الحال، ووثب القطّ معافى، نشيطاً، وتأبَّط البريموس ونطّ إلى فوق سطح الموقد، ثم مزَّق ورق الجدران وتسلَّق الحائط، وبعد دقيقتين بدا فوق المهاجمين جاثماً على رفٍّ معدني.

وبطرفة عين تشبَّثت الأيدي بالستارة، وخلعتها مع الرفّ من مكانها، وعلى أثر ذلك غمرت الشمس بأنوارها الغرفة المظلمة.

ولم يسقط الهرّ المحتال المعافى ولا البريموس على الأرض. فقد رفض الملعون أن يفارق البريموس وراح يتأرجح في فضاء الغرفة ويحاول الوثوب إلى الثريا المعلَّقة في الوسط.

وصاحوا من تحت: أحضروا سلّماً.

وأجابهم بصياح وهو يثب فوق الرؤوس على الثريا المتأرجحة:

ـ أدعوكم للمبارزة.

ومن جديد بدا بين قائمتيه المسدَّس. أمَّا البريموس فقد دبَّر له مكاناً بين عناقيد الثريا. وتشبَّث بها وراح يتأرجح كمؤشّر الساعة فوق رؤوس المهاجمين ويطلق الرصاص عليهم.

وانخضّت الشقّة، وساد الهرج والمرج، وتناثرت على الأرض شظايا الكريستال من الثريا، وتصدّع زجاج المرآة فوق سطح الموقد، وثار الغبار من الملاط، وتساقطت على الأرض الطلقات الفارغة، وتحطّم زجاج النوافذ، وانسكب البترول من البريموس الذي ثقبه الرصاص. وانقطع الأمل بإمساك القطّ حيًّا. وراح المهاجمون يصوّبون بدقّة وبشراسة مسدّساتهم على رأسه وبطنه وصدره وظهره. وأثارت الرماية بالرصاص الذعر في الحوش.

غير أنَّ الرماية لم تطل، إذ أنَّ حدّتها بدأت تخفّ تدريجاً. ولم يسبّب الرصاص الأذى لأحد، لا للمهاجمين ولا للقطّ، ولم يقتل أحد وحسب بل وحتّى لم يُصب أحد بجروح. نعم لم يُصب أحد بأذى بمن فيهم القط.

وما كان من أحد المهاجمين إلاَّ أن أطلق من مسدّسه خمس طلقات على رأس الحيوان الملعون، أراد بعمله هذا أن يجري اختباراً نهائياً، وما كان من اللعين إلاَّ الردّ بمشط كامل من رصاص مسدّسه. ولم تكن النتيجة أفضل من ذي قبل، إذ أنَّ أحداً لم يُصب بأذى.

تعلّق القطّ بالثريا وراح يتأرجح معها، وقد صغّر مدى تأرجحها، ولسببٍ لا يعرفه أحد كان ينفخ في فوهة مسدّسه ويبصق على قائمته.

وارتسمت على وجوه الصامتين الواقفين تحت، علامات الحيرة والخبل. إنّها الحادثة الوحيدة أو بالأحرى إحدى الحوادث التي لم تنفع فيها الرماية بالرصاص. ويمكننا الافتراض بأنَّ مسدّس القطّ قد يكون مجرَّد لعبة يتلهّى بها الصغار، لكن ماذا عن أسلحة المهاجمين؟ لقد كانت أسلحة حقيقية.

إصابة القطّ الأولى ـ حينما أُصيب ـ ما كانت سوى حيلة ومكر ماكر متصنّع، دون شكّ، وكذلك شربه للبترول أيضاً.

ومرّة أخرى أعادوا الكرّة، وحاولوا الإمساك بالقطّ، فرموا حبلاً بأنشوطة، وكان أن علق بها مصباح واقتلعوا الثريّا من مكانها، وسقطت محدثة دويًّا كبيراً.. واهتزّ المبنى بأكمله. لكن دون نتيجة... تطايرت الشظايا فوق رؤوس المهاجمين وتساقطت عليهم، أمّا اللعين فقد طار في الهواء وجثم تحت السقف، فوق إطار مرآة معلّقة فوق سطح الموقد. ولم يشأ، حسبما بدا، الفرار إلى أيّ مكان، بل بالعكس، جلس بهدوء وطمأنينة، وراح يتحدّث إلى المهاجمين من فوق:

ـ إنّني لا أفهم سبب هذه المعاملة السيّئة لي...

وقاطعه صوت خفيض ثقيل النبرات، لم يعرف مصدره، ولم يدعه يكمل حديثه، قائلاً:

ـ ماذا يحدث في هذه الشقّة؟ إنّكم تزعجونني، وتلهونني عن العمل.

وردّ صوت آخر أخنّ كريه:

ـ هذا بيغموت طبعاً، ليخطفه الشيطان!

وقال صوت ثالث مرتجف النبرات:

ـ إنّه يوم السبت يا سيِّد. والشمس تجنح نحو المغيب، وحان وقت رحيلنا.

وخاطب القطّ مهاجميه من فوق:

ـ معذرة، ما بمكنتي التحدُّث إليكم أكثر من ذلك وقد حان وقت رحيلنا.

قال هذا ورمى المسدَّس محطِّماً زجاج النافذة. وسكب بعد ذلك البترول من فوهة البريموس على رأض الغرفة. واشتعل هذا وامتدَّت ألسنة النيران حتى سقف البيت. واضطرمت النيران وامتدَّت بشدّة وسرعة وقوّة، امتدَّت كما لو أنَّه سُكِب فوقها المزيد من البترول.

وتصاعد الدخان في الحال وملأ الغرفة وسخَّم بالسواد أوراق الجدران وطالت ألسنة اللهب الستارة الممزّقة وأُطر النوافذ ذات الزجاج المكسَّر.

وتمدَّى القطّ وتمطَّى ومَاء، ونطَّ من فوق المرآة إلى رفّ النافذة، واختفى مع (البريموس) من ورائه، وسُمِع اطلاق رصاص في الخارج، وتبيَّن أنَّ الحارس الذي كان يجلس قبالة الدرج، بمحاذاة النوافذ، قد أطلق الرصاص على القط، حينما نطّ من رفٍّ إلى رفٍّ قاصداً زاوية البيت حيث مصرف المياه، وصعد إلى السطح متسلِّقاً القسطل. وهناك أطلق عليه حارس المداخن الرصاص، لكن للأسف دون نتيجة.

وتوارى القطّ في أشعّة شمس المغيب الغامرة المدينة.

وفي غضون ذلك اشتعلت (الپاركيه) تحت أقدام المهاجمين، وفي المكان نفسه حيث تقلَّب القطّ بجَرحه الكاذب، وبين أشداق اللهب بدت جثّة البارون السابق مايغل بذقنه المرفوعة إلى أعلى، وبعينيه الزجاجيتين، بدت وهي تتكثَّف أكثر فأكثر، وما كان بالإمكان سحبها من النار.

وانسحب المهاجمون من غرفة الاستقبال إلى المدخل والمكتب، وهم يثبون فوق أرض الغرفة المشتعل، ويربتون بالأكفّ على الأكتاف المسخَّمة بالسواد وعلى الصدور. وهرب أيضاً أولئك الذين كانوا في غرفة الطعام وفي غرفة النوم، هربوا عبر الممرّ.. وهرب الذين كانوا في المطبخ أيضاً، واندفعوا نحو المدخل. وملأ الدخان والنار الصالون، واستطاع أحدهم أن يدير أرقام الهاتف ويطلب رجال الأطفاء، وأن يصيح باختصار في السمَّاعة:

سادوڤايا... ثلاثمئة واثنان ب ي ث!.

وما عاد باستطاعتهم أن يتأخَّروا وقد وصلت ألسنة النيران إلى المدخل. وأصبح التنفّس صعباً.

وما أن صعدت من النوافذ المحطّمة في الشقّة المسحورة أمواج الدخان الأولى، حتى سمعت في الحوش صرخات استغاثة يائسة:

ـ حريق، حريق، إنّنا نحترق، هلمّوا إلينا!.

وراح الناس في كلّ شقق المبنى، يصرخون في السمّاعات:

ـ سادوڤايا! سادوڤايا! ثلاثمئة واثنان ب ي ث!..

وفي الوقت الذي سمعت فيه في شارع السادوڤايا قرع أجراس تزرع الخوف في القلوب، مصدره شاحنات حمراء طويلة، أتت مسرعة من كلّ أنحاء المدينة، في ذلك الوقت بالذات، رأى الناس المجتمعون في الحوش ثلاثة أطياف قاتمة، طارت مع الدخان الصاعد من نافذة الطابق الخامس، كانت أطياف رجال واكبها طيف امرأة عارية.

الفصل الثامن والعشرون

مغامرات كرڤيوف وبيغموت الأخيرة

أبدت تلك الأطياف حقًّا أم أنَّه خُيِّل لساكني البيت البائس في شارع السادوڤايا ذلك؟ من الصعب جدًّا أن نجزم. وإذا كانت قد ظهرت حقًّا فما بمقدور أحد أن يعرف إلى أين اتَّجهت بعد ذلك، وفي أي مكان افترقت. ما نعرفه هو أنَّه بعد مضيّ ربع ساعة تقريباً على بدء الحريق في شارع السادوڤايا، شوهد أمام أبواب بيت تورغسين الزجاجية في سوق سمولنسكي مواطن طويل في بذلة ذات ترابيع، مصحوباً بقطٍّ أسود هائل الحجم.

وفتح المواطن باب المخزن الخارجي وهو يتلوّى برشاقة بين المارّة. غير أنَّ الحاجب الصغير النحيف المُضمر العداء، قطع عليه الطريق وخاطبه بغضب:

ـ ممنوع الدخول برفقة القطط.

ـ أعتذر... ـ هدر الرجل الطويل ووضع يده ذات الأصابع المعقَّدة على أذنه، كما لو كان أصمًّا، وأردف يقول: الدخول ممنوع بصحبة القطط؟ لكن أين هي القطط؟ وهل ترى بصحبتي قطًّا حقًّا؟

وجحظت عينا الحاجب. وكان ثمّة سبب للتعجّب. إذ أنَّه لم يَرَ أيّ قطّ عند قدمي المواطن... بل رأى شخصاً ثانياً أطلّ من وراء كتف الرجل الأوّل وحاول الدخول إلى المخزن، وكان هذا الشخص سميناً يعتمر قبّعة ممزَّقة، وكان وجهه قريب الشبه بوجه الهرّ. وكان يحمل بين يديه (بريموس).

ولسبب نجهله، الزائران لم يعجبا الحاجب عدوّ البشر، النافر منهم، فقال لهما وهو يشخر ويرمقهما ساخطاً بنظرات غاضبة من تحت حاجبين أغبرين كما لو كانا أكلهما العث:

ـ التعامل عندنا بالعملة الصعبة فقط.

وهدر المواطن الطويل وقد لمعت عينه وراء عدسة النظّارة المتصدِّعة:

ـ وكيف عرفت يا عزيزنا، بأنَّنا لا نملك عملة صعبة؟ عرفت من البذلة؟ إيَّاك أن ترتكب غلطة كهذه يا حارسي العزيز، غلطة قد تكون مميتة. إقرأ مرّة أخرى تاريخ الخليفة المشهور هارون الرشيد. على كلّ حال، لندع قصص ذلك الخليفة الآن. أريد أن أحذّرك إذا تماديت في غيّك فسأشكوك للمسؤول، وسأبوح بأسرار، إذا عرفها ذاك، فستفارق

وظيفتك أو قل وقفتك أمام الأبواب البرّاقة المتألّقة.

وقال السمين الشبيه بالقطّ مغتاظاً وهو يحاول الدخول بالقوة إلى المخزن:

ـ وما يدريك لعلَّ هذا «البريموس» محشو بالعملة الصعبة.

وانزعج الناس في المخزن، وراحوا يشيرون بالأصابع نحو القادمين الغريبين. وتنحَّى الحاجب مفسحاً لهما الطريق وهو يرمقهما بنظرات مفعمة بالكراهية والشكّ... وشوهد كرڤيوڤ وبيغموت داخل المخزن. وأوّل ما فعلاه هو تأمُّل محتويات المخزن، بعد ذلك أعلن كرڤيوڤ بصوت جهوري دوّى في كلّ الزوايا:

ـ مخزن رائع، مخزن ممتاز، جيِّد جدًّا حقًّا!.

ولسببٍ نجهله، التفت الناس إلى المتكلِّم متعجِّبين مع أنَّ مديحه للمخزن كان له ثمّة ما يبرِّره. فقد تراكمت في الواجهات مئات القطع من الأقمشة ذات الألوان والصبغات الفنّية المختلفة. ووُضِعَت وراءها قطع الحرير والشاش والجوخ.

وفي الواجهات المكعّبة استراحت علب الأحذية وتكوَّمت. وجلست بضع سيِّدات على كراسٍ منخفضة، وكنت ترى كلّ واحدة منهنَّ قد انتعلت في رجلها اليمنى فردة حذاء ممزّقة قديمة، وفي الرجل اليسرى فردة جديدة لمّاعة، وهي تدوس بها السجَّادة منهمكة، لا مبالية بما يجري حولها، ومن الداخل كان الحاكي يصدح ويلعب.

ومَرَّ كرڤيوڤ وبيغموت بهذه النفائس والروائع مرور الكرام، وأكملا طريقهما قاصدين قسم الحلويات والمأكولات. وكان المكان فسيحاً هنا ولم تَشْر المواطنات اللواتي كنَّ في المناديل و(البريهات)، إلى الطاولات كما حدث في قسم الأقمشة.

وشوهد رجل قصير مربوع حليق الوجه، ناعمه، في نظَّارتين اطاراهما مصنوعان من القرون، معتمراً قبّعة جديدة، لا مثنية ولا مدعوكة، وذات شريط واحد جديد، ومرتدياً معطفاً ليلكي اللون وقفَّازين مصنوعين من جلد جدي أشقر، وكان يقف بمحاذاة الطاولة ويجمجم بأوامر ما.

وشرع البائع ذو المبذل الأبيض النظيف والطاقية الزرقاء يخدم الزبون الليلكي ويلبِّي أوامره. وبسكِّين حاد شديد الشبه بذلك السكِّين الذي سرقه ليڤي ماتڤي، قشط عن سمكة سلمون مُدهِنه وردية باكية، قشرتها الفضية الضاربة إلى الزرقة، والشبيهة بجلد الأفعى.

واعترف كرڤيوڤ بمهابة: ـ وهذا القسم فخم أيضاً، أنظر هذا الأجنبي اللطيف ـ قال هذا وأومأ بإصبعه بتودّد نحو المعطف الليلكي.

وأجاب بيغموت وقد استرسل في التفكير:

ـ لا. لقد أخطأت يا عزيزي فاغوت. لم يعجبني وجه هذا الجنتلمان، ينقصه شيء ما.

وارتجف الظهر الليلكي اللون. لكن الأمر كان مصادفة لأنّه من غير المعقول أن يكون

هذا الأجنبي قد فهم ما تفوّه به كرڤيوف ومرافقه باللغة الروسية.

وسأل الزبون الليلكي بصرامة:

ـ هذا منيح؟

فأجاب البائع وهو ينكث عابثاً بشفرة السكّين القشرة:

ـ عاديّة ماركة (ميراڤايا).

وردّ الأجنبي بصرامة:

ـ أحبُّ المنيح، السيء لا أحبّه.

وأجاب البائع متهيّباً:

ـ كيف لكن!

وما لبث أن ابتعد بطلانا عن الاجنبي و(سلمونه) واتّجها نحو قسم الحلويات.

ـ الطقس حار اليوم. ـ هتف كرڤيوف مخاطباً البائعة الصبيّة، المتورّدة الخدّ، ولمّا لم يسمع جواباً منها سأل مستوضحاً:

ـ ما ثمن الماندارين (الأفندي)؟

فأجابت البائعة:

ـ الكيلو بثلاثين كوبيكاً.

فعلّق كرڤيوف وهو يتنهّد: كلّ شيء غالٍ. إنّه غلاء فظيع.. آه! آه. وفكّر قليلاً قبل أن يعزم رفيقه قائلاً: كلْ يا بيغموت. فما كان من السمين إلاّ أن تأبّط (البريموس) واستولى على أعلى برتقالة في رأس الهرم، وبعد أن التهمها بقشرتها، تناول الثانية.

وتملّك البائعة رعب فظيع. فصرخت وقد اصفرّ لون وجهها:

ـ ماذا أتكونا قد فقدتما عقليكما!؟ يجب أن تحضرا شيكاً! الشيك أوّلاً!. ـ وسقط من يدها ملقط الحلوى.

ودمدم كرڤيوف وهو يتهادى بين الطاولات ويغمز البائعة:

ـ يا عزيزتي... يا حبيبتي... يا حسنائي... من أين لنا العملة الصعبة اليوم، ماذا نعمل؟... لكن أقسم لك أنّه في المرّة القادمة سندفع نقداً!.. نعم سندفع نقداً قبل يوم الاثنين من كلّ بدّ!.. فنحن نسكن بالقرب من هنا، في شارع السادوڤايا في مكان الحريق!.

وبعد أن التهم بيغموت البرتقالة الثالثة، مدّ قائمته إلى مبنى مُتقن الصنع من ألواح الشوكولا، وسحب لوحاً من أسفله، ممّا جعل المبنى ينهار بأكمله. وأتى على لوح الشوكولا بورقته المذهّبة.

وتسمّر البائعون في قسم الاسماك، في أمكنتهم، وجمدت السكاكين في أيديهم. والتفت

الأجنبي الليلكي اللون إلى السارقين، وتبيَّن أنَّ بيغموت كان مخطئاً في ادِّعائه، فوجه الأجنبي ما نقصه شيء بل بالعكس فقد طفح وفاض بأشياء ... من خدّيه النافرين وعينيه الزائغتي النظرات.

ودوت صرخة في كلّ أرجاء المخزن، صرخة تنمّ عن الألم العميق، أطلقتها البائعة، وقد اصفرّ لون وجهها من الخوف:

ـ بالوسيتش! بالوسيتش!*

وتراكض الناس على الصراخ من كلّ الأقسام. وابتعد بيغموت عن قسم الحلويات المفعم بالمغريات، وغطَّس قائمته في برميل كُتب عليه: أسماك (صلد) منتقاة من (كرن)، وأخرج منه سمكتين ابتلعهما ولفظ ذنبيهما.

ـ بالوسيتش! تكرَّر الصراخ البائس من وراء طاولة الحلويات، ومن قسم الأسماك صرخ البائع ذو اللحية الخفيفة:

ـ ماذا تفعل يا وغد؟!.

وأسرع باڤل يوسيڤوڤتش إلى مكان الحادث، وقد بدا بمبذله الأبيض النظيـف وبقلم الرصاص البارز من جيبه، كالطبيب البارع، وقد كان رجلاً وقوراً وإنساناً محنَّكاً خبر الحياة وحَلَبَ من الدهر شطريه. فما أن رأى ذنب السمكة الثالثة في فمّ بيغموت حتى تفهَّم الوضع واستوعب المسألة بكلّ أبعادها؛ ومن دون أن يدخل في مماحكات وخصام مع الوغدين الوقحين، لوَّح بيده وأمر:

ـ أطلقوا الصفَّارات..

وطار الحاجب وخرج من الأبواب الزجاجية إلى زاوية سمولنسكي وراح يطلق الصفير الشرير في كلّ الاتجاهات. وتراكض الناس ليحيطوا بالماكرين. ولم يقدر كرڤيوڤ حينئذٍ إلاَّ أن يتدخَّل فهتف بصوت رخيم متهدِّج النبرات:

ـ أيها المواطنون ما الذي يحدث؟ اسمحوا لي أن أسألكم ـ وهنا أرجف كرڤيوڤ صوته عن عمد وأشار إلى بيغموت الذي اتّخذ سحنة باكية ـ وأكمل: إنسان فقير معدم، طيلة النهار وهو يصلِّح (البريموس) فاشتدَّ به الجوع، ومن أين له العملة الصعبة؟

وما كان من باڤل يوسوڤوفتش الهادىء المالك زمام نفسه إلاَّ أن ردَّ بقساوة:

ـ دع الهذر فإنَّه لن ينفعك!.

هدَّد مدير المخزن ولوَّح بيده كمن فقد صبره، وزغردت الصفَّارات من جديد أمام الباب، وكانت مفعمة بالفرح هذه المرّة. وأكمل كرڤيـوڤ ولم يـزعجـه تصرُّف بـاڤـل

(*) كنية باڤل يوسوڤوڤيتش.

يوسوڤوڤتش:

ـ من أين يأتي الفقير بالعملة الصعبة، أسألكم أجيبوا! لقد قتله الظمأ والجوع وإنَّه يشعر بحرٍّ شديد خانق. وأخذ التعس برتقالة بقصد التجربة، وثمنها ثلاثة كوپيكات، وهل يحرز ثمنها كلّ هذه الفوضى وهذا الصفير كشدو البلابل على الأغصان الربيعية؟ ألن تقلقوا بعملكم هذا الشرطة؟ وتشغلوا أفرادها عن مهامهم.. التعس ابن البلد لا يحقّ له مدّ يده إلى البرتقالة، أمَّا الأجنبي فيحقّ له؟. أسألكم أجيبوا؟!.. ـ وهنا دلَّ كرڤيوڤ على السمين الليلكي اللون، فإذا هو يضطّرب وترتسم على وجهه علامات الذعر وأكمل:

يحقّ له... إيه.. ومن هو؟ أجيبوا، ومن أيّ البلاد أتى؟ وما سبب مجيئه؟ هل أتى ليسلّينا وقد أضجرنا بعده عنَّا؟ أم نحن الذين دعوناه إلينا؟ ترونه في بذلته الليلكية الفخمة الزاهية (وكان كبير المرتّلين يتفوّه بكلماته هذه ويصيح بصوت جهوريّ وقد لوت ابتسامة تهكّمية فمه)، وأردف: قرِف حضرته من سمكة (السلمون)، محشو بالعملة الصعبة، أمَّا صاحبنا الفقير، صاحبنا الفقير من أين له العملة الصعبة؟؟ والوعتاه! والوعتاه! والوعتاه!..

وراح كرڤيوڤ يزعق، كما يزعق اليتيم اللطيم في عرس اللئيم.

هذا العمل الأخرق السخيف المضرّ ببعده السياسي أثَّر على باڤل يوسوڤوڤتش فراح يرتجف من شدّة الغضب. لكن الغريب في الأمر هو أنَّه في عيون الناس الذين اجتمعوا على الصراخ كان ثمّة عطف وتفهّم.

وحينما وضع بيغموت كمّه المهترىء المتّسخ على عينه وهتف بنبرة مأساوية: أشكر لك أيها الصديق الوفي الذي دافعت عن المعذَّب الحزين!

حدثت معجزة بين الجمع: عجوز هادىء محترم، يرتدي ثياباً قديمة ولكنَّها نظيفة، كان يحمل ثلاث فطائر محشوّة باللوز اشتراها من قسم الحلويات، فإذا هو فجأة يتغيَّر وتتبدَّل ملامحه ويرمي كيس الفطائر على الأرض ويصيح بصوتٍ رفيع طفولي النبرات:

ـ الحقّ ما تفوّه به هذا المواطن.

أدلى بشهادته هذه وأمسك بصينية، ورمى عنها ما تبقَّى من برج إيڤل الشوكولاتي والذي كان بيغموت قد بدأ بالاجهاز عليه، ثم لوَّح بها، وبيده اليسرى نزع القبّعة عن رأس الأجنبي، وباليمنى وبكل ما أوتي من قوّة ضربه على رأسه الأصلع.

وانبعث عن تلك الضربة صوت شبيه بتلك الأصوات التي تندّ عن سقوط صفائح الحديد من الشاحنات على الأرض.

الأجنبي السمين، وقد تغيَّر لونه من الخوف، سقط على ظهره في وسط برميل مع سمكته (الكرتشينية)، وانبجست من البرميل نافورة من مرق السمك، وهنا حدثت المعجزة الثانية، فالرجل الليلكي اللون صاح من قلب البرميل بلغة روسية واضحة:

ـ يريدون قتلي! يا رجال الأمن. يريدون قتلي!..

أنطقته الصدمة حسبما يبدو، وإذا هو يتقن اللغة الروسية دون علم سابق منه.

وانقطع حينذاك صفير الحاجب، ولاحت وسط حشد المشترين المضطربين خوذتا شرطيين آخذين في الاقتراب.

لكن بيغموت الماكر، سارع إلى سكب البترول من (البريموس) على طاولة الحلويات، كما يسكب الماء من الطست على مقاعد الحمّامات، واشتعلت الطاولة واندلعت ألسنة النار والتهمت أغلفة سلال الفاكهة الجميلة، وتراكضت البائعات من وراء الطاولات مولولات، وما أن ابتعدن قليلاً حتّى وصلت النيران إلى ستائر النوافذ وأتت عليها. وارتفع الصياح الممزوج باليأس وهرب الناس من قسم الحلويات واجتاحوا بافل يوسوفوفتش، الذي لم تعد ثمّة حاجة إليه الآن. وكذلك هرب البائعون من قسم الأسماك إلى الممرّ السرّي واحداً تلو الآخر، هربوا وهم يحملون بأيديهم السكاكين الحادّة. أمّا المواطن الليلكي الذي قام من البرميل وقد غمره طمي سمكي من رأسه حتّى أخمص قدميه، فإنّه نطّ من فوق سمكة (سلمون) كانت ممدّدة فوق الطاولة، وهرب هو الآخر طالباً النجاة.

وتكسّر زجاج الأبواب وتناثر، حطّمه الحشد من الناس الساعين للخلاص...

أمّا الوغدان: كرڤيوڤ وبيغموت الشره فقد اختفيا في مكان ما؟!... أين اختفيا؟ لا أحد يعلم أين!؟..

روى شهود عيان، كانوا حاضرين عند نشوب الحريق في تورغسين، أنّه هُيِّء لهم وكأنّ الشقيين طارا إلى فوق إلى تحت السقف... وانفجرا كبالونات الأطفال وتلاشيا.. مع أنّنا نشكّ في صحّة هذه الرواية، غير أنّه لا يمكننا لا التصديق ولا النفي.

ما نعلمه هو أنّ بيغموت وكرڤيوڤ شوهدا على الرصيف أمام بيت عمّة (غريبايدف) بعد انقضاء دقيقة واحدة فقط على حادثة السمولنسكي. شوهدا وقد وقف كرڤيوڤ يقول أمام السياج:

ـ واهاً واهاً! إنّه بيت الأدباء، هل تعلم يا بيغموت أنّني سمعت الكثير من الأخبار الطيّبة عن هذا البيت، والمديح يكال له دون حساب! انتبه يا صديقي لهذا البيت! يفرح المرء ما إن يفكّر أنّ تحت سقفه تترعرع وتنضج المواهب.

ـ كثمار الأناناس على أغصان أشجارها. ـ قال بيغموت هذا. وليمتّع نظره بالبيت ذي اللون الكريمي بأعمدته قفز على إفريز السياج المزخرف.

ـ لقد تفوّهت بالحقيقة ـ ردّ كرڤيوڤ موافقاً على كلام مرافقه الملازم له طيلة النهار مع الليل، وأردف:

ـ شعور بالمهابة لذيذ يمتلكك ما أن تفكّر أنّه ينضج الآن تحت سقف هذا البيت كاتب

روائع مثل رائعة (دون كيشوت) أو (فاوست) أو يخزي الشيطان مثل... رائعة (النفوس الميتة). آه، آه..

وأكّد بيغموت:

أجل شعور بالخوف والمهابة يمتلك المرء.

وأكمل كرڤيوف: أجل يمكننا أن ننتظر العجائب والغرائب من غرسات مشاتل هذا البيت الموحّد تحت سقفه بضعة آلاف من النسّاك الذين صمّموا أن يبذلوا حياتهم ويتفانوا في خدمة ميلپومني وپوليغيمني وتالي، تصوَّر الضجّة التي ستقوم لو أنَّ أحد هؤلاء الأدباء النسّاك أهدى جمهور القرّاء رائعة مثل «المفتِّش» كأوّل عمل له، أو في أسوأ الاحتمالات «ايفغيني أنوغين!».

وأكّد بيغموت من جديد:

يمكن للمرء أن يتخيَّل بكلّ بساطة ما سيحدث.

وأكمل كرڤيوف وقد رفع إصبعه مهموماً: نعم، ولكن، أعيدها مرَّتين، يا حبَّذا لو تعفّ الجراثيم عن تلك الأغراس! ولا ينخر السوس جذورها ولا يفعل بها ما يفعل بثمار الأناناس، فتعفِّن وتفسد!!! يه يه يه ما أغرب شؤون هذا العالم!...

وسأل بيغموت مستوضحاً وهو يدخل رأسه في ثقب في السياج:

ـ وماذا يفعلون على الشرفة؟

فأوضح كرڤيوف:

ـ يتغدُّون، نسيت أن أقول لك يا عزيزي أنّه في بيت الأدباء هذا، ثمّة رستوران لا بأس به وفيه يمكنك تناول الطعام بثمنٍ بخس. من جهتي ـ والكلام بيننا، كأيّ سائح قبل أن يكمل رحلته ـ كلّي رغبة في تذوُّق ورشف كأس بيرة مثلّجة كبيرة.

وأجاب بيغموت: وأنا مثلك..

ومشى الوغدان على الطريق المفروشة بالاسفلت تحت أشجار الزيزفون متَّجهين مباشرة إلى شرفة الرستوران الغافي عمّا يحاك له وعمّا سيحلّ به من مصائب ونوائب...

عند مدخل الشرفة أمام ثغرة السياج، كانت تجلس، على كرسي محبوك من القصب، مواطنة شاحبة الوجه تنتعل خفّين أبيضين وتعتمر (بيريه) بيضاء مذنَّبة، وعلى وجهها ارتسمت علامات الملل.

وضعت هذه المرأة أمامها فوق طاولة المطبخ البسيطة دفتراً سميكاً للحسابات الجارية، وراحت تسجِّل فيه أسماء الداخلين إلى الرستوران، دون أن يعرف أحد سبب فعلتها تلك. هذه الإمرأة بالذات هي التي أوقفت كرڤيوف وبيغموت.

ـ بطاقاتكما؟ طلبت منهما وراحت تنظر باستغراب إلى نظّارات (كرڤيوف)

و(بريموس) بيغموت وكمّه الممزّق عند الكوع.

وأجابها كرڤيوڤ بسؤال، مستغرباً هو الآخر:

ـ ألف معذرة ومعذرة منك؟ أيّة بطاقات تعنين؟

فسألت المرأة:

ـ أتكونان أديبين؟

فأجابها كرڤيوڤ باعتزاز:

ـ نعم.

وحينئذ، كرّرت المرأة سؤالها:

ـ بطاقتيكما إذن؟

وبدأ كرڤيوڤ يلاطفها بحنان:

ـ يا ذهبي الغالي.

وقاطعته المرأة:

ـ أنا لست ذهبك الغالي..

ـ آسف ـ ردّ كرڤيوڤ الذي خُيّبت آماله وأكمل: حسناً إذن... إذا كنتِ لا ترغبين بأن تكوني الذهب الغالي ومدعاة سرورنا أن تكونيه، فأنتِ حرّة، ويمكنك أن لا تكونيه، ولنعد إلى حديثنا: لتقتنعي بأنَّ دوستويڤسكي أديب، هل تطلبين منه بطاقة؟ إقرأي خمسين صفحة من أية رواية له، وتقتنعي بأنّكِ في حضرة أديب.

وتوجّه كرڤيوڤ بسؤاله هذه المرّة إلى بيغموت:

ـ أظنّ أنّ دوستويڤسكي لم يكن يحمل أية بطاقة ثبوتية؟ ما رأيك؟

ـ أقسم يميناً مغلظة أنّه لم يحمل أيّة بطاقة ثبوتية! ـ أجاب بيغموت بعد أن وضع (البريموس) على الطاولة بالقرب من دفتر الحسابات السميك، وهو يمسح بيده العرق المتصبّب من جبهته المسخّمة بالسواد.

ـ لكنّكما لستما دوستويڤسكي، أجابت المرأة المضلّلة.

ـ وكيف عرفت ـ أجابها ذاك.

فردّت بلهجة غير واثقة:

ـ دوستويڤسكي مات.

فهتف بيغموت محتدّاً:

ـ أحتجّ! دوستويڤسكي خالد لا يموت.

وعادت المرأة إلى سؤالها الأوّل وقد نفد صبرها:

ـ بطاقتيكما أيها المواطنان.

ولم يلن كرڤيوڤ، فردَّ عليها:

ـ معذرة منك، هذا شيء مضحك في نهاية الأمر، الأديب ببطاقته أم بكتابته؟ أنَّى لكِ أن تعرفي أيّة أفكار تتضارب في رأسي؟ وفي هذا الرأس أيضاً؟ ـ قال هذا ودلَّ على رأس بيغموت، فعمد هذا الأخير إلى نزع طاقيته عن رأسه وكأنَّه أراد أن يُري رأسه جيِّداً للمرأة.

وردَّت المرأة بعصبية ظاهرة:

ـ تنحَّيا قليلاً أيها المواطنان.

وتنحَّى كرڤيوڤ وبيغموت، وأفسحا لأحد الكتَّاب بالمرور، كان الأديب يرتدي بذلة رمادية، وقميصاً صيفياً أبيض دون ربطة عنق، وقد ارتاحت ياقة القميص فوق ياقة السترة، وكان متأبّطاً جريدة. وحيَّا الكاتب المرأة ببشاشة، ووقَّع على الدفتر الذي قُدِّم إليه بخطٍّ معوجّ، واتَّجه نحو الشرفة.

وقال كرڤيوڤ بحزن ولوعة:

يا حسرة! يا حسرة!.. لن تكون من نصيبنا كأس البيرة المثلّجة، بل من نصيبه... تلك الكأس التي حلمنا بها نحن المشرّدين البائسين التعسين، ووضعنا أصبح محزناً وحرجاً، ولا أعرف ما سيكون من أمرنا.

وبسط بيغموت يديه ملتاعاً، واعتمر القبّعة على الرأس المستدير، ذلك الرأس الذي نما عليه الشعر الكثيف، الشديد الشبه بوبر الهررة.

وفي هذه اللحظة دوى صوت خفيض بلهجة آمرة:

ـ سوفيا پاڤلوڤنا! دعيهما يدخلان!.

واستغربت الإمرأة صاحبة الدفتر. فقد بدا تحت السقيفة الخضراء، صدر أبيض بفراك ولحية قرصان إسفينية الشكل.

ونظر المدير الآمر إلى الممزّقي الثياب المثيري الشكوك ببشاشة، لا بل وأكثر من ذلك دعاهما للدخول كما لو كانا مدعوين حقيقيين.

لقد كان أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش شخصية مرموقة محترمة لها وزنها في الرستوران الذي كان يتولّى إدارته.

وسألت سوفيا پاڤلوڤنا كرڤيوڤ وقد أذعنت للواقع:

ـ ما اسم عائلتك؟

فأجاب ذاك بتهذيب:

ـ باناييف.

وسجَّلت الموظَّفة هذا الاسم على الدفتر أمامها. ثمّ نظرت إلى بيغموت مستوضحة منه

اسم عائلته هو الآخر، فما كان منه إلاّ أن ماء:

ـ سكابيتشفسكي، ودلّ على (بريموس) الكاز، دون أن يعرف سبب فعلته تلك.

وسجَلت سوفيا پاڤلوڤنا الأسماء وقدَّمت الدفتر للقادمين ليوقِّعا، فوقَّع كرڤيوڤ اسم سكابيتشفسكي مقابل اسم (باناِيّف)، أمَّا بيغموت فوقَّع (باناِيّف) مقابل اسم (سكابيتشفسكي).

لقد أذهل أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش بتصرُّفه سوفيا پاڤلوڤنا وحيَّرها. ودون أن تفارق الابتسامة المغرية ثغره دعا ضيفيه للجلوس إلى أحسن طاولة عنده، في طَرَف الشرفة المقابل حيث الظلّ الوارف الكثيف، وحيث تعبث الشمس فرحة بأشعّتها خلال ثقوب السياج الخضراء.

وطرفت سوفيا پاڤلوڤنا استغراباً وهي تدرس متمعِّنة توقيعي القادمين فجأة، في دفترها.

ولم تكن دهشة النُدَّل من تصرُّف رئيسهم بأقلّ من دهشة المرأة المناوبة. فبعد أن أزاح الرئيس بنفسه الكرسي من وراء الطاولة ودعا كرڤيوڤ للجلوس، غمز خادم وهمس بأذن آخر. وانهمك آخران في خدمة الضيفين الغريبين، وقد وضع أحدهما (البريموس) على الأرض بالقرب من حذائه الممزَّق القديم.

واختفى من فوق الطاولة الشرشف القديم ذو البقع الصفراء، وانبسط بدلاً منه شرشف آخر ناصع كعباءة البدوي، هسهس في الهواء وملأ المكان برائحة النشاء. أما أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش فقد راح يهمس بهدوء وبطريقة معبّرة جدًّا وهو ينحني فوق أذن كرڤيوڤ:

ـ بأيّ شيء أضيِّفكما يا ترى؟ عندنا (باليكي) خاصّة انتزعناها من غداءٍ أولم في دورة اجتماع للمهندسين المعماريين.

وغمغم كرڤيوڤ بمودّة وقد تمدَّد على الكرسي:

ـ أنتم إيه!.. ناولونا طعاماً ما.. ولو حتّى لمجة.

ـ فهمت! فهمت! أجاب أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش بلهجة معبِّرة وأغلق عينيه.

ولمّا رأى النُدَّل تصرُّف رئيس رستورانهم مع القادمين الملفّعين بالغموض، حتّى فارقهم الهزل ولزموا الجدّ.

ناول أحدهم بيغموت علبة كبريت، ليتمكّن من إشعال عقب سيجارة أخرجه من جيبه، ووضعه في فمه. وطار ثانٍ وهو يطنطن بالزجاج الأخضر وقدَّم الأقداح والكؤوس الرقيقة الجنبات، وقد فاحت منها رائحة النارزان تحت السقيفة. وإذا استبقنا الحوادث نقول: رُشِف النارزان على الشرفة «الغريبايدڤية» التي لا تنسى.

وماءَ أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش بصوتٍ موسيقي النبرات:

ـ وبمكنتي أن أضيِّفكما (فيليه) سمك.

وبارك الضيف صاحب النظَّارات المتصدِّعة عرض القبطان وراح يتأمَّله بعين الرضى عبر زجاجات نظَّارات عديمة الفائدة.

لَحَظَ الروائي پتراكوف ـ سوخوڤي، الذي كان يتناول لحم الخنزير المشوي، ويجلس إلى طاولة مجاورة مع زوجته، بما يمتلك من قوّة ملاحظة (كأيّ أديب)، لحظ اهتمام ارتشيبالد بالزائرين الغريبين، فتعجَّب. أمَّا زوجته وكانت سيِّدة محترمة فشعرت بالغيرة تنهشها وهي تنظر إلى القرصان المنهمك بكرڤيوڤ، ولم تعد تقدر أن تخفي غيرتها فطقطقت بالملعقة.. وتساءلت: ما هذا، لقد أخَّرتمونا، أما حان تقديم البوظة! ماذا حدث؟!.

وكان ردّ أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش على زوجة الأديب بأن ابتسم لها ابتسامة جذَّابة وأرسل خادماً لها، دون أن يترك ضيفيه العزيزين.

لقد كان أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش ذكيًّا حقًّا ولا يقلّ بشدة ملاحظته عن سائر الأدباء. فما أن بلغته أخبار حفلة الڤاريته المشهورة وحوادث الأيام الأخيرة الكثيرة حتى تنبَّه ولم يفعل كما فعل الآخرون، الذين مرُّوا مرور الكرام بكلمات: «ذي المربّعات» و«القطّ».

لقد عرف رئيس الرستوران في الحال هويّة زائريه، لذلك لم يدخل في أيّ خصام معهما.

أمَّا سوفيا پاڤلوڤنا فإنَّها وأيم الحقّ إمرأة كيِّسة! فكَّرت وأحسنت عملاً بقطعها الطريق المؤدِّية إلى الشرفة أمام هذين القادمين، وهل ينتظر من إمرأة مثلها أفضل ممَّا فعلت.

پتروفكا زوجة الأديب، وهي تغرز بكبرياء ملعقتها الصغيرة في البوظة المغمَّسة بالخوخ، كانت تتأمَّل ساخطة مستاءة الطاولة أمام الزائرين اللذين كانا يشبهان المهرِّجين. تعجَّبت كيف مُلئت الطاولة بالمأكولات. وكأنَّ ذلك تمَّ بسحر ساحر. كانت أوراق الخضار المغسَّلة تلمع من كثرة ما نُظِّفت، وهي تتدلّى من الإناء مع البطرخ الطازج. وفي لحظة واحدة ظهر على منضدة وضعت خصِّيصاً دلو صغير فضِّي يتندَّى بالماء المثلّج.

وعندما اقتنع أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش أنَّ كلّ الأطعمة طُهيت حسب الأصول والضمير، وبعد أن تنقَّلت طنجرة طائرة مُغلقة بين أيدي الخدم وقد دمدم شيء ما داخلها، حينذاك فقط سمح لنفسه بترك ضيفيه العزيزين وقد همس مسبقاً في آذانهما:

ـ معذرة منكما! سأترككما دقيقة واحدة لأشرف بنفسي على طهي (الفيليه).

همس بهذا وابتعد عن الطاولة ليتوارى في الممرّ الداخلي.

ولو أنَّ مراقباً ما استطاع تتبُّع أرتشيبالد أرتشيبالدوڤتش ومراقبته لبدت له أفعال القبطان غريبة وغامضة. فرئيس الرستوران لم يتوجَّه إلى المطبخ ليشرف بنفسه على طهي (الفيليه) كما قال، إنَّما توجَّه إلى مستودع الرستوران.

فتح باب المستودع بمفتاح خاص وعاد وأغلق الباب وراءه، وأخرج سمكتين (باليكي) ثقيلتي الوزن مع قطعة جليد من الصندوق، وبعد أن لفَّها بورقة جريدة، حزمها باعتناء بخيط قوي، ووضعها جانباً. ثمّ دخل بعد ذلك إلى الغرفة المجاورة ليتأكّد إذا ما كان معطفه الصيفي في محلّه أم لا ـ ذلك المعطف المبطَّن بالحرير ـ وعرّج بعد ذلك على المطبخ حيث كان الطاهي يعمل بمنتهى الجدّ في تعريق (الفيليه) التي وعد بها القرصان ضيفيه.

وما يجدر قوله هو أنَّ تصرُّفات أرشيبالد أرشيبالدوڤتش التي بدت وكأنَّها غريبة وغامضة، ما كانت لتبدو كذلك إلاَّ للناظرين إليها بسطحية.

لقد كانت تصرُّفات أرشيبالد أرشيبالـدوڤتش منطقيـة جـدًّا. فمجـريـات الحوادث الأخيرة وإحساسه الداخلي ألهمته بأنَّ غداء زائريه وإن كان مكلّفاً وغنياً وباذخاً لكنَّه لن يطول. فحاسَّة الشمّ التي لم تخن القرصان أبداً، لم تخنه هذه المرّة.

وفي غضون ذلك، وبينما كان بيغموت وكرڤيوڤ يشربان الأنخاب ويرشفان الكأس الثاني من الڤودكا الموسكوبية الرائعـة البـاردة المكـرَّرة مـرَّتين، ظهـر على الشرفـة بـوبـا كاندلونسكي الصحافي المعروف في قسم الأخبار، وكان مضطّرباً والعرق يتصبَّب منه. وقد كان هذا الصحافي معروفاً في جميع الأوساط الموسكوبية بمعرفته الشاملة المذهلة.

وضع الصحافي محفظته الحبلى على الطاولة وجلس قرب الروائي وزوجته، وأدخل بسرعة شفتيه في أذن پتراكوف وراح يهمس له أخباراً مغرية.

أمَّا السيِّدة پتراكوفا فقد راحت تتعذَّب بسبب حشريتها، ولم تعد تقدر على تمالك نفسها فأرهفت سمعها وقرَّبت أذنها من شفتي بوبا المنفوختين المُدهنتين، الذي كان ماضياً في همساته، ونادراً ما كان يتلفَّت حوله. وكان من الممكن أن يسمع المرء كلمات منفردة مثل:

أقسم لكم بشرفي!... في السادوڤايا، في السادوڤايا! ـ وأخفض بـوبـا صـوتـه أكثر فأكثر، وأردف: لم ينفع معهم الرصاص، الرصاص، الرصاص! صدّقوني.. الرصاص. بترول حريق رصاص. ـ نَشَرَ الكذبة شائعات تافهة وكاذبة. يجب توقيفهم! وسيتمّ ذلك! وسينالون ما يستحقّون، كذبة كذبة، سبَّبوا الأذى لغيرهم.. نسجوا السخافات وأشاعوها.

ارتفع صوت السيِّدة پتراكوفا الراصد غاضباً، وَعَلَتْ نبراته أكثر ممَّا أراد بوبا.

فهتف بوبا وقد أثاره تشكيك زوجة الأديب:

ـ أيَّة أكاذيب يا سيِّدة أنتونيدا پورفيريڤنا!.. ومن جديد راح يتكلَّم وصحب الصفير كلماته:

ـ حقًّا أقول لكم إنَّ الرصاصات لم تُجدِ نفعاً معهم.. وقد شبَّ حريق.. وطاروا في الهواء.. في الهواء طاروا... وفحَّ بوبا، ولم يدر بخلده أنَّ اللذين يحكي عنهما وتُروى

أخبارها يجلسان على مقربة منه يتلذّذان بصفيره وفحيحه... على كلّ حال سرعان ما انقطع التلذّذ بالصفير إذ دخل ثلاثة رجال من مدخل الرستوران الخلفي، اقتحموا المكان حاملين في أيديهم المسدّسات وشدّوا خواصرهم بالسيور.

وصاح الذي كان في المقدّمة بصوت مدوٍّ مخيف النبرات:

ـ ليلزم كلّ مكانه، لا يتحرّك أحد من مكانه!

وفي الحال أطلق الثلاثة ـ المهاجمون ـ النار من أسلحتهم على الشرفة، على رأسي كرڤيوف وبيغموت. وإذا بالمستهدفين بالرصاص يذوبان في الهواء، ومن فوهة البريموس انطلق عمود من نار لامس السقف. وكأنَّ حنكاً مفتوحاً أسود الأطراف ظهر في السقيفة، وراح يزحف في كلّ الاتّجاهات. وانسلّت النار من هذا الحنك وامتدّت حتى سقف غريباييدف. واشتعلت فجأة الاضبارات وبداخلها الأوراق، والتي كانت موضوعة في نافذة غرفة التحرير. وأتت النار على الستارة... وما لبثت أن أزّت وهدرت.. وكأنَّ رياحاً عاصفة أذكتها، فارتفعت أعمدة داخل بيت العمّة.

وبعد بضعة ثوان، وعلى الطريق المعبّدة بالاسفلت، والمؤدّية إلى السياج المزخرف، على الطريق التي سلكها يوم الأربعاء المبشّر الأوّل بالتعاسة، الشاعر إيڤانوشكا، على هذه الطريق بالذات يركض الآن أدباء لم ينهوا تناول طعامهم، ونُدّل، وسوفيا پاڤلوڤنا، وبوبا، وپتراكوفا الزوجة، وپتراكوف الزوج، أمّا أرشيبالد أرشيبالدوڤتش فقد سبق الجميع وخرج من الممرّ الخارجي بكلّ هدوء وبرودة أعصاب، لم يركض، ولم يكن على عجلةٍ من أمره، مثله مثل القبطان المكره على ترك السفينة المحترقة بعد نزول جميع ركّابها منها.

لم يركض ولم يكن في عجلة من أمره، بل وقف هادئاً مطمئناً في معطفه الصيفي ذي البطانة الحريرية، وهو يحمل جذعي سمكتي (الباليكي) تحت إبطه.

الفصل التاسع والعشرون

القَدَر

ساعة المغيب، وعلى شرفة أحد أجمل المباني الحجرية في مدينة موسكو، (شرفة مبنى مضى على تشييده مئة وخمسون عاماً)، جلس شخصان يتحادثان. ما كانا غير ڤولند وعزرائيل. جلسا وقد حجبهما عن أنظار الفضوليين درابزين أصصه أزهاره من الجصّ وقد بدت لأعينهما أطراف المدينة القصيّة.

جلس ڤولند على مقعد ينثني، مرتدياً ثوبه الكهنوتي الأسود، وقد غرز سيفه الطويل ذا الشفرة العريضة بين بلاطتين مشقوقتين من بلاطات الشرفة، بحيث أصبح السيف ساعة شمسية.

وكان ظلّ السيف ينمو ببطء واطراد ويزحف نحو الخفّين الأسودين اللذين انتعلهما الشيطان.

أسند ڤولند ذقنه المدبّبة إلى قبضة يده، وطوى إحدى رجليه تحت جذعه وراح يتمايل على المقعد ويتأمّل دونما انقطاع مجمّعات القصور الرحبة: البيوت الصغيرة منها والكبيرة، والأكواخ المحكوم عليها بالهدم.

عزرائيل هذا، وقد خلع لباسه العصري: أيّ الجاكيته، والقبّعة والحذاءين اللمّاعين، وارتدى اللباس الأسود كڤولند، وقف على مقربة من رئيسه وراح يسرّح نظره في المدينة.

وتكلّم ڤولند:

ـ إنّها مدينة تثير الاهتمام حقّاً! أليس كذلك؟

وارتعش عزرائيل وأجاب بإجلال:

ـ روما تعجبني أكثر يا سيِّد!.

فأجابه ڤولند:

ـ (للناس فيما يعشقون مذاهب).

وبعد قليل دوّى صوته من جديد قائلاً:

ـ ما سبب ذلك الدخّان على البولڤار؟

ـ بيت غريبايدف يحترق!

ـ لا بدّ أنَّ الحليفين الصديقين كانا هناك؟!

ـ دون أدنى شكّ يا سيِّد.

وساد الصمت من جديد، وأخذ الواقفان على الشرفة يتأمَّلان كيف توهَّجت أشعّة الشمس الساطعة، وتكسَّرت في نوافذ الطبقات العليا المقابلة للغرب.

واضطرمت عين ڤولند كما التهبت إحدى تلك النوافذ في أشعّة الشمس، مع أنَّه كان يدير ظهره للشمس الجانحة نحو المغيب.

ثمّة سبب دعا ڤولند أن يدير ظهره للمدينة ويلتفت نحو البرج المستدير الشاهق المرتفع على السطح وراءه. فمن جدار البرج برز إنسان كئيب يرتدي مبذلاً، رثّ الثياب ووجهه ممرَّغ بالطين، أسود شعر اللحية، وينتعل صندلاً صنعه بنفسه.

وهتف ڤولند متأمِّلاً الداخل وارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة:

ـ آه!... ما انتظرنا قدومك إلى هذا المكان! ماذا تريد أيها الضيف المنتظر والقادم دونما دعوة؟

وأجاب الزائر، وهو يحدج ڤولند شزراً:

ـ أنا آتٍ إليك يا روح الشرّ وسلطان الظلال والظلام.

فردَّ ڤولند بقسوة:

ـ طالما أنَّك آتٍ إليّ فلماذا لم تسلِّم عليّ يا من كنت جابياً للضرائب في أيامك الماضية؟!.

وأجاب الزائر بجسارة:

ـ لم أسلِّم عليك لأنَّني لا أتمنَّى لك السلام ولا العافية.

فردَّ ڤولند وقد ثنت الابتسامة الساخرة فمه:

ـ لكنَّك سترضخ وستسلِّم للواقع. ما أن وضعت قدميك على السطح حتَّى رحت تتفوّه بالسخيف من الكلام. لقد لفظت كلماتك وكأنَّك لا تعترف بوجود الشرّ والظلال. هل تراك تفكِّر بهذه المسألة: ما هو مصير الخير الذي تنادي به لولا الشرّ. وقل لي كيف ستظهر الأرض إذا ما اختفت عن سطحها الظلال؟ وما الظلال إلاَّ انعكاسات للناس وللأشياء. هَاكَ ظلّ سيفي، وثمّة ظلال أخرى للأشجار وللكائنات الحيّة!. أم أنَّك تريد سلخ الكرة الأرضية والاشجار والحياة لترضي تخيُّلاتك وتتلذَّذ بالنور العاري؟ إنَّك أحمق وأيم الحق!..

وأجاب ليڤي ماتڤي:

ـ لن أدخل معك في جدلٍ أيها السفسطائي العتيق.

وردَّ ڤولند:

ـ إنَّك عاجز عن مناقشتي، والسبب ما قلته لك. أنت أحمق وربِّي.

لفظ ڤولند كلماته وأردف:

ـ قل باختصار، لماذا جئت ولا تجهدني.

ـ هو أرسلني.

ـ أأمرك بتسليم نفسك كالعبد؟

ـ أنا لست عبداً. إنَّما أنا تلميذه. ـ أجاب ليڤي وقد استشاط غضباً.

ـ اتفقنا على أن لا نتَّفق أبداً، والمواضيع التي نتحدَّث عنها لا تتغيَّر، إذن؟

أجاب ليڤي ماتڤي:

ـ لقد قرأ كتاب المعلِّم. ويطلب منك أن تأخذ المعلِّم معك وتنعم عليه بالطمأنينة. أيصعب عليك هذا العمل يا روح الشرّ؟.

ـ لا يصعب عليّ أيّ عمل وهذا ما تعرفه أنت تمام المعرفة ـ وسكت ڤولند لحظة واحدة وأردف متسائلاً: ولماذا لا تأخذون المعلِّم معكم إلى عالم النور؟

ـ إنَّه لم يستحقّ النور بعد، استحقَّ الطمأنينة فقط. ـ ردَّ ماتڤي بصوتٍ حزين النبرات.

وأجاب ڤولند:

ـ بلّغه بأنَّ أوامره ستُنفَّذ ـ وأضاف وقد لمعت عيناه: هيَّا ابتعد عنِّي بدون إبطاء.

وتوجَّه ماتڤي بكلماته إلى ڤولند متوسِّلاً هذه المرّة:

ـ كما أنَّه يطلب منك أيضاً أن تأخذ معك تلك التي أحبَّته وتعذَّبت من أجله.

ـ إذهب. إنَّنا حزرنا هذا.

واختفى ليڤي ماتڤي.

أمَّا ڤولند فقد نادى إليه عزرائيل وأمره:

ـ طِرْ إليه ورتِّب الأمور.

وغادر عزرائيل الشرفة، ومكث ڤولند وحيداً.

لكنَّ عزلته لم تطل، فقد سمع جلبة وصدى خطوات وأصوات ثائرة. وسرعان ما مثل كرڤيوڤ وبيغموت أمامه. لم يكن السمين يحمل هذه المرّة (البريموس)، إنَّما كان مثقلاً بأغراض أخرى كثيرة. كان متأبِّطاً صورة تمثِّل منظراً طبيعياً في إطار من الذهب، طارحاً على يده مبذل طاه احترق نصفه، وفي اليد الثانية كان يمسك بسمكة (سلمون) ما زالت بكامل زعانفها وذنبها.

وفاحت من القادمين رائحة الحريق. وكان وجه بيغموت مطليًّا بالسخام، ونصف قبّعته محروقاً. وصاح الرفيقان اللجوجان الضجوجان:

ـ تحيّة يا سيِّد. ـ ثمّ لوَّح بيغموت بسمكة (السلمون).

فهتف ڤولند: ممتازة!.

وأعلن بيغموت مطروباً ومبتهجاً:

ـ تصوَّر يا سيِّد لقد اعتبروني لصًّا!

فأجاب ڤولند وهو يتأمَّل المنظر الطبيعي:

ـ إذا حكمنا عليك حسبما تحمل فإنَّك سارق!.

ـ هل تُصدِّق يا سيِّد... بدأ بيغموت يخبر بصوت ودّي النبرات.

ـ لا لن أصدِّق..

ـ أقسم لك يا سيِّدي بأنِّي قد قمت بعمليات جريئة من أجل أن أُنقذ كل ما يمكن إنقاذه، وهذا كلّ ما تبقّى.

وعاجله ڤولند بالسؤال:

ـ من الأفضل أن تخبرني عن سبب الحريق الذي أتى على بيت غريبابيدف؟.

وبسط كرڤيوڤ وبيغموت أيديهما، واتّجها بأنظارهما إلى السماء، وهتف الأخير:

ـ لا أعرف السبب، كانوا يجلسون هادئين مسالمين يأكلون، وتابع كرڤيوڤ: وفجأةً تراخ! تراخ!، طلقات نارية! كدت أفقد عقلي من الخوف، فركضنا في الجادة سويّة، وطاردونا، فانطلقنا نحو شارع (تميريازيف).

وأضاف بيغموت معلِّقاً على قول زميله:

ـ غير أنّ الشعور بالواجب غلب الشعور بالخوف والعار فرجعنا!.

هتف ڤولند:

ـ رجعتما إذن. وحينذاك احترق المبنى بأكمله.

وأكّد كرڤيوڤ مكروباً:

ـ بأكمله، أجل بأكمله يا سيِّد كما تفضَّلت وقلت، ولم يبق غير الجذوع!.

وقصّ بيغموت:

ـ اتّجهتُ إلى قاعة الجلسات، القاعة ذات العمد يا سيِّد، ظننت أنَّني سأقدر أن أخلِّص أشياء ثمينة، لكن يا سيِّد.. لو كنت متزوِّجاً، لكانت زوجتي الآن أرملة!، لكن لحسن الحظ فإنَّني عازب، وأقول بصراحة: إنَّني سعيد لأنَّني عازب.. أجل يا سيِّد من يقايض حرية العزوبية بنير الزواج الثقيل!.

وعلَّق ڤولند قائلاً:

ـ من جديد كلام سخيف!..

وأكمل القط: عفواً! لم يكن ممكناً تخليص شيء من القاعة غير هذه اللوحة. لفحتني النار في وجهي. ركضت إلى المخزن فخلَّصت السمكة. ومن المطبخ أنقذت المبذل. وأعتقد يا

سيّد أنني بذلت كل جهودي ولا أدرك معنى إمارات الشكّ المرتسمة على وجهك.
وسأل ڤولند:
ـ وماذا فعل كرڤيوف في الوقت الذي كنت تسرق أنت فيه؟.
ـ ساعدت رجال الأطفاء ـ أجاب كرڤيوف وهو يشير إلى بنطلونه الممزّق.
ـ إذا كان الأمر هكذا فعليهم أن يُشيّدوا مبنى جديداً؟!.
ـ سيبنون يا سيّد، ـ ردّ كرڤيوف ـ يمكنكم تصديق كلماتي.
وأجاب ڤولند:
ـ حسناً!... ونتمنّى أن يكون المبنى الجديد أفضل من القديم.
فردّ كرڤيوف:
ـ سيكون كما تتمنّى وتريد يا سيّد.
وأضاف القط:
ـ يمكنك أن تصدّقني فأنا متنبّىء ونبوءاتي دائماً تصدق، على كلّ حال، نحن ماثلون أمامك يا سيّد وننتظر أوامرك.
ونهض ڤولند من فوق مقعده واقترب من حافّة الدرابزين وراح يسرّح ناظريه في الأفق البعيد، لائذاً بالصمت، مُديراً ظهره إلى عصابته. ثمّ عاد وابتعد عن الحافّة وجلس من جديد فوق المقعد وقال:
ـ لا أوامر جديدة عندي، وقد قمتم بما أُوكِل إليكم، لم تعد بي حاجة إلى جهودكم. يمكنكم أن ترتاحوا، ستهبّ العاصفة الآن، العاصفة الأخيرة، وسننجز ما يجب إنجازه وسنرحل.
وأجاب الماجنان:
ـ حسناً يا سيّد! ـ قالا هذا واختفيا وراء البرج المستدير المرتفع في وسط الشرفة.
وبدأ نذير العاصفة التي تحدّث عنها ڤولند يدوّي في الأفق. وصعدت من الغرب سحابة سوداء واخترقت الشمس حتّى منتصفها ثمّ ما لبث أن حجبتها بأكملها.
وأصبح الجو رطباً وسربلت الظلمة القادمة من الغرب المدينة الكبيرة. واختفت الجسور والقصور وزال كلّ شيء واندثر كأنّه لم يكن وزحفت في عرض السماء أفاعٍ من نار. وروّع قصف الرعد المدينة. قصف الرعد ثانية وثالثة. وهبّت العاصفة. وحجبت الظلمة الدامسة ڤولند عن الأنظار.

الفصل الثلاثون

أزِفَتْ الساعة!.

وقالت مارغريت مخاطبة المعلّم:

ـ هل تعلم أنّني، أثناء غفوتك، قرأت عن تلك الظلمة التي أتت من البحر المتوسط... تبًّا لهذه الأصنام الذهبية، إنّها مصدر ازعاج دائم. الأمطار ستتساقط، أما تشعر بالرطوبة.

وأجاب المعلّم: حسناً، حسناً!، دعينا من تلك الأصنام.. أمّا ما سيحدث فهذا سرٌّ غامض في ضمير الغيب.

تلفَّظ المعلّم بكلماته هذه وهو ينفث الدخان من فيه ويبدِّده بيده!.

دار هذا الحديث عند غروب شمس ذلك النهار الذي مثل فيه ليڤي ماتڤي على المصطبة أمام ڤولند. كانت نافذة القبو مفتوحة، ولو أنَّ أحداً تأمَّل من النافذة لأخذته الدهشة من منظر المتحدِّثين الغريب. فقد كانت مارغريت تؤزِّر جسدها العاري بمبذل أسود اللون، أمّا المعلّم فكان في بياضات المستشفى.

كانت مارغريت ترتدي مبذلها ذاك لأنَّ كلّ أغراضها بقيت في المنزل، ولم يبقَ عندها ما تستر به جسدها العاري، ومع أنَّ المخدع لم يكن بعيداً عنها، لكنَّها لم تشأ أن تذهب إليه لتأتي بثيابها. ما شاءت أن تذهب ولا حتّى فكَّرت بالذهاب... والمعلّم وقد عُلِّقت كلّ بذلاته في الخزانة وكأنّه لم يغادر مكانه، هو أيضاً لم يشأ أن يلبس أيّة بذلة، شغلته أفكار ومخاوف، مخاوف من واقعة تافهة ستحدث عمّا قريب... والجدير بالذكر أنَّ هذه هي المرّة الأولى التي يحلق فيها المعلّم ذقنه منذ تلك الليلة الخريفية، (في العيادة كانوا يحلقون له ذقنه بالآلة).

وكانت الغرفة غريبة بمنظرها، وكان من الصعب رؤية ما في زواياها والفوضى تضرب أطنابها فيها: تناثرت المخطوطات على السجّادة، وعلى الديوان. على المقعد: كتاب مرمي. وعلى الطاولة المستديرة غُطِّي الغداء، وبين صحون اللمج صُفَّت القناني. (من أين جُلبت هذه المأكولات والمشروبات، هذا ما لا يعرفه المعلّم ولا مارغريت. حينما استيقظا وجدا الأكل على الطاولة). لقد استيقظا عند غروب الشمس وشعرا بنشاط وقوّة، ونسيا ما كان من أمرهما يوم البارحة؛ إحساس بالوجع في الصدغ الأيسر ذكَّرهما بمغامرات يوم الأمس.

حدثت تغييرات نفسية هائلة عند الاثنين، وبهذا يقتنع أي إنسان يمكنه الاستماع إلى

الحديث الذي دار في الشقّة ـ القبو ـ ، لكن أحداً لم يسمع حديثهما. لم يسمعها أحد، لأنّ الحوش كان دائماً خالياً، وهذه حسنته. ومع إطلالة كلّ فجر جديد كانت أشجار الزيزفون تنشر أريجها الربيعي خلف النافذة. وكان النسيم يحمل تلك الرائحة الذكية إلى القبو. وبغتة هتف المعلّم وقد اعتمد رأسه بين يديه وقد أطفأ عقب السيجارة في المنفضة:

ـ ألا ليُخْزَ الشيطان... ما أن يفكّر الإنسان بما حدث حتّى يأخذه العجب الشديد. إصغي!... فأنت إنسانة ذكيّة وما كنت غير عاقلة في يومٍ من الأيام.. أأنت متأكّدة من أنّنا كنّا يوم أمس في ضيافة الشيطان؟.

أجابت مارغريت:

ـ نعم إنّني متأكّدة.

وردّ المعلّم ساخراً:

ـ طبعاً! طبعاً! كنّا بمجنون واحد أصبحنا باثنين! الزوج والزوجة. ـ قال هذا ورفع يديه إلى السماء وهتف: الشيطان وحده يعرف بما حدث. الشيطان الرجيم... الشيطان، الشيطان!...

ولم تجب مارغريت، بل ارتمت على الديوان وراحت تقهقه وهي تحرّك رجليها العاريتين. ثمّ هتفت:

ـ يا إلهي أكاد أنفجر من الضحك! وما عاد بمقدوري أن أحتمل!... تأمّل تأمّل بمن أصبحت شبيهاً!...

وفيما واصلت مارغريت قهقهتها، جذب المعلّم سراويله خجلاً إلى فوق. وكلّمته مارغريت هذه المرّة بصوت جادّ النبرات:

ـ لقد نطقت بالصواب... الشيطان يعرف بما حدث. صدّقني الشيطان يرتّب الأمور ويدبّرها! ـ ولمعت عيناها فجأة فنهضت وراحت ترقص في مكانها وتصيح بأعلى صوتها:

ـ كم أنا سعيدة! ويا لسعادتي العظمى.. لأنّني دخلت في صفقة معه! يا للشيطان اللعين! يا مسكين أكُتِبَ عليك أن تعيش مع ساحرة... قالت هذا وارتمت على المعلّم وطوّقت عنقه وراحت تقبّله في شفتيه وأنفه وخدّيه. وتبعثر شلاّل شعرها الأسود عليه، وتورّد خدّاه وجبهته من وقع القبل العاصفة.

قال المعلّم:

ـ أنتِ أصبحتِ تشبهين الساحرات حقّاً.

فأجابت:

ـ أنا لا أدرك هذا. وإن كنت حقّاً أصبحت شبيهة بالساحرات فإنّني راضية.

ـ ساحرة... مسألة عظيمة. يعني أنّني خُطفت من المصحّ وهذا أيضاً أمر بديع. ثمّ

أعادوني بعد ذلك إلى هذا المكان وهذا أيضاً... ولنفترض أنَّهم لن يفتقدوننا، لكن كيف سيكون بمقدورنا أن نحيا؟ أصدقك القول إنَّما قلت كلماتي هذه لأنّك شغلي الشاغل وهمِّي الأكبر.

في هذه اللحظة بدت من النافذة أطراف حذاء عريض الرأس، والجزء الأسفل من بنطال. وانثنى البنطال عند الركبة، وحجب قفا شخص ثقيل الوزن ضوء النهار.

وسُمِع صوت انبعث من وراء النافذة يسأل:

ـ ألوزي! أين أنت؟.

فعلَّق المعلِّم قائلاً:

ـ ثمّة أمر حدث.

وتساءلت مارغريت وهي تقترب من النافذة:

ـ ألوزي!؟ لقد أوقفوه يوم البارحة. من الذي يسأل عنه؟ من أنت؟.

في هذه اللحظة، اختفت الركبتان، وسمع بعد ذلك صرير باب الحوش، وعاد كلّ شيء إلى ما كان عليه سابقاً، وارتمت مارغريت على الديوان وأطلقت قهقهات عالية، وانسابت الدموع من عينيها. وحينما هدأت تغيَّرت ملامح وجهها وراحت تتكلَّم جادّة وتنزلق من فوق الديوان وتزحف نحو ركبتي المعلِّم. وما أن دنت منه حتَّى راحت تمسِّد له شعر رأسه وتتأمَّل عينيه... وخاطبته بهذه الكلمات:

ـ يا إلهي!.. كم تعذَّبت وقاسيت يا حبيبي المسكين. أنا وحدي أعلم بما عانيت. أنظر إلى شعر رأسك الشائب وإلى الغضون عند شفتيك. يا حبيبي ويا أملي... لا تشغل بالك. لقد مرَّت أيام أتعبت نفسك بها كثيراً وفكَّرت... والآن أتى دوري... أجل أتى دوري لأفكِّر بك، كلِّي ثقة، كلِّي ثقة أنَّ كلّ شيء سيصبح عظيماً ورائعاً.

فأجاب المعلِّم وقد رفع رأسه فبدا لحبيبته كما كان في سابق عهده حينما كتب كتاباً عن شخصية لم ترها عيناه، لكنَّه تيقَّن من وجودها:

ـ أنا لا أخاف شيئاً يا مارغو. أنا غير خائف لأنَّني ذقت الأمرّين وحلبت من الدهر شطريه. لقد آذوني وخوَّفوني كثيراً، وهل يخاف الغريق من البلل. لكن قلبي يذوب شفقة وحسرة على مصيرك يا مارغو... أجل أنتِ سرّ خوفي.. لذلك تسمعينني أكرِّر أقوالي. فكِّري بمصيرك... أيكون قد كتب عليكِ أن تحطِّمي أيام حياتك مع مريض مسكين؟ ثوبي إلى رشدك؟ شفقة بك أنطق بكلماتي وأُعيد.

وهمست مارغريت وهي تهزّ رأسها المبعثر الشعر:

ـ آه، منك! أنت، أنت، أيها الإنسان الكثير الشكوك والوساوس، التاعس الحظ. من أجلك أنت ومن أجلك فقط، أمضيت ليلة البارحة عارية أرتعد.. وغيَّرت طبيعتي،

وتبدّلت خلقاً جديداً آخر. مرَت بضعة أشهر وأنا أجلس حبيسة زنزانة مظلمة. أجلس وقد شغلت رأسي مسألة واحدة... شغلت رأسي العاصفة التي هبّت في سماء أورشليم، وبكيت... بكيت حتّى جفّت الدموع في مآقي؟! وماذا بعد؟! ها إنّي ذاهبة ولن أعود! واعلم أنّك إنسان قاسي القلب، أفرغوا نفسك من المشاعر!.

ولامس الحنان الممزوج بالمرارة قلب المعلّم فبكى دون معرفة السبب، وأخفى وجهه في شعر مارغريت. فما كان منها هي الأخرى إلاّ أن شرعت بالبكاء، وراحت تهمس بكلمات مبعثرة وتمرّر أصابعها على صدغي المعلّم.

خيوط بيضاء! أمام عينيَّ خيوط بيضاء! غطّاك الثلج أيها الرأس الحبيب. سقوك كأس العذاب حتّى الثمالة! تأمّل عينيك! فإنّي أرى في سواد إنسانها صحاري شاسعة.. والكتفان؟! يا للكتفين وقد أبهظتها الأثقال... أيها البائس المهيض الجناح لقد آذوك وشوّهوك!... آذوك وشوّهوك وظلموك!..

وهنا أصبح حديث مارغريت مبعثر الكلمات ولم يعد يفهم منه شيئاً، اللهم إلاّ تنهّدات ورعشات ونشيج.

وحينذاك مسح المعلّم عينيه، وأنهض مارغريت من فوق ركبته وقام وخاطبها بيقين:

- كفى!... لقد جعلتيني أذوب حياءً أمامك. لن أسمح لنفسي بأن تجبن بعد اليوم. ولن أعود إلى طرح مثل هذا السؤال اطمئنّي. أنا أعلم أنّنا ضحية. ضحية مرضنا النفسي. هذا المرض الذي سرّبت عدواه منّي إليك. ليكن.. سنتقاسم المرض سوية.

وأدنت مارغريت شفتيها من أذن المعلّم وهمست:

- وحياتك وحياة ابن النجمة الذي عرفته. إنّ أمورنا ستتحسّن.

- حسناً حسناً - ردَّ المعلّم ضاحكاً وأردف: حينما يحيق الهلاك بالناس كما أحاق بنا، وحينما يسلبون إرادتهم كما سلبناها، فإنّهم ساعتذاك سيبحثون عن الخلاص عند القوى الغيبية! فلنبحث نحن أيضاً هناك عن خلاصنا!.

- ها إنّي أراك تضحك... حسناً، أرى أمامي شخصك القديم... لكن دعني من كلماتك وتعاليمك ومن قوى الغيب والواقع، أريد أن آكل.

قالت كلماتها هذه وجذبت المعلّم بيده إلى الطاولة.

فقال وقد عاد إليه هدوؤه التام:

- لا أصدّق أنّ أمامي طعاماً. أخاف أن يذوب في الأرض وربّما يطير من النافذة.

- لن يطير!.

في هذه اللحظة سُمِع صوت أخنّ من النافذة يقول:

- سلام لكم!.

وارتعش المعلِّم. أمَّا مارغريت التي اعتادت على الحوادث الغريبة والخارقة فهتفت:

ـ إنَّه عزرائيل!.. فرصة جيِّدة وسعيدة.

وهمست في أذن المعلِّم:

ـ ألا ترى كيف أنَّهم مهتمُّون بنا ولن يتركونا!.

تلفَظت بكلماتها وانطلقت لتفتح الباب للزائر الغريب. ونبَّهها المعلِّم:

ـ تدثَّري على الأقل.

فأجابته من الممرّ الضيِّق:

ـ تفاهة لا تستحقّ الذكر.

في غضون ذلك، سلَّم عزرائيل على المعلِّم، وومضت عينه العوراء وبرقت، أمَّا مارغريت فهتفت:

ـ ما عرفت السرور في حياتي كما عرفته في يومي هذا!. لكن سامحني يا عزرائيل لأنَّني عارية!.

وتمنَّى عليها عزرائيل أن لا تقلق. وأكَّد لها بأنَّه لم يرَ نساءً عاريات وحسب بل اكتحلت عيناه أيضاً بمنظر نسوة مسلوخات الجلود.

وجلس إلى المائدة بطيبة خاطر، ووضع حالاً في الزاوية قرب الموقد رزمة ملفوفة بالديباج الغامق اللون.

وسكبت مارغريت لعزرائيل قدحاً من الكونياك فرشفه ممنوناً، أمَّا المعلِّم فقد ثبَّت نظره على الزائر، وكان بين الحين والآخر، يقرص راحة يده الممدودة تحت الطاولة، ليتأكَّد من أنَّه في يقظة لا في منام. غير أنَّ تلك القرصات لم تسعفه، فعزرائيل لم يتبخَّر ولم يذب، والحقّ يُقال ما كانت ثمَّة ضرورة لذلك. فهل منظر إنسان أشقر الشعر صغير الحجم في إنسان عينيه بياض، يثير الرعب في القلوب؟!. وأيم الحقّ ما هذه بمسألة غريبة وقد تحدث دون سحر أو ساحر... أم أنَّه غريب بلباسه؟ بالمبذل والجبّة؟!. ومثل هذا اللباس ليس بغريب إذا ما فكَّرنا جيِّداً. كان يشرب الكونياك بمهارة كما يرشفه كلّ الناس الطيِّبين. كان يرشف الكأس تلو الكأس دون لمجة، وبسبب الكونياك بدأ المعلِّم يشعر بثقل في الرأس ودوار وفكَّر:

ـ «أحقًّا وصدقاً يا مارغريت، يجلس معنا رسول الشيطان. أنا بنفسي ليلة أوَّل أمس أكَّدت لإيفان أنَّه لقي الشيطان عند البطريركية، والآن لا أدري لماذا أصبحت أخاف من فكرة لقائه. أثرثر عن المنوِّمين المغناطيسيين والمهووسين والخياليِّين... أيّ تنويم.. وأيّ منوِّمين!».

راودت هذه الأفكار مخيلة المعلِّم، لكنَّه ما لبث أن راح ينظر إلى عزرائيل بتمعّن،

فتأكد له أنّ في عيني الزائر يستتر شيء ما، رغبة أو ما يشبه الرغبة.. أو فكرة لن يفصح عنها قبل الأوان.

وفكّر المعلّم من جديد: إنّه ليس بزائرٍ عادي. إنّه آتٍ مكلّفاً بمهمة.

وكانت أفكار المعلّم صائبة ومحقّة. فبعد أن احتسى الزائر كأس الكونياك الثالث، ودون أن يظهر عليه أدنى أثر للسكر، استوضح قائلاً:

ـ يا للقبو الدافىء المريح!.. لا بدّ أن يطرح سؤال: ماذا يحدث تحت سقف هذا القبو؟!

أجاب المعلّم ضاحكاً:

ـ لقد طرحت مثلك هذا السؤال من قبل.

وسألت مارغريت:

ـ لِمَ تزعجني دائماً يا عزرائيل؟!.

فأجاب عزرائيل هاتفاً:

ـ ماذا أسمع؟ بِمَ تتفوّهين؟ لم يخطر على بالي مثل هذا الأمر. ويح قلبي كيف أهذر. كدت أنسى! السيّد يبعث لكم بتحيّاته، وأمرني بإبلاغكم دعوة لاصطحابه بنزهة صغيرة، إذا شئتم. فماذا سيكون ردّكم على دعوته؟

ولكزت مارغريت المعلّم برجلها، من تحت الطاولة، فأجاب هذا الأخير وهو يدرس ملامح عزرائيل:

ـ ألبّي دعوة السيّد بكلّ طيبة خاطر.

أما عزرائيل فأردف:

ـ ونأمل بأن لا ترفض مارغريت نيقولايڤنا الدعوة؟!.

فأجابت مارغريت:

ـ لا لن أرفضها ـ قالت هذا، ومن جديد أمرّت رجلها فوق رجل المعلّم.

وهتف عزرائيل حينما سمع جوابها:

ـ يا له من جواب بديع. إنّني متشوّق لسماع هذا الجواب!.. واحد، اثنان... وهيّا بنا! ولن يحدث ما حدث في حديقة ألكسندروڤسكي.

ـ لا تذكّرني بما حدث حينذاك يا عزرائيل. لقد كنت حمقاء. فلا تبالغ في تأنيبك ولا تقسو. إنّ المرء لا يلتقي بالقوى الشيطانية كلّ يوم.

ـ طبعاً ـ أجاب عزرائيل مؤكّداً ـ لو التقى الانسان بالقوى الشيطانية كلّ يوم لسعُدت أوقاته!

وقالت مارغريت محتدّة:

ـ تعجبني السرعة. تعجبني السرعة، والعري. السرعة... كما تنطلق الرصاصة من فوهة المسدَّس!. يا إلهي كيف يُسدِّد!.. ـ وجَّهت مارغريت كلماتها إلى المعلِّم وأكملت: يضع ورقة اللعب تحت الوسادة ويصيب أيّة نقطة فيها..

وبدأت الخمرة تُؤتي تأثيرها على مارغريت.. فاحمرَّت عيناها. وصاح عزرائيل وضرب بيده على جبهته:

ـ نسيت مرّة أخرى... أين عقلي؟ يكاد الارهاق يذهب بذاكرتي. نسيت أن أخبركم أنَّ السيِّد أرسل لكم هدية. أرسل هدية خاصَّة للمعلِّم: قنينة خمرة. وأودّ أن تعرفوا أنَّها من الخمرة ذاتها التي شرب منها والي اليهودية بيلاطس. خمرة خاصَّة.

وبديهي القول إنَّ مثل هذه الهدية النادرة أثارت استغراب المعلِّم ومارغريت. وأخرج عزرائيل من قطعة الكفن الديباجي الداكن اللون الهدية التي كانت عبارة عن دورقٍ عفن.

تنشَّقوا رائحة الخمرة ثمّ سكبوها في الكؤوس. وكما لو كانت من زجاج نقيّ نظروا من خلالها إلى النور المحتجب وراء النافذة. نور ما قبل العاصفة. ورأوا كيف كانت الأشياء تتسربل بلون النجيع. وهتفت مارغريت وهي ترفع كأسها:

ـ لنشرب نخب ڤولند!.

ورفع الثلاثة كؤوسهم وشربوا منها. وفي الحال بدأ النور يخبو أمام عيني المعلِّم. واحتبست أنفاسه وشعر بأنَّ النهاية اقتربت!..

ورأى المعلِّم كيف مدَّت مارغريت الشاحبة يدها نحوه عبثاً، وكيف هوى رأسها على الطاولة وسقطت على الأرض.

ـ «سمَّمني القاتل!...»

حشرج المعلِّم المحتضر، وأراد أن يتناول سكِّيناً من على الطاولة ليطعن به عزرائيل، لكن يده لم تسعفه وانزلقت عن غطاء السفرة. واصطبغت الأشياء المحيطة بالمعلِّم باللون الأسود واختفت من أمام ناظريه وتلاشت. وقع المسكين على ظهره واصطدم صدغه بزاوية لوح الطاولة فانشقّ.

وما أن همدت من المسمومين الأنفاس حتَّى بدأ عزرائيل ينفِّذ مهمته. وثب من النافذة على عجل، وخلال لحظات كان في البيت الذي عاشت تحت سقفه مارغريت نيقولايڤنا. قام عزرائيل بعمله هذا لأنَّه أراد أن يتأكَّد إذا ما كان قد أدَّى مهمّته حسب الأصول وبدقّة. وكيف لا يتأكَّد من صحّة عمله وقد عرف عنه الإتقان في العمل. وتأكَّد له أنَّ المهمّة تؤدَّى على أكمل وجه. لقد رأى عزرائيل كيف أنَّ إمرأة كئيبة كانت تنتظر عودة زوجها بلهفة، خرجت من غرفة النوم، وفجأة شحب لون وجهها فأمسكت قلبها وصرخت مستنجدة: ناتاشا... ساعدوني!.. صرخت وهوت على أرض الصالون ولم تصل إلى

المكتب.

وعلّق عزرائيل قائلاً:

ـ المهمّة تؤدّى حسب الأصول. وبعد لحظة كان قرب العاشقين الصريعين.

كانت مارغريت ممدّدة على الأرض وقد أخفت وجهها في سجّادة صغيرة. وكالدمية الصغيرة قلّبها عزرائيل بساعديه الحديديين، أدار وجهها نحوه وراح يتأمّل هذا الوجه متفحّصاً سيماءه. وأخذت ملامح وجه الضحية تتغيّر أمام ناظري عزرائيل. لوحظ حتّى في ظلمة الليل العاصف كيف اختفت ملامح الساحرة المؤقّتة وذابت إمارات القسوة والحدّة، وفارق العينين الحول. وانبعثت أنوار من الوجه وقد لانت إماراته، والتكشيرة لم تعد مخيفة إنّها أصبحت تكشيرة أنثوية مفعمة بالآلام. حينذاك فتح عزرائيل فم الضحية، ولمّا بدت الأسنان البيض، سكب في الفم قطرات من الخمرة السامّة. وتنهّدت مارغريت وراحت تستعيد وعيها دون مساعدة عزرائيل. ولمّا جلست سألت بصوت واهن:

ـ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت يا عزرائيل حتّى تعاقبني بشديد عقابك؟ ماذا فعلت بي؟.

ولمّا رأت المعلّم ممدّداً على الأرض جثّة هامدة ارتعشت وهمست:

ـ ما انتظرت منك هذا أيها القاتل!..

فأجابها عزرائيل:

ـ لا.. لا تظنّي سوءًا. الآن سيقوم. ولماذا أنت عصبيّة المزاج هكذا!..

وصدّقت مارغريت كلامه، لأنّ نبرات صوته كانت مقنعة وجادّة. ووثبت قوية نشيطة، وساعدت في إسعاف الممدّد على الأرض.. وسقته مع عزرائيل الخمرة. وما أن فتح المعلّم عينيه حتّى تأمّل مكتئباً حوله وردّد كلمته الأخيرة بكراهية وبغض: قاتل!...

فأجابه عزرائيل:

ـ حقّا، كما يُقال، إتّقِ شرّ من أحسنت إليه. وهل تكون الإهانة جزاء الإحسان، أم تكونون عمياناً؟ هيّا إصحوا وانظروا!.

استيقظ المعلّم ونهض وتأمّل ناظراً حوله كما ينظر القوي المعافى وسأل:

ـ ما معنى هذا «الجديد»؟

فأجابه عزرائيل:

ـ هذا الجديد يعني أنّ الساعة أزفت. والعاصفة تدوّي. ألا تسمعون؟، والظلمة تسدل ستارها والخيول تنتظر وتضرب بحوافرها الأرض، والبستان يرتعش... هيّا ودّعوا القبو هيّا...

وأجاب المعلّم:

ـ آه... فهمت، الآن نحن أموات إذن... إنّه وربّي لعمل عظيم وذكي!.. كيف وافانا

الموت في حينه!.. فهمت كلّ شيء الآن.
فأجابه عزرائيل:
- ماذا أسمع؟ صديقتك تدعوك المعلّم؟! إنّك رجل ذكي وعاقل ومفكّر فكيف تحسب نفسك من الأموات؟ ألا تحسب نفسك حيًّا إلاّ إذا قبعت في القبو في قميص وسراويل المرضى؟ إنّ هذا أمر مضحك حقًّا!..
وهتف المعلّم:
- لقد فهمت الآن كلّ ما تفوّهت به، وما من داعٍ لأن تكمل حديثك، إنّك وربّي على حقّ.. على حقّ!..
وراحت مارغريت تردّد:
- إنّ ڤولند العظيم... ڤولند العظيم... لقد فكّر وما أروع أفكاره، لكن الرواية!... الرواية.. - وصرخت بالمعلّم:
- خذ الرواية معك إلى حيث تمضي!..
فأجابها المعلّم:
- لا لزوم لذلك. إنّني أعرفها عن ظهر قلب.
فسألت مارغريت وقد التصقت بحبيبها وراحت تمسح الدم من على الصدغ المشجوج:
- لكنّك لن تنسى ولا كلمة، لن تنسى ولا كلمة واحدة منها؟!.
- لا تقلقي. الآن لم أعد أنسى شيئاً أبداً.
وهتف عزرائيل:
- النار، النار! النار التي كانت في البدء ومنذ البدء، والتي أتينا منها، وإليها نعود!..
وأطلقت مارغريت صرخة مرعبة هاتفة: النار! النار.
واصطفقت درفات نافذة القبو، وأوقع الهواء الستارة. وزمجرت السماء بفرح لفترة قصيرة، ودسّ عزرائيل يده ذات الأظافر الطويلة في الموقد وأخرج جذوة متّقدة وأشعل السماط على الطاولة. ثمّ أشعل رزمة من الجرائد القديمة كانت ملقاة على الديوان، ثمّ عاد بعد ذلك وأشعل ستائر النافذة. أمّا المعلّم، وقد أسكرته هذه الوثبة الجديدة في المجهول، فرمى كتاباً من على الرفّ وفتحه فوق الغطاء المشتعل، فراحت ألسنة النيران تلتهم صفحات الكتاب بفرح عجيب.
وهتفت مارغريت:
- احترقي احترقي أيتها الحياة السابقة! احترق يا عذاب!.
وتماوجت أعمدة النيران الأرجوانية في الغرفة. ومن الباب صعد الثلاثة مع أعمدة الدخان، وارتقوا الدرج الحجري ووصلوا إلى الحوش. ووقعت أنظارهم على الطاهية -

خادمة صاحب البيت. كانت تجلس على الأرض وقد تدحرجت حولها رؤوس البطاطا ورزمات البصل. لا بدّ أنّها منهمكة في عملها اليومي. وكانت ثلاثة أحصنة سود تشخر أمام أحد الاهراءات، وتضرب بحوافرها الأرض فتفجّر من أعماقها نوافير الماء.

وسبقت مارغريت رفيقيها واعتلت متن الحصان الأوّل. ثمّ امتطى عزرائيل الحصان الثاني، وأخيراً حذا المعلّم حذوهما. وركب المطيّة الثالثة.

الطاهية وقد شرعت تولول أرادت أن ترفع يدها لترسم إشارة الصليب على صدرها، غير أن عزرائيل صرخ مهدّداً من فوق مطيّته:

- إن فعلتِ!.. بترت يدك!..

وصفّر عزرائيل وانطلقت الأحصنة وتكسّرت أغصان شجرة الزيزفون.. وشبّت المطايا ثمّ تكتّلت مشكّلة سحابة سوداء تمخر عباب السماء على علوٍّ منخفض. وتصاعد الدخان من نافذة القبو. وارتفع صراخ الخادمة من تحت وهي تستغيث بصوت ضعيف واهن:

- أنجدونا!.. إنّنا نحترق!..

في غضون ذلك، كانت المطايا تسبح في السماء فوق سطوح موسكو.

وهتف المعلّم مخاطباً عزرائيل الذي كان يسبح في المقدّمة:

- أريد أن أودّع المدينة.

والتهم الرعد القاصف كلمات المعلّم الأخيرة. وأومأ عزرائيل برأسه، وأفلت لحصانه العنان فعدا خبباً. واقتربت ديمة إلى لقاء السابحين في محيط السماء؛ ديمة واعدة بالمطر. رأوا وهم يحلّقون فوق البولفار أطياف الناس وهي تتراكض هرباً من المطر. وهطلت القطرات الأولى. وطاروا فوق الدخان المتصاعد. الدخان: البقية الباقية من بيت غريبايبدف. وقطعوا سماء المدينة المتسربلة بالظلام الدامس، ومن فوقهم كانت تومض البروق. وبعد ذلك اكتست سطوح البيوت بالأخضر. وبدأت الأمطار تهطل وحوّلت الطائرين في السماء إلى فقاقيع هائلة تتحرّك بين قطرات الماء.

كانت مارغريت قد عاشت تجربة الطيران من قبل وتذوّقت مشاعرها، أمّا المعلّم فما عرف مثل تلك المشاعر، لذلك تراه في دهشة وتعجُّب شديدين من سرعة الوصول إلى الهدف. وها هو الآن أمام من أراد أن يودّع.. أجل إنّه يقف وجهاً لوجه أمام الصديق الوحيد الذي لم يشأ أن يفارقه دون وداع. لقد تعرّف فوراً إلى عيادة الدكتور ستراڤنسكي، وإلى النهر والغاب على الضفّة المقابلة، الغاب الذي عايشه طويلاً، تعرّف إليه من جديد في غمرة الأمطار الهاطلة.

وهبطوا في أجمة قرب العيادة.

وصاح عزرائيل وقد شبك يديه أمام صدره:

ـ سأنتظركما هنا، ودّعا وعودا سريعاً. وكان يستضيء حيناً بأنوار البرق وأحياناً يتوارى في بساط من سحب رمادية اللون.

ونزل المعلّم ومارغريت من فوق المطايا، وكظلال العفاريت عبرا حديقة العيادة. وبعد لحظة واحدة وبيدٍ اعتادت على عملها آليّا أزاح المعلّم باب شرفة الغرفة رقم ١١٧. أمّا مارغريت فاقتفت أثره. ودخلا غرفة إيڤان دون أن تراهما عين إنسان. وفي الخارج كان الرعد يقصف والعاصفة تزمجر. وقف المعلّم بازاء السرير، وكان إيڤان ممدّداً بلا حراك كما كان في حالته الأولى حينما راقب العاصفة في فترة استجمامه في المصحّ. لكنّه لم يكن يبكي كما في المرّة السابقة. وما أن تأمّل مليّا الشبح القاتم الداخل من الشرفة حتى نهض ومدّ يده وقال بفرح:

ـ آه! هذا أنت... لقد انتظرتك طويلاً. لقد انتظرتك أيها الجار العزيز.

وأجابه المعلّم:

ـ هذا أنا، أجل أنا.. لكن لشديد الأسف لن يكون بمقدوري أن أبقى جارك بعد اليوم. إنّني مفارقك فراقاً أبدياً وما أتيت إلاّ لأودّعك.

فردّ إيڤان بصوت خافت:

ـ حزرت هذا، حزرت. وسأل:

ـ لقيته؟

فقال المعلّم:

ـ نعم. وأتيت لأودّعك لأنّك كنت الإنسان الوحيد الذي تحدّثت معه في الأيام الأخيرة.

فأشرق وجه إيڤانوشكا وقال:

ـ حسناً فعلت بمجيئك إلى هنا. إنّني باقٍ على العهد ولن أنكث بالوعد الذي قطعته على نفسي، فإنّني لن أكتب الأشعار بعد اليوم، إنّما تثير اهتمامي مسألة أخرى. وابتسم إيڤانوشكا وبعينين حائرتين راح ينظر في البعيد، وأكمل: أريد أن أكتب غير تلك الأشعار. تعلّمت الكثير خلال مكوثي في هذا المكان.

واضطّرب المعلّم لدى سماعه هذه الكلمات وشرع يتمتم بعد أن جلس على حافّة سرير إيڤانوشكا:

ـ حسناً حسناً... ستكمل كتابة الرواية عنه.

ولمعت عينا إيڤانوشكا وأجاب:

ـ وأنت ألن تكمل روايتك عنه؟. ونكّس رأسه وأضاف مفكّراً:

ـ ويل لي على هذا السؤال. وأطرق إيفان وراح ينظر خائفاً هلعاً.

ـ نعم ـ قال المعلّم بصوت أجشّ غريب النبرات. ـ لن أكتب عنه سأنشغل بمسائل أخرى.

وطغى صفير آتٍ من بعيد على هدير العاصفة.

وسأل المعلّم:

ـ هل تسمع؟

ـ هدير العاصفة؟

ـ لا إنّه ليس بهدير عواصف.. إنّه نداء.. يدعونني إليهم، والساعة أزفت. ـ قال المعلّم موضحاً ونهض من على السرير.

ورجاه إيڤان:

ـ كلمة واحدة! قف! أريد أن أسألك هل لقيتها؟ وهل بقيت وفيّة لعهدك؟.

ـ ها هي... أجاب المعلّم وأشار بيده نحو الحائط الأبيض، وقد ظهرت منه مارغريت القاتمة واقتربت من السرير، وتأمّلت الشاب، الطريح الفراش، وفي عينيها قُرِئت سطور ألم وتفجُّع. وانحنت فوق السرير وهمست:

ـ مسكين!... مسكين!...

ـ ما أجملكِ!...

لفظ إيڤان كلمته ملتاعاً غابطاً لا حاسداً. لفظها برقّة ممزوجة بالعاطفة. وأكمل:

ـ هنيئاً لك: حلوة عاقبة أيامك المريرة... أمّا أنا فمصيري يختلف.. وصمت قليلاً وفكّر متأمّلاً؛ ومن يدري ربّما ستكون عاقبتي أيضاً حلوة.

ـ ستكون عاقبتك حلوة.. بالتأكيد. ـ همست مارغريت وانحنت أكثر فوق المريض ـ ها إنّني أقبّلك في جبينك. ستحلو أيامك المريرة وتتبدّل. صدّقني لأنّني رأيت كلّ شيء وأصبحت بكلّ شيء عليمة.

وطوّق الشاب المريض عنق مخاطبته بساعديه وقبّلته مارغريت.

ـ وداعاً يا تلميذي البار. ـ قال المعلّم بصوت خافت وجعل يذوب في الهواء. واختفى واختفت مارغريت معه وأقفِلَ وراءهما باب الشرفة.

واضطّرب إيڤان، فجلس في سريره وراح يتأمّل حوله جزعاً واستبدّ به القلق. فأخذ يئنّ ويتحدّث مع نفسه. ثمّ عاد ونهض. واشتدّت العاصفة واشتدّ معها قلقه. وتعاظم جزعه لمّا سمع وراء الباب وقع خطوات حذرة وأصوات مبحوحة. ولا سيّما أنّه اعتاد على الصمت الدائم، فنادى بعصبية وهو يرتجف:

ـ پراسكوڤيا فيدوروڤنا!.

وكانت هذه داخل غرفته تتأمّله جزعة وسألته مستوضحة:

ـ ماذا ؟ ماذا حدث ؟ أتكون قد أخافتك العاصفة ؟ لكن لا بأس عليك ، سنساعدك الآن وسأرسل وراء الطبيب .

وردَ إيڤانوشكا :

ـ لا يا پراسكوڤيا فيدوروڤنا . لا ضرورة لأن ترسلي وراء الطبيب ، إنَّني معافى . لا تخافي عليّ . ومن الأفضل أن تخبريني ماذا حدث الآن في الجوار . في الغرفة رقم مئة وثماني عشرة .

أعادت پراسكوڤيا فيدوروڤنا السؤال مجدَّداً : في الغرفة رقم مئة وثماني عشرة ؟ ! وسرحت بناظريها قبل أن تجيب : لم يحدث أمراً ذا بال . لكن نبرات صوتها كانت كاذبة . وأدرك إيڤانوشكا هذا في الحال ، فردَّ عليها :

ـ پراسكوڤيا فيدوروڤنا ! أنت إنسان لا تتكلَّمين إلاَّ الصدق ! . أتظنِّين أنَّني أُصبت بمسٍّ أو بجنون ؟ لا يا پراسكوڤيا فيدوروڤنا . الأفضل أن تتكلَّمي بصراحة ، إنَّني أشعر بما يحدث خلف الجدران .

همست الإمرأة حينذاك :

ـ لقد قضى الآن جارك ! . ـ أعلنت هذه الحقيقة ، ثمَّ راحت تنظر إلى إيڤانوشكا خائفة ، وقد غمرها البرق اللامع بأنواره .

لكن إيڤان لم يتأثَّر بما سمع . . واكتفى بأن رفع إصبعه بحركة ذات معنى وقال :

ـ صدّقيني يا پراسكوڤيا فيدوروڤنا إنَّني علمت بهذا . وقضى الآن في المدينة إنسان آخر وإنَّني أعرف من الذي مات . . .

قال إيڤان كلماته هذه وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيّة ومع الابتسامة ارتسمت كلمات : وماتت إمرأة أيضاً .

الفصل الواحد والثلاثون

فوق جبل القبرات

ولّت العاصفة إلى غير رجعة، وملأ قوس قزح السماء، وظلّل بألوانه المدينة كلّها، وراح يشرب من مياه نهر موسكو.

وتراءت ثلاثة أشباح قائمة فوق هضبة على مرتفعٍ يقع بين أجمتين. وامتطى ڤولند وكرڤيوف وبيغموت ثلاثة أحصنة سود، وراحوا يتأمّلون المدينة المنبسطة وراء النهر، وقد تكسّرت أشعّة شمسها وتلألأت في آلاف النوافذ المطلّة على الغرب، وعلى أبراج دير العذارى الملوّنة بلون الخبز المبهّر.

وبدأ يُسمع ضجيج في الهواء. فعزرائيل الذي كان يجرّ وراء ذيل مبذله الأسود صاحبيه المعلّم ومارغريت، هبط بقرب جمع من المراقبين.

وبعد فترة صمت لم تدُم طويلاً، تكلّم ڤولند قائلاً:

ـ سأزعجكما يا معلّم، ومارغريت نيقولايڤنا، وأعتذر منكما مسبقاً، ولا أظنّ أنّكما ستحتجّان عليّ، ولا أراكما نادمين على ما ستفعلانه. ثم توجّه بكلماته إلى المعلّم وقال: ودّع المدينة الآن، فقد أزفت ساعة الرحيل.

قال ڤولند هذا، وأشار بيده التي ألبسها قفّازاً أسود إلى حيث آلاف الشموس تعمل في صهر الزجاج وراء النهر، وإلى حيث يرتفع الضباب والدخان والأبخرة، من المدينة التي أحرقتها الشمس بوهجها طيلة النهار.

وترجّل المعلّم من فوق مطيّته، وترك الجالسين وشأنهم وركض متوجّهاً نحو سفح الهضبة وقد جرّ مبذله الأسود على الأرض وراءه. وشرع يتأمّل المدينة وقد تملّكته كآبة موجعة ما لبثت أن استحالت قلقاً عذباً لذيذاً جاب مفاصل جسده كما يجوب غجري طريد.

ـ «فراق أبدي... وأيم الحقّ مسألة فيها نظر!» ـ همس المعلّم، وراح يلعق شفتيه اليابستين المتشقّقتين، ويصغي إلى خلجات نفسه وما يعتمل في أعماقها. وهُيّء له أنّ الشعور اللذيذ بالقلق تحوّل إلى شعور بالإساءة. وهذا الشعور أيضاً كان عابراً... فقد تلاه شعور باللامبالاة التي تسبق الطمأنينة الأبدية.

وترقّب الفرسان المعلّم صامتين وتأمّلوه، ورأوا كيف كانت صورة طويلة سوداء تومىء

بيديها على حافّة الجرف، حيناً ترفع رأسها كأنّها كانت تحاول إلقاء نظرة على المدينة وتأمّل ما وراء أطرافها، وتنكّس رأسها أحياناً، كأنّها كانت تريد التمعُّن في الأعشاب الذابلة وقد ديست بالأقدام.

وقطع بيغموت حبل الصمت بقوله، وقد أصابه الملل:

ـ هلاّ سمحت لي يا معلّمي بأن أصفّر قبل أن نودّع المدينة وننطلق على متون الخيل؟

فردّ ڤولند:

ـ قد تخيف بصفيرك السيّدة، وعليك أن لا تنسى أنّ ما أتيته من قبائح في يومك هذا يجب أن لا يتكرّر.

وأجابت مارغريت، وكفارسة الهيجاء وضعت يدها على خاصرتها وقد لامس ذيل ردائها الأرض:

ـ إسمح له ليصفّر، تملّكني الحزن والطريق ما زالت طويلة أمامنا. وهذا الحزن طبيعي يا سيّد عند المرء ولو عرف أنّ طريقه تقوده إلى السعادة. دعه يصفّر ولو كنت خائفة من أن تعقب الضحك الدموع. وتفسد حينذاك خططنا كلّها.

وأذن ڤولند لبيغموت بأن يصفّر، فإذا بالأخير ينتعش، ويقفز على الأرض من فوق السرج، ويضع أصابعه في فمه، فتنتفخ أوداجه، ويُطلق صفيره.

وتناهت إلى مسامع مارغريت ضجّة، فشبَّ تحتها الحصان، وتكسّرت الأعواد اليابسة والأشجار في الحرج، وطارت أسراب الغربان وعصافير الدوري. وزعق الغبار، واقتربت أعمدته من النهر. وطارت القبّعات من على رؤوس المسافرين في الأوتوبيس النهري لدى مروره من أمام المرسى وسقطت في الماء.

وارتعش المعلّم حينما سمع الصفير، لكنّه لم يلتفت. بل ظلّ يحرّك يديه، وتزايدت مخاوفه ورفع يده نحو السماء.. كأنّه أراد أن يهدّد المدينة بقبضته!..

والتفت بيغموت مُعتزّاً بما فعل، وعلّق كرڤيوف برفق:

ـ صفّرت، لكن إذا ما تحدّثنا بتجرّد وصدق، فصفيرك كان وسط من حيث درجة القوّة.

فردّ بيغموت مزهوّاً وقد تجهّم وجهه:

ـ لا ضير.. فإنّني لم أكن في يوم من أيام حياتي مرتّلاً كنسياً.

أجاب بهذا وغمز فجأة مارغريت.

وقال كرڤيوف بعد أن فرك يديه ونفخ على أصابعه:

ـ دعني أجرّب، علّ ذاكرتي العجوز تسعفني.

وسُمع صوت ڤولند الصارم النبرات من على متن الحصان يقول:

- انتبه ودع عنك العبث المؤذي.

وأجاب كرڤيوڤ وقد وضع يده على قلبه:

- صدّقني يا سيّد، كنت أمزح. كانت مزحة لا صفيراً.

قال هذا وتمدّد فجأة واستطال كأنّه كان إنساناً من مطّاط، واتّخذ من أصابع يده اليمنى شكلاً معقّداً، برمه حتّى صار كاللولب، وعاد ونشره فجأة وصفّر.

ولم تسمع مارغريت الصفير، لكنّها أحسّت به حينما قذفها وحصانها الجامح إلى مسافة عشرة أذرع بعيداً. واقتُلِعت قربها سنديانة مع جذورها، وتفسّخت الأرض وامتلأت بالأخاديد حتّى ضفّة النهر. وانخسفت حافّة النهر وتشقّق الرستوران والمرسى، وشلقا في النهر.

وفارت مياه النهر.. وارتفعت، لافظة الأوتوبيس النهري إلى الضفّة المواجهة الخضراء المنخفضة، ولم يُصب أحد من الركّاب بأذى.. ووصلوا إلى الضفّة بسلام. وقع غراب ميّتاً عند رجلي حصان مارغريت الذي كان يشخر ويلهث.. لقد قتله صفير بيغموت. وخاف المعلّم أيضاً فاعتمد رأسه بين يديه وركض عائداً إلى جماعته الذين كانوا بانتظاره.

وكلّمه ڤولند من فوق متن حصانه:

- صفّيت حساباتك؟.. وتمّ الوداع؟.

- تمّ الوداع..

ردّ المعلّم بهاتين الكلمتين وخلد إلى الصمت. وبعد أن سكن واطمأنّ راح يوجّه إلى وجه ڤولند نظراته الصريحة والشجاعة التي عُرِف بها. وحينذاك بوّق صوت ڤولند الرهيب ولعلع فوق الجبال:

- أزفت الساعة.

وامتزج الصوت بصفير بيغموت الحادّ وقهقهته.

وانطلقت الخيل راحلة مع فرسانها.

وشعرت مارغريت بحصانها الجامح وهو يمصّ ويلعق اللجام، وارتفع مبذل ڤولند مرفرفاً فوق رؤوس الفرسان وبدأ يحجب عن أعينهم قبّة السماء المسائية.

وحينما انزاح الستار الأسود لحظة واحدة، التفتت مارغريت من فوق المطيّة، فلم ترَ الأبراج المختلفة الألوان ولا الطائرة السابحة فوقها، والمدينة ذاتها.. توارت عن العيان واندثرت في التراب مخلّفة وراءها ضباباً وضباباً فقط.

الفصل الثاني والثلاثون

المغفرة والملاذ الأبدي

إيه أيتها الآلهة!... إيه آلهتي!، كم هي حزينة هذه الأرض سويعات المساء، وكيف تملأ الخفايا والأسرار ضباب مستنقعاتها. ومن طار فوق الأرض وقد أثقلت كاهله الأعباء، وتجرَّع كؤوس العذاب قبل الموت حتَّى الثمالة يعرف كنه تلك الأسرار والأحزان... ويعرفها المتعب المعنّى. بذاك يفارق ضباب الأرض ومستنقعاتها وأنهارها غير آسف. وينتظر الموت، وبكلّ محبّة وبقلب فرح يسلِّمه نفسه، وهو العارف الميقن إنَّما في الموت وفي الموت وحده الطمأنينة.

أنهكت الأحصنة السحرية السوداء وهي تركض على مهل، حاملة فرسانها، والليل يطاردها. وحتَّى بيغموت اللجوج الضجوج هدأت ثائرته وقد أحسَّ بهبوط الليل خلفه، فأنشب مخالبه بالسرج وطار بجدٍّ وصمت مرخياً ذيله وراءه.

وشرع الليل يسدل إزاره الأسود، ويحجب الغابات والمروج ويضيء في البعيد النيران الصغيرة الحزينة، التي لم تعد تثير اهتمام المعلِّم ولا مارغريت، ولم يعد ثمّة حاجة لأحد إليها.

وأدرك الليل الركب، واستراح على ظهور الفرسان، وراح ينثر هنا وهناك في السماء الحزينة بقعاً من أنجم بيضاء.

وادلهمَّت الظلمة، مرافقة الركب جنباً إلى جنب، أمسكت بالعدَّائين بمباذلهم من خلف، ونزعتها عن أكتافهم، ففضحت الغش.

وحينما لفح نسيم بارد مارغريت في وجهها فتحت آنذاك عينيها، ورأت كيف تتغيَّر ملامح الطائرين القاصدين أهدافهم. وما أن طلع البدر الأرجواني لملاقاتهم من طرف الغابة حتَّى زال الزيف واختفى في المستنقع وتلاشت في الضباب الثياب السحرية الزائفة واندثرت تماماً.

الآن لا يكاد المرء يعرف كرڤيوف ـ فاغوت، ذاك الذي مُنح مهمّة مترجم عند مستشار ملفَّع بالأسرار لا يحتاج إلى مترجمين ولا إلى ترجمة.

نعم لا يكاد يُعرف كرڤيوف ذاك في هذا الشخص الطائر جنباً إلى جنب مع ڤولند عن يمين حبيبة المعلِّم.

أجل، فبدلاً من ذاك الذي غادر جبال القبّرات في الأسهال السركيّة والمسمّي نفسه كرڤيوڤ فاغوت، يعدو الآن فارساً بنفسجيّ اللون قاتمه، ووجهه متجهّم كأنَّ بينه وبين الابتسامة عداء قديم؛ يعدو وبين يديه تجلجل بهدوء سلسلة اللجام الذهبية. اكتفى بأن أسند ذقنه إلى صدره، وما نظر إلى القمر، ولا الأرض تحت قدميه أثارت اهتمامه.. بل راح يفكّر بأموره الخاصّة، وهو يطير قرب ڤولند.

وسألت مارغريت ڤولند بهدوء وهي تصغي إلى عويل الرياح:

ـ ما الذي غيَّره؟

وردّ ڤولند وهو يُدير نحو مارغريت وجهه ذا العينين المتَّقدتين بنور هادىء:

ـ لقد مزح هذا الفارس ولم يوفَّق في مزاحه. والكلمات التي جادت مخيلته بها وهو يتحدّث عن الظلمة والنور لم تكن صحيحة وجيّدة. كانت كلمات مزدوجة المعنى، فاضطرّ الفارس لأن يمزح فترة أطول ممّا قدّر. لكن ليلتنا هذه ليلة تصفية الحسابات، وقد دفع الفارس ديونه وأبرأ ذمّته!.

وبَتَرَ الليل ذنب بيغموت الموبر، سلخ عنه الحرير، ونثره مزقاً مزقاً في المستنقعات. وذاك الذي كان قطّاً فيما مضى، ونديم أمير الظلمات، أنظر، تراه الآن شابًّا نحيلاً وإبليساً وصيفاً من الأبالسة، ومهرّجاً ماهراً لن يعرف العالم أفضل منه. هدأ هذا الإبليس الآن أيضاً.. يطير وقد عرَّض وجهه الوسيم إلى ضوء القمر. وبجانبهم طار عزرائيل وهو يتألّق سناءً بدرعه الفولاذية. وقد غيَّر ضوء القمر ملامحه أيضاً، فاختفى الناب الكريه الأخرق دون رجعة، وما كان أعور، فالعين العوراء كانت سليمة إنَّما لأمر ما زيَّفها. فعيناه الاثنتان كانتا صحيحتين سوداوين، فارغتي النظرات، ووجهه كان بارداً أبيض.

أجل يطير عزرائيل الآن مُتَّخذاً شكله الحقيقي، يطير كأحد أبالسة الصحراء القاحلة.. يا للمجرم السفّاك!.

ولم يكن بمقدرة مارغريت أن ترى نفسها، لكنَّها رأت بوضوح كيف تغيَّر المعلّم، فقد ابيضّ شعر رأسه في ضوء القمر وتجمَّع ضفيرة كانت تتطاير في النسيم.

وحينما هبّ النسيم، وحرّك المبذل من فوق قدمي المعلّم رأت مارغريت على جزمته السوقاء مهمازاً من الأنجم كان يخبو حيناً ليعود ويتألّق حيناً آخر.

كان المعلّم يطير مثله مثل إبليس الفتيّ، وقد ثبَّت نظراته على القمر وراح يبتسم له وكأنّه كان صديقاً عزيزاً أو حبيباً غالياً، وكان يغمغم بكلمات ما حسبما تعوَّد عليه في الغرفة رقم ١١٨.

وكان ڤولند يطير أخيراً وقد بدا في ملامحه الحقيقية، وما كان بمكنة مارغريت أن تؤكِّد من أيّ شيء صُنع لجام حصانه؛ وفكَّرت في نفسها من يعلم لعلَّ هذه السلاسل القمرية

وحتَّى الحصان ذاته قطعاً من الظلمة، ولعلَّ ذؤابة الحصان سحابة... والمهاز ليس سوى بقع من النجوم البيض.

وأكملوا طيرانهم صامتين حتَّى صرت تحسب الأمكنة من تحتهم ثابتة. وغرقت الغابات الحزينة في ظلام الأرض وجذبت وراءها تعرُّجات الأنهار الباهتة. وبدأت تظهر تحتهم الجلاميد تلمع وقد اسودَّت بينها الأغوار التي لم يخترقها ضوء القمر.

وأوقف ڤولند حصانه على هضبة كالحة، منبسطة كثيرة الحجارة، وحينذاك أسرع الفرسان في عدوهم وهم يصغون إلى ضجّة حوافر خيلهم وهي تطأ الرمال والحجارة. وغمر القمر الساحة بضوء ساطع أخضر.

وميَّزت مارغريت في هذه الأرض الصحراوية مقعداً وشبح إنسان يجلس فيه. وكان الجالس أحد اثنين إمَّا أصمًّا وإمَّا غارقاً في بحرٍ من التفكير، وذلك لأنَّه لم يسمع ضجيج زلزلة الأرض وهي تميد تحت حوافر الخيل. ودنا الفرسان منه دون أن يُسبِّبوا له أيّ إزعاج.

وساعد ضوء القمر الذي ازداد سطوعه فصار أشدّ سطوعاً من نور المصباح الكهربائي، ساعد مارغريت كثيراً، فرأت الآن كيف كان الجالس الذي بدا أعمى يفرك يديه بنشاط. وكانت عيناه المغلقتين تحدِّقان بثبات في قرص القمر، وبالقرب من المقعد الحجري الثقيل الذي كانت تتكسَّر عليه شرارات من ضوء القمر، جثم كلب ضخم، مرهف السمع، قاتم اللون، وكان كصاحبه ينظر قلقاً إلى القمر.

وتناثرت أمام قدمي الجالس أجزاء دورق محطَّم، وانبسط مرج أحمر اللون ممزوج بالسواد، ولمَّا تذبل أعشابه بعد.

وأوقف الفرسان أحصنتهم. وقال ڤولند موجِّهاً حديثه إلى المعلِّم:

ـ روايتك قُرِئت. لكنَّهم قالوا إنَّها للأسف بلا خاتمة. وأردت أن أُريك بطلك. إنَّه منذ حوالي الألفي سنة يجلس في هذه الساحة، يجلس غافياً، لكن ما أن يطلع البدر حتّى يبدأ الأرق يمزِّقه، كما ترى، ولا يعذِّبه السهاد وحده بل ويعذِّب رفيقه وحاميه الأمين: كلبه. وإذا كان حقًّا ما يقولون: إنَّ الجُبن هو أفظع وأثقل الأوزار، فإنَّ الكلب، حسبما أعتقد، بريء من ذلك الوزر. العاصفة هي الشيء الوحيد الذي يخافه الكلب. ما أقوله هو أنَّه ينبغي على المحبّ أن يشارك حبيبه آلامه وأفراحه.

وسألت مارغريت وقد غطَّت وجهها الهادىء سحابة من شفقة:

ـ وماذا يقول:

فردَّ ڤولند قائلاً:

ـ إنَّه يردِّد نفس الكلمات.. يقول إنَّ الطمأنينة لا تعرف سبيلاً إلى قلبه تحت القمر،

وإنَّ منصبه كان منصباً تعساً جرَّ الوبال عليه. إنَّه يردِّد هذا في كلِّ الأوقات، في ساعات الغفوة وفي ساعات اليقظة، ويرى الأشياء ذاتها. يرى طريقاً قمرية فيهمّ بسلوكها رغبة بالتحدُّث مع السجين يسوع الناصري، لأنَّه حسبما يؤكِّد، لم يكمل حديثه معه حينذاك في الرابع عشر من نيسان.. في ربيع ذلك العام... لكن.. والوعتاه! إنَّني لا أعرف ماذا يعيقه عن المشي على تلك الطريق؟.. ولا يهبّ أحد لمساعدته، فتراه والحالة هذه مضطَراً إلى التحدُّث مع نفسه، وصفوة القول إنَّ الأمر يحتاج بعض الأحيان إلى بعض التنوُّع والتغيُّر. فغالباً ما يضيف إلى كلماته عن القمر كلمات أخرى مثل: إنَّه أشدّ ما يكره خلوده ومجده الذائع، ويؤكِّد أنَّه لا يتورَّع عن مقايضة حياته ونصيبه منها وقدره بحياة وقدر المشرّد، المرتدي الأطمار، ليڤي ماتڤي.

وسألت مارغريت:

ـ اثنا عشر ألف قمر بقمر واحد في دورة واحدة من دوران الزمن القديم؟ أليس هذا ظلماً؟

وأجابها ڤولند:

ـ أتتكرَّر قصة فريدا؟ لا تتدخَّلي في هذه المسألة يا مارغريت ولا تقلقي. كلّ شيء سيسير في مساره الصحيح، وحسبما يُراد. سُنَّة في الكون وناموس.. وبهذا الناموس تستمرّ الحياة.

ـ أطلقه! أعطه حريّته! ـ هتفت مارغريت فجأة وبحدّة، كما سبق لها وهتفت حينما كانت ساحرة. وبسبب صراخها انهارت صخرة وتدحرجت وسقطت في الهاوية السحيقة، فدوى صوت كقصف الرعد.

ولم تستطع مارغريت أن تؤكِّد إذا ما كان الدويّ كان نتيجة سقوط الحجر، أم أنَّه كان صدى الضحك الشيطاني؟. مهما يكن من أمر فقد ضحك ڤولند والتفت إلى مارغريت وقال:

ـ ليس ثمّة داعٍ للصراخ في الجبال، فإنَّه لن يسمع وقد اعتاد على أصوات الانهيارات، ولن يقلقه صراخك. لا تتشفَّعي له يا مارغريت.. فقد تشفَّع به ذاك الذي يسعى هادفاً إلى مخاطبته. نعم، تشفَّع له الناصري.

وتوجَّه ڤولند من جديد إلى المعلِّم مخاطباً:

ـ وماذا بعد! يمكنك الآن أن تنهي روايتك بجملة واحدة!.

وكأنَّ المعلِّم كان ينتظر مثل هذه الكلمات، وقد كان يقف مسمَّراً في مكانه وينظر إلى الوالي الجالس. فشبك يديه أمام فمه وهتف مُبوِّقاً بحيث أنَّ الجبال الصلعاء الخالية ردَّدت صدى هتافه:

ـ حُرٌّ طليق! طليق!. إنَّه ينتظرك!.

وحوَّلت الجبال صوت المعلِّم إلى رعود، دكَّت الجبال دكًّا، وسقطت الجدران الحجرية المشؤومة، وبقيت المساحة الصغيرة بقدر المقعد الحجري. وفي جوف الهاوية السحيقة السوداء التي التهمت الجدران، اشتعلت مدينة فسيحة الأرجاء بأصنامها الساطعة المرتفعة في حديقة غنَّاء، تشابكت أغصانها ونمت أغراسها على مرور الأعوام وطلوع وغياب آلاف الأقمار. وامتدَّت إلى هذه الحديقة من القمر الطريق التي انتظرها الوالي طويلاً، فانطلق الكلب المرهف السمع يمشي عليها أوَّلاً. أمَّا الرجل، صاحب الرداء الأبيض ذي البطانة الحمراء بلون الدم فقد نهض من المقعد، وهتف بصوت أبحّ متقطِّع النبرات، وتلفَّظ ببعض الكلمات. كان من الصعب على المرء أن يحدِّد أكان الرجل يبكي أم يضحك، وماذا كانت كلماته تعني. لكنَّه شوهد بوضوح وهو يركض ساعياً مقتفياً آثار حاميه الأمين على الطريق القمرية.

وسأل المعلِّم مضطّرباً وقد لمس اللجام:

ـ أتكون الطريق هي ذاتها طريقي فأتبعه إلى هناك؟

فأجاب ڤولند:

ـ لا... لماذا تقتفي أثر إنسان انتهى؟

ـ هل هذا يعني أنَّنا متوجِّهون إلى هناك؟ ـ سأل المعلِّم والتفت إلى الوراء مشيراً إلى حيث بنيت خلفهم المدينة المهجورة بأبراج أديرتها المصبوغة بلون الخبز المبهّر وشمسها ذات الشعاع المكسَّر على واجهات النوافذ الزجاجية:

ـ ومرّة أخرى لا...، ردَّ ڤولند وقد تكثَّف صوته وانساب فوق الصخور وأكمل: لا أيها المعلِّم الرومانسي. لقد قرأ روايتك ذاك الذي يتعطَّش بطل الرواية لرؤيته. لقد قرأ روايتك ذاك الذي يتعطَّش لرؤيته، البطل الذي حرَّرته أنت الآن...

ووجَّه ڤولند كلماته مخاطباً مارغريت:

ـ وأنت يا مارغريت نيقولايڤنا أصدقك القول إنَّه لا يسعنا إلاَّ أن نكبر فيك صدقك وسعيك أمام المعلِّم من أجل غدٍ أفضل. لكن الحقّ الحقّ أقول وما أعرضه عليكم الآن، وما فعله يسوع من أجلكما هو الأفضل.

ـ لندع الاثنين ـ قال ڤولند وقد مال من فوق سرجه مقترباً من المعلِّم، وأكمل وهو يشير نحو الوالي المنصرف: سندعهما ولن نضايقهما من يعلم لعلَّهما يتوصَّلان إلى اتِّفاق ما وعمَّا قريب.

وأشار ڤولند بيده نحو أورشليم المشتعلة.. فانطفأ اللهيب.

ثمّ عاد وأشار بيده إلى الخلف وقال:

ـ وهناك أيضاً ماذا ستراكم فاعلين في القبو؟ ـ وهنا خمد شعاع الشمس المتكسّر على الزجاج، ـ وأردف بلهجة ترشح بالليونة والإقناع: ولماذا يجب عليكما أن تقيما هناك أيها المعلّم الرومانسي مثنى وثلاثاً، أم أنّك لا ترغب بالنزهة مع صديقتك في ضوء النهار تحت ظلال أشجار الكرز التي بدأت تزهر، وسماع ألحان موسيقى شوبرت؟ أم أنّك لا تودّ أن تفرح وتكتب بريشة إوزّة على ضوء الشموع؟ أم أنّك لا تريد التشبّه بفاوست، والجلوس مثله قرب المِقطرة على أمل النجاح في صنع كائن جديد؟!

إلى هناك، إلى هناك، إلى حيث ينتظرك بيت وخادم عجوز. إلى حيث الشموع مضاءة وهي على وشكٍ أن تنطفىء، لأنَّ موعدكم مع الفجر لقريب!.

هذه طريقك أيها المعلّم! هذه طريقك!.. وداعاً! أزفت ساعتي!.

وردّ المعلّم ومارغريت على ڤولند بصوت واحد هاتفين:

ـ وداعاً!

حينذاك ما كان من ڤولند الأسود إلاّ أن ارتمى في الهاوية السحيقة البعيدة الأغوار، دون أن يلتفت حوله، وتبعته عصابته، وقد أحدث سقوطهم دويًّا عظيماً.

واختفت عن الأعين الصخور والساحة، والطريق القمرية، وكذلك مدينة أورشليم، وزالت الأحصنة السود.

ورأى المعلّم ومارغريت الفجر الموعود، وقد بزغ بعد أفول قمر مُنتصف الليل.

ومشى المعلّم وحبيبته، مشيا في ضوء تباشير الصباح الأولى، عبرا جسراً حجريًّا مغطّى بالطحلب. وقطع الحبيبان الوفيّان الجسر، مخلّفين وراءهما النهر، وتابعا سيرهما على طريق رملية.

وقالت مارغريت مخاطبة المعلّم، وقد سمع حفيف الرمال تحت قدميها العاريتين:

ـ اصغِ إلى الصمت. اسمع واسعد وتنعّم بما لم تُعط في دنياك، تمتّع بما حُرمت منه، بما لم تدركه. تنعّم بالسكينة. وتأمّل هاك أمام ناظريك بيتك الأبدي الذي كوفئت به. ها إنّي أراه من هنا بنافذته المتوّجة وعريشته وقد تفرّعت أغصانها وامتدّت حتّى طالت السقف.

انظر تَرَ بيتك الأبدي. إنّي أعلم أنّه سيقدم لزيارتك من تحبّ ومن تهتمّ به وسيأتي إليك، أولئك الذين لا يضايقونك، سيأتون وسيعزفون وسيغنّون، وسترى بعينك أيّ نور سيضيء عتمة غرفتك حينما تشتعل الشموع. وستغمض عينيك وتغفو، وأنت معتمر القلبق المتّسخ دائماً، ستغفو والابتسامة على شفتيك، وسيشفيك الكرى ويعطيك قوّة، ويزكيك بالحكمة، ولم يعد بإمكانك أن تطردني إذ أنّني سأكون حينذاك حارسة أحلامك.

بهذا تكلّمت مارغريت وهي متوجّهة برفقة حبيبها المعلّم إلى بيتهما الأبدي. وبدا للمعلّم أنّ كلمات حبيبته انسابت كما انسابت مياه الجدول الوسنان الذي خلّفاه وراءهما.

وذاكرة المعلّم القلقة التي وخزتها الإبر بدأت تنسى وتسلو وتخمد. ثمّة من أطلق المعلّم وحرّره.. كما أطلق وحرّر هو بطل روايته منذ قليل.

لقد توارى هذا البطل في الهاوية السحيقة، ذهب دون رجعة، ذهب من غُفِر إثمه في ليلة الأحد. توارى ابن الملك المنجّم، والي اليهودية الخامس القاسي القلب: الفارس بيلاطس البنطي.

الخاتمة

وبالرغم من كلّ ذلك، فماذا حدث في موسكو، بعد أن غادرها ڤولند عند المغيب واختفى وأفراد عصابته من جبال (القبرات)؟. لقد علا الهمس واللغط في كلّ أرجاء العاصمة وسرت شائعات لا تصدّق، ولفترة طويلة، وانتشرت في الضواحي الريفية البعيدة، حكايات وروايات تثير الغثيان وأيم الحقّ وإعادة إخبارها تثير الغثيان أيضاً...

وكاتب هذه الأسطر الصادقة، سمع بأذنيه وهو متوجّه في القطار إلى فيدوسيه، تلك الحكاية الغريبة التي تناقلتها الألسن ومفادها أنَّ ألفي شخص خرجوا من أحد مسارح موسكو عراة ـ ربّي كما خلقتني ـ وانصرفوا في سيّارات الأجرة إلى بيوتهم، على تلك الهيئة.

وتعالى الهمس عن «القوّة الشرّيرة» وسُمِع في كلّ مكان: في الطوابير المصطفّة أمام محلاّت الألبان، وفي التراموايات، وفي المخازن والشقق والمطابخ، وفي قطارات السفر القريب والبعيد، وفي المحطّات، وعند المواقف، وفي الداتشات، وعلى الشطآن.

وغنيّ عن القول إنَّ أفراد الطبقة المثقَّفة المتعلِّمة لم يصدّقوا القصص المتناقلة عن القوّة الشرّيرة التي زارت العاصمة، ولم يأبهوا بها، بل حتّى أنّهم راحوا يضحكون استهزاءً من مروِّجيها، وعملوا على توعيتهم وشرح بطلان دعواهم. لكن كما يُقال: ليس بالإمكان نكران ما كان... والواقع هو الواقع... وتجاهله من دون شرح أو حجّة مقنعة مسألة غير ممكنة.. ثمّة حدث ما في العاصمة، وثمّة من زارها.. الزوايا وحدها المتبقية من بيت غريباييدف تشهد بذلك، وثمّة أشياء أخرى تؤكّد وتثبت بالبرهان الساطع أنَّ غرباءً زاروا العاصمة.

وأخذ المثقَّفون برأي هيئة المباحث القائلة: إنَّ عصابة من المنوِّمين المغناطيسيين والبطنيين عملت في العاصمة، وقد أتقن أفرادها أداء فنِّهم بمهارة.

واتخذت إجراءات في موسكو وفي الضواحي البعيدة لإلقاء القبض على أفراد العصابة، اجراءات حازمة صارمة مشدَّدة وسريعة، لكن للأسف الشديد لم تُعطِ أيّة نتيجة. فذاك الذي سمَّى نفسه ڤولند، اختفى ولم يعد إلى موسكو، ولم يعد يُظهر نفسه بأيّ عمل يدلّ عليه. الافتراض الوحيد المقبول هو أنّه فرَّ إلى الخارج. وهناك اختفت آثاره أيضاً.

التحقيق في قضية ڤولند استمرَّ طويلاً، وكيف لا، والخوارق ليست حدثاً يوميًّا اعتيادياً! احترق بسببه أربعة بيوت، ومئات الأشخاص فقدوا عقولهم. ليس هذا وحسب بل إنَّ ثمّة قتلى. وهل نتحدَّث عن الضحيتين: برليوز والموظَّف التعس الحظ.. الدليل في مفوضية السياحة الذي كانت مهمته تعريف الأجانب على معالم موسكو، عنيت به البارون السابق: مايغل... وقد عثروا على عظامه محترقة، في الشقّة رقم ٥٠ في شارع السادوڤايا، بعد إطفاء الحريق فيها. نعم لقد سقط ضحايا في قضية ڤولند، وكان لا بدّ من إجراء التحقيقات اللازمة.

ووقعت ضحايا حتَّى بعد أن غادر ڤولند وصحبه العاصمة. ضحايا من القطط السوداء، وهذا ما يحزن القلب حقًّا. حوالي المئة من تلك الحيوانات المسالمة الوفيّة للإنسان قُتِلت بالرصاص أو بطرق أخرى وفي أماكن مختلفة من البلاد. فقد أُحضر أكثر من خمسة عشر قطًّا إلى مخافر الشرطة في مختلف المدن وهي مشوَّهة مقيَّدة القوائم.

ففي مدينة أرماڤير مثلاً: أحضر مواطن إلى المخفر قطًّا بريئاً وقد كُبِّلت قائمتاه الأماميتان.

لقد راقب المواطن القطّ المسكين في اللحظة التي كان منتحلاً فيها شخصية السارق المختلس!. ويحَ قلبي ليس باستطاعة جماعة الهررة عمل شيء إذا كانت لها هيئة المختلسين.. وليست هيئتها كذلك لأنَّها لئيمة ماكرة، بل لأنَّها تخاف من الكائنات الأقوى مثل الكلاب والناس من أن تنقضّ عليها وتُلحق بها الأذى، والإضرار بالآخرين ليس بالعمل الصعب، لكنَّه ليس بالعمل الشريف على كلّ حال، إي وأيم الحقّ إنَّ إلحاق الأذى بالآخرين ليس عملاً شريفاً!.

نعود إلى القطّ المسكين الذي رأوه متربِّصاً يريد الانقضاض على نبتة (راعي الحمام)، فقد انقضَّ المواطن على الحيوان المسكين، ونزع ربطة عنقه ليوثقه بها، وغمغم مهدِّداً متوعِّداً بلهجة لاذعة:

ـ آه!... هذا يعني أنَّ السيّد المنوِّم شرَّف بحضوره مدينة أرماڤير؟.. لكنّنا هنا لا نخافك.. لا تكذب وتعمل نفسك أخرس.. أصبحنا نعرفك يا فرخ الإوزّ اللعين!.

وأحضر القطّ المسكين إلى المخفر مجروراً... فبعد أن أوثق المواطن قائمتيه الأماميتين بربطة عنقه الخضراء اللون، راح يجرّه بها، ومن حين لآخر كان يرفسه بركلات خفيفة على بطنه ليجبره على المشي على قائمتيه الخلفيتين.

والمواطن وقد رافقه أولاد راحوا يطلقون الصفير، كان ينهر القط صائحاً:

ـ هذا أنت.. أنت. لا تتحامق! حيلك لن تمرّ! امشِ من فضلك كما يمشي الجميع!.

وكان القطّ المسكين يطوِّف بعينيه المعذبتين، اللتين كانتا تشبهان عيني الشهيد وهو

العاجز عن الدفاع عن نفسه، وقد حرمته الطبيعة نعمة النطق.

القط المسكين مدين بحياته للشرطة ومن ثمّ لصاحبته، الأرملة العجوز المبجّلة. فما أن وُضِع (الموقوف) في حجرة منفردة، حتّى تأكّد لأفراد الشرطة من أنَّ رائحة السبيرتو تفوح بشدّة من المواطن، وإذ ذاك شكّكوا بأدلّته.

في غضون ذلك، كانت العجوز قد عرفت من الجيران بخبر قطّها المسكين، وكيف أنَّهم ألقوا القبض عليه، فهرعت إلى المخفر، وكان مجيئها في حينه. لقد شرحت وعرفت عن الهرّ بأحسن تعريف، وأوضحت أنَّها تعرفه منذ أكثر من خمس سنوات، أي منذ كان صغيراً وأنّها تكفله، وأكّدت لهم أنّه لم يأتِ عملاً عاطلاً في حياته، ولم يسافر إلى موسكو أبداً، وُلِد وترعرع وتعلَّم صيد الفئران في أرماڤير.

وحُلّ وثاق القط وأعيد إلى صاحبته بعد أن شرب من كأس العذاب، وعرف حقّ المعرفة ماذا تكلِّف الأغلاط والنمائم.

وعدا عن القطط فثمّة شدائد ومكاره بسيطة أصابت بعض الناس. حدثت اعتقالات عديدة. في عداد الموقوفين مؤقّتاً في لينينغراد كان: المواطنان ڤولمن، وڤولپر. وفي مدن ساراتوف، وكييف، وخاركوف، أوقف ثلاثة مواطنين كانت أسماء عائلاتهم: ڤولودين. وفي مدينة قازان: أوقف المواطن ڤولوخ. وفي مدينة بنزة، ولسبب مجهول، أوقف الدكتور في العلوم الكيميائية: ڤتشنيكيڤتش... وما يجدر ذكره أنَّ هذا الأخير كان طويل القامة، أسمر، أسود شعر الرأس.

وفُقد أثر تسعة مواطنين من عائلة كروڤين. وأربعة من عائلة كروڤكين، واثنان من عائلة (كاراڤاييف)، فُقِدوا في أماكن مختلفة من البلاد.

وفي محطّة بلغوراد: أُوقف أحد المواطنين في قطار سڤاستبول، وأوثقت يداه لأنّه أحبَّ أن يرفّه عن المسافرين ويسلّيهم بأعمال خفّة، بورق اللعب.

وفي مدينة يارسلاڤيا، في فترة الغداء، حضر إلى الرستوران مواطن وهو يحمل (بريموس) أخذه لتوّه من التصليح. وما أن رآه الحاجبان اللذان كانا يقفان عند الباب حتى تركا مكانيهما وانطلقا يركضان. وتبعهما الزبائن جميعاً والنُدل. ولم يُعرف كيف أضاعت عاملة الصندوق كلّ المدخول.

وحدثت أمور كثيرة من الصعب على المرء أن يتذكَّرها كلّها..

حدث تذمُّر واستياء عامان.

ومرَّة أخرى يجب أن ننصف لجنة التحقيق. لقد أُجريت التحقيقات لا ليلقى القبض على المجرمين بل لتوضيح وشرح أعمالهم.. وقد توضَّح كلّ شيء وما بوسعنا إلاَّ أن نعترف بأنَّ التفسيرات كانت واضحة، وبراهينها دامغة لا تدحض.

لقد أثبت رجال التحقيق وعلماء النفس المحنَّكون: أنَّ أفراد العصابة المجرمة، أو أحد أفرادها (وقعت الشكوك على كرڤيوڤ)، امتلكوا قوة غريبة مذهلة وكانوا منوِّمين مغناطيسيين ذوي مقدرات هائلة، وكان بمقدورهم أن يظهروا أنفسهم في مكان آخر غير المكان الذين هم فيه حقًا، وفي مواقع وهمية متغيِّرة. وعدا عن ذلك فقد كان باستطاعتهم إيهام المتعاملين معهم بأن يروا أشياءً أو أناساً غير موجودين حقًّا. وبالعكس.

فقد كان بقدرتهم الإيهام بأن يبعدوا من مجال الرؤية أناساً موجودين حقًّا.

في ضوء هذه الشروح، فُهم كل شيء، لكن ما حيَّر الناس هو تلك الظاهرة الغريبة التي بقيت بدون تفسير، ظاهرة القطّ المنيع الذي لم يخترقه الرصاص ولا بأيّ شكل، حينما حاولوا قتله والإمساك به في الشقّة رقم ٥٠.

والحقيقة أنَّه لم يكن ثمّة قطّ فوق الثريّا. ولم يردّ أحد على نار المهاجمين الذين أطلقوا النار على هدف وهمي. ففي الوقت الذي أوهم فيه كرڤيوڤ مطلقي النار بأنَّ القطّ يعربد فوق الثريّا، استطاع التحرُّك بسرعة من وراء ظهورهم، وهو يشيح بوجهه ويتلذَّذ بموهبته الفذّة الزارعة لبذور الشر والجريمة... فهو الذي أشعل النار في الشقّة بعد أن صبَّ على أرضها البترول.

وستيپا ليخاديييف لم يطر إلى يالطا ولم يرها حتَّى، فعمل كهذا لم يكن كرڤيوڤ قادراً عليه، وبرقيات من هناك لم تُرسل. لقد أُغمي عليه في شقّة الصائغ، وقد أخافته ألاعيب كرڤيوڤ، الذي أراه قطًا يأكل الفطر المخلّل بالشوكة، واضطجع في أرض الشقّة. وتهكَّم عليه كرڤيوڤ بما فيه الكفاية، وبعد ذلك ألبسه طاقية من اللبَّاد وأرسله إلى مطار موسكو، وأوهم مسبقاً رئيس المباحث الذي استقبل ستيپا بأنَّ الأخير ينزل من الطائرة القادمة من سڤاستبول. ولكن الحقيقة أنَّ رجال المباحث في يالطا أكَّدوا بصورة لا تقبل الشكّ بأنَّهم عثروا على ستيپا حافي القدمين، وقد أرسلوا بشأنه البرقيات إلى موسكو، ولكنَّهم لم يعثروا ولو على صورة برقية واحدة. ووصلوا إلى استنتاج حزين وهو أنَّ العصابة كانت تملك، قدرة على التنويم على مسافة بعيدة وليس فقط تنويم أشخاص منفردين، بل حتّى جماعات كبيرة من الناس. والحالة كهذه فباستطاعة المجرمين التسلُّط على العقول السليمة والعبث بها.

وما بوسعنا أن نقول عن أمور تافهة وبسيطة مثل: العثور على ورق لعب في جيب أحد النظَّارة في المسرح، واختفاء فساتين السيِّدات، و(البيريه) المؤّاءة وأعمال أخرى كثيرة مثلها.

مثل هذه الألعاب يقوم بها أيّ منوِّم مغناطيسي متوسِّط المهارة، بما فيها تلك اللعبة البريئة: قطع رأس عريف الاحتفالات.

والقطّ الناطق: سخافة أيضاً وكذب بكذب فحتّى يأتي الساحر على الخشبة بقطٍّ ناطق، يكفيه أن يعرف المبادىء الأولية للمتكلِّمين من البطن، ولا أحد يشكّ بأنَّ كرڤيوڤ تخطَّى

بفنّه كلّ المبادىء والأسس التي تقوم عليها ـ البطنية وألعاب الخفّة وغيرها. لكن المسألة ليست في ورق اللعب، ولا في الرسائل المزوّرة في محفظة نيكانور إيڤانوڤتش.. وهذه قضايا جدّ سخيفة.. لكن أنكون قد نسينا ما فعله كرڤيوف... أليس هو الذي دفع برليوز إلى حتفه تحت عجلات الترام. ألم يسبِّب الجنون للشاعر المسكين إيڤان بزدومني، وجعله يرى في رؤاه المؤلمة أورشليم القديمة والجبل الأجرد وقد أحرقته الشمس بوهجها والثلاثة المصلوبين؟. أليس هو وعصابته المسؤولون عن اختفاء مارغريت نيقولايڤنا وخادمتها ناتاشا من مدينة موسكو. وما يجدر ذكره هو أنَّ لجنة التحقيق أولت هذه القضية اهتماماً خاصًّا. وتساءلت إذا ما كانت عصابة القتلى والمخرِّبين خطفت مارغريت وخادمتها، أم أنَّ الإمرأتين هربتا مع المجرمين طوعاً وبارادتيهما. واستندوا إلى أدلّة نيقولاي إيڤانوڤتش الواهية المتناقضة، دون أن ينسوا الأخذ بعين الاعتبار رسالة مارغريت نيقولايڤنا، تلك الرسالة الغريبة، التي تركتها لزوجها وأعلنت فيها أنَّها أصبحت ساحرة، وستترك كلّ شيء، وخاصّة ملابسها، في مكانها بعد أن اختفت ناتاشا.

وتوصَّل التحقيق إلى نتيجة وهي: أنَّ سيِّدة البيت وخادمتها نُوِّمتا تنويماً مغناطيسياً كالكثيرين والكثيرات غيرهما، وقد خطفهما أفراد العصابة منوَّمتين.

وبرزت فكرة، ربّما كانت صحيحة، وهي أنَّ جمال الإمرأتين أسر قلوب المجرمين.

ثمّة مسألة واحدة بقيت غامضة بالنسبة للمحقِّقين وهي: ما السبب الذي دفع العصابة إلى خطف إنسان مريض نفسيًّا يُطلق عليه اسم المعلِّم. ما هو سبب خطفه من مصحّ الأمراض النفسية؟. سؤال لم تستطع اللجنة الإجابة عنه، كما أنَّها لم تقدر أن تحصل على اسم عائلة المريض المخطوف. وهكذا توارى إلى الأبد باسمه المستعار: «رقم مئة وثمانية عشر من المبنى الأوّل».

وهكذا اتَّضح كلّ شيء. وانتهت التحقيقات كما تنتهي الأشياء جميعاً بشكل عام على الأرض.

ومضت السنون، ونسي الناس ڤولند وكرڤيوف وغيرهما، وحدثت تغييرات كثيرة في حياة أولئك الذين تعذَّبوا وتألَّموا بسبب ڤولند وأتباعه، ـ تغييرات بسيطة وليست بذات أهمية لكن ذكرها واجب. فجورج بنغالسكي مثلاً الذي أمضى في المستشفى ثلاثة أشهر وخرج بعد أن تماثل للشفاء: كان مجبراً على ترك وظيفته في الڤاريته. ففي الأوقات الحرجة، حينما كانت الأمواج البشرية تتدافع بالمناكب للحصول على البطاقات، كانت الذكريات عن مشهد السحر الأسود وفضحه تُبعث في ذاكرته حيّة وكأنَّها جديدة.

لقد ترك بنغالسكي مسرح الڤاريته لأنَّه بظهوره على الخشبة مساء كلّ يوم أمام ألفي شخص سينكشف، ولا بدّ سيُعرف وسيكون عرضة للتهكّم وللأسئلة المحرجة الاستهزائية،

مثل سؤال: ما الأفضل: مع أو دون رأس؟.. حالة تعسة وأيم الحقّ.. وترك الوظيفة أفضل.

وبالاضافة إلى ذلك فإنَّ عريف الحفلات قد فقد جزءاً كبيراً من مرحه، الذي تستحيل بدونه ممارسة مهنة كمهنته. عادة كريهة مؤلمة تملّكته.. فما أن يهلّ الربيع، ويكتمل القمر ويصبح بدراً، حتّى تسوء حالته ويُصاب بالقلق، فيمسك فجأة عنقه بيديه ويروح يتلفَّت من حوله ويبكي جزعاً.

هذه العوارض المرضية كانت عابرة، لكنَّها كانت تعيقه عن إنجاز عمله، فكان أن تقاعد طلباً للراحة، وبدأ يعيش من أموال ادَّخرها، تكفيه خمس عشرة سنة قياساً إلى مصاريفه المتواضعة.

وبعد تركه الوظيفة لم يعد يلتقي أبداً ڤارنوخا، وقد استطاع هذا الأخير أن يربِّي شعبية كبيرة ويكسب شهرة واستحقّ المحبّة على لطفه ودماثة خلقه وخدماته، وفاق بصفاته هذه جميع مدراء المسارح. وكان الساعون إلى دخول المسرح مجّاناً يسمُّونه: الأب الكريم. وعرف بهذا الاسم.

ومن يهتف إلى الڤاريته وفي أي وقت، لا بدّ أنَّه سيسمع في السمَّاعة صوتاً ناعماً لكنَّه حزين النبرات يقول: «أنا تحت طلبك».

وعلى رجائهم مناداة ڤارنوخا إلى الهاتف ـ كان ذلك الصوت ذاته يجيب وبسرعة: نحن في خدمتكم.

ومع هذا فإيڤان ساڤيلتش ڤارنوخا تعذَّب ولم ينج؛ ولطفه ومجاملته كانا السبب.

أما ستيپا ليخادييف فلم يعد يتسنَّى له التحدُّث بالهاتف مع الڤاريته، فبعد خروجه من مستشفى الأمراض النفسية، وقد أمضى فيه ثمانية أيام، أبعدوه إلى روستوڤ، حيث تسنَّم منصب مدير أحد أكبر مخازن المأكولات. وسرت شائعات عنه من أنَّه لم يعد يقرب خمرة (البورتو)، يشرب الڤودكا فقط، المستحضرة من براعم الكزبرة. ويُقال إنَّه أصبح صموتاً ويتجنّب النساء.

وبابتعاد ستيپان بغدانوڤتش عن الڤاريته، لم ينعم ريمسكي بالفرحة التي طالما اشتاق إليها وحلم بها عدّة سنوات. فبعد خروجه من المصحّ واستشفائه في مياه كيسلفودسك، كان قد تقدَّم بالسنّ وأصابته رجفة، فما كان منه إلاَّ أن قدَّم استقالته هو الآخر.

والطريف في الأمر أنَّ الزوجة هي التي حملت رسالة الاستقالة إلى مسرح الڤاريته، أمَّا غريغوري دانيلوڤتش فلم تسعفه الجرأة، وخاف أن يحضر في وضح النهار، إلى ذلك المبنى الذي رأى داخله زجاج النافذة المتصدِّع، وقد غمره ضوء القمر، واليد الطويلة التي امتدَّت إلى سقّاطة الباب السفلى.

بعد صرفه من مسرح الڤاريته، توظَّف المسؤول السابق في مسرح الدمى الواقع في الناحية الثانية من نهر (موسكڤا). وفي هذا المكان الجديد لم يعد ثمّة ضرورة لتحسين اللجنة السمعية وبالتالي الاصطدام مع المحترم أركادي أپولونفتش سيمپلايروڤ.

وهذا الأخير، بشطحة قلم، نُقل إلى برينسك، وعُيِّن مسؤولاً عن مركز تخزين وحفظ الفطر. والآن يأكل الموسكوبيون الفطر، على أنواعه، المملَّح والمخلَّل... يأكلون ويشكرون وفرحتهم لا توصف بنقل أركادي سيمپلايروڤ وتسنّمه تلك الوظيفة. والمسألة أصبحت في خبر كان... والقضايا السمعية لم تتحسَّن.. رغم كل المساعي التي بذلها، فإنَّها بقيت على حالها.

ومن بين الأشخاص الذين انقطعوا عن دخول المسرح، يتوجَّب علينا ذكر اسم نيكانور إيڤانوڤتش باسوي. مع أنَّه لم يكن يجذبه إلى دخول المسارح غير البطاقات المجانية، فالآن لا يذهب إلى هناك لا مجاناً ولا بمال، لا بل تتغيَّر ملامح وجهه حينما يتحدَّثون أمامه عن المسرح.. وعدا عن كرهه الشديد للمسرح، فإنَّه أصبح يكنّ كرهاً شديداً للشاعر پوشكين وللممثِّل الموهوب ساڤا پوتوپوڤتش كورلسوف.

عن كرهه للممثِّل العبقري، حدِّث ولا حرج، فما أن رأى في العام الماضي، إعلاناً في الجريدة، مطوَّقاً بالأسود، ينعي الممثِّل الذي قضى في زهرة شبابه وأوج عطائه، نقول ما أن قرأ خبر الموت حتى تضرَّج لون وجهه بالأحمر، وكاد يلحق بالفقيد، فقط، ليقول له: «لقد نلت جزاءك العادل»!..

وأكثر من ذلك: فمساء اليوم ذاته، وقد خلا نيكانور إيڤانوڤتش بالبدر الذي أضاء شارع السادوڤايا، وقد نبش موت الممثِّل الذكريات الأليمة في رأسه، ما كان منه إلاَّ أن شرب حتّى ثمِل تشفيًّا...

ومع كلّ رشفة من الكأس، كانت تمتدّ أمامه حلقة مشؤومة من صور بغيضة... رأى فيها دونتشيل سرغيه غيردوڤتش، والحسناء: إيدا غركولانوڤنا، وذلك الرجل الأشقر صاحب الأوزَّات المحاربات... والصريح الصادق نيقولاي كاتفكين..

وماذا حدث لهؤلاء جميعاً؟ عفوك ربِّي! لم ولن يحدث شيئاً! لأنَّهم أصلاً لم يكونوا حقيقيين، كانوا وهماً وخيالاً مثلهم مثل الفنَّان عريف الحفلات اللطيف، ومثل المسرح ومثل العمّة الشحيحة العجوز بروخڤنيكوڤا، التي تُعفِّن العملة الصعبة في القبو.

وبطبيعة الحال لم يعد ثمّة أبوق ذهبية ولا طهاة وقحين.

كلّ هذا كان وهماً رآه نيكانور إيڤانوڤتش في الحلم تحت تأثير الرجس الملعون كرڤيوف.

الوحيد من بين الأحياء الذي تراءى أو بالأحرى تورَّط في هذا الحلم كان الفنَّان ساڤا

پوتاپوڤتش، وذلك لأنَّه انطبع في ذاكرة نيكانور إيڤانوڤتش بفضل خطبه المتكرِّرة بالراديو. لقد كان الوحيد حقيقة، أمَّا الباقون فكانوا أوهاماً.

وهل يعني هذا أنَّ ألّوزي مغاريتش كان وهماً أيضاً؟ عفوكم!.. لا! إنَّه حقيقة، وما زال حيًّا يُرزق، يشغل المنصب الذي رفضه ريمسكي، منصب المسؤول المالي في الڤاريته. فبعد يوم واحد من زيارته لڤولند، عاد ألّوزي مغاريتش إلى رشده، وبينما هو في القطار قرب (ڤياتكا)، تأكّد له أنَّه حينما ترك موسكو مغموماً، نسي أن يرتدي بنطلونه، ولم يعرف لماذا سرق دفتر صاحب البناء، الذي لم يكن له أيّة حاجة به.

وبعد أن دفع ألّوزي مبالغ طائلة لمرافقه حصل منه على بنطلونين قديمين متَّسخين، ورجع من ڤياتكا. ولكن يا حزن قلبي عليه.. عاد ليجد بيته طعمة للنيران، التي أتت على الأمتعة الرثّة بأكملها. غير أنَّ ألّوزي كان همَّاماً، محنَّكاً، صلب العود. فبعد أسبوعين فقط انتقل إلى غرفة مريحة في زقاق (بريوسوفسكي)، وبعد عدّة أشهر صار يداوم في مكتب ريمسكي.

وكما حدث في الماضي، وكيف كان يتألَّم ريمسكي بسبب ستيپا، هكذا الآن، يتألَّم ڤارنوخا بسبب ألّوزي.

مسألة واحدة تشغل بال إيڤان ساڤليڤتش، وهي أنَّ يبعدوا هذا الألّوزي عن الڤاريته وينفوه إلى مكان آخر، ويتوارى عن العيان. وكان ڤارنوخا يهمس أحياناً بين المقرَّبين: لم أُصادف في حياتي وغداً زنيماً مثل هذا الألّوزي، لذلك لا أستغرب ما يصدر عنه من أعمال شنيعة وقبائح.

وقد يكون مدير المسرح منحازاً؟ من يعرف؟.. إذ أنَّه لم يرشح شيء عن ألّوزي، ولم يدّعِ أحد ضدّه بأنَّه أتى أعمالاً منكرة. لم يفعل شيئاً، غير أنَّه عيَّن عامل مقصف جديداً بدلاً من (سوكوف) الذي قضى بسرطان الكبد في العيادة الموسكوبية الأولى بعد مضيّ تسعة أشهر على ظهور ڤولند في العاصمة.

وتصرَّمت السنون... وحُفِظت الحوادث المؤرَّخة بصدق بين دفَّتي هذا الكتاب ونُسيت، لكن لم ينسها الجميع، أجل لم ينسها الجميع..

ففي مطلع كلّ عام، وما أن يهلّ البدر في الربيع، وفي المساء تحت أشجار الزيزفون، عند بُرك (البطريركية)، يُشاهد رجل في العقد الثالث من عمره، أشقر الشعر، أخضر لون العينين، متواضع في لباسه. إنَّه العامل البحَّاثة في معهد التاريخ والفلسفة البروفسور إيڤان نيقولايڤتش پونيرف.

ما أن يصل العالم إلى تحت شجرات الزيزفون حتَّى يجلس على ذلك المقعد ذاته، الذي جلس عليه ذات مساء، منذ زمن بعيد، حينما رأى برليوز القمر ممزَّقاً مقطَّعا... برليوز

الذي أصبح نسيًّا منسيًّا... وقد طواه الردى..

والقمر الآن بدراً مكتملاً، وكان في غرّة المساء أبيض، ومن ثمّ أصبح ذهبيّ اللون شبيهاً بتنين أسود وهو يمخر عباب السماء فوق رأس الشاعر السابق إيڤان.. نعم يمخر البدر السماء وتحسبه جامداً في عليائه لا يريم.

وإيڤان نيقولايڤتش يعرف ويفهم... لم يغب عن باله بعد، أنّه وقع في شبابه ضحية منوّمين مجرمين، وأنّه عُولج بعد ذلك وشفي. وكان في قرارة نفسه يعلم أنّ ثمّة ألغازاً حيّرته وكان عاجزاً عن حلّها.. ومن بينها لغز القمر في الربيع ساعة اكتماله بدراً.. أجل!.. ما أن يبدأ سراج الليل يكتمل ويطفح بالذهب. ذلك السراج الذي بدا ذات مرّة معلّقاً فوق نجمتين مشعّتين عملاقتين.. ما أن يحدث ذلك حتّى يضطّرب الشاعر ويزداد عصبية، ويفقد شهيّته إلى الطعام والنوم... وينتظر.

وحينما يكتمل البدر فما من قوّة تقدر على إبقاء إيڤان نيقولايڤتش في بيته. لا بدّ له من الخروج عند المساء والذهاب إلى برك (البطريركية). ويبدأ الشاعر بالتحدُّث مع نفسه علناً وهو جالس على المقعد، ويُدخِّن ويزرّ عينه ويتأمّل القمر حيناً، وحيناً آخر الحاجز الذي لا يُنسى.

وكان إيڤان يمضي ساعة أو ساعتين، على تلك الحالة، وبعد ذلك ينهض، ويسلك الطريق نفسها التي سلكها ذات يوم، يعبر (سبيردينوفكا)، وبعينين لا مباليتين خاليتين، كان يمشي في أزقّة (الأربات). وكان يمرّ من أمام دكّان الكاز ويلتفت إلى حيث عُلّق مصباح غاز قديم، مائل إلى جانب واحد، ويتسلّل نحو سياج، تشاهد وراءه حديقة كثيفة الأشجار، لكنّها ما تزال جرداء، انفرد بوسطها بيت كبير مبنيّ على الطراز الغوطي، أنار القمر منه الجانب الذي يطلّ منه مصباح من نافذة مثلّثة الدرفات. وبقي الجانب الآخر قاتماً.

لا يعرف البروفسور ما الذي يجذبه إلى السياج ويحبّبه به، ولا يعرف من الذي يسكن البيت، لكنّه يعلم تماماً أنّه لا يقدر أن يتغلّب على نفسه ولا يستطيع مقاومتها وقت اكتمال البدر.

ويعلم أيضاً أنّه يرى في الحديقة وراء السياج مناظر لا تتغيّر... يرى كهلاً جالساً على مقعد وآخر متين البنية ملتحياً، يضع نظّارات وملامحه تُذكّر قليلاً بخطم الخنوص.

ودائماً يباغت إيڤان نيقولايڤتش قاطن هذا البيت وهو يحلم ويحدّق في القمر.

ويعلم إيڤان نيقولايڤتش حقّ العلم أنّ الجالس الناظر ببهجة إلى القمر، عمّا قريب ويحوّل نظره عنه، ليثبّته على النافذة حيث المصباح، وكأنّه ينتظر أن تُفتح تلك النافذة، ويبدو على إفريزها شيء ما خارق للعادة.

وكلّ ما سيتلو ذلك يعرفه إيڤان مسبقاً عن ظهر قلب، فهنا ينبغي بذل المزيد من الحيطة في المكمن وراء السياج، فعمّا قليل ويبدأ الجالس بتحريك رأسه قلقاً، وبعينين زائغتي النظرات يحاول أن يلتقط شيئاً لا يراه في الهواء. ولا يلبث أن يبتسم لاهفاً، ويصفّق بيديه فجأة، وتمتلكه كآبة، ويغمغم بصوت مرتفع وببساطة:

ـ ڤينوس! يا ڤينوس! وواهاً كم إنّني أحمق!..

ويهمس إيڤان نيقولايڤتش وهو متوارٍ في مكمنه، ودون أن يحوّل عينيه الساطعتين عن الرجل المجهول:

ـ إيه أيتها الآلهة. أيتها الآلهة. هاكي ضحيّة أخرى من ضحايا القمر. ضحية ثانية مثلي.

ويكمل الجالس حديثه:

ـ آه كم أنا أحمق. لماذا لم أطر معها. ما الذي أخافني أنا الحمار العجوز أبعدتني عنها ورقة؟! تزوّد بالصبر أيها المعتوه الكبير!

ويتشعّب الحديث وتدوم هذه الحالة حتى تُسمع نقرات على نافذة البيت، ويبدو شيء ما أبيض، ويدوّي صوت أنثى كريه:

ـ أين أنت يا نيقولاي إيڤانوڤتش؟ ما هذه التخيلات؟ أم أنّك تودُّ التقاط ميكروب الملاريا؟ تعال اشرب الشاي!.

ويصحو الجالس من سدوره، ويجيب بصوت كاذب النبرات:

ـ أردت تنشّق الهواء العليل يا حبيبتي! لقد أمسى الهواء نقيًّا!

يقول هذا وينهض من فوق مقعده، ويهدّد خلسة بقبضة يده، النافذة التي ستغلق، ويدخل إلى بيته بخطى ثقيلة!

ويغمغم إيڤان نيقولايڤتش وهو يبتعد عن السياج:

ـ إنّه يكذب، وأيم الحق، إنّه يكذب، ليس الهواء ما يجذبه إلى الحديقة، إنّه يرى شيئاً ما في البدر، في السماء، في الحديقة، لو يتاح لي أن أكشف سرّه لبذلت الغالي والرخيص في سبيل ذلك. آه ليتني أعرف أيّة فينوس أضاع؟! وتراه يبسط يديه الآن في الهواء ليجدها؟

ويعود البروفسور إلى البيت عليلاً. وتتصنّع زوجته، وتتخذ هيئة اللامبالية، التي لا تعرف ما به وهي العارفة.. فتستعجله أن ينام. أمّا هي فتبقى ساهرة، تجلس قرب المصباح وتقرأ كتاباً، وتتأمّل بعينين كئيبتين زوجها النائم. إنّها تعرف أنّه سيستيقظ ويشرع بالصراخ والبكاء والعذاب والتقلّب فوق الفراش. من أجل ذلك وضعت أمامها على الطاولة، في ضوء المصباح، حقنة مهيّأة سلفاً في السبيرتو، وأنبوباً يحتوي على سائل كثيف بلون الشاي.

وبعد أن يُحقن بالإبرة، ترتاح الزوجة المسكينة التي ربطت حياتها بحياة هذا المريض

المدنف، فبمكنتها الآن أن تغفو بسلام واطمئنان. فإيڤان نيقولايڤتش سيغفو بهناء حتّى الصباح، وملامح السعادة على وجهه، وسيرى أحلاماً سعيدة علوية لن يكون بمقدور الزوجة أن تفهمها.

ما يوقظ التلميذ من غفوته ويوصله إلى حالته تلك ـ حالة اليأس والبؤس ـ هو ما يراه في المنام: يرى جلاَّداً مجدوع الأنف طويل القامة، يراه يغرز رمحه في قلب (غستاس) المقيَّد بالعمود، الغائب عن الوعي. لكنَّه لا يخاف من الجلاَّد بقدر ما يخاف من تلك الإضاءة الباهتة، التي سبَّبتها سحابة تمخر السماء، وتجثم فوق الأرض، كما يحدث في أزمنة الكوارث فقط.

وبعد حقن النائم بالإبرة يتغيَّر كلّ شيء أمامه.

طريق عريض تمتد من سريره، عبر النافذة، حتّى القمر، ويسلكها ميمّاً القمر إنسان في رداء أبيض، بطانته حمراء، وبجانبه يمشي شاب في أسمال ممزَّقة، مدمّى، مشوَّه الوجه..

يتحادث رفيقا الطريق بحماس، يتجادلان، يودّان الاتِّفاق على بعض المسائل.

وكان يُرى ويُسمع ذو الرداء الأبيض وهو يخاطب رفيقه، وسمات الغطرسة بادية على وجهه:

ـ آلهتي! عفوكِ آلهتي... يا للحكم التعس. من فضلك قل لي ـ وهنا تتحوّل سمات المتكلّم المتغطرسة إلى سمات مستعطفة ويكمل:

ـ لم يصدر حكم الإعدام التعس، أليس كذلك؟. لم يصدر؟.

ويجيب ذاك بصوت أبحّ:

ـ طبعاً لم يصدر ذلك الحكم. هُيِّء لك ذلك فقط.

ويعود ذو الرداء ليسأل بإلحاح مستعطفاً:

ـ وهل تقسم بأنَّه لم يصدر.

ويجيب رفيق الطريق، وعيناه تبتسمان لأمرٍ ما:

ـ أقسم لك بأنَّه لم يصدر.

ـ كفى! كفى! هذا ما أودُّ سماعه.

بهذا يهتف ذو الرداء بصوته المتقطِّع النبرات، ويتابع صعوده نحو القمر، جاذباً رفيقه. ويمشي وراءهما بهدوء وخيلاء كلب، منتصب الأذنين، ضخم الجثّة.

وتغلي الطريق القمرية وتفور، ويتدفَّق نهر من القمر، وينساب في كلّ الاتجاهات، ويلعب القمر، ويرقص ويعبث ويهيمن، وتتكوَّن في السيل إمرأة لا مثيل لجمالها، تدنو من إيڤان وهي تمسك بيد رجل ملتحٍ، يتلفَّت خائفاً.

وحالاً يعرف إيڤان زائره. إنَّه هو.. الرقم مئة وثمانية عشر. ضيفه القديم، جاره الليلي،

ويمدّ إيڤان، في الحلم، يده نحو الضيف ويسأله بلهفة:

ـ إذن هكذا انتهت الرواية؟

ويجيب الرقم مئة وثمانية عشر:

ـ بهذا انتهت يا تلميذي.

وتقترب المرأة من إيڤان وتقول له:

ـ طبعاً بهذا انتهت. وكلّ شيء زائل لا محالة. أقبّلك في جبهتك.. وكلّ أمورك ستصبح على ما يرام.

وتنحني المرأة على إيڤان، وتقبّله في جبينه.

ويقترب إيڤان منها لينظر في عينيها، لكنَّها سرعان ما تبتعد مع رفيقها، ووجهتها القمر.

ويبدأ القمر، حينذاك، يتضرّم ويحتدم، ويصبّ سيولاً من أنواره على إيڤان مباشرة، ويرشّ النور في شتّى الأنحاء. ويغمر الغرفة طوفان من الضوء، وتتأرجح حباحبه وتصعد إلى أعلى، وتُغرق السرير.

وعلى أثر ذلك يستسلم إيڤان للأحلام السعيدة، التاركة آثارها على وجهه.

وفي الصباح يستيقظ صامتاً، معافى وهادئاً. والذاكرة المتعبة سالية. وحتَّى طلوع البدر القادم، لن يجرؤ أحد على ازعاج البروفسور، لا ذاك الجلاَّد المجدوع الأنف، قاتل (غستاس)، ولا والي اليهودية الخامس، الفارس القاسي بيلاطس البنطي.

الفهرس